

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01332 2114

فهرست





(محيي مصر وبطلها وجنديها)

مصر فى القرن التاسع عشر

سيرة جامعة

لحوادث ساكنى الجنان

محمد على باشا وابراهيم باشا

والمغفور له سليمان باشا الفرنسى

من الوجوه

الحربية والسياسية والقصصية

تأليف

ادوار جوان

تعريب

محمد مسعود

المحرر الفنى بوزارة الداخليـة

الطبعـــة الاولى

بالقـــاهرة

فى سنة ١٣٤٠ الموافقة لسنة ١٩٢١

اشار بتعريبه وطبعه

حضرة صاحب السمو الأمير

يوسف كمال

تمهيد

قامت مصر في العهد الحاضر بكثير من جلائل الأعمال . فبعد أن كانت بالأمس رثة الأسباب منحلة العرى قد استحوذ عليها الجهل فصرفها عن الرشد وأعطت قيادها المماليك وهم أولئك الأشرار الدعار الذين عثوا فى الارض مفسدين فاستذلوها واستصفوها أصبحت اليوم بما أبدته من آيات البطولة والبأس فى القتال عزيزة المنال على من يرومها بمطمع تساجل الدول العظمى فى ميدان المناظرات السياسية فيحسب لها حساب وتلقى سيفها فى كفة ميزان الحوادث فيكون لها الرجحان

صعدت من أعلام العلم والحضارة الى ذراها فأفاضت على أمم الأرض من نورهما الساطع ثم لم تلبث أن انحدرت من منزلتها الرفيعة الى هوّة اكتنفتها فيها ظلمات من الجهل طبقات كثيفة بعضها فوق بعض ، ولكن ها هى والحمد لله قد خرجت من الظلمات الى النور وعادت فاستقرت من المجد والعزة في مرتبة امتدّت نحوها فيها الاعناق وتخطت اليها الآمال من أقصى الآفاق

كانت فرنسا أول الأمم التى رمقت مصر فى تطورها الجديد بعين الأعجاب فهرعت اليها مندفعة بباعث الميل النفسى لتخطب ودها وتصافحها بملء يدها

ورأى محمد على رأس الأسرة المحمدية العلوية ماطمّ فيها من الفساد والشرّ فتقلد الأمر ليميطهما عن الأهلين وتصدى لقمع الفوضى واصلاح الخلل فحسم بعزمته وحكمته هذه الأدواء حتى استقام المائل وارتتق الفتق . وشدّ أزره فى هذا العمل الصالح اثنان: ابراهيم ابنه وابن آخر بالروح هو الضابط الفرنسى سيف الذى عرف بعد باسم سليمان الفرنسى وعشرون من ابناء جلدته الفرنسيين تعاهدوا على إبلاغ مصر الى المكانة التى تبوأتها عن جدارة واستحقاق

أولئك الثلاثة الرجال العظام الساهرين على مصالح مصر لاتعرف عيونهم الأغفاء المتعهدين لها بما ينميها ويقوى أساطينها ويشد مفاصلها جاء الى بلادنا منهم اثنان منذ أشهر قليلة فتهيأت لنا فرصة من أجلّ الفرص وأشرفها لنرى بمرأى منا ابراهيم باشا ذلك البطل الحمىّ الأنف الأبىّ الضيم الذى أطلق الناس عليه تنويها بذكره وشدواً بقدره اسم السيف الحى . وذكروا فيما أطروا من صفاته العالية أنه كان اثناء الحروب يرقد كعساكره على الثرى

رغم البرد القارس والامطار الغزيرة وكان اذا ما أزفت ساعة القتال انساب بين صفوف الجنود صائحاً فيهم بصوته الجهورىّ مستفزا إياهم الى خوض المعامع : « ياولدعفارم » ثم لا يلبث بعد إلقائه فى صدر كل جندى جذوة من نار حماسه وبسالته أن يسارع الى الطليعة مندفعاً نحو العدو وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة من الاستخفاف به لو ارتسم مثلها على شفاه أجدادنا « الغولوا » لخشى الموت بأسهم ولدانت لهم الأرض من أقصائها الى أقصائها

ورأينا سليمان رفيق إبراهيم وصديقه الحميم عن كثب تحت قبة قصر الأنفليد وقد جثا على ركبتيه فى المصلى حينما مرت بخاطره ذكرى استاذه الامبراطورى (نابوليون) وترقرقت عبراته بتأثير هذه الذكرى التى صورت له آيات بسالته ومعجزات بطولتـه

ولو أن محمداً علياً جاء الى فرنسا لزيارتها كما فعل ولىّ عهده ابراهيم وقائد جنده سليمان لصافحها مصافحة الصديق صديقه وللقى من الأمة الفرنسية جماء ما لقيه ذانك الزائران الكريمان من أجلّ مظاهر الحفاوة والتكريم لا سيما وأن ابناءَ وطننا من الفرنسيين المقيمين بضفاف النيل قـد اجتمعت كلمتهم على مدح عواطفـه الرحيمة والشدو بذكر مآثره التى كان من حسن

أثرها فى الجاليات الافرنجية ببلاده إعفاء أفرادها من الضرائب وتشييد مستشفى خاص بالمرضى منهم لوقايتهم من فتك الطواعين والأوبئة

وكان مما حدا بفرنسا الى التشوف لتوكيد الرابطة بينها وبين محمد على اعتقادها ان هذا الرجل العظيم من العصاميين وأنه لم يتسنم ذروة المجد والشوكة إلا بفضل ذكائه وهمته . وكان حتى الخامسة والاربعين من عمره أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولكن جهله بهما لم يحل دون علمه علماً مبنياً على التجربة والاختبار والحصافة والحجى بأساليب إحياء البلاد وتجديد الأمم والسير بها الى ما كانت عليه فى الأعصر الخالية من أبعد غايات التقدم والارتقاء فى الحضارة والعرفان

وكان بدهياً أن يفضى هذا التجديد الى تضحية الكثير من المال والسير بالضغط والاكراه فى سبيل تحصيله . فلا عجب إذا أساءت النهضة المصرية فى إبانها الى كثيرين من المصريين إذ من العادة أن يورث النوم الطويل الضجر والملال . وهكذا كان شأنهم فى مصر على أثر ما بذله محمد على من الهمة فى استفزازهم من سباتهم بانهاض بلادهم من الكبوة التى قضت فيها الأحقاب الطوال

يقولون إن مجدد مصر ومحي مجدها العريق لم يكن إلا مغامراً كان التوفيق قرينه فى مغامرته . ولسنا نرى فى نعته بهذا النعت ما يعد سبة أو إهانة بعد أن وصف البطل القورسقى (نابوليون) بهذا الوصف وبعد أن لم يختلف اثنان فى أن الاسد سيد الفلوات وبطل الغابات فى مقدمة المغامرين . فليقل القائلون فى محمد على ماشاءوا أن يقولوا وليصفوه بما يطيب لانفسهم ان يصفوه فليست اقوالهم ولا اوصافهم بمانعة من ان يكون هذا الرجل من الأبطال الذين لم ينجب الشرق مثلهم منذ عهد طويل

والمرجوّ أن يكون لفرنسا فى مصر القسط الأوفي من الاصلاحات التى يرى مجدد هذا القطر أن لا مندوحة عنها لأنهاضه من كبوته فأن فرنسا هى التى أعارت مصر خلاصة الأنجاب من علمائها وضباطها وصناعها وأطبائها ومهندسيها ليأخذوا بيدها فيما اعتزمت أن تقطعه من أشواط ذلك السبيل . وعهدت مصر بادارة شؤون الكثير من مصالحها كالجيش والدونننمة ودور الصناعة والصحة العامة الى الاخصائيين من الفرنسيين وانشأت المدارس فى أمهات مدائن القطر لتعليم العلوم والفنون ودرس آداب اللغة الفرنسية ضمن ما يلقى بها من الدروس . وها نحن أولاء نهذب فى عاصمة بلادنا كما نهذب ابناءنا على حد سواء

لفيفاً من الشبان الذين عهدت مصر الينا بتربيتهم على أقوم المبادىء الخلقية وأصلح القواعد العلمية . وجملة القول فقد أرسلت فرنسا الى ضفاف النيل أشعة ساطعة من نور عرفانها وتم للشرق والغرب بذلك ما كانا يرنوان اليه من التصافح والتصالح منذ عهد بعيد

ولى أن أقيم فى هذا المقام الدليل على أن تاريخ « مصر في القرن التاسع عشر » لمن أجلّ الآثار الوطنية الفرنسية لأننا بايرادنا فيه أبدع سيرة من سير هذا العصر إنما نلخص ترجمة حياة ابنتنا المتبناة

مصر القديمة

حج الى مصر قبيل الأولمبياد[١] الخامس والتسعين قاصد من قصاد العلم فجاب أطرافها باحثاً عن دخائل الحكمة الألهية مستفتحا مغالق أسرارها وكانت هذه الدخائل والاسرار فيها أدنى للطالب ملتمساً منها في أى بلد آخر ولو لم يخض لها غمرةً ولم يتجشم فى سبيلها مشقة . ذلك لأن الحكمة الالهية كانت فى مصر من أبواب العلوم التى لم تفقد يد النسيان مفاتيحها

نزل ذلك القاصد الى قاع بئر حالكة الظلام مفضية الى نفق فوجد أمامه باباً من نحاس صلب لم يلبث بعد أن دفعه بكلتا يديه أن انفتح بصرير أصمّ . وكان بيده مصباح فانطلق في النفق حتى إذا بلغ الى باب ثان رأى من خلال أجزائه أن من خلفه رواقا تضيئه مصابيح عدة قرأ على شعاعها جملة نقشت بأعلى حنياته وهى :

---

(١) عند قدماء اليونان حقبة من الزمن تعدل اربع سنوات وتفصل بين حفلتين متتابعتين من حفلات الالعاب الاولمبيه والاولمبياد الاول تطابق السنة الاولي منه سنة ٧٧٦ قبل الميلاد والاولمبياد الاخير تطابق سنواته سنى ٣٩٢—٣٩٦ بعد الميلاد

« كل ابن أنثى اذا سار غير هياب ولا وجل فى هذا المعهد المقدس فاضت عليه الأنوار وطهره الهواء والماء ووقف على دفائن الاسرار الصوفية للألهة إيزيس »

وسمع المريد صوتا من عليين يسأله هل تجرد قلبه من أثر الجرأة والأقدام فأجاب من فوره « كلاّ » فاستأنف فى الآن نفسه السير فى طريقه من غير أن تعروه رجفة الخوف أو يغشى عزيمته خور . وظل مسترسلاً فى طريقه حتى اذا بلغ الى باب من الحديد اعترضه ثلاثة رجال مدججين بالاسلحة وكانت على رؤوسهم خوذات صلب تمثل رأس الكلب فقالوا له : « لك أن تنقلب على عقبيك ولكنك اذا أصررت على عزمك ثم تراجعت قليلا أو التفتّ يمنة أو يسرة فلا تلومن الاّ نفسك »

فأجاب المريد : « كلاّ بل لا محيص لى عن مواصلة السير الى الامام »

وكان أمامه نار تلظى سعيرها لا يقدر على النجاة منها الاّ من اجتازها مرّا كمرّ الطيف على صراط ضيق ممدود فوقها . وكان يلى النار مسيل ماء له هدير شديد لا تقوى الآذان على سماعه ومن وراء المسيل ضفة دون البلوغ اليها هول السباحة فيه وخطرها العظيم . تغلب المريد بمضاء عزيمته على العقبتين وحل

الصعوبتين ولكن كانت لا تزال هناك عقبة ثالثة هى أم العقبات كلها فى شدّة المراسة وكؤود المطلب

ذلك أن المريد وجد أمامه بضع درج تؤدى الى باب عاج منير اذا انفتح تطاير شرر ساطع من عقبيه فلما بلغ منه الى العتبة تحرك كما لو كانت حركته منبعثة من زلزال شديد ورأى رأى العين عجلتين عظيمتين من النحاس الصلب تدوران فتجذبان بسرعة عنيفة سلاسل حديد غلاظا يسمع لاحتكاكها بها صلصلة هائلة اذا بلغت الى السمع أصمّته . تجاه فداحة هـذا الأمر وهول منظره سقط المصباح من يد المريد فصار من الليل في حندس داج وظلام مدلهم . لم يروّعه هول هذا المنظر ولم ينزل به منه بل ظل ساكن الروع ثابت الجأش آمن الجناب ولبث متريثا . . . فماذا حدث؟

حدث أن ما انتابه من الاهتزاز بادئ ذى بدء أعقبه السكون تجاه ما أبداه من جلد وقوة جنان

لهذا ما عتم أن رأى الباب الذى كان الى تلك الساعة محجوبا عن الأنظار وقد انفتح وتمهدت به السبيل الى بهو جليل تضئ أرجاءه مئات المصابيح وشهد بصدر هذا البهو ستين كاهنا جلوسا وقد أفرغوا على أبدانهم أردية من الكتان وطوقوا أعناقهم

بعقود تتباين أشكالها وتتفاوت قيمها بحسب ما يفرقهم من الرتب والدرجات فى النظام الكهنوتى . تقدم المريد نحو كبير هؤلاء الكهان ووقف حذوته فأفرغ عليه هـذا رداء أبيض من ذلك الصنف وعرض عليه إناء ممتلئا ماء وقال له :

« هاك شراب ليثوس(١) فاشربه لتنسى الحكم الدنيوية والأحكام السفلية »

بعد ان تجرع المريد هذا الشراب قضى أربعا وعشرين ساعة فى راحة كان حقيقا به أن ينالها تأهبا لما كان مقبلا عليه من لزوم الخلوة ثمانين يوما تزاح له الستار في خلالها وأثناء الأشهر الستة التالية عن أسرار الحكمة الألهية بما تكنه من إثبات وجود الخالق وتتناوله من سرد أسمائه الحسنى وشرح صفاته وما يقترن بها من عظمته تعالى وتقدسه عن سمة الحدوث والزوال وتلألؤ قدرته على صفحات الموجودات وتهلل آثار ملكوته على وجنات الكائنات . استطلع المريد مكنون هذه الأسرار واضاف اليها الرسوخ فى علم الآداب والأخلاق وفى الفلسفة الدينية فلما جاء دور التجربة والاختبار وجهت اليه الاسئلة فأجاب عليها بما لم

---

(١) نهر من أنهار جهنم كان القدماء يعتقدون أن من شرب ماءه نسى كل ما وقع فى ماضي حياته

يسبق لغيره أن يجاوب على مثلها من التبحر وسعة الاطلاع ثم أخذ الى الأماكن المقدسة حيث حلف باليمين الغموس الآ يطلع أحداً من عامة القوم على ما شهد أو سمع

وما انتهت هذه الطقوس السرية حتى آلى المريد على نفسه الألية أن يقضي فى عين شمس ثلاثة أولمبيادات تباعاً أنكب في أثنائها على الدرس باحثاً محققاً وابيضّ فى خلالها فوداه مستقصياً مذاهب هرمس فى الفلسفة مصغياً كل الاصغاء الى ما كان يلقيه الكاتب سخنوفيس عليه فى ليالى تلك الاثنتى عشرة سنة التى لم تكتحل عيناه فيها بنوم حتى اذا قضاها مجداً في تحصيل العلوم لم يتمالك أن صاح بملء شدقيه : « أسولون ! أسولون !(١) إنكم معاشر الاغريق ما زلتم عيالاً لاتفهمون من الحكمة شيئاً »

وكان مريدنا المتحمس فى اطراء المصريين لرسوخ قدمهم فى العلم قد أمضى عشر سنوات من تلك الحقبة مصاحباً لسقراط فى مدارسة العلوم كما صاحب أيضاً كراتيلس صاحب هرقليطس وهرموجينس صاحب برمنيدس وحج قبل ذلك الى ميجار من مدائن اليونان الزاهرة بالعلم في العصور القديمة للأحاطة بفن

---

(١) سولون هو أحد فحول حكماء اليونان السبعة ومشرع اثينه اذ سن لها القوانين الديمقراطية (ولد سنة ٦٤٠ وتوفى سنة ٥٥٨ قبل الميلاد)

المنطق على طريقة إقليدس وأقام بسيرين (١) زمناً ليتلقى بهـا تعاليم طيودوزس الرياضى وقصد الى ايطاليـا لسماع محاضرات اثقراطس وأكريون وتيميه وأوريتاس وأرخيتاس ودنيلولاؤس الهرقلى ولم يكن بعد ذلك قد شبع من العلم فطاف بالاساليب الفلسفية على اختلاف منازعها وتباين مذاهبها فلم تسد نهمته ولم يطفأ أوار عطشه الا فى مصر حيث وجد حاجته كلها فى متناول اليد فأخذ منها ما شاء وترك ما شاء

ذلك المريد المجد فى تحصيل العلم والمادح لفضائل مصر هو الذى وصف فيما بعـد بالألهى اذ اتخذ ابناً لابوللون اله العـلوم والفنون والشعر عند اليونان وهو الواضع أساس الفلسفة المعزوة اليه والمعروفة باسمه ويقول العارفون انها تنزل من صنوف الفلسفة منزلة الألياذة من صنوف الشعر ويزعم غـيرهم أنه شوهد فى شكل طائر صاعداً الى قمم جبل أولمب (٢) وأن نحل جبل هيمت كانوا يذيقونه عسلهم وهو في المهد صبياً كلما صاح أو بكى

ذلك هو أفلاطون الذى اشتق اسمـه من كلمة بلاتوس التى

---

(١) سيرين كانت قاعدة بلاد برقة الواقعة غربى مصر وكانت تابعة في ذلك العهد لليونان كمستعمرة لها

(٢) أولمب جبل من جبال اليونان بين تساليا ومقدونيا كان قدماء الاغريق يعتقدون انه مسكن الالهة ومقرهم

معناها باليونانيـة « العريض » لعرض شديد فى جبهته يدل على سعة فى العقل وبسطة فى الذكاء والفهم

***

كانت مصر منبعث أشعـة الحضارة الاولى ومهد العلوم والفنون ومهبط العبادات والطقوس الدينية ومركزا تلاقت فيه أشتات الافكار المفيدة والخواطر النافعة . وكانت لهذه الاسباب ولموقعها من الدنيا القديمة فى بهرته ميدانا تجلت للانظار فيه أجل حوادث التاريخ وأشد عظاته وقعاً فى النفوس

برزت مصر من وراء ستار العدم الى مجالى الوجود واستقلت بكيانها الخاص قبل عهد ابراهيم (عليه السلام) بزمان طويل فرأت عظمة صور وقرطاجنة تبزغ شمسها ثم تجنح الى الغروب وكانت هى كنبراس تتشعع من حواليه أضواء العلوم والفنون بينما كانت رومية وأتيكا وإسبرطة لم تنفض عنها بعد غبار الخمول ولم تخرج من الظلمات الى النور وكان لها السبق والفوق فى كل شىء حتى أن أحدث آثارها وأقربهـا منا عهداً يرجع فى الوجود الى ما قبل حروب تروادة [1] ويحق لهـا أن تفتخر بأنها أول من

(١) تروادة أو تروای مدينة قديمة فى آسيا الصغرى اشتهرت بمقاومتها حصار قدماء اليونان لها عشرة اعوام وقد خلد سيرة هذا الحصار الشاعر هوميرس بقصيدته الالياذة المعروفة وموقع تروادة القديمة هو الآن بلدة حصارلك القريبة من ازمير

رسم طريق الحضارة للجنس البشرى واختط له الخطط وأنها أول من بث نفوذه فى أرجاء الارض وسحيق أطرافها حيث اتخذت لنفسها منها فى كل منطقة المستعمرات للجالية من ابنائها

مصر أول بلد من بلاد الارض جرت فى طرقاتها وعلى شطوطها المركبات تحمل الابطال الظافرين مثل : سيزوستريس ونابوخذ نصر وقمبيز وداريوس واكزرسيس وبطليموس والاسكندر الأكبر وقيصر وتيمور لنك وصلاح الدين وبونابرته . وهى أيضاً القطر الذى شهد فطاحل العلماء يجوسون خلال دياره ويجوبون فيافيه وأوعاره ومنهم : هوميرس وأرشميدس وأرسطاطليس وأرفيه التراقى ومينوس الكريدى وداناؤوس الليبى وطاليس وميلمبوس وفيثاغورس وهيرودتس وديودورس الصقلى وسولون وأفلاطون وليكورغة اللقدمونى وديموقريطس واودكسوس واينوپيدس وفولنى ودوليل وشمبوليون فيجاك وتيلور واسكندر دوماس وشاتوبريان ولامرتين

حفت بواعث الثروة والنعيم بمصر من كل النواحى فهى غنية بموقعها الفريد بين أفريقية وآسيا والبحر الاحمر والبحر المتوسط غنية بجودة تربتها التى تنبت العسجد والنضار غنية بهمة شعبها ودأبه على الجد والنشاط في العمل . ولكنها لهذه الاسباب

بذاتها كانت هدفاً للمطامع من عظماء الرجال الذين حاولوا جميعاً اتخاذها أساساً لعملهم الذى كانوا يسمون به الى انشاء الممالك الواسعة والدول العظيمة فيوليوس وبومبيوس وانطوان وأوكتاف اتخذها كل منهم مقراً للحكم يقضى فيه على النوع البشرى بما هو قاض وحامت حول كل من إينوسان الثالث (البابا من سنة ١١٩٨ الى سنة ١٢١٦) وإكزمنس (كردينال اسبانيا الذى عمل على طرد العرب منها ولد سنة ١٤٣٦ وتوفى سنة ١٥١٧) وفرديناند الكاثوليكى (ملك اسبانيا الذى على عهده أخرج العرب منها) وهنرى السابع ولويس الرابع عشر من ملوك فرنسا أمنية الذهاب اليها بخيلهم ورجلهم لفتحها والاستيلاء عليها . وفيها اختط اسكندر الاكبر المدينة العظمى التى أسندت الى اسمه وكانت عاصمة التجارة ولا تزال حتى اليوم فى القطر المصرى

وخص أهل إيطاليا السفن الآتية من هذا الثغر بميزة أصبحت حقاً لها دون سواها من سفائن العالم أجمع وهى ميزة دخولها فى ثغرهم ناشرة شراعها الاصغر بطرف ساريتها وكان المتبع أن سفن البلاد الاخرى يفرض عليها طي هذا الشراع بمجرد دنوها من كابريه (جزيرة فى خليج نابولى قضى فيها طيبريوس الامبراطور الرومانى أيامه الاخيرة) وكان الاهلون فى أقليم

كمبانيا بايطاليا الجنوبيـة كلما وردت السفن المصرية مشحونة بالبردى واللوتس وأنواع الصمغ والأدهان العطرية المصلحـة للأبدان والعسل الكثيف المزاج العطرى الرائحة وملح النوشادر الذى كانوا يعثرون عليه بواحـة آمون والنتر الذى كان يستعان به على معالجة العقم فى النساء والمصنوعات الزجاجية ذات الالوان المختلفة والآنيـة الصلصالية المدهونة بالأصباغ الفضية اللـون والأنبـذه اللذيذة التى كانت كليوباترة مغرمة بتعاطيها أقاموا الحفلات والأعياد سروراً بمقدمها

وكان إذا أصاب القوم مجاعة بفلسطين فى السنوات المجدبة عولوا على مصر فى الخلاص من ضنك العيش . وانما على خيرات مصرائم كان يعتمد بنو اسرائيل في التماس العيش والنجاة من نتائج الأمحال . ولقد ثارت على كل من موسى وهارون ثائرتهم وهم يجتازون الصحراء وأخذوا يقولون: « من ذا الذى يشبع بطوننا الآن؟ لقد كنا فى مصر نأكل القثاء والشمام والـكرات وكنا نجلس بالقرب من قدورنا مملوءة لحماً والخبز من حولنا يفيض عن حاجاتنا »

وهذا هانيبال القائد الافريقى المعروف بانتصاره على الرومان واستيلائه على بلادهم ما حصد آخر سنبلة من مزارع اقليم لاطيون

بوسط ايطاليا حتى تجدد عنده أمل وقد انقطعت عنه الامدادات من بلاده في الاعتماد على مصر للاستمداد بالخيرات الموفورة فى خزائنها فانه ما نشب أن أنفذ برسله اليها ليأتوه بما كان ينقصه من المؤنة والميرة. أولا تزال مصر حتى اليوم ينبوع الرزق ومستودع الخير لبلاد الترك والعرب والشام وجميع أنحاء أسيا الصغرى ؟

ألم تنفق مصر من خيراتها العقلية عن سعة كما أنفقت من خيراتها المادية ؟

ألسنا مدينين لها بتنظيم الزمن وتقسيمه بحسب حركات القمر؟ وهل الى سواها يرجع الفضل فى تحديد عدد أيام السنة بثلاثمائة وخمسة وستين يوماً ؟ وهل لم تكن هى أول من وضع القواعد الأولى لعلم الهيئة والنظريات والمسائل الأولى لعلم الهندسة وابتكر حروف الابجدية وأنشأ أول دار للكتب كتب على بابها « كنز أدوية النفس » ؟

كانت مصر أول أستاذ تلقى اليونان عليه تلقيَ العلم فلقنته أوربا وكانت كريد والهند تتنازعان الاختصاص بتطبيق القوانين الفرعونية على سكانهما وفي مصر بحث سليمان عن عذراء تكون أهلا لمشاطرته الجلوس على عرش بنى اسرائيل وعن أفراس كريمة تكون أهلا للاستنتاج منها بجيادهم ومن مصر استعار

اكزرسيس الهجانة من جنوده ليثق من الظفر بأعدائه والغلبة عليهم واليها كانت مقاطعة ايليد من مقاطعات اليونان القديمة ترسل مشروع ألعابها الأولمبية لمراجعته والموافقة عليه ؛ لأنه كان لا يوضع مشروع فى الجهات الأجنبية عن مصر ويبدأ بتنفيذه قبل الموافقة عليه منها

وكانت مصر تدوّن حوادثها السنوية نقشا فى الحجر الصلد وكانت تعانى فى هذا السبيل جهداً عظيما وعملا جسيما. عليك أيها القارىء أن تحسب عدد الأيدى التى دونت تلك الحوادث الخالدة وأن تقيس أبعاد ذينك الصنمين العظيمين الكبيرى القاعدتين الذاهبين فى الجو الى ارتفاع سامق وأن تستخرج أطوال تلك المسالك التى يقوم على حراستها التماثيل الحيوانية التى اذا نظرها الناظر خالها جبالا عالية وان تعجب بتلك المسلات الدقيقة الصنع التى ما اصطدم بها سيف حتى ارتد عنها مفلولا وبتلك المقابر التى لا حصر لعددها وقد ازدحمت بالجثث المحنطة وبتلك الاهرامات الشامخة التى تخالها لعلوها وضخامتها قد أخذها الشموخ والكبرياء

أنظر ذلك كله وجاهد نفسك حتى لا تسترسل فى التأمل والاتعاظ والاعتبار واعجب بما تراه على أن تستنقذ نفسك من تأثير الدهش فيها واستيلاء الشعور الدينى عليها . قال أبو التاريخ

« لا يوجد على وجه الأرض قطر كقطر مصر أبدعت الطبيعة فيه إذ خصته بالحسن من كل شيء وتفنن أصحاب المدارك والعقول فأتوا بما لم يسبقوا به من المعجزات » وكتب سافاري ما يأتى : « سلام عليك أيتها الآثار التى هى أجل وأفخر ما أخرجته يد الانسان »

لقد شاد اليونان والرومان معابد للآلهة وقصوراً للملوك ومدرجات للجمهور يشاهد منها التمثيل ولكن ما الذى سبقت مصر الى تعظيمه وتمجيده قبل غيرها من أمم الارض ؟ كانت مصر أول من عظم ومجد الفهم والفضيلة والأجداد والموتي وكان لايهمها أمر التنميق والتنسيق فى المساكن لاعتبارها إياها من المعاهد الزائلة بزوال أربابها وانما كانت همتها منصرفة الى تنميق المساكن الأبدية الخالدة وهي المعابد. لهذا السبب كانت تخص الموتي بالاحترام والاعظام وتحوطهم بصنوف الرعاية والعناية. أنظر الى الأقارب الأقربين للموتى تراهم يشقون الثياب ويضربون الصدور ويطوقون الخصور ويرسلون الشعور فى سبيل الحزن لما وقع من النائبة ونزل من المحنة بل ترى النساء فى المساكن يلطخن رؤوسهن وأوجههن بالطين ويعرين أثداءهن يلطمنها بكفوفهن مخترقات المدينة من أقصاها الى أقصاها

ويمسكن عن الخبز والنبيذ والاطعمة الشهية أربعين او سبعين يوماً

العادة عندنا في التعزى عن فقد عزيز اعتقادنا أنه بعد أن نرده الى بطن الأرض التى أخرجته سيبعث منها مرة أخرى فيعيش عيشة ثانية أبدية ولكن المصريين كانوا لا يدفنون الموتى منهم خيفة أن يأكلهم الدود وكانوا يربأون بهم عن الأحراق لاعتقادهم أن النار حيوان مفترس ينهش كل ما يقع تحت براثنه دع اشمئزازهم من أن يعرض أحدهم الى الفناء البقية الباقية من قريب أو صديق عزيز عليه فكانوا لهذا وذاك يفضلون الاحتفاظ بالأجسام التى كانوا يعتبرونها غلاف الروح وصندوقه ويرون أن الروح متى تركت هذا الغلاف سكنت أجساد أنواع أخر من الحيوانات الخبيث منها للروح الخبيثة والطيب منها للروح الطيبة وتستمر متقمصة بها نحو ثلاثة آلاف من السنين

وكان منهم القاطع والمهمة الموكولة اليه كانت تحصر فى تحديد الحجر الأتيوبى أى الحبشى ومنهم المجهز لنبيذ النخل والسوائل العطرية التى ينبغى حقن الأحشاء بها وصمغ الأرز والقرفة والدارصينى وكانت هذه المواد تصلح لدهن الجسم مغلفاً باللفائف الدقيقة ومتى جئ بالميت اتخذت الاستعدادات لاستلال

المخ من الأنف بساق ملتوية الطرف مجوفته فيبدأ البار اسشت وهو جراح الموتى عمليته بفتح الجانب الأيسر من البطن وقطع جزء من اللحم يعدل النصاب المقرر فى الشرع ثم يولى الأدبار فيتبعه الحاضرون يرمونه بالأحجار لاعتبارهم إياه عابثاً بجثث الموتى ومن يعبث بها ويعتد عليها بما يغير كيانها ملعون ثلاثا

يحدد أهل الميت وأقاربه وأصدقاؤه يوماً لتشييع جنازته ويعلنون على الملأ أن فلانا الذى دهمه الموت سيعبر بحيرة إقليمه ثم يجلس فيما يلى المـاء أربعون قاضياً على هيئة نصف دائرة فما هى إلا ساعة حتى يدنو من الشاطئ زورق يقل الجثة ويقوده الربان كارون المنوط به نقل أرواح الموتى الى الجحيم وكان أهل الميت يضعون بين شفتيه قطعة من النقد قبل أن يتولى الربان نقله فاذا ماتسلمه التقطها من بينهما وكان لأى إنسان أن يوجه الى الميت تهمة أو يدعى عليه بدعوى فاذا قدمت جثته الى القضاة الأربعين وثبت أمامهم أن صاحبها أساء السيرة فى حياته وضل السبيل قضت محكمتهم عليه بما كسبت يداه وكان القضاء في الغالب بالحرمان من الدفن . أما اذا ثبت كذب التهمة عوقب صاحبها عقابا صارما وفى هذه الحالة ترتفع الاصوات بالاحتجاج على الملفق واستهجان خطته وتقبيح طريقته ويسترسل أفراد أسرة الفقيد فى مظاهر

الحزن والتوجع ثم يشرع الحاضرون فى تأبينه منوهين بسيرته الحسنة واخلاقه الرضية . وهم يتقون فى هذا التأبين الاشارة الى حسب الفقيد ومحتده لما كان سائداً بين المصريين من الاعتقاد بأنهم جميعاً من نسل حام وأنهم من كرم المحتد ورسوخ الشرف بما لا حاجة معه الى تنويه أو إطراء . وكل ما يهم المؤبنين إيراده عن الفقيد هو التربية التى تلقاها فى طفولته والمبادىء الطيبة التى لقنت له يافعاً من مزاولة التقوى والصلاح وحب العدل والاعتدال وسائر الفضائل التى يجدر بالرجل أن يتخذها زينة له فى حياته . ويختتم التأبين بعد استيعاب هذه الفضائل بالدعاء الى الآلهة أن يتقبلوا الفقيد بين الأتقياء والأبرار . وعندئذ يصفق الحاضرون تصفيقا عنيفا ويشدون بمدح الفقيد فرحين بأنه سيبقى فى الجحيم أبد الآبدين مع الأتقياء والابرار ثم تشق الأرض اكراما له لتغيب فيها جثته مع ما كان يحبه من متاع الدنيا كالأسلحة أو الآلات

أما إذا جاء حكم الأربعين قاضيا على خلاف المنتظر من تبرئة الفقيد من الآثام والذنوب كأن يكون عليه دين فان جثته تعاد على الفور الى داره ويسند تابوتها الى جدار مكين فى زاوية من زوايا غرفة تشاد خصيصا له وتظل فى مكانها محرومة من الدفن

في المدفن العام حتى يقوم أبناؤه وأحفاده بوفاء دينه بعد أن يكونوا قد بدلوا من فقرهم غنى وعندئذ ينالون الأجازة بدفنه طبقا للطقوس المرعية ويرد اليه ما سلب من الكرامة والشرف

واذا أردت أن تعرف الى أى حد وصلت عاطفة الشرف والكرامة عند المصريين والى أى غاية بلغ عرفانهم بالجميل وقيامهم بحرمة الصنيعة وقضاؤهم بالشكر حق النعمة فانظر كيف كانوا يمجدون بمظاهر الأجلال والتعظيم أصحاب النعم والآلاء . معلوم أن النيل مشتق اسمه من اسم الملك نيلوس وكان قدماء اليونان يسمونه تارة بالأقيانوس أو النسر لسرعة سيره فى مجراه وطوراً بأجبتوس وهو المبدع الثانى لمصر والموجد لها من العدم وقد شكرت له مصر مجراه الفخم السريع وطميه المخصب وخصياته العجيبة معلنة على الملأ أن الرطوبة عنصر كل شىء وأصله ومطلقة عليه اسم زيدروس أى الخصب وذهبت فى تمجيدها الي أبعد من ذلك إذ رفعته الى درجة المعبودات ثم جعلته أبا للآلهة أجمعين فاتخذ له عندئذ زوجة رزق منها ببنت هى منفيس وبولد هو الدلتا

وفى المأثور من عقائد قدماء المصريين أن النيل دعى الى الوليمة التى كان يعدها الفيضان فى كل عام وأن الكهان كانوا

يحنطون جثث الذين يذهبون فريسة التماسيح والغرقي الذين كانت تلتهمهم مياه النهر وأن المعابد والمدائن كانت تشاد إكراماً وإجلالا له وأن الثيران السوداء كانت تضحي فى نيلوبوليس (مدينة النيل) وأن فى حفلات النيل كان يضحي فتى يافع وفتاة بعد أن يزينا بالازهار وغصون الاشجار

وما أكثر ما خلدت صورة النيل نحتا ونقشاً في الخشب والحجر والرخام مرموزاً له بصورة انسان كللت جبهته بسنابل القمح متلاقية متزاوجة وقد استند الى ظهر أبي الهول وامتد عند قدميه تمساح ودلفين وفرس بحر وأحاط به وبهذه الحيوانات ستة عشر غلاماً هم رمز الستة عشر ذراعاً التى يتم ببلوغ الماء اليها وفاء النيل متشابكين بالأذرع متساندين بالاكتاف

وكانوا عند انقضاء الانقلاب الصيفي وابتداء الفيضان ينقلون القطعة من الخشب أو الحجر أو الرخام التى نقشت فيها تلك الصورة الرمزية يطوفون بها القرى والمدائن فى حشد حشيد وهيئة هيّئة حتى إذا ما جاء آخر فصل الخريف وبدأت مياه النهر بالهبوط أعيد التمثال الرمزى الى المعبد الذى أخذ منه برسم ذلك الطواف . وقد وضع فسبازيانوس الامبراطور الرومانى فى القرن الاول من الميلاد اكبر تمثال من هـذه التماثيل فى معبد

السلام وقال بلوطرخس : « لم تبتدع الديانة لمعبود حفلات تعظيم وإكبار أجل ولا أبهي مما ابتدعته للاحتفال بالنيل »

وكان الاعتقاد العام فى مصر أن الى أوزيريس الذى حكمها يرجع الفضل فى تلطيف العادات الوحشية التي درج عليها الاهلون وانه هو الذى اختط مدينة طيبة ذات المائة باب وارشد الناس الى الأساليب النافعة فى زراعة الأرض واستثمارها وانه صار كغيره من الملوك إلهاً وسمي بروح الخير وابن لدهر والطبيعة على الضد من أخيه تيفون الذى دعي بالروح الشريرة لأهلاكه أخاه بشرك نصبه له وقد صورت صورته على شكل البشر ومثلت أصابعه فيها ضاغطة على جبهة صلٍّ كبير وجعل على رأسه صورة مكيال الحبوب رمزاً الى الخصب والخير وقد دفنت جثته فى جزيرة سميت بالحقل المقدس وعقد عليها ضريح كانوا اذا أرادوا توثيق العهود وعدم الأخفار بالذمة حلفوا عليه بالأيمان المؤكدة ووضعوا حوله ثلاثمائة إناء كان الكهان يملأونها كل صباح بالماء ويسترسلون فى التوجع والرثاء

ومن عقائدهم ان كانوبوس حينما انتقل من الدار الدنيا الى الدار الأخرى لم يعامل معاملة السكافة رعاية لحرمة الصلة بينه وبين أوزريس إذ كان ربان زورقه فأن جثته غيبت فى القبر

وارتفعت روحه الى السماء حيث سكنت من كواكبها كوكباً سمي منذ ذاك العهد باسمه

وكان المصريون يقولون إن الرجل من رجال الخير يجمع المال ليدرأ عن نفسه شر الحاجة فى الأيام السوداء وأن الرجل الشاكر للنعمة له حق ثابت فيما يحتاج اليه من الاسعاف ويميل نحوه من صنوف السعادة والهناء فليس بغريب بعد هذا أن تكون مقابرهم آهلة بجماعات من الآلهة كان الفرق بينها واضحاً والبون شاسعاً فى العظمة والجلال

وكانوا يعتقدون أن اهل السماء خافوا ان ينزل بهم الاشقياء من أهل الارض ما يحبون اتقاءه من شرورهم فلاذوا بضفاف النيل متنكرين فى أشكال بعض الحيوانات وان المقاتلة من المصريين اتخذوا صور هذه الحيوانات فى أعلامهم مدة من الزمن فلم يتنكر لهم حظ القتال بل كان الانتصار مرافقاً لهم على الدوام ومما جعل حسن ظنهم بها وثيقاً قيامها بما كانوا يطلبونه منها ويسخرونها فيه كل يوم من الاعمال النافعة فقد كان الكلب يقوم بالحراسة على عتبات البيوت ويرافق الصياد فى صيده والثور يساعد الزارع على حرث الأرض والأغنام تعطى الوفير من اللبن والصوف والقط يدفع الثعبان والحية فيقي صاحبه سمهما والصقر

يقتل الثعابين ذات القرن والعقارب والبجع يحارب الأفاعي المجنحة ويبيد الجراد والثغاة تتحرى بيوض التماسيح لا لتبتلعها بل لتكسرها وتتلفها أو تتقلب فى الحمأة ثم تثب فتدخل في جوف التمساح وقد فغرفاه لتقرض أحشاءه وتثقب جلد بطنه الطرى لتخرج منه والتمساح نفسه يعمل لوقاية الناس وحمايتهم اذ كان يمنع اللصوص من الأيغال فى الجهات التي يختلف فى العادة اليها

لهذه الاسباب جميعاً كانت الحيوانات فى موضع الاحترام والاكرام من المصريين والأيثار بالمزايا الجليلة . ومما هو خليق بالذكر فى هذا المقام ان الحراس القائمين على خدمة العجل أبيس بمدينة منفيس والعجل منوفيس بعين شمس والجدى ببلدة منديس والتمساح ببحيرة موريس (القارون) والسبع بمدينة ليونتوبوليس الخ كانوا مأذونين بأن يقدموا الى هذه الحيوانات المقدسة ألذ اللحوم طعماً كلحم الأوز المحمر وأشهى صنوف الفطائر الى غير ذلك من الأطعمة الفاخرة المتخذة من العسل بأشكال وصنوف متنوعة ومن زهر الدقيق المعجون باللبن وكان أولئك الحراس يعنون عناية خاصة بغسلها بالمياه المعطرة ودهنها بخلاصات الأرواح الزكية وتزيينها بالحلل الفاخرة، دع اهتمامهم الشديد بأحراق المواد العطرية فى المباخر أمامها وفرش الأبسطة الثمينة من تحتها

واصطيادهم الصيد لغذائها وبحثهم عن الأناث الجميلة من نوعها لتنزو عليها . وكانت المقررات للنفقة عليها فى الميزانيـة الخاصة لا تقل عما يعدل مائة الف ريال وكان من المفروض على من ينذر النذور اذا شفي ابنه من مرض بقص شعر رأسـه ان يذهب الى تلك الحيوانات المقدسة ويسجد امامها خاضعاً خاشعاً ويقدم اليها وزن ذلك الشعر فضة أو ذهباً

كتب شيشرون (اشهر خطباء الرومان) : « لا ينـدر عندنا ان تسلب الهيا كل ما فيها وان تؤخذ التماثيل . اما عنـد المصريين فليس من المألوف سماعه ان يعـامل قط أو تمساح أو بجعة معاملة يصيب احدها بعض الألم من جرائها وهم يفضلون أن يلحق أشخاصهم أشد العذاب من أن يصل الى أحد هـذه الحيوانات أقل أذى »

وكان حكم الاعدام فى مصر مقرراً على من يقتل متعمداً أحد الحيوانات المقدسة وكثيراً ما كان يحدث اذا أصاب أحدهم عن غير عمد قطاً أو بجعة أو حيوانا مقدساً أيا كان بضرر أفضى الى موته أن يمثـل به الساخطون الناقمون من الجمهور شر تمثيل ويوردوه موارد الهلاك فلقد حدث أن قتل رومانى قطـاً من غير إصرار ولا عمد فثارت ثائرة الجمهور وهجموا عليه فى بيته وقتلوه

بالرغم من حراس الملك الذين كانوا يعترضونهم ومن أخذهم إياهم بالحسنى عملا بما اعتمدت عليه سياسة قياصرة رومية من استمالة الأفئدة اليهم . وكان اذا حصل إمحال وفشت بسببه المجاعة أكل الناس بعضهم بعضاً ولكنهم كانوا لا يجسرون على مد أيديهم بأذى الى تلك المعبودات العجيبة .وكان إذاحدث حريق أغفلوا العناية بأطفاء النار حرصاً على راحة القطط وتأميناً لحياتها وكان اذا دهم الموت هذه القطط بالرغم من كل احتياط وعناية حملت جثتها الى بلدة بوبسط (تل بسطه) لتدفن فيها باحتفال فخم .وكانت الذئاب اذا ماتت دفنت حيث تنفق أما الثعابين ذات القرون من ضاحية طيبة فكانت تدفن فى معبد المشترى وأماالبزاة والبجع والنموس فكانت تنقل الى هرموبوليس فى صناديق متقنة الصنع رفيعة القيمة . وكان إذا مات كلب لطعونه فى السن حزن عليه أصحابه والأمثل تأدبا فى حقه أن نقول مساكنوه وجعلوا مظهر حزنهم حلق الجسم والامساك عن الخبز والنبيذ وسائر الأغذية المدخرة عندهم وكانوا لا يأسفون على أبنائهم إذا فقد أحدهم أسفهم على الكلاب إذا وافاها الموت

وكانوا اذا نفق العجل أبيس لبسوا عليه الحداد فلا يخلعونه الاّ اذا عثروا على خلف له يختارونه بعلامات تميزه عن العجول

وهى غرة بيضاء بشكل الهلال فى جبهته وأخرى في ظهره تشبه النسر وثالثة على لسانه تمثل الجعل (الجعران) فاذا وفقوا للعثور عليه أولموا الولائم وأقاموا الأفراح ثم ساروا بهذا المختار السعيد الى مدينة نيلوبوليس ليحاط فيها بالعناية ويخص بالمزايا التى تؤهله لها مرتبته السنية وتهافت ربات التقوى من النساء على زيارته للتبرك به وطفن حوله بمظاهر التغالى فى إجلاله والتفانى فى حبه وعكف المتظاهرون والمتظاهرات على هذه الأفراح والأعياد أربعين يوماً تباعا ينزل العجل بعدها فى الغرفة المذهبة من الزورق المعدّ لنقله الى مدينة منفيس

وإنه لما يحزن الفؤاد أن نرى أساطين الحكمة وأركان الفلسفة يهبطون من مكانتهم العلية الى درك هذه الاعتقادات الفاسدة فأن الخمسين ألف ريال التى كان ينفقها أحد البطالسة فى معدات تشييع جنازة العجل النافق لم تمنع القصاب الغليظ الكبد من مدّ يده أيام قمبيز الى أحد العجول الأبيسية والانحاء على رقبته إنحاءه على رقبة أى عجل سواه غير معبود ومن أن يحرمه بذلك تمجيد الملأ له كربّ من الأرباب . قال لوسيانوس الكاتب الرومانى : « كنت تدخل الهيكل الفخم فيخطف بصرك بريق الذهب ولمعان الفضة فى كل ناحية من انحائه ثم تبحث عن المعبود

الذى حفت به مظاهر العظمه والأجلال على هذا المثال فلا تجد الاّ قرداً خاسئاً جاثماً فى مكانه . وكم من قصر منيف كنت تراه ثم تجد أن كرامة ساكنيه ومكانتهم فى الوجود لا تتفقان مع فخامة تجيده وحسن تشييده »

ولم يقف المصريون فى الأكثار من معبوداتهم عند حد الحيوانات بل عدوه الى النباتات إذ بلغ من سذاجة أخلاقهم وسهولة طباعهم أن عبدوا بعض البقول . فكان اذا أخذ أحدهم على نفسه ميثاقاً لا يخيس به متى أقسم على البصل أن لا ينقضه

وكان يعبد أهل منفيس العجل وأهل ،ومنفيس البقرة والباپريميون فرس البحر وأهل سينوپوليس الكلب واهل لاتوپوليس اللاتس وأهل ليكوپوليس الذئب وأهل منديس الجدى وأهل هرموپوليس القرد والاتريبيون الفأرة وأهل عين شمس العنقاء زاعمين أن هذا الطائر الوهمي كان فى كل خمسمائة سنة يتخذ من المرّ شبه بيضة يستطيع حملها فيجعل فيها ثقباً يدخل فيه أباه الميت ثم يسد فوّهة الثقب بالمرّ ويجيء من أقصى بلاد العرب بعد ذلك بهذا المحبوب من الشمس

وكان فى طبع المصرى شىء من العظمة الغريزية . لذا انتحل لنفسه أرومة غير أرومة البشر وسما الى أصول أرقى وأشرف من

أصوله . فلقد اكد كهان منفيس أن أول من حكم المصريين الأله فتاح وأن حكمه عليهم تواصل اثنى عشر الف عام ثم خلفه الأله فريه أو الشمس فدام حكمه عليهم ثلاثين ألف سنة وجاءت من بعده خلائف من انصاف الآلهة كزحل والمشترى وأصحابهما وهى الآلهة التى رأى قدماء اليونان فيها من العظمة والجلال ما أرضاهم بها وجعلهم يرفعونها الى مصاف آلهتهم الاثنى عشر الأشد بأساً والأعظم طولا وحولا . قال المؤرخ روللن : « إن مصر العزيزة المجيدة كانت تعدّ من الجمال هويها فى مهواة لا غاية لها ما دامت هذه المهواة تدنيها من الأبدية ، ومما لا مراء فيه أن شرائعنا وأنظمتنا وأفكارنا فى شؤون الاجتماع وتقديرنا لما هو عدل وما هو غير عدل انما اقتبسناه من بلاد النيل وأخذناه عن أهلها وما من حكومة من حكومات العالم الآ وكانت فى بدايتها قائمة الأنظمة على أساس من الدين ثم صار بعضها جمهورياً والبعض دستورياً . ولقد تحسست مصر هذه الأنظمة أيضاً إلاّ أنها كانت كما يؤخذ من أقوال المؤرخ هيرودتس أول من أخذ بالقسط الأوفى من الأنظمة الدينية وأول من أمعن فى تمجيد الآلهة وتكريمها

ولقد حدث فيها ما لا يزال يحدث حتى الآن فى جميع الامصار من عبث رجال الكهنوت بالساطة التى أفضى اليهم بها

حتى ملّ الشعب الكد والكدح فى سبيل العمل من غير فائدة له وسئم الخنوع المطلق لإرادة الكهنوت وبلغ من أمرهم فى التعبد أن الملك مينيس حرمت ذكراه حق التمجيد بعد وفاته ونقش اسمه مشفوعاً بعبارات التعزير والحرم على جدران هيكل المشترى من يد جنفكتوس والد بوخوريس المدبر لا لشئ إلاّ أنه أذاع بين مواطنيه عادة استعمال المناضد والأسرة والأقمشة وأدوات البذخ والترف والزينة . ومينيس هو الذى شاد أركان الملكية فى مصر ونقلها الى أعقابه قبل الاسلام بستة آلاف سنة إذا صح ما أخبر به المؤرخون. وكان الملوك فى ذلك العهد يسمون برؤساء الجمهورية ولعل هذه التسمية أريد بها تلطيف الحكم المطلق الذى كانت له الكلمة العليا كما لطف الرومانيون بمثل هذه التسمية استبداد قياصرتهم فى بلادهم

وقسمت مصر الى ستة وثلاثين إقليما يقوم على إدارتها موظفون يباشرون العمل فى وظائفهم بمقتضى قانون مسنون . وكانت الأمة مقسمة ثلاث طبقات الطبقة الأولى طبقة الكهان الذين وإن لم يطمحوا الى الارتداء بالرداء القانئ اللون الذى هو شارة التملك والحكم فقد عرفوا كيف يختصون أنفسهم بحقوق وامتيازات واسعة النطاق . فانه لا أحد منهم إلاّ وأجريت عليه

الأرزاق من لحوم البقر والأوز وحصة من لحم البقر المقدس الناضج وز كرة نبيذ معتق كل يوم . على أنهم لم تكفهم هذه المرتبات فأضافوا اليها ما فرضوه من المبالغ الفادحة رسوماً للقيام بالطقوس الجنازية . واتخذوا لأنفسهم شارات تمثل المحراث إشارة الى مراتبهم الكهنوتية فلم يبق فارق ولا مميز فى ذلك بينهم وبين الأمراء الذين كانت تلك الشارة شارتهم وقد أعفوا أملاكهم الكثيرة وأراضيهم الواسعة من الفرض والضرائب وحتموا جباية الأموال برسمهم من أصناف الحاصلات فى بقية الأراضى وفرضوا ذلك على الملك نفسه فلم يسعه الا الرضوخ لمطلبهم وبعد أن ابتز أولئك الشرهون الاموال من الأحياء ابتزوها من الأموات بأن فرضوا على أهليهم إتاوة سنوية فى مقابل إنزال جثثهم بالكهوف محنطة فى التوابيت

وحدث أن رغبت الملكة إيزيس فى رفع زوجها أوزريس بعد وفاته الى مراتب المعبودات فلما سألت الكهان ان يحققوا لهاهذه الأمنية أبوا إلا إذا تنازلت لهم عن الثلث من أملاكها جميعاً وقد كان . وتمكن فرعون من الاستيلاء على أموال رعاياه وماشيتهم وأرضهم بمشورة من الوزير وكان أجنبياً من أصهار الكاهن الأعظم . على انه مع طموح الكهان الى الاستئثار

بالاموال والخيرات لم يجسر أحـد غيرهم أن يمد يده بأذى الى الاملاك الكهنوتية بل كان إذا نزلت بالأمة مجاعة فوقعت فى الضيق والضنك باع أفرادها بعضهم بعضاً لسد الرمق بشيء من الخبز بينما كان الكهان في بلهنية من العيش لا تكف الخيرات عن الورود على أبوابهم ليل نهار

وكان من عادتهم التداخل فيما لا يعنيهم من شؤون الغير . ومن ذلك اندساسهم بين الأسرات وامتزاجهم بها وتداخلهم فى تولية الملوك حتى آل الأمر بالضرورة الى الاستمداد بنصائحهم ودعوتهم الى مجالس الاستشارة للمفاوضة معهم فى شؤون الحرب والصلح والزراعة والمشاريع العامة والامور الداخلية والخارجية وكان المرجع اليهم فى إعلان المواعيد لمواسم الزراعـة والنظر فى الفيضان والتحاريق وإذ كانوا هم الملمين وحدهم بالشريعة والقابضين على مفاتيح العلوم فقد دوّنوا بأيديهم حوادثهم السنوية وأنظمتهم الدينية وخططوا الرسوم على جـدران المبانى المقـدسة ومارسوا الآداب اللغوية وعـلوم الاخـلاق والتـاريخ الطبيعي والطبيعة والطب والعلوم الرياضية وعـلم أصول الاجرام السماوية ومناشئها وجلسوا للفصل بين الناس فى المنازعات وزاولوا الاعمال المـدنية كالمساحة والجراحة والتحنيط والتنجيم

وكان المنصب الأول من مناصب الدولة فى مصر منصب الكاهن الاعظم كما كان عند العبرانيين سواء ثم تتوه مناصب الآباء الكهان أو الأنبياء والكتبة المأمورين بجباية الضرائب الخاصة بالكهنوت وكبار أنبياء هاتور وحراس الهيكل وحملة أختام الضحايا القربانية وغيرهم ممن اقتصرت وظائفهم على تقديم القرابين الجنازية أو إحراق البخور أمام الآلهة أو إهراق الأشربة على الارض أو مراقبة الهياكل أو القيام بحراسة الابواب أو الغناء أو تحنيط الأجسام . ولا يخطرن ببال القارىء أن هذه السلسلة المتصلة الحلقات من الطبقات الممتازة قد أخليت من القيود والتضييقات فقد كان لا يصرح لواحد من افرادها بالتزوج باكثر من امرأة واحدة بينما كان الرجل من غيرها يستطيع التزوج بأى عدد من النساء ما دام قادراً على القيام بنفقاتهن . وكان مفروضاً عليهم التأهب للاجراءات الدينية بالتعفف عن النساء أسبوعاً على الأقل واثنين وأربعين يوماً على الأكثر وبالامساك عن البقول والخضر والأغذية اللحمية والتأمل وتعليم الحقائق المختصة بالطبيعة الألهية والعقائد الثلاث الاصلية التى تتلخص فى وحدة الذات العلية وخلود النفس والجزاء والعقاب في الدار الأخرى وكانوا يروضون انفسهم فى كل وقت

على العطش والجوع والقناعة بالقليل

وكان فرضاً عليهم التوضؤ بالماء البارد مرتين فى الصباح والمساء وغسق الليل أو بالماء النقى الذى شرب البجع منه كما كان واجباً عليهم حلق شعورهم أو نتفها مرة فى كل ثلاثة أيام وكانوا يكتفون من اللباس والنعال على مرّ فصول السنة بنعال ببيوس ورداء واسع من الكتان حديث الغسل. وكانت الخواتم بأصابعهم تسطع منها أشعة الضوء والعقود ذات الصفوف والطبقات تحلى بها أجيادهم وصدورهم مقترنةً بهنات صغيرة على شكل النواويس والجعلان (الجعارين) وكان الكتاب يفرغون على أجسامهم معطفاً طويلاً يسمونه كلازيريس فيخفي من تحته ثوبهم القصير المسمى شنتى . أما كهنة أوزريس فكانوا يضعون على أرديتهم البيضاء الواسعة فرو الفهد . كتب أحد قياصرة الرومان الى والى مصر على عهده وكان قد وافاه بضرائب تفوق ما اعتيد تحصيله فى الاعوام الغابرة ما يأتى : « الذى أريده هو أن تجزّ اصواف نعاجى لا أن تسلخها» ولكن جماعة الكهنوت كانوا يرون بلا شك غير هذا الرأى

أما الطبقة الثانية فهى طبقة الجند . وكانت محترمة جداً تقوم الحكومة على نفقتها ببذل وسخاء وكانت تملك الاراضي

الزراعيــة معفاة من الفرض والرسوم . وكان كل جندى يجرى عليه من الرزق فى اليوم ما يكفيه وعائلته شر المجاعة والعوز إذ كان من مخصصاته المرتبـة له يومياً خمسة ارطال من الخبز ورطلان من اللحم وزكرة نبيذ وكان كل جنـدى يرى من صالحه الشخصى صون البـلاد من عادية القهر والذلة فكان إذا طلب اليه الدفاع عنها هم بأداء هذا الواجب بنشاط وحماس وكان تسهيل الزواج للجنود وترويجـه بين صفوفهم يقيان مصر شر الحاجـة الى الجنود الأجنبية . وكان ابن العسكرى يشب عسكرياً فيمتاز منذ نعومة الاظفار بالفضائل الجندية لمزاولته إياها بالتجربه والقدوة الحسنة . وكان إذا تمرد جندى أو بدا منه فى القتال جبن أوخور كان العار كل العار نصيبه ولـكنه كان إذا جاء بعد ذلك بعمل باهر محي ذلك العار عنه . وكان بمصر على قدم القتال دائماً مائة وثمانون الف مقاتل وأحصي المؤرخ هيرودوتس جيوشها اثناء رحلته بهـا فقال إن عددهـا بلغ فى اقاليم كالسيريا مائتين وخمسين الفاً وفى اقليم هرموتيبى مائة وخمسين الفاً

وكان الجيش مؤلفا من المشاة الثقيلة حاملة السيف المقوس والخوذة ومن المشاة الخفيفـة الضاربة بالسهام والمقاليع ثم من خيالة اشتهرت بالمعجز من الخفة والرشاقة وحسن أداء الحركات

وكان سلاحها فى بادئ الأمر القوس والخنجر وكان رجالها يركبون مركبات يجرها اثنان من الجياد الصافنات . وكانت فرق الجيش المختلفة تقوم بالتداريب والمناورات الحربية مقسمة كتائب شتى وتنفذها تنفيذاً دقيقاً بناء على أوامر تصدر اليها بالنفخ فى البوق ودقّ الطبل وكان الملك يعهد بقيادته الى الأمراء

أما الطبقة الثالثة فهى طبقة الشعب وكانت تشمل الفلاحين والرعاة والصناع وكان للفلاحين إلمام تام بأنواع الأرض وصفاتها وخواصها وبمواسم النيل من فيضان وتحاريق وغيرهما وبفصول السنة الصالحة للبذار والحصاد ونقل الحاصلات . أما الرعاة فكانوا على إرث من العلم بوسائل إنماء حاصلات المواشى وإحاطة تامة بتربية البط والأوز والدجاج . وكثيراً ما كانوا يتجاوزون مقتضيات الطبيعة فيسبقونها الى النتائج المنتظرة من عملها إذ كانوا فى المدة المقابلة من أيام السنة الشمسية الأوربية لما بين أخريات دسمبر الى أخريات افريل يفرّخون اكثر من ثلاثمائة ألف بيضة بوضعها إما فى اكوام السباخ وإما فى أفران ثابتة الحرارة أو بتسخينها بحرارة الكفين وكان لهم فى ذلك صبر تضرب به الأمثال

وقد تهيأت لمصر بتضافر عمالها على الجد والنشاط في العمل أسباب الهناء والسعادة وكانت طوائفهم في الاتحاد والوئام

كأعضاء أسرة كبيرة وقد مهروا فى تلوين الزجاج وتنميق جدران المقابر بما لا يعدّ ولا يحصى من الصور والنقوش وبرعوا فى صبغ الانسجة المتخذة من الكتان فجاروا فى هذه الصناعة أهل صور وصيداو اشتهرت السجاجيد والأبسطة التى كانوا يصنعونها بالمتانة لجودة حبكها سدى ولحمة وبتنوع ألوانها الجميلة حتى حازت الافضلية والسبق على ما كان يصنع من نوعها فى بابل . وكان لهم حذق خاص وبراعة مأثورة فى التصوير على الأكواب التى كانت تصنع بمدينة قبطوس من الصلصال الممزوج بالمساحيق العطرية فكان اذا سكب فيها الماء اكتسب رائحة زكية وطراوة تدعو الشفاه الى التماس شربه منها وبرعوا أضعاف براعتهم هذه في صنع القنانى من المرمر لحفظ خلاصات الروائح العطرية بحالتها الطبيعية ومن غير أن يطرأ عليها طارئ زمناً طويلا ونحت الصوان المجزع الذى كان يقطعه الأرقاء النصارى من مقالع طيبائيد وصقل رخام الاسكندرية الذى كانت تغطى به المبانى الضخمة المسماة فيها بالاهرام لتوافر الشبه بينها وبين لهيب النهار كلما أرسلت الشمس أشعتها على سطوحها الصقيلة اللامعة فانبعث منها ما يشبه اللهيب وتدبير حجر المغنطيس الذى همّ بطليموس فيلادلفوس بجعله قبة لهيكل شاده إجلالا لأرسينوة أخته وزوجته وكان قد صنع لها

بعد وفاتها تمثالا من الحديد أراد بوضع ذلك الحجر فى قبة الهيكل بقاء هذا التمثال معلقاً فى الهواء تحتها مجذوباً اليه بالقوة المغنطيسية المنبعثة منه بحساب معين وقدر معلوم

ووصلوا فى القدرة الصناعيـة الى التصرف في الاحجار الكريمة التى كانوا يستخرجونها من مناجم الصعيد على ما يطابق منافع الناس ويوافق فى التجمل أهواءهم وأذواقهم فأحجار الدم والعقيق والزمرذ الذى يبلغ من الصلابة مبلغاً يقاوم معه الضغط الشديد كثيراً ما كانت تحول فى أيديهم الى وسائل للزينة كان الرجال والنساء يتنافسون فى اقتنائها للتجمل بها . أما معادن البلاد التابعة الى مصر فكانت تصلح لصناعة الأسلحة والآلات والآنية فمركبات القتال كانت تصنع بالنحاس النقى أو الخليط . وذكر هوميرس الشاعر اليونانى أنهم كانوا يتخذون أحواض الماء لغسل الوجه من اللجين النقى . أما الكراسي والأسرة وسائر الآثاث فكانوا يحتفلون بتنميقها على مثال يسترعى النظر ويخلب العقل لما توافر فيها من حسن النسق وجمال التناسب واتقان الصنع وكانوا لقلة أنواع الحيوانات فى مصر واقتصارها على اصناف محدودة يجلبون منها من بلاد الرومان واليونان ما يرون استنتاجه ضرورياً لمصلحة الزراعة أو غيرها . وبلغوا فى جولاتهم البحرية

لترويج بضائعهم المزروعة والمصنوعة الى جزر كناريا فى بحر الظلمات (المحيط الاطلانطى) غربا وضفاف نهر القنج (بالهند) شرقاً . وكانوا يأنفون فى معاملاتهم بمصر من تسويتها بمال غير النقد الكريم من الذهب المصفى . ولقد بلغت إيرادات الحكومة فى ذلك العهد البعيد الى ما يعدل ثمانمائة مليون من الفرنكات أى نحو اثنين وثلاثين مليوناً من الجنيهات المصرية بنقد هذا الزمان

وكان لكل من طوائف العلماء والجند والكهان شارات وسمات للتشريف خاصة بها لتميزها بعضها عن البعض الآخر ولكن هذه الطوائف جمعاء كانت فى منزلة واحدة من الاكرام والالطاف والأيثار لاعتقاد الناس أن التكاتف على العمل للمصلحة العامة واق من التحقير وباعث على التوقير . كتب القس فلورى الأسطر الآتية :

« الريفى الفظ الغليظ الطبع هو الذى يملأ بطون المياسير من أهل المدن وأعوان القضاء والجباية ورجال الدين . ومهما سلك المرء من السبل لتحويل النقد الى سلعة أو السلعة الى نقد فلا محيص من عودة كل شىء الى ثمرات الأرض وما تغذيه من الحيوانات والبهم . على أننا لو قارنا ما هنالك من الدرجات المتفاوته بين الناس بعضها ببعض لجعلنا فى الدرجة السفلى أولئك الذين

يفلحون الأرض ويعملون لاستثمارها وخص الكثيرون منا بالاحترام والتعظيم جماعة المياسير الذين لا يؤدون عملا صالحاً للاجتماع الانسانى لحرمانهم من القوة البدنية وجهلهم المطبق الصناعات ولا شأن لهم فى الحياة سوى انفاق ما عندهم من المال الكثير فى ملاذّهم وخدمة أهوائهم . ولكننا لو تخيلنا بلداً لا يكون التفاوت بين الدرجات فيه عظيماً الي هذا الحد ويكون شرف المرء فيه منوطاً بالعمل لا بالتراخى والكسل وبالحرص على الحرية أى الانقياد للقوانين المسنونة والسلطة العامة وبالاعتماد فى المعيشة على ثمرات كده لا عالة على الناس وبأيثار القليل من الربح بالعمل على الكثير منه بالتسفل فى سبيل التزلف واجتناب الكسل والدعة والجهل بلوازم الحياة وبمباشرة البدن بما ينميه ويقويه دون إرضاء النفس بملاذها وحظوظها . اذا وجد بلد توافرت هذه الشروط فيه نخير للمرء وأشرف له أن يقضى حياته به فالحاً الأرض أو حارساً قطعان الماشية أو مزاولا الصناعة من التفرغ للهو وقطع حبال العمر فى التنزه والملاذّ »

البلد الذى يشير اليه الكاتب فى الأسطر السابقة ويحسب وجوده مستحيلا موجود فعلا بدليل أن الحكومة فى مصر القديمة سنت قانوناً يلزم كل مصرى بأن يقابل فى يوم معين من

السنة مدير إقليمه ليبلغ اليه نوع العمل الذى يزاوله ليقتات من ربحه فاذا تبين أنه كذب فى بلاغه هـذا عوقب بالاعدام كما عوقب به كل من ثبت عليه أنه لا يزاول عملاً مطلقاً. ولم يسع الامبراطور الرومانى أدريانوس عند ما وقف على هذا القانون سوى الاعجاب بما يرمى اليـه من تقديس العمل والحث عليه إذ قال: « البلد الوفير الخير هو الذى لا ترى فيه عاطلا أبداً ». وكان لا يجوز لمصرى بمقتضى القانون أن يجمع بين عملين ولا أن يبدل من صناعته بصناعة أخرى وهذا الحظر جلىّ النفع إذ أريد به تضييق السبل على الطامعين وحث المحترفين على اتقان عملهم بما يبذلونه في أدائه من النشاط والمهارة والخبرة

على أن اتقان الفنون في مصر اعترضته عقبات ثلاث سوغتها أسباب وجيهة منها الموسيقى منعها المصريون لاعتبارهم إياها من الأعمال التى لا تتفق مزاولتها مع كرامة النفس وهمتها فضلا عن أنها من السفاسف التى لا خير منها يرجي ولا ثمرة تجنى غير إهاجة النفس ومنها المصارعة عدّوها ضارة بالصحة ومفسدة للنظام العضوى. وهنا لا بأس من ذكر ما كانت الأجيال الغابرة بمصر تتخذه من الحيطة فى مسئلة الحياة والموت. فقد كان أطباؤهم ملزمين تطبيقاً لنصوص السجلات المقدسة برعاية ما ورد من

النظريات والملاحظات والحكم على ألسنة قدماء الأساتذة والمعلمين . على أنه كان لهم الخيار فى اطراح هذه التقاليد بشرط تحملهم التبعة فيما لو مسّ المريض ضر من جرّاء الحيد عن الخطط المتبعة والقواعد المرعية . ولسنا نذهب الى تحبيذ القيود والحض عليها ولو قصد بها تقييد حرية العلاج وانما الأمر الذى ظهر أن قدماء المصريين أصابوا شاكلة الصواب بتقريره إلزامهم الأطباء الاقتصار فى علاجاتهم وتجاريبهم على نوع واحد من الأمراض . وكانوا يتقاضون أتعابهم من خزينة الحكومة . ولهذا كانوا يلبون بلا استثناء دعوة من يطلبونهم الى معالجة المرضى من غير أن يلتمسوا منهم أجراً

وكان لكل اقليم من أقاليم مصر وكلاء ينوبون عنه فى الجمعية الكبرى العمومية التى تعقد جلساتها بقصر اللابرانت (١) وكانت الأمة فى بادىء الرأي تبايع ملوكها بالانتخاب ثم عدلت عن هذه الطريقة فلم تعد تتداخل فى المبايعة إلاّ فى حالة انقراض الأسرة الحاكمة وتنصيب أسرة أخرى مكانها وقد سلبت هذا الحق أيضاً بتعاقب الأجيال فلم تجد أمامها ما تخول نفسها به من

(١) اللابرانت وباللغة المصرية « لوبوروهونيك » قصر عظيم من قصور مصر القديمة بشرق بحيرة موريس أو القارون أو القرن . وكان مؤلفاً من ٣٠٠٠ غرفة مظلمة تتصل ببعضها بدهاليز مظلمة وكانت تتخذ مدافن للفراعنة والتماسيح المقدسة

الحقوق فيما عدا حق الحكم على الجثث الملوكية قبل دفنها ومعاملتها بما كانت تعامل به جثث الكافة سواء. فكان شأنها في التماسا لحقوق العامة والإصرار على إحرازها شأن البطل اللقدموني الذي ألقى بنفسه في البحر ليدرك سفينة الاعداء لمقاتلتهم فلما قطعت ذراعه قبل تمكنه من دخولها استعان بذراعه الأخرى على تسلقها واعتمد بعد قطع هذه الذراع على فكيه في مقاتلتهم والفتك برجالهم

كتب ديودورس الصقلي في المقال الأول من كتاب تاريخه العام ما يأتي: «كان ملوك مصر لا ينهجون منهج ملوك البلدان الأخرى الذين اتخذوا من إرادتهم المطلقة وشهوات نفوسهم قاعدة لتصرفاتهم وأعمالهم» فقد كان الملك في مصر يقسم بالأيمان المؤكدة أن يحافظ على القوانين وينقاد لها ويحرص على تنفيذها في السلم كحرصه عليها في الحرب للدفاع عن وطنه اذا أرهقه عدوٌّ بظلم أو عدوان. وكان عندهم برنامج ببيان الأعمال المفروضة عليه مزاولتها في كل ساعة من النهار فكان في فاتحة السنة الزراعية يتولى بنفسه تخطيط أوّل خط بالمحراث. وكان اذا شب ضرام الحرب يركب مركبة القتال ويمسك بأعنة الخيل ويقاتل العدو كواحد من جنوده وكان لا يتولى خدمته رقيق أبداً وكانت له

حاشية مؤلفة من ابناء الكهان المناهزين للعشرين من عمرهم على الأقل لاتصافهم وهم فى هذه السن بالأخلاق الكريمة والمبادئ القويمة ولكى يتقى بمخالطة أمثالهم سوء القالة فى حقه ونسبة الفعال التى لا تتفق مع الكرامة اليه. وكان يستيقظ فى الفجر من نومه وقد لطف مزاجه وصفا ذهنه: أول ما يزاوله من العمل تلاوة رسائل الأخبار الواردة من انحاء مملكته فاذا جاء على آخرها عمد الى الاستحمام ثم أفرغ على جسمه ثوباً ثميناً وحمل الشارات الدالة على مكانته وسمو مرتبته وقصد بعد ذلك الى الهيكل فيقف الكاهن الاكبر ويبسط يديه داعياً الى الآلهة أن يحفظ المليك وبطيل أيامه ليحكم بين رعاياه بالنصفة ويحيي فيهم سنن العدل ثم يسرد ما امتاز به من الفضائل الخلقية كالتقوى والشرف والرأفة وحب الخير وكراهة الكذب والرفق ببنى الانسان والعقاب دون الاستحقاق والمكافأة فوقه . ثم يعلن الهفوات التى زلت فيها قدم الملك عن جهل ومن غير قصد متدرجاً من التشهير بها الى تبرئته منها منحيا باللعنة والمقت على المتملقين والمداهنين من حاشيته الذين يسيئون النصح اليه . وعلى أثر ذلك يفحص الملك أحشاء القربان ثم ينصت لما يتلى عليه من الكتب المقدسة المحتوية سير أسلافه والمثبتة لما قالوه أو فعلوه جديراً بالذكر والتنويه . ومتى

عاد الى قصده بعد أداء هذه الفروض خلا الى نفسه وأخذ يحاسبها على أقواله ويعرضها على محك الانتقاد . وكان لا يستطيع التصرف فى وقته على ما يشتهيه حتى فى حالة ما لو وافاه وفد لمقابلته فلم يكن من باب أولى قادراً على التفرغ للنزهة والرياضة أو الأنس بالملكة قرينته إلا فى ساعات معينة من اليوم . وكان القيم الأعظم على طعامه وكبير الموكلين بسقايته لا يقدمان اليه سوى الأطعمة الخفيفة من لحم العجل والبط وقدر من النبيذ لا يكدر صفاء العقل ولا يفقد الرشد وكان غرضهم من القناعة فى الملاذّ الأناءة فى إنالة النفس متمناها من الشهوات وقاية للمتولى شؤون الأمة المحبوبة من الآلهة من العيوب الجثمانيـة والمثالب الأدبية

فلا جرم بعد هذا اذا لم يضن الجمهور المصرى قط على الملك بالحب والعطف والامتثال . وكيف يضنّ وقد كان يوقر فى شخصه السيادة التى آتته العناية الربانية بها والقدرة على بث المعروف واغداق الخير ويمجده التمجيد الذى حدا به الى التعبير له عن عواطفه تعبيراً يخلده النقش فى الآثار بعد وفاته

وكان اذا مات الملك أسيت الأمة له أسى شديداً ووجدت عليه فتسربلت على بكرة أبيها بسرابيل الحداد وغلقت هيا كلها وعطلت الشعائر القربانية والحفلات الدينية أثنين وسبعين يوماً .

وكان يجتمع كل يوم نحو مائتى رجل وامرأة أو ثلاثمائة ليحثوا التراب على رؤوسهم ويصيحوا بصيحات الرثاء تارة وبالتمجيد تارة أخرى بالايقاع على صوت الموسيقى . وكانوا يمسكون عن شهوات النفس خلال هذه المدة فيمتنعون عن الاستحمام والتضمخ بالروائح العطرية والنوم والرقاد على الفرش الوثير ومضاجعة النساء . وكانت علامات الحزن الصادق تبدو واضحة على الوجوه فيراها كل من حضر لشهود حفلة الجنازة . وفى اليوم الأخير من الاثنين والسبعين يوماً كانت جثة الملك الفقيد تعرض على مرأى من الجمهور بالقرب من القبر وتتلى عليها أمامه التعازير والملاوم والشكاوى ويلقى الكهان الخطب المسهبة فى تأبينه . فاذا صفق الحاضرون استحساناً لما جاء فيها خولت جثة الملك حق التشييع بما يليق بمكانة صاحبها من الاحترام والحفاوة . أما اذا لم تنل الاستحسان فكثيراً ما كان يحدث أن يمحى اسم الملك من الآثار الدينية التى نقش على جدرانها .

وليس معنى عناية المصريين بمحاكمة الجثث على ما اقترف أصحابها فى حياتهم من الآثام أنهم كانوا يغفلون محاكمة الأحياء على ما وجدوا متلبسين به من الجنايات . فلقد كان كل من مدائن عين شمس ومنفيس وطيبة يختار ثلاثين رجلا من أهله المعروفين

بالصلابة فى الحق والالمام بأطراف العلوم الشرعية ليتألف منهم مجلس قضاء لا تؤثر فيه عوامل الزلفى وكانوا يجعلون على رأسهم أرسخهم قدماً فى الفضائل وأوسعهم علما بالشرائع وأصدقهم ميلا الى صون الحقوق العامة .

وكان الملك ينفق عليهم من جيبه وينجز حاجتهم ويقضى إربتهم لكى اذا خلت نفوسهم بذلك من الهم والقلق على أهلهم وأولادهم تفرغوا للقضاء بين الناس بالحق لا يبغون على عملهم أجراً ولا يتأثرون بالمباغتات والشهوات ولا بمنطق البلغاء والفصحاء من المتقاضين لأن تفاصيل الخلاف كانت ترفع اليهم بها من قبل النتائج والمذكرات . وكان فريقا المتخاصمين يترافعان بنفسهما فاذا ما ودّ رئيس المجلس الانسحاب للمداولة أشار بأصبعه الى تمثال ساته إلهة الحقيقة المنوط في عنقه بسلسلة ذهب فاذا تبين له أن الحق بجانب فريق دون الآخر وأراد إعلامه بذلك لمسه بذلك التمثال

ولا يزالون يعثرون بمصر أثناء البحث عن الآثار بصور تمثل أصحابها مطرقين الى الأرض ولا أيدى لهم ، اشارة الى أن القضاة لا ينبغى لهم أن ينظروا الى شيء كلاّ ولا أن يقبلوا شيئاً .
وكانت المجلدات الثمانية للشريعة فى متناول أيديهم على الدوام وهاك خلاصة منها :

الفعل الأدبى للقوة التشريعيـة يرتكز على اليمين . فاليمين تبرئ ذمة من اقترض بلا توقيع على سند ليس للمسلف أن يرفع فوائده الى ما يتجاوز رأس المال ولا أن يضبط من الاموال ما يتعدى قيمة الكفالة — الحرية الشخصية مرعية الحرمة محترمة الجانب وللوطن وحده التصرف فى ابنائه

إلاّ أنهم كانوا فى بعض الأحيان يرهنون لدى الدائن مومياء المدين ، ولما كان أكبر وسائل العزاء عندهم التأمل فى شخص فقيدهم فقد كانوا يرون من العقوق الوالدى أن يموت المرء قبل استرداده تلك المومياء بدفع المستحق على صاحبها

وكانوا يرون ان نكث العهد داعٍ الى انقلاب احوال الجمعيات وأن الحنث فى اليمين سوأة فى الآلهة تطوقهم العار. لهذا كان عقاب الحانث الحكم باعدامه كالقـاتل للنفس المحرم قتلها سواء أكان القتيل حراً أم عبداً . وكانوا يعاقبون المفترى بعين العقوبة التى يعاقب بها من افترى عليه اذا ثبت كذب فريتـه. وكان قطع اليدين جزاء المزيف للنقود او المطفف الكيل أو غير مقيم الوزن بالقسط أو المقلد الاختام أو مزوّر العقود من الكتبة العموميين أو الذى يضيف منهم الى نسخ هـذه العقود او يحذف منهـا ما لم يتفق الفريقـان عليه . وكانوا يعاقبون من

يهتك أسرار الحكومة بقطع اللسان والزانى بقطع الانثيين (الخصيتين) وكذا منتهك الأعراض والزانية بجدع الانف والمحرض لها على الزنا بألف جلدة بشجر الغاب. ومما هو حرىّ بالانتقاد تجاوزهم اذ ذاك عن الذين اعتادوا نشل الأشياء الحقيرة الى حد كان من نتائجه ان تألفت للنشالين عصابات برياسة الشطار منهم كانت تحتفظ بالمسروقات لتردّها ثانياً الى أصحابها بحلوان يعدل ربع قيمتها . وكان إذا دهم أحدهم خطر ولم ينقذه منه من استطاع الى ذلك سبيلا عومل معاملة المجرم بقدر ما يكون قد وصل من الأذى الى من تعرض للهلاك وكان القانون يقضى على الشاهد الذى يثبت عجزه عن أداء ذلك الواجب بالارشاد الى المعتدى او اقتفاء أثره بنفسه فى الوقت فأذا ضرب صفحاً عن ذلك جوزى على إهماله بالضرب بالعصى والحرمان من الطعام والشراب ثلاثة ايام . وهذه المبادىء على غرابتها جديرة بأن تعد من مبادىء التعاون الذى كان ظاهر الأثر فى ولائم الاغنياء. فقد كانوا يضعون فى غرفة الوليمة تابوتاً فيه تمثال خشب أجيد طلاؤه بالالوان وهو يمثل ميتاً محنطاً فاذا حضر المدعوون جميعاً وانتظم سمطهم بالجلوس حول المائدة طاف عليهم من يطلعهم على هذا التابوت والتمثال المودع به واحداً واحداً وحضهم على

الاتفاق وأن لا يطيلوا بالشقاق حياتهم القصيرة المدى كحياة ذلك الميت المزعوم. وكان مما يقال لهم في هذا الموضوع: « انظروا هذا الرجل فأنكم ستكونون مثله يوما ما فهلموا اذاً الى البسط والانشراح واشربوا معا غير مفترقين . وكان المصريون قد اقتدوا بعد الفتح اليونانى بمعبوداتهم فى اتخاذ اخواتهم نساء لهم. فقرروا ان يكون ابناؤهم منهن معترفا بهم قانوناً ومما هوّن عليهم هذا القرار اعتبارهم ان الأب هو الموجد للابن وان الأم ليست إلا حوضاً له ومصدراً لغذائه . فكأنهم بذلك قد راعوا القاعدة التى عمل بها اليونان باعتبارهم الشجرة التى تأتى أكلها من الثمر كل حين ذكراً والشجرة التى لاتثمر لها أنثى وكانوا ينشئون أبناءهم على القناعة والزهد والتقشف حتى قيل ان نفقات تربية الغلام الى ان يصير يافعا كانت لاتتجاوز عشرين درهما اذ كانوا يعرونهم من الثياب ويطبخون لطعامهم الحشائش ولبّ بعض الأشجار أو يقتصرون فى تغذيتهم على الكرنب وجذوره نيئة أو مصلوقة أو محمرة . أما طريقتهم فى التحية فكانت بخفض اليد الى الركبتين وكان اليافع مطالبا بالتأدب فى حضرة الشيوخ فيقف إذا دخلوا ويتنحى عن طريقهم او يأخذ طريقاً غيره اذا التقى بهم وكان قاتل أبيه يعاقب بتقليب جسده على أشواك كالاصبع

فى طولها حتى اذا نفذت فى جسمه جميعاً أحرق حياً وهو واقف على الشوك . أما قاتل ابنه فكان عقابه تمليقه ثلاثة أيام وثلاث ليال بجثة فريسته

* * *

ولو كان من الأغراض التى يرمى اليها المؤلف إيصال حلقات هذه السلسلة التاريخية بعضها ببعض لما كان له فى هذه الآونة محيص عن سرد الأسرات الملوكية القديمة برمتها نقلا عن القائمة المسهبة التى نقلها مانيتون كبير كهنة عين شمس عن النقوش الهيروغليفية والسجلات المقدسة ولصور للقارىء بلاد مصر منذ الساعة التى تنحت فيها عن العمل بأنظمتها الجليلة وقوانينها التى سردنا فيما تقدم البعض منها معجبين ووقفت بحافة الهاوية التى توارت فيها سعادتها وخفض عيشها واستكانت لأقصى ما ما يمكن لأمة ان تحمله من استبداد أمة اخرى بها ومعاملتها لها بالحيف والعسف . ولقد توالى عليها الفرس واليونان والرومان والعرب والترك والمماليك والفرنسيون فما من أمة منها إلا واستذلت تلك الأمة المصرية عميدة الشعوب القديمة والحديثة وعاملتها معاملة من يريد بها ان تكفر عن مجدها السامق السابق كما لو كان جناية اجترمتها

ولا يسع مصور هذا المنظر الغريب ان يلقى من بين أنامله قلم التصوير قبل ان يرسم منظرا دقيقا قلّ ان يعثر بمثله الباحث فى اية صورة تاريخية أخرى . نريد بهذا المنظر ذاك الذى يصور انقضاء خمسة أجيال فيما بين الفتح العثمانى والفتح الفرنسى لمصر لبث صولجان الحكم أثناءها بقبضة قوم كانوا بالأمس يساقون سوق الانعام ويشترون بالمال فأصبحوا وقد اتشحوا بوشاح الملك وحملوا شارة الحكم والسلطان

وما أصدق ما وصف به مصر مؤلفو كتاب « نابوليون بالقطر المصرى » إذ قالوا : « مصر بلد نادر المثال غريب الشكل فكأن مبانيه الأثرية أطلال عالم غير عالمنا ونهره المنبثة فى كل قطرة من مائه اسرار الحياة وصحاراه المرصعة بالواحات الخضراء تشبه فى احتجاب أسرارها أسرار النقوش الهيروغليفية التى طالما عزّت على طلابها فى هياكلها وبالجملة فأنه قلما أوحى الى خاطر مؤلف موضوع أجل شأنا وأعظم خطرا من موضوع الكتابة عن مصر »

وكتب فوربيه فقال : « يفيدنا البحث فى احوال مصر وثوق الرابطة بين نمو الادراك العقلى واتساع نطاق الصناعة بالنظام العام . وهو ينبه فينا الشعور بجلال قوانين مصر وجمال

نسق حكومتها وقيام أنظمتها على الآساس الوطيدة واستمدادها بالآراء الرشيدة ونحن كلما توسعنا فى ذلك البحث وتقصينا أسرار تلك الأنظمة والقوانين ازداد تعلقنا بها واحترامنا لها وأيقنا أن للاشياء المتينة المستمرة البقاء جلالا خاصا بها وانه إذا دعت رشاقة الشكل الى الأجادة والاحسان فأن تصور الجمال يتناول بضرورة الحال تصور البقاء والجلال فلا جرم اذا تجلى هذا المبدأ من خلال أبحاثنا وأثر التأثير النافع فى أذواق أهل الجيل واعمالهم »

مصر الحديثة

مصر المطلقة من أغلال العصور السالفة ،الشهيرة بآثارها الضخمة على عهد ابنـاء مينيس ، الشديدة البأس الصعبة المراس أيام العماليق الرعاة ، الوثيقة الأركان الشامخة البنيان على عهـد الفراعنة ، الساطعة الأنوار اليانعة الثمار تحت حكم الولاة والامراء ، الرافعـة لواء العلم والعرفان فى عهد البطالسة، المتدينة بالمسيحية تحت حكم الرومان ، المستوفزة للقتال ومقاومة الاعداء أيام الخلفاء . مصر التى نهضت واقفة تسير بجنان ثبت لقتال الافرنج في القرون الوسطى ، مصر التى كان هذا بعض شأنها العظيم فى التاريخ لم تلبث أن زلت قدمها في المعاثر فسقطت فى قبضة المماليك الجهلاء الغاشمين . وبعد ان كانت فى تلك العصور السالفة المتصرفة في شؤونها المهيمنة بارادتها على أمورها أصبحت رقيقة للأرقاء ومملوكة للمماليك. وسنذكر فيما يلى كيف سقطت

من علوة مجدها الشامخ وشوكتها الرفيعة الى هـذا الحضيض حضيض الضعف والاستكانة

كان كليبر اذا ذكر نابوليونا قال عنـه : « هو قائد يحتاج فى كل مطلع شمس الى ستة الآف جنـدى » . ولقد أوردت حروب جنكيزخان موارد الردى ستة ملايين من الأنفس وهو الذى من دون الفاتحين أذل العدد الأعظم من الأمم وكان يعذب العصاة بألقائهم فى قدور كبيرة من النحاس يغلى الماء فيها على النار وكان لديه منها سبعون قدراً . وكان يحرق المدائن والقرى فيجعلهـا خرابا يبابا . قال تيمورلنك تلميذ جنكيزخان فى العبث والأفساد واصفاً إياه إنه كان يثير عواصف الخراب فى الجبال والأودية والسهول ووصفه غـيره فقال إنه كان نمرا بوجه آدمى . اذا دخل مدينـة خربها وشق بطون الحوامل من نسائها وأطلق على الجهات التى وطأهـا اسم « موبالك » اى « معهد الحداد » . ولمـا ملّ جنكيزخان حصد الأرواح وبث الخراب وسئم النهب والسلب وانتهاك الأعراض وارتوى بما كان يسفكه من الدماء استرق وسبا من الذكور والأناث من سلم من الحديد والنار حتى غصت معسكرات المغل وأسـواقهم بالأرقاء والسبايا من الجركس والأباظية فتيانا وفتيات . وفي سنة ١٢٤٠

من الميلاد اشترى السلطان نجم الدين أيوب أثنى عشر الفاً من هؤلاء الأرقاء أقرهم حول قصره ودرّبهم على أساليب القتال . واتفق له وهو يحاصر نابلس من مدائن الشام ان تبدّدت جنوده من حوله ولم يصمد لقتال اهلها غير أولئك المماليك فتمكن بفضل ثباتهم من النجاة . ولما استوى على عرش مصر أتخذمنهم حرسه الخاص واعتمد على اماتهم واخلاصهم فى الدفاع عنه عند الحاجة ولا سيما اذا أراده الأمراء الذين انتزعوا الملك من يد أخيه بسوء ثم ألف منهم الجيوش وأطلق عليهم اسم المماليك فكان جيشهم أجمل الجيوش الأسيوية منظرا وأشدها بأساً واكثرها بسالة وإقداما ولكنها كانت مع ذلك أسرعها جنوحا الى التمرد والعصيان . وكان شأن المماليك على الجملة أشبه بشأن البريتوريين في رومية والانكشارية فى الآستانة من حيث أنهم لم يلبثوا ان اسقطوا مواليهم من عروشهم واغتصبوا زمام الحكم من أيديهم وتصرفوا في شؤون السلطنة بما شاءت اهواؤهم

وكان فرسان الصليبيين ينتظرون فى الثانى من فبراير ١٢٥٠ عند معبر مخاضة صدور الأشارة اليهم بخوضها وعبورها فطلب الكونت دارتوا أخو الملك تخويله الشرف الاسنى باجتيازها قبل غيره فتلطف لويس التاسع في اقناعه بما يمكن ان ينشأ عن

تحمسه من الخطر للجنـد إلا ان الـكونت لجّ فى الرجاء وقال : « اقسم لك يامولاى بالأناجيل المقدسة انى لن أعمل عملا ما قبل وصولك عبر المخاضة » . فأذن الملك له بالعبور فسارع الـكونت دارتوا الى اجتيازها على رأس طليعة من الجيش وكانت المخاضة فى ترعة أشمون فغرق فى مياهها بعض الفرسان ومنهم جهان دورليان حامل العلم . وقد رأى المصريون ذلك فتقدم منهـم من جنودهم لمقاومة العابرين وتعطيل حركتهم ولـكن الفرنسيين صدوهم وفرقوا شملهم وما رآهم الـكونت دارتوا يولون الأدبار حتى نسى الميثاق الذى أعطى للملك أن يمسك عن أى عمل حتى يحضر وأطلق العنان لجواده فتقدم اليـه اثنان من قواد الجيش وضرعا اليه أن لايخيس بعهده مع الملك فلم يصغ الى نصائحهما كيلا تفلت من يده فرصة الانتصار على العدوّ . بل قطع عليهما الـكلام قائلاً : « الى غيرى يجوز لـكما توجيه هذه النصائح » وأمسك فوركودى مرل استاذه ومربيه بأعنة جواده . ولم يكن هذا الشيخ الجليل قد سمع شيئاً مما دار من الحديث لصمم فى أذنيـه . وكان يريد بذلك الافتخار بتلميـذه والأشعار بأنه سيحرز الفوز فى هـذا اليوم ثم تقـدم قليلا معـه وصاح بما حضره من الجهد والقوة « هلموا

الى المطاردة . . . » نخشى جماعة الهيكليين (١) من الجنود أن يلحقهم العار اذا تركوا الأمير يتقدمهم الى العدو فانطلقوا يستحثون الخيل ليسبقوه اليه وكان عددهم ألفاً وأربعمائة فتدفقوا على المصريين واستولوا على معسكرهم وواصلوا المسير الى المنصورة فدخلوها عنوة بعد أن قتلوا حراسها

وكان فخر الدين قائد الجيش المصرى لاهيا فى هذه الساعة بصبغ لحيته في الحمام فلما انتهى اليه النبأ المشؤوم وثب على ظهر فرس بلا سرج ولا عنان وقبل أن يتمكن من لبس ثيابه يريد المسارعة بذلك الى العدو لصده وإيقاف تيار تقدمه ولكنه لم يلبث ان قتل قبل ان تحقق أمنيته

وكان بين الطليعة الظافرة وبين بقية الجيش ما لا يقل عن فرسخين فأدرك بيبرس زعيم المماليك ما يمكن ان يحيق من السوء بالأعداء لبعد ما بين جيشيه من الشقة وأحب أن يغتنم هذه الفرصة للفتك بالعدو فجمع فلول جيشه المنهزم وبعد أن أقنعهم بقلة عدد المسيحيين جمع اليه الفرسان المصريين وانطلق

---

(١) او طائفة التامبليه وهى طائفة اسست سنة ١١١٨م وامتاز فرسانها بالبسالة فى الحروب الصليبية واحرزوا ثروة عظيمة احب الملك فيليب الجميل الاستيلاء عليها فاضطهدهم وقبض عليهم واهلكهم احراقاً بالنار بعد قضية لفقها عليهم وفى سنة ١٣١٢ امر البابا كليمان الخامس بايعاز من ملك فرنسا بالغاء طائفتهم

بهم الى ما بين المدينـة والترعة ليحول دون الاتصال بين شقى الجيش الفرنسى . فانقض عندئذ المماليك الذين وصفهم احـد المؤرخين العرب بأنهـم أسود القتال على الفرنجة أنقضاض الصاعقة فأبادوا فريقا منهم وفريقا أفشوا فيه الجراح وزجّ البقية الباقية منهم الى الأزقة فلم يستطيعوا القتال ركبـاناً ولا استعمال السيوف لضيق المجال وأيقن الأهلون بحرج موقفهم فأخـذوا يلقون عليهم من الاسطحة والنافذات وابلا من الأحجار والرمال المحماة بالنار ويرشقونهم بالنبال

وسمع من ظاهر المدينة أثنـاء ذلك صوت الابواق ودوىّ الطبول وصهيل الخيول وجلبة المحاربين فاذا هى منبعثة من الجيش المسيحى الذى تمكن رغم اعتراض الفرسان المصريين له من الزحف لاستنقاذ الـكونت دارتوا. وقد برز الملك لويس التاسع فى طليعة شراذمه فوقف فى الطريق على أكمة عالية وعلى رأسه خوذته المذهبة وبقبضته سيفه الألمانى فما هى إلا لحظة حتى التحم الجيشان وتصاولا بالسيف وحد السنان ووصف المعركة أحـد مؤرخى لويس التاسع الذين رافقوه فيها فقال : « مارأت عيناى قط فيما شهدته من الحروب التى وقعت بعيداً عن الوطن والديار حرباً جمة الحوادث جليلة الشأن بما بدا فيها من بسالة الطائفتين

طائفة المسيحيين وطائفة الكفار (المسلمين) كهذه الحرب »
وكان جوانفيل وجملة غيره من الأبطال قدحف بهم مكروه إذ
أصيب أحدهم وهو إيرارد دوسيفرى بضربة سيف فى جبهته
تدفق منها دمه حتى أيقن الحاضرون انه لن يعيش بعد هذه
الأصابة ولكنه صاح بالحاضرين « أيها الفرسان اذا كنتم لا
تظنون بى الظن أننى ألتمس النجاة لنفسى وتكفلون لى ولأولادى
من بعدى أننا سنبقى بعيدا عن اللوم والعار فأنى أجيئكم
بالكونت دانجو الذى أراه هناك بين تلك الحقول » فأجابوه :
« أيها السيد إيرارد إنك لتحسن صنعا وتقلدنا شرفا اذا ذهبت
اليه وسألته النجدة لنا جميعا » فاخترق فى الحال بجواده صفوف
العدو منطلقا نحو الأمير حتى إذا وصل اليه عاد معه لتخليص
زملائه . ولم يلبث بعد عودته ان فاضت روحه مظهراً الاغتباط
بأن العار لن يلوث اسمه ولن يدرك ابناءه من بعده

قصد بيبرس والمماليك الى تلك الجهة من الترعة فسارع
الملك لويس التاسع بالتراجع الى الوراء وحشد ما عنده من
القوى فى نقطة واحدة غير أن اوامره اليها كانت تذهب كصرخة
فى واد لما تولى على الجنود من الفزع عندما تفاقم الخطر واتسع
الفتق فرأى من الواجب وقد تمكن من إعادة النظام الى صفوفه

بعد ان استنفد فى هـذا السبيل جهد استطاعته ان يجعل نفسه قدوة للعساكر تحمل على المصريين ولـكنه ما كاد يدنو منهم حتى أحدقوا به من كل جانب وأمسك ستة منهم بعنان جواده ليأخذوه أسيراً إلا انه استجمع قواه لمقاتلة هذا النفر فتغلب عليهم وكتب جوانفيل فى هـذا الموضوع فقال : « ان قدرة الله ضاعفت قوته وأيدت تقواه ولولا هذه القدرة التى هي فوق طاقة البشر لفقدنا جميعا . وما شهد الفرنسيون مليكهم وقد تغلب على أعدائه وأوردهم شر الموارد حتى دبّ الحماس فى نفوسهم فأحاط الفرسان به وفرقوا العدو من حوله »

وكان الكونت دارتوا لا يزال فى المنصورة يقاوم الاعداء فى قلة من جنده فتحصن بأحد المنازل وأتى من آيات البسالة ما يستحق ان يكون « أحدوثه سائرة بين الناس » كما قال أحد المؤرخين بالحرف الواحد . وانتهي الأمر به أن سقط قتيلا مكفراً بموته عن خطيئته التى زلت فيها قدمه بمخالفته أوامر قائده. ومات معه فى هذه المعركة سالسبورى . وقبل أن يجيء نعيه الى والدته الصالحة ذلك اليوم رأته فيما يرى النائم كأنه متوج باكاليل الفخر وعارج الى السماء . وكان روبرت دوفير يحمل العلم الانكليزى فخرّ صريعا وعلمه من فوقه فكان له منه أشرف كفن

وقتل رؤول دى كرسى مع من قتلوا وأخذ قائد فرقة الاوسبتاليه أسيراً وتمكن قائد طائفة الهيكليين من النجاة بمعجزة إذ عاد فى المساء الى إخوانه المسيحيين مثخن الوجه بالجراح ممزق الثياب والدروع وروى أنه رأى مائتين وثمانين فارساً من رفقائه قد فارقوا الحياة أثناء القتال وعاد دوق بريتانيا الى المعسكر الفرنسى مقتديا بجي دىما لفوزان فى بذل قصارى الجهد لدخول المدينة لانقاذ الكونت دارتوا أخى القديس لويس فلم يستطع ان يفتح الأبواب ولا ان يتسلق الأسوار لانسكاب الدم من فيه بمقدار عظيم وكان يمسك بيديه رقبة جواده لانقطاع عنانه ومع ذلك فكان يروع بمنظره هذا أفئدة المطاردين له ويبعدهم عنه بطعنات رمحه ويلتفت اليهم موجها عبارات الاستهزاء والاستخفاف ووقف كل من جوانفيل والكونت دىسواسون وبطرس دى نوفيل وغليوم دى بون وحنا دى جوماس عند قنطرة لكيلا يؤخذ الفرنسيون من خلفهم فتمكنوا بوقوفهم بذلك المكان كالبنيان المرصوص من صد شراذم كثيرة من المصريين . وأصيب بطرس دى نوفيل بضربة في رأسه وسقط سينيشال شامبانيا مرتين عن جواده بعد أن قتل مصريا هائل الجسم بطعنة واحدة واستنجد في ساعة كرب وضيق بالقديس

جاك فقال : « أيها السيد الجميل جاك أضرع اليك ان تساعدنى وتسعفنى بالخلاص من هذا الكرب الشديد » فجرح للمرة الحادية عشرة بسهم وأصيب جواد. من تحته للمرة الخامسة فلم تمنعه هذه الطعنات المتوالية والجراح الدامية من الضحك لما سمعه من مطايبات الكونت دى سواسون فى هذا الموضوع

وكان لويس التاسع قد أحرز الفوز من كل وجه فى تلك المعركة فعاد الى صيوانه . أما السينيشال فقد نزع خوذته لضجره من ثقلها . ثم سار في صحب له يتحدثون فى وقائع اليوم . وقصد الأخ هنرى رئيس مستشفى روسناى الى الملك ليقبل يده وليستفسر عن احوال الكونت دارتوا فاجاب لويس التاسع : « الذى أعلمه علم اليقين أن أخى مقيم فى هذه الساعة بدار النعيم » ثم رفع رأسه الى السماء منهمل العبرات بينما كان الامراء الحاضرون صامتين يحمدون الله فى نجواهم ويأسون لمصاب مليكهم ويشاطرونه همه وغمه

ولولا حيطة المماليك وحذق زعيمهم ولطف حيلته فى الحيلولة بين المسيحيين والهجوم شراذم متدفقة لأصبحت مصر اقليما فرنسيا . ولكن قدر الله وأراد ان لا تحقق هذه الأمنية وأن يطلق المماليك من المنصورة فى صبيحة غد يوم الواقعة الى

القاهرة حماما زاجلا يحمل اليها رسالة نصها : « لقد انقض العدو على المدينة فوقعت معركة كبيرة بين المسلمين وبينه »

وعثر المماليك بجثة الكونت دارتوا فانتزعوا قميصه الحريرى المزركش بأزهار الزنبق وطافوا به على الناس ينادون : « هذا ثوب ملك فرنسا الذى سقط فى ميدان القتال مضرجا بدمه » وطافوا ايضا برؤوس القتلى من أعيان الفرسان محمولة بأطراف المزاريق ينادون : لقد اصبح جيش المسيحيين بعد قتل مليكه وأمرائه جسما بلا روح وشجرة بلا ثمر » ويوم الجمعة الأول من عيد الفصح تحرك الفرنسيون لهجمة عامة فأقاموا الدليل ذلك اليوم على أنه لم يكن من أيامهم الأخيرة خلافا لما حسبه العدو

وشوهد سلطان مصر يومئذ راكبا جواده منذ شروق الشمس يرتب جيوشه فى مصاف القتال بين ترعة اشمون والنيل فلما انتصف النهار نشر ألويته ودقت طبوله وانبعثت الاصوات من أبواقه مؤذنة بالهجوم فتجاوبتها الآفاق وشعر الناس كأن السماء أطبقت على الأرض . وما التحم الفريقان حتي اخذ الرماة المشاة من الجيش المصرى يمطرون الفرنسيين وابلا من النار اليونانية خيل معه للأنظار أن الكواكب هوت من مواقعها فى السماء فامتلأت بها الأجواء ؛ وكان الذين يصيبهم من الجنود

لهيب تلك النار يركضون على غير هدى ويفرون لا يلوون على شيء صائحين صيحات الفزع والتهيب كما كانت الجنود تعدو فى كل ناحية ساحبة سروجها مضرجة بالدماء ففشا الاختلال لهذا السبب في صفوفهم وانفرط عقدهم بشكل تذرع الفرسان المسلمون به لاختراقها وقد قتل جواد الكونت دانجو من تحته فقاتل راجلا قتال المستميت وظل يقاتل حتى فقد جميع رجاله. وبلغ نبأ الكارثة الى لويس التاسع فخشى أن يكون أخوه قد مسه ضر فهب لنجدته وانقاذه من مأزقه وبعد أن امتطي جواداً انطلق يشق به الجموع المعادية ولم يصبر حتى يصحبه بعض أعوانه فتمكن مع هذا من درء الخطر عن أخيه وزحزحة المصريين عن معسكرهم

وكان خلف فرسان طائفة الهيكليين مسطح أرض بسعة مائة قصبة تخلل بالسهام والرماح والمزاريق حتى كان الرائي لايستطيع أن يرى منفذاً الى الارض من بينها وهو مايدل على حسن بلائهم فى القتال وأصيب عظيمهم بفقد إحدى عينيه فى معركة سابقة ففقد العين الأخرى فى هذه المعركة ثم خر صريعاً بعد قتال عنيف

وعالج المماليك الانسياب فى المعسكر المسيحي لنهب ماحتوته

الخيام من المتاع وعدد القتال فتمكنوا من اختطاف الكونت دانجو والابتعاد به خارج المعسكر فبرز أخوه الكونت دى بواتييه لاستخلاصه منهم فوقع أسيراً في أيديهم ولكنه كان قد استمال العمال والباعة الذين تبعوا الجيش يبيعونه سلعهم المختلفة وكذا النساء اللائي كن يتحركن بحركته اليه لما كان يظهره لهن من دلائل الرفق والمودة فلما انتهي الى علمهم نبأ أسره صاحوا صاخبين ناقمين وتسلحوا جميعاً فريق منهم بالخناجر وفريق بالنبابيت وفريق بالاحجار وهجموا على المصريين فاستنقذوا منهم الكونت وعادوا به ظافرين

وكان جوسران دى برانسون وابنه وفرسانه الذين برحوا الديار الاوربية ممتطين كرائم الخيل المطهمة ومسلحين بالسيف والرمح يقاتلون راجلين بالقرب من ذلك المكان فسقط اثنى عشر منهم على الرمل مضرجين بدمائهم وكان جوسران على أثر قتال ضد الالمان الذين جاءوا الى مدينة ماكون (احدى مدن فرنسا) لنهب كنيستها قد جثا على ركبتيه أمام الهيكل ودعا الي المسيح أن يموت وهو يدافع عن دينه فأجاب المسيح دعاءه فى هذه المرة إذ وافاه الموت بعد أن ظفر فى ست وثلاثين معركة واستدعى الملك اليه كبار رجال جيشه من البارونية

والشفالية وقال لهم : « معشر الامراء وجماعة الاصدقاء لعلكم تبينتم مقدار ما أسبغته علينا العناية الألهية من نعمها الجزيلة فى كل يوم وأنتم تعرفون أننا فى يوم الثلاثاء الأخير قد كسرنا العدو شر كسرة وأجليناه عن مراكزه وهانحن أولاء فى معسكره . ولا نزال نخر واقعة الجمعة وشرفها لاصقين بنا فعليه الخسران والخزى والخذلان ولناضد ذلك وإنى لأسألكم أن تحمدوا الأله القدير فلئن تحمدوه ليزيدنكم رعاية وعطفاً

ولم يمض طويل زمن بعد ذلك حتى خيل للمتأمل فى الحالة أن الله الذى ضرع أولئك الأمراء من صميم قلوبهم اليه أبى الا أن يمسك عن رعاية جنود الصليب ويضن بالأخذ بناصرهم . فأنهم فضلا عما تكبدوه من مصائب الحرب قد فشت فيهم الأمراض الوبيئة كالاسقربوط والدوسنطاريا والحميات المختلفة وأصيب الأقوياء منهم بما أصاب الضعفاء من نحول الجسم واصفرار لون البشرة مع انتشار النقط السوداء فيها وتمزق لثة الأسنان بمرور الاغذية بها وملامستها . وعمت النكبة حتى صار لا يسمع من جانب المسيحيين سوى صلوات الاحتضار أو الجناز وصارت لا تقع الانظار إلا على وجوه صفراء تشعر بأن الموت من أصحابها كقاب قوسين أو أدنى وكم من قسيس وقف فى مصلاه موقف

المصلى بالحاضرين أو تلمثم بالصلاة على ميت فأذا به قد سقط مغمياً عليه فلم يعد بعده الى موقفه ولم تنبس شفتاه بكلمة من الصلوات العادية أو الجنازية . وكم من جندى صادق أمين حضره الموت فكان كل ما تطلع اليه من العزاء لنفسه ان يرى ملكه أو يسمع صوته . ولم توقر الأوباء كبيرا ولم تعطف على صغير إذ أصيب بأحدها الملك لويس التاسع نفسه

وكانت المواصلات مع دمياط قد قطعها المصريون فجاءت فتكات المجاعة بعد تلك الشدائد المدلهمة ضغثا على إبالة . وعزّ المطلب من الأغذية حتى أن الثور كان لا يباع بأقل من ثمانين جنيها (جنيه ذلك الزمن يعدل من نقود عصرنا فرنكا واحدا) والخروف عشر ريالات (ريال ذلك الزمن كان يعدل ثلاثة جنيهات اى فرنكات) والبيضة بأثنى عشر ديناراً (دينار ذلك العهد جزء من اثنى عشر جزءا من الصلدى والصلدى يعدل بنقود زمننا مليمين مصريين) وتجاه هذا الغلاء الفاحش لجأ الفرنسيون فى سد رمقهم ودفع المجاعة عنهم الى التغذى بأسماك النيل والحشائش وجذور النباتات . ولما اشتد الضنك بهم جرت على ألسنتهم كلمة الهدنة فالتمسوها من السلطان فاشترط هذا فى الموافقة عليها تسلم ملك فرنسا رهنا عنده فكان جوابهم أنهم يفضلون

الموت على أن يرهنوا مليكهم المحبوب

تراجع المسيحيون نحو دمياط رجاء الحصول فيها على شيء من الأغذية فلم يلبثوا ان رأوا السهل الفسيح المترامى الأطراف حول هذه المدينة قد انبث المسلمون فى أرجائه وقطعوا خط الرجعة عليهم . ولقد نالوا من المؤخرة الفرنسية نيلا شديداً ويئس جى دوشاتل من العودة الى موطنه فألقى بنفسه هو ومن معه فى جموع الجنود المصرية التى لم تلبث أن أردته هو واصحابه وفقد الملك خوذته ودروعه ولم يبق معه من عدة القتال سوى سيفه فاحتمل الصعاب فى البقاء ممتطيا جواده العربى الذى كان يغطيه غطاء رقيق من الحرير . وكان سرجين واقفا الى جانبه يناضل عنه ويبعد العدو من حوله وما زال كذلك حتى استطاع الذهاب بالملك الى أحد منازل القرية . وكانت به سيدة باريسية فرمى بنفسه على فخذيها حتى ظن بسبب ما كان يلوح على وجهه من التعب الشديد وآثار المرض المضنى أنه لا بد مفارق الحياة الدنيا بعد هنيهة من الزمن وتصدى البطل الباسل جوتييه دوشاتيون بالدفاع بمفرده عن الزقاق الضيق المؤدى الى هذا الموئل المقدس فامتطي جوادا قويا وتسلح بكل ما وصلت اليه يده من عدد القتال . فلما لاح المصريون همّ بلقائهم واندرع نحوهم واقفاً على

ركابيه صائحاً بملء فيـه : « الى شاتيون ! يامعشر الفرسان الى شاتيون ! » فلما بدد أفواج الكفار « اى المسلمين » الذين تدفقوا عليه انقلب بجواده الى الخلف ليقاتل الذين فجأوه منهم ثم انتزع السهام الناشبة فى جسمه مقرطسة فيه من العدو واستأنف الهجوم عليه ولـكن انتهى الأمر به الى السقوط على الأرض قتيلا مجلل الجسم بالنبال كما سقط جواده الذى كان الدم يقطر من جراحاته الـكثيرة . ولقد أعجب احد المصريين ببسالة شاتيون فأخذ يقصها على الناس مظهراً لهم رأسه وسيفه وكان قد احتزّها مفاخراً بقوله : « لقد قتلت أشجع الجميع »

ووقع لويس وأخواه فى أسر المسلمين فـكبلوا بالأغلال ولم يرع سلطان مصر حرمة الملك ولم يعامله بما هو خليق به من الاكرام والعطف وكان راؤول دى وانون لا يستطيع منذ فقـد ساقيه فى الوقائع السابقة الانتقال من مكان الى مكان . فأشفق بحاله شيخ مصرى أركبه معه على دابته وعومل جوانفيل وبعض الفرسان الهيكليين بالشدة والقسوة إذ كانوا يمرّون بحد السيف على رقابهم إخافة لهم وازعاجا . وتفاوض هؤلاء فى أمرهم فاتفقوا على إلقاء السلاح من أيديهم الا تلميذا من تلاميذ الأكليروس كان معهم أبى موثرا الاستمرار على القتال حتى يقتل طمعا فى

الذهاب الى جنة النعيم . وتناول السنيشال صندوقاً صغيراً فاستخرج منه جواهره وتحفه الأثرية الثمينة وألقي بها فى النيل ثم سلم بنفسه وكان على وشك أن يقتل ذبحا حينما تعرف عليه فرنسى اعتنق الاسلام فضمه الى صدره صائحا « هذا ابن عم الملك » وما وقف المصريون على حقيقة أمره حتى جردوه من درعه وسائر ثيابه ثم وضعوا على رأسه قلنسوة وعلى كتفيه غطاء أحمر اللون محشوا بصوف الفرو وجعلوا حول وسطه حزاما من الجلد وقدموا اليه كوب ماء . وكان لا يستطيع الشرب فأخذ يصيح قائلا إنه قد مات . فحزن عليه اتباعه حزنا شديدا ولبسوا من أجله الحداد . وكان معهم غلام أكثر من النحيب والأعوال وهو ولد الأمير مونفكون من السفاح وكان قد رأى من معه من المقاتلين قد أفنوا عن آخرهم فاستطير لبه روعاً وتهيب المستقبل والتمس من جوانفيل أن يجعله فى حماه وخفارته ولكن عهد الى أحد المصريين بحراسته فلما حانت الساعة لمفارقته اياه هو والسينيشال قال لهذا الأخير : « خذ بيد هذا الغلام فأن المصريين متى رأوا رثاثة حالكما وحرج موقفكما اشفقوا عليكما ولم يجرأ أحدهم على أن يمسسكما بسوء »

وبلغ عدد قتلى المسيحيين فى هذه الحوادث المهلكة

ثلاثين الف نفس تولى المماليك إفناء الشطر الأوفى منهم وأخذ لويس التاسع الى المنصورة حيث انتقل فى دار فخر الدين كاتب أسرار السلطان وعهد بمراقبته الى صبيح الخصي الذى ذكره بعض المؤرخين من العرب فقالوا إنه تلقي الأمر بأن يجلد الملك المعتقل ثمانين جلدة فى كل صباح . وهـذا الزعم لا شك باطل ولو صدقت الرواية لعاد عار هذه المعاملة القاسية على الآمرين بها ولم يستخلف لويس التاسع من كل ما كان يملكه من المال والمتاع الثمين سوى نسخة من كتاب المزامير الذى تجلو مطالعته الحزن عن القلب فكان يطالع فيه وفى كتاب الصلوات ويقضى جملة وقته في العبادة والتأمل . ولم يكن عنـده من الغطاء سوى قميص خشن تبرع له به أحد عساكره الأسرى فارسل له السلطان من القـاهرة ثوبين من الحرير الأسود محليين بأزرار ذهب فأبى لبسهما قائلا : « انى سيد مملكة أوسع نطاقاً وأبعـد أطرافاً من مصر لذا لا يجمل بمثلى أن ألبس ثوباً أجنبياً » ودعاه السلطان توران شاه الى وليمة فلم يجب اعتقاداً منه أن الداعي إنمـا يريد عرضه على أنظار المسلمين . فلم يسع السلطان تجاه هذا الرفض الآ التحول من اللين الى الشدة ومن المحاسنة الى المخاشنة فبعث يتهدد لويس التاسع بارساله الى الخليفة العبـاسى ببغداد . وهو

لا بد ساجنه وقاتله أو مشرّد له فى الأرجاء البعيدة من آسيا لعرضه على أنظار أهلها والزراية به باعتبار أنه ملك مسيحي عظيم الشأن وقع في ذل الأسر فبقي الملك ساكناً لا تؤثر فيه الأخافة وكل ما خشيه هو أن يمس زملاؤه فى الأسر بضر . ولقد نيط بأحد المسلمين احصاء عدد الاسرى فتبين له أنه عشرة آلاف وكانوا جموعاً مكدسة يختلط بعضهم ببعض فى فناء واحد معرضين للجوع وعاديات الجو وإهانات الملاحظين والحراس . وأمعن القوم فى الاساءة اليهم ومسهم بالأذى فكان الأمير سيف الدين يدخل عليهم في كل ليلة فيختار مائتين أو ثلاثمائة ليرمى أعناق الذين يأبون منهم اتخاذ الاسلام ديناً لهم ويلقي بجثثهم فى نهر النيل

وحدث ذات مساء أن شهد الفرسان والبارونية الأسرى مصرياً أبيض اللحية جليل المنظر مقبلا عليهم فى صيوانهم وحوله شبان مسلحون بالخناجر فما وقع نظرهم عليهم حتى أطرقوا برؤوسهم الى الأرض لأن حراسهم كثيراً ما كانوا يرهبونهم بقرب حضور نفر من المدربين على العمل بالسكين اليهم فى مهمة ما فلما وصل الشيخ الوقور اليهم سألهم على لسان مترجمه هل يؤمنون بأله واحد ولدته امرأة وصلب لفداء الجنس البشرى ثم أحيي اليوم الثالث من صلبه ؛ فأجابوه نعم إننا جميعاً نعتقد بذلك ومن صميم

أفئدتنا . فاستأنف الشيخ : اذا كان الامر كذلك فلا بأس عليكم وخليق بكم أن تغتبطوا بتحمل الألم من أجل الهكم لانه تألم من أجلكم اكثر مما تألمتم وضعوا انيه ثقتكم لأنه اذا استطاع تخليص نفسه من الموت فهو بلا شك قادر على خلاصكم من الاسر

وتوارى الشيخ بعد ذلك عن الانظار تاركا بينهم شعاعاً من الأمل فى النجاة ولا ندرى ذلك الشيخ أمسيحي هو تحول الى الاسلام ثم بكته ضميره فاراد أن يبث التعزية والسلوان بين اولئك التعساء الذين رأى أنهم ما برحوا له إخوة أصفياء ؛ هذا ما نجهله وقصارى الأمر ان المفاوضات فى إبرام معاهدة بين الفرنسيين وسلطان مصر كانت فى تلك اللحظة قائمة على قدم وساق وكان من نتائجها التى ظهرت بعد بضع أسابيع إطلاق سراح الأسرى

على ان سلطان مصر وهو ذلك الجلاد الذى عبث بحياة الالوف من المسيحيين قد لقي من الجزاء على فعلته ما يستحق أن يجزى به فلقد انتقم لهم منه وكان المنتقمون هم المماليك أنفسهم وبيان ذلك ان المماليك أخذوا على السلطان توران شاه استقلاله بالمفاوضة دونهم وهم الذين حملوا أعباء القتال وأنه تخلى عن الأمناء والشيوخ المحنكين فى خدمة الدولة ليقرب منه فى مناصبهم الشبان

المتزلفين . وأنه سلب الصوالج الذهبيه والشارات الجليلة المعطاة لمنقذى مصر ليضع من قدرها بأهدائها الى المماليك الذين لاتقطهم على ضفاف نهر الفرات . وأنه دمر ثغر دمياط لأن أهله سلموه الى الفرنسيين وقتل الأربعين أميرا الذين قرروا هذا التسليم . وكان مستقبل الحوادث منذرا على الجملة بالاخطار والكوارث وازدادت المشادّة بين الطرفين وتحركت الأحقاد فى القلوب حتى شوهد السلطان فى ليلة من ليالى أنسه وطربه وقد جاء بشموع أوقدها ثم أخذ يبرى رؤوسها بحد السيف صائحا أنه سيبرى رؤوس المماليك كذلك وتوترت العلائق بين السلطان وأمرائه وأخذ هؤلاء يتربصون به الشر وينتحلون للوصول الى هذا الغرض الأسباب ويتحينون الفرص

لم يمض زمن بعد ذلك حتى تألفت مؤامرة اشترك فى تدبيرها ستون أميرا . واتفق أن أراد توران شاه على أثر إبرامه المعاهدة مع المسيحيين إحياء ذكرى هذا الحادث العظيم باقامة الأفراح فأولم وليمة جليلة فى ميدان معركة فارسكور دعا اليها كبار الرؤساء من رجال حرسه فلما أشرفت الوليمة على الانتهاء قام المتآمرون فجأة عن المائدة فانقضوا عليه شاهرين سيوفهم وحمل عليه بيبرس بضربة من سيفه تبت يده من معصمها فلاذ

السلطان ببرج له مشيد على ضفة النهر وأغلق عليه الباب من الداخل ثم أطل من شرفة فيه وسأل الأمراء عن مرادهم منه وكان أعوانهم قد أحاطوا بالبرج من كل جانب فجاوبوه بالسباب والشتم ورشقوه بالنبال ثم أضرموا النار بالبرج فأحرقوه وقد اندلع لسان اللهيب فأوشك أن يلتهم السلطان لولا أنه ألقى بنفسه من النافذة . وحدث فى سقوطه أن اشتبك ثوبه بمسمار طويل فظل معلقا بين السماء والأرض زمنا لم يلبث بعده ان هوى الى الأرض وما كاد يصل اليها حتى أصلتت السيوف وأشهرت حوله فلما يئس المسكين من الخلاص بسط اليهم كفيه ضارعا مستميحا العفو عنه قائلا : « ألا يوجد بينكم رجل واحد من مائة الف ينحاز الى ويعطف علىّ ؟ انى لا أسألكم غير النجاة بالحياة وهاءنذا متنازل لكم عن السلطنة فدعونى أعود الى ديار بكر موطنى ومسقط رأسى » فقوبل صياحه وأنينه من السامعين بجلبة الاستهزاء .

ولما يئس من الرحمة به أخذ يحبو على ركبتيه فأدركه بيبرس وهو الذى بتر يده أثناء الوليمة فطعنه فى جنبه ثم رشقه بالنبال فرمى المسكين بنفسه فى النيل مثخناً بالجراح رجاء ان يجد من كرم المثوى فى قاعه ماضن عليه به بنو الانسان ولكنه لم يبتعد قليلا عن الشاطئ حتى ألقي تسعة منهم بأنفسهم فى الماء وسبحوا خلفه

لمطاردته وما زالوا به تمثيلا حتى أجهزوا عليه وانتزعوا قلبه من بين جنبيه

أنبرى ثلاثون من القتلة بعدئذ متقلدين بالسيوف والخناجر والبلط لأدراك السفن التى كانت تحمل الى دمياط أسرى الفرنسيين فلما شهدهم هؤلاء وقد وصلوا اليهم أيقنوا بالهلاك فجثوا على ركبهم وسألوا أحد القساوسة من اتباع الكونت دى فلاندر ان يتلقى الاعتراف الأخير منهم وتزاحموا حول الرجل حتي تعذر عليه سماع اعترافاتهم وكان جي دى بلان كبير قواد الجند فى جزيرة قبرص بينهم فلما جاءته نوبة الاعتراف اخذ يتنصل من غلطاته ملقيا بها على عاتق جوانفيل فلما سمع جوانفيل كلامه أمسك عن بيان حقيقة الواقع مكتفيا بقوله إنه لا يذكر ان من بين اعماله وتصرفاته ما أفضى الى ضرر ثم جثا على ركبتيه ومد عنقه وقال بعد أن رسم الصليب على صدره هاءنذا أموت كما ماتت القديسة أنييس فقضى المماليك عليه وعلى زملائه وألقوا بجثثهم فى قاع السفن

ذهب بعض أمرائهم بعد ذلك الى لويس التاسع فى معتقله فدنا منه ذلك الذى أجهز على سلطان مصر وسيفه بيده يقطر دماً وقال له : « لقد خلصتك من عدوك الذى كان لا بد قاتلك يوما ما

إذ سفكت دمه فبم تجزيني على هذا الصنيع ؟ » فمال الملك عنه برأسه ولم يتكلم فخنق المملوك ثم مد ذراعه نحو الملك وفي يده السيف قائلا له : « يظهر لى أنك جاهل بقدرتى على التصرف فى شخصك . إذا شئت ان تبقى على قيد الحياة فاجعلنى فارساً من فرسانك » فقال له الملك : « كن مسيحياً قبل ان تكون فارساً » فتراجع المملوك معجباً بهذا الثبات . وما كاد يخرج من المعتقل حتى اندفع فيه جمع كبير مدججاً بالاسلحة وكان مظهر هذا الجمع فى مشيته وصياحه ونظراته ينمّ على أنه اقترف جريمة وأنه متأهب لاقتراف غيرها . فنظر لويس التاسع الى هذا الجمع بعين الهدوء والسكون ثم تركهم يزأرون كزئير الحيوانات المفترسة ولاعتيادهم منه هذا السكون لم يلبثوا ان تحولوا من المخاشنة الى المحاسنة . فدنوا منه وعلى وجوههم آيات الحياء وقالوا له إنهم تخلصوا من مستبد غاشم كان يريد القاءهم والعساكر الفرنسية فى التهلكة وأنهم لا يشتهون الآن سوى الأمانة فى تطبيق المعاهدة المبرمة بينه وبين السلطان الراحل . وما أتم هذه الكلمات حتى ألصقوا بالأرض جباههم ثم رفعوا أيديهم الى عمائمهم وانطلقوا من حضرته ساكتين . فلما صاروا الى خارج المعتقل دقوا الطبول ونفخوا فى النفير إجلالا للملك ثم ذهبوا

بعد ذلك يتفاوضون فيما اذا كان يجوز لهم فك القيود عن الملك الأسير ومبايعته سلطاناً على مصر

أستأنف أمراء المماليك مفاوضات الصلح التى بدأ بها توران شاه وأقسموا جهد أيمانهم أن لن يخيسوا بها وأنهم اذا نقضوا شرطهم حقت عليهم اللعنة وصاروا فى حكم من يأكل لحم الخنزير أو يطلق زوجته طلقة بائنة ثم يردها وطلبوا من لويس التاسع أن يوفى ذمته بأداء يمينين نص احداهما : « إذا لم أف بوعدى فأنى أرضى بأن أحرم فى جنات الخلد مصاحبة المسيح وأمه والحواريين الاثنى عشر والقديسين والقديسات » ونص الثانية : « إذا نكثت بهذا العهد وحنثت فى يمينى أكون كالمؤمن الذى يحقر دينه وربه ومعموديته ويبصق على الصليب ويدوسه بقدميه » . فتبين للقديس لويس ان اليمين الثانية ليست إلا سباً فاضحاً فى قالب قسم فأبى تدنيس لسانه بالنطق بها . فبلغ من غيظ المماليك ساعتئذ أن حدثتهم نفسهم بقطع رأسه وصلبه ولكنهم عادوا اليه وقالوا له بعد أن اتكأوا بأطراف سيوفهم على صدره : « لسنا ممن يتلقون الأوامر عن أسير فأنت اليوم بين أحد أمرين إما ان تقسم وإما أن تموت » فأجابهم « إن جسمى لكم فتصرفوا فيه كيف شئتم أما إرادتى فهى لى ولن

تستطيعوا التصرف فيها فتيلا »

وعزا بعض هؤلاء الأشقياء الى بطريرق القدس الشريف أنه هو الذى حمل الملك بنصائحه على المقاومة وأغراه بالامتناع عن القسم فقبضوا على هذا الشيخ الضعيف الفانى الذى كان يناهز السادسة والثمانين من عمره وربطوه الى عمود خشب موثق اليدين بشدة جعلت الدم ينبجس منهما فلما شعر المسكين بالألم أخذ يصيح بالملك قائلا : « أمولاى: مولاى ! إقسم باليمين التى أرادوك عليها » وكان قلب الملك يتفتت وقتئذ من الخوف على الشيخ أن يصيبه مكروه ولكنه أبى أن يقسم باليمين المطلوبة

يئس الأمراء بعد هذه التجارب المؤلمة من زحزحة لويس التاسع عن عزيمته وزلزلة أركان عقيدته فاكتفوا بوعده البسيط الذى وعد فى الموضوع وأخذوا يقولون عن هذا الامير الفرنجى أنه أعز الأمراء المسيحيين الذين شوهدوا تحت سماء الشرق نفساً وأحماهم أنفاً

وكان الصليبيون يرون أن من الشؤون الخطيرة بقاء ثغر دمياط فى أيديهم لأن مرغريت قرينة الملك المعروفة عند الفرنسيين بالعفاف والطهر كانت مقيمة بها وقد رزقت فيها بغلام أسمته الامير جان تريستان ومن كثير ما يروى عنها بياناً لما

كانت تتكبده من الآلام الجسمية والنفسية أن تابعها وهو شيخ في الثمانين كان واقفاً بالليل عند سريرها للقيام بحراستها فاعتراها أرق شديد على أثر ما انتابها من المخاوف وقد استشعر الرجل بذلك فقال: « لا تخافى شيئاً فانني بجوارك » فضرعت اليه أن يبادر برمى عنقها اذا وصل العدو الى دمياط ودخلها عنوة. فأجاب بسكون: « ذلك ما فكرت من قبل فيه فليطمئن اذاً بالك »

على أن الصليبيين كانوا في مفاوضاتهم الأخيرة قد أخذوا على نفسهم الميثاق أن يخلوا ذلك الموقع فى اليوم التالى فلما شاع بين الأهلين هذا الخبر توجسوا خيفة ووقع فى نفوسهم أن الجنود المصريين سيجزونهم على تسليمهم المدينة للفرنسيين شر الجزاء وكان أمراؤهم يعتقدون أن الملك لويس التاسع سيواصل الدفاع عنها بارغم من توقيعه على عهدة الصلح ولكن شيئاً من ذلك لم يكن بل أمر الملك بالجلاء وقد أخلاها فعلا بدون أن يتكبد صعوبة واستقلت الملكة وفى صحبتها الأميرات والدوقة دانجو والكونتس دى بواتييه والكونتس دارتوا التى كانت لا تزال فى حداد على زوجها إحدى السفن الجنوية. وما بزغت الشمس حتى جاء المماليك فسلم اليهم جيوفروا دى سرجين مفاتيح المدينة

ولم تنكس نفوسهم قد ثابت الى السكون من الغيظ الذى أحدثه بها انتشار الاشاعات الكاذبة فى الليلة الماضية بما عزى الى الصليبيين أنهم اعتزموه من مواصلة الدفاع الى النهاية . فلما دخلوا المدينة اقتصوا من أهلها بأنكأ العقوبة وأنكاها جزاء لهم على ممالأتهم الفرنجة ثم عقدوا فيما بينهم مجلساً تفاوضوا فيه علانية فى أمر ملك فرنسا ومن معه أيجوز إخلاء سبيلهم أم إبادتهم أجمعين

قام من بين المتفاوضين خطيب متحمس فقال : « الآن وقد قبضنا على زمام الثغر فمن الحكمة والصواب قتل ملك الفرنجة وجميع أمراء جيشه كي نضمن لمصر الراحة الدائمة ونكفيها فى المستقبل شر هذه الغارات واذا نحن استطعنا أن نسفك دماء ملوكنا فى الوقت الملائم للخلاص منهم فلم لا نسفك دماء الأعداء الألداء ؟ إنه ليكفينا أن نتصفح القرآن لنجد فيه ما يفرض علينا محاربة أعداء الدين والقضاء عليهم جميعاً »

فنهض أمير من المغاربة وقال : « ليس عليك إلا ان تتصفح الورقة التالية لتلك الآية القرآنيه لتقرأ فيها ما يوجب عليك الطاعة لسلطانك والحرص عليه حرصك على إنسان عينك على ان سلطاننا قد مات وليس هو الآن من أهل هذه الدنيا وقد كان موته لازما لأمتنا وسلامتنا ولكن ما فائدة اعتدائنا على ملك الفرنجة

ورجاله الأبطال حلفاء الدول الكبرى فلنربأ بأنفسنا اذاً عن ارتكاب الظلم لا سيما اذا اقترن بالجبن والغدر ولا نجعلن اسم المماليك مضغة فى أفواه العالم وعرضة للسب واللعن»

وكان المسيحيون قد وعدوا بأن يدفعوا ثمانين الف قطعة ذهب من النقد البيزنطى فدية لهم فرأى المماليك من هذا وذاك أن ليس من الحكمة التطوح فيما ذهب بعضهم الى ضرورة اقترافه من الجرائم الشنعاء ولاحظوا أيضاً أنه لما ينافى الكرم ويعارض مبدأ الأخذ بالحسنى واللين إخراج اولئك الأسرى من الديار وليس معهم ما يسدون به الرمق فوزعوا عليهم شيئاً من الخبز الناضج فى الشمس وبعض البيض الملون الظاهر بالألوان المختلفة لأن يوم الأفراج عنهم طابق يوم الجمعة التالى لعيد الصعود

وبعد جلاء الفرنسيين بزمن تراءى للمماليك إعلان الجهاد والزحف على فلسطين في طلب الفرنجة واجلائهم عن هذه البلاد وحدث اتفاقا أن شبت النار فى أحد أحياء القاهرة وسرت منه الى ما يجاوره من الأحياء حتى التهمته وأتت عليه فسرعان ما اتهم المسيحيون بهذا الحادث كما كانوا يتهمون فى رومية على عهد الامبراطور نيرون بأنهم هم الذين أضرموا النار فيها عامدين

متعمدين . وكانوا على وشك السقوط فى وهدة العذاب لهذا السبب وما كاد الخبر ينتشر فى انحاء الشام حتى هاج اهلها ورفعوا لواء الثورة فدمر اهل دمشق الكنائس وزادهم هياجا ما استقر فى أخلادهم من أن سلطان مصر لم يذهب ضحية النار والحديد إلا لأنه عقد هدنة مع اشياع المسيح فاغتنم بيبرس قاتله وخلفه فرصة هذا الهياج لأشعال جذوة التعصب الدينى وتمهيد الطريق للقتال . وذهب بنفسه الى الناصرة فأحرق كنيستها وألقى الروع والفزع فى البلاد الممتدة الى جبل تابور وخرب مدينة قيصرية ورفع العلم الاسلامى على الكنائس

وشهد زعيم المماليك رسل الأذفونش ملك أراغون وغيره كملك أرمينيا وأولياء الامر فى فلسطين وهم يتقربون اليه بالطاعة والتذلل فاعتقد فى نفسه العلو والعزة وأنه من شدة البأس ومتانة القوة بحيث يستطيع مخاطبة الرسل الآتين من يافا لمفاوضته بمثل قوله « نحن لم نخلق للمهانة والذل بل للرفعة والعز فاذا سلبنا العدو كوخا حقيرا سلبناه قصرا منيفا واذا أسر منا فلاحا حقيرا كبلنا بالأغلال منه الف مقاتل كبير »

وليتم هذا التهديد وينجز ما أوعد به من الوعيد تدفق بجنوده على أرض طرابلس مخربا وناهبا وقاتلا فهدم أسوار مدينة صفد

وحينما سلمت اليه وأقرت بالطاعة له أبى أن يترك لحماة قلعتها من
متاعهم إلا ما كان عليهم من الثياب. على أن ذلك لم يكن ليرضيه
نخاس بعهده ولم يعطف عليهم لما أبدوه من البسالة فى دفاعهم
وما نزل من محنة الخذلان بهم فكبل بالقيود الثقيلة ستمائة منهم
ثم ساقهم جميعاً الى حيث أنحى على رقابهم بدون ان يرعي إلاّ
ولا ذمة فى حقهم اذ لم يأذن لهم بشىء قبل الموت سوى تبادل
عبارات الوداع وكانت الليالى مقمرة فباتت أشعة القمر تطرح
على تلك الجثث الهامدة رداء من ضوئها الأبيض ليالى متتابعة
وشهد السلطان منظرها الرهيب الذى يقذف الفزع فى القلوب
فأجاز فى النهاية مواراتها فى التراب وإقامة الأسوار العالية حولها
حتى لا يبصر أحد ذلك الأثر السىء من آثار الانتقام والتعطش
الى سفك الدماء

وبالجملة فقد حرم المسيحيون فى مصر الرحمة والأمن فبينما
كان الناس يعتقدون أن أولئك المماليك الذين لا يعرفون التعب
والملال قد عادوا الى مصر إذا بهم قد أوغلوا فى بلاد الأرمن
وساقوا منها نحو يافا الأسرى والأسلاب. وانهم ما كادوا يصلون
الى ذلك الثغر حتى سقطت أسوارها المنيعة وحصونها التى لا ترام
كما تسقط الأوراق من الأغصان بعد يبسها

وكان بوهيمند صاحب هذا الثغر قد بعث اليهم حينما رآهم مقبلين يسألهم عن سبب حضورهم فكان جوابهم ما يأتى :

« جئنا اليوم لحصد مزروعاتكم وسنأتي مرة أخري للاستيلاء على عاصمتكم » ثم تقدموا نحو ضفاف نهر العاصى فاستولوا على أنطاكية وبعثوا الى الكونت صاحب طرابلس يقولون له ما يأتي « كان الموت مدركا للمحصورين من كل طريق وموافيهم فى كل مكان فلقد قتلنا جميع من اخترت من الرجال لحراسة المدينة وصد عادية الأعداء عنها ولو أنك رأيت فرسانك وقد داستهم خيولنا بسنابكها وأقاليمك وقد جردت مما فيها سلباً ونهباً وخزائنك وقد وزن ما احتوته بالقنطار ونساء رعيتك وقد بيعت فى سوق الدلالة ومنابر الكنائس وصلبانها وقد كسرت وهشمت وصفحات الأنجيل وقد ذريت فى الرياح وقبور البطارقة وقد دنست واعداءك المسلمين المماليك وقد وطأوا باقدامهم الهيكل وذبحوا على درجه الكهنة والقساوسة وقصورك المشيدة وقد التهمتها النار والقتلى من رجالك وقد أحرقت جثثهم وقباب كنائس مار بولص ومار بطرس وقد أصبحت أطلالا لا شكل لها لتبست شفتاك الصفراوان المضطربتان بآية - ياليتنى كنت ترابا - متمنيتين لك الهلاك العاجل »

لم يكن هـذا التهديد ويا للأسف مجرد الفاظ مرصوصة بعضها الى جانب بعض فقد علم فيما بعد ان سبعة عشر الف جثة للقتلى من المسيحيين قد انهالت عليها الأطلال ومائة الف مسيحى قد سيقوا مصفدين بالأغلال للرق والاستعباد . ولم ينتشر نبأ هـذه النكبة فيما يلى البحار حتى طفرت القلوب من بين الجنوب تأثرا واشرأبت الأعناق للأخـذ بالثأر . وكان رئيس اساقفة صور وكبار أصحاب الرأى من طائفتى الهيكليين والاسبتاليين قد أذاعوا فى الغرب أنين أقوام فلسطين فانقسمت الآراء فى أوربا تجاه هـذه الحالة السيئة فى ذلك البلد فرقا شتى فبينا كان بعضهم يرى أن من الخطأ بل من الحمق التحرش بالمسلمين فى حين أن يسوعا المسيح لا ينازعهم على أمر ما وبينا كان البابا يصرف كل عنايته فى بيع المغفرة وإثارة الاحقاد عليه فى النفوس لهذا السبب كانت ألمانيا وبولونيا وملك بوهيميا ومار كيز براندبورج يهيئون المعدات لقتال الكفار ويوصى شارل دانجو ملك صقلية جماعة المماليك بشعوب الشام خيرا . ولقد جاوبه سلطانهم على هذه الوصية بقوله : « إن المسيحيين يبيدون أنفسهم بأيديهم وان الصغير منهم ينقض ما يبرمه الكبير » . ورأى جوانفيل فيما يرى النائم أن ملك فرنسا قد ارتدى برداء القسوس

أثناء إقامة الصلاة فى الكنيسة فعبر هذا الحلم بأنه مقبل على حرب صليبية وفى الواقع فانه لم ينتصف عيد الفصح حتى عقد البرلمان الأعلى للمملكة ودخل لويس التاسع البهو الكبير من قصر اللوفر حاملا بيده الأكليل الشوكى الذى كلل به المسيح وأقسم لنيف من الأمراء والفرسان ومن بينهم جان كونت بريطانيا والفونس دى بريين كونت (أو) يمين الجهاد في سبيل الدين وحمل كل من: تيبوت ملك نافار وأخيه هنرى كونت شمبانيا وجاستون دى بيارن والكونت دارتوا بن روبير الذى قتل بالمنصورة وكونتات فلاندر وسان بول ولامارش وسواسون وأمراء نيمور ومونمورانسى شارة الجهاد وهى الصليب . وقدم الجنويون أسطولهم لنقل الرجال والأثقال وانعقد المجمع الأنكليزى فى نورثمبتون فقرر تسيير القوات الى الشرق لقتال المسلمين وانتظم فى سلكها البرنسان إدوار وإدمون والكونت واروبك والكونت بمبروك وجان دى بايول وملك البرتغال وجاك ملك أراغون وفى شهر مارس سنة ١٢٧٠ تسلم لويس التاسع فى كنيسة سان دنيس شارات الحج والظعون الى الشرق وألقى بزمام مملكته الى أقطاب فرنسا الربانيين وقديسيها المعظمين وفى اليوم التالى قصد الى كنيسة نوتردام الباريسية

حافى القدمين خشوعا وتبركا وبات الليلة التالية فى فنسين للوداع وكان الوداع الذى لم ير من بعده الوطن الفرنسى

وكتب لويس التاسع الى القائمين مقامه فى إدارة شؤون البلاد وهما ماتيو راهب سان دنيس وسيمون مولى نسل يلفت نظرهما الى الاحتفاظ بالآداب العامة وإنقاذ الأمة من الاحكام الجائرة ورجا منهما العناية الخاصة أثناء غيابه بالمرضى والمعوزين ثم سار فى سبيله قاصدا الجهاد فى سبيل الدين

اجتاز الجيش المسيحى خليج تونس ثم نزل الى البر متأهبا للقتال على شواطئها وكانت تونس يومئذ فى عزة ومنعة فقرأ بيير دى كونده القس المنوط به الصلاة بالملك أمراً على الجيش معلنا القتال للاستيلاء على تلك المدينة مستهلا إياه بالجملة الآتية: «أقرأ عليكم أمر سيدنا يسوع المسيح ولويس التاسع ملك فرنسا مساعده» وبعد التلاوة نصبت الخيام وحفرت الخنادق وأقيمت الاستحكامات فتم للملك الاستيلاء على المرسى وذهب خمسمائة بحرى لرفع العلم الملوكى الفرنسى على حصن قرطاجة

وكان لويس التاسع كثيرا ما يقول إنه ليحلو له أن يقضى البقية الباقية من حياته فى غياهب السجن حيث لا يرى للشمس شعاعا اذا استطاع فى مقابل ذلك أن يحول التونسيين وأميرهم

من الديانة الأسلاميـة الى الديانة المسيحية . وقد دعا الأمير الى ذلك فردّ عليه فى كتاب بأنه سيحضر اليه فى مائة الف مقاتل ليسأله المعمودية في ميدان القتال . ووردت من المماليك رسائل تعلن اتخاذهم الأهبة للزحف على تونس تعزيزاً لها ضد الصليبيين

وكانت المنطقة التى نزل الافرنج بها لا تطاق حرارتها المحرقة . وكانت رياح السموم لا تزال تهب بقوة شديدة وشعر الجنود بنقص فى المؤن أفضى بهـم الى تكبد الحرمان ففشت بينهم الأوبئة المختلفة كالدوسنطاريا والطاعون وكثر عدد الموتى بهذين الداءين حتى امتلأت بجثثهم الخنادق ولم تعد كافية لمواراتها وأصيب الملك نفسه بالحمى ويئس من الشفاء منها فنصب أمامه صليباً وأخذ يبسط كفيه نحوه ضارعا مبتهلا وقرب منه حينما اشتدت وطأة المرض ولى عهده فيليب فأخذ يفيض عليه أنوار التعاليم الحسنة والمبادىء الصحيحة فأصغى فيليب اليها . وكان لويس لا يكف عن ذكر يسوع المسيح والصلاة لشعبه والاستمداد بسان دنيس والتماس معونته وتأييده لجيشه الذى سيصبح من بعده كاليتيم وشخص بعد ذلك فيمن حوله ثم طلب أن يغطى جسمه وبوضع على سرير الموت فبعد أن وضع يديه على صدره ورفع بعينيه الى السماء قال: « مولاى ! سأدخل دارك وأعبدك

فى هيكلك المقدس » وفى مثل الساعة التى صلب فيها المسيح أغمض الملك عينيه وأسلم الروح الى بارئها

وبعد جملة معارك شب ضرامها حول بحيرة تونس عقدت هدنة عشر سنوات بين الفرنجة والتونسيين . فاغتاظ سلطان مصر وكان مولاى المستنصر صاحب تونس هو الذى يوافيه بالأسلحة الجيدة والخيول الكريمة والجنود الشجعان أما وقد عقدت الهدنة فقد توقع أن لا يصله فيما بعد شيء من ذلك وأن يأخذ الصليبيون سمتهم الى مصر لشفاء غليلهم وإطفاء حزازات نفوسهم ضد سلطانها وأمتها . وقد صدق المماليك فى حدسهم إذ هبط أرض الشام ستة الآف صليبي فرفعوا رايتهم على أسوار الناصرة وقتلوا جميع سكانها المسلمين ليكفروا عما اقترفوه من جريمة هدم الكنيسة التى شيدت للعذراء

وما نمى نبأ هذه المذبحة الى المسلمين حتى هبوا للانتقام فذبحوا فى طرابلس الشام سبعة آلاف صليبي ودمروا كل ما بها من الأبراج والحصون والمبانى والقصور وزلزلت مدينة عكا عاصمة المستعمرات المسيحية فى الشام بل المدينة الزهراء التى كان أمراؤها يتبخترون كالملوك مكللة هاماتهم بأكاليل الذهب بفعل ستين آلة من المجانيق ورأى أهلها شيع المماليك يتقدمون نحو

المدينة على نقرات الطبول التى كان يحملها ثلاثمائة جمل حتى إذا دنوا منها ملأوا الخنادق باشارة من زعيمهم بأجسام الأحياء من المسيحيين ليستطيع فرسانهم المرور عليها والوصول بواسطتها الى الأسوار . ورأى ذلك غليوم دى كارمون فألقى بفرسانه في المعمعة ضد مائتى الف من أولئك الكفار وضيق عليهم فلم يلبثوا ان تولاهم الذعر وصاروا أشبه بالنعاج اذا ما داهمتها الذئاب . ودبّ الحماس فى نفس بطريرك أورشليم فابتهل الى الله داعياً : « إلهى أقم حولنا سياجاً من عنايتك الألهية لا يقدر أحد على اختراقه » وحمى وطيس القتال فكان المسيحيون يستغيثون من جهة بيسوع المسيح كما كان المماليك يستمدون بمحمد وخيل لأعدائنا بسبب ما قذف في أفئدتهم من الرعب ان كل رجل منا رجلان وأن كل مقاتل يموت بطعناتهم لا يلبث ان ينهض من موته أشد بأساً وأقوى مراساً منه قبل ان يجندل . ولكن لم يلبث المسلمون أن فازوا بكثرتهم فأخذت أبكار القديسة كلير يشوهن أثداءهن تقية عبث الظافرين بهن واتفقن على هذا الفعل فجعلن دق النواقيس إشعارا بالبداية فى تنفيذه وفى الواقع فأنهن ما سمعن دقاتها حتى تناولن الاسلحة القاطعة وشوهن بها وجوههن وأثداءهن . قال أحد المؤرخين المسيحيين « وكان

مرادهن الاعتقاد بأنهن سيبرزن بسبب هذا التشويه امام الزوج السماوى أجمل منهن قبله » . وعدّ بالألوف وعشرات الألوف الجنود المسيحيون الذين ماتوا قتلى فى تلك المعركة حتى لقد كان من يشتط سواحل الشام من مبدأها الى منتهاها لا يسير الا على قنطرة من جثث القتلى

* * *

تلك كانت معارك الفرنسيين مع مصر فى العصور الوسطى وتلك كانت علائقهم بها للمرة الأولى فاذا كنا قد تقابلنا وإياها وقتئذ زاحفين صفوفاً شاهرين سيوفا فاليوم نتقابل متصافحين بالأيدى متصافين بالأفئدة تلتهب شوقا الى شد أزرها والأخذ بناصرها لتقوى على السير فى سبيل التقدم والحضارة وما من جندى من جنودنا الذين ننفذهم اليها الآن إلا ويستر رداؤه العسكرى الصانع الماهر والعالم الضليع والفنى الحاذق ويستحيل سلاحه الى أداة من أدوات العمل النافع المنتج فمدد التدمير والتخريب الملازمة له ملازمة الظل للشبح لا أيسر من أن تتحول الى أداة حراثة أو صناعة وبتلك هذه الأدوات إنما نفوز اكثر من فوزنا لو استولينا على بلد واتخذناه مستعمرة لنا

تجلى للقارىء مما سبق الالماع اليه من تاريخ الحروب الصليبية

فى مصر ان هذا العمل الخطير حفت به فيها المصاعب وضعضعته النوائب وأن الذين أدلوا بنصائحهم المحبذة للقتال فيما يلى البحار انما قد سقطوا فى فاحش الخطأ لأن الصليبيين لم يعودوا الى أوطانهم رافعين كالمنتظر المرجو رايات الانتصار بل بساط الرحمة المشعر بوفاة مليكهم دع انهم كانوا حينما عادوا لا يتألف منهم جيش جدير بهذا الوصف بل فلول جيش داثر يصحبها أمير كان يحمل على كتفيه جثة والده ليواريها التراب فى الموضع اللائق بها أن توارى فيه . وانما الموثوق به ان ذلك الملك القديس الذى كان فى الأيام الأخيرة من حياته يشكو مضض الفشل والاندحار لابد أن يكون قد أرضاه فى قبره قيام جندى عظيم وبطل كريم بعد وفاته بنحو خمسمائة عام بالأخذ بثأره من أولئك الذين جرعوه كأس الذلة وألبسوه عار الانكسار

ولما مالت شمس القرن الثامن عشر الى المغيب كان الجنود الفرنسيون يترنمون بنشيد المرسيليز فى سواحل مصر التى كان أجدادهم يترنمون فيها بأناشيد الصليبيين قبل ذلك بنحو خمسمائة عام وأتاحت لهم الظروف مرة أخرى منازلة المماليك فى ميادين القتال وهم الذين جمعوا في الحياة بين النقيضين من محامد الخصال ومقابح الفعال فسطروا لأنفسهم بذلك تاريخا فذا بين تواريخ أمم الارض

شهدنا فيما تقدم لنا إيراده من سيرتهم أنهم بعد أن قتلوا مولاهم شر قتلة تركوا جثته عرضة للطيور الجارحة على ضفاف النيل فلنذكر الآن نتفاً متفرقة من شرورهم ومفاسدهم وعيثهم لبيان مقدار ما ألحقوا بمصر أثناء حكمهم من الاضرار فنقول إنهم بعد إسقاطهم آخر السلاطين الأيوبيين وهو السلطان توران شاه ابن السلطان نجم الدين أيوب سيدهم الذى اشتراهم بماله ورب نعمتهم ورافعهم من أسفل الدرك الى أعلى الدرج وقلدهم السيوف والخناجر وأنشأهم من العدم استولوا على أزمة الاحكام وحلوا فيها محل ساداتهم العظام وعرفوا فى التاريخ بوصف البحرية لأن السلطان نجم الدين عهد اليهم بحراسة الحصون التى على البحر. وما استقر لهم الحكم حتى تغيرت أنظمته من شكلها المعروف على عهد الأيوبيين الى شكل آخر اصبحت فيه أقرب ما يكون الى الاستبداد المطلق الذى يوارى سوأته طلاء من الأسلوب الجمهورى فقد كان للزعيم منهم الحق فى اعلان الحرب وإبرام الصلح بشرط الرجوع الى رأى مجلس كبير يعقد لذلك الغرض. وكان مما يدخل فى دائرة اختصاصه أيضاً تعيين الوزراء والسفراء والولاة وقواد الجند ما دام لا يتعدى اختياره طائفة المماليك فى تقليدهم هذه المناصب فالأمة فى نظرهم لم تكن شيئاً مذكوراً ولكنهم كانوا

مع ذلك يحسبون لها حسابا لاحتياجهم الى مشايعة المتذمرين والناقين من أفرادها إياهم . ومن الغريب أنه لم ينبر من المماليك بعد استخلاصهم البلاد من أيدى الأيوبيين من أخذ بزمام السلطنة وجعل نفسه رأس الأسرة المملوكية وانما بدئت هذه الأسرة بامرأة كانت مثلهم ممن اشتروا بأموال السلطان نجم الدين ألا وهي السلطانة المعروفة فى التاريخ باسم شجرة الدر

سبق لمصر أن قبض على دفة شؤونها نساء ككليوباترة روى التاريخ عنهن أن حب الشر لم يتغلب فيهن على حب الخير. أما شجرة الدر فالمأثور عنها أنها كانت من سعة الحيلة فى قضاء شهواتها بحيث أستهوت إيبك التركماني الجاشنكير الصالحي الى محبتها وزينت له التزوج بها بعد أن استخلص السلطنة من أيدى آخر السلاطين الأيوبيين وهو ابن أستاذه السلطان الصالح نجم الدين أيوب ثم نصبها سلطانة وخطب لها بالسلطنة ودعا لها على المنابر باسم « المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين وأم الملك المنصور خليل » وتولى هو الاتابكية أى مقاليد الأحكام ولكنه لم يلبث ان ملّ معاشرتها مظهراً ميوله وعواطفه لامرأة يحبها (وهي إبنه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل) ونمى اليها أنه خطبها فتحركت فيها عوامل الغيرة وتلهب سعيرها بقدر ما كان يزداد كل يوم صدوداً ونفوراً

منها. ولقد حاولت أن تجذبه الى ناحيتها بالبكاء والاستعطاف حتى اذا قصرت هذه الحيلة عن تحقيق أمنيتها عمدت الى نكايته بالتنكيل به

وذلك أنها بعد أن خبأت فى الحمام خمسة من الطواشية البيض استدرجت التركماني بما أظهرته له من التودد والعطف وتكلفته من الابتسام الى متابعتها فى السير نحو ذلك المكان الذى لم يكد يدنو منه حتى برز له أولئك الخصيان من مكمنهم وأرادوا به الشر فرجا وتضرع ألا يمسوه بضر ولكن ما كان له ان يسمع هؤلاء الصمّ النداء وهم المأجورون على قتله من امرأة مصدورة بحب الانتقام . لهذا انقضوا عليه وخنقوه بشال عمامته بينما كانوا يحذرون سيدتهم من العفو عنه قائلين لها أنها ان تفعل تنكل بهم وبنفسها . وما اقترفوا جريمتهم حتى انطلقوا من فورهم يذيعون على الملأ أنه مات على أثر اصابة فجائية بمرض عادى

وفي ليلة الحادث نفسها استدعت شجرة الدر اليها الامير سيف الدين قطز من مماليك زوجها المعزّ إيبك التركماني وعرضت عليه مشاطرته إياها حياتها وتاجها وكانت وقتئذ أشد ما يكون شعوراً بالحاجة الى ركن تأوى اليه وكانت وهى تبادئه بهذا الاقتراح واضعة قدميها على جثة زوجها التى لم تكن أعترتها البرودة بعدفلما شهد سيف الدين قطز منهاهذا السكون الرهيب

وعدم المبالاة بما اقترفت من إثم كبير ورأى بعينيه أن الأريكة التى يلتمس منه الجلوس على جانب منها ملطخة بالدماء تولاه فزع شديد فتراجع مستنكراً ومشمئزاً . وعرضت الاريكة بعد انصرافه من حضرتها على اثنين آخرين من مماليك زوجها فكان منهما ما كان من سيف الدين استنكاراً واستبشاعا

وما طلعت شمس اليوم التالى حتى كان أهل القاهرة يتداولون أنباء ما وقع من الحادث الجلل فى الليلة الماضية على أثر ما أذاعه المرشحون الثلاثة عقب انصرافهم من حضرة الملكة حانقين ناقمين . وحشد نور الدين علىّ بن الملك المعز إيبك من زوجته الأولى فريقاً من مماليك والده فبعد أن قبض بواسطتهم على شجرة الدر أسلمها الى والدته لتنفث فيها سموم حقدها وانتقامها فدفعتها هذه الى جواريها اللائي انهلن عليها ضربا بقباقيبهن حتى ماتت وألقين بجثتها في خنادق البرج ولم تدفن إلا بعد ثلاثة أيام من القائها عارية فى العراء

وعلى أثر هذا الحادث أقيم نور الدين على بن المعز إيبك في السلطنة ولقب بالمنصور وكان فى الخامسة عشرة من عمره فخلعه سيف الدين قطز الذى كان مرتبا له فى الأتابكية ثم قتله وجلس على أريكة السلطنة مكانه على أن هذه الجريمة لم تلبث أن جوزى

مقترفها بما يستحقه من العقاب فقد حدث أن قطز كان يتنزه ذات يوم فى كوكبة من حرسه الفرسان اذا بأرنب لاح له شاردا من جحره فاقتفي السلطان أثره فلم يدركه وأمعن فى ملاحقته حتى اذا لحظ أنه قد ابتعد عن البقاع العامرة الى صحراء مترامية الاطراف لوى بعنان جواده قاصدا العودة الى فرسانه . وكان بيبرس أحد هؤلاء الفرسان قد انفصل عنهم متجها نحو السلطان ومديده اليه فوقع فى وهمه أنه يريد لثم يده شكراً له بمناسبة إهدائه اياه حديثا جارية تركمانية جميلة الطلعة ولذا لم ير بأسا من أن يمد اليه يده التى تناولها بيبرس بيمناه وأخذ يضغطها ضغطا شديدا ويجذبها اليه بينما كان بيده الاخرى يطعنه بسكين الطعنة التى قضت عليه وعلى الأثر توارد الامراء تباعا لمعاونة بيبرس على اتمام المهمة الموكولة اليه لانه كان ثمة مؤآمرة على قتل سيف الدين قطز الذى زاده بغضا فى نفوس المماليك انه من سلالة ملكية وان عمه كان صاحب خوارزم نخلعه ملك المغل من عرشه

عاد بيبرس مضرج الثياب بدم مولاه سيف الدين قطز الى جيش المماليك فى الصالحية وأخبر الأتابك بوفاته فسأله :

ـ ومن الذى قتله ؟ (كما لو ان كل سلطان لمصر لا ينبغى له أن يموت فى فراشه)

فأجاب بيبرس :

ـ أنا

فقال الأتابك:

ـ عليك إذاً باستلام مقاليد السلطنة

هذه المحاورة على قصرها وبساطتها تدل الدلالة الواضحة على كنه الاسلوب الذى كان يقع بمقتضاه التغير فى أحوال الناس والاشياء . على ان الجانى الذى كان يكافأ دواما بالحلول محل فريسته فى أريكة الملك كثيرا ما كان يدان بما دان غيره به حتى أصبح من الحقائق الثابتة ان تسلم صولجان السلطنة في مصر عنوان للانتقال من الحياة الدنيا الى الحياة الأخرى

نهض بيبرس بأعباء الحكم فكان فى الحروب بطلا مغوارا يقتحم الأخطار والمصاعب مستهترا ويجازف بنفسه حتى لقد كان جنوده يتفزعون من أجله خيفة أن يناله مكروه . وكان فى السلم ندى الكفين بالعطايا والمنح شفوقا على الفقراء . فشت المجاعة مرة فأمر بأن توزع عليهم يوميا كل حاجتهم للغذاء وفتح أهراء السلطنة وفرق عليهم ما كانت تحتويه من الغلال فلم تلبث المجاعة أن حل محلها الرخاء . وهو الذى أعاد بناء دمياط بعد تدميرها وضيق مدخل بوغازها وأعاد الجنزير الذى كان يغلق به

ثغرها دون السفن ورمم أسوار الاسكندرية وحصونها وأقام برشيد منارة لأضاءة طريق السفن اليها فى الليل . وبالجملة فقد كانت آثار فضله وكرمه وأعماله النافعة بادية في كل مكان وما تاريخ حياته الا تاريخ حياة المماليك جميعا فيما يميزها من آيات البطولة والكرم

ومن مفاخرهم التى لا ينبغى ان يغمط فضلهم بنكرانها كثرة البذل وإجزال العطية ومن آيات كرمهم ورفقهم حتى بالحيوانات أنهم جعلوا بأعلى قباب المساجد آنية واسعة كانوا يضعون فيها الحبوب لغذاء الطيور وكان محمد ابو الذهب من متأخرى المماليك كثير البذل وماكنى بهذه الكنية إلاّ لان الذهب كان يسيل من يديه كما يسيل غدير الماء

أما المماليك البرجية وسموا كذلك نسبة للابراج التي كانوا يحتلونها للذود فيها عن حمى البلاد فهم الذين خلفوا فى السلطنة المماليك البحرية بعد ان قضوا على دولتهم فى سنة ٧٨٤ للهجرة وفى عهدهم كما فى عهد هؤلاء كانت الكلمة العليا والقول الفصل والنبأ الصادق لقوة السيف المصلت لا لقوة الحق فلا عجب إذا كانت صبغة حوادث الدولة فى أيامهم صبغتها في أيام اسلافهم وهى الدم المسفوك . فأن السلطان من سلاطينهم كان يرفع عماد

دولته على تدبير المكايد ونصب الشباك لقتل سلفه ثم لا يلبث أن يجنى عليه خلفه بمثل ما جنى هو على غيره حتى قال أحد مؤرخيهم منبئاً بمآل دولتهم أنه سيكون كمآل دولة المماليك البحرية حذو النعل بالنعل

وفى الواقع فأن سليما الأول سلطان العثمانيين استولى على مصر فى سنة ١٥١٧ الموافقة لسنة ٩٢٣ هجرية فما كاد يقبض على سلطانها طومان بك حتى صلبه على أحد أبواب القاهرة المعروف بباب زويله إعلاما للملأ بأندثار دولة المماليك بموت هذا السلطان الاخير من سلاطينهم . ومنذ تلك السنة عهد بحكومة مصر من الوجهة الرئيسية العامة الى الباشا أى الوالى الذى كان ينفذه الباب العالى من الاستانة العلية وعهد بالأدارة الفرعية للاقاليم المصرية الى أربعة وعشرين من الزعماء المماليك أو السناجق الذين كان لهم من السلطان والنفوذ والشوكة ما يعدل بل ويتجاوز ماكان لأولئك الولاة العثمانيين منها . فسادت الفوضى بهذا النظام الذى أحر به ان يدعي بالاختلال وعم الفساد وتصرف أولئك المماليك فى الشؤون على مقتضى شهواتهم فابتنوا لأنفسهم القصور وأقاموا بها العروش . وكان اذا ارتقي أصغر أولئك السناجق الى مشيخة البلد وارتأى خلع الباشا الوالى عقد الديوان وأخذ من

أعضائه إقرارا بذلك وعندئذ يذهب رسول فى ثياب سوداء ويتقدم نحو الباشا حاملا الأمر بخلعـه فبعد ان يقوم بفرائض الاحترام له يخاطبه بقوله « إنزل يا باشا ! » فلا يجد الباشا مناصا من جمع متاعه تأهباً للسفر الى الآستـانة فى مهلة من الزمن لا تزيد على اربع وعشرين ساعة

وفى سنة ١٧٦٦ وهت بسبب ذلك الاختلال الروابط بين الآستانة والقاهرة الى حد جعـل على بك يرفض أداء الجزية المربوطة على مصر لخزانة الباب العالى ويضرب النقود بسكته ويطرد الوالي المعين من قبل الدولة وينادي بنفسه سلطانا على مصر بأقرار من شريف مكة

وفى مساء القرن الثامن عشر وصل اثنان من المماليك وهمـا مراد بك وابراهيم بك من الطريق المألوفة ـ طريق القتل ـ الى الولاية على شؤون مصر بعد أن اقتسماها فيما بينهما وكان الشعب ينوء باعباء النزاع الذى لم ينشب ان شجر بينهما وأخـذ الباب العالى يذكى ناره وفسدت أحوال البلاد فاضطربت الزراعة وفشت الطواعين وانتشرت المجـاعات وتوالت الحروب بين الاحزاب ووضعت الفرض الفادحة من الاموال على الأهلين ظلما وجورا وصودرت تجارات الأجانب وزاد تبجح البكوات واستهتارهم



احد الفراعنة يفتتح موسم الحراثة

بالدول الأجنبية حتى أهانوا العلم الفرنسى . فلم يسع القنصل الاول للجمهورية (أى نابوليون) إلا أن صاح بما صاح به من قبل المارشال رينو دى بيشييه أمام فارسكور : « بسم الله ! هلموا الى الامام أيها الرفاق ! فلن تستطيع فرنسا الصبر على هذه الاهانات » ثم عبر البحار فأسقط ودمر كما رفع وأصلح

فلندخل الآن فى هذا الدور الجديد

مصر فى القرن التاسع عشر

الباب الاول

حملة الجمهورية الفرنسية على مصر

من سنة ١٧٩٨ — ١٨٠١

كان القرن التاسع عشر على وشك الابتداء حينما ألقت سفن الحرب الفرنسية مراسيها في المياه المصرية وأخذت زوارقها تحمل الجند الى البر فلا تكاد تبعد عنها حتى تلعب الرياح بها لعب الصوالج بالأكر وتتقاذفها الامواج التى كانت تجيء الصخور المتشعبة على الساحل أرسالا فتذهب بصدمها بددا وتتناثر هباء. في هذا الوقت نفسه بدت لانظار الفرنسيين على الافق البعيد أشرعة سفن أخرى مقبلة فتوجسوا منها خيفة اذ وقع فى وهمهم أنها سفن الاسطول البريطانى. وأحسّ بونابرت للمرة الاولى فى حياته بعدوى الاعتقاد بالقضاء والقدر وهى الاصابة التى لم يشف من دائها الوبئ بقية عمره فأنه ماتطلع ذلك المرأى واستشرفه

هنيهة حتى عبث بنفسه القلق وصاح : « أيها الحظ الموافق أبعد أن ازلفتني عندك واحظيتني بما أبتغي تتعمد هجري وتخلى عن مساعدتي ؟ » ثم لكأنه سمع صوتاً منبعثاً من صدور الجند كله يقول : « لا تخف فليس ذاك الاسطول البريطاني وانما هو بعض الفرقاطات الفرنسية أقبلت من مالطه التي افترسها باسك الشديد لتنضم الى اسطول الحملة ، هذا كل ما في الامر . والواجب أن نحرص الآن على الوقت فلا نقف بالساحل يوما واحدا بل نواصل السير الى الاسكندرية » فاعترض في نفسه على هذا الرأي بالسؤال عن وسائط النقل الى ذلك الثغر . فسمع كأن هاتفاً يقول له . « هذه الوسائط انما هي مفاصلنا المدمجة وقوانا الشديدة » فاعترض ثانياً « ومدافع الحصار أنحصر المدينة بدونها ؟ » نخيل له ان أحدا يجاوبه : « لك بالسلالم غنى عنها نتسلق بها الاسوار ونحتل الديار »

وحقا فأن الاسكندرية وارثة مجد الاسكندر الاكبر وحاملة اسمه لم تلبث ان سقطت في حوزة قواد الحملة الفرنسية . بعد أن قتل من رجالها اربعون نفساً غيبت جثثهم حول عمود بومبيوس (عمود السواري) الذي تحلى باسمائهم فسلاما عليهم أجمعين وإكبارا لذكراهم الخالدة على مرّ الأيام والسنين وحمدا

وثناء على قائدهم الذى يكافئ الفضلاء على فضلهم ولو كانوا فى بطن الأرض مدفونين

دخل القائد الفرنسي المدينة الكبرى فكان أول همه بعد أن استقر بها أن نشر على أهليها المنشور الآتى باللغة العربية :

« بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه . من طرف الفرنسوية المبنى على أساس الحرية والتسوية السرعسكر الكبير أمير الجيوش الفرنسوية بونابارته يعرف اهالى مصر جميعا ان من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الأذى والتعدى فحضرت الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازه والجراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الاحسن الذى لا يوجد له نظير فى كرة الارض كلها . فاما رب العالمين القادر على كل شيء فانه قد حكم على انقضاء دولتهم . يا أيها المصريون قد قيل لكم اننى مانزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين اننى ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من أيدى الظالمين وأننى اكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم

وقولوا لهم أيضاً ان جميع اناس متساوون عند الله وان الشىء
الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين
المماليك والعقل والفضائل تضارب . فماذا يميزهم عن غيرهم حتى
يستوجبوا أن يمتلكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء أحسن
فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فأن
كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها
الله لهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ولكن بعونه
تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحدمن أهالى مصرعن الدخول
فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء
والعقلاء بينهم سيدبرون الامور وبذلك يصلح حال الأمة كلها
وسابقا كان فى الاراضى المصريه المدن العظيمة والخلجان الواسعة
والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك .
أيها المشائخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد قولوا لامتكم
ان الفرنسوية هم أيضا مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد
نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما
يحث النصارى على محاربة الاسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة
وطردوا منها الكواللرية الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب
منهم مقاتلة المسلمين . ومع ذلك فالفرنساوية فى كل وقت من

الاوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني واعداء اعدائه ادام الله ملكه . ومع ذلك فان المماليك امتنعوا من اطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلا الا لطمع أنفسهم . طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم . طوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالاكثر تسارعوا الينا بكل قلب . لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا الى الخلاص ولا يبقى منهم أثر » (١)

---

(١) هذا النص العربى وهو التعريب الاصلى لما ورد فى هذا المصنف من منشور القائد العام منقول بحرفه عن « عجائب الاثار في التراجم والاخبار » للشيخ عبد الرحمن الجبرتى . وقد اسلفه بديباجة قال فيها : « وقد كانت الفرنسيس حين حلولهم بالاسكندرية كتبوا مرسوما وطبعوه وأرسلوا منه نسخا الى البلاد التى يقدمون عليها تطمينا لهم . ووصل هذا المكتوب مع جملة من الاسارى الذين وجدوهم بمالطة وحضروا صحبتهم وحضر منهم جملة الى بولاق وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم أو يومين ومعهم منه عدة نسخ ومنهم مغاربة وفيهم جواسيس وهم على شكلهم من كفار مالطه ويعرفون باللغات ثم اورد بعد ذلك النص العربى المنقول عن النص الفرنسى واردفه بمواد قانونية لم ترد الاشارة اليها فى هذا المصنف وقد رأينا من باب اتمام الفائدة ايرادها فيما يلى وهي:

« المادة الاولي — جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع الى يمر بها عسكر الفرنسوية واجب عليها ان ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار اليه انهم أطاعوا وانهم نصبوا علم الفرنسوية الذى هو ابيض وكحلى واحمر

المادة الثانية — كل قرية تقوم على العسكر الفرنسوى تحرق بالنار

رتبت بعدئذ أوضاع الحكومة العسكرية فى الاسكندرية فجعل الجنرال كليبر قائداً لحاميتها وكان قد أصيب بجرح خلال واقعة الاستيلاء عليها ثم أوغلت بقيـة الجند في البلاد لتحقيق معنى النبوءة التى قضت بأن يرتبط حظ برّ مصر بحظ عاصمتـه فلا يتيسر فتحه والأخذ بأطرافه مالم يتقدم ذلك فتح العاصمة ذاتها

أيقن بونابرت بهذه الحقيقة فسير رفاقه الجنود الى القاهرة على خط مستقيم وقد وصف هذا السير بمـا يأتى : « قضينا تلك الليلة ببلدة البيضا (١) واليوم التالى ببلدة العوجا (٢) ثم ببركة غيطاس (٣) » وأمر بونابارت رجاله ان يخترقوا فيافى ليبيـة

المادة الثالثة — كل قرية تطيع امر المعسكر الفرنسوى ايضا تنصب صنجاق السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه

المادة الرابعة — المشائخ في كل بلد يختمون حالا جميع الارزاق والبيوت والافلاك التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع ادنى شيء منها

المادة الخامسة — الواجب على المشائخ والعلماء والقضاة والائمة انهم يلازمون وظائفهم وعلى كل أحد من اهالى البلد ان يبقى فى مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة والمصريون باجمعهم ينبغى ان يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال ادام الله اجلال السلطان العثمانى ادام الله اجلال العسكر الفرنسوى لعن الله المماليك واصلح حال الامة المصرية ؟

تحريرا بمعسكر اسكندرية في ١٢ شهر مسيدور سنة ١٢١٣ من اقامة الجمهورية الفرنسوى يعنى فى آخر شهر محرم سنة هجرية . انتهى بحروفه

(١) احدى كفور مركز كفر الدوار الآن
(٢) احدى كفور مركز دمنهور الآن
(٣) بمركز ابو حمص الآن

الجرداء ورسم لهم المراحل كما لو كان المراد ان يسيروا فى السهول الخصيبة ذات الغياض الناضرة بمقاطعة پروفانس الفرنسية . ولقد كانت الشمس تضئ لهم الطريق وترشدهم الى قصد السبيل إلا أنها لم تشرح صدورهم بأشعتها الساطعة المحرقة . لأنهم كانوا متى ساروا يشعرون كأنهم يمشون على حمم من نار وكان الدم يقطر من أقدامهم وملابسهم الصوفية تضايق أنفاسهم ولم يكن ما حملوه من الميرة معهم لغذائهم مقدراً الا لأربعة أيام فقط دعا أن جلهم اذا لم يكن كلهم رأى بادئ ذى بدء ان يتخلص من هذا الزاد بطرحه على الارض ظنا منهم أنه اصبح حملا ثقيلا على عواتقهم ولا فائدة منه بعد أن لم يبق شك فى قرب الوصول الى الغرض المقصود وفى إمكان الحصول عند كل مرحلة على مايلزم من الغذاء والماء . ولكن خيب الواقع هذا الفأل لأن مصر لم تكن بالبلد الذى يكرم مثوى الغريب إكرام البلاد الأوروبية له

حفز الجوع أحشاءهم وجفف العطش حلوقهم فذاقوا منهما الأمرين وعانوا ما لا يطاق من الآلام وكانوا كلما مدّوا بأبصارهم الى الأمام شهدوا فيما يتراءى لهم الواحات الغناء وبحيرات الماء ولكنهم كانوا كلما اقتربوا منها على أمل سد

المسغبة واطفاء أوار العطش كانت تلك المرائى السرابيــة تفر منهم بقدر ما دنوا منها ولم يكن ما بهر أنظارهم من تلك المرائى المبشرة بالفرج بعـد الضـيق الا نتيجة انعكاس الضوء ذلك الانعكاس الذى هو منشأ السراب . ويا ليت الصعوبات والآلام وقفت عند هـذا الحدّ فقد كان مرجوّا أن يجد أولئك الجنود فى الليل الراحة من عناء النهار ، ولكن خاب رجاؤهم إذ قضوه فى تحمل البرد الشديد الذى كانوا يشعرون كأنه يخضد مفاصلهم ويهدّ أركانهم . وكان اختلاف الجو على هذا المثال من أهمّ بواعث إصابتهم بمختلف الأمراض الرمدية على أن أولئك الجنود لم ينسوا أثنـاء معاناتهم لتلك الآلام ومكابدتهم تلك الصعوبات ما امتازت به الأمة الفرنسية من حب المطايبـة والمباسطة فأنهم كانوا لا تمر عليهـم لحظة بلا ضحك أو مزح أو غناء فكان لهم بذلك السلوان عما كان يصيبهم من الآلام والاحزان . وكان البعض منهم فى مزحهم يمنون أنفسهم بالذهاب يوما الى مكة ليروا فيها قبر محمـد معلقاً فى الهواء يجذبه حجر المغناطيس مكافأة لهم على كدهم وجدهم كما كان غيرهم يطمحون الى أن يكون نصيبهم من الغنيمة تلك الناقة البيضاء التى قيل ان مراد بك فر عليها بما خف حمله وغلا ثمنه من الاموال والنفائس

أو إحراز البعض من نساء ذاك الزعيم العظيم

ومما يحسن إيراده للتنويه بأريحية الفرنسيين وحبهم الانسانية ومبادرتهم بالاسعاف والنجدة أن رئيس الجراحين (لارّى) كان يحمل معه لنفسه الشيء اليسير من شراب العرقي فلما هاله من أمر اصحابه ما شهده وأيقن ان العطش يكاد يوردهم موارد الهلاك طفق يخترق صفوفهم ليوزع عليهم ذلك الشراب الكاسر لحدة العطش وكان الكثيرون منهم فى حشرجة الموت فاذا لم ينشب الموت أظافره فيهم فما ذلك الا بتأثير هذا الشراب وبفضل إيثار صاحبه زملاءه على نفسه

والتقت طليعة الجيش الفرنسىّ على مقربة من البيضاء بامرأة سملت عيناها وخلفها غلام صغير وكانت تلتمس حافة بئر تحسسا بيديها لتطفيء بمائها نار عطشها فلما سألها العساكر عن أمرها وسبب سمل عينيها أجابت بأن زوجها أخذته ريبة فى أمرها فمثل بها هذا التمثيل القبيح فلما سمعوا قولها تركوا لها مامعهم من الماء القليل على شدة حاجتهم اليه ثم زودوها بكتاب وصوا فيه الجيش المقتفى لآثارهم بها خيراً . وما بلغت الفرقة الأولى من هذا الجيش الي البئر حتى وجدت بجوارها جثة امرأة ممزقة بطعنات الخناجر وعند قدميها الطفل مقتولا بضربة حجر

ثقيل . فأدرك القوم ان المسلمين ظنوا بالمرأة الظنون فأماتوها وولدها البرئ هذه الميتة الشنعاء

وما كان أتعس حظ المتخلفين من الجند أثناء الزحف وأسوأ طالعهم فأن العربان كانوا يفجأونهم فى وحدتهم وينكلون بهم أو يخطفونهم فاذا اهتدى اليهم فيما بعد فأنما وهم جثث هامدة أو فى ذل الاسترقاق . ومن الذين وردوا هذا المورد الجنرال ميرور فلقد ذبح ذبحاً وهو يفر خارج المعسكر جواداً عربياً اشتراه لنفسه ولقد أبلغ خبره الي القائد العام فلم يتمالك ان صاح « إنه كان لا مفر له من هذا الموت لأنه ابتعد كثيراً عنا بالرغم من تحذيرات أصدقائه وإلحاحهم عليه أن يكون دائماً على مشهد منهم ».

وحدث لمساعد أركان الحرب (دينانو) بن أخت لاسييد أن وقع فى قبضة العربان بالقرب من وردان بينما كان يجتاز شجارة جافة فأنفذ بونابرت اليهم رسولا ليفتديه منهم بالمال فاجتمع رجال القبيلة للبحث فى طلبه فانقلبت المناقشة الى خصام وتنازع على الحصص التى تخص كلا منهم من الفدية ثم الى معركة هائلة انتهت بأن أمر شيخ القبيلة باعادة السيوف الى اغمادها ثم دنا من الضابط المسكين فأطلق عليه عيارا ناريا أودى فى الحال

بحياته وأعاد مبلغ الفدية الى الرسول الذى جاء به وبذا انحسمت المشكلة وانحلت المعضلة

وكاد القائد العام يقع ذات مرة فى أسر لصوص الصحراء وكان قد تطوح بعيدا عن الجيش فاستتر بكثيب رمل حتى لا يراه رهط من العربان كانوا على مقربة منه فنجا بهذه الوسيلة منهم قائلا : « اذا أنا لم اذهب فريسة العربان فما هو إلا لأن وقوعي بايديهم لم يكن مقدراً لى فى عالم الغيب »

ولما لم يبق بين الجيش وبين الرحمانية سوى خمسة فراسخ حث العساكر المسير فوصلوا اليها بعد حين وشهدوا النيل بجوارها تتدفق مياهه وكانوا فى اشتياق شديد الى رؤيته فأنساهم منظره ما كان بهم من التعب وأخذوا يخوضون فيه قبل ان يفكروا فى خلع ثيابهم ويكرعون من مياهه كما يكرع من الخمر من حرمها منذ زمان طويل

ولكنهم لم يلبثوا أن دعاهم البوق والطبل الى تقلد السلاح لأن المماليك كانوا على مرأى منهم متحفزين للوثبة عليهم . فحمل (مورا) عليهم وصدهم الى الوراء وامتازت الواقعة بينه وبينهم بما يذكر الناظر بأيام الأبطال الأقدمين حينما كان ينازل البطل خصمه فيصرع أحدهما الآخر . ولقد شوهد أحد الأعداء أثناء

تجواله فى السهل للاستطلاع وهو على مرمى البندقية من طليعتنا وكان هائل الخلقة بدين الجسم ودابتـه من كرائم الخيل فصاح قائد الطليعة الفرنسية من منكم بقادر على أن يأتى بهـذا الجواد الكريم فأجاب الفارس رامورل : أنا .

كان لا يتجاوز هذا الشاب السادسة عشرة من عمره فاندفع نحو ذلك الفارس القوى البدين وحمل عليه حملة أقعدته عن مواصلة النزال ثم انكفأ ظافرا بالغنيمة إذ قدم الى ضابطه جواد خصمه وسيفه

وكان أربعة آلاف من المماليك ومثل العمام من العربان ينتظرون قدومنا أمام قرية شبراريس فحثثنا السير اليه . وبينما كان الأسطول الفرنسى الصغير يناهض على النيل أسطول المصريين كانت جنودنا تتألف وسط السهل على شكل مربعات (قلاع) وتجعل من أضلاعها أسواراً منيعة وحصونا لا ترام فأخـذ المماليك يتقدمون نحوها بهدوء وسكون ، الا أنهم كانوا كلما تقدم منهم صف حصدته المدافع بمقذوفاتها . ولقد حملوا حملة ثانية فأصابها من الفشل ما أصاب سابقتها فلم يسعهم عندئذ إلا ان تدفقوا بخيولهم ولـكنهم عجزوا عن اختراق تلك الصفوف المتراصة والأسوار البشرية المتينة . ولقد كبر عليهم عجزهم فأخذتهم

آخذة من الجنون وطاف عليهم طائف من التهور فحاولوا أن يدهموا الصفوف الفرنسية ويستظهروا على البنادق الأوربية ولكن الرصاص والحديد كان يحصدهم حصداً مئات عديدة . وكانت نار البنادق والمدافع تصيب ملابسهم فتلتهب وتحرق جسومهم فلما أعيتهم الحيلة فى دفع هذا المصاب وعلموا أنهم لا بد مغلوبون على أمرهم اشتد بهم الحنق فأخذوا يلقون على رؤوس جنودنا سيوفهم وخناجرهم وجميع أسلحتهم التى لم تساعدهم على الفوز لأول مرة فى حياتهم

(وكان المماليك قبل هذه الواقعة إذا عنّ لهم الحديث في أمر الفرنسيين يرفعون عقيرتهم قائلين إنه إذا أقدم الفرنسيون عليهم فعلوا فيهم بسيوفهم فعل السكين بالبطيخ) ولا بد أنهم أدركوا بعد هذه الواقعة خطأ حكمهم على بسالة الجنود الغربية وفهموا أنهم كانوا فى ازدرائهم بها مغررين بنفوسهم .

وصل الجيش الفرنسى الى الأهرام فوقف أمامها وقفة الاحترام والأعجاب ورفع السلاح بتحية الأكبار والأجلال لتلك المعجزات التى مرت عليها القرون والأجيال وشهدت الواقعة بين قمبيز ملك الفرس واهل منفيس القديمة

كان جميع البكوات قد انضموا الى الأمير مراد وجعل هذا

صيوانه وسط مخيم جيوشه على مقربة من شجرة جميز كبيرة .
وكان عدد المماليك نحو الستة آلاف مقاتل وكانت ملابسهم وسروج خيولهم فى الغاية القصوى من الجمال والفخامة فحملوا على الفرقتين الفرنسيتين حملة صادقة فتلقتهم مدافعهما بقنابلها من مسافة خمسين خطوة . إلاّ أنهم كانوا لا يعبأون بالرصاص ولا بالقنابل بل كانوا يندفعون نحو القلاع الموثقة الاركان الوطيدة الجدران من أجسام الجنود فيسقطون عندها قتلى بما كانت تقذفه المدافع والبنادق من حمم النار ، وكانت الخيل كفرسانها فى البسالة والشجاعة إذ كانت تلقي بنفسها على حراب البنادق لا ترجع أبدا الى الوراء ولا تميل يمنة ولا يسرة بل كانت تقذف بنفسها علينا فتسحق منا الرؤوس وتهشم الصدور وتحدث فى صفوفنا بذلك ثلماً واسعة . وكثيرا ما كان البعض منها يثب من فوق رؤوسنا فيصبح بداخل قلاعنا وإنما على أثر حادث من هذا القبيل وقع فى أسرنا رستم المملوك الذى صار فيما بعد مملوكاً وخادماً أميناً للجنرال بونابرت

ولقد جندل ثلاثة آلاف فارس من أولئك الفرسان الأبطال مضرجين بدمائهم وطورد الأسباهية الأتراك والعرب نحو النيل حتى صاروا من شاطئه فى مأزق حرج لم يسعهم للخروج

منه إلا محاولة اجتياز النهر سباحة ولكنهم باتوا فيه من المغرقين ووضع الظافرون أيديهم على أربعين مدفعاً وأربعمائة جمل وأمتعة كثيرة غنموها من المقهورين وصدر أمر القائد العام (السر عسكر) ببقاء الأسلحة والجواهر والثياب والكشامير والمناطق المحلاة بالنقود الذهبية بأيدى من غنموها من الجند وأصيب كثير من بكوات المماليك وفى جملتهم مراد بك نفسه بجراح خطيرة وأبدى اخوانهم فى اليأس وحبوط الآمال كل ما كان فى قدرتهم من وسائل الغيظ ونفث الاحقاد الكامنة فلقد شوهد الجرحي منهم زاحفين على بطونهم لتمزيق أجسام جنودنا طعنا بالخناجر وكان هؤلاء اذا وقعت عليهم أنظارهم تخيلوهم اشباحا وحشية أو خيالات شيطانية أو أفاعي دبت لبث الأذى والضرر وشوهد الفرنسى المثخن بالجراح المتخبط فى الدماء يثب الوثبة ليلتمس بعيداً عن الصفوف خصما ينكل به أو يزحف بيديه على الرمل المصبوغ بالدم فى طلب العدو ليفتك به بل شوهد الرجل من الفريقين والموت يدب فى جسمه مطارداً خصما يلفظ النفس الأخير ليجهز عليه وسمعت أصوات خافتة تتلعثم بأناشيد النصر ممتزجة بحشرجة الصدر أو انبعاث الأنفاس الأخيرة من مكامن الصدر

وبالجملة فقد كان هول هذا المنظر العام جديرا بالالتفات والنظر لا سيما وقد كان الجو ذلك اليوم ساكنا لم تهيجه الرياح والسماء صافية الأديم لم تشبها كدورة السحب ومظاهر الطبيعة حول هذا المراح مراح الموت والفناء قد لزمت الصمت والسكون وظلت الشمس تضىء الكون وهي فى كبد السماء كثريا من ذهب تبعث أشعتها فيما حولها من الأرجاء

فى اليوم التالى دخل بونابرت مدينة القاهرة من باب النصر الذى سمى بهذا الاسم تذكارا لدخول السلطان سليم الأول منه اليها ظافراً على المماليك فرتب ادارة المدينة ونظم شؤونها وبينما كان القائد (دوزه) يطارد فى الوجه القبلى وفيما يلى شلالات النيل مماليك الأمير مراد كان القائد العام يقتفى أثر ابراهيم بك الذي أخذ سمته الى الشام ليثير فيها الأحقاد ويحمل الأهلين على معاداة الفرنسيس . وكانت الجنود الفرنسية قد بلغت في مطاردتها لهم الى بلبيس فأنقذت حجاج مكة الذين كان يتعقبهم العرب من أتباع ذلك الأمير بأنواع التعدّى كالسلب والقتل . وبلغ بونابرت فى ثلاثمائة من جنده الى الصالحية فأدرك مؤخرة العدو بالقرب من الغابة المجاورة لها

وكانت هذه أول مرة أتيح فيها لفرسان الفرنسيس أن

يقيسوا أنفسهم بفرسان المماليك فما من فارس منهم إلا ونازل نظيره من هؤلاء جسما لجسم وأصيب (سالكوسكي) ملازم ركاب القائد العام بثمانية جراح وأصيب (دسترى) رئيس إحدى كتائب الخيالة باحدى وعشرين طعنة سيف قبل أن تدوسه الخيل بسنابكها .

وما من نقطة أوجهة بداخل القطر الا وظهرت فيها شجاعة الأوروبيين بفضل نظامهم وتنسيقهم العسكرى فى أجلى مظاهرها وفاقت فوقاً عظيما على شجاعة المماليك وأنظمتهم وتدابيرهم ولكن بينما كانت أصوات الجيوش ترتفع بأناشيد الانتصار داخل القطر كانت أصوات الكرب والضيق تتجاوب أصداؤها بسواحله البحرية . ذلك لأن الدونمة الفرنسية بقيادة الاميرال « برويس » كانت قد ألقت مراسيها بالقرب من الشاطىء وجعلت بعد ما بين كل سفينة والتى تليها من سفنها أربعمائة قدم أى ثمانين قامة ، وهو بعد سحيق جداً فاغتنم الاميرال نلسن أمير البحر الانكليزى هذه الفرصة إذ تمكن من قطع خط الاتصال والاندساس بينها وبين الشاطىء وخيل للفرنسيين بادىء ذى بدء أن مثل هذا الحادث يستحيل وقوعه لقلة عمق الماء فى هذا المكان فكان من نتائج هذا الخطأ الفادح في التقدير وتلك المناورة

الحاذقة أن سفننا أصبحت تجاه ضعف عددها من سفن الاعداء وقد تمكنت أربع منها من الفرار الى جزيرة مالطه حاملة العلم الوطنى ودمرت السفن الباقية وعددها إحدى عشرة سفينة احراقا او اغراقاً او نسفاً . وكانت الشمس على وشك البزوغ ولم يكن اطلاق المدافع وعددها مائة مدفع قد انتهى منذ الساعة السادسة من مساء اليوم السابق فما تنفس الصبح حتى ارسلت الشمس أشعتها الى ساريات مهشمة قد جللت وجه الماء وجثث رجال قد ناءت بحملها جثث السفن الجاريات

ولقد كنا فى وقت ما من أوقات هـذه المعركة العنيفة على وشك الاستيلاء على السفينة (بلليروفون) وهي السفينة التى حملت الأمبراطور (نابوليون) بعد أن ألقى من يده السلاح واسلم بنفسه الى الانكليز ، لأننا كنا قد اسقطنا سارياتها الثلاث وقتلنا السواد الاعظم من رجالها وطلب الباقون منهم الأمان ؛ غير أن تلك الأمنية لم تحقق وا أسفاه . . وجملة القول فقد امتاز هذا الصراع العظيم بأمثلة عجيبة للشجاعة والتفانى فى الاخلاص . فقد كنت تسمع من بحريتنا فى بحران القتال صيحات « لتحي الحرية ! لتحي الجمهورية ! » بل كنت ترى الذين كان الموت يسرى فى جسومهم منهم يهبون من مراقدهم وقد عادت اليهم قواهم

الفانيـة . واعتبر بذلك الفتى (كازا بيانكا) البـالغ من العمر ثلاثة عشر عاما بل ذلك المثل الأعلى للحب البنوى . فأنه أبى أن يلقى بنفسه فى البحر سباحة ليفر من نار الحريق الذى شب في السفينة (أوريان) وما رفض النجاة لنفسه إلا لأن أباه المسكين وهو ربان السفينة قد أصيب بجرح بالغ جـداً ألزمه العجز عن الاقتداء برجاله فى مغادرة سفينته المتلظية بنار الوقود

ولطالما ألح الوالد على ولده أن ينجو بنفسه فأبى الولد الا أن يموت فى احضان والده الشيخ . عندئذ قرر الربان أن يلتمس بابا لخلاصهمامعاً اذ امتطى مع ابنه قطعة سارية كانت طافية على وجه الماء ولكن أراد الله ان يبلغ اللهب فى هذه اللحظة الى مستودع البـارود فى السفينة فنسفت نسفاً هائلا أفضى الى ابتلاع البحر الوالد والولد المتناظرين فى ميدان الشهامة والاخلاص لبعضهما

واصيب (دوبتى توار) ربان السفينة (تونان) بقنبلتين دراكا فاستحلف زملاءه ألاّ يسلموا بأنفسهم وأن يلقوا بجثتـه فى اليم اذا أسرت السفينة وجندل الكونت الاميرال دوشايلا مصاباً فى وجهه بشظية قنبلة ولحق الاميرال نلسن أذى في جسمه فطلب اليه قسيسه ليوافيه بمعونته الدينية

أما الكونت الاميرال الفرنسى الذى لم يبق عنده من

المدافع الصالحة للقتال سوى ثلاثة فقط فقد أخذ يصيح في رجاله أن اطلقوا النار دائماً ولا تكفوا عنها برهة « فقد يكون فى الطلقة الأخيرة من طلقاتكم القضاء المبرم على العدو »

وكان (تيفنار) ربان السفينة (أكيلون) قد شوهت المدفعية الانكليزية جسمه فلم يكف مع هذا لحظة عن حض رجاله على القتال . وما زال بهم حتى فنيت أنفاسه بفناء آخر قطرة من دمه . وبعد ساعتين من بدء المعركة أضيب (برويس) القائد العام فى أحشائه فنقل الى حجرته ليسعف بالعلاج . ولكنه أبى أن يغادر مكانه قائلا : « لا ينبغي لأمير البحر الفرنسى أن يموت بعيداً عن موقف القيادة » قال هذا ثم عاد الى هذا الموقف وما قضى به عشر دقائق حتى قضى عليه

انتهت هذه الأنباء المحزنة الى علم بونابرت فبذل ما فى وسعه من وسائل التعزية لأهل القتلى وأقاربهم . إذ كتب الى أرملة الأميرال برويس يقول : « سيدتى ! يبدو لى أن المرء أشد جلداً وأعظم صلفاً مما هو عليه من ذلك فى الحقيقة وأنه ليشعر فى موقفه هذا بانه اذا لم يكن ثم مايضطره الى الحياة فالاولى به ان يموت ولكن يكفي ان يضم هذا المرء أولاده الى صدره بعد تردد تلك الفكرة فى خاطره لكي تنبه الدموع وعواطف

الحنان غريزته النائمة وتنشط طبيعته الخامدة فلا يلبث أن يرى بقاءه على قيد الحياة لاجل أبنائه ضربة لازب ؛ نعم أيتها السيدة إنى لأطلب منك وقد اهتززت بذلك الدافع أن ترسلى الى أبنائك نظرة من نظراتك الرحيمة لينفتح للحزن قلبك فلا تلبثين ان تمزجى دموعك بدموعهم وتعتنى بتربيتهم وتثقيفهم وتذكرى لهم سيرة أبيهم وما كان لوفاته من الألم الشديد فى نفسك وما خسروه هم والجمهورية بفقده »

وكتب الى (الفيس أميرال تيفنار) رسالة قال فيها :

« لقد مات ولدك بقذيفة مدفع وهو فى موقف القيادة وإنى أيها المواطن أؤدى واجبا محزنا بابلاغ هذا الخبر اليك ولكنه مات ميتة الشرفاء وبدون ان يشعر بألم . وهذه هى التعزية الوحيدة التى يستطاع بها تلطيف ما يشعر به والد من الألم الشديد لفقد ولده وإننا جميعا مصيرنا الى الفناء وهل لو عاش المرء أياما أكثر مما قدر له أن يعيش أتعدل حياته فيها سعادة موته لوطنه وهل تساوى هذه الحياة الألم الذى يشعر به اذا رأى نفسه على سرير الموت وقد أحيط بمظاهر الكبرياء وحب الذات من الجيل الذى يخلفه بل أتجزى حياة تلك الأيام ما يتكبده المرء فى مرضه الطويل من الآلام المبرحة وكراهة

الدنيا والزهد فيها؟ ما أسعد وأهنأ الابطال الذين يموتون فى ميدان القتال!»

ونحن نقول، وما أشقى حظ نابوليون فأنه لم ينل طرفاً من السعادة التى أشار اليها في كتاب تعزيته

أحس القائد العام بدنو الخطر وهو بعيد عن السواحل وحدثه وسواسه بقرب وقوع كارثة بحرية فعقد النية على اتقائها ودرئها إذ أنفذ الى الأميرال الفرنسى أحد ملازمى ركابه مزوّداً بأمر يقضى عليه بالاقلاع حالا نحو جزيرة كورفو اذا لم يستطع اللياذ بدونمته بثغر الاسكندرية. فحدث ان قتل العربان هذا الرسول فى الطريق وحينما انتهى الى بونابرت نبأ هذه الخسارة الفادحة كظم حزنه ولم يظهر شيئاً من أثر الدهش على وجهه. وكان موقنا أنه إذا خسر اسطوله فقد قطع كل صلة بينه وبين وطنه وحرم كل مساعدة توجه اليه من الخارج. وكل ما ألقاه على جنده هو: «أصدقائى! لقد فنيت دونمتنا ولم تبق عندنا سفينة واحدة فأنتم الآن بين أحد أمرين إما البقاء والاستقرار هنا وإما الخروج عالية رؤوسكم شم أنوفكم» فتلقى الجنود هذا التصريح بصيحات طلب الأخذ بالثار وكتب الامبراطور نابوليون فيما بعد على صخرته (يريد بها المؤلف صخرة المنفى بجزيرة

القديسة هيلانه) ما يأتى : « لقد كان لخسارتنا فى واقعة ابو قير تأثير عظيم فى حوادث العالم أجمع فأنه لو نجت الدوننمة الفرنسية لما وجدت الحملة على سوريا فى طريقها عقبة ولسهل نقل مدافع الحصار فى الصحراء ولما وقفت مدينة عكاّ حائلا دون تقدم الجيش الفرنسى أما وقد دمرت الدوننمة عن آخرها فقد شجع تلاشيها الباب العالى على اعلان الحرب ضد فرنسا . وفقد الجيش البرى أقوى عضد له وتحول مركز هذا الجيش فى مصر من الضد الى الضد وقنط نابوليون من إقامة نفوذ فرنسا فى الغرب على اساس وطيد »

وكان بونابرت موقنا ان حبوط آماله وفشل مساعيه كانا من نتائج خذلان الأسطول الفرنسى فى أمانيه وآماله الكبار فلكى يصرف الخواطر عن هذا الحادث ويحول دون تسرب اليأس الى النفوس أمر بأعداد المعدات الكبيرة للاحتفال بوفاء النيل . وفى هذا الاحتفال لبس حلة شرقية وحف به كبار رجال أركان حربه وعظماء أرباب الحل والعقد من المسلمين وشهد بنفسه إلقاء تمثال عروس النيل فى هذا النهر وهي العروس التى تلقى جريا على العادات والتقاليد المألوفة وفي حضرته قطع الخليج واتفق فى ذلك العام ان بلغ النيل فى وفائه الى الحد المناسب

للزراعة والموافق لحسن نموها فانطلق سكان القاهرة فى الطرقات يصيحون صيحات الفرح والسرور ويعزون الى القائد الظافر فضل هذا الفيضان المبارك وكانوا كلما التقوا به يقولون له : « لقد أيقنا أنك مرسل من الله وإنه لحقيق بك الافتخار بفوزك والاستبشار بأوفق فيضان للزراعة شهدناه منذ مائة عام » وقد بسط بهذه المناسبة يده بالعطاء للأهلين وقدم الهدايا الثمينة للذوات والعظماء فكان من هذا وذاك ان أطلقت الألسنة بالثناء عليه واجتمعت الآراء على وجوب الشكر له

وبعد ذلك بيومين أحتفل بالمولد النبوى احتفال فخم فكان الناس في الطرقات يتلون الدعوات وينشدون القصائد وذهب بونابرت في حشد حشيد من كبار ضباطه الى دار السيد البكرى للسلام عليه وقبل تناول الطعام في المأدبة العظمى التى أعدها السيد له وبذل فى تنميقها وتنسيقها كل ما عرف عن الشرقيين والمسلمين من الكرم والبذخ . وعقب هذين الاحتفالين احتفل بعيد الثورة الفرنسية فأن الفرنسيين فى مصر لم ينسوا هذا الاحتفال بل أقاموا بمناسبته هرما ذا سبعة أوجه نقشت على قواعده أسماء جميع الأبطال الذين قتلوا فى المعارك السابقة وكانت إقامته وسط ميدان الازبكية وأقيم حوله عدد من الاعمدة مساو لعدد المقاطعات

التى تتألف منها الجمهورية واصطفت جنود حامية القاهرة والجهات المجاورة لها بالقرب من ذلك الأثر فلما كانت الساعة السابعة من صباح يوم الاحتفال وصل القائد العام يحف به أركان حربه وأعيان القاهرة الاماثل واختلط دوى المدافع بصيحات الفرح والسرور من الجموع وألقى بونابرت خطبة قصيرة وهو واقف على قدميه عند قاعدة الهرم فقال : « أيها الجند ! نحتفل الآن باليوم الأول من السنة السابعة للجمهورية. كان استقلال الشعب الفرنسى منذ خمس سنوات مهيض الجانب مهدد الاركان ولكنكم استوليتم على ثغر طولون فكان استيلاؤكم عليه فألا صادقاً على تلاشى أعدائنا وانهيار ركنهم وانثلال عرشهم . وبعد ذلك بعام قهرتم النمسويين فى واقعة (ديجو) وبلغتم فى السنة التالية الى قمم جبال الألب ثم حاربتم منذ سنتين مدينة (منتو) وظفرتم الظفر التام فى معركة (سان جورج) . وفى العام الغابر بلغتم الى ينابيع نهرى (دراف) و (ايزونزو) اثناء عودتكم من المانيا فمن خطر بباله وقتئذ أنكم ستكونون اليوم على ضفاف النيل فى وسط القارة القديمة ؟ لقد استرعيتم أنظار العالم طرّاً من الانكليزى المعروف بالبراعة فى الفنون والتجارة الى البدوى المشهور بالقسوة والضراوة ، فيا أيها الجند ! إن ثغر الحظ مبتسم لكم لانكم خير

اهل لما قمتم به من جلائل الأعمال ولأنكم عند حسن ظن الناس بكم. إنكم اذا متم فأنما تموتون شرفاء كأولئك الابطال الذين نقشت اسماؤهم في هذا الهرم واذا عشتم فأنما تؤوبون الي أوطانهم مكللين بغار الانتصار مشيعين بنظرات الاعجاب من جميع الشعوب»

ما سمع الجند هذه الكلم الحماسية حتى صفقوا تصفيق الاستحسان وطاروا فرحاً وسروراً وقضوا نهارهم فى التمرينات النارية والمناورات العسكرية والتسابق على الاقدام والخيل. وخرجت فصيلة منهم الى الجيزة فرفعت العلم الفرنسى على قمة الهرم الكبير وبينما كانت أنوار الزينات تسطع فى الليل كأنها عنقود الثريا وقد هبط الي الارض كان القائد العام ونحو المائتين من القواد العظماء والاعيان يتناولون الطعام على مائدة أعدها لهم فى القصر الذى كان مقاما له بالقاهرة وكان المنظر قاضيا بالعجب والاستغراب اذ كنت ترى فيه اجتماع الاضداد فى الملابس واللهجات والسحنات الخ ماهنالك من الفروق بين الجنسين الفرنسى والعثمانى.

ولكن لم يلبث ان جاءت بعد السكر بخمرة هذا التصافى بين العنصرين الفتنة المزعجة والاضطراب المخيف فأن مدينة القاهرة التى باتت مظهراً ومراحاً لعلائم الوداد وآيات الأخاء لم تعتم ان سالت فيها غدران الدموع والدماء

وسبب ذلك ان أقاليم الوجه البحرى كانت تحريضات رجال الدين قد فعلت فعلها فى نفوس أهليها فرفعوا لواء الثورة والعصيان وأخذوا يرتكبون الفظائع من السلب والنهب والاعتداء على السابلة إذ كانوا لا يمر بهم بريد من بردنا حتى يزهقوا منه الروح ويحلوا جسده الرمس ولم يستطع القواد (لان) و (مورا) و(فيال) و (لانيس) اخماد الثورات المتفرقة وانضمت جيوش القائدين (منو) و(مارمون) فلم توفق لاخضاع كفر شباس الا بأحراقهم اياه بعد أن تعرضوا مراراً للهلاك بأيدى أهله . تلك كانت مقدمة الحركة الكبرى التي ظهرت آثارها ونتائجها بالقاهرة بعد حدوثها بأيام

وبيان ذلك ان الاهلين من الطبقات الدنيا تسلحوا بالنبابيت والاحجار وطفقوا منذ انبلاج الفجر يقتلون كل من يقابلونه من الفرنسيين وقد قتلوا القاضى ابراهيم ادهم افندى بباب داره ونهبوا مسكن الجنرال (دوفلجا) وكان غائباً عنه وذبحوا اثنين من ضباط فرقة الهندسة كانا يقيمان به . ولما اشتد الحرج نهض الجنرال دوبوى قومندان موقع القاهرة فحمل على الثائرين المخلين بالنظام بعدد يسير من فرسان الدراغون ورفع ذراعه ليضرب واحداً منهم فطعنه احدهم فى ابطه برمح طعنة قطعت شريانه وأودت بحياته

اطلقت عندئذ مدافع الخطر وضرب النفير داعياً الجنود

الى الاحتشاد والاستعداد فتأهبوا جميعاً للقتال وساروا يقتفون أثر الثائرين الذين كان قد استفحل أمرهم واستشرى فسادهم فى كثير من المواقع وساقوهم أمامهم سوقا واضطروا خمسة عشر الفاً منهم الى اللياذ بالجامع الازهر وإقامة المتاريس بأطراف الطرق الموصلة اليه

وبينما كان الجنرال (ديفو) يصد هجوم نحو خمسة آلاف فلاح زحفوا من الارياف على المدينة والجنرال (دوماس) يكافح البدو الذين كانوا يستنشقون فى السهل ريح السلب والنهب والتخريب والتدمير ، وبينا كان (سولكوسكى) ياور القائد العام يجهز الثائرون عليه باحدى قرى الضاحية بعد ان أنزلوه عن جواده وكان قد خرج للاستطلاع كان القائد العام بونابرت مقبلا من روضة المنيل لينظر فى رتق هذا الفتق فأمر على الفور الجنرال (رومارتن) بأن ينصب أثناء الليل بسفح المقطم فيما بين القلعة والقبة على مسافة ١٥٠ تؤازا من الجامع الازهر بطرية مؤلفة من أربعة مدافع . وفى الساعة الثامنة من الصباح أنذر العصاة اللائذين به أن يلقوا السلاح من أيديهم فلم يكن منهم الا أن تلقوا بالرصاص وفد المشائخ والعلماء الذى أنفذ اليهم فى هذه المهمة ورفضوا كل اقتراح اقترحه عليهم للتسليم

حتى اقتراح العفو عنهم مشفعين هذا الرفض بالسباب الفاضح والشتائم الشائنة . فلم يسع القائد العام ساعتئذ إلا ان أمر جنوده بتوقيع العقاب الصارم عليهم والتنكيل بهم وفى الواقع فانه لم تمض دقائق معدودة حتى هطل على الجامع وابل من القنابل وصنوف المقذوفات قذف فى نفوس اللائذين الفزع وأذاقهم الموت . واتفق فى الآن نفسه أن هبّ إعصار هائل فاختلط هياج العناصر الطبيعية بدوىّ المدافع وامتزجت سحب دخان البارود بسحب السماء القاتمة وتلاشت القوى والهمم أمام هذا الاضطراب الهائل الذى اهتزت له الارض والسماء وشعر اللائذون بالمسجد كأنهم قد أخذتهم صواعق الجو بعد أن تحيفتهم صواعق الارض فحنوا الرؤوس طائعين وصاحوا مذعورين ونادوا طالبين السلامة والأمان ولكن القائد العام جاوبهم على هذا الطلب بقوله :

« لقد رفضتم رحمتى فحقت عليكم نقمتى وقد بدأتم فلىّ الختام »

وما أتم هذا القول حتى شرعت مدافع البطرية والقلعة تصلى الجامع نارها فهدمت سقوفه وكادت تدفن الثائرين اللاجئين تحت أنقاضها . وحاول بعض هؤلاء التعساء الخروج من الجامع يائسين فكان كلما اقتحم فريق منهم الابواب لقى حتفه فى الحال باطراف الحراب المشرعة لصدورهم وألقى البعض الآخر السلاح

وجثوا مستغفرين و صاحوا بطلب الأمان . فلما شهد القائد العام هذا المنظر أخذت قلبه الرحمة بهم فأمر بايقاف المذبحة بعد أن قبض على قواد الفتنة ورواد الاضطراب فأصدر حكمه على أحد عشر من زعمائهم بقطع الرقاب ثم رأى ان في هذا الحكم شيئاً من الصرامة والشدة فلم ينفذه الا فى ستة منهم علقت رؤوسهم باطراف العصى وطيف بها فى شوارع القاهرة عملا بالعادة المتبعة وقتئذ . وبلغ من قتلته الجنود الفرنسية من اللائذين ثلاثة آلاف فرأى القائد العام ان فى هذا القدر من القتلى الكفاية لأرضاء العدل العسكرى وشفاء الغليل والأخذ بالثار

ومن ثم قمعت الفتنة بحكم الأرهاب والأخافة وانقلبت كراهة التسلط الأجنبى الى نوع من الاحترام الممزوج بالعطف على اعداء المماليك . وبعد ان ساد السكون في الأنحاء كافة بشهرين أعاد بونابرت تشكيل الديوان وكان قد ألغاه بسبب الفتنة وإقامته فى البلاد الحكم العسكرى وقرن ذلك بمنشور لا يلبث القارئ أن يرى فى غضونه الدلائل على قوة سياسته الحاذقة الحكيمة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من أمير الجيوش الفرنساوية خطابا الى كافة أهل مصر الخاص والعام نعلمكم أن بعض الناس الضالين العقول الخالين من المعرفة وادراك العواقب سابقاً

أوقعوا الفتنة والشرور بين القساطنين بمصر فأهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحـة . والبارى سبحانه وتعالى أمرنى بالشفقة والرحمة على العباد فامتثلت أمره وصرت رحيما بكم شفوقا عليكم ولـكن كان حصل عندى غيظ وغم شديد بسبب تحريك هذه الفتنة بينكم ولذلك ابطلت الديوان الذى كنت رتبته لنظام البلد وصلاح احوالكم من مدة شهرين والآن توجـه خاطرنا الى ترتيب الديوان كما كان لأن حسن أحوالـكم ومعاملتكم فى المدة المذكورة أنسانا ذنوب الأشرار وأهل الفتنة التى وقعت سابقاً .

أيها العلماء والأشراف أعلموا أمتكم ومعـاشر رعيتكم ان الذى يعادينى ويخاصمنى إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره فلا يجد ملجأ ولا مخلصاً ينجيه منى فى هذا العالم ولا ينجو من بين يدى الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعـالى والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وارادته وقضائه ومن يشك فى ذلك فهو أحمق وأعمي البصيرة. (وأعلموا أيضاً أمتكم ان الله قدر فى الأزل هلاك اعداء الاسلام وتكسير الصلبان على يدى وقدر في الأزل أنى أجيء من المغرب الى ارض مصر لهلاك الذين ظلموا فيهـا واجراء الأمر الذى أمرت به ولا يشك العاقل أن هـذا كله بتقدير الله وارادته وقضائه وأعلموا أيضاً أمتكم ان القرآن العظيم

صرح فى آيات كثيرة بوقوع الذى حصل وأشار فى آيات أخرى الى أمور تقع فى المستقبل وكلام الله في كتابه صدق وحق لا يتخلف . اذا تقرر هذا فلترجع أمتكم جميعا الى صفاء النية وإخلاص الطوية فان منهم من يمتنع عن الغي واظهار عداوتى خوفاً من سلاحى وشدة سطوتى ولم يعلموا ان الله مطلع على السرائر يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والذى يفعل ذلك يكون معارضا لاحكام الله ومنافقا وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب . واعلموا أيضاً انى أقدر على اظهار ما فى نفس كل أحد منكم لأننى أعرف احوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه وان كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذى عنده ولكن يأتى وقت ويوم يظهر لكم بالمعاينة أن كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم إلهي لا يرد وان اجتهاد الانسان غاية جهده ما يمنعه عن قضاء الله الذى قدره وأجراه على يدى فطوبى للذين يسارعون فى اتحادهم مع صفاء النية واخلاص السريرة والسلام) » (١)

---

(١) قد اوردنا صورة هذا المنشور برمته نقلا عن الجبرتى ولم يرد من اصله بالفرنسية في المصنف المرب سوى الشطر الثانى المحصور بين قوسين هكذا ( ) واذا كان المؤلف قد وصف مضمون هذا الشطر بقوله انه أثر من آثار سياسته الحاذقة الحكيمة فقد وصفه الجبرتى بما يدل على ان هذه السياسة كانت مبنية على الغرور والغفلة اذ قال « وقد اوردت ذلك للاطلاع على ما فيه من التمويهات على العقول والتسلق على دعوى الخواص من البشر بفاسد التخيلات التى تنادى على بطلانها بديهة العقل فضلا عن النظر »

وفى ذلك الوقت استيقظت الدولة العلية من سباتها فأصدر السلطان فرمانا وزعه على الولايات الشرقية ومما جاء فى ختامه :

« إن سيوفكم بتارة قاطعة ورماحكم حادة النصال ومدافعكم يشبه دويها دوى الرعد وجميع اصناف السلاح القاتل اذا وضعت بأيدى الفرسان الأبطال استطاعوا الظفر بمرادهم من العدو الكافر والقذف به فى قرارة الجحيم فلا يداخلكم شك فى أن الله معكم وانه كالئكم بعين عنايته وواق لحياتكم من الاخطار وان أولئك الكفرة سوف يتفرقون أشتاتا بمدد من رسول الله ويذهبون بدداً اذا نظروكم وان ساعتهم الأخيرة الآتية لاريب فيها والحمد لله رب العالمين »

وكان مقرراً أن تعزز الحكومة الانجليزية القوات العسكرية التى كانت الدولة العلية تحشدها لقتال الفرنسيين . وكان بونابرت واقفا على هذا السر فلكى يحبط هذه الأعمال المهددة لكيان فتوحاته من ناحية الشام . ويعاقب فى الوقت نفسه حاكم عكا لاهتمامه بحشد الجيوش وتعبئتها زحف على هذا الثغر للاستيلاء عنوة عليه نظراً لأهمية مركزه كمفتاح للحدود . فاجتاز الصحراء فى جيش مؤلف من ثلاثة عشر ألف مقاتل ولقى فى اجتيازها من الصعوبات ما سبق لنا وصف بعضه . إلا أن هذه الصعوبات

لم تعقه عن الاستيلاء على العريش فغزة فيافا فحيفا ولا عن مواصلة السير بعد ذلك الى الأمام فانه فى اليوم الخامس والعشرين من زحفه تراءت له مدينـة عكا فلم يتمالك ان قال : « اذا تم لى الاستيلاء على هذا الموقع . فقد آن لى ان أقلب الدولة العثمانية رأسا على عقب لأوسس دولة كبرى جديدة فى بلاد المشرق »

ولكن الله تعالى لم يحقق هـذا الأمل ولم يشأ ان يغير به وجه الكون

على أن المدينة لم تلبث أن سقطت فى يده وذلك بأن دخلها مائتان من جنودنا فى أقل من ربع ساعة من ثلمة فى الأسوار فاستولوا عليها وتحكموا فيها وسقط (كفاريللي) فى خندق وهو ذلك القائد العظيم الذى لم تسنح له فرصة الآن اغتنمها ليبلغ الى معالى الرتب وسبق فى ذلك الوزراء والأفراد بالرغم من ساقه الخشبية . وكثيرا ما كان يتذكر ساقه الحقيقية التى تركها بعد بترها على ضفاف نهر الرين فكان يقول على سبيل المزح تسرية للهموم عن نفوس زملائه واستثارة لضحكهم وصرفا لهم عن التفكر فى أوطانهم والحزن لمفارقتها : « أما أنا فانى أسعد منكم حظاً لأنه لا تزال لى ساق فى فرنسا »

ولولا الأساليب العدائية التى اتخذها الانجليز معنا بارسالهم الأساطيل تقتفى أثرنا بقيادة (سيدنى سميث) واستيلاؤهم على مؤننا وذخائرنا ولولا خيانة الكولونل المهاجر (فلبو) الذى كان يدير بطاريات خصومنا فدمر حصوننا وبذل فى هذا السبيل جهودا مات بسببها قبل انتهاء الحصار لاستطعنا ان نتوج بالاستيلاء على عكا واقعة جبل نابور التى حومـ فيها من الساعة السادسة صباحا الى الساعة الأولى بعد الظهر ألفا فرنسي فقاوموا بنجاح باهر عشرة آلاف من المشاة وخمسة وعشرين ألفا من فرسان الاتراك

ولقد اضطرت الفرق الجمهورية الى مغادرة سوريا للذود عن الاراضى المصرية وحمايتها إلاّ أن الطاعون كان قد فشا فى صفوفها فحصد رجالها حصداً ذريعاً ولم يكن تأثير انتشار هذا الوباء فى حالتهم المعنوية أقل منه فى حالتهم الحسيه . ولقد أراد نابوليون ان يخفف من وطأة التأثير المعنوى لذلك الداء الوبيل فأذاع فى كل مكان ان السبب الوحيد لكثرة الوفيات انما يرجع الى الحمي الالتهابية غير المعدية ولكى يعزز هذا التأويل الذى لم يكن القصد منه سوى التسلية والتعزية طفق يلمس أمام الجمهور المصابين بالطاعون في مستشفى يافا

كان زحف الجيش فى عودته محفوفا بالمصاعب والمتاعب فان القائد العام والضباط كانوا يتقدمونه سيرا على الاقدام بعد أن نزلوا عن متون الجياد ليركبها المرضى والجرحى

وبينما كان هذا الجيش يبهر انظار العالم بجلده وصبره وقوة مراسه كان الجيش الذى يقوده فى صعيد مصر الجنرال (ديزه) على بعد مائتى فرسخ منه يتألف من مربعات كالحصون المنيعة ويظفر بالاعداء وان يكن على الدوام أقل منهم عددا وأضعف عدة بكثير . ولقد قهر المماليك والعربان للمرة الاولى فعادوا الى محاربته لينقلبوا بالخزى والخذلان وكان مرادبك كلما هاجم بحشوده الكثيفة ذلك الجيش معزز الفرسان بالمدفعية القوية كان ديزه يصيح بملازم ركابه (راب) قائلا : « ان مدافعهم لازمة لنا » فيجاوبه : « اذاً تريد ان نقهر أو نموت » فيقول له : « أريد أن نقهر » فكان لايمضى القليل من الزمن بعد ذلك حتى تكون المدافع المطموع فيها فى حوزتنا . وقد حدث ان ثلاثمائة من الاعداء أوغلوا فى غابة من النخيل باقليم قنا مفضلين ان تكون لهم مقبرة على التسليم بأنفسهم فأضرمنا النار فى اشجارها وسرت حتى ادركت جسومهم فأحرقتها بعض الاحراق ولكنهم كانوا مع ذلك دائبين على مقاومتنا . ولقد تورمت جلودهم بتأثير النار وتمزقت تمزقا

تنبو الانظار عنه جزعا فكنت ترى البعض منهم لايزال يعمل بسيفه ويصيب به المعتدين عليه بعد أن ثقب جسمه بطعنات الحراب

وشوهد غلام فى الثانية عشرة من عمره ليس كمثله فى الجمال شىء جيء به الى الجنرال ديزه لأنه أخفى بعض البنادق وكان مصابا في ذراعه بجرح بالغ . فلما شرع فى علاجه أنشأ ينظر الى العملية بسكون وقلة اكتراث فسئل :

— من أغراك بهذا الفعل الذميم ؟

— لا أحد

— من حرضك على الاضرار بالفرنسيين؟

- الله القادر على كل شئ

— ألك أهل ؟

- لى أم فقيرة عمياء

— اخبرنا ما أسم الذى بعت بك ونحن لانمسك باذى ؟

- قلت لك أنه هو الله

- اذا أصررت على هذه الاقوال فان رأسك ...

— رأسى ! هاهو فاقطعوه -

قال هذا ثم خلع سكبته عن رأسه وألقى بها على قدم القائد

الذى أبت عليه مروءته ان يفرق بين هذا الجسم الصغير وتلك الروح الكبيرة فصرفه من حضرته قائلا اذهب الى سبيلك فانصرف الغلام العربى بدون أن ينطق بعبارة شكر ولكن شوهدت على ثغره ابتسامة ماهى إلا ابتسامة الدهش مما رأى

ولما عاد بونابرت من سوريا ترافدت الاخبار اليه بوصول مائة سفينة بعضها انكليزى والبعض الآخر عثماني بقيادة مصطفى باشا والى الروملى الى ابى قير وأن (مارمون) حاكم الاسكندرية رآها رأى العين فبعث القائد العام الى هذا الحاكم يعاتبه على سكونه وعدم تحركه للقاء هذا العدو فأجابه: «لم يكن تحت قيادتى سوى ألف رجل ومائتين بينما يتألف جيش الاتراك من ثمانية عشر ألفا» فقال بونابرت: «ألا تدرى اننى بمثل من معك من الرجال أستطيع الزحف على القسطنطينية؟»

ولم يصبر بونابرت ليثبت قدرته على هذه المجازفة إذ لم تكن الا عشية أوضحاها حتى أخذ بثأر رجالنا الذين ذهبوا ضحية لواقعة أبى قير بالتغلب على ذلك الجيش العثمانى الضخم ودحره إياه بعد أن عطل منه ثلاثة عشر ألفاً بين أسير وقتيل وغريق أما هو فلم تزد خسارته على ألف نفس

وحدث فى بحران الواقعة أن أصاب القائد العثمانى العام القائد

(مورا) بجرح خفيف من طبنجته فقابل الجريح هذا الفعل بقطعه إصبعين من أصابع خصمه فلم يسع القائد العثمانى عندئذ سوى ان سلم سيفه اليه وطلب منه أن يأخذه أسيراً . وكان ابن الباشا قد لجأ مع من بقي من جنوده الى أحد الحصون وظل يقاوم الفرنسيين فيه أسبوعا كاملا لم يصل اليه فى أثنائه شيء من المؤن وفقد كل رجاء فى موافاة المدد له لانقاذه حتى انتهى الأمر به وبهم فى آخر الاسبوع وبعد أن سقطت جدران الحصن بفعل المدافع الفرنسية الى القاء السلاح وبسط أكف الرجاء الى خصومهم أن يوافوهم بما يمسك رمقهم من الخبز والماء وأصيب (فوجيير) قائد المشاة بقنبلة انتزعت ذراعه فلم يكن من هذا البطل الذى توفى بعد هذا الحادث باثنتى عشرة سنة فى بلدة (أفنيون) الا أن يئس بعد هذه الاصابة من الحياة حتى سأل من حوله ان ينقلوه الى بونابرت فلما صار فى حضرته قال له : « انى أسلم الروح وأنا في ميدان القتال فلعل يوماً يأتى أيها القائد تتوق فيه نفسك الى مثل هذا الحظ » ولقد كان فى قوله هذا من المتنبئين

واهتم بونابرت بعد ان تم له هذا الفوز الساطع بتذليل ما كان يعترضه من الصعوبات فى القطر المصرى ولا جرم فقد كان المنتظر بعد تمزيق الجيش العثماني وانصراف الاسطول

الانكليزى أن يضمن الجيش الفرنسى السيادة والكلمة العليا لنفسه وان يبث نفوذه في أنحاء البلاد فما كاد يتحقق له هذا الأرب وينشر السكون التام ألويته على أقاليم الوجهين البحرى والقبلى حتى تتابعت الانباء من فرنسا بأن الفوضى حلت فيها محل السلام والنظام وأن النمسا والروسيا وقفتا حيالها وقفة الخصم اللدود المكشر عن نابه فرأى بو ابرت أن بقاءه بمصر لم يعد بالأمر الضرورى وكانت قد جاءته رسالة من حكومة الديركتوار تستدعيه فبرح مصر سراً لكيلا يتطرق اليأس الى قلوب الجند ليكفي نفسه وانفسهم مؤونة الحزن والألم ساعة الوداع . واصطحب فى رحيله القادة (برتييه) و (ولان) و (مورا) و (أندريوسى) و (ومارمون) فلما بلغ الى الاسكندرية كتب الى كايبر الذى خلفه على القيادة الأسطر الآتية :

« ان المركز الخطير الذى عهدت إليك به سيمكنك من اظهار المزايا التى خصتك بها الفطرة . ولا يعزب عن فهمك تقدير خطورة ما هو حاصل الآن وإدراك نتائجه وتأثيراته الجمة فى التجارة والمدنية . فالوقت الذى تبدأ به عملك سيكون عنوان تقلبات عظيمة وإصلاحات جمة . واذ كنت معتادا ألا أرى الجزاء على مشاق الحياة ومتاعبها الا بما تبديه الأجيال المقبلة من

الرأى بشأنها فأننى أغادر القطر المصرى وملء فؤادى الأسف العظيم . . . إن مصلحة الوطن ومحبته وواجب الطاعة له والحوادث العظمي التى وقعت أخيرا فيه ستلجئنى الى اقتحام أساطيل العدو للوصول الى أوربا ثم ان الجيش الذى اعهد بقيادته الى كفاءتك مؤلف كله من جنود هم أبناء لى ولقد اقاموا فى جميع الأوقات وعند الشدائد براهين الاخلاص لى والتعلق بى فأنت المسؤل أن تعاملهم بمثل ما كنت أعاملهم به من الرحمة والرفق . على ان هذا فرض انت مطالب بأدائه بناء على ما لك فى نفسى من المودة والاحترام وما بينى وبينك من الروابط الوثيقة التى لا انفصام لها »

ثم أرفق تلك الرسالة ببيان رسمي جاء فيه ما يأتى :

« الجنرال كليبر مأمور بتقلد القيادة العامة للجيش فى الشرق بسبب استدعاء الحكومة إياى اليها ـ بونابرت »

كانت شمس القرن التاسع عشر وقتئذ على وشك البزوغ ، وكان الجيش الفرنسي قد حرم قيادة البطل الذى ملأ ديوانه بحوادث الفوز والانتصار على ضفاف النيل وما برح أهلا للاحتفاظ بالتراث الذى آل اليه بفضل هذا الانتصار ، وكان القائد الذى تسلم مقاليد القيادة واصبح حظه فيها مرتبطاً بحظ

سلفه جديراً بأن يكون خير بديل منه كيف لا وهو الذى ظهرت بطولته فى القتال بوقائع شمبانيا وفانده وفلوروس ومايسترشت وألتنكنكن وكثير من الوقائع فى مصر ، وجمع الى مزية الجرأة فضيلة الروية وبعد النظر فى العواقب وخص من البراعة والقدرة بما يجعله أهلا لبلوغ الشأو الذى بلغ سلفه اليه وانما الفرق بين بونابرت وكليبر أن الاول كان سريع البديهة والابتكار والثانى طويل الاناءة والروية ومن كانت هذه خصلته خليق به اذا امتد حبل أجله أن يجعل ما ابتكره سلفه من الانظمة أثراً جليلا وعملا نافعاً .

ولو أن أهل مصر استشيروا فى تعيين خلف لبونابرت لأعلنوا جهرة أن العثور عليه مستحيل ما لم يكن كليبرا الذى يتقلد الأمر من بعده . ذلك لأن المصريين بما استقر فى نفوسهم من آثار الهمجية الأولى مدعوون الى تقدير العقول بحسب ما يرونه من ضخامة الأبدان وان عظماء الرجال وفحولهم فى نظرهم هم أصحاب الأبدان الهائلة وأقوياء الأساطين . ولا ريب في أنهم يجهلون ما ذا كان عليه الاسكندر الأكبر من صغر الجسم ولم يكونوا رأوا محمداً عليا الذى كان الناظرون اليه يحسبونه من الأفراد العاديين اذا اعتمدوا على صفاته المحسوسة ومميزاته

الظاهرة فى الحكم عليه ومن فحول الرجال ونبغائهم اذا عوّلوا فى هذا الحكم على الشمائل النفسية والصفات المعنوية فليس من الغريب ان يجهلوا ماذا كان رأى الأمم الأوربية فى البطل بونابرت وأنه يخالف رأيهم المبنى على الصفات الحسية لا المعنوية وكان يشق عليهم بلا ريب اعتقاد أن من كان مثله فى صغر جسمه يستطيع أن يقلب العالم رأساً على عقب وأن يهز بانتصاراته العروش ويزلزل بفتوحاته الارضين . ولقد حار الناس فى أمره اذ تعذر عليهم التوفيق بين قصر قامته وجلال فتوحاته فلم يستطع سوى الشعراء الخروج من هذه الحيرة حين قال بعضهم فى وصفه ما معناه : « اذا قصرت قامة القائد الجمهورى فأن رأسه قد سما الى كبد السماء »

وكان كليبر يقذف في النفوس الرهبة والاحترام بمظهره الجثمانى الذى يبهر الابصار بتناسب الأعضاء مع قوة الأساطين وكان باجماع الآراء أجمل جندى في الجيش الفرنسى فلما اسندت اليه القيادة العليا بمصر لهذا الجيش هابه الناس وخشوا بأسه فعنت له رقابهم وتطأطأت رؤوسهم حتى لقبوه لهذا السبب (مريخ فرنسا) وما كان أحقه بأن يصرف اليه المعنى المراد من الكلمة التى قالها لبونابرت يوم ضمه الى صدره عقب وقائع

ابى قير : « أيها القائد إنك لعظيم كهذا العالم ! »

ولما كانت الأمة التى استلم زمامها تحكم على القوة والجاه بحسب ما يقع بصرها عليه من مظاهر البذخ والعظمة وكانت لهذا السبب تدهشها رؤية من يطيعون رئيسا لم تكن ثيابه افخر من ثياب جندى من جنوده فقد رأى القائد كليبر صونا لكرامته ورفعا لقدره وتعزيزا لشدة بأسه ان يستجمع حوله مظاهر الجلال الأسيوى فقضى بأن يؤدى اليه ما كان يؤدى الى البكوات المماليك من مظاهر التشريف والتكريم وآيات الاجلال والتعظيم فرتب القواسة ليسيروا أمامه على صفين متوازيين وبأيديهم العصى والمحاجن يصيحون على المارة باللغة العربية : « هذا هو السلطان هذا هو الحاكم المتسلط فطأطئوا رؤوسكم اجلالا له » وكان السابلة من المشاة إذا رأوه مقبلا وضعوا أيديهم على صدورهم ثم انحنوا أما الركبان على متون البغال والحمير فكانوا يترجلون أولا ثم يؤدون التحية على النمط المتقدم

وانتقل كليبر من هذه البسائط التى لم تكن حقا فارغة من المعنى ولا خالية من التأثير الى التفرغ لشؤون أخر كانت لأهميتها تلتمس جهده وهمته فانه أراد أن يوفر للجند اسباب السعادة التى لم يكن من المستطاع التعجيل باتخاذها نظرا الى تسلسل

الحوادث والفتن واستمرار الحاجة الى الجيش لقمعها فاصبحت المستشفيات والمعسكرات بفضل ذلك الجهد متوافرة فيها اسباب الصحة والحصون والاستحكامات أوسع نطاقا وأتقن صنع الخبز وملئت المخازن والمستودعات بالمؤن والاغذية وعومل المضاربون على حساب الجند بالقسوة والصرامة ردعاً لهم وحوسب عمال الحكومة على الفتيل والنقير من تصرفاتهم حتى لقد وقع من أحدهم أن فرض فرضة خارجة عن القانون بمبلغ ٧٥ الف فرنك وخص بها نفسه فألزم بأعادتها الى أربابها وسيق هو الى أحد ميادين المدينة حيث أعدم رميا بالرصاص

وفى مستهل فندميير من السنة الثامنة للجمهورية أقيمت حفلة باهرة إحياء لذكرى تأسيس الجمهورية ألقي فيها على الجنود خطبة استهلها بقوله :

« أيها الرفاق الابطال : إن أعلامكم لتنثنى مبهظة بغار الانتصار ومن قام مثلكم بجلائل الأعمال لجدير بحسن الجزاء فعليكم بقليل من الصبر والمثابرة لتحصلوا على مكافأتكم وتنالوا متمناكم ولن يمضى زمن حتى تمنحوا بفعالكم المجيدة أمم الأرض كلها سلما ثابت الدعائم وطيد الاركان بعد أن حاربتموها جميعا »

وإذا كان الفضل في استقرار السياسة الرحيمة بأقاليم الدلتا على الأساس الوطيدة راجعا الى ما اتخذه القائد العام كليبر من الاساليب الحكيمة والاحتياطات الرشيدة فانما يرجع اطمئنان اقاليم الوجه القبلى فيما حف بها من أسباب السعادة والرفه والنعيم الى حسن ادارة القائد ديزه وعفته ونزاهته . فانه ما كاد ينتهى من اخضاع اهالى تلك الاقاليم ويستتب له الامر فيها حتى تفرغ لتدبير شؤونها جاعلا رائده العدل والاعتدال والمحاسنة . وبلغ من الأمر أن اطمأن الاهلون اليه فعادوا الى مزاولة اعمالهم الزراعية وأطلقوا عليه لقب السلطان العادل وتبرأوا من كل فتنة اثار المماليك غبارها. وبات هؤلاء الامراء الجراكسة لهذا السبب فى معزل عن النصير والظهير من ابناء مصر ولم يجرأوا على اختراق الصحراء لمحاربتنا ولم يبق لهم من حيلة بعد أن برحوا مصر يائسين من العودة اليها إلا التوفيق بين حركاتهم وحركات القوات الانكليزية لتهديد ثغر القصير والاستيلاء عليه . وكانت قيادة هذا الموقع بيد الادجودانت (دونزلو) فتمكن من ابعاد الفرقاطتين البريطانيتين اللتين وصلتا اليه وأقصاهما عنه بالرغم من كثرة القنابل التى اطلقتاها عليه وعددها ٦٠٠٠ قنبلة . أما مراد بك فقد تصدى له (موران) قائد

احدى فرق الفرسان ومزق شمله فى سمهود (بمركز نجع حمادى الآن) بعد ان اقتفى أثره على مسافة ٥ فرسخا

وعقد القائد ديزه النية حينما رأى ان ذلك الأمير يقهر دواما ولا يخضع أبداً ان يقضى عليه القضاء الأخير فجمع ٩٠٠ هجينة عودها جلبة القتال من صليل سيوف وصهيل خيل وفرقعة بنادق ودوى مدافع ودرب مثل هذا العدد من الجنود على رشاقة الحركة وسرعة المفاجأة ثم قسم هذا الجيش الى قسمين وكل اليهما ملاحقة ذلك الخصم العنيد والقبض عليه وقد ظهرت آثاره لها بأطراف الفيوم فترجل الفرنسيون عن هجنهم وألفوا مربعا هجم المراديون عليه ثلاث مرات متتابعة فلم ينالوا منه منالا بل اضطروا الى النكوص على اعقابهم منهزمين وعلى أثر هذا الحادث بزمن يسير عبر مراد النيل بالقرب من أطفيح وأوغل فى وادى التيه من جهة السويس ثم عاد أدراجه وأخذ يجول جولانه الأولى فى الوجه القبلى

وكانت فرقتا الهجانة قد بلغتا فى مسراهما الى أسيوط فعرض على مراد بك ان يملك هذا الأقليم الذى هو أغنى أقاليم الصعيد وأوسعها نطاقا وأوفرها خيرا ويخول الاستقلال التام فيه فرفض مراد معاهدة الفرنسيس على الاختصاص بتلك القطعة الصغيرة

من الأرض بينما يعد نفسه صاحب القطر المصرى كله ومالكه الشرعي . وكان هذا الزعيم جم الاحترام لقوادنا كما كان هؤلاء يعجبون لبطولته ولحركته الدائمة التى لا يعتريه هو ورجاله بسببها التعب والكلال . ولم يجد مراد من الضيق وحرج الموقف فى قتاله مع الفرنسيين ما يحمله على كسر حدته والحط من كبريائه وغطرسته وكان لا بد ان يخنع لهذه الضرورة يوما ولكن هذا اليوم لم يكن قد حان بعد

كانت الحكومة العثمانية قد ألفت جيشا فى الشام وزحفت به على مصر لاحتلال الضفة اليمنى من النيل فاستدعي ديزه لنجدة القائد العام وكان إزاء هذا الحادث الجلل قد بادر بتعبئة جيشه وتجهيز مؤنه وإعداد عدته وقرر ان يترك لمراد بك الحبل على الغارب ليتفرغ لقتال الجيوش العثمانية التى لم تكن شيع الأمير الجركسى بجانبها شيئاً مذكوراً .

وكان أربعة آلاف من جنود الانكشارية العثمانيين يتبعهم جيش احتياطى فى مثل هذا العدد قد نزلوا الى البر تجاه دمياط وانشأوا الاستحكامات على السواحل وهى الاستحكامات التى أجلاهم عنها فيما بعد ألف جندى فرنسى فقط تحت قيادة الجنرال (فرديبه) ولم يجعلوا المقام لهم فيها مستطاعا . فلم تسع البقية

الباقية من فلول تلك الجنود الممتازة الا أن نكصت على الاعقاب مختلة النظام مفككة الأجزاء وفي مقدمتها قائدها سعيد على بك ولجأت الى سفن القومودو (سيدنى سمث) التى جاءت بها من البلاد العثمانية . وكان هؤلاء اللاجئون قليلى العدد لفقدان السواد الأعظم من الجيش بين قتيل وجريح وأسير مقابل اثنين وعشرين قتيلا فقط خسرهم الجيش الفرنسى الظافر

على أن هذا الفوز الذى يتلو بعضه بعضا لم يكن بحاجب عن نظر القائد العام للجنود الفرنسية حرج موقفه وقرب حلول الضنك به لقلة الرجال والمال وفناء المؤن والذخائر خصوصاً وأن القتال لم يعد بينه وبين المماليك فقط بل تناول العصابة الدولية التى تألفت ضد فرنسا من انكلترا والباب العالى والروسيا . لهذا عول كليبر على استئناف المفاوضات التى كان بونابرت قد بدأ بها قبل رحيله الى فرنسا فبعث الى الاتراك مندوبين مفوضين من طرفه لمفاوضتهم وهما الجنرال ديزه والمدير العام (بوسييلج) ولكى يؤيد جانب هذين المندوبين ويعزز المهمة الموكولة اليهما ذهب بجيشه الى الصالحية على حدود الشام وكان الصدر الاعظم قد تمكن أثناء ذلك من استمالة أولياء الأمر فى العريش اليه ودس فى هذه المدينة دسائسه واشترى بالأموال بعض الذمم والضمائر بحيث أنها

لم تلبث أن سلمت اليه حينما دهمها بجنوده غير أن جنديا من الفرسان الفرنسيين أبى الا القيام بالواجب والحرص على الشرف فأطلق آخر رصاصة من بندقته على براميل البارود فى الحصن فانفجرت ونسفت في انفجارها جدرانه وأسواره التى دفنت تحتها المحرضين على هذه الخيانة والمرتكبين لها

ولا خلاف في أن هجوم العثمانيين على ذلك الثغر فى الوقت الذى كانت الهدنة فيه على وشك الانعقاد مخالفة صريحة للامانة وشذوذ ظاهر عن القواعد المرعية فى الحروب على أنه ترك الفصل فى هذه المسئلة الى أولياء الامر الذين لهم حق النظر فيها واستؤنفت المفاوضات من جديد فأسفرت عن اتفاقية ٢٨ يناير سنة ١٨٠٠ التى بمقتضاها تعهدت جنود الجمهورية بالجلاء عن القطر فى مدى ثلاثة أشهر بشرط ان تقدم الحكومة العثمانية اليهم وسائل الانتقال الى فرنسا بسلاحهم ومتاعهم وتنفيذا لهذه الاتفاقية كان الجيش الفرنسى قد تأهب للنزول فى السفن التى أعدتها تلك الحكومة إلا ان الاميرال (كيث) تداخل بين كليبر والصدر الأعظم منذرا القائد العام الفرنسى بأن بريطانيا العظمى لاتصادق على المعاهدة المبرمة إلا بشرط واحدوهو تسليم الفرنسيين سلاحهم واعتبارهم انفسهم أسرى حرب وتركهم كل ما

يملكون من سفن وذخائر ومهمات فاستاء كليبر من هذا الاشتراط ولم يجاوب الرسول البريطاني عليه بكلمة واحدة بل اكتفى بان طبع الرسالة التى جاءت اليه من طرف أمير البحر البريطانى وذيلها بالجملة الآتية :

« أيها الجند ! إن مثل هذه الاقوال الوقحة لايجاوب عليها الا بالانتصار والفوز فخذوا عدتكم للقتال ! »

فوثبت الجنود من مكامنها وهبت من مراقدها متعطشة للانتقام صائحة بالثأر وحاول القومودور سيدنى سمث بباعث خير من نفسه ان يحقن الدماء ويوقى الانسانية شر الصدمة المقبلة ولكنه عبثا حاول لان الاهانة لحقت الجيش الفرنسى ولأن كليبر آلى على نفسه ان يعاقب مرتكبيها . فأعلن ان الجمهورية والباب العالى أصبحا في حالة حرب ثم رسم خطط القتال وعين ميادينه وحشد تحت اسوار القاهرة عشرة آلاف مقاتل لم يلبث ان قذف بهم الثمانين الف عثمانى الذين تحصنوا باطلال عين الشمس (هليوبوليس) تحت قيادة يوسف محمد باشا المشهور باسم كيور باشا أى الباشا الاعور . وكان هذا القائد قد فقد احدى عينيه فى واقعة مع الروس

وفى فجر يوم ٢٩ فنتوز من السنة الثامنة للجمهورية (٢٠ مارس سنة ١٨٠٠) امتطى (كليبر) جواداً كريما ولبس أحسن ثيابه

العسكرية وبعد ان عرض جيوشه فى سهل ممتد على ضفة النيل صاح فيهم قائلا :

« أصدقائى واخوانى ! اعلموا انكم لاتملكون من مصر الآن سوى مواطىء أقدامكم فأذا تراجعتم الى الوراء خطوة واحدة فقولوا على انفسكم العفاء »

وماختم هذه الكلمات حتى علت الى عنان السماء صيحات الحماس والحمية وأخذ الجيش سمته الى الأمام

وماترا.ى الجيشان حتى شرعت ميمنة الجيش الفرنسى بقيادة الجنرال (فريان) تطلق القذائف من فوهات مدافعها فاصابت القنبلة الأولى نقطة من نقط العدو فدمرتها ومالت الميسرة تحت قيادة (رينيه) برصاص البنادق وحرابها على بقية الطليعة العثمانية التى استترت بقرية المطرية وهناك أتت النار على مالم يأت الحديد عليه وكان السواد الاعظم من الجيش العثمانى آخذاً موضعه خلف غابة نخل محيطة بقرية المرج مستترا بها فاستكشفه فريان وزج به الى الخانكة ثم الى الصحراء وكان لايزال يحتل بلبيس وماجاورها من البلدان الف فارس من هذا الجيش وعدد عظيم من المشاة فسألوا كليبر الرحمة بهم فأذن لهم بادراك الصدر الاعظم كيور باشار الذى ولى الأدبار فى خمسمائة من الفرسان

والاحتفاظ بأسلحتهم ليدافعوا عن أنفسهم عند الحاجة ضد العربان

ولما غادرت تلك الجنود العثمانية مراكزها الحصينه تركت في قبضة الظافرين عددا كبيرا من الخيول وأسرة النقل والسروج والاقمشة الحريرية والروائح العطرية والصناديق والخيام والمدافع ولم تكن الأحوال بداخل الديار المصرية أقل استدعاء للهمة واليقظة والنشاط منها فى هذه الميادين ذلك لأن عددا عظيما من الجنود العثمانية التى فرت اغتنمت فرصة اشتغال الجيشين بالحروب للاندساس بين سكان القاهرة وإذاعة الاراجيف عن نتيجة هذا القتال وصدق الأهلون اقوالهم قبل ان يحكموا فى صحتها ورويتهم فانساقوا بدافع الكراهة وحب الانتقام نحو الاحياء الأوروبية وأخذوا يقذفون سكانها بصنوف السباب الفاضح ويكسرون زجاج نافذاتهم بالاحجار ويخلعون ابواب دورهم ويلقون بجثثهم فى الخليج بعد القبض عليهم وقتلهم ولكن لم تكن الا عشية أو ضحاها حتى وصل اليهم المغلوبون والمهزومون فى واقعة عين شمس فاشتد بهم الحنق والحقد وانقضى يومان على البطل (دورانتو) وهو يحارب فى القصر الذى لجأ اليه مع مائة وثمانين رجلا من رجاله عشرة آلاف تركى وجما غفيرا من الاهلين

قد نماوا بخمرة الكراهة وحب الانتقام وأخذ عددهم بالزيادة حتى بلغ الى خمسين الف نفس مسلحين بالرماح والسيوف والبنادق العتيقة . وفى نهاية الأمر وصلت الى المدينة فصائل من الجيش الظافر لتعزيز حاميتها الصغيرة التى اعتمدت منذ وصول هذا المدد خطة الهجوم بدلا من خطة الدفاع وكان الثائرون قد أقاموا المتاريس فى الطرقات بارتفاع اربعة أمتار وجعلوها طبقتين تعلو احداهما الأخري وانشأوا معامل للبارود وصنعوا من حديد المساجد القنابل وقذفوا الى أعدائهم ما كان هؤلاء يرمونهم به منها . وعاد كليبر الى القاهرة فخشى اذا هو قابل الشدة بالشدة أن تنفد منه الذخائر والجنود فجنح الى المسالمة والتسامح واتفق مع الثائرين اتفاقا رضى هؤلاء به فى الظاهر وخالفوه فى الباطن فاضطر تجاه هذا الحنث الى اتخاذ وسائل الارهاب ضدهم من احراق وتخريب وكان الاميرمراد يكره الحكومة العثمانية ويخشى انتقامها منه اذا استتب الامر لها فى مصر فانضم الى جانب الفرنسيين وناصرهم ومدهم بالذخائر والمؤن فلما كان يوم ١٥ أفريل سنة ١٨٠٠ الموافق ٢٥ جرمينال من السنة الثامنة للجمهورية احرق الفرنسيون بلدة بولاق فى ضاحية القاهرة فاصبحت آكاما من الرماد وغطيت العاصمة بالدخان المتصاعد من الاماكن التى شب

ضرام النار بانحائها المختلفة ونعت الاطلال من بناها . ثم عدل كليبر عن التدمير والتخريب وأعلن عفوه عن المذنبين والثائرين في مقابل ما فرضه على الاهلين من الغرامات الفادحة بقدر ما يفي بحاجات الجند ولوازمه فى هذه الازمة العصيبة

وبالرغم من نجاح القائد العام فيما اراده من توقيع العقوبة واخماد الفتنة لم يسعه الا أن كاشف من حوله بما هنالك من الحاجة الماسة الى عناصر عسكرية جديدة تجمع الى الصلابة والمقاومة القدرة على العدوان والعلم بأساليبه . ولم يكن متاحاً له أن يعتمد على أى مدد يأتي اليه من ناحية فرنسا ومع هذا فأن ماقاساه جيشه من صعوبات الطقس وشدائد الحرب كان قد أحدث فى صفوفه فراغاً عظيماً صرف كل همته الى سده واصلاح الفساد الناشئ عنه فأنه بعد أن نظم جباية الاموال الاميرية خفف اثقالها عن العواتق بحيث اصبحت فى طوق الاحتمال وجدد استحكامات القاهرة وبولاق وعزز الحصون فى نقط مختلفة من سواحل البحر الأبيض المتوسط انكب على التجنيد فى الاراضى التى فتحتها جنودنا بسيوفها فتمكن بذلك من جعل الأعداء المقهورين أصدقاء خلصاء وأعوانا أمناء وكان بونابرت قد شكل فرقة من الاجانب وأخرى من الفرسان السوريين لجند كليبر عدداً

عظيما من المماليك والفلاحين الذين شغفوا حبا بمجدنا العسكرى وأنشأ طابوراً مؤلفاً من خمسمائة قبطي وآخر من تسعمائة يونانى وأدخل فى أحد شق الفرقة الحادية والعشرين الخفيفة عبيداً من السودانيين اشتراهم من قوافل النخاسين الآتية من اثيوبيا والنوبة

ولقد رغب فى توثيق الروابط التى ربطت مراد بك بالجمهورية الفرنسية فسلمه زمام الحكومة بالصعيد الأعلى وضرب له موعدا للمقابلة فى جزيرة ترسا القريبة من الجيزة . وهناك فى اليوم الأخير من افريل سنة ١٨٠٠ تصافح البطلان تحت خيمة أعدت لهما وتبادلا عبارات الوداد ولم يتقابلا من قبل إلا والسيوف مسلولة بأيديهما والرماح مشرعة الى صدورهما والبنادق مصوبة الى رؤوسهما وكان ينقص هذا الاجتماع خصم ثالث لم يكن أقل من كليبر إعجابا واحتراما لبطل المماليك العظيم ألا وهو القائد ديزه الذى كان قد عاد الى أوروبا ولقى حتفه فيها بمعركة مارنجو

وسيرى القارىء فيما يلى أن الانتقال من هذا الاجتماع الدال على الوئام والاتفاق الى مايشبه قصص المكائد وروايات الحيل والكنائن سيكون انتقالا فجائيا سريعاً . وليس هذا بمستغرب فان من الحوادث ما تبدو عليه دلائل التناقض ثم

لاتلبث أن تتلاقى كأنما هى ترمى الى غرض واحد

وبيان هذا ان الصدر الأعظم كان قدفرّ فى معركة عين شمس الى الصحراء يقطر جبينه خزياً وخيبة ويلفظ فمه لعاب الغيظ والغل فلما أمن على حياته من خطر الملاحقة أصدر المناشير بعضها تلو بعض ينفث فيها سم الحقد والكذب فلقد وصف القائد العام للجيش الفرنسى الذى كان ذنبه الوحيد أنه تغلب عليه وخذله وألزمه الفرار بوصف الكافر اللعين الذى دنس أرض مصر بقدميه ثم قدر المكافآت المالية لمن يجيئه برأسه ذاكراً ثواب ذلك عند الله ونفعه للناس أجمعين فلم تكن هذه المناشير إذاً إلا دعوة عامة للمسلمين أن يقوموا قومة رجل واحد على المسيحيين.

وقد انفتحت لهذه الدعوة آذان الناس فى العالم الاسلامى فانبرى من أهل حلب رجل عرف فيها بالتشدد في الدين والتصلب فى المشايعة له أخذ على نفسه أداء هذه المهمة فزوده أعوان الصدر الأعظم براحلة للسفر وخنجر للقتل وثلاثين قطعة من النقد الفضىّ للانفاق على نفسه ولعل فى تحديد المبلغ بهذا العدد إشارة الى أن المسيح بيع بثلاثين ديناراً

ووصل سليمان الحلبي الى القاهرة فقضى ثلاثين يوماً في التأهب لأداء المهمة الموكولة اليه بالصوم والوعظ وفى الاتفاق

مع جملة من الشيوخ ورجال الشريعة .

فلما كان يوم ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ وهو اليوم الذى جندل فيه ديزه بواقعة مارنجو قتل كليبر بيد ذلك الرجل على أثر عرضه الجيوش بجزيرة الروضة وتناوله طعام الغداءِ على مائدة الجنرال (دوماس) فى بسط وسرور . وبيان ذلك أنه بعد انتهاء الطعام خرج قاصداً الى دار مجاورة لدار مضيفه من دهليز ممدود بين البيتين . وكان يتبعه المهندس (بروتان) وكان استدعاه لاستشارته فى ترميم البناء الخاص بالقيادة العامة فوقع نظره على رجل زرىّ الشكل يتقدم نحوه تقدم الملتمس صاحب الحاجة فلما صار على مقربة منه انحنى أمامه انحناء الطاعة والانقياد واتخذ وضع من يريد أن يبث اليه شكوى أو يعرض عليه حالا . فأخذته الرأفة به ومد اليه يده بشىء من المال فلم يكن من الخائن إلا أن وثب فجأة ومزق قلب القائد المسكين بطعنة شديدة سقط بسببها على الأرض صائحاً : « لقد قتلت » فهمّ بروتان المهندس ساعتئذ بضرب القاتل بعصا كانت بيده فهجم هذا عليه وأصابه بست طعنات من خنجره حتى اذا ألقاه طريحاً على الارض عاد وبيده سلاحه يقطر دماً ليجهز على فريسته الاولى وقد أوردها فعلا موارد الردى

اهتدى الى القاتل مختبئاً بحديقة دار القيادة العامة للجيش خلف شجرة كثيفة الافنان فقبض عليه ودفع هو وبعض علماء الجامع الازهر الى لجنة تحقيق عسكرية حكمت على هؤلاء برمى الرقاب يوم الاحتفال بتشييع جنازة القائد باعتبار أنهم شركاء القاتل فى جريمته وعلى القاتل باحراق يده ثم بوضعه على الخازوق وبقاء جسمه معلقاً حتى تنهشه الطيور الجارحة.

وكان القاتل لايتجاوز الرابعة والعشرين من العمر وقد سار مطمئن الفؤاد نحو مكان التنفيذ وأظهر الغاية من الجرأة والثبات بخلاف شركائه العلماء الثلاثة الذين كانوا الى ساعة رمى رقابهم يبكون بكاء الثكالى

أما سليمان الحلبي فقد مدّ يده الى النار المتقدة وكان يرى بعينيه لحمه تشويه النار فلايبدى حراكا ولا يفوه بكلمة ولا يئن أنين التألم أو الشكوى ولما وضع على الخازوق لم تبد على وجهه علامة الاكتراث ولم يلتو جسمه بتأثير الألم وغاية ماشوهد منه أنه حينما رفعته أكف المنفذين للحكم لوضعه على الخازوق أجال نظره فيمن حضروا لمشاهدة إعدامه مطمئن الفؤاد ساكن الجأش ثم فاه بالشهادتين

ولقد قضى على الخازوق أربع ساعات ونصفاً وسأل مراراً

فى خلالها من منفذى الحكم أن يوافوه بشىء من الماء فلم يجبه أحد الى طلبه خيفة أن يقف قلبه فيموت قبل أن يأخذ من العذاب النصيب الذى استحقه بجرمه إلا أن أحد رجال النوبة الفرنسيين أخذته الشفقة به فرفع اليه بطرف بندقته كوب ماء ما كاد يشربه حتى اسلم الروح . والهيكل العظمى لسليمان الحلبى معروض فى غرفة التشريح بحديقة النباتات الفرنسية بفرنسا)

وفى السابع عشر من يونيو أقيمت حفلة جنازية إجلالا للفقيد وتذكاراً له ؛ وقد لبثت المدافع منذ قتله تطلق طلقة واحدة فى كل نصف ساعة . ثم أعلن عن تشييع الجنازة باطلاق المدافع من القلعة وسائر الحصون . وكان الجنود قبل ذلك بثلاثة أيام قد تناولوا أسلحتهم وهم تحت تأثير الاسف والحزن لهذه الخسارة المؤلمة وهموا باختراق شوارع القاهرة لاضرام النار فيها والتنكيل بالاهلين جميعاً انتقاماً لزعيمهم ولكن القواد تلافوا هذه الكارثة بضرب النفير العام جمعاً لشتاتهم ولم يتمكنوا من إيقافهم عن المضى فى تيار الانتقام الا بشق الانفس . وساروا بعد ذلك في حفلة الجنازة مشيعين وكانوا يسيرون والاسف بادية آثاره على وجوههم بين وفود المشيعين من الطوائف المسيحية والاسلامية وكانت الجثة مجللة بغطاء أسود وضعت عليه شارات الفقيد

وعلامات شرفه . ونقل التابوت الرصاصى على مركبة تجرها ست أفراس مجللة بالسواد وتحرك الموكب ببطء وسكون قاصداً معسكر ابراهيم بك الحصين الذى كان الى جانبه أرض فسيحة تظللها أشجار الأثل فأضيئت بالشموع وشق بها أخدود فلما وصل الموكب الرهيب غيبت الجثة فيه بعد ان غطيت بنثار الازهار واكاليلها وبللت بدموع الباكين وحفت بصلوات الاتقياء والصالحين

وقف عندئذ المسيو (فورييه) كاتم أسرار المجمع العلمى المصرى على ربوة يرى منها الجنود جميعاً وقد اصطفت اصطفافها للقتال فألقى خطبة تأبين مسهبة مدح فيها القائد العظيم قائلا إنه أصيب فى قلبه كما أصيب هنرى الرابع والدوق دوجيز . ونحن يسرنا أن نورد من هذا الخطاب الشطر الأخير منه المفعم بآيات حب الوطن والحماس قال :

« أيها الجيش الذى قرن اسمه باسماء ايطاليا والرين ومصر! ان الحظ أوقفك موقفاً غريباً فبعد ان لفت اليك أنظار العالم طراً جعل البلاد تعجب بشهامتك وثباتك وخلد سيرة انتصاراتك مقرونة بالشكر لك . لا تنس أيها الجيش انك وأنت هناك لا تزال تحت نظر ذلك الرجل العظيم الذى اختارته فرنسا ليدعم

اركان حكومتها بعد أن زلزلتها أيدى الكوارث العظمي والمصائب المدلهمة . ان عبقرية ذلك الرجل العظيم لا تحدها البحار الفاصلة بيننا وبين وطننا فآثارها موجودة الآن بينك وممتزجة بدمائك . إنه ليحبك حباً جماً ويحضك على الشهامة والثقة فى رؤسائك تلك الثقة التى بدونها لاتكون الشهامة شيئاً مذكورا بل ولا تنفع فتيلا . وهو يحثك على الاتصاف بالفضائل العسكرية التى خلف لك منها كثيراً والتى ينبغى أن تكون المثل الأعلى لرجالك اجمعين . انا لندعو الى الله ان يتوج جهود الفرنسيين فى ذلك السبيل بايجاد حكومة راقية نامية . عندئذ أيها المقاتلون الابطال تتمتعون بشرائف الرتب التى هى حق لأبناء الوطن المخاصين ولسوف تحدثون بينكم فى شؤون هذا القطر البعيد الذى فتحتموه مرتين وفيما كان من أمر الجيوش العديدة التى وردت موارد الفناء فيه سواء أجمع بونابرت شتاتها بجرأته الحكيمة، حتى في وسط بلاد الشام أم بعثرها كليبر بشجاعته التى لا تقهر داخل القطر المصرى فما أكثر الذكريات المجيدة المؤثرة فى النفس والتى ستثيرون كوامنها متى انقلبتم الى أهليكم وعشتم وسط أسراتكم التى نرجو لها التمتع بسعادة تلطف ما فى نفسكم من مرارة الأسف بل ما أكثر ما تمزجون وقتئذ

سيرة كليبر العزيز بما ستقصونه على ذويكم من القصص العجيبة وأنى لواثق من أنكم لن تنطقوا أبدا بهذا الاسم الا وأنتم تشعرون بقلوبكم وقد انبعث منها الحنان بل لن تسمعوا سيرته الا وانتم تقولون لقد كان خير صديق ورفيق للعساكر وقد كان ضنينا بدمائهم حريصا على تخفيف آلامهم

« أما انت يا كليبر ؛ أنت أيها البطل العظيم وهل لى أن أقول التعس ، أنت المقصود بهذا الاحتفال الذى نرجو ان لا يعقبه احتفال من نوعه ، فنم بسلام وأمان فى وسط ما أقمته من آثار المجد ومعالم الفنون ! اسكن هذه الارض الشهيرة منذ العصور الأولى وليدون اسمك مع اسماء (جرمانيكوس) و (تيتوس) (وبومبيوس) وغيرهم من كبار القواد والعقلاء الذين تركوا مثلك فى هذا القطر تذكارا لا يمحي »

واطلقت بعد ذلك المدافع والبنادق وختم بها وداع الخطيب والجيش للفقيد الراحل وآلت القيادة العامة الى أقدم قائد فى فرق الجيش . فكان هذا الحادث مصابا جللا . ذلك لان الجنرال (منو) وهو الذى آلت اليه القيادة العامة كان لا يصلح لميدان القتال صلوحه لأدارة دفة الأمور . فأنه انفق فى سبيل الأعمال الأدارية كل المهمة التى كان ينبغى صرفها بلا حساب فى وسط

المعسكرات وكان يقضى طول ليله مهموما فينهض من نومه متعباً كما كان يقضى نهاره مفكراً فلا يأنس من نفسه القوة الكافية لكبح جماح الحزازات الذاتيـة التى استثار كامنها فى نفوس خصومه ونظرائه ارتقاؤه الى ذلك المنصب الخطير . على أن أول ما سطره من البلاغات والأوامر الرسمية كان خير ما ألهم به فى خلال المدة التى تولى فيها القيادة وهاهو :

« أيها الجند لقد وقع جرم فظيع حرمكم قائدكم الذى كنتم تحترمونه وتجلونه وإنى لأتقى مسئولية هذا الجرم الفظيع أمامكم وأمام العالم أجمع على عاتق قائد ذلك الجيش المتوحش الذى افنيتمونه فى سهل المطرية فانه هو الذى باتفاقه مع أغا الانكشارية وضع السلاح فى يد سليمان الحلبى الذى بارتكابه أشنع الجرائم قد سلب من بينكم رجلا يجب أن تبقى ذكراه خالدة فى نفس كل فرنسى يحب وطنه . فيا أيها الجند لقد تمكن كليبر فى مدة لاتتجاوز عشرة أيام من تبديد سحابة أولئك المتوحشين الذين انقضوا على مصر . تمكن كليبر بما سنه من القوانين الحكيمة من تقليل عدد السرقات والخيانات التى كان لابد من وقوعها فى كل ادارة واسعة النطاق . كان كليبر قد دفع المتأخر للجند وجعل مرتباتهم داخلة فى الحساب الجارى وكان مهتما شديد الاهتمام بخطة رسمها

للاصلاح العام. فيا أيها الجند إن أعظم ماتستطيعون أن تكرموا به سيرة البطل كليبر إنما هو خضوعكم لذلك النظام الذى تتوقف عليه قوة الجيوش بل هو عدتها وعتادها عند الحاجة. وفى تذكركم على الدوام أنكم جمهوريون صادقون وأن الواجب عليكم في كل مكان أن تكونوا مثالا يحتذى عليه فى النظام والاخلاق كما أنتم كذلك فى الجرأة والثبات عند النضال فعليكم إذاً أن تطيعوا رؤساءكم من جميع الرتب والدرجات وتعلموا أننا اذا كنا جمهوريين فمن الواجب علينا التحلى بفضائل الجمهورية . أيها الجند إن الاقدمية فى الرتبة دفعتنى مؤقتاً الى مركز قيادة الجيش وليس لدىّ ما أقدمه اليكم إلا التحمس للجمهورية والارتباط بها ارتباطاً غير منفصم العرى . انى سأستمد بعبقرية بونابرت وبيطولة كليبر وإذا سرت في مقدمتكم فما هو إلا لنعمل جميعاً بالاتفاق لما فيه مصلحة الجمهورية »   الامضاء : عبدالله جاك منو

ومن الحقائق المقررة أنه ليخلف قائد الجنرال بونابرت يجب أن يكون بطلا مغواراً وليخلف كليبر يجب أن يكون رجلا هماماً وبطلا مقداماً . وبالرغم من أن الموقع على المنشور الذى أوردنا نصه فيما تقدم قد وعد بأن يقتفى فى الطريق الذى سلكه الأول الأثر الذى تركه الثانى فقد انحرف انحرافاً شديداً

عن الخطة التى سلكها كلاهما . فانه لم يلبث أن كذب نفسه بنفسه بقلة الاحتياط والتريث فى انتقاد الاجراءات العسكرية التى قام بها بطل عين شمس بل أنه عدا الانتقاد الى التحامل على أصدقاء ذلك القائد العظيم فاستعاض عنهم فى المراكز التى تستلزم الثقة والامانة بأولئك الذين التفوا به من الثرثارين والمتملقين . فكان من نتائج هذه الخطة العوجاء أن الرجال النافعين أمسكوا عن معاونته وأن الجنود أنفسهم حادوا عن مصادقته خصوصاً وأن ذكرى زعيمهم كانت لاتزال عالقة بأذهانهم

ومن المأثور عن جنودنا الميل الى المطايبة والتهكم وأن أول مايسخرون منه هو الخطر والجنرال منو كان إذا سار على قدميه بدت عليه الحيرة لعجزه عن حمل جسمه الضخم واذا ركب جواداً لم يشعر بشىء من الراحة فهذا القائد الذى انحصرت مزاياه وصفاته فى بروزه الى جنده بهذا الشكل المضحك بعد وفاة أجمل ضابط رأته الجيوش الجمهورية هو الذى لطمعه فى استمالة المسلمين واكتساب ثنائهم وحمدهم قد اتخذ له اسماً شرقياً واختتن وتزوج بعقد شرعي من فتاة مسلمة اذا قيس بها فى العمر بدا كأنه جدها الأعلى . وهو الذى منع المصريين مع ذلك من مزاولة كثير من عاداتهم المستمدة من الدين وكان مصرحاً بها على طريق التسامح

من قواد جيوشنا . فلا عجب اذا رأيتهم وقد ضنوا بالاحترام الواجب لمن كان فى منصبه بل كثيراً ما كانوا يقولون : « لسنا نريد شيئاً من جهنمكم الحامية اللظى ولا من جنتكم الزمهريرية البرد وإذا كان مما لامفر منه اختيار قائدكم مديراً لشؤوننا فاننا نفضل الأقامة في جحيم سلطانكم الفقيد على الاقامة في رضوان سلطانكم الحالى »

و'وجب من هذا للاعتبار أن تناجى الاهلين فيما بينهم والاشاعات التى تداولها الاروبيون كانت تسمع خلالها الفاظ الثورة والسقوط والاعتقال فى قلعة بل ادعى منه الى الاحتراس والحذر ماتمهد للشعوب الاجنبية من الاستفادة بما دب بين قوادنا من عقارب الافتراق وعدم الاتفاق فلقد تحسست انكلترا مواقع الضعف منا فاقنعت الباب العثمانى العالى بضرورة النهوض بعمل حربى يكون خاتمة أعماله ضدنا. وكان الاسطول البريطانى قد اجتمع فى كرامانيا باسطول الدولة العلية فلاح الاسطولان امام ثغر الاسكندرية فى ٢٨ فبراير سنة ١٨٠١ الموافق للتاسع من شهر فنتوز سنة ٩ للجمهورية . وكان السر (رالف أبر كرومبى) يقود القوات البرية واللورد (كيث) القوات البحرية فما كاد زورق الاستطلاع يتقدم نحو الثغر بقدر تسع عقد حتى استولى الفرنسيون

عليه واعتقلوا ركابه وهم ثلاثة من ضباط قسم الهندسة واضطرت السبعون سفينة التي كانت تمخر عباب البحر خلفه الى تحويل خطة سيرها قاصدة أعالى البحر لرداءة الجو وارتفاع الامواج وتعذر الاتجاه نحو السواحل . وبعد أسبوع قضته تجوالا فى البحر تمكنت من القاء مراسيها فى موردة (ابو قير) وكانت ريح الشمال الاعتدالية لاتزال هابة فلما كان الثامن من مارس الموافق ١٧ فنتوز هبت هذه الريح من الشمال الغربى وهدأ البحر وقلت أمواجه فتمكنت تلك السفن من انزال من بها من الجنود الى البر اذ تحركت الزوارق الحاملة لهم وعددها ٣٢٠ زورقا مرتبة على صف واحد ومنقسمة الى خمسة اقسام واتجهت نحو البر تحت قيادة الربان (كوكران) وفى مقدمة كل منها مدفعية وكان عدد ما تحمله من الجنود ٦٠٠٠ رجل تحت إمرة كل من الميجرجنرال (مور) والميجر جنرال (لورلو) . وقد أطلقت المدافع المنصوبة على الساحل مقذوفاتها على بحرية الزوارق فسقط بعضهم تلو بعض فوق الجنود التى كانت مطروحة على بطونها بداخل الزوارق اتقاء القذائف ولكن كان كلما صرع منهم واحد خلفه غيره على الفور وبذل المجدفون قصارى ما عندهم من الجهد فى التجديف حتى بلغت الزوارق الى الشطوط ووقفت عندها . عندئذ نهض

الجنود من قيعان الزوارق ووثبوا سراعا الى الارض وكان الجنرال فريان قد بادر بالنجدة بناء على إشارة وصلت اليه من المراكز الامامية وأمر رجاله الذين لم يكن عددهم يتجاوز الألف والخمسماية بالعمل بعد أن فرقهم على الرؤوس البارزة فى الموردة وقضى فى القتال العنيف ثلاث ساعات لم يسعه بعدها تجاه كثرة العدو ووفرة معداته إلا الانسحاب . واذا كان قد خسر فى هذه الواقعة اربعمائة نفس من رجاله فأن الخسارة التى ألحقها بالانكليز لم تقل عن ١١٠٠ بين قتيل وجريح واذا كان العدو قد استولى على الموقع ورفع عليه اعلام سيادته فما المسئولية واقعة فى ذلك إلا على عاتق القائد العام عبد الله جاك منو

وصلت الى هذا القائد عشرون رسالة من مراد بك على يد عثمان بك البرديسي تنبئه بتلك التجهيزات العدائيـة وتدعوه الى اتخاذ الحيطة لها فلم يشأ ان يسلم بأمكان وقوع اى عمل يكون الغرض منه انزال ذلك الجيش الا فى اليوم الذى ظهرت للأنظار فيه الدونتمة الانكليزية العثمانية واعلن خبر وصولها رسميا . وكان الى ذلك الوقت يهزأ بالناصحين اليه أن يهب للعمل معتبراً نصائحهم اليه واستفزازهم إياه تروّعا لامسوغ له . فلما حمّ القضاء ولم يبق ريب فى وصول العدو وتأهبه للقتال كنت تراه يتلمس الوسائل الصغيرة

متجنبا التدابير الكبيره فمن ذلك احجامه عن السير فى مقدمة جيشه نحو المكان الذى نزل العدو فيه واقتصاره على انفاذ فرقة الجنرال (لا نيس) الى ما يلى الرحمانية فلم يطابق وصولها الوقت المناسب لتلافى نتيجة واقعة ابى قير

انضم الى جيش الجنرال فريان بالقرب من (نيكوبوليس) فاضطر الى الدخول فى معركة كان من سوء حظ الجيش الفرنسي فيها مثله فى الواقعة السابقة . ولقد تساءل الناس أين يقف العدو بعد أن نزل الى البرّ وساد بينهم الخوف والقلق بما ألجأ القائد العام الى الاستيقاظ من نومه ففتح عينيه بعد ان خرج من دائرة حرمه وقرر مغادرة القاهرة ومعلوم ان الجنرال بونابرت لما برح القاهرة لقتال مصطفى باشا لم يترك فى هذه العاصمة سوى مائتى جندى . وكان فى هذا العدد الكفاية التامة لحفظ السلم والأمن بها وكان ذلك منه سياسة حكيمة أظهر بها للأهلين عظيم قدرته حتى مع مداهمة العدو له . اما الجنرال منو فقد حرم نفسه وهو يغادر القاهرة معونة اربعة الآف جندى تركها بها فأصبح من المتعذر عليه لذلك الهجوم بمن معه من الجند القليل على الجماعات الكثيفة من جنود الأعداء . وكان من أمره لهذا السبب أن اكتفى بمناوشة هؤلاء مناوشة لا فائدة فى النهاية منها ولاشك

فى أنه لو أراد ان يضرب الضربة القاضية حتى لايدع العثمانيين الذين كانت تصل جنودهم تباعا من ناحية الشام يندسون بينه وبين الانكليز لتعزيز هؤلاء لأيقن بملازمة الفشل له لا لسبب الا قلة الجنود معه

ولقد حاول عبثاً فى صبيحة ٢١ مارس الموافق ٣٠ فنتوز أن يقذف من آكام (كانوب) الرمليـة الى الجهة اليمنى من البحر والمعسكر الرومانى القديم ثمانية آلاف وثلاثمائة جندى فرنسي ضد الاستحكامات التى تحصن فيها ستة عشر ألفاً ومائتا انجليزى تحميهم مدفعية هائلة وعبثاً أنفذ فرسانه جميعاً لتعزيز نصف الفرقة الحـادية والعشرين التى أبدت من آيات البطـولة ماهو حرى بالتسجيل في صفحات التاريخ ، وعبثاً أراد الجنرال الذى أسلمت اليه قيادة بعض الجند فى وقت غير ملائم استفزاز حماس جيشه بقوله لهم : «أيها الأصدقاء اننا مبعوثون إما الى المجد وإما الى الموت فلنتقـدم !» ، وعبثاً اخترقت خيالته المؤلفـة من ألف ومائتى فارس الاستحكامات البريطانية واجتازت الخنادق وتغلبت على الخطين الأولين ، فان القائد العـام بدلا من أن يقوم على تدبير حركة حربية بواسطة مشاة جيشه أخذ يروح ويغدو فى ميدان القتال فكان من نتائج هذه الحركات أن انسدت الثلمة

التى فتحها أولئك الجنود عليهم فوجدوا المجد فى الموت كما قال لهم فى كلمته الحماسية . ومع أن الفوز فى هذا النهار لم يكن الى جانبنا فان العدو لم يجرأ على أن يتقدم خطوة الى الامام . ولقد اتفق لأحد ضباط فرساننا أن ترجل عن جواده فاندفع في صيوان القائد (أبر كرومبى) وأثخنه بجراح لم يعش بعدها أكثر من ثلاثة أيام . ولقد قال هذا القائد وهو يلفظ النفس الأخير إنه يموت منشرح الصدر مغتبط النفس لتمكنه من صدّ أول جيش فى العالم .

وأصيب الجنرال (رانبون) من قواد أركان حربنا بأكثر من عشرين رصاصة ثقبت ثيابه فجعلتها كالغلالة وأصيب الجنرال (ديتان) بجراح بالغة ونزعت قنبلة ساق الجنرال (سيللى) وأصيب الجنرال (بودو) بجرح مميت وطويت حياة الجنرالين (لانيس) و (رواز) طي السجل للكتاب

احتجب منو فى الأسكندرية احتجاب من ادركه الخزى والعار وفرق قوات جيشه في الوقت الذى كان التئامها ألزم ما يكون وجاء انتشار الطاعون بالقطر على أثر ذاك ضغثا على إبالة إذ مات به في بنى سويف حليفنا الصادق الشهم مراد بك الذى لم يكن إخلاصنا فى البكاء عليه أقل من إخلاص مماليكه فى ذلك ، أولئك المماليك الذين كسروا سلاحه على قبره لاعتقادهم أنه ليس فيهم من

هو أهل لحملها وخلفه بعد موته عثمان بك الطنبورجى ولكن هل كان لفرنسا ان تعتمد عليه اعتمادها على سلفه ؟

خلصت رشيد للأنكليز كما خلصت لهم الجهات الواقعة عند مصب النهر فاستولوا فى زحفهم على بلدة (فوه) ثم صعدوا منها الى الرحمانية وظلوا فى زحفهم حتى عسكروا ببلدة (الجيزة) ونزل الجنرال (بيرد) الى بر (القصير) على رأس ستة آلاف من السيباى الهنود ونزل النيل مع مماليك مراد بك أما الصدر الاعظم الذى كانت طليعته مؤلفة من مماليك ابراهيم بك فقد جاء من الشام فى ثلاثين ألف مقاتل اشتط عشرة آلاف فارس منهم الضفة اليمنى متقدمين فى طريق بلبيس وحوصرت مدينة القاهرة من كل جانب وكان الجنرال (بليار) قائدا لها . ولم تكن عنده مؤن ولا ذخيرة للمدافع ولا مال الا مااقتصده زملاؤه من تلقاء أنفسهم . ولم يكن عنده من الجند سوى سبعة آلاف كان يدخل مائة منهم كل يوم المحجر الصحى بسبب انتشار الطاعون . وكان يرى أمامه اكثر من ستين الف مقاتل يزحفون لقتاله ويشهد خلفه قوما يزيد عددهم على الثلاثمائة الف نفس قد أوردهم الوباء موارد التلف والجوع فغضبوا وثارت علينا ثائرتهم حينما رأوا شمس سلطتنا مؤذنة بالأفول وهم القائد بمعالجة هذه الحالة من غير

ثمرة تجتنى لأن دمياط والبرلس والأقليم كله أفلت من يدنا ووقع فى قبضة العدو .

عندئذ صاح القائد الهمام برجاله : « أيها الجند ، إن الأجيال الخالفة ستعطيكم قسطكم من العدل وتنصفكم أيما انصاف . ولكن الواجب عليكم الآن ان تموتوا فى مراكزكم من استحكاماتكم وإطاعة هذا الامر أنتم مدينون بها للشرف ولأرواح زملائكم الذين صرفوا انظارهم نحو الوطن وكان الوطن آخر ما فكروا فيه قبل موتهم »

ان حياة أولئك الأبطال وان بيعت بأغلى ثمن فقد كان مما يحزن الافئدة تضحيتها فى سبيل المستحيل . لهذا السبب عقد مجلس حربى للنظر فى الأمر واتخاذ ما يوافق من الوسائل حياله ومن الغريب أنه مع وضوح الحالة وبروز أخطارها للأنظار قد وقف أعضاء هذا المجلس موقف التردد تجاه الطريق الوحيد الذى كانت تقضى البداهة المؤلمة بالسير فيه . فقد كان الفرنسيون يحاولون الدفاع عن مصر فى جهات متنائيــة مجازفين بأنفسهم فى ذلك وموردبها موارد الموت وكانت البداهة تؤيد جانب المذهب القائل بضرورة حقن الدماء رفقاً بالأنسانية . إلا أن نعرة الوطنية وعزة البطولة قد ثار ثائرهما فى نفوسهم حينما سمعوا أن من بين

الشروط المعروضة عليهم التسليم صاغرين . فأنه لم يسع (دوبا) قائد احدى الفرق حينما علم بذلك الا ان صاح فى جنوده قائلا : «أجنود بونابرت وكليبر ، اذا أردتم ان تعملوا بقولى فتخلوا عن استحكاماتكم لمقابلة العدو وجها لوجه فى استحكاماته . فان المجد ينتظرنا فيها» ووافق المجلس ازاء ماشهده من توقد الجنود حماسة وغيرة على قرار فى هـذا المعنى غير ان بعض ذوى الحجى من أعضائه لم يلبثوا ان تمكنوا من تغليب العقل والمصلحة العامة القاضية بصيانة الارواح على تلك الحركة الحماسية المنبعثة من أحساس كريم وفطرة طاهرة واستطاعوا أن يثبتوا ببداهة الحساب ما هنالك من الخطأ اذا ترك حبل ذلك الحماس على غاربه وتقرر فى نهاية الأمر أن دم الجنود الجمهورية لايصح أن يسفك بعد الآن ما دام أن الغرض من سفكه لم يكن اكتساب المجد والشرف فى سبيل الوطن .

وصل رسول من طرف الفرنسيين لمقابلة القائد العام للجنود الانكليزية وكان هذا معسكراً بالجيزة فى عشرة الآف جندى فسرعان ما وافق على الاقتراحات التى كان يحملها اليه الرسول ولعله كان حتى تلك الساعة يخشى ان يقلب له الدهر ظهر المجن . وتم الاتفاق على تعيين مفوضين من الجانبين انتهي

الأمر بهم بعد المفاوضات الى التوقيع فى السابع والعشرين من يونيو سنة ١٨٠١ الموافق ٨ مسيدور من السنة التاسعة للجمهورية على شروط صالحة للفرنسيين لأنها جاءت فاسخة لمعاهدة العريش فالشرط الثانى عشر يجيز لكل مصرى راغب في البقاء على ولاء الفرنسيين مرافقتهم والرحيل عن هذا القطر وهى تشير بوجه عام الى ما كنا أهلا له من الاحترام بما أبديناه من الصدق والاستقامة فى تصرفاتنا . ومما يدل على ذلك دلالة صريحة أن ثمانية الآف نفر من المصريين والشرقيين المواطنين لهم آثروا الرحيل في السفن من موردة أبى قير يوم رحيلنا النهائى من القطر المصرى الموافق ٩ اغسطس سنة ١٨٠١ و ٢١ ترميدور من السنة التاسعة للجمهورية . ومن لم يهاجروا وطنهم المصرى ليعيشوا بفرنسا ويتخذوها وطنا ثانيا لهم فقد تزاحموا على الشواطئ وعلامات الحزن بادية على وجوههم وتسابقوا الى توديعنا . ولقد كانوا يقولون فى صيحاتهم لنا : « إنا على ثقة من أنكم اذا اضطررتم لمفارقتنا الآن على أثر ما وقع فيه قائدكم من الأغلاط فأنكم لا بد عائدون الينا يوماما »

وبدهى أن عساكرنا كانوا لا يستطيعون الابتعاد عن مصر مع تركهم فيها جثة قائدهم الأعظم كليبر . ولذا كان أول ما

فكروا فيه قبل رحيلهم أن فتحوا قبره واستردوا منه تلك البقية الكريمة . وقد حيت المدفعية الفرنسية الجثة أثناء نقلها من القبر الى الساحل وبلغ الأنكليز والاتراك الخبر فاشتركوا فى التحية بأطلاق مدافعهم أيضاً

وكان (منو) ما زال مقيما بالأسكندرية التى تحميها البحيرات والبحر فلما بلغ اليه نبأ الاتفاق الذى عقد بالقاهرة ثارت ثائرة غضبه وأقسم ألاّ يوقع عليها . على أنه حنث فى يمينه وأمضاها فعلا بعد إبرامها بيسير من الزمن . وكان هو أيضاً تنقصه الوسائل المادية فضلا عن استيلاء اليأس عليه بسبب انتشار الأمراض الوبائية . وكان يشعر كل يوم بتضييق الخناق عليه فاضطر بعد حصار دام اربعة أشهر ونصف أن يعمل نفس العمل الذى جهر بانتقاده وتفنيده . نعم قد كان فى نيته أن يجدد فى الاسكندرية سيرة مقاومة الجنرال (ماسينا) فى جنوى ، وكثيراً ما كان يكتب فى هذا الصدد الى الجنرال بونابرت بفرنسا ، ولكن من أين كان له أن يحقق هذه الأمنية وهو الذى اتخذ نحو قواد جيشه خطة صارمة بأنفاذه القائدين (دماس) و (رينييه) الى فرنسا ومقابلته الجنرال (رامبون) مقابلة جافة عنيفة لا لشيء إلا أنه نقل اليه نبأ المفاوضة فى الصلح الذى قرر

الضباط فى مجلس عقدوه ان يلتجئوا اليـه . ولقد نقل اليه القائد (دارمانياك) عين النبأ فجبهه منو بقوله : « وأنت أيضاً أنت الذى أعطيته شهادة الارتقاء الى رتبة القيادة » فأجابه دارمانياك على الفور : « لك أن تستردها ياسيدى بل إنى لراد اليك براءتها اذا كان فى بقائها معي ما يفرض على الوقوف بمعزل عن شرف عساكرى ومصلحتهم »

ولم يكن الوقت ملائماً قط لنوخي خطة الخشونة والصلابة فى المعاملة مع المرؤوسين ولا مع الرؤساء الذين تربعوا فى دست الرآسة ببراعتهم . وبعد ان جهر الجنرال منو أكثر من عشرين مرة بأنه يؤثر الموت تحت اطلال الموقع الذى يدافع عنه على تسليمه الأعداء، كان أول من رضى باقتراح عقـد هدنة تجرى أثناءها مفاوضات الصلح . وفي الثانى من سبتمبر سـنة ١٨٠١ الموافق ١٥ فروكتيدور من السنة التـاسعة للجمهورية كان هو الذى فاوض الجنرال (هتكنسن) في الجلاء وكان هتكنسن كلما تكلم بعد ذلك فى الموضوع قال : « لو كنت فى مكان بونابرت لأعدمت هذا الرجل رميا بالرصاص لأنه بحمقه وغروره أخرج مصر من قبضة فرنسا »

في آخر سبتمبر السالف الذكر انتقلت جيوشنا السفن

التى أعدت لها باسلحتها ومهماتها وأديت اليها التعظيمات العسكرية وكان الجنرال منو على ما ذكره بعض كتاب الوقت آخر من صعد فى السفينة لانه كان يشعر بفارق بينه وبين جنوده بالخطة التى اتبعها وبالخجل المترتب على هذا الشعور لا سيما اذا سار فى مقدمة أولئك الابطال الذين لولاه لما تلقوا جوازات سفرهم الى فرنسا من يد غير يد الانتصار والفوز

ما فتئ أولئك الابطال وقد ركبوا السفن يرمقون بانظارهم الارض التى رووها بعرق جبينهم ودم قلوبهم . ذلك لاننا نحب الاماكن التي شهدت ما تكبدناه من الآلام ولكن طريق السلوان والتعزى أنفتح ضمن الطريق الموصل الى وطننا فاذا كان من جلائل الامور فتح البلدان والانتصار على الشعوب فمما يحلو للنفس حث السير فى الطريق الموصل الى مسقط الرأس

مررنا فيما تقدم بحوادث هذه الحملة التى استرعت انظار الامم الاسيوية والأوروبية مراً سريعاً والآن نذكر أن أثنين من أساطين الأدب والشعر قد دونا موضوع هذه الحوادث فى قصيدة شعرية جميلة إذ مثلا فيها القائد بونابرت فى صورة رجل أحاطت برأسه هالة الفخر وصورا فيها الجيش بجلاله القديم ومصر بذكرياتها ومعابدها العتيقة وسرابها الزائل وخصبها

الشديد وقحولتها العجيبة . ولم يتردد أحد من المؤرخين الذين تناولوا البحث فى هذا الموضوع فى أن العالم بأسره لم يشهد منظراً أعجب من منظر الحملة الفرنسية فى مصر ولا شعباً قام بمثل ماقام به الشعب الفرنسى من المعجزات ولا سيما نقش فى جبهة الأهرام هذه الكلمات التى لا تمحي : « لا شىء بمستحيل على الفرنسيين » . ورب معترض يعترض بأن الأعلام الفرنسية انزلت من فوق المساجد . وله نقول : « نعم انزلت ، ولكنها بقيت خفاقة بين صحراء آمون وقمم جبل تابور وبين رأس البرلس وبلاد النوبة أى ما يلى الشلالات وجزيرة فيلة (أنس الوجود) التى حلق في جوها نسر الأمبراطرة الرومان زمنا ما

لما وصل مراد بك من الصعيد الأعلى ليدرك القوات العثمانية فى معسكر أبى قير كانت فصائل الجيش الجمهورى ناكصة على الأعقاب للاجتماع والاحتشاد . وخيل لعظيم قواد العثمانيين ان هذه الحركة مظهر من مظاهر الخوف والتردد . فلما رأى حليفه الجركسى مقبلا من بعيد صاح قائلا : « اولئك الفرنسيون الذين لم تطق بقاءهم قد كفى ان اظهر لهم بنفسى لألزمهم ملازمة الفرار » . فلما سمع مراد بك هذا الكلام غضب وصاح : « ايها الباشا جدير بك أن تحمد الله وتصلي على نبيه

لانسحاب الفرنسيين من أمامك لأنهم لو عادوا لاختفيت من أمامهم وتبددت قواك كما يتبدد التراب ويذهب ادراج الرياح »

وذهب بعض أصحاب النظر المحدود فى الحكم على الأشياء الى أن فتح وادى النيل حلم فتان وأمنية مبرقشة ببديع الألوان فقد زعم المؤرخ (تيير) فى كتابه على القنصلية : « ان نابليون لم يتصور قط فى مخيلته مشروعاً أعظم ولا أنفع من ذلك المشروع » وفى الواقع فان الغرض الذى رمى اليه من فتح مصر كان أقرب الى الحط من صلف الانكليز المنافسين لنا منه الى الرغبة فى معاقبة المماليك جزاء اضطهادهم لتجارتنا . وقد كان الانكليز في فعالهم الحربية الاخيرة قد استولوا على شبه جزيرة القنج (بالهند) فكان لابد لنا من أن نستولى على مصر للموازنة بين كفة الفتوحات الانكليزية وكفة الفتوحات الفرنسية حتى لا يكون لاحداهما رجحان على الاخرى واذا هم وضعوا فى سفنهم بلاد القديس دومانج وجزر الانتيل وثغر كلكته فقد وضعنا فى الكفة الثانية أجمل مستعمرة في العالم ، وهى منها نعم البديل وخير العوض باقليمها الملائم للصحة البعيد عن وخامات الحميات وأرضها التى يضرب المثل بها فى الخصب وأهلها المطواعين للحكام الدافعين للجزية صاغرين وسهولة المواصلات بينها وبين قارات الأرض .

واذ قد أضفنا الى ثغور ايطاليا وكورفو ومالطه ثغور الاسكندرية ورشيد ودمياط فأي وصف يوصف به البحر الابيض المتوسط سوى انه بحيرة فرنسية ؟

وماذا كان فى المستطاع حصوله بعد هذا غير تبدل قوانين الملاحة فى البحار وخروج صولجان السيادة على العالم من قبضة انكلترا واعتراف الملأ باستقلال البحار وأنها لم تعد ملكا لدولة معينة من الدول ؟ وذاك هوما أرست فرنسا قواعده على الآساس المتينة لصالح العالم أجمع وأما ما قامت به لمصر فيتخلص فيما يأتى :

إزالة ظلم المماليك والخفض من صلفهم وكبريائهم وعتوهم وتحسين أحوال السكان بترقية معيشتهم وإيقافهم على حقوقهم التى كانوا قد نسوها منذ زمن طويل وتنوير أذهانهم تنويراً دعاهم الى التفكر فى تأليف جامعتهم الوطنية وتطبيق مصادر الاقتصاد السياسى التطبيق النافع على الشئون والمصالح العامة وانشاء ستين ديواناً كانت أشبه بالمجالس البلدية فى بنادر القطر وأمهات مدائنه وكان يندب واحد من كل ديوان لينوب عنه فى الديوان العام الذى كان مقره القاهرة . وكان عبارة عن جمعية نيابية يشترك فى مفاوضاتها ومداولاتها مرخص فرنسى يرجع اليه الحق فى الدفاع عن مصالح الجيش وأمانيه وسن قوانين الملكية التى لم

تكن معروفة بالبلاد من قبل واحترام الظافرين لكل ما كان يرتبط بالقوانين الدينية والشرائع السماوية والعادات المحلية . وما من ينبوع للسعادة والرفاهية نضب بالجهل والاهمال معينه حتى فاضت خيراته وعاد الى سابق مجراه وما من ميدان أو شارع الا وأقيمت فيه الاسبلة لسقيا الحيوانات وبنى الانسان وشقت الترع التى يرجع اليها الفضل فى تعميم الرى بماء النيل الذى هو مصدر كل خير وبركة وانشئت الجسور لمنع تدفق الزائد من مائه عن مجراه واقتفى أثر اللصوص من العربان وأدبوا بمعرفة جيوشنا التأديب اللازم فانقطعوا عن السطو والتعدى بالسلب والنهب والتدمير وأقيمت المعاقل والحصون على شواطىء البحرين الابيض والاحمر فى الجهات البعيدة والصحارى النائية وأحيطت القاهرة وثغور الاسكندرية ودمياط ورشيد وبندرا قنا واسوان بسياج من القلاع المبنية بحجر الصوان وجعل النظام والاعتدال رائدين للجباة فى جباية الأموال وفرضت العقوبات القاسية على أرباب المغارم وعززت المعاملات التجارية بالكفالات العادلة القوية وشيدت المصانع لصنع البارود والمسابك لصهر الحديد وصبه والمعامل للصناعات المختلفة وثابت الهمم من خمولها وانشئت طواحين الهواء لأول مرة في حياة مصر الاقتصادية ونسقت حدائق

البكوات على أجمل الأنماط وفتحت الغرف لتعليم الرقص والبليار ومطالعة الكتب وأنشئت المطاعم والقهوات والمحال العامة للعزف بالموسيقي ومزق كبد الفضاء بالأسهم النارية ونظمت شواطئ النيل بحيث أصبحت بجمالها تذكر الرائى بشواطئ نهر السين

وصفوة القول أن الحضارة بما دخل عليها من التحسين والاتقان قد أضاءت بمصباحها الساطع البلاد التى انبعث منها أول شعاع من ضوئها الوهاج وأن ما قامت به مصر من بث مدنيتها فى أثيكا قامت بمثله فرنسا نحو مصر . قال أحد الكتاب المعاصرين فى هذا الموضوع : « عادت الفنون الى الظهور من خدرها فى وطنها الأصلى ومنبتها القديم وأخذ امراء العلم والفهم الأوربيون مقاعدهم من مدرسة البطالسة »

وكانت هذه الحملة بمثابة حج الى مكان مقدس بل لكأنها آخر حرب صليبية انصرفت الى مصر تحمل باحدى يديها عدد القتال وتصافح بالاخرى يد العلم والعرفان فقد أنزل بونابرت معه فى السفن من ثغر تولون رجالا دربتهم الحرب وتدججوا بالاسلحة مثل : كليبر وديزه وموراً ولان وبرتييه وجونو ودافو وفرديه ولوكلير ودومرتان وفوبوا ورنييه الخ ورجالا غيرهم

يحملون فى جباههم العقل والحجى مثل: جومار ودوليل وبارسفال جرنيزون وفورييه ومونج ودنون وبرتولليه وردوتيه واندريوسى وديجنت ولارّى ودوبوا الخ . وبعد أن استولى على قصور المماليك بالقاهرة عقب مغادرتهم لها فارين أسكنها رفاقه من الفريقين ثم ألف طائفة أو جمعية للتنقيب عن الآثار القديمة والبحث فى أسباب التقدمات النافعة ونشر أنوار العلم فى كل مكان ونصب نفسه وكيلا لتلك الطائفة بعد أن عين مونج رئيسا لها وفردييه سكرتيراً أبديا ثم رأى ان الشرف كل الشرف له فى تقلد عضوية تلك الجمعية التى لم تلبث أن سميت بالمجمع العلمي المصرى ولم تكن مكانته كعضو فيها أقل منها لو عين عضواً في المجمع العلمى الفرنسى . ولم يكن اشتغاله بمسائل الحرب على ما فيها من المباغتة والمفاجأة بمانعة له عن الدرس والبحث . وكثيراً ما كان يعرض على زملائه المسائل والمعضلات العلمية التى تتطلب الحل ليتناولوها بالبحث فيبت فيها على الفور بتحكيم الروية والعقل لا بتحكيم النار والحديد . وكانت المناقشات فى الجلسات ترمى الى أسنى المقاصد وليس فيها شيء من حب المماراة المأثورة عن بعض مجامع العلم وكان (پرسفال جرنزون) يقرأ بالشعر الفرنسى قطعا من الشاعرين اللاطينيين (كاموانس) (وتاس) كما كان (مارسل)

يترجم الى الفرنسية حكم لقمان الحكيم ، لافونتين العرب ، الذى بيع للعبرانيين فى عهد سليمان وجعل على حراسة الغنم ووهبه الله العقل والحكمة تخلف للجنس البشرى غير حكاياته الحكيمة اللطيفة نحو عشرة الآف حكمة بالغة سرت بين الناس مسرى الامثال ، على ان القسم اللغوى الأدبى من اعمال المجمع المصرى كان يتبع فى الأهمية القسم العلمى لما يرتبط بهذا الأخير من الشؤون المحلية . فقد قرأنا فى أحد محاضر جلسات المجمع لهذا القسم ما يأتى :

ما هي أحوال النظام القضائى والتعليم بالقطر المصرى ؟

هل يحتوى هذا القطر الوسائل الكافية لصناعة البارود ؟

ما هى الوسائل لجر الماء بكثرة الى القاهرة والقلعة ؟

ما هي الطرق التى يمكن اتباعها لحفر الآبار فى الصحراء ؟

وكان كلما عن له حل معضلة من هذه المعضلات ألف لجنة من الاخصائيين ذوى العلم بها وعهد اليها بالتفرغ لها أبتغاء حلها وقد جمعت أعمال هذه اللجان فى كتاب ضخم هو والحق يقال من أجل وأجمل الآثار العقلية فى العالم

وأنشئت مسارح للتمثيل مثلت عليها روايات باريسية الاصل وأسست صحيفتان كانتا تنشران ضمن ما تنشرانه أعمال

الجند وأخبار الحرب . ولو أن الاستيلاء الفرنسي على مصر دام حتى الآن لما اقتصر على نشر هاتين الجريدتين اللتين كانت احداهما تسمي الديكاد أجبسيين والاخرى لو كوربيه دى ليجيبت بل لبلغ عدد الصحف الالفين

ومفهوم أن اجتناء الثمار لايكون إلا بالجد والاجتهاد في تحصيلها فلم يكن التماس الراحة والنعيم فى الحمامات المرمرية أو الجلوس فى غرف الفسيفساء والغضائر القاشانى على الأرائك الحريرية مما يمكن الفلكي من رصد سماء غير سمائه والمهندس من مساحة أرض لم تطأها رجله من قبل والجغرافى من وصف ثغر أو ساحل أو بحيرة أو مقاطعة والطبيعي من درس خواص الطقس والباحث فى المخلوقات من ترتيب المعادن والأزهار الأجنبية والمنقب عن الآثار من النظر فى الاطلال القديمة والمهندس المعمارى من تنسيق الأبنية وتنجيدها والرسام من تصوير المرائى المختلفة . فلا عجب بعد هذا اذا رأيت الشجعان والمخلصين من أولئك الابطال رواد العلوم والفنون يلقون بأيديهم فى التهلكة ويتحملون صنوف الآلام فى الصحارى والقفار . ولكن لاعجب فان شغفهم بحب الجميل والنفيس من الاشياء كان يغريهم بالمخاطرة بنفوسهم وبالتقلب من ميدان جهاد

علمي الى ميدان غيره حتى كثيرا ما كانوا يرسمون الأراضى أو يمسحونها تحت وابل من رصاص بنادق العدو ويجففون مادونوه من الملحوظات فى كناشاتهم بالرمال التى كانت تثيرها المقذوفات ويستعير أحدهم بين تدوين صحيفة والصحيفة التالية سيف جندى لصد هاجم أو دفع معتد أو يزاول عملا شاقاً بقصد التلهى وقضاء الوقت .

وكانوا اذا انثلمت ضباة سيوفهم من شدة ماعملت فى الرقاب عادوا الى تناول البركار للرسم أو الى القلم الرصاص للتدوين والتحرير وبالجملة فقد كان الفتح الدموى الحربى يحمى ذمار الفتح العلمى السلمى ولم يكن الجندى ولا العالم مديناً أحدهما للآخر بشيء من الواجبات وكيف يكون لأحدهما دين على الآخر إذا كان الاثنان يذودان عن نفسيهما بسلاح واحد ويعيشان مع بعضهما تحت خيمة واحدة . ومما يساق مثلا على هذا التضامن في العملين العسكرى والعلمى أنه بينما كان الجنرال (ديزه) والعلامة (دنون) يجوبان الأقاليم القبلية الأول واضعاً البتار فى أحشاء المماليك والآخر مقتفياً أثره على المهل حاملا آلات العلم وأدواته كان العدو في فراره يمر بهذا الشيخ الجليل متأملا وباحثاً فيقرطس فيه سهمه أو بندقته وهو يعدو على جياده فلا

يصيبه لحسن الحظ ضرر . وكان الفلاحون ينصبون الشباك والكمائن ويدعون القول للرصاص لا للسان وقوة الاقناع ولكن كان الرصاص يحيد عنه حيدة الخجل والاحترام . وكثيراً ما كانت الجنود الفرنسية وقائدها الهمام يسمعون طلقات البنادق ويبادرون بنجدة الشيخ (فيرون) وهو شبح رجل حكيم كان الموت على وشك أن يغتاله وكان إذا أقبلوا عليه أرسل اليهم نظرة مطمئنة وفاه بكلم المجاملة والشكر ورجا منهم فى الآن نفسه أن يوافوه بشيء مما يحتاجه فى أداء مهمته ألا وهي رسم العجائب التى امتلأت بها أرض مصر بين الاسكندرية والشلالات

وكان منوطا بالمهندس (لوبير) تعيين الاقسام الطبوغرافية لهذا الثغر وبالمهندس (نويه) تحديدها لمدينة القاهرة وأمهات مدائن الوجهين القبلي والبحرى مع درس التقلبات الجوية واستخراج ارتفاع الأهرام وبالمهندس (نورى) قياس أقطار عمود السوارى وآثار أخر غيره و بـ (ديجنت) الاحصاء الطبي و بـ (بروان) تشخيص الرمد الصديدى وعلاجه و بـ (جودفروا) و (سافنيي) تحرير قائمة باسماء الحيوانات والنباتات و بـ (برتولليه) و (ديكوتلز) بيبان خواص بعض النباتات من حيث الصبغ

بالألوان و بـ (جيرار) تحقيق أحوال الزراعة والتجارة بالوجه القبلي و بـ (لانكريه) و (شابرول) توسيع نطاق رى المزروعات و بـ (رينو) تحليل طمى النيل المخصب للارض و بـ (كوستاز) تحليل رمال الصحراء و بـ (دينون) تفسير نظرية السراب و بـ (ريبوليت) تعريف أحوال الواحات التى نفى اليها قياصرة رومية الهرطقيين الخارجين على المذهب المسيحى والتى زارها اسكندر الاكبر اعتقاداً منه أنه أحد المعبودات وهلك فيها جيش قمبيز المؤلف من خمسين الف مقاتل دفنا تحت الرمال التى كانت تسفيها الرياح و بـ (سفاريزى) استكشاف الآثار البركانية وبالقائد (أندريوسى) تفتيش بحيرة المنزلة والبحث فى حجر ملح القاق والاحجار الطفلية والجبس واليشب والاخشاب المتحجرة والكائنات المتبلورة المنتشرة فى البحر بلا ماء والحشرات المنتشرة بشواطيء وادى النطرون

وكان كثيراً ما يتردد بخاطر بونابرت الميل الى التغلب فى البحار على السيادة الانكليزية فيها فأراد أن يوصل بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندى بحفر برزخ السويس وان يتخذ هذا الطريق البحري طريقاً عسكرياً الى بنغاله للقضاء فيها على خصوم الجمهورية فجاء ذات يوم الى هذا البرزخ يحف به

أعضاء المجمع العلمى لاستكشاف آثار الترعة القديمة التى كانت محفورة فى قديم الزمان للتوصيل بين البحرين . وقد وضع بنفسه العلامات على ما ظهر من آثارهـا بالطرف الشمالى من الخليج العربى فى المكان الذى كانت قائمة به مدينة (ارسينوة) ثم سار على الجسور البارزة القريبة من الساحل مدة ثلاثة ارباع الساعة مجتازا نحو الخمسة الفراسخ حتى وصل الى الحد الجنوبى الشرقى من بحيرات عامر (المعروفة بالبحيرات المرة) ثم وجـه وجهة ابحاثه نحو الطرف الآخر فاجتاز بالجهة الشمالية الغربية وعلى امتداد عشرة فراسخ وادى طوميلات غير انه اضطر اثناء ذلك الى العودة الى القاهرة للزحف منها على الانكليز وعهد باتمام ابحاثه الى من كانوا معه من رفاقه . ومما لاحظته الجمعية العلمية ان أعظم عرض للترعة القديمة كان لا يتجاوز خمسة وثلاثين متراً الى اربعين وان عمقه يختلف من اربعة امتار الى خمسة والمعروف ان الخلفاء الفاطميين هم الذين حفروا هذه الترعة التى أراد قائد الجيش الفرنسى اعادة حفرها ليتخذها كما كان يقول قبرا للتجارة الانكليزية

وبعد أن عبر بونابرت البحر الأحمر من مخاضة كان السير فيها ممكناً وقتئذ أوغل فى البر الى مسافة فرسخ واحـد ليزور

عيون موسى وهناك بحث طويلا في هذه الثماني العيون التى كان الماء ينبثق منها ساخناً ، والذى يذهب اليه أهل البلاد ان هذا المكان هو الذى ضرب فيه ذلك النبي العبرى الحجر فانفجرت منه تلك العيون التى ينبط الماء منها ساخناً نقياً ولما أراد القائد العام العودة من هذا المكان وجد المخاضة قد غمرت بماء المدّ فانطلق يبحث عن مخاضة أخرى واضطر أن يصعد الى اقصى الخليج التماس مسلك يؤدى الى الجهة التى كان يقصد اليها غير أن الأدلاء أخطأوا الحساب فيما يتعلق بامتداد المد فنشأ عن ارتفاع الماء خطر كاد يؤدى الى كارثة عظيمة . وذلك لأن أحد العساكر حمل الجنرال بونابرته فجأة على كتفيه وحاول أن يجتاز به المخاضة فكاد يبعث به الى قاع اليم ويلحقه فيها بفرعون موسى

ولما أتيح له أن يبتعد ذات مساء ومن غير أن يعلم به أحد عن شطوط مصر لينجد فرنسا بسيفه كان قد اصطحب في الفرقاطه (موروں) التى حملته باثنين من أعز العلماء عليه وأكرمهم عنده وهما (برتولليه) و (مونج) وسبب إيثاره لهما على جميع رجال الحملة وكلهم من أرباب الحجى انه قد حدثت فى إبان الحروب واقعتان إحداهما على النهر والأخرى فى الوقت نفسه بالسهل الممتد أمام بلدة بلبيس وكان برتولليه ومونج في

زورق صغير صب عليه العدو جام غضبه وسخطه ، فأظهر الرجلان من البراعة فى القتال ما استنتج القائد العام منه أن من كان مثلهما رسوخ قدم فى العلم وشدة جلد فى القتال لأجدر من غيره بالاحترام : وهذا ماجعله يفضلهما على غيرهما ويخصهما بإبشاره إياهما بعودته ولما أرسل القائد العام البريطانى بلاغه الأخير الى قائد موقع الاسكندرية كانت الفقرة الثالثة من الاقتراحات التى تضمنها هذا البلاغ بالنص الآتى : « تتعهد لجنة العلوم والفنون بأن لا تأخذ معها فى عودتها الى فرنسا شيئاً ما من الآثار العامة ولا الكتب الخطية العربية ولا المصورات الجغرافية ولا الرسوم ولا المذكرات ولا المجموعات بل يجب عليها ترك ذلك كله تحت تصرف القواد البريطانيين » . أظهر الجنرال منو قائد الموقع اللين والتواكل فى هذه المسألة إذ قبلها بلاشرط ولا قيد ، أما أعضاء المجمع العلمى الذين آثروا البقاء فى مصر فكانوا أحرص على كرامتهم وأشد غيرة على شرفهم إذ أبوا الخضوع لهذه الاقتراحات التي كانت ترمى فى الحقيقة الى حصول الانكليز بطريق العسف والاستبداد على النفائس التي جمعها الفرنسيون باقتحام الأخطار ومعاناة المشاق وركوب الاهوال . وقد لجأ منو في آخر الامر الى الالحاح على الانجليز باسم أولئك العلماء ان

يلغوا ذلك الشرط فلم ينجح فى سعيه لعلم الانجليز بأهمية الغنيمة وارتفاع قيمتها ، فثارت عندئذ ثائرة العلماء واشتد بهم الحنق وأنفذوا الى هتكنسن وفداً منهم ليخبره بأنه إذا ظل مصراً على طلب ماعندهم من الرسوم والكتب الخطية والمجموعات الأثرية فانهم يفضلون اتلافها بالقائها فى البحر على أن يطلعوا الرأى العام الأوروبى فيما بعد على الشدة التى عوملوا بها والتى هى سبة فاضحة للعالم المتمدين أجمع . فلم يسع البريطانيين أمام هذا التهديد إلا التنازل عن مطالبهم

وكان الفرس الذين دربتهم الثورات الكبرى فى بلادهم على القتال قد استولوا على مصر قبل الميلاد المسيحي بنحو ستمائة عام وشادوا بها حكمهم على الآساس الوطيدة فكان فى طليعة ماقاموا به من الأعمال تدميرهم ما احتوت الخزائن من النفائس أو نهبهم إياها وإتلافهم الآثار الهندسية الكبيرة وتعفيتهم على المدن الكبرى حتى أصبحت أطلالا دارسة ليس فيها ديار ولا نافخ نار واستعبادهم الأهلين وأفراد الأسرات الملوكية نفسها . فلما كان القرن السابع من الميلاد أى بعد تلك الحوادث بألف وثلاثمائة عام ظهر مخرب جديد اقتدى بقمبيز ملك الفرس فى ظلمه وعسفه وميله الى الافساد والتخريب ذلك هو عمر بن الخطاب

فلقد سأله قائده عمرو بن العاص فيما يفعله بالمصنفات التى كانت تحويها دار كتب الاسكندرية وكانت تعد بمئات الألوف فكتب اليه بما معناه : « ان كانت هذه الكتب تحتوى مافى القرآن فليس لنا حاجة بها وإلا فلا فائدة لنا فيها وفى الحالين يجب إحراقها » فبناء على هذا الأمر أحرقت تلك الكتب بأن استعملت وقوداً للحمامات العمومية بالاسكندرية مُدة ستة أشهر (١)

ومما يؤسف له أنه ما من مرة منيت مصر بأغارة الأجنبي عليها إلا وتحققت نبؤة الكاهن الأعظم مانيتون الأمين على الكتابات المقدسة فلقد قال : « فى حكم الملك تيماؤس أظهر الله غضبه علينا فساق الى بلادنا جيشاً أجنبياً أخذ يعبث ويفسد

---

(١) فى الوقت الذى طبع فيه هذا الكتاب أى فى سنة ١٨٤٧ كان الوهم السائد باوربا هو أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر عمرو بن العاص باحراق مكتبة الاسكندرية ولكن تبين بعد ذلك للعلماء الاوربيين الباحثين فساد هذا الوهم اذ أثبتوا وفي مقدمتهم القس جيبون أنه لم تكن بالاسكندرية ابان الفتح الاسلامى لمصر ولا قبله بنحو ٢٥٠ سنة مكتبة ما . وفى الواقع فانه كانت توجد بالاسكندرية ضمن دائرة الموزيوم مكتبة كبيرة دمرت احتراقا قبل الميلاد المسيحى بنحو أربعين سنة فنقلت البقية الناجية منها الى هيكل السرابيوم حيث عمود السوارى الآن وضمت اليها مكتبة فرغمة واتسع نطاقها على توالى الاعوام حتى اذا كانت أواخر القرن الرابع للميلاد (سنة ٣٨٩) قام مسيحيو الاسكندرية باضطهاد المصريين الوثنيين فدمروا ذلك الهيكل بالنار فاحترقت المكتبة ضمن ما احترق فيها وعثرت بلدية الاسكندرية أخيراً على جدران تحمل أثر الدخان ولم تنشأ بعد اندثار هذه المكتبة مكتبة أخرى بدليل أن يوسيفوس الرحالة المؤرخ زار الاسكندرية فيما بين القرنين الرابع والسابع من الميلاد ووصف آثارها كلها وليس بينها شيء يقال له مكتبة الاسكندرية

فيها إذ استولى على أملاكنا وقتل فريقاً من أمرائنا وألقى الباقين فى ذل الأسر وأحرق عواصمنا ونسف هياكلنا وعامل بالقسوة والعنف أبناء بلدنا وكبل بالقيود والأغلال نساءنا وأطفالنا »

أما الفرنسيون فكانوا لا يعرفون طرق التسلط والحكم على نحو ما كان يعرفها البرابرة المتوحشون إذ ربأوا بأنفسهم عن حمل المشاعل والمطارق للأحراق والتدمير والقضاء فى لحظة على ما حفظته يد الدهور وأعيا حيل الرجال من جلائل الآثار بل لم يجردوا بيوت الأمراء والملوك من مفاخرها العتيقة ولم يسيئوا الى المصريين بالقضاء على تماثيلهم وإتلاف هياكلهم . كلا ! بل أنهم كانوا أوسع حلما وادراكا من قياصرة رومية وأقل احتقاراً للغير إذ استعانوا بتلك الاطلال على استطلاع خبايا الماضى ومكنونات المستقبل . وقبل أن يعجبوا بخصب الأرض ووفرة محصولها وكثرة خيرها جعلوا أول همهم النظر فيما أمامهم فلم ينشبوا أن رأوا شعباً كبيراً وجاوزوا الاسكندر فى كرمه فلم يكفهم أن يشيدوا بين آسيا وأفريقية مدينة زاهرة زاهية بنور العلم والعرفان بل وجهوا عنايتهم الى المدائن المشرفة على الموت والزوال فأقاموا أركانها ورفعوا على الأسس الوطيدة جدرانها ووقف جنودنا فجأة وقد تملكهم الدهش أمام مدينة طيبة ذات

المائة باب فحيوا أطلالها بتصفيقاتهم الحادة الدالة على الاعجاب والاستحسان ، وفتحت دندره أى تنتيرس القديمة وإسنا أى لاتوبوليس القديمة وادفو أى أبولينوبوليس القديمـة وجزيرة اليفنتين وجزيرة فيلة ابواب هياكلها وقصورها لا لتمتد اليها يد السلب والتدمير بل لتدخلها مواكب الفنون الجميلة يسير فيها العلماء والفضلاء

ودهشت مصر لوجود مجمع علمي أقيمت جدرانه فى معسكر حربى وتضاعف دهشها واستغرابها عند ما رأت بنات الافكار تسير خلف عربة الانتصار . وقد نقش هـذا المرأى فى نفسها أحسن ذكرى للمستقبل المجيد الذى هيأه لها بين صليل السيوف ودوى المدافع فى الوقائع الماضية أولئك الفاتحون لها بل المتصدقون المحسنون بفتحهم عليها . ولا يزال الرواة من الوطنيين يروون عن أولئك الغربيين ما يشير الى بقائهم على عهد الحب والاحترام لهم فهم يقولون إنهم على قلة عددهم قد شتتوا المئات من الشعوب المختلفة ومزقوا كل ممزق جيوشا لايحصيها العـد . ولا يزال الشيوخ من أهل القبائل النازلة حفافى خليج السويس يذكرون ما أصابهم من الذعر أيام صباهم حينما اقترب منهم الرجل لابس الفرو يريدون به نابوليون العظيم ، يؤكدون أنهم لم يقفوا وقوفا

تاما على إحصاء جنوده . وإنما يذكرون أنهم كانوا أكثر من النمل عددا واذا عينوا عددهم قالوا انه لايقل عن الف الف من الرجال وربما ذهب بهم الوهم إلى التأكيد بان ذلك الرجل كان يقود طائفة من الجن وأنه عثر على خاتم سليمان فأصبح يفهم لغة الطيور وسائر الكائنات السماوية وأنه كان يرى فى اليوم الواحد بالقاهرة ويافا وأنه كان يستطيع بوثبة واحدة اجتياز مسافات تفوق فى بعدها مابين الثرى والثريا وكان بعضهم يسمى ذلك الداهية صاحب المعجزات بأبى الفروة والآخرون ببونابردى وغيرهم بسلطان النار وغيرهم بالسلطان الكبير

حدث لأحد أبناء جلدتنا أن رحل الى السويس قبل أثنى عشر عاماً فأدى به المطاف الى بيت رجل من أبطال تلك الروايات وكان يعرف اصحابه العرب من قبل وأكل معهم فيه الخبز والملح وقد احب ان يقضى به بضع ساعات في طلب الراحة فأكد أنه لم يجد به تغييرا ما عما كان عليه يوم زاره الجنرال بونابرت بل ان صاحب هذا البيت الذى اجتمع به فيه هذا القائد الكبير لمعاهدته على أمر ما كان لايزال على قيد الحياة وأنه سمعه يكرر بصوت المقتنع قوله : « لم يكن بونابرت عدوا للمسلمين لأنه كان يستطيع بسن إرته أن يهدم جميع مساجدنا ولكنه لم يفعل ذلك فليبق

اسمه خالداً بين الأمم . وقد علمت ان أثنى عشر ملكا من ملوك النصارى قد تمكنوا من أسره واعتقاله فى صخرة من صخور البحر الكبير بعد أن أناموه بالبنج ، ولكننى علمت أيضا أنه لما حانت ساعة وفاته رأى رجال الحرب الذين كانوا يحفون به روحه وقد وقفت على ظباة سيفه . فلينم فى سلام وأمان »

*
* *

وكانت تربط بعض الفرنسيين بوادى النيل روابط المحبة والميل ففضلوا البقاء والاقامة فيها بعد جلاء الجيش الفرنسى عنها وجعل أحدهم مقامه بأحدى القرى حيث توصل بحسن سيرته وحبه للحق والانصاف الى الجلوس فى منصة القضاء وكان إسناد خطة القضاء اليه تنقصه الشارة الحسية وموافقة بعض المتفقهين في الدين عليه فلم يشأ ذلك القاضى الاعتماد فى إقناعهم بقبوله فى منصبه الجديد على الحلف بالقرآن أو الأنجيل بل على شارة اتفق الجميع على إجلالها وتعظيمها ألا وهى ثيابه العسكرية التى علقها في غرفة القضاء فكانت خير شارة تذكر المتقاضين بكثير من الحوادث الدالة على القوة والشوكة فلا يسعهم متى رأوها إلا الانحناء أمامها إجلالا وتعظيما

ولقد عاد الجنرال بليار فيما بعد الى الديار المصرية كرحالة مستكشف فالتقى بالقاضى الفرنسى قائماً باعمال القضاء وهو الذى روى حادثته على رجل شهم فاضل جليل ألا وهو الكولونل (مرينيه) ياور الجنرال راب قديما



الباب الثانى

الانكليز والاتراك والمماليك

اذا كان الفرنسيون فى مدة احتلالهم لمصر قد امسكوا المعاول بيد فهدموا ودمروا وقلبوا فأنهم باليد الاخرى قدشادوا ونجدوا ونظموا . ولقد شعر الشعب المصرى فى ظلال تسلطهم بمجده القديم وخفق قلبه بما عرفه من جلاله وعظمته فى سيرته الأولى وثارت فى نفسه الذكرى فلما شهد آخر شراع من أشرعة سفننا الراحلة بالجند الى فرنسا وقد احتجب بستار الافق اضطرب صدره لا كما يضطرب لابتعاد عدو بل كما يضطرب لفراق أخ أكبر يميزه العقل والحجي وظهرت على وجهه آيات القلق والوجوم لما خامر فؤاده من الاكتئاب والحيرة فما كان اشبهه بمن يشعر بقرب حدوث العاصفة فتعروه حركة مبعثها القلق: ذلك أن الليالى في مصر كانت بعد انصراف الفرنسيين منها حبلى بالحوادث وكانت غيومها تتلبد حول النيل شيئاً فشيئاً فتجلى

للمتأمل فى هذه وتلك أن الصاعقة الاجنبية لسوف تتلوها عاصفة أهليـة هوجاء وأن جلبة الحروب لسوف يعقبها زعيق الفتنـة والاختلال

لما بدأ جلاء الفرنسيين عن مصر كانت القاهرة مركزاً لقيادة جيش الصدر الأعظم يوسف باشا المؤلف من ثلاثين الف جنـدى بعضهم الحرس الخـاص بالوزير والبعض الآخر الانكشارية وجملة من الشيع السورية التى لا نظام ولا ضابط لها وكان ذلك الجيش يحتل أمهات مراكز الصعيد والوجـه القبلى وكانت الدونتمة العثمانية راسية فى مياه أبى قـير وكان من تقلهم من الغليونجية أى العساكر المخصصة للنزول الى البر وعددهم ستة آلاف انكشارى واربعة آلاف ارنؤودى يرقبون جهات الدلتا الأقرب ما يكون من مرسى ذلك الاسطول

وكان عدد الجيش البريطانى الذى سيق من أوربا ١٦٠٠٠ جندى تحت إمرة الجنرال هتكنسن وكان قابضاً على الاسكندرية ورشيد ودمنهور والذى انفذ من الهند ٦٠٠٠ من السيباى تحت قيادة الميجر جنرال (بيرد) وكان يحتل الجيزه تجاه القاهرة

وكان المماليك يعترفون بزعامة عثمان بك الطنبورجي عليهم وكان رجلا مشهوراً بالعقل والحزم والشجاعة وقد اشترك ستمائة

منهم فى حصار الاسكندرية ولم يبتعدوا بعد عن هذا الموقع وأحدق ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس من بينهم العبيد المشترين بالمال من قوافل النخاسين الآتية من سنار وثلاثمائة فرنسى بمراكز مصر القديمة وبولاق وبعض قرى الجزء الأعلى من وادى النيل

تلك هي النقط الجغرافية التى كانت لا تنام عنها أعين المالكين الجديدين لمصر أو بالأحرى الظالمين المستبدين بها. وقد وصلت بسببهم الخواطر الى حالة وصفها الكاتب العربى الأديب عبد الرحمن (١) حيث قال :

« وقد كثر تعدى العسكر بالأذية على العامة وارباب الحرف فيأتى الشخص منهم ويجلس على بعض الحوانيت ثم يقوم فيدعى ضياع كيسه أو سقوط شىء منه وإن امكنه اختلاس شىء فعل أو يبدلون الدنانير الزيوف الناقصة النقص الفاحش بالدراهم الفضة أو يلاقشون النساء فى مجامع الاسواق من غير احتشام ولا حياء وإذا صرفوا دراهم أو ابدلوها اختلسوا منها . وانتشروا في القرى والبلدان ففعلوا كل قبيح فتذهب الجماعة منهم الى القرية وبيدهم ورقة مكتوبة باللغة التركية ويوهمونهم انهم حضروا اليهم بأوامر إما برفع الظلم عنهم أو ما يبتدعونه من الكلام المزور

(١) يريد به عبد الرحمن الجبرتى صاحب كتاب عجائب الآثار في التراجم والاخبار

ويطلبون حق طريقهم مبلغاً عظيما ويقبضون على مشايخ القرية ويلزمونهم بالكلف الفاحشة ويخطفون الاغنام ويهجمون على النساء وغير ذلك مما لا يحيط به العلم فطفشت الفلاحون وحضر أكثرهم الى المدينة حتى امتلأت الطرق والأزقة منهم . أو يركب العسكرى حمار المكارى قهراً ويخرج به الى جهة الخلاء فيقتل المكارى ويذهب بالحمار فيبيعه بساحة الحمير وإذا انفردوا بشخص أو شخصين خارج المدينة أخذوا دراهمهم أو شلحوهم ثيابهم أو قتلوهم بعد ذلك وتسلطوا على الناس بالسب والشتم ويجعلونهم كفرة وفرنسيس وغير ذلك وتمنى اكثر الناس خصوصا الفلاحين أحكام الفرنساوية . وتسبب أكثرهم فى المبيعات وسائر أصناف المأكولات والخضارات يبيعونها بما احبوا من الاسعار ولا يسرى عليهم حكم المحتسب ولا غيره وكذلك من تولى منهم رياسة حرفة من الحرف قبض من أهل الحرفة معلوم اربع سنوات وتركهم وما يدينون يسعرون كل صنف بمرادهم وليس له هو التفات لشىء سوى ما يأخذه من دراهم الشكاوى »[١]

(١) هذه الجملة المترجمة من العربية الى الفرنسية فى المصنف منقولة بنصها الاصلى من كتاب عجائب الآثار [ج ٤ ص ١٩٩ طبعة بولاق] ويلاحظ ان الشطر الاخير الذى يبتدىء بكلمات [وتسبب أكثرهم فى المبيعات الخ] وضعه المؤلف فى صدر الجملة المنقولة بالترجمة وجعل الصدر عجزا

وروى واحد من مهاجرى الجمهورية وقد صار فيما بعد من أعضاء أركان حرب الجنرال الانجليزى (ستوارث) أنه رأى بعينه الفلاحين يلفظون عبارات الوعيد ويشيرون بأشارات التهديد الى الانجليز ويقولون: «أن الله أعطانا الفرنسيين فماذا أعطيتمونا أنتم أيها الانجليز؟ الاتراك!». وان يكن الانجليز والبكوات السناجق والعثمانيون قد اجتمعوا تحت لواء واحد وضموا كلمتهم ضد الفاتحين الفرنسيس الذين ألقوا فى روعهم الخوف والذعر ولكنهم لم يلبثوا أن دب بينهم دبيب الاختلاف وثارت ثائرة النزاع والشقاق على التراث الذى تركه من خلفهم أولئك الفاتحون فقد حاول الجنرال هتكنسن عبثا ان يعين لكل من المتنازعين حصته فى الغنيمة لان الاحقاد القديمة الكمينة فى نفوس المتنازعين اصبحت حاجزا مانعا لكل اتفاق ودى بين المماليك والدولة العلية وكانت هذه الدولة قد ضربت أولئك من من بادىء الامر ضربة شديدة بحرمانهم من جلب الجراكسة من بلادهم الى القطر المصرى ومنعهم بذلك من اكمال النقص الواقع فى صفوفهم ووعدتهم بعد ذلك بالاقطاعات فى بلادها الاروبية وأخذت فى ملاطفتهم ومداراتهم لأنامتهم واغراقهم فى لجج الغفلة وشرعت في الآن نفسه ترتب الادارة المصرية

بواسطة الصدر الاعظم على نمط جديد من مقتضاه الاستبدال من سلطة المماليك باربعة بشلكيات وتمزيق أملاكهم جميعاً لمنح البعض منهم اقطاعات لا أهمية لها فكانت بذلك كمن يختص بالحصة الاسدية فى القسمة الضئزى حتى اذا ملت الصيد على هذا المثال انكفأت على فريستها لتنهشها بنواجذها الحادة

وفى يوم الخميس ٢٣ جمادى الاول سنة ١٩١٦ هجرية الموافق ٩ فندمبير سنة ١٠ للجمهورية وأول اكتوبر سنة ١٨٠١ كتب قبطان باشا الى أكابر البكوات من بيت مرادبك وهو ارفع بيوت المماليك عمادا وأعزها نفرا وأعظمها شوكة يدعوهم اليه فعقدوا على الفور اجتماعا قرروا فيه بعد الاخذ والرد والحل والعقد والاقدام والاحجام الاجابة على هذه الدعوة بالقبول كى يتخذها دليلا على العطف والمجاملة لاسيما وقد فهموا ان الغرض منها إيثارهم على انصار ابراهيم بك بتخويلهم حق الحكم في مدينة القاهرة ورأوا من العداء المستحكم بين قبطان باشا والصدر الاعظم الذى كان ابراهيم بك وأنصاره لا يزالون ملازمين له ماحملهم على حسن الظن بقائد الاسطول العثمانى فى دعوته اياهم الى الحضور عنده

وصل البكوات المماليك الى مقر هذا الاسطول فتلقاهم

قبطان باشا بالحفاوة والاكرام وأمر بأن تنصب خيامهم وسط خيام الاتراك المنصوبة على شكل هلالى فانقضت الايام الأولى فى التزاور والقيام بمراسيم الحفاوة إذ كانت لا تطلع الشمس إلا على حفلة جديدة يركبون فيها الجياد الصافنات لعرض الجنود أو التنزه . غير أنهم لم يفاتحوا قط اثناء تلك المدة فيما هو الغرض الذى جاءوا من أجله وانتابهم من ذلك قلق وتولتهم ريبة لم يسعهم معها إلا اشعار الجنرال هتكنسن بها فهدأ هـذا القائد روعهم وأكد لهم حسن نيات الباب العالى نحوهم ومن لم يأمنوا منهم العاقبة وظلوا متروعين متوجسين خيفة عقدوا الخناصر على العودة الى القاهرة بلا استئذان ولا احتشام

وعلى أثر ذلك استدعى الجنرال هتكنسن الى لوندره وتنحى عن القيادة الى غيره ودعى قبطان باشا والبكوات المماليك الى حضور حفلة تقليد القائد الانجليزى العام الجـديد وهو اللورد (كافان) فعقد الاميرال العثمانى اجتماعاً عاما من أولئك الأمراء قرأ عليهم فيه فرماناً زعم انه وصل الى الصدر الاعظم من السلطان وانه محرر بحسب التقاليد المتبعة فى المابين الهمايونى وموقع من السلطان للعفو العام عن المماليك ولتقليد كل واحد من أمرائهم فى الادارة المصرية مرتبة تناسب الخدمات التى يؤديها واقترح

قبطان باشا بعد ذلك عليهم مرافقتهم الى نقطة عينها للقائهم مخبراً إياهم بأنه سيدعوهم قبل سفرهم بالبحر الى الاسكندرية الى تناول طعام الغداء على مائدة يعدها لهم وأنه يحسب نفسه سعيداً من احتفائه به هو وزملاؤه بمناسبة حادث سيكون من شأنه تحقيق الأماني العمومية وتوثيق روابط المودة توثيقاً لا انفكاك له أبداً

فلما كان صباح اليوم التالى امتطى البكوات جيادهم وساروا نحو الساحل حيث التقوا بالقبطان باشا الذى كان فى انتظارهم ومعه جملة زوارق يقوم بقيادتها نخبة العساكر البحرية التركية وما نزلوا عن جيادهم وتركوها الى خدمهم حتى نشرت الزوارق قلوعها وسارت فى بحيرة المعدية التى كانت تفصل المعسكر عن الموردة الراسية فيها سفن الاسطول العثمانى وجلس البكوات فى الزورق الخاص بالاميرال وجلس حرسه فى الزوارق الاخرى . فلما دنت الزوارق من الساحل رأى قبطان باشا زورقاً يتجه نحوه فقال : « لابد أن هذا الزورق يحمل برسمي مكاتيب من الاستانة العلية » ثم وقف الزورق وخرج منه ضابط وتقدم نحو أمير البحر وسلمه رسالة فلما فضها بادر بالنزول الى الزورق معتذراً الى ضيوفه بأنه مضطر لمفارقتهم هنيهة ليطلع على ماجاء في الرسالة

وكانت الزوارق مابرحت تشق عباب الماء وكان قبطان باشا

قد تخلف فى الطريق فلما اتسع بعد ما بينه وبينها وخرجت الزوارق الحاملة للأمراء من البحيرة ودخلت فى الموردة لم تمض إلا دقائق معدودة حتى برزت ثلاث سفن مشحونة برجال مدججين بالأسلحة شاهرين السيوف وقد أحاطوا بزورق الامراء من كل جانب فأدرك هؤلاء فى الحال أن فى الأمر خيانة وأن وراء الأكمة ما وراءها فتهيأوا للدفاع عن أنفسهم فسرعان ما أطلق المعتدون العيارات النارية عليهم فوقف أمير منهم وصاح وقد تملكه الغضب والاشمئزاز :

« ماهذا ! أبمثل هذه الحيل الدنيئة تعاملون رجالا عزلا مما يحمون به نفوسهم بل هم ضيوفكم وقد أسلموا بأنفسهم اليكم بناء على كلمة شرف فاهت بها ألسنتكم واعتماداً على فرمان موقع عليه من يد مليككم : أشوهدت فى العالم كله خيانة تشمئز النفس منها وتجزع كهذه وسلوك لا يليق أبداً بقوم يؤمنون بالله ! وهل لمليككم بعد هذا أن يستمر على تلقيب نفسه بأمير المؤمنين وخليفة رب العالمين وحامى حمى الحرمين الشريفين ؟ ولكن بطانتكم لم تعرف إلا السعاية والكذب ولم يكن لها في وقت ما سوى نكث العهود والحنث في الأيمان واذا كنتم قد اعتزمتم من قبل الكيد لنا وأخذنا غيلة فما كان أغناكم عن تسلق أسوار

الخيانة والغش لشفاء غليلكم منا بل ما كان أغناكم عن الاعتماد فى ذلك على الجبن والغدر اللذين يحطان من قدر سلطانكم ، ولو أن فى عروقكم قطرة من الدم الكريم الذى كان يجرى فى عروق أجدادكم الذين دوخوا آسيا وأوروبا لبادرتم الآن بقذفنا الى سيف البحر ورددتم علينا خيولنا وسلاحنا ثم خرجتم من معسكراتكم جميعاً ونازلتمونا بقضكم وقضيضكم على مانحن فيه الآن من ضعف وقلة حتى اذا ظفرتم بنا ساغ لكم أن تبرروا معاملتكم القاسية لنا بما أحرزتموه من الفوز » فأجاب الأتراك على هذا الاحتجاج الحماسى باطلاق النار عليهم ثانياً بل بلغ من الأمر أن تناول الغليونجية الذين كانوا يجدفون بالمجاديف الخناجر والطبنجات المخفية وانقضوا بها على المماليك فدار القتال بين الفريقين ملاحمة فى غلالة من نار بنادق الزوارق المحيطة بهذا الميدان النادر المثال

وكان محمد بك المنفوخ أول من هبّ للدفاع وتبعه رفاقه واتباعه فى الانقضاض على الغليونجية والعساكر الذين كانوا يحاولون صدم الزورق بزوارقهم فانجلت الملحمة عن سقوط الامراء تحت رصاص العدو ومات السواد الأعظم منهم مثخنا بجراحاته ولكن هذا الفوز المبنى على الخيانة والغدر كلف الاتراك كلفا عظيمة اذ قتل منهم العدد العظيم . وكان من الأمراء

المماليك الذين لقوا حتفهم فى هذا القتال عثمان بك الطنبورجي خليفة مراد بك الكبير وعثمان بك الاشقر وابراهيم بك كتخدا السنارى ومراد بك الصغير . أما سليمان أغا فقد انكسر سيفه فى يده اثناء القتال فقبض على أحد الأعداء الذين كانوا يضيقون عليه الخناق وجعله أمامه ليتقى به الطعنات الموجهة اليه كما يتقى المحارب ضربات خصمه بدرقته ثم خانته القوى بعد أن ظل طويلا محتمياً بجثة ذلك الرجل فسقط على الأرض بلا حراك . وكان سليمان أغا وعثمان البرديسى وحسين بك وابراهيم بك ممن نجوا من هذه المذبحة مثخنين بالجراح فسيقوا أسرى الى السفينة الأميرالية المسماة (السلطان سليم) والمسماة أيضاً (ريال قبطان) [١]

وفيها دعوا الى الحلف بالقرآن ألاّ يطلبوا الالتجاء الى الانجليز وان يبقوا مع العثمانيين فلما أقسموا كبلوا بالاغلال وكان الذين يباشرون تكبيلهم بها يبدون لهم الأسف من أن الحادث كان نتيجة سوء تفاهم ولما اتصل هذا النبأ بالجيش البريطانى استاء استياء شديداً وبرح معسكره قاصداً الى أبى قير وفيها انقسم الى مربعين متخذاً أمام الاتراك الأهبة للقتال ثم انتظر ان يوافيه هؤلاء بالترضية التامة عن ذلك الفعل . وكان الجنرال

(١) فى الجبرتي ورد اسمها هكذا : ازج عنبرلى

هتكنسن أنب قبطان باشا تأنيباً شديداً لسلوكه ذلك المسلك الذى لا يتفق مع الشرف والكرامة وأبلغ القائد (ستيوارت) اليه هذا التأنيب وطلب اطلاق سراح الأسرى فورا وتسليم الجرحى والقتلى اليه فرأى قبطان باشا ان من الحكمة ان ينفذ الى القائد الانجليزى ترجمانه اسحق بك ليهدىء ثائرة غضبه فلم يكن من الجنرال هتكنسن الا أن وصف الأميرال العثمانى فى حديثه وصفا شائناً ورماه بالخيانة والغدر فقال له الترجمان بسكون: «لعل سعادتكم تجهلون القرار الذى أصدره الباب العالى بشأن المماليك ومستقبلهم» وادعى بعد ذلك أن الأمراء كانوا هم البادئين بالعدوان وأنه لم يكن فى النية إلا توجيههم الى الاستانة العلية

.. نقل المماليك الأسرى الى الاسكندرية فحقق الانجليز عددهم فظهر لهم أن اربعة منهم غير موجودين وزعم الأتراك أنهم قتلوا أثناء الواقعة والقيت جثثهم في البحر فطلب الانجليز تسليم هذه الجثث اليهم وجرت فى هذا الشأن مفاوضات بين القائد البريطانى وقبطان باشا وتسلم الجنرال هتكنسن فصيلة من جيشه قصد بها الى معسكر الأميرال العثمانى فحضر خيمته ثم دخل عليه فيها يحف به أركان حربه . ولم يبتدره بتحية ما بل فجأه بمناقشة كانت من أكثر المناقشات حدة وشدة لهجة وبعد أن انتهى الجنرال

من مخاطبة الأميرال وتوجيه صنوف التعزير والتبكيت اليه تحول نحو المترجم وقال له بعد أن أشار الى الباشا إشارة تحديد وتعيين : « ان هذا الرجل لا يؤمن إذاً بالله . سله ان كان يؤمن بالله » فقال المترجم للجنرال هتكنسن بعد ان جثا امامه : « مولاى ! لقد ترجمت لك كلمات سيدى الأميرال ترجمة صحيحة لا تغيير فيها ولا تحريف فاعفنى من أن أنقل اليه السؤال الذى تريد توجيهه اليه وإلا ذهب دمى هدراً ومن أين لمثلى ان يسأل مثله إن كان يؤمن بالله ؟ إن مجرد التعبير عن هـذا الشك سيكون سبباً فى ضرب عنقى » فخرج القائد الانجليزى من الخيمة بعـد أن أقام على حراستها فريقاً من جنوده معاناً قبطان باشا بأنه معتقل الى أن يرد اليه الأمراء الذين لم يعثر على جثثهم فأمر الغواصين على الفور باستخراج الجثث من قاع البحر وإلا ضربت أعناقهم فاستخرجت الجثث وسلمت الى الانجليز الذين احتفلوا احتفالا شائقاً بدفنها

واهتم هتكـنسن عقب ذلك بسفره الى إنجلترا متنحيا لخلفه عن القيادة فرأى المماليك فى مفارقته خسارة لا تعوض وحرمانا من حماية قوية قادرة على صون دمائهم من ان تراق ظلما وأخذ قبطان باشا من جهته بالتجهز للعودة الى البوسفور فرأى المماليك

فى هذا الحادث ما يعوض عليهم بعض ما فقدوه من المزايا بانتقال القائد البريطانى ، على أن الديوان أبى ان يعترف بفشله فى مهمته وليس هذا بغريب لانه اذا فشلت مساعيه فى هذه المرة فأن أعوان القتل لايثنى عزيمتهم مثل هذا الفشل

وبيان ذلك ان الباشا وزير الدولة لما نمي اليه نبأ خطف كبار الامراء من المرادية وذبحهم عقد اجتماعا يوم الثلاثاء ١٢ جمادى الثاني الموافق ٢٨ فندميير سنة ١٠ للجمهورية و ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٠١ حضره جميع المماليك من أتباع ابراهيم بك الموجودين بالقاهرة وضواحيها وخطب فيهم معلنا أنه كان قد التمس لهم رحمة السلطان وعفوه وأن الباب العالى تفضل بناء على هذا الالتماس بالعفو العام عنهم . ثم قال : « وها كم هو الفرمان الذى يحتوى نصوص العفو الشاهانى » وأبرز لهم خطاً شريفاً قرأه رئيس افندى على الحاضرين بصوت جهورى فاذا بهذا الفرمان نسخة طبق الأصل من الفرمان الذى أبلغه قبطان باشا الى المماليك فى معسكر أبو قير اللهم الا فى مادة إضافية واحدة تحفظ لأبراهيم بك وظيفته السابقة وهى وظيفة شيخ البلد أى الحاكم على القطر المصرى بأجمعه ، وبعد تلاوة الخط الشريف ألبس الصدر الأعظم أمراء المماليك الخلع السنية والقفاطين ثم أجلسهم فى مجالسهم بالديوان غير

مجتمعين كما كانوا عند سماع الفرمان بل متفرقين بين الضباط الاتراك كل بحسب الرتبة التى منحها والوظيفة التى أسندت اليه وفى نهاية الاحتفال أمر الصدر الاعظم الحاضرين بملازمة السكوت ثم أخرج من جيبه فرمانا آخر سلمه الى الرئيس أفندى ليقرأه فاذا به بتاريخ سابق على تاريخ الفرمان الاول ببضعة أيام وقاضيا بعزل أولئك الامراء من مناصبهم . وقد ذهب جلالة السلطان الى أبعد من هذا المدى فى الشدة والقسوة فأن عصيان المماليك وشقهم عصا الطاعة عليه المرار العديدة كانا قد استنفدا صبر الحكومة العثمانية وعدلا بها عن المجاملة فأمر الصدر الأعظم بالقبض عليهم وإرسالهم الى الاستانة العلية مكبلين بالاغلال وتحت رقابة الحراس

انتقل المماليك انتقالا فجائياً من السرور بالمناصب الى الجزع من شر المستقبل ومن السخط والغضب الى الرغبة فى الانتقام ، فأرادوا وقتاً ما أن يدفعوا عنهم وصمة العار بعمل مبنى على اليأس والقنوط إلا أن الصدر الأعظم كان قد اتخذ لذلك وسائل الحيطة فلم يفلح الأمراء فى مشروعهم الجهنمى . وبيان ذلك أن الجيوش العثمانية كانت منذ الليلة السابقة مدججة بالسلاح وقائمة حول القصر تحرس منافذه وتمنع فتحها ، فلما رأى الامراء أنه قد بات من

المتعذر بل من المستحيل عليهم الدفاع عن أنفسهم اجتهدوا فى الرضى بالقدر و نقضت بعد ذلك هنيهة فى سكون شامل فألقى ابراهيم بنفسه على قدمى الوزير مسترحماً ملتمساً لرفاقه النجاة من الموت ، فأجابه الصدر الأعظم بأن الاسترحام والاستغفار انما يوجهان الى السلطان ثم أعرب له عن أسفه من وقوع الاختيار عليه للقيام بهذه المهمة واعتذر عن قيامه بها بما كان ينتظره من العقوبة الشديدة لو خالف واجب الطاعة بالامتناع عن القيام بما عهد اليه به. قال هذا وأمر بتجريد الأمراء من أسلحتهم وارسالهم الى القلعة لكى يزج بهم في سجونها

وصدر على أثر ذلك الى طاهر باشا الامر بالتوجه فوراً الى الصعيد للقبض على من فيه من المماليك فلكى لايدع أحداً ممن آووا منهم الى ضواحى القاهرة واختفوا بداخلها يتمكنون من الفرار أمر الجنود التركية بحصر هذه المدينة والقرى القريبة منها.ثم انتشر هؤلاء الجنود فى الطرقات وفتشوا المنازل جميعها فقاومهم المماليك مقاومة عنيفة صمت في خلالها الآذان بدوى البنادق وسمعت الحامية الانجليزية بالجيزة هذا الدوى فقصد (ماركو استفانو) ترجمان الوزير الى القائد (رامسى) القائم بقيادة الجند وكلمه راجيا منه القبض على سليم بك ابو الدهب

(وفى كتاب الجبرتى «أبو دياب») وعلى جميع مماليكه إذا اجتازوا ابواب العاصمة وبنى هذا الطلب على أنهم نهبوا قافلة تركية قاصدة الى مكة . وقبيل نصف الايل جاءت فصيلة من المماليك بقيادة محمد أغا لتلتمس من الجنود البريطانية حمايتها لأن فرقة من الارنؤود المأجورين بأموال العثمانيين قد فاجأتهم فى الطريق وأنهم اذا نجوا بحياتهم منها فما ذلك الا لاشتغالها بالسلب والنهب ولما وصل أولئك المماليك الى المعسكر كانوا ملوثين بالطين وتبدو عليهم علامات الاعياء والجوع فتلقاهم الانجليز بالاكرام وأحسنوا مثواهم وبعث الجنرال رامسى أحد ضباطه ليبلغ الى العثمانيين رسالة منه فى هذا الشأن ، فتلقاه هؤلاء فى الخليج المصرى بنار البنادق ولكنه استطاع الوصول الى الوزير وأخبره بان مماليك سليم بك ابو الدهب لجأوا الى المعسكر الانجليزى وصاروا فى حماه ، فتظاهر الوزير بالرضي والارتياح مؤملا فى أن هذا المعسكر سيوافيه بهم محفوفين بالحراس فلما لم تحقق هذه الأمنية انفذ الى الانجليز أحد تراجمته لدعوتهم الى التوجه اليه كى يوقفوه على المكان الذى لجأ اليه ذلك الزعيم الذى كان ما زال منذ أصيب ببعض الجراح فى واقعة الأهرام ملازما للفراش بأحدى قرى الوجه البحرى ، فتلقوا دعوة الترجمان

بالاستنكار والاحتقار وأبى الجنرال رامسى بعد ذلك أن يسلم الى الصدر الاعظم أولئك اللاجئين بالرغم من تكراره المطالبة بهم وإلحافه فى السؤال عنهم وفى ١٦ جمادى الثانى الموافق ٢ برومبير من السنة العاشرة للجمهورية و ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٠١ ظهر سليم بك ابو الدهب فى الصبيحة على مقربة من النقط الأمامية البريطانية ، وكان منهك القوى بالحمى والأعياء لأنه ظل هائماً أياما طويلة على وجهه فى الصحراء للأفلات من أيدى الجبارين الذين كانوا يلاحقونه بظلمهم واستبدادهم يرافقه فى تشرده شيخ من شيوخ قبيلة العبابده . فلما مثل أمام الجنرال رامسي طرح على منضدة ما كان يحمله من السلاح واقتدى به أصحابه ثم دنا من القائد وقال له معلناً أنه يسلم بنفسه اليه ، فرجا القائد منه ومن رجاله أن يتقلدوا أسلحتهم كما كانوا قائلا لهم : « انكم لستم أسرى بل أصدقاء »

ووصل من بعده محمد أغا ومماليكه فتراموا فى أحضان اخوانهم حينما شهدوهم وأخذوا يقبلون أقدام سليم زعيمهم ويعرضون عليه طاعتهم ويعاهدونه على الوفاء والأمانة له . وكان الوزير العثمانى لايزال يمنى نفسه بالقبض على فريسته . فلما وقعت الحوادث السابقة زادته شوقاً الى الحصول عليها فضاعف فى هذا

السبيل همته ونشاطه وقرطس في هذا الغرض سهام حيلته ودهائه. ومن الوسائل التى لجأ اليها إرساله الهدايا تلو الهدايا الى القائد العام. فكان هذا يرفضها ويردها اليه فلما يئس من إقناعه بصواب مراده وسط عنده المسيو (روزتى) قنصل جنرال النمسا وضابطاً من المماليك استماله اليه بالمال وضابطاً عظيما من الأتراك فذهب هذا الوفد ومعه الدليل الناطق بصواب مطالب الوزير وهو صورة خطاب كتبه الأمراء الأسرى الى السلطان يلتمسون منه الاذن فى التوجه الى الاستانة العلية لتقديم فروض الاخلاص والعبودية الى العتبات الشاهانية. وكان هذا الكتاب قد كتب فى الحقيقة وإنما بسائق التأثير وتحت حكم القهر والتهديد

غير أنه اتصل بأولئك التعساء الذين وقعوا على الكتاب نبأ ما لقيه سليم بك من حسن اللقاء وكرم المثوى فى الجيش الانجليزى فتمكنوا بواسطة رسل سريين من عندهم من الاعراب عن شكرهم للجنرال رامسى تأييده قضية المظلومين ورجوا فى الآن نفسه منه ألاّ يكترث بما يظهرونه اضطراراً من مظاهر الخضوع والطاعة للعثمانيين مسندين الى هؤلاء أنهم يغتنمون فرصة عجزهم المطلق عن الدفاع عن أنفسهم ليثبتوا بمثل تلك الأساليب أن المماليك راضون عن أعمالهم. ولما وصل مبعوثو الصدر الأعظم

الى اللورد هتشكنسن وأذن لهم هذا بمقابلته كان قد وصل فى الآن نفسه ضابط من عند الجنرال رامسي يحمل اليه كتباً سرية يدافع فيها عن المماليك ويؤيد قضيتهم

وفى ٢٤ جمادى الثانى سنة ١٢١٦ هجرية الموافق ١٠ بروميير سنة ١٠ للجمهورية وأول نوفمبر سنة ١٨٠١ وصلت الى الجنرال رامسى بالاسكندرية تعليمات وأوامر تقضى عليه بأن يطلب من الصدر الأعظم إطلاق الحرية للمماليك ورد أملاكهم السابقة اليهم ووردت على الصدر الأعظم في هذا المعنى رسالة صريحة العبارة شديدة اللهجة تظهر عليها مسحة الأمر والتهديد ورسالة أخرى أشد لهجة الى قبطان باشا تتضمن الامر اليه بالرحيل فوراً وإلا كبل بالحديد وأرسل مخفوراً الى لندره أما الأميرال العثمانى فقد صدع بالامر إذ رفع مراسيه وقصد من فوره الى الاستانة العلية وقبل أن يبلغ الجنرال رامسى الصدر الأعظم أوامر القائد العام البريطانى جمع بالجيزه قوة هائلة من الجند ليقابل بها التجهيزات العدائيـة التى كان ذلك الوزير يقوم بها بنقله المؤن والذخائر الى قلعة القاهرة وملئه الصهاريج بالماء وطلبه المدد وتسليمه السكان .
ورأى الجنرال رامسى بعدأن أتم إمدادجيشه فى الجيزة بالأورطة السادسة والثمانين ومايتبعها من المدافع أنه قد بات وفى استطاعته

إبلاغ الصدر الأعظم البلاغ الشديد الذى بعث به اليه القائدالعام للجنود البريطانية . وقد طلب العثمانيون المفاوضة مراراً عديدة لاكتساب الوقت فرفضت طلباتهم رفضاً باتاً

ولما كان يوم ١٣ نوفمبر حضر الجنرال استيوارت من الاسكندرية مزوداً بأمر يقضى بحسم هده المسألة فأنذر الصدر الاعظم بأنه إذا لم يفرج عن المماليك في اليوم التالى فلا محيص للجنود البريطانية عن الزحف للقتال

وكان تفوق الجنود الأوروبيـة قد ظهر فى أسمي مظاهره أيام الحملة الفرنسية وبلغ من ثقة الناس مبلغاً لا يظن معه أن يجرأ زعيم الشيع البسفورية المفككة العرى المختلة النظام على منازلتها . لهذا لم تطلع شمس اليوم التالى حتى تم الأفراج عن الأسرى وكانوا نحو ٢٥٠٠ مملوك ، وما فك عقالهم حتى ساروا وفى مقدمتهم اثنى عشر أميراً يرأسهم الأمير ابراهيم بك الى الجيزة فتلقتهم فيها الحامية الأنكليزية بالتحية العسكرية ، وعز على نائب الباب العالى ان يخول أولئك الأسرى نعمة الخروج من ظلمات السجون الى ضوء الحرية من غير أن يتخذ وسيلة للوقوف على الخطة التي سيسلكونها بعد الأفراج عنهم فزودهم بعدد من الضباط الأتراك وكلت اليهم المحافظة على الوفاء بما

وعدوا به من العودة الى القاهرة بعد الأعراب عن رغباتهم للأنجليز

ولما انتصف النهار ولم يذكر شيء ما عن تلك العودة نبه اولئك الضباط الأمراء بأن وقت العودة قدحان فلما علم الجنرال استيوارت بهذا القول صاح قائلا : « هؤلاء الرجال محقون فى دعواهم فان السفينة العثمانية معدة لنقلهم منذ زمن طويل ولذا فلا بد من بقائهم معي »

ولما سمع الأتراك هذا القول رأوا أن الأولى بهم العودة الى السفينة التي كانت تنتظرهم فبادروا اليها بينما كان الأمراء الجراكسة يسترسلون فى المعسكر المحرر لرقابهم من رق الاستعباد فى مظاهرات الفرح والسرور وزاد سرورهم وضاعف شكرهم أنهم رأوا سليم بك ومماليكه وغيرهم ممن نجوا بحياتهم فى مذبحة أبو قير وأرسلوا الى الاسكندرية قد انضموا اليهم واجتمعوا بهم بعد فراق طويل

رأى قواد الجيش البريطانى أنه لكى يقوموا بالمهمة الحازمة التى فرضوها على أنفسهم يبقي عليهم أن يعيدوا جيش المماليك القوى الى ما كان عليه من عزة الجانب بعد أن قرر الباب العالى ضربه الضربة الأخيرة . وكان هذا هو ماسمي الجنرال ستوارت

الى تحقيقه حينما وصلت من انكلترا الأوامر القاضية بتسيير دفة التسامح والكرم الى وجهة غير وجهتها الأولى

ولما كانت العلاقات الودادية بين فرنسا والباب العالى غير منقطعة ولم تنقطع إلا مدة الحملة الفرنسية على مصر فأنها لم تلبث ان عادت الى مجراها الأول بمجرد جلاء هذه الحملة عنها . وكان المسيو (تاليران) وزير العلاقات الخارجية قد عقد بتاريخ ١٧ فندميير من السنة العاشرة للجمهورية الموافق ١٧ اكتوبر سنة ١٨٠١ مع سعيد على افندى سفير الدولة العلية بفرنسا مقدمات صلح تناولت تجديد المعاهدات القديمة وإعادة الحقوق التجارية والبحرية بالاقاليم والولايات العثمانية الى ما كانت عليه قبلا مع الامة الفرنسية فبعد يومين من أمضاء تلك المقدمات سافر الكولونل (هوراس سباستيانى) الي الاستانة العلية لنيل الموافقة من السلطات عليها ولقد تفزع سفراء الدول في تلك العاصمة ليلة اليوم الذى حدد للمفاوضة فيها فأخذ السفير الانجليزى يواصل الحركة لاستكناه السر والعمل على احباط السياسة الفرنسية حتى انتهى الأمر به الى إيقاف الباب العالى موقف المتردد فيما كان قد عقد النية عليه فلم يسع السواس الفرنسيين لدى الباب العالى الا أن أبرزوا الشكاوى المقدمة من الصدر الأعظم وقبطان باشا الى حكومتهم ضد تعضيد

القواد البريطانيين للمماليك على وجه أدى الى الحط من كرامة الدولة فلما تبين لانجلترا عجزها عن دحض هذه الادلة الناهضة على تحيزها لاعداء الدولة التمست أقرب الوسائل لتذليل الصعوبة التى أعترضت مساعيها فجهرت بعدم الموافقة على تصرفات القائدين هتكنسن وستوارت ووعدت بأن لاتلقى العثرات منذ الآن فصاعدا فى سبيل تنفيذ قرار الباب العالى القاضى بأبادة المماليك . ومن ثم استدعى الجنرال هتكنسن كما قلنا وخلفه في القيادة العامة الميجر جنرال اللورد (كافان) الذى قصد على الفور الى الاسكندرية مع المستر (ستراثان) سكرتير السفارة البريطانية وقد نيط به القيام على تنفيذ ما أخذته بريطانيا من المواثيق على نفسها . وفى ١٩ يناير سنة ١٨٠٢ نزل هذان الموظفان الكبيران الى بر الجيزة فقدم الأمراء المماليك اليهما دارا لأقامتهما فرشوها بأفخر الفراش والاثاث فرفضا هذا الاكرام رفضا أثار الشك في نفوسهم إلا أن اللورد كافان إجتهد خلال المفاوضة بينه وبين ابراهيم بك فى إزالته إذ أخبر الزعيم الجركسى بأن الواجب على بريطانيا العظمي بصفتها حليفة الباب العالى مساعدته على تنفيذ قراراته وأنها لهذا السبب تنصح الى المماليك أصدقائها بقبول اقتراحات الصدر الاعظم التى سبق له اقتراحها عليهم

شاعت أنباء هذه المفاوضة بين الجنود البريطانيين فتلقوها بالامتعاض والاستهجان حتى أن الجنرال ستوارت الذى كان ملازما الفراش أخبر اللورد كافان بان الواجب عليه تلقاء نقض الوعود الصريحة المعطاة للمماليك بحمايتهم تحذير هؤلاء وحضهم على أخذ الحيطة لانفسهم وأنه بنصحه اليهم على هذا الوجه انما يقوم بعمل الرجل الشريف المرتبط بالخطة المرسومة له

وما استقرت نصيحة هذا القائد الحر فى اذهان الأمراء وقدروا مغزاها حتى امتطوا صهوات جيادهم وخيموا فى اليوم نفسه باحد أبواب الجيزة . ولما كان اليوم التالى الموافق ٢٥ يناير افترق المماليك والعساكر الانجليز مودعين بعضهم البعض بمظاهر المودة والولاء وابتعدوا عن المعسكر بعد أن اخبروا الجنرال ستوارت أنهم احتراما لوطنه وأمته قد عولوا على أن لا يهاجموا الاتراك قط اذا بلغوا فى رحيلهم أسيوط وتابعهم هؤلاء اليها

يؤخذ من هذا أن مصر السفلى ومصر الوسطى بقيتا منذ ذلك الحين بأيدى العثمانيين وملّ الوزير أعمال القسوة والفظائع التى انساق اليها بدافع منصبه المحفوف بالمصاعب وباعث مطالب الباب العالى بالرغم من ميوله التى تحمله على التسامح والرفق فاغتنم الفرصة للعودة الي الاستانة العلية إذ سافر عن طريق الشام اليها

فى الخامس من شوال سنة ١٢١٦ الموافق ٨ فبراير ١٨٠٢ بشطر من الجنود العثمانية وفي مايو غادر الجيش الذى كان قد أتى من الهند ثغر السويس فى ٦ يونيو عائداً اليها

عهدت ادارة شؤون مصر الي محمد خسرو باشا الذى عين والياً عليها في أواخر رمضان سنة ١٢١٦ الموافق أوائل فبراير ١٨٠٢ وكان من مماليك القبطان باشا وبواسطته رقي الى هذا المنصب الجليل وهو جركسى الأصل إلا أنه كان كريم السجايا نبيل المقاصد كثير الهشاشة فى وجوه الاجانب شديد الصلف والكبرياء مع عشيرته الاقربين وكان لقصر نظره في السياسة قليل الدراية بالرجال ومن كانت هذه صفته لا يليق طبعاً للحكم واستلام دفة العباد والبلاد

وعهد الي نحو ١٧٠٠٠ جندى تأييد جانب الوالي الجديد فى جهات متفرقة من القطر ونصرته على خصوم كانوا مع قلة عددهم على شىء كثير من مضاء العزيمة والتفانى فى الذود عن حياضهم وكان خسرو باشا كثير الاعتماد على جنوده الالبانيين لما عرفوا به من اقتحام المخاطر بالرغم من رداءة سلاحهم واختلال نظامهم وكان أعظم ثقته بالنوبيين والسودانيين الذين اشتروا من النخاسين (الجلابة) ودربوا على أساليب القتال بمعرفة مائة

وخمسين فرنسياً اتخذهم اعوانا له فى عمله

أما المماليك فقد كان فى صفوفهم فيما عدا الفرسان البالغ عددهم ٣٥٠٠ فارس مثل هذا العدد من عربان العبابدة و٢٥٠٠ من عربان أولاد على وكان الشقاق مستحكم العرى بين هذه العناصر المتباينة فكانت قوتهم المعنوية لهذا السبب فى حكم العدم

وقد خلف مراد بك فى الزعامة العامة على المماليك عثمان بك الطنبورجى الذى ذكرنا فيما تقدم خبر سقوطه قتيلا فى مذبحة أبوقير ، فلما مات توزع الزعامة على المماليك عثمان البرديسى ومحمد الألفى وكانا لبعضهما خصمين لدودين لما قام في نفسيهما من الأطماع العسكرية والتنافس فى إحراز السيدة نفيسة أرملة الأمير مراد بك . وكان عثمان البرديسى ميالا الى فرنسا بينما كان الألفى ميالا الى بريطانيا سريع الانقياد لأرادة قوادها ونصائح وكلائها وكان يعارض بيتي هذين الأميرين بيت الأمير ابراهيم بك . وكان هذا الأمير فاتر الهمة لطعونه فى السن فلم يكن نفوذه إلا بقدر ما كان جديراً به من الاحترام لشيخوخته وسابق خدمته . ولم يكن لدى المماليك مع كل هذا خطة عامة مرسومة للقتال ولا وسيلة للصناعة ولا أسلحة ولا ذخائر حربية وكان جيشهم متفرقاً منقسما الى عشرين جماعة مشتتة بلا نظام بين

الشلالات والدلتا ومع هذه النقائص والعيوب النظامية كان المماليك لايخشون الخروج من الصعيد للهجوم على الفيوم والتفرغ للسلب والنهب فيها . ولم تتزعزع قط ثقتهم بأنفسهم ليقينهم بأن مدداً قوياً سيصل اليهم . واذ كان بونابرت شديد الميل اليهم كثير الاعجاب بهم فقد لجأوا اليه فى التماس مساعدته إياهم على ترقية شؤونهم إذ أنفذ عثمان البرديسى وابراهيم بك الى ليفورنه مندوباً من عندهما ليرجو من الجنرال (برون) قومندان هذه الدائرة العسكرية أن يبلغ الى القنصل الأول بواسطة الوزير تلليران الرسالة الآتية :

« بما انك قد هدمت صرح شوكتنا وعفيت على آثار مجدنا وقدرتنا فنحن ننتظر الآن من كرمك أن تعيد كل شىء الى نصابه . ان وفاة مراد بك ألقت بيننا بذور الخلاف والشقاق واضطرتنا الى الاحتماء بالبريطانيين ولكن الأتراك لايزالون يحاربوننا حرباً جائرة شعارها الخيانة والغدر . وغير خاف عليك أننا من القوة والبأس بحيث نستطيع الوقوف فى وجههم والتعرض لمشاريعهم إلا أننا فى حاجة الى سند يشد أزرنا بالخارج ويعزز جانبنا فأنت الوزر والسند الذى اليه نطمئن والموئل الذى اليه نلجأ وبه نثق واعلم أننا نخضع للشروط التى يروق لك أن تفرضها

علينا ولنعرب عن شكرنا لك مانلتمسه من وساطتك نعدك بأن نخص تجارة وطنك بأوسع مايمكن أن تناله تجارة أمة من الامتيازات »

هذا الالتماس موجهاً من قوم عرفوا بالشمم وإباء الضيم الى رجل وقف وحده على سر الظفر بهم جدير بأن يوصف بوصف الجلال وإن نم على ما يخامر افئدتهم من ألم الشدة والحرج ولكن مقدمات الصلح التى كانت انجلترا قد حصلت منذ سبعة أشهر على موافقة الدولة العلية عليها مضحية بها قضية المماليك إيثاراً لمصالحها التجارية كانت قد تحولت فى الوقت الذى بعث فيه الاميران كتابهما السابق الى بونابرت الى معاهدة دفاعية وهجومية بين الباب العالى وفرنسا . وبيان ذلك أن السفير العثمانى الجديد وهو السيد محمد سعيد خالد افندي كان قدوصل الى باريس فى ٦ مسيدور سنة ١٠ من الجمهورية الموافق ٢٥ يونيو سنة ١٨٠٢ للتوقيع على اتفاقية فى الموضوع تقرر أن يكون التصديق عليها من السلطان خلال شهرين يمضيان من ذلك التاريخ فكان المنتظر أن يضيع التماس الامراء فى وسط هذه التقلبات وان يبقى عديم الثمرة بالنسبة لهم او تنشب نار الحرب بين الدولتين المتعاقدتين

أما محمد خسرو باشا الذى كان يتوقف أول فوز له على

التفريق بين الاحزاب المتآلفة فقد فتح باب الكفاح بينه وبين المماليك بتدبير الدسائس ونصب الشراك وبث المكائن وكان عثمان بك حسن من أغنى أمراء المماليك واسماهم منزلة فى نظر الناس وقد عاش طول عمره بعيداً عن المنازعات الحزبيـة التى كثيراً ما فرقت بين أبناء جنسه فعرضت عليه جملة اقتراحات غادر هو وأتباعه على أثرها الصعيد الأعلى للأقامة بالقاهرة. أما بقية الأمراء فكانوا أقل ميلا منه الي السكون والوئام وقد باغتتهم فى المؤخرة فرقة مؤلفة من ستة الآف رجل بقيادة طاهر باشا الذى كان يجول فى البلاد للبحث عن محمد الألفى من غـير أن يقف له على أثر . وقصد حسن باشا من رجال الحملة التى سيرهـا الصدر الأعظم بجيش مؤلف من ٨٠٠ رجل الي جرجا لاحتلالها واخضاع اهلها لأهمية موقعها بالنسبة لنقل المؤن وجباية الأموال . وكان الامراء قد نفدت من عنـدهم الاموال والمؤن والذخائر فلما ضايقهم الجنود اقترحوا هدنة خمسة أشهر ليكاتبوا فى خلالها الباب العالى ويحصلوا على صلح شريف دائم. فاستشعر الباشا من عبارتهم بحرج موقفهم فرفض ملتمسهم مخبراً إياهم بأن أقصى ما يسمح لهم به هو الاقتـداء بعثمان بك حسن فى المعيشة بالقاهرة كاحد أفراد سكانها مستثنياً من هذه الاجازة

عثمان بك البرديسى ومحمد بك الالفي وسليم بك ابو الدهب .فلما وصلت الاجابة اليهم على هذا النمط اشتد بهم الغضب فجمعوا فى الحال جموعهم وهجموا بها على مقربة من بلدة إطفيح على ألف جندى عثمانى بقيادة حاجدار ثم تدفقوا من وراء هذه الجهة على الوجه البحرى فارضين الاموال الفادحة فى طريقهم على أهل القرى العاجزين عن مقاومتهم

وبدهى أن تكرار هذه الجبايات كان لابد أن يضعف أحوال الريف باستنزاف ثروته وتضييق موارد الحكومة منه فلما أمعن الوالى النظر فى هذه المسألة وما يحسن أن يتخذه من التدابير لحسمها رأى أن لامناص له من أحد أمرين إما مخابرة القوم فى السلم أو إبادتهم جميعاً بضربة قاضية . ولكنه فضل إصابة الغرضين والسير فى الطريقين ففى مخابرات الصلح عرض على الامراء إقطاعهم مابين اسنا والحدود من الاراضى فرضوا بذلك على أن يمنحوا أيضاً إقليم جرجا إلا أن الوالي رفض هذا الطلب وأمر حاكم القاهرة بتعبئة فرقتين من الجند فوراً وتسييرهما لكبح جماح الأمراء . وكان يوسف بك الكيخيا على قيادة احدى الفرقتين فأدركه طاهر باشا بالوجه القبلى لتعزيزه . أما الفرقة الاخرى فكانت بقيادة عثمان بك حسن ثم جعلت بقيادة

محمد على صارى جشمه عقب فرار عثمان بك حسن الى الصحراء حتى لايقال عنه إنه خان إخوانه

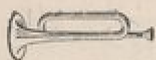
وكان الصارى محمد على يناهز الثلاثين من العمر وقد أوصي به حسن أغا الذى صارفيما بعد أغا الانكشارية عند قبطان باشا كما أوصى به هذا الاخير أيضاً محمد خسرو باشا الذى لم يلبث أن رفعه الى رتبة طوفنجي باشا أى حامل القرابينة لرغبته الشديدة فى الاستفادة بشجاعته

وكان نحو ٨٠٠ مملوك معسكرين بدمنهور وفى اتصال تام مع الاسكندرية والسواحل ويتهددون بذلك القاهرة فتقدم نحوهم الجيش العثمانى الذى علم الناس قوته العددية وما عزم على إجرائه من الحركات الحربية ضد أقاليم البحيرة. وكان فشل سياسة الانجليز فى العهد الاخير لدى المابين الهمايونى قد عاد بهم الى النظر فى مستقبل المماليك بعين الرفق وشمولهم بعواطف المودة والأخاء فسعوا بنصائحهم لدى ألفى بك حتى لا يتعرض لأية معركة جدية مؤكدين له انه لا يستطيع الانسحاب من مواقعه اذا تغلب ذلك الجيش عليه ، وهو المنتظر وقوعه بالنظر الى كثرة عدده وعدده. وأكدت بريطانيا العظمى له حسن نيتها فآمن بقولها ولمالم يشاركه أحد من الامراء فى رأيه عجل بمغادرة دمنهور ليلا وأجمع

هؤلاء على المجازفة باقتحام القتال فى واقعة حاسمة فأمر عثمان بك البرديسى رجاله بالانقضاض على الاتراك مسلولة سيوفهم فتحركت جيوش يوسف بك مرتبة ترتيب القتال وسط السهل ومرتكزة الجناح الايمن على ترعة الاسكندرية وفى مقدمتها المدافع تحمى الصفوف الأولى منها، فانفتحت أفواه النار وما هى الا دقائق معدودة حتى استشعر عثمان بك بالخطر الذى يحدق بخيالته اذا هى التحمت بتلك الصفوف الكثيفة وأدرك أن لا مخلص له من الورطة التى تورط فيها الا بتوحيد حركة هؤلاء الفرسان أثناء انقضاضهم الشديد على العدو . ولكى ينفذ هذه الخطة جعل نفسه فى مقدمة رجاله وطار نحو واجهة العدو إلا أنه لم يلبث أن أنس فى نفسه العجز عن الالتحام به فتحول من الهجوم مواجهة الى مداهمة الجناح الأيسر الذى لم يكن مرتكزا على شئ . وقد أفلح فى هذه الحركة اذ صدم الصفوف الأولى منه وفتك بالمشاة فتكا ذريعا وتم له بذلك الفوز على العثمانيين

غنم المماليك كل ما تركه هؤلاء من ذخيرة وميرة وسلاح ومتاع ، على أنهم لم يخسروا سوى ستين من رجالهم فى مقابل ٧٠٠٠ عثمانى منهم خمسة آلاف قتيل وأسير . واذ كان المقهور فى القتال لا يقر بغلطه الذى أدى الى قهره والفتك به فقد رأى يوسف

بك الكخيا قائد الجيش ان الوسيلة لخلاصه من مسئولية الخذلان القاؤها على عواهن محمد على بحجة انه ظل بعيدا عن موطن القتال ولم يبادر بأمداده لينقذه من موقفه الحرج . ولم يكن خسرو باشا من صدق النظر والفطنة بحيث يفهم سر هذه الوشاية، دع ان هناك أسبابا عديدة كانت تحمله على الخوف من محمد على وفسر إمساكه عن امداد الجيش العثمانى بالرغبة فى الاحتفاظ بالألبانيين ليساعدوه على قضاء مآربه فى المستقبل . ومن ثم عقد النية على التنكيل به . ولكن محمدا عليا كان أشد دهاء وأوسع حيلة منه فأنه لما تلقى من الوالى الأمر بالحضور عنده بعد الغروب أجابه بأنه لن يحضر اليه إلا في رابعة النهار بين جنوده البواسل فلم يعد خسرو باشا الى تكرار هذه الدعوة بل لزم تجاه اجابة محمد على عليها ملازمة السكوت



الباب الثالث

الفوضى

من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٠٥

وصل الكولونل (هوراس سيبستياني) يرافقه المسيو (اميديه جوبير) الى الاسكندرية في شهر اكتوبر آتيين من فرنسا للبحث فى احوال مصر والمطالبة بتنفيذ شرط معاهدة صلح (أميان) القاضى بجلاء الـ ٤٤٣٠ جنديا انجليزيا الذين كانوا لايزالون بالديار المصرية فقوبل المعتمد المومأ اليه فى كل مكان بمظاهر الاحترام والاكرام وشهد الشعب المصرى المسكين فى في حالة لاتسر من الفوضى والاختباط وان الوالى العثمانى والاتراك والمماليك والعرب يتبارون فى استنزاف ثروته بما يفرضونه عليه من الفرض والضرائب الفادحة وما كاد يذيع فى البلاد خبر المهمة الموكولة اليه حتى توقع الناس حادثا جللا سيؤدى الى طرد الانجليز والاتراك من بلادهم فدب الحماس فى نفوسهم وقالوا بقرب عودة بونابرت اليهم بل صاحوا مطالبين بهذه العودة واعربوا بالمظاهرات

الكثيرة عن احترامهم لجنوده وتعلقهم بأبناء جلدته وشاموا من خلال السحب المتلبدة فى الافق البعيد طيف الراية المثلثة الالوان وكان الكولونل سيبستيانى اذا مر بمن معه فى ميدان او طريق او سوق تقاطر اليه المشائخ والعلماء والقضاة والفلاحون ونسلوا من كل حدب وقاموا من مقاعدهم او وقفوا اثناء سيرهم لتحيته بالتعظيم والاجلال والاخلاص . وكان الضابط الفرنسى قد جاء بصورة صغيرة للقنصل الاول بونابرت ولسنا بمغالين اذا قلنا ان الزحام على مشاهدتها واقتنائها كان لايقل عنه لو كانت هذه الصورة تمثل بعض مخلفات النبي . وكان يوزع هذه الصور الثمينة على الجمهور ولما وصل الى القاهرة استقبله حاكمها بمظاهر الاعتبار والتكريم وغمره بالهدايا النفيسة وكان كلما زار محمد خسرو باشا لايقصر فى الدفاع عن المماليك وتأييد جانبهم فكان هذا الاخير يقيم الحجج على حسن نيته نحوهم وانما كان يسوغ خطته معهم بالصعوبات التى كان يثيرها فى طريقه وقوفه فى الوسط بين النقيضين نقيض الأوامر المتطرفة الواردة عليه من الباب العالى ونقيض الشدة التى كان المماليك يجعلونها اساس مطالبهم

وكان حظ الجنرال استيوارت من الفشل فى مساعيه كحظ المبعوث الفرنسى ، فأنه عين بدلا من الميجر جنرال كافان منذ احست

الوزارة الانكليزية بعجزها عن تأييد شوكتها فى البحار بأساليب السياسة فعادت الى مسالمة المماليك فتولى القيادة العامة لحامية الاسكندرية وكان قد سافر فى شهر يوليو الى الاستانة لحسم المشاكل التى ألقت بمصر فى الفوضى والهرج الى حد اصبحت لا ترى الجنود الانجليزية معه ان تترك ذلك البلد التعس فريسة لها . غير ان الباب العالى لم يتحرك له نبض بهذه الاقوال التى ظاهرها الرفق والشفقة فلما عاد اللورد ستيوارت من رحلته والفشل رائده اتخذ فى مخاطبته لوالى مصر اللهجة الجافة الخالية من آثار المجاملة وتعجله فى قضاء مطالبه فاعترض الوالى بضيق السلطة الممنوحة له فلما ساءه ان يرى فشل الجهود التى بذلها بالرغم من انتصار المماليك على الحشود العثمانية فى خمس وقائع متعاقبة وان يتلقى من الكولونل سبستيانى الانذار تلو الانذار بالرحيل عن مصر أرسل الى الباشا قبل رحيله الرسالة الآتية :

« لقد استطاع المماليك ان ينقضوا كل ما أبرم من المشاريع الموجهة ضدهم بل انهم فعلوا اكثر من ذلك اذ جاسوا خلال الوجه البحرى متنقلين من فوز الى فوز وقطعوا طولا وعرضا تلك البلاد التى اصبحت ملوثة بدماء القتلى منكم فان اكثر من ثلاثة آلاف جثة لا تزال طريحة الثرى فى المسافة القصيرة بين

دمنهور والصحراء . ولا تزال القبائل القوية من العرب الذين تبعوا الامراء وانضموا الى حزبهم يفرضون الضرائب والاموال على جميع بلاد الضفة الغربية للنيل بينما قائدكم مرغم على البقاء محصورا فى معسكره ينظر بلا حراك الى حوادث التخريب والتدمير

« واذ كنت مع ذلك شديد الرغبة فى تقديم مساعدتى وعضدى الى الباب العالى و نصرته لوقاية مصالحه فى مصر من الخطر العظيم الذى يتهددها فقد قررت للمرة الاخيرة ان اعرض وساطتى لحل هذه المشكلة . ولقد استطعت ان أقنع الامراء بالعودة فى سلام وسكون الى الوجه القبلى غير انهم يفرضون لذلك شرطا وهو تسليم بعض المخازن العسكريه فى الاسكندرية اليهم وانى أرى أن المساعدة الجليلة التى ساعدونا بها للاستيلاء على هـذه المخازن المهمة من يد العدو العام للطرفين تعطيهم الحق الشرعى فى وجوب رعايتهم وعدم غمطهم هذا الحق الخ »

وقد لقى هذا الاقتراح الخاص بتقديم الوساطة من الفشل والخيبة مالقيته الاقتراحات السابقة فرأى القائد الانجليزى ان إعادة الكرة بالالحاح والالحاف فى السؤال يكون باعثا على الهزء والسخرية ، دع ان الظروف لم تكن قط ملائمة لذلك وانه قد صار من الواجب المبادرة بالرحيل . فلما كان يوم ١٠

ذو القعدة سنة ١٢١٧ الموافق ٢٣ فنتوز سنة ١١ من الجمهورية و١٤ مارس سنة ١٨٠٣ سلم الانجليز الى الاتراك حصون الاسكندرية وقلاعها وعهد خسرو باشا المحافظة على هذه المدينة الى خورشد باشا بعد ان قلده رتبة الباشوية وبعد ذلك بيومين ركب الجنرال استيوارت سفينته قاصدا باسطوله الى لوندره

ولقد ارتكب المماليك خطأ عظيما باغفالهم العناية بتوسيع نطاق فوزهم فى واقعة دمنهور فانهم بدلا من زحفهم على القاهرة التى كانت ابوابها مفتوحة لهم قضوا ثلاثة أشهر كاملة فى الروحات والغدوات حول ثغر الاسكندرية ومن غير أن يقوموا بعمل بات فى شأنها فلما احتلته الجنود التركية أصبح مركزا قويا من مراكز الهجوم ضدهم . ولقد ادركوا ذلك فى ختام الامر فتركوا الدلتا قاصدين الى الوجه القبلى لينضموا فيه الى الامير ابراهيم بك . وقد فرضوا فى هذه الرحلة الفرض المالية على جميع القرى الواقعة بالضفة اليسرى من النهر حتى المنيا . ومعلوم ان هذا البندر من المواقع المهمة في الوجه القبلى فان ضيق النيل تجاهه يعرض لنار الحصون السفن المارة فيه بجواره ، غير أن وسائل الدفاع كانت وقتئذ فى حالة يرثى لها اذ كانت من ناحية الريف شمالا عبارة عن استحكامات اقيمت على عجل ولم تجهز مدافعها بما يكفى من الذخيرة

ولا بمن يقوم على اطلاقها القيام الحسن ، دع ان رجال الحامية كانوا في استياء وتذمر لقلة ماعندهم من الذخائر والمؤن ولعدم قبضهم المرتبات ولتحرش العربان المجاورين بهم فى كل آن .

وبالرغم من صعوبات حصار كل الجهد فيه موكول الى عمل الفرسان فان المدينة لم تلبث ان سقطت فى اليوم الرابع من حصرها. وكان لهذا الحادث تأثير عظيم جدا اذ انقسمت مصر بسببه شطرين فانقطعت المواصلات بين القاهرة والصعيد ، وأصبح اقليما أسيوط وجرجا بحيث لايعولان فى الدفاع عن نفسهما الا على القوات الموجودة بهما وهو مااضطره الى الوقوف فى موقف الحذر من جهة ضد المماليك ومن الاخرى ضد العربان الذين جاءت هذه الظروف وفق مرادهم

وتفاقم الخطب على المثال المتقدم كان يستوجب طبعاً إعمال الروية والحيلة لدفعه فقد أصدر الباشا أمره باستدعاء جيوش محمد على وطاهر باشا فتحركت هذه الجيوش من معسكراتها بالبحيرة يوم ٨ محرم سنة ١٢١٨ الموافق ٣٠ ابريل سنة ١٨٠٣ واستقر عساكر محمد على فى ضاحية القاهرة وعساكر طاهر باشا داخلها

وكانت العساكر الاخيرة قد أضناها التعب واعتراها الكلال كما كان ينقصها كل شىء من مهمات الجيوش فلما طلب منها السفر

الى الجنوب لمطاردة المماليك طالبت بمتأخر أجورهـا ولجت فى الطلب فبعث بها الوالى الى الدفتردار خليل افنـدى الذى عينه السلطان حديثاً فى هذا المنصب فلما سأله العسكر دفع متأخراتهم احالهم على محمد على ولم يكن هو أيضا فى حالة تمكنه من سداد مالهم لانه لم يكن استولى على شىء من المال برسمهم

ازداد الجنود تذمرا فسادت الفوضى بينهم حتى كادت تنقلب الى ثورة . فلما كان يوم ١٠ محرم الموافق ٢ مايو حصروا بيت الدفتردار صائحين صاخبين فسألهم ان يمهلوه اياما ريثما تصل اليه الأموال لدفع حقوقهم فرفض المتمردون الانتظار وتبين لخسرو باشا حرج الموقف فالجأ في حل المشكلة الى جانب التهور والشدة تاركا من وراء ظهره وسائل الصلح والمحاسنة اذ أطلق على جموع المتمردين المدافع يقصد اخضاعهم بها فازدادوا تمرداً وتذمرا وأطلقوا بنادقهم نحو الجانب الغربى من ميدان الازبكية حيث قصر الوالى ونفرت جنود محمد على الى تعزيز المتمردين وشد أزرهم وحمى وطيس القتال بينهم وبين القوات المسوقة لتأديبهم

وفى الاثناء كان طاهر باشا يقترح على الوالى التوسط لدفع النازلة فرفض هذا اقتراحه بجفاء وغلظة فأخذ طاهر باشا يحرض جنوده على الفساد والاضطراب خدمة لمقاصده الذاتية ولم تمض

لحظة حتى استدعي اليه الدفتردار والزمه بعرض دفاتر الحساب لينظر فيها . وفى اليوم التالى كشف القناع عن وجه مقاصده ومراميه فسار في رأس فريق من رجاله نحو القلعة فتمكن بعضهم بالحيلة والبعض الآخر بتسلق الاسوار من اجتياز المنفذ الاول ولم يلبثوا ان استولوا عليها . وكانت قيادتها فى عهدة خزندار الوالى فعوقب على جبنه وتردده عقب ذلك الحادث وكان المعاقب له هو نفس الذى طالبه بالتسليم فأذعن ولم يدر محمد خسرو باشا بخبر الاستيلاء على القلعة الا عند ماسمع دوى القنابل التى كانت شظاياها تهطل كالمطر الوابل على سقف قصره وفى حدائقه الغناء

وقد أبدى المدافعون عنه من الأمانة فى دفاعهم والصدق فى انتمائهم ما استوجب الشكر لهم ، على انهم اضطروا يوم ١٢ محرم الموافق ٤ مايو الى الخضوع والتسليم على اثر هجمة شديدة كانت ارجحية العدد فيها في كفة المهاجين فضلا عن اضطرارهم الى التخلص من اطلال ذلك القصر الذى شاده محمد بك الالفى وسكنه من بعده فى عهد الاحتلال الفرنسى القائد العام للحملة

خرج خسرو باشا من القاهرة يحيط به ضباطه وجنده الموالون له ويتبعه نساؤه وأخذ سمته الى المنصورة متبعا فى سيره الضفة اليمنى من النهر وكان يحميه في هذا الانسحاب الفرنسيون

الذين كانوا فى خدمته والعبيد المدربون على الانظمة الفرنسية بمعرفة هوءلاء الضباط وتسعة وتسعون من الحرس الأتراك

وفى المساء جمع طاهر باشا حوله كبار الموظفين وأرباب المقامات والحيثيات لاختيار زعيم يعهد اليه بشؤون البلاد والعباد وكانوا يعرفون جميعا ان المرشح لهذا المنصب إنما هو ذلك الذى دعاهم الى الاجتماع ولذا تقدم نحوه القاضى وألبسه خلعة القائمقامية ريثما ترد أوامر الباب العالى فى هذا الشأن. وكان لا يغيب عنه فى الآن نفسه أن من أعضل المسائل التى يجب عليه حلها صيانة المنصب الذى آل اليه عفواً بكل مايصل اليه من الوسائل والجهود واحتفاظه به لنفسه فكان أول ما خطر له اتقاء عودة خسرو باشا الى تقلد الولاية من جديد ولكى يزهده فيها بالفعل أنفذ لتعقبه ابن أخيه حسن بك في جيش من الألبانيين التقى بثلاثمائة رجل تقريبا من اتباع الوالى المعزول قائمين بحماية خط فارسكور فهلكوا جميعا مع قائدهم أحمد أغا. وكان خسرو باشا ومن بقى من رجاله قد برحوا المنصورة قاصدين شبه جزيرة دمياط حيث وقفوا ينتظرون نتيجة الحوادث بهذا المكان الوفير الخيرات الحسن الموقع بطبيعته

ولم ينس طاهر باشا مع هذه الحوادث اتخاذ الوسائل اللازمة فى الداخل فقد كان أول ما انصرفت اليه عنايته أن نشر منشورا

يرمى الى اعادة الطمأنينة العامة فى النفوس ووعد المسيو روزتى قنصل النمسا والروسيا بان الأفرنج والمسيحيين واليهود ورعايا الدولة العلية ستحترم حقوقهم بلا تمييز بينهم ولكن اراد القدر أن لا تخرج هذه الأمانى كغيرها مما سبقها الى حيز التحقيق فقد ضربت الضرائب الفادحة على التجارة وعومل الناس بالحيف والخسف اذ كان اذا تأخر أحدهم عن تنفيذ ارادة ذلك المستبد ولو لم تكن فى شىء من العدل والصواب عوقب إما بالزج فى غياهب السجون أو باذاقته مر العذاب . وقد حدث أن اثنين من الاقباط وثالثا من أهل دمشق كان كل جرمهم أنهم من ذوى الثروة الواسعة وأنهم أثاروا بوجاهتهم عواطف الحسد في نفسه فأسلمهم الي الجلاد ، على أن مدة هذا الظالم المستبد لم تطل إذ سقط فى اليوم الثانى والعشرين من استلامه لزمام الامور

وحدث أيضا ان رسالة من الأمراء المماليك بعثوا بها الى الوالى السابق سلمت الى القائمقام طاهر باشا فلما اطلع عليها ود استمالتهم اليه بعد الذى علمه من نجاحهم الساطع في كل مكان فاخبرهم بما هنالك من العزم على اسناد المناصب اليهم وتقليدهم الاحكام ودعاهم بلهجة الحب والاخلاص الى الاقتراب من القاهرة فاجمعت آراء الامراء على قبول هذا الاقتراح وساروا من

فورهم حتى اذا بلغوا الي ضاحية الجيزه حطوا برحالهم وأقاموا معسكرهم. وكان طاهر باشا لرغبته الشديدة فى المفاوضة معهم على وشك ان يجتاز النيل الى الضفة اليسرى ، غير ان الحوادث التى طرأت على حين غرة ومن غير انتظار لم تساعده على تنفيذ هذه النية ، ذلك لان العثمانيين وان لم يشتركوا مع الالبانيين فى ثورتهم كانوا مثلهم تذمرا واستياء فطلبوا مرارا من طاهر باشا ولكن بلا جدوى القيام بدفع مرتباتهم ثم قرروا استئناف المطالبة للمرة الاخيرة فلما كان يوم ٣ صفر سنة ١٢١٨ الموافق ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ تقدم البكباشيان اسماعيل آغا وموسى آغا لعرض مطالب الجيش ورفع رجائه فلم يشأ طاهر باشا ان يسمع لهما نداء فألحا فى الطلب فأصر على الرفض واشتد بين الفريقين اللجاج فاعتمد طاهر باشا على التهديد والوعيد فلم يكن من الضابطين الا أن انقضا عليه بسلاحيهما وقطعا رأسه وألقياه من النافذة التى كان جالسا بجوارها ولما كان الشر يجر الشر والدم يجذب الدم فقد وقع قتال عنيف بين الاتراك المؤلف منهم الوفد وبين الالبانيين الذين فى خدمة القائمقام وانتهى هذا القتال باحراق السراى التى كانت مقراً لهذا الاخير

ولما بلغت الأمور الى هذا الحد من الشدة والحرج بادر بعض

الرؤساء العثمانيين فعينوا فى الولاية رجلا يسمى أحمد باشا كان قد وصل بالمصادفة الى القاهرة على نية مبارحتها بعد قليل لاستلام القيادة فى ثغر ينبع . ولم يكن مثل هـذا التقليد على ما فيه من الأهمية مما تأباه النفس أو تنصرف عنه المطامع فقبل ومنذ مساء اليوم الذى استلم فيه زمام الأمر أبلغ الى محمد على بواسطة كبار الشيوخ نبأ تقلده الولاية واستلامـه زمام أمورها فأجاب الزعيم الألبانى أنه لا يعـرف فى شخص أحمد باشا الا أنه أجنبى ولى ولاية أقليم عربى ولكنه غير أهل للقيام بأعباء شؤون مصر التى لم يكن عالما بها وبادر محمد على فقصد الى معسكر المماليك وفاوضهم فى الأمر حتى استمالهم الى رأيه وكتب إبراهيم بك بأيعاز منه الى أحمد باشا يدعوه الى مغادرة القطر حالا وتسليمه قتلة طاهر باشا فلم يسع أحمد باشا الا التنازل عن الولاية وهو ما لم يكن له عنه محيص لفقده العضد والنصير وقد اشترط لذلك أن يوفروا له أسباب الرحيل الى بلاد العرب ولكنه توقع من القوم قلة الاكتراث بهـذا الشرط فأغفله وعدل عنه وفضل الالتجاء مع شرذمة من الجنود التركية الى جامع الظاهر بظاهر المدينة وهو الذى حوله الفرنسيون الى قلعة سموها بقلعة شولكوسكى الضابط البولونى ملازم ركاب (ياور) القائد بونابرت . واقتفى الألبانيون

أثر أحمد باشا فلما أدركوه وقف موقف الدفاع ولكنه لم يلبث أن أذعن لقلة الرجال والذخيرة معه فسيق أسيراً كما سيق البكباشيان موسى واسماعيل آغا الي ضفـة الخليج بالقرب من القصر العينى مصيف ابراهيم بك حيث رمى عنقاهما ونشر بالمدينة أمر بأسم محمد على وابراهيم بك متضمنا العفو العام عن المذنبين وأصبحت أزمة الحكومة منذ هذا اليوم بأيدى الألبانيين والمماليك فاحتل الأولون مدينة القاهرة والآخرون قلعتها . وقد كان من الممكن أن يتكدر صفاء هذا الحكم الثنائى لأنه لم يكد خسرو باشا يقف على ما آل اليه أمر المغتصب طاهر باشا حتى قرر العودة الى القاهرة اعتقادا منه بسنوح الفرصة له للقبض ثانيا على زمام الحكم ولكن لم يلبث أن فوجىء بقوة من المماليك والأرنؤود فعاد أدراجه الى دمياط

وبيان ذلك أن محمدا عليا كان قد سار الى دمياط بجيش من المشاة الألبانيين بلغ عدده بانضمام مماليك عثمان بك البرديسى وعربان حسن بك الى عشرة آلاف مقاتل . ففى ٦ ربيع الثانى سنة ١٢١٨ الموافق ٢٦ يوليو سنة ١٨٠٣ وقف هذا الجيش أمام الأسوار التى تحصن الأتراك بها وبدأ الحصار . وكان (أيسن) أحد ضباط فرقة الهندسة الانجليز قد حصن نقط الدفاع المختلفة كما كان (سليم كومب) أحد المماليك الفرنسيين يدير مدفعية المتحالفين

فقضى الفريقان أربعة أيام يتبادلان الضرب بالمدافع بلا نتيجة يحسن الوقوف عليها . أما البنادق فكانت لا تصيب الهدف لقصر مرماها وكانت المسافة بين المدينة والمحاصرين لها مغمورة بماء ترعة كبيرة فاضطر المحاصرون الى التدبر فى عبورها وأخذ جندى على عاتقه سبر غورها فتزيا بزى الفلاحين ثم أخذ معه بضاعة من البطيخ بحجة بيعها فى السوق فسبر الاغوار ليلا حتى اهتدى الى مكان لا يزيد عمق الماء فيه على ثلاثة اقدام وفى الليلة التالية رأى الزعيمان المتحالفان ان الوقت قد حان للانتفاع بحيلة الجندى المتنكر فكان هو في مقدمة من حاولوا عبور الترعة ، ودفع التيار محمدا عليا الى بعيد ولكن لم يلبث ان عاد الى رفاقه وبلغ معهم الى الشاطئ فاستولى على الحصون والمدافع ثم على المدينة فجر اليوم التالى بالرغم من نار الأتراك الحامية ولم يسع خسرو باشا تجاه هذا الخذلان الا الانسحاب الى العزبة بنهاية الفرع الشرقى من النيل حيث قاوم مقاومة عنيفة اضطر بعدها الى التسليم والتضرع الى محمد على ان يعامله بالحلم وسعة الصدر فتلقاه بما كان يرجوه منهما ثم بعث به أسيراً الى القاهرة ولم يقصر ابراهيم بك فى مقابلته بمثل ذلك علما منه بأن حسن اللقاء حق من حقوق العظماء الذين أخنى الدهر عليهم

قصد محمد على وعثمان بك البرديسى بعد ذلك الى الرحمانية حيث اهتما بجمع الزوارق وحمل الذخائر وتداولا فى الاجراءات الحربية المقبلة وهناك مر بهما المسيو (دولسبس) قنصل فرنسا الذى كان قاصدا الى القاهرة ليرفع رايتنا فيها عالية

وكان من نتائج انتصارات المماليك ان تملك الغضب نفوس اعضاء الديوان العثمانى فبادر بارسال وال جديد الى مصر لمنع خصوم الدولة العلية من الاستقرار والرسوخ في حكومتها. ولقد كان فى وسعهم اختيار رجل مثقف مدرب بصير بالأمور في هذا المنصب الخطير الا انهم عينوا فيه على باشا الجزائرلى وهو مملوك جركسي بيع في نضارة شبابه الى محمد باشا داى الجزائر ثم أهدى الى أمير البحر حسن باشا الذى لم يلبث ان رفعه الى اسنى المراتب وحلاه بالالقاب . والمأثور عنه انه من ذوى الدربة فى السلب والنهب والخيانة وأنه عوقب بالضرب والنفي مرارا وصدرت عليه أحكام فاضحة له بين أهل وطنه

وصل هذا الرجل الى الاسكندرية فى ٨ يوليه سنة ١٨٠٣ حاملا لقب الباشوية ومعه الف جندى من المشاة. ولا مشاحة فى ان ضعف هذه القوة يجعل نجاح الاجراءات الحربية مستحيلا لهذا عول ذلك الوالى على إكمال هذا النقص بالمكر والخديعة

ولكنه لم يوفق ابداً في هذه السياسة فان الأمراء وقد اصبحوا في القاهرة ارباب الامر والنهي قرروا البقاء بها ولو ليثأروا لانفسهم منه لاحتقاره اياهم برفضه الاصغاء الى شكاواهم أيا كانت . وفى ١٢ اغسطس استولوا على قلعة رشيد وأسروا قائدها السيد على أخا على باشا الجزائرلي ثم أنشأوا قنطرة من الزوارق على بحيرة المعدية لعبور الجنود ونقل المدافع ، وزحفوا على الاسكندرية التى كان الوالى الجديد قد شرع فى تحصينها وتقوية مواطن الضعف فيها واتخذوا دمنهور معسكرا لهم . وكان فريق من الالبانيين والمماليك قد سبقوا اليها

واتفق أن احد قدماء الجوربجية زار عثمان البرديسى فى خيمته فقبل هذا الزعيم يده ثم اجلسه الى جانبه وسأله عن رأيه فى المحالفة بين المماليك والالبانيين وكان هذا الشيخ البالغ من العمر السادسة بعد المائة معروفاً بالتقوى والصلاح والانباء بمستقبل الحوادث فأجابه بما يفيد ان هرجا شديدا يتخلله سفك دماء سيحدث قبيل عيد الاضحى فسأله عثمان بك ومن أين يأتى الهرج ومن الذى يسفك الدم وبجانب من سيكون الظفر فأجاب الشيخ بان الذئاب ستفترس بالاجانب ثم أمسك عن الكلام ليرتشف كاس القهوة التى قدمت اليه . وتذكر البك فى الاثناء

ان أهل البلد كانوا يسمون المماليك بالجنس الاجنبي فخشي أن يكون المقصود بالذئاب فى عبارته الالبانيين . وقضى نحو الساعة واجما تائها فى بيداء الفكر والتأمل مارا بيده على لحيته مرا متداركا

وكأن حوادث الطبيعة جاءت تؤيد ماتفاءل به الشيخ من الشر فان النيل لم يبلغ فيضانه الى النصاب الملائم للزراعة فارتفعت أسعار الاغذية ارتفاعاً فاحشا ووقفت المجاعة على الأبواب. وكان المال اللازم لقضاء حاجات الجند قد نفد من يده وذهب من هؤلاء الصبر فقاموا يتهددون ويصخبون . وكانت نبوءة الشيخ قد تركت فى نفسه أثرا مزعجا فعجل بالعودة الى القاهرة وكان قد سبقه اليها بسبعة أيام اى فى فروكتيدور سنة ١١ للجمهورية و٢٩ جمادى الاولى سنة ١٢١٨ هجريه و ١٦ سبتمبر سنة ١٨٠٣ محمد على قائد الالبانيين الذى قرر ان لايدخل رجاله فى حرب جديدة مادامو الم يقبضوا أجرة اتعابهم فى الحروب الاخيرة

فلما وصل البرديسى الى القاهرة وكان محمد على يهيمن على إرادته بغير شعور منه اتفق على إدارة الشؤون العامة مع ابراهيم بك الذى لجأ فى الحصول على المال لدفع متأخرات العسكر الى فرض الضرائب الفادحة فاستاء الاهلون منه لذلك لاسيما وقد ذاقوا الامرين من جراء عيث رجاله وإفسادهم . وشوهد ألفي

بك الصغير الذى تلقب بلقب استاذه يأمر وينهى فلا يعترض عليه معترض ولا يراجعه أحد حتى لقد أمر بقتل قاضى الجمارك لأنه لم يجبه الى ما طلبه من حطب الوقود كما شوهد حسين أغا والى (أغا مستحفظان) يأمر بسجن أحد الشيوخ طمعا فيما يفتدى نفسه به من المال . وسأله إبراهيم بك أن يرد الرجل الى أهله فبعث اليه برأسه يقطر الدم منه وحسين بك الزنطي رسول مراد بك سابقا الى الجنرال كليبر يرتب عصابات الناهبين والقتلة ويتولى قيادتها ليستولى بها على قلعة المقياس ويخطف الاهالى والعساكر العثمانية من الطريق ويقذف بهم فى النيل من أعلى الأمواج ويسير الزوارق المدفعية لضبط السفن الآتية من الوجه القبلى ونهب مشحونها ويخنق أغنياء الحجاج والمسافرين ثم يطرحهم فى النيل !

وما من فرصة لاحت لعلى باشا الجزائرلى إلا وانتهزها للاضطهاد والظلم فلم يحترم امتيازات الافرنج ولم ينظر فى الشكاوى المقدمة اليه من قناصلهم بل حرض عساكره على الاقتداء به فكانوا اذا رجعوا من التدريب العسكرى أطلقوا بنادقهم على نوافذ منازل الافرنج وحدث أن نفذت رصاصة الى داخل القنصلية النمسويه فكادت تقتل نائب القنصل ولم تنج أعلام الفرنسيين والسويديين والروس من هذه الاهانة حتى أصبح من المتحتم

الزام مرتكبي هذه الجرائم والموعزين اليهم بها بالترضية التامة واضطر الافرنج الى إغلاق مخازنهم وختمها وجعلها تحت نظر خورشد باشا (حاكم الاسكندرية) ونزع القناصل رايات دولهم من فوق دورهم ثم هجروها ليلتجئوا مع فريق من رعاياهم الى الاسطول العثمانى الراسى فى الميناء القديمة . ولم يسع الوالى وقد شعر بحرج مركزه الا ان يعرض على القناصل صلحا فلم يرضوا بشروطه . فتصدى له خورشد باشا فوفق لاتمامه لما أنسته الجاليات من نبالة مقاصده . وكان أساس الصلح المعروض عليها التعهد لها كتابة بأن لا يصيبها منذ الآن ضيم ولا يلحق بحقوقها وكرامتها أقل مساس فعاد القناصل الى الاسكندرية فى ٢٠ شعبان ١٢١٨ الموافق ٦ دسمبر ١٨٠٢ ورفعوا الرايات فوق الدور فحيتها القلاع والسفن الراسية فى الميناء وحدث ان رجلا يدعى خليل عطا وهو شيخ طائفة الشيالين عاقب اثنين من رجاله مكلفين بعمل ما فى قنصلية فرنسا ضرباً بالعصى بلا وجه حق فعوقب بمثل ما عاقبهما به وألزم برد ما أخذه من المال غصباً منهما وكان ٩٠ قرشاً

وارتأت الدولة على أثر هذه الحوادث ان المماليك اصبحوا بمساعدة الارنؤود أصحاب الحل والعقد وانه لاضير عليها اذا هى جذبتهم الى ناحيتها بالمعروف والحسنى . فاظهرت لهم الاحترام

والمودة وجارتهم فى أهوائهم وكان ينتظر أحدهم بالاستانة رد الباب العالى على اقتراحات اقترحوها منـذ عام ففي صباح ذات يوم وجهت اليه رتبة البيكوية على غير انتظار منـه وأعطى خطاً شريفا يخول زعماء المماليك جميعا حق البقاء والاستقرار فى القطر المصرى ويمنحهم مرتباً سنويا ١٥ كيساً لكل منهم ويخص رفاقهم المرؤوسين لهم بالاموال المفروضـة على بعض القرى بشرط الاحجام عن التداخل فى شؤون البلاد وجباية أموالها

فرضى البكوات بذلك واعربوا عن ارتياحهم له . واجيز لعلى باشا الجزائرلى الحضور الى القاهرة للاقامة بها على شرط ان لا يرافقه من العساكر اكثر من الف وان يتبع في حضوره الطريق المار بدمنهور البحيرة والطرانة على ضفة النيل اليسرى . ومع ان هذا الشرط كان مفرغا فى قالب الأدب الا انه كان يفيد الامر والالزام من جهة والاهانة والتحقير من أخرى . على ان الوالى لم يكترث بذلك قائلا انه يود موافقة اصدقائه فى هـذه الامنية اليسيرة التى لاضرر منها ولم تطلع شمس يوم ٨ رمضان ١٢١٨ الموافق ٢٢ دسمبر ١٨٠٢ حتى تحرك برجاله قاصدا الى القاهرة بعد ان سبقته اليها باربعة ايام طليعة صغيرة من جنـده غير ان العساكر الذين ساروا في معيته كان عددهم لا يقل فى الحقيقة عن

٢٥٠٠ من المشاة و ٥٠٠ من الفرسان وهم جميعا ممن حضروا من الاستانة حديثاً . وما خرج هذا الجيش من ابواب الاسكندرية حتى جعل وجهته بندر دمنهور ثم انحرف قبل الوصول اليها عن الخطة المتفق عليها فعبر الترعة قاصدا الى رشيد فأصبح الاتفاق المبرم بهذه المخالفة كأنه لم يكن

وكانت حامية المماليك يقظة ومتأهبة لالزامه بالسير فى الطريق المتفق عليه وأنس منها التحفز لذلك فعاد الى هذا الطريق ولقد ناله غيظ شديد لفشل مسعاه فنفث هذا الغيظ بتخريبه القرى واحراقه الكفور التى مر بها وعبر النيل تجاه بلده شلقان ووقف فى كفر الشرفاء القريب من القاهرة التماس الراحة. وفى ٦ شوال ١٢١٨ الموافق ١٩ يناير ١٨٠٤ ظهر محمد على وحسن بك والالفى الصغير وسليم بك الاول والثانى في مقدمة الالبانيين والثالث والرابع فى مقدمة المماليك وكان العربان يقومون لهذين الجيشين بالاستطلاع لجناحه الايمن بينما كان الجناح الايسر مرتكزا على النيل وتواجه الفريقان ثلاثة أيام بدون ان تبدو من أحدهما حركة . وكتب على باشا الجزائرلى اثناءها الي زعماء الارنؤود ومشايخ العربان والعلماء والناس اجمعين كتبا رام بها بث الشقاق بينهم فأخذ قادة الجيوش ومنهم محمد على يعدونه بالاخلاص

والولاء ويستدرجونه اليهم بكل الوسائل فصدق أقوالهم واقبل نحوهم ليلقي بنفسه فى الشرك الذى نصبوه له . حتى اذا جاء الليل الدامس اقبل حسين بك الزنطى في زورقين مسلحين يقلان جماعة من عساكر الاغريق فوضع امتعة العدو وذخائره في زوارق أخرى فوقعت الزوارق كلها بايدى المماليك والأرنؤود الذين أسروا من أقلتهم من الجند . فاحتج على باشا بشدة على هذا العمل وعده نقضاً للاتفاق فأجاب الفريقان المتحالفان بمتابعة الهجوم عليه وفي ١٢ شوال الموافق ٢٥ يناير قام المماليك والعربان بحركة اصبح بها الوالى محصورا فى معسكره لايستطيع الخروج منه فبعد مخابرات ظلت عقيمة النتيجة عول على باشا على المجازفة بقتال اعدائه آملا أن يكون الظفر له فيستتب له الامر ويخلص الحكم . فأبى رجاله وامتنعوا عن حمل بنادقهم محتجين بقلة عددهم والخوف من مخالفة أوامر الديوان القاضية بان يكون أخذ الاهالي لتأييد سلطة الدولة فى مصر بالمعروف والحسنى . وجاء امتناع الجنود عن القتال ضربة قاضية على الباشا فاختبل فى امره ولم يدر الى من يلتجئ فى هذه الازمة . ولكنه عول على مواصلة السير فى طريق الواجب فلما كان ١٤ شوال الموافق ٢٧ يناير قصد فى خاصة من رجال حاشيته ومن بينهم ابن أخيه حسن بك نحو خيام

المماليك فقوبل فيها بالأكرام والحفاوة . وبينما كان ألفى بك الصغير يجرد الاتراك من سلاحهم ويرمى أعناق ستة من أكابر رؤسائهم ويبعث بالعساكر الى حدود صحراء الشام تحت حراسة العربان كان على باشا يدبر وهو فى ضيافة عثمان بك البرديسى الدسائس فأخذ يراسل فى السر اثنين من أكابر زعماء الثورة والهياج فى القاهرة وهما عثمان بك حسن والشيخ السادات وقد ضبطت رسائله اليهما وعرضها عليه كيخيا زعيم المماليك موجها اليه الاسئلة الآتية :

ـ أتعرف هذه الأوراق ؟

فأطرق على باشا الجزائرلى برأسه ولزم الصمت . فقال له الكيخيا :

ـ لقد حان وقت رحيلك فأن الخيل بانتظارك

ـ والى أين أذهب ؟

ـ الى المنفى لانك لم تعد أهلا للبقاء بيننا

وفى الحال ألفت شرذمة من الجند بقيادة محمد بك المنفوخ وسليمان بك ابراهيم لحراسة الوالى فسارت به وبرجال حاشيته الى منفاه . وفى بعض الروايات ان البرديسى صعد فى هذه الساعة الى قمة أكمة وأمسك بيده منظاراً وأخذ يشيع الباشا المسكين

بنظرات السرور والارتياح حتى اذا توارى عن نظره صاح : «لقد أخذت بثأرى» . وعلى مسيرة ساعتين من المعسكر ترجل على باشا للاستراحة هو ومن معه فما كادوا يأخذون مجالسهم حتى ضيقت عليهم فصيلة من المماليك الحصار وأحاطت بهم احاطة السوار بالمعصم وأخذ رجالها يطلقون الرصاص عليهم مواجهة فأصيب الوالى بطلقين ناريين كما اصيب ابن أخيه الذى ماكاد يشهد جرحه حتى نظر الى عمه وصاح قائلا :

ـ لقد دنت الساعة ياباشا فهيا بنا نذود عن أنفسنا

فوضع على باشا ساعديه على صدره وقال :

ـ ان والياً مسلما يجب أن يعرف كيف يموت وأن لايدنس يده بملامسة العصاة

ثم نشر أمام قاتليه قطعة من القماش الأبيض كانت معه وقال لهم « أيها الجند ان هذا القماش كفنى وإنى منذعرفت أننى من بنى الأنسان أى مخلوق زائل لم يفارقنى هـذا الكفن . » ولست أسألكم أبدا العفو فاضربوا ماشئتم ولكننى استحلفكم برسول الله وبصحابته ان لاتحرموا جثتى هذا الكفن »

عندئذ مال العساكر عليه بالسيوف والمدى ومن لم يمت من رفاقه بنار البنادق قطعت رأسه بالسيف

وفى اليوم التالى لهذه المذبحة عاد عثمان بك البرديسي ومحمد على وغيرهما من الرؤساء والزعماء الى القاهرة فأقيمت الزينات والتعاليق فرحا بعودتهم وأنزل سعيد على بك أخو على باشا الجزائرلى من القلعة حيث كان معتقلا ودار البحث فى المدينة عن رسل الباشا وجواسيسه وكان على آغا أحد كبار ضباطه وشريكه الاكبر فى دس الدسائس مختفيا بالقنصلية الفرنسية فحصل من القنصل على التأكيد بحمايته وتسهيل السفر له من الاسكندرية. ونبهه الترجمان الى انه وقد أدى اليه القنصل هذه الخدمة الجليلة أصبح مدينا بالشكر له فلم يكن من هذا الرجل الكنود الكافر بالنعمة الا أن أجاب بما يأتى: «أنا! انى لست مدينا لأحد سوى الله بشئ ما. فأنه وحده هو المخلص من أيدى الأعداء واذا كنت الآن حرا طليقا فذلك لأن خلاصى كان مقدراً فى الأزل»

وظهر فى بادىء الامر ان النظام والهدوء أوشكا أن يعودا الى مصر وان ينشرا أعلامهما على أرجائها فان الأرياف كانت قد أقرت بالطاعة للمماليك والالبانيين وذاعت فيها شهرة ثلاثة رجال وهم البرديسى بشجاعته وابراهيم بك بعجزه وضعفه ومحمد على بحذقه ومهارته. وانضم الى هذه العناصر الثلاثة عنصر رابع وهو الشقاق. فانه لم يمض زمن طويل حتى ظهر على سواحل

ابو قير زعيم قديم للمماليك ستره ضباب نهر التاميز عن الانظار ردحاً من الزمن ، نريد به ذلك المختال الفخور محمد بك الالفي الذى رافق الحامية الانجليزية فى رحيلها من الاسكندرية على أمل ان يستميل الأمة البريطانية الى مؤازرة الامراء ، فأعيد الى ضفاف النيل فى الوقت الذى انفتحت فيه الابواب على مصاريعها للمطامع بعد أن قضى بانجلترا أحد عشر شهرا عاش أثناءها معيشة رسمتها له الوزارة الانكليزية فكانت هذه الوزارة تحفه تارة بعنايتها ورعايتها وتهمله تارة أخرى بحسب مايصل الى علمها من ارتفاع شأن المماليك فى مصر أو سقوطه فلما أفضت الحوادث الاخيرة الى وضع أزمة الحكم فى قبضة رفاقه واخوانه وأصبح هو رجلا من الطراز الحديث ومقربا من الاعيان والعظماء ومحبوبا من ولى عهد الدولة البريطانية ومرموقا بعين الاستحسان من السيدات اللواتى كان يفتنهن منه جمال ثيابه ورشاقة قده وكحل عينيه أقبل أرباب الأموال والمضاربون عليه يقدمون اليه المال جزافاً وكان قد باع الى بعضهم جزءاً من الأيراد الذى كان يرجو تحصيله فى المستقبل واشترى بثمنه أثاثا جميلا على الطراز الأوروبى لقصر كان يأمل أن يشيده يوما ما فى مصر فلما عاد فى مستهل القعدة سنة ١٢١٨ الموافق ١٢ فبراير سنة ١٨٠٤ نقله فرقاطة انكليزية

مسلحة بأربعة وأربعين مدفعا وتحمل معه لفيفاً من الانجليز كان قد وعدهم بأن يكونوا حرس الشرف له وجوقة موسيقية للضرب على الآلات المختلفة لم تلبث هذه الأشياء ان ذهبت فيما بعد بدداً بين أيدى عساكر محمد على كما ذهبت هذه الاحلام اللذيذه هباء منثورا

وفى السادس من ذى القعدة الموافق ١٧ فبراير ذاع فى القاهرة نبأ نزوله من الفرقاطة الى البر ولم يكن البرديسي ليرغب فى أن يتنازل لهذا القادم عن سلطة استقر له الأمر فيها بحد السيف كمحمد على سواء فقضى هذان الرجلان ثمانية وأربعين ساعة يتفاوضان فى شأنه وفيما ينبغي أن تكون خطتهما المستقبلة حياله فقررا فى نهاية الأمر ازالته من عالم الوجود . وكان مماليكه قد سافروا للقائه ، ولكنهم لم يستطيعوا الوصول اليه إذ بوغتوا فى الليلة التالية من رحيلهم بقرب الجيزة وامبابه وأفنوا عن آخرهم تاركين أمتعتهم الثمينة بأيدى خصومهم . وكاد محمد الألفى نفسه يقع فى قبضة بحرية زورق ألبانى بينما كان راكباً في قنجته ولولا انه ترك ما كان معه من الأثاث ونفائس الأعلاق لما وجد الى النجاة سبيلا . ولقد فهم من هذا الحادث انحراف الخواطر عنه وأن الوسائل قد اتخذت من قبل للأيقاع به ففزع من ذلك

فزعاً عظيما وعول بعد خروجه الى الضفة اليمنى من النهر على الاختفاء . فسار موغلا حتى بلغ الى قرية قرنفيل على مسافة فرسخ ونصف وكان ينزل بها جماعة من عرب الحويطات فسأل امرأة من هذه القبيلة ان تكرم مثواه فأجابته الى سؤاله حتى اذا تنفس الصبح جهزته بفرس واثنين من الهجانة لارشاده وحراسته غير أن العربان الموالين للبرديسى اهتدوا الى أثره فاقتفوه وكادوا يدركونه ويقبضون عليه لولا أنه القى اليهم ما كان معه من الخلع الثمينة والجواهر الكريمة فأن شرههم وطمعهم فى المال ألهياهم عن ملاحقته فنجا بنفسه من غضبهم وقسوتهم . وفى خلال ذلك كان محمد على يشتت انصاره وأحزابه فى كل مكان ويضيق الخناق على من يميلون اليه حتى أنه عاقب سليمان بك البواب كاشف منوف بتجريده من املاكه لأنه أكرم مثوى ذلك الأمير واطعمه على مائدته . أما الانجليز فقد أدركوا خطأ سياستهم وفهموا أن المعاملة السيئة التى لقيها الألفي منذ وصوله موجهة اليهم فى الواقع فأخذ قنصلهم الجنرال يصيح ويصخب ويحتج ويعترض ولكن البرديسى كان لا يعير لهذه الصيحات سمعه ، فذهبت فى تضاعيف الرياح

وكان البرديسي قد نقل الى مخازنه السجاجيد العجمية والفرش

والفضيات والجواهر وجميع ماغنمه الالبانيون من النفائس الا انه لم يعجل بدفع المتأخرات المستحقة لهم عن ثمانية اشهر فاستاءوا من هذه المعاملة ورأوا فيها نكاية مضاعفة بهم ، فقصدوا من فورهم مع زعيمهم محمد على الى قصر البرديسي مطالبين بتلك الحقوق مظهرين الصلف ومجاهرين بالتهديد والوعيد فوعدوا بالترضية فى اليوم التالى ، وتداخل محمد على في الامر اذ أقنعهم بقبول هذا الأجل ورأى البرديسى نفسه مضطرا الى فرض ضريبة عظيمة على الجالية الاجنبية من أهل الاساكل الشرقية ومن الأوروبيين أنفسهم للوفاء بعهده ، فاحتج القناصل على هذا الفعل وعدوه منه افتياتا واغتصابا وفتحا لباب جديد من ابواب الابتزاز وحثوا السواد الاعظم من مواطنيهم على الهجرة الى الاسكندرية ولم يكن الارنؤود قد حصلوا على كل مؤخراتهم فرمروا وتذمروا وكشروا عن انيابهم ففرض البرديسي ضريبة ثانية على الاهلين

امتعض سكان القاهرة من هذه الضريبة وقامت ضجتهم وثارت ثائرتهم فانحوا على رقاب الجباة وظهر من حركاتهم انهم عقدوا النية للمرة الاخيرة على وقاية أنفسهم من قهر الأرنؤود وعسفهم ومن ظلم المماليك وابتزازهم

أدرك محمد على عندئذ ان هذه هي الفرصة السانحة لاقتناص قنيصته فأعمل رويته وصدق نظره وجرأته على عظائم الامور ليحول مجرى الحوادث الى منفعته وتحقيق اغراضه فذهب وحده الى الجامع الأزهر الذى اختمرت فيه فكرة الاضطراب والهيجان فواسى الناس بكلماته الطيبة وأكد للمشائخ تحت ضمانته أن الغرامة المفروضة سيتم العدول عنها بمساعيه فسكنت الثائرة وعدل المتشددون عن تطرفهم اعتمادا على ماوعدهم به. وفى الواقع فقد التقى بكل من عثمان البرديسى وابراهيم بك وفاوضهما مليا فى الامر واجتهد فى اقناعهما باتخاذ وسائل أخرى لجمع المال لاتفضى الى اثارة الخواطر ، ولكنهما لم يصغيا الى أقواله الحكيمة بل رفضاها رفضاً يكاد يكون جازما. وكان الثائرون والناقمون ينتظرون من جهة اخرى حصول العدل والانصاف ، فأخذوا يتساءلون عما اذا كان ذلك الرجل الذى استطاع فى لحظة واحدة ان يسكن ثائرتهم ويقنعهم بملازمة السكون انما يريد السخرية بهم ولعلهم جنحوا الى سوء الظن فيه فاضطرب حبل الاحوال ثانياً بفتنتهم التى تناولت أطراف المدينة وسرت فيها سريان النار فى الهشيم

وفى أول ذى الحجة سنة ١٢١٨ الموافق ١٢ مارس سنة ١٨٠٤

تقدم قبيل الظهر حشد حشيد من الالبانيين نحو البرديسى الذى
كان يحميه حصن من حصون المجمع العلمى وأحاطوا به فجأة
إحاطة السوار بالمعصم كما احاطوا بالجهات المجاورة للترسانة القائمة
تجاهه وببطارية المدافع التى صفت على عرض الشارع الكبير .
وكان البك عظيم الثقة فى حصانة موقعه غير ان القيمين على المدافع
كان قد استهواهم المحاصرون واستمالوهم اليهم فبعد أن أطلقوا على
هؤلاء خمس او ست طلقات بالبارود وجهوا فوهات مدافعهم
نحو الاسوار التى كان الدفاع عنها منوطاً بهم فتمكن الارنؤود
بذلك من الاغارة على الترسانة وأخذوا يطلقون البنادق من
نافذاتها وسطوحها وتلقى الجنود جميعا الامر بالحملة على القصر
فانفتحت أبوابه على مصاريعها واذا بزعيم المماليك قد اندفع منها
راكضا على جواده وخلفه جملة من اعوانه الامناء وجمال محملة
بما كان عنده من الاموال والنفائس وشهر سيفه وأخذ يضرب
به يمنة ويسرة فاصيب بجرح ولكنه انصرف منسحبا نحو البساتين
وفى الوقت نفسه كان فريق من الألبانيين محاصراً دار
ابراهيم بك ولكن بغير شدة ولا تضييق فقضى هذا الشيخ
ليله يتأهب للرحيل حتى اذا كان الفجر خرج يحيط به كشافه
قاصداً الى الرميلة تحت وابل من رصاص البنادق وفر فى الصحراء

أما حسين بك الزنطي الذى كان معسكراً بالمقياس في مائتين من جنود البرديسى اليونانيين فقد أقلع فى سفنه للحاق بهذا الزعيم فأصبح الأرنؤود فى أقل من يوم واحد أصحاب الحل والعقد بالعاصمة والمتصرفين فى شؤون القطر . وبلغ عدد القتلى من المماليك بالقاهرة ذلك اليوم ٣٥٠ مملوكا . وهؤلاء اذا انقطع بموتهم خفقان قلوبهم فمماليك دمياط ورشيد والمواقع العسكريه فى الوجه البحرى كانت لا تزال شديدة الخفقان هلعاً وفزعا فأركنوا الى الفرار ولم يقف في طريقهم أحد

حان لذلك الذى سماه الناس بالمسترد للحقوق المغصوبة أن يحقق مقاصده ولكنه لم يخدع نفسه بهذا النجاح المحفوف بالأخطار ولم يستنم الى الشهرة التى احرزها والثقة فاز بها بل رأى أن يتريث ويتئد كى يقيم أركان شوكته على الأساس الوثيقة وكان همه ان يصرف عن خاطر الملأ المصرى انه قضى على الولاة ونكل بالمماليك ليحل محلهم ويقبض على أموالهم فرأى أن خير الوسائط للفوز بالأعجاب والشكر منه ومن الدولة العلية إغفال شؤونه الخاصه بعد الذى قام به للمصلحة العامة . وتنفيذاً لهذه السياسة الحكيمة قصد الى القلعة فاستخرج خسرو باشا من السجن ونادى به والياً على مصر

على أن ولايته كانت قصيرة العمر فان أبناء أخ طاهر باشا أغروا الألبانيين بخلعه فخلعوه للمرة الثانية فى يوم ٣ ذى الحجة الموافق ١٥ مارس وارسلوه من رشيد فى سفينة الى الاستانة العلية . وعقد الرؤساء والزعماء بعد ذلك اجتماعا اختاروا للولاية فيه خورشد باشا حاكم الاسكندرية . فوصل الى القاهرة فى ٢١ من ذى الحجة الموافق ٢ أفريل وكان قد عهد بها فى الثمانية عشر يوما التى مرت الى محمد على بلقب القائمقام

ثم صدر فرمان التولية الى خورشد باشا بعد تقلده إياها فعلا بثلاثة أسابيع فكان الفرمان الرابع من نوعه في اقل من سنة واحدة . فلما رأى الأمراء ذلك جمعوا جموعهم تحت أسوار القاهرة لمنع الوارد عنها وأغرقوا المراكب المشحونة بمواد الغذاء لأيقاع أهلها فى المجاعة ، واقتدى العربان بهم معتمدين على أن يد الانتقام لن تصل اليهم فأخذوا يتلفون المزارع وينهبون المحاصيل وأصاب سكان العاصمة من ذلك شر عظيم وجاءت تصرفات الاتراك وعيثهم وإفسادهم ضغثا على إبالة ، فأنهم صبغوا الطرقات بدماء الابرياء يقتلونهم فى الطريق من غير ما سبب وامتدت أيديهم الى النساء ينتهكون حرماتهن ويباغتونهن فى الحمامات العامة واشتد الحرج حتى شعر الناس جميعا بالحاجة الى

وجود رجل فى الولاية اكثر ثباتاً من الوالى الجديد وادرى بالتزام حد الوسط بين الشدة البالغة والتردد الدال على ضعف الرأى . نعم قد كان خورشد باشا صالحاً مستقيما ولكن الاستقامة من الخصال التى يندر أن تقوّم بقيمة فى عالم السياسة فلا عجب إذا لم يظهر فى المواطن التى تحتاج الى الشدة والصلابة شيئاً من إصالة الرأى وبعد النظر فى العواقب

ومنذ ولى خورشد باشا على مصر دلت الحوادث على أنه طلق الحكمة بتاتاً وأقام بينه وبين كتمان الاسرار سداً منيعاً فقد أمر بتحصيل أموال الميرى من الأقاليم عن سنة لم تستحق بعد مع نضوب مواردها لكثرة ما ابتز منها وذلك ليقوم بمطالب جند لاحد لشراهته ولا ضابط له فى تصرفاته . وفرض مائة وخمسين كيساً على نصارى دمشق النازلين بالقاهرة وخمسمائة علي الاقباط وألفين على الشيوخ والوجاقلية محتما عليهم جميعاً تقديم الرهائن من الاشخاص ضمانة لدفع هذه المبالغ وعدا جوره الى نساء أمراء المماليك إذ فرض عليهن ١٢٠٠ كيس وبهذه الوسائل الجائرة واشباهها أثار فى نفوس الناس جميعاً كامن الكراهة له واستفزها للانتقام بسوء فعله مع تلك النساء ومضت اشهر ثلاثة بعد ذلك كان الاصطدام بالمماليك فيها

مناوشات بسيطة ، وقد حاربهم محمد على بنفسه اربع ساعات او خمسا بالقرب من بلدة المعتمدية ثم عاد برجاله حاملين رؤوس القتلى إشارة الى الفوز عليهم وكانت حامية بلبيس مؤلفة من ٣٠٠ جندى فقطعت رقابهم جميعا الا ثلاثةوهم الكاشف وبكباشيان وصد المماليك بالقرب من بهتيم وأخذت استحكاماتهم في بلقس ولكن نفدت حيل محمد على لملاحقتهم واخذ الآفاق عليهم وعيل صبره فعقد النيةعلى القيام بعمل حاسم فتعقبهم فى القليوبية حتى اذا نكل بهم عاد الى القاهرة . وكان عساكره بلا مؤن ولا ثياب فشكوا اليه كثرة المتأخر لهم فقبض فى الحال على اثنين من اكابر المثرين ولم يطلق سراحهما الا بعد ان أخذ من مالهما ثلاثين كيسا ولم يعبأ بوجاهتهما ولا بانتمائهما الى الوالى عملا بقاعدة ان الضرورات تبيح المحظورات ولان عمله انما هو لسد الخلة ومعالجة العلة

وكان المماليك يجدون من كل ضيق يقعون فيه مخرجا الى الفرج فلقد استمالوا اليهم جماعة من أنصار الارنؤود وعلموا منهم ما استقر عليه رأى خصومهم فى أمرهم وكان عبيدهم يذهبون الى المعسكر ثم يعودون ومعهم أوراق مكتوبة مخبأة فى أنابيب شبكاتهم التي يدخنون فيها التبغ او شعر لحياتهم الكثيف وقد

ضبط يونانى حاملا رسالة من هذا القبيل فضرب عنقه فى فناء الديوان

وكان محمد على وهو على رأس الجنود المعسكرة بشلقان قد نكل بالمماليك واقتفى أثرهم الى طنطا ثم عاد الى قرافة مصر لمطاردة العربان الذين يزعجون المترددين اليها لزيارة الموتى وبعد أن قطع من هذه الجهة دابرهم احتل البساتين بثمانمائة من المشاة وما كادت تطأ ارضها قدمه حتى برزت له من الكمائن زمر كثيرة من أخلاط المماليك دهمت جيشه فتفزع عساكره وتراجعوا بادىء ذى بدىء متخلين عن مراكزهم فحال دونهم وأخذ يحضهم على الثبات واستئناف القتال فلم يصغوا اليه وبعد أيام اتفق الالبانيون والاتراك على مداهمة الامراء ليلا فى خيامهم فسار محمد على بألف من المشاة على ثلاث فرق الى دير التين فوصلوا قبيل الفجر واتفق ان أطلق بعض المتحمسين منهم البنادق قبل الشروع فى حصار تلك القرية فاستيقظ جم غفير من المماليك على دوى البنادق وامتطوا خيولهم وفروا تاركين وراءهم الأمتعة والمدافع واستولى الارنؤود على طرة بلا قتال وكان نبأ قدومهم قد وصل الى حراسها ففروا الى الجبال وعاد محمد على برؤوس أربعة مماليك ضرب اعناقهم بسيفه فألبسه الباشا فروة سمور جزاء شجاعته وهى ثانى

خلعة أصابها فى اقل من ثلاثة أسابيع

وفى ٢٢ ربيع الثانى ١٢١٩ الموافق ٣١ يوليو ١٨٠٤ رأى المماليك ان لافائدة من استمرارهم على حصر القاهرة فانصرفوا عنها. أما محمد بك الالفى فقد عاد بعد اختفائه زمناً في خيمة أحد عربان الشرقية الى صفوف اخوانه وشاركهم فى معاركهم الأخيرة ثم انتقل مع ابراهيم بك الى الضفة اليسرى بينما كان البرديسى وعثمان بك حسن بالضفة اليمنى يقيمان بها الاستحكامات والحصون. واستطاعت السفن على اثر هذه الحوادث الملاحة بين ثغرى رشيد ودمياط وبين القاهرة وتوارد الفلاحون تباعا الى العاصمة ليبيعوا أهلها مابقى من حاصلاتهم بعد الذى نهبه المتحاربون او أتلفوه. وما مضى على انسحاب الأمراء الى الصعيد عشرة أيام حتى لمع لأهل مصر فى أفق المستقبل بريق الامل فى تحسن الاحوال اذ كان النيل قد بلغ من الارتفاع الى الدرجة الصالحة للزراعة واحتفل الأهلون بجبر الخليج بحضور الوالى ومحمد على والقاضى والأعيان ووقعت حوالى هذا الوقت بالعاصمة حادثة كادت تتحول الى كارثة تذهب بحياة الاوربيين القاطنين بالقاهرة جميعاً

وبيانها ان اثنين من الارنؤود لعبت الخمرة برأسيهما كانا

عند طبيب يونانى بحى الافرنج وكان المسيو (روييه) كبير
صيادلة جيش الشرق وممن آثروا البقاء بمصر بعد الجلاء لمزاولة
مهنة الطب واقفا امام بيته وبيده عصا بباطنها شيش . فلما مر به
الرجلان طلبا منه العصا فأبى فأمسك أحدهما بطرفها الاسفل
وجذبها اليه فلم يجد بيده غير جفير الشيش وبقى الشيش نفسه
بيد المسيو روييه . فما وقع نظره عليه حتى أخذه الدهش اذ لم
تسبق له رؤية عصا من هذا النوع واشتد به الغيظ فتسلح هو
وزميله بما كان معهما من السيوف والطبنجات وهجما على الصيدلى
يريدان به الشر فاعترضهما الخدم وبعض الافرنج المجاورين
وتوسطوا بين الفريقين حقنا للدماء ، فأصيب اثنان منهم بجراح
خفيفة وثقبت رصاصة ثياب المسيو روييه وأحرقت جزءا منها .
وكان أحد الالبانيين اشد تحمسا من زميله فأصيب بطعنة سيف
فى جنبه ثم بعيارين ناريين خرّ بهما صريعاً على الارض وأصيب
زميله بطلقتين من طبنجة وطعنة سيف فلما انتشر الخبر توجس
أهل الحى خيفة وتفزعوا وأخذت كل عائلة تلتمس لنفسها مفرا
او ملاذا ، واغلق باب الحى وتسلقت الامهات بابنائهن الاسوار
المحيطة بدار الشيخ المهدى ودخلن بيته فآواهن عنده وسكن
جأشهن وطيب خاطرهن . وماهي إلا ساعة حتى حضر قنصل

فرنسا الذى كان مسكنه بحي البنادقة وأبلغ الخبر الى محمد على ترجمان قنصل النمسا فجاء الى مكان الحادثة سيرا على الاقدام يتبعه بعض رجاله فتمكن بحسن سعيه من تهدئة ثائرة الارنؤود الذين كانوا انتشروا فى الطرقات القريبة وتحفزوا للأخذ بالثأر ثم فتح باب الحي وجعل عليه الحراس واتخذ التدابير لمنع الارنؤود من طلب الانتقام مقنعا إياهم بأخذ الدية عن القتيل وهى أربعة آلاف اربعينية اى قرش عثمانى فاستلم هذا المبلغ أخوه وافتدى خورشد باشا بمحمد على فى الخطة التى رسمها للصلح بين الفريقين فأحال قنصل فرنسا على جمارك الاسكندريه ليقبض منها مبلغا يعدل مبلغ الدية . وكان القتيل بكباشيا تابعا لحسن بك فتشدد هذا فى الامر ورفض البحث فى فض الخلاف قبل ان يسلمه الوكيل الفرنسى رهينة عنده فعرض المسيو (هلدبرند) نفسه ولبث ثلاثة أيام تحت رحمة حسن بك أظهر في خلالها الشهامة والشمم وحب التضحية وقد سأله هذا الزعيم :

ـ لعلك كغيرك لاتدرى من القاتل للبكباشى وأين مخبأه

ـ نعم لا أدرى

ـ أنى مصدق لك اذ لو كنت تعرفه لبادرت بأيقافى على الحقيقة حرصا على حياتك

ـ كلا . . فأنى اذا عرفتها لا أوقفك ابدا عليها

ـ أنت ستضطرنى اذا لم أعرف المجرم الى إيثاق كتافك واعدامك فى صحن دارى رميا بالرصاص

ـ أفعل ما تشاء فلسوف تسمع حكومتي طلقات النار فلا يلبث القاتل أن يتبع القتيل

وكانت الدولة العلية على أثر ما ورد اليها من التقارير المستفاضة عن أحوال مصر تنظر بعين القلق الى اتساع نطاق شوكة الارنؤود وامتداد نفوذ زعيمهم وكانت رغبات السلطان متجهة الى وقاية القطر من السقوط فى أيديهم فبعث الى محمد على وبعض قواد جيشه الفرمان التالى : « تعلمون أنه لما أقام الفرنسيون اركان حكمهم فى مصر بذل الباب العالى الكثير من المال والرجال لفتح هذا القطر ثانيا . ومنذ هذا الوقت وجد من بينكم من ساءت نياتهم وفسدت ضمائرهم فألقوه فى مخالب المماليك وسلموا زمامه اليهم . وليس من قصد الباب العالى أن يسند اليكم جميعا هذه الغلطة ولكن حيث ان ما مضى قد انقضى وارتفعت المسئولية وانمحت الجرائم بالعفو السلطاني فان الباب العالى يدعوكم الى مغادرة القطر والعودة الى أوطانكم أنتم ورجالكم الشجعان ولعلكم لا تأبون العودة الى عائلاتكم التى تبسط نحوكم

الا كف لتتلقاكم فى أحضانها . كونوا على ثقة من ان حوادث الماضى قد غفرت وأصبحت نسيا منسيا وانه لن ينظر أبدا فى حوادث ولاية خسرو باشا . وان الباب العالى لواثق كل الوثوق من انكم ستقدرون تسامحه وعفوه حق قدرهما فتمتثلون اوامره ولا تخرجون عن طاعته »

لم يستطع محمد على الاجابة بالامتثال لهذا الامر طالما كان حصار القاهرة قائماً فلما انتهى الحصار آثر بعض الزعماء الذين أثروا على حساب الجمهور الاستمرار فى الفتنة ليستأنفوا النهب والسلب ويزدادوا بهما بسطة فى العيش على أن يعودوا الى أوطانهم فتسلب أموالهم .

ومن الذين طلبوا العودة الى وطنهم صادق آغا وأحمد بك فقد أجابهما الوالى الى طلبهما ومهد لهما طريق سفرهما إلا أنهما ما كادا يركبان القنجة بموردة بولاق حتى فجأهما الارنؤود ومنعوهما من الرحيل قبل أن يدفعا اليهم المتأخر من حقوقهم

وشاع نبأ هذا الحادث بالمدينة فاهتزت له الحامية وتوجس خورشد باشا خيفة فوافاهم بشهر من متأخراتهم . ثم وزع عليهم بعد ذلك بأيام ١٥٠٠ كيس جمعها من الوجاقلية . ثم أنفذهم الى الوجه القبلى لاقتفاء أثر المماليك متهدداً إياهم بأن من خالف

منهم أمره طرده فى الحال من القطر المصرى

أما محمد على فلم يكن رأيه قد استقر على شيء بشأن بلاغ الديوان السلطانى . وإنما اغتنم هذه الفرصة ليختبر الرأى العام فى أمره وليعلم مقدار ما يمكن أن تحرزه مشاريعه المنوية من القبول لدى رفاقه ، فذهب من فوره الى الوالى وقال له إن ايراد الحكومة لا يفي بنفقات الجند وان اختلال النظام والتمرد لا يقفان لهذا السبب عند حد وانه يرى من أجل ذلك أن لا فائدة ترجى من خدمته فهو يفضل العودة الى وطنه ليقضى به بقية أيام حياته . وبدهي أن الوالى كان يرى فى محمد على أنه نعم السند ونعم العون إلا أنه كان يخشى أن يكون مؤيد الجانب من ذى قوة وجاه ومال فسرعان ما أجابه الى طلبه وعين سلحداره على جرجا بدلا منه . ولكن لم يحسب خورشد باشا حسابا لرأى الشعب كعادته فى قصر نظره ، فلما كان اليوم الذى شرع محمد على فيه ببيع أملاكه تأهبا للرحيل من مصر وانتشر هذا الخبر بين الجمهور الذى كان محمد على نصيره فى الملمات أغلقوا الدور والحوانيت إعرابا عن استيائهم واندرعوا زمراً وشتى الى الميادين العامة والطرقات يصيحون صيحات اليأس والحزن وتألفت من العساكر عصابات للسلب والنهب فنصحهم محمد على

بالسير فى طريق الواجب وملازمة الاستقامة ثم طاف بالاسواق ومعه حسن بك وأغا الانكشارية لأعادة النظام الى نصابه وعانى فى ذلك صنوف المشاق . وجاء ببعض ارباب الفتن فقطع رقابهم وعرض رؤوسهم وجثثهم للأرهاب والعبرة . وفى اليوم التالى قصد ٢٠٠ ألبانى بقيادة احمد بك الى الاسكندرية ودمياط قانطين من تحقيق أمانيهم . وما كان لمحمد على أن يقتدى بهم لما كان يشعر فى نفسه به من أنه لو أتى مثل هذا الفعل لكان لفضل مصر عليه جاحداً ولجميلها ناكراً

عرض الوالي الجنود وألف منهم ثلاثة جيوش وجهها الى الأقاليم القبلية أحدها الى جرجا بقيادة السلحدار وقد اجتاز النهر وسار صاعداً على الضفة اليسرى وكان مؤلفاً من ٤٠٠٠ جندى وتبعه الثانى فى نفس الطريق يوم ١٢ رجب الموافق ١٧ اكتوبر وكان مؤلفاً من ٣٠٠٠ بين راجل وفارس وقد سلم خورشد باشا قيادته مع كورك من السمور الى محمد على ، أما الثالث وكان مؤلفاً من ١٢٠٠ فقد اسندت قيادته الى حسن باشا واعتبر جيشاً احتياطياً وكان زحفه على الضفة اليمنى كطابور استطلاعى للطابورين السابقين

التقى السلحدار قريباً من الفشن بجيش من المماليك والعربان

انضم الى سكان هـذا البندر فى مقاتلة الجيش الزاحف بثبات وإقدام على أن هـذا الجيش ظفر بهم فى آخر الأمر وبلغت خسارة الألبانيين ١٢٠ بين قتيل وجريح وأرسل الى قلعة القاهرة الأسرى من العدو . وعلق في ميدان الرميله واحد وعشرون رأساً من رؤوس أعيان القتلى وطورد الأمراء الى قرب المنيا . وفيها كان الفوز لهم إذ غنموا من الأتراك اربعة مدافع وقتلوا عدداً عظيما منهم ولم تتجاوز خسارتهم اثنين من الكشاف وثلاثة من الأمراء ، فعزز محمد على قوة السلحدار وحصر الموقع في منتصف رمضان سنة ١٢١٩ الموافق غاية ديسمبر ١٨٠٤ . وكان المماليك قدحصنوا البلدة بجملة من الاستحكامات ووضعوا المدافع فى المراكز الضعيفة من مختلف العيارات وناطوا بالعمل عليها المدفعيين اليونان والعساكر المعروفين لهم بالصدق والاخلاص . وأقام الأتراك استحكاماتهم ونصبوا بطارياتهم تجاه مراكز المماليك الأمامية وجعلوا مركز فرسانهم بعيداً عن مرمى المدافع فى غابة من النخيل وأوقفوا المشاة فى خندق يوصل الى الخنادق المحفورة حول المكان المحصور . فبعد أن قضى الفريقان أياما فى المناوشات خرج المماليك من الباب الجنوبى الى الخلاء لقطع المواصلات على الجيش المهاجم ثم اتجهوا نحو بنى سويف وحاولوا

عبثاً الاستيلاء عليها فاغتنم محمد على هذه الفرصة للحملة على المنيا فسار فى ألفين من رجاله وساعده على الزحف انتشار ضباب خفيف ونار المدافع . فلما وصل الى حافة خندق العدو تظاهر الفرسان بالهجوم على نقطة مواجهة لمصر العليا . وكانت السلالم التى نقلها العساكر معهم قصيرة لاتصل الى متن الاستحكامات فأمطر الأمراء محمدا عليا ورجاله وابلا من الرصاص فحضهم على الصبر والتماسك ففعلوا ، إلا أن عدد القتلى منهم بلغ فى هذه الواقعة الى ٢٦٠ جنديا

وفى ١٩ القعدة الموافق ١٩ فبراير أى بعد ١٢ يوما من ذلك الهجوم حاول حسن باشا الاستيلاء على الموقع فلقى من الفشل ما لقيه محمد على بالرغم من تخلى حسين بك الزنطى الجبان عن جنوده اليونان والسودانيين فى أول القتال وانضمامه الى المهاجمين وكان الأشرار وقطاع الطريق منتشرين فى ذلك الوقت بالوجه القبلى فحدث ان رئيس عصابة منهم معروفا بكنية (أبو ليله) اقترح على البرديسى احراق سفن الاتراك فارتاح البرديسى لهذا الاقتراح وأمر الرجل بالعمل فملأ قرباً صغيرة كانت معه بمواد يدخلها القار وروح النبيذ فلما كان ليل ٣٠ القعده الموافق ٢ مارس سبح جماعة من أعوان اللص في النيل ومعهم القرب فربطوها الى جانب

السفن والشلنبات واشعلوا بها النار بواسطة أسطبـة وضعت فى القناديل فسرى اللهب فى السفن قبل أن يستشعر بها حراسها ولما وقع نظر هؤلاء عليها تولاهم الرعب فبدلا من مكافحتهم النار فرّوا هاربين نحو المعسكر . أما محمد على فسرعان ما توجه الى الشاطئ وأمر بعزل السفن التى دبت فيها النار من التى لم يصبها أذى فأنقذ بحضور ذهنه ومضاء عزيمته جانباً عظيما من المؤن والذخائر . وكان المماليك لاعتيادهم القتال فى بسيط الارض قد سئموا الأقامة خلف الأسوار فتركوا مراكزهم من غير أذن لينضموا الى الأمراء الذين تخفق راياتهم كل يوم فى مكان ولم تلبث بقية الحامية أن اقتدت بهم إذ رفعت خيامها الى حيث تسوقها يد الاقدار فدخل الألبانيون والاتراك بلدة المنيا من غير قتال بعد حصار دام ٥٦ يوما

وفى خلال هذه الحوادث وقعت بالقاهرة جريمة ثارت لها الخواطر وبيانها ان كاشفا من الارنؤود اسمه الدالى عثمان كان ساكنا بالقرب من جامع السلطان حسن وكان يتردد عليه شيخ اسمه احمد البرانى لتلاوة القرآن فى بيته فرأى منه مع فراشه مارابه فضربه بالخنجر والنبابيت ضربا افضى الى موته بعد ساعات واتصل بالعلماء الخبر فاضربوا عن الحضور الى الجامع الأزهر

والتدريس فيه بحجة انه لافائدة من تعليم الآداب والأخلاق اذا لم يعمل بها ورفع المشائخ القتيل الى المحكمة حيث وقف القاتل وابن القتيل للتقاضى ولما دخل الاخير عند القاضى أشار الى الالبانى صائحا : « هذا الرجل هو قاتل ابى بلا ذنب جناه وهو بوشايته الفاضحة انما أراد ان يستر جريمته ويخلص من عاقبة فعلته فان والدى أكد قبل ان يلفظ النفس الاخير انه يموت طاهر الذيل نقى الصحيفة »

وافتى المالكى انه يعتبر قول المقتول فى مثل ذلك لأنه فى حالة يستحيل عليه فيها الكذب وأيد المشائخ هذا النص فقال القاضى لابد من بينة تشهد على قوله فتقدم واحد للشهادة ولكن المجلس انفض واهمل الامر حتى يأتوا بالبينة . وبرئت ساحة الدالى عثمان الذى لم يلبث ان عين كاشفاً للجيزه . واتفق ان جاء المماليك الى هذا البلد وعاثوا فيه فسادا فخرج الدالي عثمان فى جملة من رجاله لطردهم ولكنه وقع فى كمين نصبوه له فقبضوا عليه وقطعوا رأسه

وكان خورشد باشا يشعر بضرورة موازنة القوة الألبانية بقوة تعادلها فطلب من الباب العالى إمداده بهذه القوة . ففى ٢٩ القعدة الموافق ٢٩ فبراير وصل الى مصر ٣٠٠٠ جندى عثمانى

ليكونوا تحت تصرف الوالى فيما يريد فجعل لهم هـذا معسكرا بمصر القديمة والضاحية . وكانوا جميعاً من الفرسان السوريين الذين تتألف منهم الفرقة المعروفـة بالدلاة او الدالاتية ، سموا بهذا الاسم الذى معناه الجنون والهوس لتحمسهم فى القتال واقتحامهم الأخطار. وقد عاملهم خورشد باشا بالتسامح والاغضاء لاعتقاده انهم سيكونون حصنا له ودرعا. ولم يكتف بأن خصص لدفع مرتباتهم ستمائة كيس فى الشهر بل أباح لهم المضىّ فيما اعتادوه من الظلم والاعتداء على الناس بالسلب والنهب وأدرك محمد على وحسن باشا حقيقة الغرض الذى رمى الوالى اليه بجلب هذا الجيش فعجلا بمبارحة الوجـه القبلى آمرين جنودهما بحث المسير نحو العاصمة . وكانت هذه العودة الفجائية تنذر بقرب التحام الجيشين وشعر محمد على بضرورة امتلاكه القاهرة حتى لا يتمكن الوالى من إغلاق أبوابها في وجوه الألبانيين وانتهت الى خورشد باشا الأخبار بتحرك جيشه فجمع اليه الشيوخ والعلماء والوجاقلية ومثل محمدا عليا وحسنا باشا فى صورة الثائرين الباذرين لبذور الفتن خدمة لاغراضهما . ولـكي يقنعهم بصحة هـذه التهمة أبرز لهم ورقة من كيس حرير أخضر كان بيده ورقة وقال « هذا هو خط شريف يبيح لى نفى هـذين الشقيين حيث أريد

فهما الآن بين امرين إما الاستمرار على قتال المماليك وإما العودة الى وطنهما. اما انتم معشر المجتمعين فى هذا المكان فواجب عليكم الاخلاص فى خدمة وطنكم والقيام بجانبى لنصرتى وتأييدى بمالكم وجهدكم ورأيكم» فوعده الحاضرون خيرا وقرروا ان يلازمه فى كل يوم بالنوبة شيخان واثنان من الوجاقلية وجعل خورشد باشا فى القلعة البكباشى صالح كوش من المخلصين له ومعه مائتا جندى للدفاع عنها ثم أقر الدلاة فى الجيزه وطره وأقام بهما الحصون والمتاريس ونصب المدافع وزودهما من المؤن وذخائر الحرب

وكان محمد على وحسن باشا يحثان السير بالضفة اليمنى من النيل ومعهما اربعة آلاف جندى فجعلا طليعتهما في الصف ومعسكرهما فى التبين ثم ظهرا امام طره فاجتازا أبوابها فابدى الدلاة بعض المقاومة ولكن محمدا عليا طلب اليه رؤساءهم للمفاوضة معهم فجاءوه وتفاوضوا فألبس كلا منهم كرك سمور وغمره بالهدايا النفيسة . وكان محمد على ذلق اللسان حسن البيان ماهرا فى الاقناع فألقى فى اعتقادهم انه لم يكن قط عاصيا وأن حضوره الى هذا المكان إن هو إلا للمطالبة بالنيابة عن جنوده بمتأخر مرتباتهم وحقوقهم وكان بدهيا ان يقابل هذا السعى الخيرى بالحمد والثناء

على صاحبه وهو مابدا من جانب الدلاة الذين تأكدت عرى الاخاء بينهم وبين الارنؤد فساروا معهم الى القاهرة

وما اجتاز الالبانيون أبوابها حتى انصرفوا الى مساكنهم القديمة ووقف الدلاة عند دير التين ومصر القديمة فبعث الباشا يسألهم عما دار بينهم والأرنؤود من المحادثات فقالوا له إن للألبانيين الحق فيما فعلوا وإنا لن نشهر السلاح فى وجوههم لنمنعهم من طلب حقوقهم ولا ندرى ماذا نقول غداً إذا لم تدفع الينا مرتباتنا وأرهقنا لنسكت عن المطالبة بها !

أصبح محمد على وخورشد باشا كاللاعبين بالشطرنج الرابح منهما من غلب نظيره بذكائه وأناته وصدق فراسته وكانت خزائن الولاية صفرا من المال على شدة حاجة الوالى اليه والضرائب يكاد يكون من المستحيل تحصيلها من الفلاحين لما انتابهم من ظلم المماليك والعربان ومغارمهم . وكانت ادارة البلاد لهذا السبب مشلولة الحركة والدلاة يعيثون بمصر القديمة فسادا إذ كانوا يغشون المنازل عنوة ويطردون أصحابها ويتسقطون على النساء ويخطفون الغلمان فانزعج أهل القاهرة فاغلقوا الحوانيت وعطلوا الاسواق فاشتد الضنك بالعامة فانطلقوا فى الطرقات صاخبين طالبين من الحكومة معاقبة المعتدين وكانت الحكومة من ضعف العزيمة

وسوء التدبير بحيث لا تستطيع القيام بعمل نافع فبرز للمتذمرين كيخيا الوالى وأراد التكلم بالنيابة عنه فتلقوه بالسباب وقذف الاحجار وبدا للرائى الفرق الواضح بين الوالى فى عجزه واستكانته والرأى العام في قوته المستمدة من نفوذ محمد على ومطابقة سلوكه لأوامر الدين ونواهيه ومن تزلفه اليه باحترام العلماء والشيوخ وزيارته لهم وتسلطه على الأرنؤود وتحكمه فيهم وضبطه لحركاتهم

أيقن الوالى أن فى بقاء الزعيم الألبانى إضعافا من نفوذه وحطا من منزلته فأبلغ اليه أن خطا شريفا وصل اليه فى الامس من السلطان قاضيا بتعيينه واليا على جدة ثم دعاه الى مقابلته ليطلعه عليه وليستلم التقليد في قلعة القاهرة . وكان محمد على شديد الحذر طبعا فلم يجاوب خورشد باشا الى طلبه وأظهر من عدم المبالاة ما اضطره الى توسيط جماعة من أهل الثقة لديه وألح هؤلاء عليه فلم يسعه إلا الاتفاق معهم على الاجتماع ببيت سعيد أغا للاقرار على أمر فى ذلك الشأن وتوجه محمدعلى فعلا الى الملتقي ساعة العصر يرافقه كل من حسن باشا وعابدين بك وحضر الوالى أيضا يتبعه كبار ضباطه وقرأ من فوره على مسمع من القاضى والعلماء الفرمان الوارد اليه من الدولة بتولية محمد على على جدة وألبسه كرك السمور والقاووق ولكن لما هم الوالى الجديد

بالانصراف اعترضه العساكر وأوقفوه وطالبوه بمتأخراتهم فأشار الى خورشد باشا صائحا : « هذا هو واليكم فطالبوه وهو الملزم وحده بأداء مطلوبكم » ثم أخذ ينثر على الجموع المحتشدة من الاهلين النقود الذهبية والفضية ثم ركض بجواده حتى توارى عن الانظار

وما غاب عن أعين الارنؤود حتى ثارت ثائرتهم فطفقوا يتهمون الوالى بسرقة أموال الولاية ويتهددونه بالأسر اذا لم يوافهم بحقوقهم فبذل حسن باشا جهده لتسكين ثائرتهم وتطمين خواطرهم ولما جن الليل عاد الوالي الى سرايه بالقلعة. ولم تمض أيام بعد ذلك حتى علت أصوات الأرنؤود والاهالين البعض بالتذمر والبعض الآخر بالشكوى من حيف الولاة ومغارمهم ومن توالى فرض الضرائب الفادحة من الوالي عليهم فلما كان يوم ٢٠ صفر الموافق ١٤ مايو تدفقت جموع الحانقين والمتذمرين نحو ساحة المحكمة ورأى القاضى تفاقم الامر واستفحال الشر فاغلق ابوابها وقصد سعيد آغا وكبار المشائخ الي محمد على وصارحوه بما يأتى :

- لقد استوجب مسلك خورشد باشا غضب الامة ودعا الى تذمرهم ونحن منذ الآن لانقر له بالطاعة لظلمه وكراهة

الناس له ونسأل المولى عز وجل أن ينزل به بطشه وغضبه

وأضاف السيد عمر مكرم نقيب الاشراف الى ذلك قوله :

ـ وإنا لابد لنا من عزله

فسأل محمد على .

ـ ومن تولون اذاً مكانه ؟

ـ أنت لانك محب للخير

فاستعفى محمد على من قبول هذا المنصب تواضعا وتأدبا فألح المشائخ والاعيان عليه بالقبول فلم يسعه تجاه هذا الالحاح إلا ان يحقق رجاءهم فنهض السيد عمر مكرم والشيخ عبدالله الشرقاوى واقفين والبساه كركا من السمور ثم سار الحاضرون فى طرقات القاهرة ينادون بولايته فكانت الجماهير تتلقاه بصيحات السرور والاستبشار وأصبح محمد على منذ هذا اليوم وهو ١٤ صفر ١٢٢٠ الموافق ١٤ مايو ١٨٠٥ القابض على زمام الاحكام فى مصر والمتصرف فى شؤونها

وغير حسن ان يسمى بالمغتصب من يختاره الشعب للولاية عليه ويسلم قياده اليه لان الوالى الذى تجمع الاراء على تقليده زمام الامر لاخلاف فى مطابقة توليته للشروط المنصوص عليها شرعا . وفى نوادر التاريخ أن رجلا سأل المعز لدين الله

أحد الخلفاء الفاطميين عن أصله فاستل الخليفة سيفه من غمده وقال لسائله :

هذا حسبي

ثم ملأ قبضتـه بدنانير الذهب ونثرها على الناس وقال :

هذا نسبي

أما الرجل العظيم الذى أشرنا الآن الى توليته مصر فأنا إذا سألنا جريء كذلك السائل عن حسبه ونسبه جاوبناه على سؤاله بما هو موضوع الباب الآتى بعد



الباب الرابع

قوله

من سنة ١٧٦٩ الى سنة ١٨٠٥

يسمى بعض ولايات تركية أروبا في هذه الأيام بالروملل
بدلا من (مقدونية) اسمها القديم ورتبة واليها بكلر بك أى بيك البكوات وتتبعها خمسة ولايات (باشالك). فى تلك الولايات غربى رأس أسبيروز وعلى الشاطيء الشمالى من خليج كونتسا وتجاه جزيرة طاسو التى يسميها الفرنسيون تاس واليونانيون خريز الذهبية لما تحتويه من كنوز الأحجار ولذيذ الاعناب ومتين الاخشاب الصالحة لأنشاء السفن. وفيما بين المهبر والأستريمون بنهاية سهول سرس على مسافة ١٢٨ كيلو متراً شرقى سلانيك و ٣٢٠ كيلو متراً غربى الاستانة وفرسخين من القارة ترى صخرة قائمة موغلة فى البحر على شكل الجواد وفوقها مدينة تملكها الجنويون والبنادقة زمنا طويلا... تلك هى بلدة لاكوال (الحصان) أو قوله

كانت قوله فى عهد سابق مستعمرة لجزيرة طاشيوز وكانت تسمى جالبسوس وأيضاً بوسفالا اختطها وشادها ابن ملك مقدونى تذكاراً لجواده ويحيط بقوله سور لصيانتها وبها قلعة يحرسها بعض الاجناد وفيها غير الدسدار أى قائمقام الباشا قائد لحمايتها وقاض للقضاء بين الناس وقائمقام لادارة شؤونها الادارية وهو تابع لولاية سلانيك

وهناك طريق مفض اليها من هذا السنجق يخترق أطلال إيون ثم بلدة اورفانو مقر أحد الاغوات وبها سوق لمبيع ما يزرع من القطن حواليها . وبعد أن يجانب من اليسار الآكام وسفوح الجبال التى كان يقطنها اقوام البيير يتجه نحو قمم جبل بانجه الذى يحتوى مناجم النحاس والحديد والفضة والذهب التى أورد سيرتها المؤرخ هيردوتس وقال إن توسيديد كان فى وقت ما يدير شؤونها وبعد أن يمر السائر بالقواعد الجنوبية الأولى من ذلك الجبل يجد نفسه فى طريق يكاد يكون مستقيما بين سلساتى الجبلين ويحف به من الجانبين عدد عظيم من القرى . وفيما يلى هذا الوادى الذى يبلغ عرضه أربعة كيلو مترات وطوله اربعة وعشرين كيلو متراً منحدر شديد ينتهي عند قرية بروستا . في هذا الطريق سار إكزرسيس ملك العجم على رأس جيوشه الكثيفة

قاصدا امتيبوليس وفيـه انقسمت هـذه الجيوش شطرين ليسهل عليها الايغال فى مقدونية . ومن ثم يخترق الانسان سهل فايب الذى عسكر الاعجام فيه ويمر بقرية رستشا ثم يوغل كما أوغل أولئك الجنود فى منافذ جبال سابيان وبعد مسيرة نصف ساعة فى هذا المضيق الذى يسمى اليوم دربند ى الطريق الضيق بين جبلين عاليين يصل الى مرتفع عال تتراءى له فيه المرائى البديعـة . وهى برزخ جبل آثوس وجزائر طاشيوز وساموتراس وامبروس ولمنوس وشطوط ترافية وجبالها ثم أفق البحر الذى لاحد له

ومن هناك يصل السائر من منحدر كثير الملتويات والتعاريج الى قوله التى حلى بابها الوحيد بتابوت ابيض كبير على شكل الحوض وعليه نقوش لاطينية تتضمن سيرة إحدى سيدات رومية وتمتد اليها من قمم الجبال المجاورة قنطرة لجلب الماء الصافى اللازم لسقيا سكان المدينة البالغ عددهم ثمانية آلاف نفس السواد الاعظم منهم مسلمون . وهناك موردة صالحة لرسو السفن التى ترد اليها وتصدر عنها مشحونة بمختلف البضائع

وبمقتضى الامتيازات الاجنبية الاولى احرزت فرنسا الحق فى تعيين قنصل لها لصيانة مصالحها بهذه الجهة المشهورة بخصب

أرضها . وفي سنة ١٧٧١ انشىء بها محل تجارة فرنسي كان لأحد مديريه وهو المسيو ليون نفوذ أدبى بين أهل المدينة فاغتنم هذه الفرصة لتوثيق روابط المودة والوئام بين الاوربيين والوطنيين ومنذ هذا الوقت أخذ اصحاب السفن في ثغر مرسيليا مسقط رأس المسيو ليون يصدرون الى قوله البضائع والمصنوعات ويعودون منها بالتبغ والقطن والأرز والشمع والزيت

وهناك باعث آخر يوثق بيننا وبين قوله روابط الوداد ذلك لان القلعة الحاكمة على الرأس الممتدة فى البحر تحتوى ثمانية او عشرة مدافع منها مدفع نحاس من عيار ٢٤ يحمل اسم فندوم وهذه الجملة اللاطينية Ultima ratio regum

ويحيط بالجهة احاطة الأطار بالصورة جبل سمبول الذى قال ديون كاسيوس انه يصل جبل بانجيه بالآكام الداخلية وقال ابيانوس ان فرق جيوش الجمهوريه الرومانية جاست خلالها بقيادة كاسيوس وبروتوس في زحفها على نوربانوس وديسديوس قائدى جيوش حكومة التريومفيرا الرومانية . ثم جبل هيموس الممتد الى نهر هستوس على مسافة ٢٠ كيلو مترا

وفى وسط هذين الجبلين قطع كبيرة من المرمر الشبيه فى نعومته بمرمر باروس لان مياه الامطار ما برحت تصقله بوابلها

الهتان ولأن أشعة الشمس ما فتئت تكسبه لمعانا وبياضا ناصعاً منذ الوقت الذى كان الرومانيون فيه يقتطعون منه ما يلزمهم لنحت التماثيل المخلدة لذكرى أبطالهم وفى بطون تلك الآكام الكثيرة المعادن يشتغل العمال لتزويد المصانع بما تصنعه من المقذوفات برسم البحرية والقلاع العثمانية

فى تلك البقاع تعيش أمة على الفطرة الأولى وهي في عاداتها وأخلاقها كالصخر الصلد أو أشد قسوة تساكن البزاة فى أوكارها وتشارك الجوارح في بطشها وشوكتها . أولئك القوم هم سلالة الذين عرفهم هيرودتس المؤرخ باسم الستربين وقد هبط الأراضى المجاورة لهم الفاتحون ولكنهم ظلوا كأجدادهم بعيدين عن ذل الاستعباد والخضوع لغير الاجنبي ولم يختلطوا من الأجانب إلا بقوم التشنجان البوهيميين لحاجتهم اليهم فى صناعة الآلات اللازمة لهم . وكان من عاداتهم متى أقبل فصل الربيع أن يدعوا الزعماء ،وهم جميعا من الشيوخ ، الشبيبة الحربية الى التفرغ للملاذ والطعام والشراب قبل اقبالهم على سنة سيقضونها فى القتال وأن يأخذوا من أهل القرى الاطعمة والانبذة بالقوة القاهرة ومن الرعاة ما يروق لهم من الاغنام ومن خيام البوهيميين من شاءوا من النساء . فاذا ما هيئت الاطعمة جلسوا متربعين حلقات حول

الخراف التى تدار فوق النار مثبتة فى محور من الخشب يرتكن طرفاه على رافعتين فيتناولون منها ومن الوان الاطعمة الحلوية المصفوفة على مرتفع من أغصان الاشجار يقوم لديهم مقام الخوان ويتعاطون اكواب الشراب . وبعد أن يصيب كل منهم ما يريد مثلت أمامهم بالحركات والاشارات المناظر المثيرة للأشواق فمن كان راغباً منهم فى الخطران بالسلاح فعل ومن أراد منهم اللحاق بالراقصات اللائي اثرن في نفسه كوامن هذه الاشواق اقتفى آثارهن فى الغابات الكثيفة المجاورة للمكان. ومن ثم ترى أن إحياء طقوس باكوس اله الخمر التى كانت شائعة فى سالف الازمان مابرحت مرعية فى هذا الاوان . وعلى أثر ذلك ينقسم المحتفلون فرقا وجماعات كل فرقة أو جماعة خمسون نفساً ثم يدأبون اليوم التالى على السير فلا يقفون الا عند حدود رودوب

يسمى اولئك الرجال الآن بالجوفندجيه وهي كلمة فارسية معناها الوثابون لانهم على أهبة مستمرة للقتال والفرار والعيث ترى الواحد منهم يكتفى لاتقاء زمهرير البرد بالكبوت وللقتال بحملقة العينين والوقوف وقفة الكبرياء والصلف والتحرك بحركة التهديد والارهاب وحمل البندقية الطويلة لايضعها عن كتفه ليلا ولا نهارا واناء البارود الذى يسع منه مازنته رطلان ونطاق

الخرطوش والرصاص والخنجر الشبيه بخناجر الاجداد . واعتبر توسيديد أولئك الجبليين من قوم السيتالسيس الذين كانوا أعوانا لملوك البلغار وخصوما للعالم الرومانى فعلى مرسح هذه الحوادث الجليلة وتحت سماء أولئك الرجال الأقوياء وبين تلك الغرائز الخشنة والطبائع الجافة ولد المهيج العظيم والممدن الكبير للشرق، ولد محمد على سنة ١١٨٢ هجرية الموافقة لسنة ١٧٦٩ ميلادية التى اخرجت للعالم الغربى (بونابرت) و (شانوبريان) و (كوفييه) و (سولت) و (بليار) و (نى) و (لان) و (وهمبولدت) و (شيلر) و (ولترسكوت) و (بروغام) و (كانن) و (ولنجتون) وغيرهم من فحول الرجال

كان والد محمد على وهو تركى الأصل رئيسا للحرس المنوط به تأمين الطرقات وكان اسمه ابراهيم آغا واتفق ان رأت والدته قبل وضعه فيما يرى النائم ما فسره لها البوهيميون بانها ستلد ولداً يتم له الغنى والجاه والشوكة . فلما كبر ابنها وترعرع أخبرته بما رأته فظل حافظاً في ذاكرته هذه النبوءة الصالحة التى بثت فيه روح الأمل فرجا وأمل . وليس بغريب أن يسمو مثله الى الآمال العظيمة فانما وطنه وطن الاسكندر الاكبر ووطن بطليموس واسمه كاسم النبي مشتق من الحمد وليس فى هذا وذاك

إلا ما يفيد معنى السمو والعظمة . والآن وقد فاز بهذه المزايا وجاءت له الأمانى منقادة فلنترك والى مصر الجديد يترجم بلسانه ماسلف من حياته. قال :

« رزق والدى بسبعة عشر ولدا لم يبق له منهم سوای إذ مات تسعة منهم وهم الذين قبلى فى إبان العمر وهو ما جعل والدى يحوطنى بحنانه وحبه وكان رفاقى فى الطفولية يهزأون بى فى أغلب الاحيان ويلقون فى أذنى الجملة الآتية التى إن أنس لا أنسى قط مرارتها . كانوا يقولون اننى اذا فقدت والدى فمن ذا الذى يعولنى وماذا يكون مصيرى وإننى لا أملك شيئاً ولا اصلح لشيء ! فأثرت هذه الكلمات فى نفسى تأثيرا جعلنى اعقد النية على تحسين حالتى بتسلطي التسلط المطلق على نفسي . واتفق لى اكثر من مرة أن أقضى يومين متعاقبين فى الركض وتحمل العناء ولا أصيب فيهما الا القليل من النوم والغذاء وما زلت كذلك لا أذوق للراحة طعما حتى فقت اقرانى فوقا عظما وسبقتهم سبقا محسوسا فى صنوف الرياضة البدنية . واذكر أنه كانت هناك مسابقة بالتجديف فى وقت كان البحر فيه مضطربا بالامواج وكان موضوع المسابقة الوصول فى زورق الى جزيرة قريبة من الساحل فلم يسع المناظرين لى وقد أعياهم التعب الا العدول عن المسابقة

أما أنا فقد سال الدم من كفى لأصابة الغرض فلم التفت الى ذلك حتى وصلت ولقصب السبق احرزت . وتلك الجزيرة هى الآن من املاكى » (وهى جزيرة طاشيوز)

ولما توفي ابراهيم والد محمد على كفله عمه طوسن آغا وحدث أن ذهب هذا العم ضحية انتقام الباب العالى منه فى أمر ما فاصبح محمد على يتيما من أبيه ومحروما من كفالة عمه فاحتضنه جوربجى المدينة ورباه مع ابنه . وكان المسيو ليون الذى سبق لنا الكلام عليه بقولة فلما رأى من ذكاء ذلك الغلام ما أعجبه أحبه حباً لا يقل عن حب الأب ابنه ، ولعل هذا سبب الميل الذى طالما أبداه صاحب مصر للفرنسيين طول حياته . على أن محمدا عليا لم ينس قط أحدا ممن واسوه فى كربه . فلقد بعث سنة ١٨٢٠ رسالة ودادية الى المسيو ليون يدعوه فيها الى زيارة مصر فحدث لسوء الحظ أن وافته المنون فى اليوم الذى عينه للأبحار من مرسيليا فلم يسع الباشا عندئذ إلا تعزية أخته تعزية جميلة ومساعدته إياها بمبلغ من المال

وما من فرصة لاحت لمحمد على منذ طفوليته إلا واغتنمها لاظهار ماخصه الله به من سعة الحيلة وقوة الارادة ومضاء العزيمة فمن ذلك أن احدى القرى التابعة لقوله أبت دفع ما عليها من

المال للجوربجي الذي كفله بعد عمه فاقترح عليه محمد على ان ينفذه لقضاء هذه المهمة قائلا : « لا أطلب منك سوى عشرة عساكر يأتمرون بأمرى »

فاجابه الجوربجى الى طلبه وكان قد أعجبه منه إصراره وتشبثه وصدق عزيمته وأطلقه من كل قيد وأباح له كل وسيلة لتحصيل المال فقصد فى الحال من فوره فى ذلك النفر القليل الى مسجد بروستا . فبعد ان أدى فريضة الصلاة استدعى اليه أعيان البلدة الأربعة منتحلا لذلك سبباً استفزهم الى المبادرة بالحضور وما كادوا يصلون اليه حتى شد وثاقهم وعاد بهم الى قوله متهددا بخنجره كل معترض أراد تخليص الأسرى من يديه . وما أشرقت شمس اليوم التالى حتى دفع المال المطلوب فأطلق سراحهم . وحينما رأى الجوربجى هذه الحيلة المبنية على الجسارة والاقدام رفعه الى رتبة بلوك باشي وزوجه من قريبة ثيبة له ذات ثروة وكان ذلك سنة ١٧٨٧ فرزق محمد على منها بخمسه أولاد ثلاثة ذكور وهم ابراهيم وطوسن واسماعيل . وكان ميلاد ابراهيم سنة ١٧٨٩ المعروفة بحوادثها السياسة الكبرى فى فرنسا وكان زوج والدته الاول لايزال على قيد الحياة فأشاع الحسدة واللاحون لهذه المناسبة أقاويل زعموا فيها ان ابراهيم ابنه لا ابن محمد على وانما

تبناه هذا بعد تزوجـه من والدته وبلغ من تحمهم وسماجتهم فى الزعم الباطل ان انتحلوا تاريخا سابقا على هذا الزواج تارة بثلاثة عشر عاما وطورا بسبعة وعشرين وأصحاب الزعم الأخير يؤيدونه بان محمدا عليا أحب فى سنة ١٨١٦ ان يسد الفراغ الذى تركه طوسن باشا بموته فتبنى ابراهيم باعتبار انه أقرب الناس اليه بعد أبنائه . وذهب بعض المتخرصين واصحاب الغرض الى أبعد من ذلك فقالوا إن الوالى لم يرزق بولد قط فى حين انه رزق غير الاناث بسبعة ذكور

وعلى أثر زواج محمـد على تفرغ لتجارة الدخان فربح من المال ما ألقى فى قلبه من حب التجارة ما لازمه طول عمره ، غير أن الاعمال الحربية كانت من ناحية أخرى تجذبه اليه وكان كلما وجد فراغا من الوقت اهتم بها الاهتمام الشديد

ولما حشد الباب العالى الجنود لاخراج الفرنسيين من مصر كان جوربجي قوله ممن طولبوا بتقديم بعض الجنـد فحشد ٣٠٠ نفس وارسلهم الى مرمريس لركوب السفن . وكان قد قلد ابنه على آغا القيادة العليا على هذه الفصيلة وجعل محمدا عليا نائبه . فلما وصلت السفن الى أبو قير ونزل الجنود منها رأى على آغا بعد الذى عاناه من اهوال السفر فى البحر والحرمان المهلك فى رمال

ابى قير ان ذلك كافٍ ليقال عنه إنه قام بالواجب عليه ، فعجل الأوبة الى الرومللى تاركا قيادة الفصيلة لنائبه محمد على الذى شعر كأن الارض المغنطيسية التى جذبته اليها ستكرم مثواه وتقدر قيمته ولقد اتيح له بعد وقائع ابو قير النزول في ميدان القتال مع الجنرال لاجرانج بالقرب من الرحمانية ورأى رجاله يجندلون من حوله بعضهم تلو بعض ولـكن ذلك لم يفل شوكته اذ حمل الحملات الصادقة فظفر وعهد اليه قبطان باشا بالهجوم على حصن الفرنسيين فلما كان آخر الليل استتر بالظلام فتسرب الى استحكاماتهم ولبث يتسمع فلم يطرق أذنه همس فغشيها ولشد ماأسف حينما درى انهم غادروها

وفى أوائل ١٨٠١ رقى قبطان باشا محمدا عليا الى رتبة القيادة (صارى جشمه) ولقد عرفنا الحوادث التى تلت هـذا التعيين فلا حاجة بنا الى تكرارها وانما نقول ان توفقه للنجاح والفوز دائما كان النتيجة الملازمة لجرأته وشدة بأسه ومضاء عزيمته. ولا جرم فهو الذى قلب العثمانيين في مصر بالمماليك والمماليك بالارنؤود والارنؤود بالمصريين فكان الفوز الأخير لهؤلاء وقد بهر ببراعته أربعة من الولاة واسقطهم جميعاً من كرسى الولاية

وخلفهم فيه بلا خوف رغم تزلزله وتزعزعه وقد قال أحدهم لهذه المناسبة « إذا كان الجلوس على كرسي مصر ملحة طريفه فالبقاء فيه معجزة نادرة » ولقد سبق لنا ان تكلمنا على الملحة فلنتكلم الآن على المعجزة



الباب الخامس

محمد على والياً

سنة ١٨٠٥ — سنة ١٩٠٦

قصد وفد الى خورشد باشا ليبلغ اليه تعيين محمد على والياً على مصر فأجاب :

- ليس بمصر وال سواى بمقتضى الفرمانات الشاهانيـة والخطوط الشريفة ، لهذا لن أصادق على العزل الذى قرره فى حقى الفلاحون ولن أبرح القلعة إلا بأمر من الباب العالى

ثم أخذ ينقل الى القلعة الماء والحبوب والبقسماط وكل ما استطاع أن يجمعه من الميرة والعلوفة حتى اذا تمت له هـذه الأهبة أغلق على نفسه الابواب وفى معيته المخلصون من جنده وعددهم ١٥٠٠ نفس

واحتشد الاهلون متسلحين بميـدان الازبكية فى الوقت الذى كان المشائخ فيه يحررون بالمحكمة بيانا بتعاليل ما أقروه ضد خورشد باشا لصالح محمد على . وكلف تترى بحمل هذه الرسالة

الى الاستانة بعد ان صادق القاضى عليها . وشرع اهل القاهرة وحاميتها بعد ذلك يحصرون القلعة ويقيمون الاستحكامات ويضعون الرماة فى مآذن مسجد السلطان حسن القريب من القلعة وطاف الاعيان والمشائخ الذين كان السيد عمر مكرم خير قدوة لهم همة ونشاطا شوارع المدينة وأحياءها المختلفة لتوطيد الأمن وبث السكون وأذاع محمد على باللغتين التركية والعربية أمرا الى أعوانه الأرنؤود أن يكونوا على يقظة فى بيوتهم اثناء الليل وان لا يزعجوا الناس ولا يقابلوا القوة بالقوة إلا فى احوال الاعتداء التى لا تجدى فى صرفها وسائل الحسنى . ولقد وقع اعتداء من هذا القبيل عند باب زويله بين فريق من الالبانيين وجماعة من العمال استعملت الشدة فى دفعه بعد فشل المساعى الودية فلم يتسع نطاقه

أما خورشد باشا فلم يغفل لحظة عن تدبير الوسائل المعززة لمركزه فى هذه المحنة إذ كتب الى زعيم الدلاة فى القليوبية يخبره بنفاد المؤن والذخائر من عنده وبما اصبح فيه من العجز ويدعوه باعتبار أنه الممثل للحضرة الشاهانية الى نجدته والانتقام له . فلم يكن منه الا ان حمل الرسالة الى محمد على وقدم اليه هو وكبار طائفته الطاعة والأخلاص فغمرهم جميعا بالنعمة وألبسهم

السمور واتحفهم بنفيس الهدايا . واتخذ الوسائل بعد ذلك لارغام القلعة على التسليم فعززت الاستحكامات بالجندرمة وضوعف عدد الحماة فى المراكز التى هي مظنة الضعف ونصب مدفع هاون على المقطم ونقل من حصن (كامين) وهو اسم ضابط فرنسى قتله العربان مدفعا من عيار ١٨ نصب أمام باب الوزير واطلقت بعد ذلك المدافع فجاوبتها القلعة بالمثل وكانت همة القائمين عليها اثناء خمسة عشر يوما تباعا إلقاء المقذوفات على قصر محمد على وبيت حسن باشا والجامع الازهر

وكان خورشد باشا من القوة والمناعة بحيث يستطيع المقاومة زمنا طويلا لا سيما وقد بلغت بعساكره الجرأة الى تسلق الاسوار بسلالم من الحبال لنهب المأكولات من المساكن المجاورة وكان سلحدار خورشد باشا معسكراً بمصر القديمة والقرى المجاورة لها وكان مهيمنا بمركزه هذا على المراكب النيلية فاستطاع تموين القلعة من سورها الصغير المواجه للصحراء واتفق فى ليلة ١٨ صفر الموافق ١٨ يونيو أن فوجئت قافلة مؤلفة من خمسين جملا كانت تحمل المأكولات الى القلعة من ذلك الطريق فاستولى عليها واحد من أبطال المحاصرين يدعى حجاج الخضرى بان قتل رجلين من حراسها وأسر ثلاثة ساقهم الى محمد على . فأمر هذا

برمى رقابهم ليكونوا عبرة لغيرهم . وكان محمد على يعلم ان الالبانيين ميالون بفطرتهم الى الاغراض ومتشددون فى المطالب ومصدقون للوشايات والاشاعات فأيقن انهم غير أهل لثقته وقد جاءت الحوادث مؤيدة لسوء ظنه فيهم فان بعض القائمين منهم على المدافع بميدان الرميلة توقفوا فجأة صبيحة ذات يوم عن إطلاق النار بحجة مرتباتهم المتأخرة . ولم يكن في خزينته مال يومئذ فاقترض عشرة اكياس اى ٢٥٠٠ فرنك من المسيو (مانجن) الفرنسى ودفعه فاستأنفوا عملهم

وطرأت بعد ذلك حوادث جاءت مؤيدة لهذا الانقلاب فقد وصل فى فجر ٣٠ ربيع الأول الموافق ٢٨ يونيو قاصد وعلى يده مكتوب يفيد ان القابجى باشا صالح آغا كبير أمناء جلالة السلطان وصل الى الاسكندرية واعربوا عن سرورهم وتفاءل أهل القاهرة خيرا بما وقع من الحوادث فأعربوا عن سرورهم باطلاق المدافع التى ماسمع خورشد باشا وسلحداره دويها الشديد حتى اعتقدا ان معركة هائلة قد شب ضرامها بين سكان القاهرة والجنود فسيرا فى الحال فرقتين من الجنود لم تلبثا بعد اصطدامهما بالجموع أن تراجعتا منهزمتين وفى ١٢ ربيع الثانى الموفق ٩ يوليو دخل القابجى باشا مدينة القاهرة وكذلك سلحدار الصدر الأعظم

المنوط به تحقيق الحوادث بالدقة وتقريرها بالضبط فعقد مجلس من الشيوخ قرئت فيه عليهم الرسائل التى مع القابجى باشا فاذا بها تقلد محمدا عليا ولاية مصر التى كان قد تقلدها من قبل على يد العلماء والأهلين وصدر الامر فى الوقت نفسه الى خورشد باشا بالسفر الى الاسكندرية وانتظار أوامر الباب العالى فى أمره فلما اطلع عليها أجاب بانه تولى منصبه بخط شريف فلا يتنحى عنه إلا بخط مثله لا بفرمان بسيط . على انه قد عقدت هدنة بين الطرفين وفتح الازهر واستأنف العلماء والطلبة الدرس وأمر محمد على الأهلين بمزاولة اعمالهم

غير ان خورشد باشا استدعى اليه الامراء المصرلية أى المماليك ووعدهم بتقريرهم فى امتيازاتهم القديمة واتفق معهم على امور بواسطة سلحداره المعسكر بالجيزه فنقلوا خيامهم الى دير التين ليتصلوا مباشرة به فسار محمد على بمشاته وفرسانه وتبعه حسن باشا وعابدين بك وعسكر بالبساتين فلما شهده المماليك فى حشده تراجع بعضهم الى طره وعاد الآخرون الى الجيزة وتحرك هو بجيشه الى مصر العتيقة . وقد شهد جنوده هناك فارساً يسير فى الطريق الموصل الى القلعة فقبضوا عليه فاذا معه رسالة ببيان الخطة المرسومة للهجوم الآتى على محمد على ومما جاء فيها :

«فى الغد سنشق كبد الفضاء بسبعة أسهم نارية فمتى شهدها صاحب السمو نائب الباب العالى فى مصر أمر بضرب المدينة بالمدافع ورمى سراى محمد على بقنابلها وعبرنا نحن النيل الى مصر العتيقة ودار البرديسى من وراء المقطم ليدخل القاهرة من طريق العدلية وتعاقب الامراء سراعا من طره وهناك ما يدعو الى الامل فى أن الأهالى سيجنحون الى الثورة إنجاحاً لمشروعنا العادل»

وكانت الرسالة الى خورشد باشا بامضاء سلحداره ويس أحد بكباشيته فلما ألم محمد على بمضمونها غضب وأمر برمى رقبة الفارس وهو رجل كردى بالرغم من رجاء القاضى فيه . أما مماليك الوجه القبلى فقد انضموا الى جيش خورشد باشا وأمسكوا عن العداء إلا واحدا منهم وهو يس بك فانه أوغل فى جزيرة الروضة فى مائة من رجاله فاستولى على ثلاثة مدافع ولكن الالبانيين المعسكرين بمصر القديمة استردوها منه

ومنذ ٢٠ ربيع الثانى الموافق ١٧ يوليو كان اسطول قبطان باشا المؤلف من ثلاث سفن وثلاث فرقاطات وحراقة تقل ٢٥٠٠ جندى برى ما زال راسيا فى مياه ابو قير فوصل سلحدار أمير البحر العثمانى فى هذه القوة الى العاصمة ومعه فرمان بتقليد محمد على ولاية مصر ورسالة تأمر خورشد باشا بمغادرة القلعة

والسفر الى الاسكندرية ، فلم يبق عنده اقل ريب فى نية الباب العالى نحوه ، وعقد اجتماعا حضره سلحدار قبطان باشا وكان قد ذهب اليه ومعه القابجي باشا صالح آغا فاكد بانه يطيع الامر السلطانى اذا اعطى ٥٠٠ كيس اقترضها قبلا من كبار جنوده وقال انه بغير هذا المبلغ لايستطيع سداد دينه لانه لايملك من الدنيا سوى الثوب الذى يستر عورته

فأخذ محمد على الدين على عهدته ، إلا أنه لم يأت الموعد المضروب لتسليم القلعة وخروج الوالى المخلوع منها حتى قال هذا إنه لن يبرحها ولن يخرج أحدا ممن فيها سوى النساء والاطفال . وفى فجر اليوم التالى اطلقت ثلاثة مدافع منها لم يبلغ دوى طلقاتها الى مسامع حامية الجيزة حتى تحركت الى امبابه ومعها اربعة مدافع فلما وصلت تجاه بولاق أطلقت القنابل على جهة الجمرك فيها فبادر محمد على ساعتئذ بالتوجه الى امبابه في شرذمة من رجاله واحتلالها قبل أن يصل العدو اليها . وصعد سلحدار القبطان باشا والقابجي باشا مرة أخرى الى القلعة فوعد خورشد باشا بعد مفاوضات طويلة بالجلاء عنها فى ثلاثة ايام فلما كان يوم ٧ جماد الأول الموافق ٣ اغسطس تولى حسن أغا قيادة الجيش بالنيابة عن محمد على وبرح الوالى المخلوع القلعة فى اليوم التالى من باب الجبل وسار

بضاحية المدينة حتى بلغ الى بولاق فنزل مع أسرته فى قنجات أقلعت الى رشيد وكانت مدة ولايته ستة أشهر ونصف وولى وخلع على يد خلفه في كرسى الولاية

ولقد كان فرض الضرائب والمغارم فى غير أوانها واتخاذ وسائل الاكراه والشدة فى تحصيلها من الاسباب التى خضدت شوكة المماليك وزعزعت خورشد باشا . وكان محمد على موقنا بهذه الحقيقة لا تداخله ريبة فى شأنها عالما بما هنالك من ضرورة ايجاد موارد ثابتة للأيراد يغترف منها المال اللازم لأدارة شؤون البلاد فرأى أن أول شرط لأصابة هذا الغرض رعاية الانصاف فى جباية الأموال فعول على أن لا يقرر ضريبة إلا بعد ا تشارة العلماء في أمرها وان تكون معاقبة المذنبين وشركائهم فى الجرائم العادية بالغرامات الفادحة ومصادرة الاموال وقبض بيد من حديد على نواصى الجباة والقيمين على الاموال الذين جعلوا همهم الاستفادة من المصائب التى تحيق بالجمهور والزم الاقباط واليونان بأيقافه على حساباتهم وحتم على الملاحظ جرجس الجوهرى دفع ٤٨٠٠ كيس أى ١٢٠٠٠٠٠ فرنك كان قد استولى عليها بغير حق ولكى يبث في نفوس العساكر الشعور بالواجب واحترام كرامة الوطن عذب ضابطا ثبتت عليه تهمة التجسس لحساب العدو

ومثل به فى ميدان الرميله الذى جعله مكانا لاعدام المجرمين من الجند . وكان المماليك يجوسون من آن الى آخر خلال ضواحى العاصمة فاتفقوا على حصرها ثانياً إلا ان محمدا عليا نصب لهم كمينا دفعهم الطيش والغفلة الى السقوط فيه

فقد كان بعض الشيوخ والقواد يراسلون الامراء سراً ويجهرون فى كتاباتهم بأقوال لم يرعوا فيها الاحتياط فمن ذلك الوعد بادخالهم المدينة وإثارة الجمهور وحضه على مشايعتهم والمطالبة بأقامة ملكهم . وعينوا لتنفيذ هذه المؤامرة نفس اليوم الذى قرر الباشا فيه الخروج فى هيئة جليلة من الجند للاحتفال بقطع الخليج . فلما كان ٢١ جمادى الأولى الموافق ١٨ اغسطس تقدم ٤٠٠ من المماليك بقيادة ستة من البكوات نحو باب الفتوح وكان بعض العامة قائمين على حراسة هذا الباب ففتحوه لهم من غير مشقة فلما رأى المماليك أن ليس بالباب من يحول بالقوة دون مرورهم ساروا فى الطرقات سير المنتصر الظافر وأمامهم الطبول والابواق ولكنهم ما كادوا يصلون الى باب زويله حتى اطلق المغاربة عليهم النار فارتدوا على أعقابهم والتمسوا الخروج من الباب الذى دخلوا منه ولكن خاب أملهم إذ وجدوا كل المسالك مسدودة فى وجوههم وان لا طريق ولا زقاق إلا

وفيه الجند من اتباع محمد على وأيقنوا بالخطر فضاع صوابهم وخانتهم بسالتهم المعهودة فترجلوا عن جيادهم وحاولوا تسلق الأسوار أو التماس المساجد للياذ بها وتيسر لاثنين منهم الالتجاء الى بيت الشيخ عبد الله الشرقاوى فوجدا به اربعة من البكوات وكاشفاً كانوا قد قصدوا اليه قبلهما على اعتقاد انه من حزبهم وقد استطاعوا بما قدم اليهم من الجياد النجاة بحياتهم إذ تركوا المدينة من ورائهم بعد فرارهم من باب الغريب . أما الباقون فقد وقعوا جميعاً بين قتيل وأسير

ولم يشهد محمد على هذه المذبحة ولم يشترك فيها بذاته فلما جىء اليه بالاسرى وليس عليهم من الثياب الا ما يستر عوراتهم ومن بينهم احمد بك محافظ دمياط سابقاً أخذ يتأمل فى هذا الرجل الذى كان من ألد خصومه وقال مسروراً :

— ها أنت قد وقعت فى الفخ

فلم يجاوبه بل رمقه ببصره ثم سأل ماء ليشربه ففك الحراس وثاقه وقدموا اليه قلة ماء فلم يتناول احمد بك القلة بل اختطف بيده خنجر اقرب الأغوات اليه وانقض على الوالي يريد قتله ولم يفلت هذا من الطعنة الا بعناية من الله . وحاول الجنود تسكين ثائرة الرجل وكبح جماحه فلم ينجحوا حتى انه تمكن من

قتل أربعة أو خمسة منهم بطعناته . ولما رأى محمد على هذه الخيانة كبل زملاءه الاسرى بالقيود والاغلال وزج بهم فى سجن واطئ وفى اليوم التالى جئ بالجزارين فأخذوا يحشون بالتبن جماجم قتلى المماليك على مرأى من أولئك الاسرى الذين قطعت رؤوسهم بعضهم تلو بعض ولم يستثن منهم سوى حسن بك شبكه وكاشفين افتدوا انفسهم بأموالهم المخبوءة فى منازلهم وتلقت حكومة الاستانة الرؤوس المحشوة برهانا على فوز الوالى فعلقت بأسوار السراى السلطانيـة

وكان المماليك بعد تلك الكارثة متعطشين للأخذ بالثأر كما كان محمد على ينتظر بشغف عظيم اتمام العمل الذى ابتدأه فى ١٨ اغسطس بأبادة المماليك جميعا فسير لهذا الغرض ٢٥٠٠ ارنؤودى بقيادة عابدين بك لمهاجمة ابراهيم بك وابنه مرزوق فى طره وما حواليها فصد الاثنان الهجوم فتراجع الالبانيون الى مصر القديمة تاركين نحو الثلث منهم بين قتيل وجريح ولكن هـذا الفشل القليل الأهمية تبعته سلسلة غير منقطعة الحلقات من الانتصارات الباهرة

ورأى الوالى التعجيل بسقوط الجيزة فنصبت المدافع لهذا الغرض فى جزيرة الروضة واصلت حامية المماليك نارا حامية غير

أنها قاومت بمنتهى الشدة والعنف وكانت كارثة المماليك في القاهرة قد زعزعت يقين سلحدارهم بالجيزة فى الفوز فألقى السلاح من يده فى ٢٧ جمادى الثانى الموافق ٢٢ سبتمبر وانطلق يروى على الأمراء خبر فشله ثم قصد الى الاسكندرية ليدرك سيده خورشد باشا . أما عساكر الحامية فقد عفا محمد على عنهم جميعاً وانتقل يس بك وبقية الزعماء بطوعهم واختيارهم من خدمة المماليك الى خدمة الوالى .

وكان بقاء الدلاة على ضفاف النيل سبباً مستمراً لحدوث الفتن والسرقات فلما بلغهم نبأ تسيير حسن باشا اليهم فى ألفى مقاتل عادوا بقضهم وقضيضهم الى بلاد الشام مذعورين بعد أن أخذوا معهم بضع مئات من النساء والاطفال والجمال

وما كادوا ينصرفون الى أوطانهم حتى تبددت من سماء الحوادث فى مصر السحب المتلبدة وبان أديم السماء عند الأفق نقياً صافياً . ذلك أن قبطان باشا استهوته دلالات الاخلاص وآيات صدق الانتماء والأنعم المترادفة من الوالى الجديد فخرج من دائرة الشك الى دائرة اليقين ومن التردد الى الجزم وأخبر الديوان باعتدال الأمور فى مصر واستقرار الأمن فى نصابه وتجلى أمارات السعادة والهناء فى البلاد بما وضعه ذلك الوالى من

الأنظمة الحكيمة لجباية الاموال من غير إرهاق ولا إزهاق فلما استوثق الباب العالى من قوله أمره فى أول شعبان الموافق آخر اكتوبر بالعودة الى الآستانة فتحرك الاسطول مقلا خورشد باشا الذى كان قد جاءه التقليد بقيادة أحد فيالق الجيش المحارب لروسيا . ولقد عين عقب هذه الحرب والياً على حلب فطرده الأهلون منها ولكنه عاد اليها بعد حصرها ونكل بأهلها عقابا لهم ثم عهد السلطان اليه بقمع ثورة والى يانيا فقام بمهمته خير قيام إلا ان السلطان ارتاب فى أمانته فرمى عنقه بتهمة أنه اختص نفسه بأموال هذا الوالى

ولا ننس أن نذكر النبوءة الخطيرة التى تنبأ بها قبطان باشا قبل رحيله بستة أيام فقد كتب فى مذكراته ما يأتى :

« إنى اترك خلفي رجلا سيصير أكبر زعماء الدولة واعظمهم خطراً . وما رأيت من سلاطيننا في حياتى كدهائهم في السياسة الحاضرة ولا نشاطا وهمة من حاكم كنشاط محمد على وهمته »

وكان المماليك قد استولوا فى هذه الاثناء على أسيوط وهزم ألفي بك فى الفيوم أحد رفاقه الاقدمين في السلاح وهو يس بك الذى جاء في ١٥٠٠ عسكرى لاحتلالها والقبض على زمام إدارتها كـكاشف لها من قبل الوالى الجديد . وقد غاظه هذا

الفشل ففجأ تحت جنح الظلام عند قنطرة اللاهون جمال شاهين بك أحد أتباع ألفى بك وهى محملة بالامتعة ولكنه لم يلبث أن عرته هزة حب الاستقلال فانضم الى سليمان بك كاشف جرجا وحارب معه بالقرب من ملوى . وما نمي هذا الخبر الى الباشا حتى غضب غضباً شديداً وأخذ الامتعة وطرد والديس بك الذى ثبتت عليه الخيانة مرتين وقبض على اثنين من ارباب الدسائس والفتن وهما اسماعيل بك أحد ضباط الباب العالى وعثمان أغا خازندار خسرو باشا سابقاً ثم قصد بألفي جندى مات ستون منهم اثناء عبور ترعة كثيرة الطين قاصداً الى الأهرام فطهر أنحاء الجيزة من المماليك ولصوص العربان واستولى على بنى سويف بواسطة البكباشيين عابدين بك وصالح كوش

وأنشأ محمد على معسكرين أحدهما بالجيزة والآخر بطرة وبعد ان قضى بضعة اسابيع بالقاهرة في التماس الراحة انقض على الضفة اليسرى من النيل ليحمي الفلاحين من غارات شاهين بك مملوك الالفى الكبير وخليفة الالفي الصغير الذى توفى بداء الصدر فى المدينة .وتلقى طاهر باشا الامر بالزحف على امبابه أما حسن باشا فسار بامر الوالى الى الصعيد فى ألفي ألبانى وألف فارس من الدلاة بعث بهم الى القاهرة يوسف باشا والى دمشق فالتقى

قريبا من الرقة بقوى ألفي بك المؤلفة من ٣٠٠ مملوك وفصيلة من المشاة العثمانيين و ٦٠٠٠ بدوى . فانكشفت المعركة عن خذلان حسن باشا الذى قتل من رجاله ٣٠٠ جندى ورئيس الدلاة وكيور يوسف أشجع بكباشى فى جيش الوالى وتحرك ألفي بك بعد ذلك الى كرداسة حيث خيم بعسكره فاستأنف حسن باشا السير في طريقه حتى وصل الى بنى سويف بدون ان يعترضه أحد وهناك بعث بمن معه من الدلاة الى معسكر طاهر باشا

وانزعجت الخواطر فى القاهرة لفوز العدو إذ كان يكفيه لدخولها ان يعبر النيل وقد قوى جانبه لتواتر انهزام الارنؤود امامه ولكن لم يلبث ان برز له الفرسان الباقون فى القاهرة والوجاقلية وآغا الانكشارية فكان من نتائج هذه الحركة ان ارتد ألفى بك على أعقابه الى اقليم البحيرة. واحتل كل من ابراهيم بك البرديسى وعثمان بك حسن مدينة أسيوط وحصرت طلائعها المنيا فبعث عابدين بك الى حامية هذا الموقع بالمدد من الجند والمؤن والذخائر وما وافتها الاخبار بدنوّهم حتى بادرت بالبروز اليهم فاقصتهم عنه ومكنت الامداد من الانضمام اليها . وحدث ان بكباشيا من الألبانيين اسمه رجب انضم الى معسكر ألفى بك بأربعمائة من رجاله طمعا فى مال وعد به منه ولكن هذه

الخيانة جاءت بجليل المزايا لانها بثت روح الحماس والهمة فى الجنود الصادقين الذين لا تؤثر فى نفوسهم الوعود الخلابة ولا يبيعون ذممهم بالمال. فمن ذلك ان طبوزا وغلو الذى رفعه محمد على باشا الى رتبة كيخيا أحب القيام بشكر هذه النعمة فسحب جنوده من امبابه واقتفى مع طاهر باشا أثر الفى بك وناوشه حتى عطل زحفه على الطرانة وحوش عيسى ودمنهور ووقعت خلال ذلك حوادث وطرأت ظروف طرحت بسببها على بساط البحث مسئلة سيادة الباشا. لانريد بها الفتنة المخجلة التى قام بها البكباشى عبدالله وعساكره المتشردون بارتكابهم صنوف المقابح والمخازى ضد نساء بولاق وسلبهم الناس اموالهم وقطعهم الطرقات فى رابعة النهار وإفسادهم بما ارتكبوه من الفظائع ضاحية المنصورة فلقد اكتفى الوالي بنفى هؤلاء العائثين العابثين ونثر عليهم خزنداره ملء يديه من قطع النقد ليقذف بهم الى ماوراء الحدود السورية فكان شأنهم شأن الكلاب التى ترمى بكسرة الخبز لاتقاء شرها وانما نريد ما نحن مسطروه فيما يلى وهو من الاهمية على ماسيرى القارىء

غير خاف ان الأسرة الجديدة التى استلمت مقاليد الامور قد اثارت الخوف فى نفس الباب العالى الذى أصبح تجاه هذا الحادث الجلل لايجرأ على الامل باخضاع رأس تلك الاسرة إخضاع

المسود الدافع للجزيه صاغرا فاذا كان الباب العالى قد صادق على اختيار محمد على واليا على مصر فانما هو لعجزه عن النزول معه فى ميدان . وبالرغم من ان الحكومة العثمانية أرسلت الى مصر سبعين تتريا مع القابجى باشا وصلوا اليها فى أول ابريل ١٨٠٦ ليقدموا الى محمد على الاذناب الثلاثة وشارات الولاية وعلاماتها والهدايا النفيسة وخلعة التقليد فانها بما عرف عن سياستها من الدهاء والعمل فى الخفاء كانت تعمل على تقويض سلطة ما برح المماليك يحاربونها علانية والى أجل غير مسمى ويدسون لها الدسائس بدافع الحسد والغيرة . وكانت انجلترا تؤيد المماليك منذ وعدها الألفي أثناء اقامته فيها بثغور مصر فى مقابل مساعدتها إياه على التحكم فى شؤون البلاد والعباد ولقد خدع هذا الوعد فريق المتجرين بالسياسة من الانجليز لأيثارهم الحصول على طريق الى الهند لا ينازعهم فيه منازع على التفاوض مع رجل صادق محنك كمحمد على باشا لا يرضى المماكسة فيما له مساس بمستقبل البلد الذى بيده زمامه حتى أنهم كانوا لا يكفون فى مذكراتهم الى رئيس افندى أى مشير السلطنة عن وصف والى مصر بالعصيان وتصوير ألفي بك فى صورة الرجل الذى يستطيع دون غيره توطيد دعائم الامن والراحة وشد أواخى المعاملات التجارية

معهم وكانوا اذا لم يعبأ الباب العالى بنصائحهم لا يحجمون عن تهديد السلطان وارهابه بسلاحهم واسطولهم

أما فرنسا التى لم تشتغل قط بمصالحها التجارية فى مصر فقد سارت في هذا القطر على سياسة مناقضة لهذه فانها كانت تذود باخلاص وهمة عن مركز الأسرة المحمدية العلوية وتحارب الفوضى التى يمثلها ألفى بك فى شخصه . على ان هذا الامير الذى كان يسبر باحدى يديه أعماق التاميز ويجس بالاخرى مخاضات البسفور أوفد خازنداره الى الاستانة العلية ليتحكك بالاعتاب الشاهانية ويقترح عليها دفع جزية قدرها ١٥٠٠ كيس بضمانة الحكومة الانجليزية فى مقابل رضائها عنه واعترافها به فقبل الديوان الهمايونى هذا الاقتراح ووجه الى الاسكندرية أسطولا مؤلفا من اربع سفن وفرقاطتين وكورفيث ويقل ثلاثه آلاف جندى بقيادة صالح باشا الذى رقي فيما بعد الى رتبة قبطان باشا فلما ألقي الاسطول العثمانى مراسيه فى مياه ذلك الثغر قصد أحد القابجية توّا الى القاهرة ليأمر محمدا عليا بمغادرة القطر المصرى فورا الى سلانيك لكى يتقلد ولايتها بدلا من موسى باشا الذى عين على مصر

وكان محمد على موقنا بالعاقبة التى هو ملاقيها اذا أطاع هذا الامر فاجاب القابجى على لسان سليم آغا بانه مدين لجنوده

بعشرين الف كيس وان تمردهم يحول دون مبارحته الديار عملا بالاوامر السلطانية ثم بادر بعقد مجلس من أمراء جنده وأبلغهم مطالب الباب العالى فصاحوا جميعا أنهم لن يرضوا بديلا منه فى مباشرة شؤون الحكومة وانهم يرفضون فراقه لهم وكان محمد على واثقا بصدق لهجتهم واخلاصهم فى قولهم الا أنه اراد ان يثير فيهم الحماس والهمة فقال .

« أتدعوننى الى مخالفة السلطان بالبقاء فى هذا المكان ! اذاً ماذا تكون الحال اذا دهمتنا جنوده وبأية قوة نقاوم ؟ ان جنودكم لاتعرف للنظام اسما ولا معنى ولا تدرى من احوال الدنيا غير السلب والنهب ومعاملة الناس بالخسف والحيف والالحاف على في طلب أجورهم ومرتباتهم . وانتم معشر الرؤساء القائمين على تدبيرهم كيف تستطيعون اقناعهم باتباع طريق الصواب وعدم الانحراف عن الواجب ؟ أنتم تكرهون الحرب وتستثقلونها لما تركه الانهماك على الملاذ فى اعصابكم وأثر به فى نفوسكم . إنكم وقد تقلبتم فى نعيم الثروة ورغد الحياة أصبحتم ولا اهتمام لكم إلا بجمع المال وادخاره. لقد تركتم انفسكم غرقى فى بحار النوم اللذيذ. أما انا الذى مازال واقفا كالجندى على قدم الاستعداد ومتحفزا للوثبة على الفرص السانحة ومتقدما الى الامام على الدوام

فأنا وحدى أحمل أعباء العمل والقلق ، وأنا وحدى الغرض الذى يقرطس الاعداء فيه سهامهم المسمومة ! ويااليت هذا هو كل ماأشكو منه وأتوجع بسببه .. كلا .. بل يحزننى أننى لا أستطيع الاعتماد على وعودكم . ولطالما ضحيت فى سبيل هنائكم راحتى وجعلت نفسى لغضب السلطان ونقمته هدفا . وها أنذا ما زلت الى اليوم مقيما على عهدى معكم . فأنا الزميل الصادق والرفيق الأمين وها كم خنجرى وساعدى ورأسى وقلبي ، كل ذلك مازال يعمل على ما فيه صلاحكم وهناؤكم كأخوة صلحاء ورفقة أمناء فاقسموا على هذه الصفحات المقدسة صفحات القرآن الكريم أن لا تتخلوا عنى وأن لا تتركونى وحدى وأن تدافعوا حتى آخر قطرة من دمكم عن قضيتى التى هى قضيتكم »

أثرت بلاغة هذا القول فى نفوس السامعين وكانوا سبعين عدداً فأقسموا جميعاً على المصحف الكريم ثم مروا بعضهم تلو بعض فوق سيف أمسك بطرفيه اثنان هما أكبرهم سناً وقالوا إن الحانث فى هذه اليمين غادر وخائن لا يستحق الكرامة ولا الحياة ثم فرض كل منهم على نفسه مالا وقدمه الي الوالى فاجتمع بهذه الطريقة ٢٠٠٠ كيس ودفعوا نفقات السفر لقاصد يسافر الى الاستانة حاملا أمانى الوالي والأمة المصرية

وكان محمد بك الألفي ما برح معسكراً أمام دمنهور وكانت تصل اليه بواسطة أعوان انجلترا أخبار الجهود المبذولة من أجله فأمل خيرا من ورائها وانتفخت أوداجه وأراه إيثاره لنفسه على غيره هذا الأمل كأنه مرئى بالمجهر ولهذا كان معتقداً بتحقق أمانيه يوما ما بتأييد انجلترا . وما اتصل به نبأ تحرك الأسطول العثمانى من الدردنيل قاصداً الاسكندرية حتى أذاع فى دمنهور منشوراً جاء فيه : « أرسل الباب العالى فرمانا بتقليدى ولاية مصر وسأتوجه الى القاهرة متى تسلمته لتنفيذ ما فيه فعليكم أن تفتحوا أبواب مدينتكم لتبرهنوا على اخلاصكم وطاعتكم لي » فلم يجاوبه الدمنهوريون بكلمة على هذا البلاغ بل بعثوا به الى محمد على باشا واقتدى الدلاة بهم حينما وصل اليهم بلاغ من هذا القبيل فكتب محمد على الى الفريقين يقول : « لم يكن محمد الألفى إلا خبيثا منافقا وسيكون العقاب الصارم جزاءه وإنى معتمد على طاعتكم وواثق باخلاصكم » وكانت طبقات الاهلين كافة قد تلقت بلاغات كالبلاغين المتقدمين فارسلت كلها الى الوالي وساء فأل الألفى وطاش سهمه الا أن عزيمته لم يعترها وناء ولا كلال فقد استمال قبطان باشا اليه بهدية أهداه إياها مؤلفة من أربعة آلاف كبش وثلاثين جوادا ومائة جمل محملة بالمؤن والميرة ومبلغ جسيم

من المال وأقمشة فاخرة فشكر له قبطان باشا هذه الهدية وبعث اليه بمدفعين من الهاون و٥٠٠ بندقية وكمية وافرة من ذخيرة الحرب

وكان محمد على يتخذ الحيطة لنفسه أثناء ذلك ليدرأ الحوادث الطرآنية ويعمل لذلك سعة حيلته وبعد بصره فاقد مون القلعة بالبقسماط والبارود والقنابل وعكف على استقراء الاحوال فى المدينة متنكرا تارة بمختلف الأزياء ليقف على حقيقة شعور الناس نحوه وميلهم اليه وطورا غير متنكر تتبعه شراذم الجنود ليعزز مركزه فى نظرهم وقد استدعي اليه العلماء وسألهم الافصاح عن رأيهم فى شخصه فكشفوا له الغطاء عن حقيقة ضمائرهم ثم كتبوا بعد انصرافهم عرضا بمقاصدهم الى الباب العالى أشاروا فيه الى المهمة الموكولة الى قبطان باشا وقالوا : « إن السلطان لم يعد الأمراء بمساعدته وأزره إلا اذا ضمن العلماء حسن سيرهم وسيرتهم بين الرعية ، ولكن العلماء لن يأخذوا على عواتقهم مثل هذه المسئولية إذ قالوا في ذلك العرض بعد ما تقدم

« إن لولى أمرنا وحده وهو جلالة السلطان حق الأمر والنهى بيد أن سوء سلوك الامراء وسيرهم بين الناس بالظلم معروفان للناس طرا فأنهم سبب ماحاق بمصر من المصائب وما

أصابنا من الآلام . ولقد كنا بعد وفاة طاهر باشا واستيلائهم على القاهرة نسأل الله ان يوفقهم للخير ويهديهم صراطا مستقيما ولكنهم اتبعوا غوايات الشيطان وأطاعوا انفسهم الأمارة بالسوء فازدادوا عيثا وإفساداً وايذاء واضرارا الف مرة فشملهم بذلك العار والشنار وأصبح الرؤساء منهم لايستطيعون الحكم على مرؤوسيهم والسادة عاجزين عن اخضاع مواليهم ومن اساليبهم المذمومة اثناء وجودهم بالعاصمة اجتراؤهم على قتل حجاج بيت الله وتجريدهم الأهلين من أملاكهم واستصفاؤهم اموالهم واذاقتهم اياهم المرّ والحنظل ولا تزال خيانتهم لعلى باشا حاضرة فى الاذهان ماثلة للانظار . وفى السنة الحاضرة قاسى الحجاج والتجار والفقراء الآتون من القصير صنوف العذاب وتجرعوا كؤوس الشدائد فمن اين لنا ضمانة قوم شيمتهم الوعود الكاذبة وقولهم بالسنتهم مالا يعتقدونه بقلوبهم ، أما القروض التى اقترضها محمد على باشا والفرض التى فرضها على أبناء مصر فليس الغرض منها سوى طرد الاشقياء والمفسدين على ان فرضها كان بموافقة سابقة من الاعيان والعلماء فى اجتماع تفاوضوا فيه طويلا ، إن مصر ملك جلالة السلطان ولا يسعنا إلا الطاعة لمن يوليه علينا ولكننا نأبى أن نحمل أنفسنا المسئولية بضمان الامراء إذ أننا لاثقة لنا الآن

بهم لمعاملتهم بالقسوة والاحتقار ضعاف الناس من العبيد والنساء والفقراء فى حين ان الرعية أمانة فى عهدة السلطان ورعايته وظله ونحن نسأل الله القادر على كل شىء ان يطيل حياته ويهلك أعداءه »

فكان جواب قبطان باشا على هذا العرض أن رجا من الشيوخ على لسان سلحداره الاعتماد على الثقة الموضوعة فيهم لحمل الوالى على اطاعة الباب العالى فتلقوا رجاءه بالاحترام ونزل الرسول الحامل لهذا الرجاء وهو شاكر آغا فى دار محمد على باشا فلم يحصل من العلماء ولا من الوالى على اجابة ماينقلها الى قبطان باشا جوابا على تلك الرسالة سوى الكلمات الآتية التى تفيد التنصل:

« تلقينا رسالة سموكم بالطاعة والاحترام الواجبين لمثلها وردا عليها نقول إن أهل القطر المصري ضعاف وفقراء وقد يحدث ان يأبى الجنود الطاعة لوال جديد وينزعوا بسبب ذلك الى الفتنة حتى لا يضطرهم أحد الى مبارحة البلاد وعند ذلك لا تكون النتيجة سوى تخريب الدور ونهب القصور وتهتيك الحريم ولما كان الشرف لكم عنوانا والخير غاية فنحن ننتظر الرحمة والرعاية منكم ان شاء الله »

وفى اليوم نفسه اى ٢٠ ربيع الثانى ١٢٢١ الموافق ١٤ يوليو

١٨٠٦ قال محمد على باشا لبعض أخصائه ومنهم تلقينا ماقاله :
« ماأخذته بقوة السيف لن أعطيه إلا بقوة السيف . أو يصح أن تصبح القاهرة كالحمام يباح لكل قاصد ان يدخله بلا احتشام ولا استئذان ، إنى اعلم من أمر الترك ماأعلمه وأنهم ممن يبيعون ذممهم وسأشتريها ! واذا كنت قد تمكنت بخمسمائة رجل من إتمام هذا الانقلاب العظيم فبأقل من الالف وخمسمائة جندى الذين يحيطون الآن بى أستطيع صون الأثر الجليل الذى أقمته من عادية الاتلاف والعبث . وانما السيد القدير وصاحب الكلمة النافذة هو الأكثر من غيره بذلا للمال والأبرع فى إيصال صليل السيوف الى أبعد مدى »

وفى الاسبوع التالى طلب قبطان باشا من الوالى أن يوافيه كتابة برفضه الطاعة للباب العالى فلم يكترث محمد على بهذا الطلب ولم ترتعد بسببه فريصته بل عكف على تحصين المدينة من الداخل والخارج، على أنه كان ينقصه المال والسلاح ففرض على الملاك والمستأجرين بالوجه البحرى فرضة يدفعونها مناصفة وحشد فى إمبابه من بقى فى طاعته من العساكر وكان مشائخ الحارات يذهبون اليها مع الوجاقلية والسكان القادرين على حمل السلاح وذهب اليها الوالى نفسه واتخذها معسكرا له وخرج الكيخيا

من الرحمانية التى كان واليا عليها مع طاهر باشا فصعد فى الضفة اليسرى للنهر فرفع ألفى بك الحصار عن دمنهور حاثا المسير للقاء الألبانيين وخيم بالقرب من النجيلة على مسافة فرسخين من معسكرهما وكان كيخيا موسى باشا الذى ولى على مصر بدلا من محمد على باشا يمد الألفى بنصائحه وآرائه فيما يختص بالاعمال الحربية فلما كان ٢٧ جمادى الاولى الموافق ١٢ اغسطس هجم المماليك على طاهر باشا هجوما عنيفا من الجهة اليمنى لتلك البلدة فسرعان ما لجأ الى الفرار واقتدى به رجاله إذ ألقوا سلاحهم ونزلوا فى القوارب الراسية بالساحل. وقد غرق اثنان منها لازدحام النازلين فيهما من الفارين وغنم عربان الألفي ما تركه الالبانيون وراءهم من خيام وسلاح وأمتعة. أما الكيخيا بك فقد ثبت فى مكانه ثباتا محمودا وصمد لقتال المماليك ساعتين كان الجلاد أثناءهما عنيفا بين الفريقين ولكنه اضطر فى ختام المعركة الى الانسحاب نحو النجيلة. وفى فجر اليوم التالى عبر النيل وآوى فلول جيشه ببلدة منوف. وخسر الألبانيون فى هذه المعركة ستمائة عسكرى وثلاثة مدافع والخيام والامتعة. أما الألفي الذى كان واقفاً اثناء المعركة خلف عساكره شاهراً سيفه يحضهم على القتال فقد أرسل الأسرى الى قبطان باشا مع رؤوس القتلى

وعاد الارنؤود المنهزمون الى العاصمة فلولاً وشيعا متفرقة تبدو على وجوههم علامات الخزى والذلة فلما اتصل بالوالى خبرهم حنق عليهم ولما كان كيخيا بك قد أظهر من الثبات في المقاومة ما يحمد عليه فقد أقره في منصبه ولم يرد به سوءا ثم وقع نظره على بكباشى ممن انهزموا لجبنهم فحنق عليه حنقا شديدا وتناول السلاح ليفتك به وهو فى بهو الاستقبال ولكنه كظم غيظه وقمع غضبه فلم يقتله . وبالرغم من القرابة بينه وبين طاهر باشا فأنه لم يشأ العفو عنه بل حظر عليه دخول القاهرة وان لا يريه منذ الآن وجهه، غير أن طاهرا رام اصلاح خطأه وارضاء الوالى عنه فانتقل الى الضفة اليسرى من النيل فأخذ عنوة من المماليك موقع الرحمانية المهم الذى كانوا قد استولوا عليه قبل ذلك بيوم واحد وما طرق هذا الخبر سمع محمد على باشا حتى صفح عنه وغمره برضاه وهداياه

وكان من نتائج الهزيمة فى معركة النجيلة أن انتشرت حول القاهرة شيع كثيرة من المماليك والعربان فتقرب الناقمون على محمد على وحكمه منهم وضاعف هو الحذر واليقظة فكان يتنكر في اليوم الواحد على اشكال وصنوف شتى ويخترق الاحياء الآهلة بالسكان وبالغ اعوانه فى الحركة والتنقل ليل نهار لاتقاء ما لعله

يطرأ من الحوادث وهو ما يدل على شعوره باخطار الثورة وسوء مغبتها فيما لو بوغت بها قبل أن يتخذ الحيطة لدرئها وكان فوق هذا وذاك يعلم ان قبطان باشا والألفى يسعيان سعيهما لدى الاهلين لاستمالتهم اليهما ضد محمد على ولم يغب عنه قط أنه اذا خانه الحظ ولم يسعده حسن الطالع فان السلاح الذى شرعه خصومه الى صدره من وراء ستار لابد قاتله. وليمنع احتشاد الناس بقصد التآمر وبث الفتن جبر الخليج قبل الميعاد الاعتيادى ففاضت مياهه على الميادين العامة والطرقات الكبيرة بحيث لم يعد المرور منها سهلا وساعدته هذه الحيلة على نقض مايكون قد أبرمه بعض أرباب الفتن من التآمر لصالح الساعين ضد الحكم المحمدى العلوى فى مصر

وكان الألفى قد عاد الى حصار دمنهور. ولقد دبت فى نفوس سكانها منذ شهرين عين الهمة التى تمكنوا بها من اعتراض الحملة الفرنسية وكان قاضى الاسكندرية وعلماؤها قد أفتوا، بناء على طلب قبطان باشا، بمروقهم من طاعة الخلافة وجهرهم بالعصيان فلم يعبأوا بهذه الفتوى وظلوا ثابتين فى مراكزهم يتلقون من القاهرة التعليمات والأوامر ويعتمدون عليها فى احراز النصر

وكان مما حرك الحماس فى صدورهم اعتمادهم على وصول

المدد وارتكاب المماليك أشنع الفظاعات ضد الأسرى منهم حيث كانوا يعلقونهم في أغصان الاشجار بقطع حادة من الحديد يغرزونها تحت أذقانهم فآلوا على انفسهم أن يموتوا قبل تمكين العدو من تدنيس مدينتهم . ولقد حمل المماليك عليهم بعنف مرتين في مدى خمسة أيام فلم يستطيعوا اجتياز أسوارهم بل كثيراً ما كان المحصورون يستترون بالظلام فيلقون الفزع فى أفئدة المحاصرين بصراخهم الشديد ويتلفون أمتعتهم ويطلقون النار ثم يعودون على أضواء المشاعل مترنمين بأناشيد الانتصار ساحبين خلفهم عدداً من الاسرى لايستهان به

انقضت اشهر طوال بدون ان ينجز قبطان باشا المهمة التى جاء من أجلها وكان الباب العالى قد استدعاه وطلب منه تعجيل الأوبة لان العلاقات السياسية بين الروسيا والدولة العلية كانت على وشك ان تنقطع فلم يصدع بالامر فورا بل تباطأ عمدا باذلا الجهد عبثا للحصول على مبلغ ١٥٠٠ كيس الذى تعهد المماليك بدفعه للسلطان سنويا. وسبب خيسهم فيما عاهدوا الدولة عليه من ذلك تحاسدهم وتخاذلهم وإيثارهم مصالحهم الذاتية على مصلحتهم العامة الى غير ذلك مما اعجزهم عن الوفاء فقال لهم قبطان باشا وقد أخذ الحنق منه مأخذا عظيما انهم يهزأون بلحية الصدر الاعظم ولحيته

وان محمدا عليا لن تفوته هذه الفرصة لقهرهم واذلالهم . ولما كان محمد على جريئا على البذل محبا لمظاهر الجاه اقترح عليه ان يدفع الى الخزينة ٤٠٠٠ كيس لا ١٥٠٠ وان يجعل ابنه ابراهيم بك الذى وصل الى مصر منذ عهد قريب رهنا عند الدولة لضمانة السداد .

وفى الاثناء وردت الرسائل من الدولة ردا على العرض الذى رفعه العلماء اليها بتفويض النظر فى مسائل مصر وحسمها الى قبطان باشا وكان كبار ضباطه الذين فتنهم محمد على بكرم المثوى وكثرة العطاء قد نقلوا الشيء الكثير الى قبطان باشا من خصال الوالى وفضائله فسرعان ماجنح اليه بميوله واستعد لمفاتحته فيما يريد المفاوضة فيه. وحرر المشائخ والوجاقلية على أثر ذلك عرضا التمسوا فيه من الدولة إقرار محمد على فى الولاية . وكان ابراهيم قد تلقى الاوامر من والده بان يجعل نفسه في تصرف قبطان باشا فقصد الى الاسكندرية حاملا العرض مذيلا بامضاءات لاعداد لها ومعه الهدايا الكثيرة من الاقمشة الهندية والخيول المطهمة ثم قدم نفسه اليه رهينة على ماعاهده عليه . وعند ماتم هذا الاتفاق أبحر الاسطول العثمانى في ١٢ اكتوبر ١٨٠٦ قاصدا الى الاستانة وفيه موسى باشا الذى كان مظهره فى كل هذه الحوادث غير متفق مع الكرامة ومركزه الأدبى من احرج المراكز

ترك قبطان باشا بالقاهرة كيخياه لاستلام المال الذى تعهد الوالى بادائه فسرعان ما وفى محمد على بعهده ولم تمض ثلاثة أسابيع بعد سفر الاسطول حتى وصلت الى بولاق سفينة تقل القابجي باشا حاملا فرمانين يتضمن أحدهما الاعتراف بباشوية مصر لمحمد على مع اقراره فى الولاية والآخر الامر بتسيير قافلة الحج وتصدير ستة آلاف أردب من القمح الى جدة مع توصيته بالرفق بالامة وبالمماليك أيضاً

وفى الوقت نفسه عقد محمد على النية على قلب الحكومة واجراء تغييرات ذات بال . ذلك ان رجال الدين فى مصر كانوا على عهده كما كانوا على عهد الفراعنة الاولين على شيء عظيم عن الصلف والكبرياء والطمع والميل الى تدبير الدسائس والفتن . وكانت الحكومة لهذا السبب تمسك عن التداخل فى الشؤون الداخلة فى اختصاصهم فيدفعهم الطمع وحب الاستئثار بالنفوذ الى محاولة الاطلاع على شؤون الحكومة والتداخل فى أمرها . وهذه النزعة عادت عليهم بالوبال كما سيراه القارىء بعد فقد بلغ بهم حب الاستقلال بتصرفاتهم والاستئثار بالنفوذ والسلطة الى اقامة قضاء استثنائي فى دورهم بل محاكم تفصل فى أهم المسائل واعضلها ثم تداخلوا بحجة السهر على مصالح الرعية فى

كليات الادارة وجزئياتها ينتقدونها كلما لاحت لهم الفرصة باللهجة الشديدة المعروفة عن الصالحين واللوم القارص الذى لا يحتمل من غيرهم وامعنوا في الانتقاد واللوم كلما توهموا ان أوامرهم طرحت فى زوايا النسيان. وكان السيد عمر مكرم مرموقاً من أولياء الامر بعين التجلة والاحترام ملحوظاً على الدوام بتوجهاتهم فأثار هذا الايثار فى نفوس نظرائه من العلماء والاعيان الحسد والغيظ وتاقوا جميعا الى ان يكون لهم مثل منزلته

وكان السيد منوطا به النظر على أوقاف الجامع الأزهر فكان من الطبيعي ان تضطرم نار الخلاف بينه وبين الحاسدين والناقمين فلم تلبث الخصومات لهذا السبب ان ثارت ثورتها واندلع لهيبها . وقد اغتنم محمد على باشا الذى كان العلماء يتخذون حياله خطة يذهبون فيها الى تفهيمه بأنهم هم الذين ساعدوه فيما شجر بينه والمابين الهمايونى فرصة ذلك الخلاف بينهم والسيد عمر مكرم للقبض على ثلاثة من أولئك الناقمين واعتقالهم وهم الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ الدواخلى والشيخ سعيد الشامى

ونزعت حامية المنيا الى المروق عن الطاعة بحجة المتأخر من مرتباتها فارسل محمد على لاخضاعها ، وكانت مؤلفة من تسعمائة

تركي ، جماعة من الألبانيين بقيادة حسن باشا ولكن لم تلجأ هذه القوة الى استعمال السلاح لاخضاعها لأن اسماعيل أغا كاشف منوف كان قد نجح في المهمة التى عهدت اليه لديها وهي بذل الوسائل السلمية لكى تثوب الى الطاعة والسكون

وفى الساعة الثامنة من صبيحة ٢٠ اكتوبر وصل الى الاسكندرية من الأراضى المقدسة زورق حاملا رجلا من كبار الفرنسيس وأبعدهم صيتاً فى العالم كله ، وإنه ليسرنا أن ندرج هنا وصفاً لمصر فى أواخر سنة ١٨٠٦ بقلم هذا الكاتب الألمعي وهو المسيو دوشاتوبريان . قال :

«قصدت بمجرد نزولى فى الاسكندرية الى المسيو دروفتى قنصل فرنسا بها . والمسيو دروفتى هذا جندى امتاز بالشهامة والشجاعة ومن أبناء ايطاليا الجميلة ، فتلقانى بالهشاشة التى هي احدى الصفات الفاضلة فى الجندى الشجاع وحيانى بحرارة شوق مستمدة من حرارة شمس مصر . وما كنت أدرى اذا كان كتابى اليه سيقع فى يده وهو وسط الصحراء التى يسكنها ولكننى أتمنى هذا من صميم فؤادى ليعلم أن مضى الزمن لن يضعف فى نفسى قوة العواطف وأننى لم أنس قط ما أظهره لى من الحنان والرفق حينما ودعنى على الساحل ، وهو حنان شريف

لا يشعر بأثره إلا من صافح بيده يد ذلك الرجل وشهد مالحقها من العطب وهو نائم بخدمة وطنـه . وإنني لخلو من المال ومن الحماة والاعوان بل ومن الثقة عند الناس ولكنني إذا أتيح لى ان اكون على شيء من ذلك فلن أجد في نفسي استعداداً لبذلها بارتياح وسرور لأحد ما غير المسيو دورفتي

« .. وصلنا الى بولاق فى ٣١ اكتوبر فاستأجرنا خيلا وحميرا لنذهب عليها الى القاهرة .هذه المدينة التى يطل عليها قصر بابل القديم ويحكمها جبل المقطم مدينة غريبة المنظر بسبب ما ينبثق فى جوها من اشجار النخل والجميز ومنارات المساجد . دخلنا فيها من طرقات عديدة وقرية كلها اطلال دارسة تجوس خلالها الحدآت والطيور الجارحة تلتمس فريسة تنهشها ، فنزلنا بحي الافرنج وهو زقاق لا منفذ له يغلق مدخله كل مساء كما يغلق الباب الخارجي لأحد الاديرة فاستقبلنا الوكيل الذى عهد الموسيو دروفتى اليه برعاية شؤون الفرنسيين ومصالحهم بالقاهرة فأظلنا بحمايته وأخطر الباشا من فوره بوصولنا كما أخطر به في الآن نفسه المماليك الفرنسيين ليصحبونا فى غدواتنا وروحاتنا

وقد بقي هؤلاء المماليك فى خدمة الوالى . ومن العادة فى الحروب الكبيرة ان تترك وراءها بعض المتخلفين وقد تركت

حروبنا فى مصر نحو ثلثمائة عسكرى فانتشروا فى أرجائها موثرين البقاء فيها على العودة الى فرنسا ومنهم من انحاز الى حزب الامراء فاشتهروا عندهم بالشجاعة والاقدام . وآراء الناس جميعا متفقة على انه لو كان هؤلاء المتخلفون قد اجتمعوا واتحدوا بدلا من الاختلاف والتفرق وعينوا عليهم بيكا فرنسيا لتم لهم الاستيلاء على القطر قاصيه ودانيه ولكنهم لم يجعلوا عليهم من الأسف رئيسا بل ماتوا جميعا تقريبا فى خدمة الامراء الذين اختاروهم لخدمتهم . وكان محمد على اثناء مقامي بالقاهرة لا يزال يبكى أحد أولئك الشجعان ويأسف لفقده . وقد علمت من أمره انه كان جنديا يقرع الطبل الصغير في أحد طوابيرنا ثم وقع فى أيدى الاتراك أسيراً ، وكان حديث السن جدا فلما بلغ أشده ودخل فى طور الرجال أخذ ضمن من أخذوا فى التجنيد لجيوش الباشا الذى لم يكن يعرفه قبلا . فلما رآه وهو يحمل على جمع كثيف من الاعداء صاح قائلا : (من هذا الرجل ! لايكون هذا إلا فرنسيا) وكان الجندى الهمام فرنسيا فعلا فلم يلبث ان اصبح منذ هذه اللحظة من المقربين للوالى ولم يكن حديث الخاصة والعامة الا فى شجاعته ومسألته وقد قتل قبل وصولنا الى مصر بقليل في معركة فقد الخمسة المماليك الفرنسيون فيها خيولهم

« وكان هؤلاء من مقاطعات (غسقوينا) (ولا نجدوك) و (بيكارديا) وكان رئيسهم ابن اسكافي فى تولوز (طلوسة) وكان التالى له في الرتبة يترجم لزملائه ويتوسط فى تفاهمهم مع الغير ، لانه كان يجيد التركية والعربية ، أما الثالث وهو شاب أسمر طويل شاحب اللون فقد ساكن العربان طويلا فى الصحراء وكان كثيرا مايصبو الى المعيشة فيها ويذكر بالاسف الايام التى قضاها بها . ولقد روى لى انه كان اذا رأى نفسه وحيدا وسط رمال الصحراء ممتطيا ناقته استشعر بسرور عظيم وارتياح نفس .وكان الباشا شديد الاهتمام بأمر أولئك المماليك الخمسة حتى لكثيرا ما كان يفضلهم على بقية الاسباهية لانهم كانوا يفوقون فى الاقدام والبسالة هؤلاء الفرسان الذين ابادهم الجيش الفرنسي فى واقعة الاهرام .ولا شك اننا نعيش الآن فى عصر العجائب والغرائب فانه يبدو للناظر انه مامن فرنسى الا وهو مدعو اليوم للقيام بأمر جلل وأداء مهمة خطيرة، فان الخمسة العساكر الذين خرجوا من الصفوف الواطئة من جيشنا كانوا في سنة ١٨٠٦ أصحاب الحل والعقد بالقاهرة ولم يكن من المناظر ماهو ادعى الى الاستغراب كمنظر عبدالله التولوزى (الطلوسي) اذا استجمع اشرطة قفطانه وضرب بها وجوه الملحفين من العربان والألبانيين

او فتح مسلكا فى الطرقات الغاصة بالسابلة بينهم على أن المأثور عن الملوك فى اغترابهم حب الاقتداء باسكندر الاكبر في التخلق باخلاق الشعوب المغلوبة على أمرها والتمسك بعاداتهم ، فهم عملا بهذه القدوة يلبسون الثياب الحريرية الطويلة ويحملون فى مناطقهم الاسلحة الجميلة ويتعممون بالعمائم الكبيرة. وقد اتخذوا لهم حرما وعبيدا واقتنوا الجياد الصافنات وادخروا من الاعلاق والنفائس مالم يكن لآبائهم فى غسقوينا وبيكارديا ، ولكننى رأيت فيما رأيت بين أمتعتهم وسجاجيدهم وأرائك جلوسهم فى بيوتهم تراثا من تراث الوطن ألا وهو لباسهم العسكرى وقد فرى فريا بطعنات السيوف . وهم لا ينفكون عن وضع هذا التراث فى ركن من أركان أسرّتهم التى ينامون عليها

« ولقد وافقنى المقام فى القاهرة موافقة تامة لانها المدينة الوحيدة التى أزجت الى ذهنى فكرة كاملة عن شكل المدن الشرقية البحتة ، على انها لاتزال حافظة لكثير من الآثار والعلامات الدالة على مرور الفرنسيين بها ، فان النساء فيها اصبحن أقل احتفاظا فى سفورهن بالتحجب وما من أحد فيها إلا وهو يملك الحرية المطلقة فى الذهاب الى حيث يشاء وفى غشيان اى مكان يريد ولم يكن الثوب الاوروبى شعارا يجلب حامله الى نفسه

السباب والاحتقار . كلا بل انه رمز يدعو الى الرعاية والحماية .
وبالمدينة حديقة فى درجة لا بأس بها من جمال التنميق وحسن التنسيق غرس بها النخل ومدت المسالك على شكل الدوائر . والعامة يترددون اليها للتنزه وتبديل الهواء وإنما الذين نسقوها هم الجنود الفرنسيون

«وقبل مغادرتى للقاهرة أهديت عبدالله بندقة صيد ذات روحين من صناعة مصنع (لوباج) فوعدنى باستعمالها فى أول فرصة تسنح له

«ولاح لى أن مصر أجمل أقطار الارض وانى أحببت فيها كل شيء حتى الصحارى التى تحف بها من جانبيها وتفتح للتصور مجالا لا حد لنهايته » اه

قال هذا دى شاتوبريان مؤلف كتاب (الرحلة من باريس الى اورشليم) وقد أضاف اليه فى إحدى مذكراته قوله : « من معاكسات القدر ان اسم مضيفى بالقاهرة اضحى من صحيفة مذكراتى اليومية وأخشى ان يكون حفظي له على غير وجه الضبط لذا لم أجسر على إيراده هنا . وهذا النقص لست أغفر لنفسى ذنبها فيه إذا كانت ذاكرتى تخطىء الى هـذا الحد حفظ الخدم التي هي مدينة بها لأدب ذلك المضيف »

ونحن يسرنا كل السرور ان نساعد ذاكرة بلغ بها الضعف الى هـذا الحد فأن الوكيل الفرنسى الذى اكرم مثوى السائح الكاتب الشهير ورافقـه فى رحلته الى مسلة عين شمس وأطلال المطرية وبئر يوسف وزار معـه جميع الأمكنة الجديرة بالبحث والدرس كان يسمى المسيو (فيلكس مانجن) ولنا فى مقابل هذا التذكير ان نسمح لنفسنا بشىء ولو قليل من الدهشة من شاتوبريان الذى لم يفكر فيما بعد فى اصلاح الخلل الذى منى به وأحزنه الى ذلك الحد فأنه من المتعذر ان يبقى جاهلا ذلك الاسم حتى فى سنة ١٨٢٦ التى أعاد فيهاطبع جميع مؤلفاته. ذلك لان المسيو فيلكس مانجن كان قد بعث اليه فى سنة ١٨٢٣ بالاسطر الآتية التى يسرنا كثيراً ان نوردها هنا بنصها لما تضمنته من شرح التقدم الباهر الذى تم بين سنة ١٨٠٦ وتلك السنة بالديار المصرية. قال :

« مولاى ! إن اسم مصر يثير فى نفسك بلا ريب أجل ذكرى وأحبها الى نفسك فلقد زرت في عهد مضى مهد المدنية القديمة وأطلال الدولة العظيمة وأحببت أن ترى الأماكن التى خرج منها شعب اسرائيل للقيام بما رسم له من جلائل الاعمال

« لقد حي أبلغ ذائد عن حياض المسيحية (اى شاتوبريان) الهياكل التى شادها المسيحيون الأولون على ضفاف النيل ولا

تزال مخصصة حتى الآن لأحياء شعائر هذا الدين العظيم

« لقد نظرت أطلال عين شمس التى اشتهرت فيما مضى بفوز جنودنا فأسفت لحرمان هذا الوطن وطن الفراعنة القديم مزايا جملة لا يفنى ذكرها على مر الأجيال ، وشهدت بنفسك الانشقاق الذى يمزق احشاءها فدعوت لها بمستقبل يكون لها فيه أوفر قسط من السعادة .. فهذه المنى التى تمنيتموها قد تحققت الآن .

« وذلك ان رجلا عظيما جاء من سواحل الروملي الى مصر فظهر فجأة على أفقها . وكان من ذوى العبقرية فى الاصلاح فانقاد لاسمه الحسن كل شيء اذ تفرقت الاحزاب وخمدت الفتن والاضطرابات وحلت محل الفوضى السلطة المنتظمة وعادت الثقة الى جميع القلوب باستقرار الامن العام وبدأت الصناعة تفتح لها طريقا كى تسير فيه الى الامام ولا ريب فى أن ذلك الامير الذى جمع الى العزيمة الماضية والبسالة النادرة فضيلة التسامح لابد أن يسمو بمصر الى اعلى مما بلغت اليه من الشوكة فى عهد صلاح الدين »

وكان عثمان بك البرديسي وهو أشجع الزعماء المماليك واكثرهم نشاطاً وأمضاهم عزيمة مريضاً بالصفراء منذ توفى مراد

بك فكانت قريحته المتقدة وذهنه الحاضر وآلام الجراح التى أثخن بها وانزعاجه لانحطاط شأن المماليك الذين كانوا فى زمن مضى أقوى الفرسان وأشدهم بأساً من بواعث حرمانه السكون والراحة اللازمين للعلاج المطرد. ومن معاكسات القدر له ان الأطباء فى معسكره لم يكونوا إلا جماعة من المشعوذين وأدعياء الطب الذين لا قدرة لهم على معالجة اى داء حتى الصداع البسيط فخطر ببال أحدهم وهو الذى تصدى لعلاجه ان يمزج بشراب جهزه له ضارب الى الزرقة قطرات من حمض الكبريتيك (ماء النار) فأثر هذا الدواء فى المريض تأثيراً ذهب بحياته فى الثامنة والعشرين من عمره يوم ٨ رمضان سنة ١٢٢١ الموافق ١٩ نوفمبر سنة ١٨٠٦ وكان البرديسي بنظره الحاد وقده الرشيق وقدمه الثابتة ومشيته المتناسقة الخطوات وظهور آيات النبل والشرف على محياه يلقى الرعب فى القلوب إذا امتطى جواده مصلتاً سيفه من غمده . وكان بضربة واحدة منه يفرى رقبة الثور الضخم ويصيب فى الوقت نفسه ركبتيه اصابة تكاد تعقره

ولقد كان فى مقدمة المماليك الذين انقضوا علينا كالبزاة يوم معركة الاهرام حيث كان يبرى بسيفه أنابيب البنادق بريا ويترامى بجواده على المشاة من عساكرنا ويحاول ببندقته القصيرة

ذات الفوّهـة المتسعة التماس طريق له بين البنادق والرماح المشتجرة حتى لقـد عاد به أصحابه مرة مضرجاً بالدماء . وكان البرديسى مملوكا بيع الى مراد بك فجعله اولا على خزنته (خازندارا) ثم رقاه بالتدريج حتى صار بيكا فاقتفى في الصعيد أثر مولاه وظل يشاطره الأهـوال والأخطار الى ان أبرم الصلح مع الجنرال كليبر . ونيطت به بعد ذلك مهمات مختلفة لدى قواد جيشنا فكان يقابل منهم بالاجلال والاكبار تلقاء شجاعته . على أن الجنرال منو كان لا يحتفل به فكان لهذا السبب يقول عنه إنه الفرنسى الوحيد الذى يبغضه . ولقد أصيب فى مذبحة أبوقير بأربعة عشر جرحا ثم وقع أسيراً فى يد الأتراك فلم يستطع هؤلاء تجريده من سلاحه إلا بعد تألبهم عليه جملة وطرحهم إياه أرضاً ، وما من شىء إلا تلاشى أمام قدرته وبطشه فى حصر دمنهور . وفى آخر ليلة من حياته كان يعلل سقوط دولة المماليك باعتمادهم على بريطانيا دون فرنسا . وكان حزن المماليك لوفاته عظيما حتى أنهم كسروا على قبره جميع أسلحته وأنحوا على رقاب جياده اجلالا لذكره وإعظاما لقدره

وحزن محمد بك الألفى عليه حزنا شديدا وإن يكن خصمه العنيد ولقد ظل الاثنان فى عداء سنوات طويلة ثم اتفقا على

الصلح الذى لم يقع فى اليوم المعين لأتمامه لأن الألفى لقى فى طريقه ثعبانا مقطعا ووقع فى يوم آخر لم يسنح له فيه ما يتطير منه ، على ان بيت البرديسى لم يشأ قط بعد وفاته ان يلتحم مع بيت الألفي بلحمة النسب فاضطر الاخير الى مصاهرة بيتى ابراهيم بك وعثمان بك حسن واختار لقيادة أعوانه شاهين بك المرادى على بغض منه له وإضمار لعداوته فى نفسه لانه قتل حسين بك الوشاش أحد مماليكه المقربين اليه فكرهه لهذا السبب وقاطعه لمنزلة ذلك الرجل منه ودالته عليه ولما تسلم شاهين بك زمام أمور المماليك وضع آماله وأمانيه فى الانجليز الذين وعدوه بمعاونة أسطولهم له واعلنوا الحرب على الدولة العلية من أجله وبذل فى سبيل الاحتفاظ بمواقعه في البحيرة جهده منتظرا نتيجة ذلك التعضيد ولكنه كانت تنقصه الجنود والمؤن والذخائر وكان العربان الموالون له وعددهم ٨٠٠٠ يبيدون الأرياف خضراءها وغضراءها حتى لم يبق من دلائل العمران فى الاقليم كله سوى أسوار دمنهور التى أصابها مع ذلك الخراب والدمار وفشت فيها المجاعة فقام اصحاب الألفي يتهددونه بالعصيان إذا هو لم ينتجع مكانا آخر كثير الخير وفير الرزق فرفع الحصار من فوره عن المدينة وانسحب الى الوجه القبلى يوم ١٧ شوال الموافق ٢٨ ديسمبر

وظل صاعدا فيه حزينا مضطرب البال فلم يجد ما يسكن به ثائرة غضبه ويسلي خاطره المتعب سوى الانقضاض على القرى التي مر بها والتنكيل بأهلها قتلا وسلبا ونهبا

أما محمد على فتقدم فى آخر شوال ١٢٢١ الموافق أول يناير ١٨٠٧ نحو شبرا فشلقان حيث عبر النيل ليجعل بضواحي امبابه معسكرا عاما له. وفى ٢٠ القعدة الموافق ٢٩ يناير نقل معسكره جوار الجسر الاسود عند سفح الاهرام وكانت تحتله طلائع الألفي بقيادة شاهين بك : وكانت الترعة فاصلة بين المعسكرين فشرع الالبانيون يطلقون النار وعكفوا على ذلك النهار كله بلا نتيجة يحسن السكوت عليها ، ولم يستطع المماليك الحملة بفرسانهم عليهم لاعتراض الترعة دونهم فانثنوا على أعقابهم نحو جيشهم الاصلى ليتابعوا السير معه فى اليوم التالى من طريق السهل وكان محمد على يرقبهم من بعيد بمنظار مقرب حتى رآهم وقد وصلوا فى فى تراجعهم الى شبرا وكان الألفى كلما ابتعد عن شاطىء النيل لعبت به الهواجس وساوره البلبال فلما وصل الى قنطرة ممدودة على أحد الجسور وقف مع أعوانه ورمق ببصره مدينة القاهرة وبكى بكاء طويلا .

ولقد زاد به الحال حتى ان المقربين اليه لم يجسروا على الدنو

منه ومواجهته لما كان فى أفئدتهم من رهبته .

وفى عصر يوم ٢١ ذوالقعدة ١٢٢١ الموافق ٣٠ يناير ١٨٠٧ خرج الألفي بك للنزهـة ممتطيا جواده ويحف به حرس من المشاة ، فرأى في مزرعة قمح قريبة جمالا تدوسها وتتلفها فغضب من هذا المنظر واتجه نحو الحراس وكانوا من عربان جيشه فقتل أربعة منهم رميا بالرصاص وطعنا بالسيف وكان أحد الأربعة زعيم قبيلة فلما عاد الى خيمته أخذته الآخذة اذ تصلبت اعضاؤه وتشنجت وقاء قيئا كثيرا ظهر فيه مقدار عظيم من الصفراء والدم واجتمع البكوات من أمراء بيته حوله فعين خلفاً لهم فى حضرته شاهين بك قائد الطليعة فقبل هذا يده وسمعه يقول له بصوت خافت: «انى أعهد اليك ياشاهين بأمر اخوانك وأضعهم تحت رعايتك وأقدمهم اليك ليحلوا محلى فى مودتك فكونوا جميعا على حذر ومتحدين وأوصيكم بدفن جثتى في البهنسا مـدينة الشهداء » وكان الليل قد أرخى سدوله فطال على محمد الألفى فى آلام شديدة وأخذ الدم يرتشح من مسامه ثم لم تلبث جثته بعد أن لفظ النفس الاخير أن اصفر لونها فظن فى بادىء الامر أن موته كان بمؤامرة سرية ولـكن تبين بعد انه كان بالهيضة .وما غلب محمدا الألفي على أمره وذهب بحياته فى الحقيقة سوى تساقط

الطمع عليه فأنه تلعثم وهو فى حشرجة الموت بالـكلمات الآتية:
« لقد حمّ القضاء وأصبحت مصر لمحمد على »

وبعد غسل الجثة نقلت الى قبرها فى تختروان وقبل تشييع الجنازة كان النساء يأتين للبكاء والعويل والندب حول صيوانه لانه كان فى حياته قد اعتاد سبي الفتيات الجميلات فيحتفظ بأجملهن ويرد الباقيات الى أهاليهن وكانت عادته التى درج عليها وهو فى البحيرة ان يتزوج فى كل يوم جمعة بفتاة عربية جميلة . وكانت له هنات كثيرة منها انه كان يتحلى ويتجمل ويتبرج على مثال لا يليق بالرجال وشهامة الأبطال وكان شديد الشغف بالابهة والبذخ لا يفتر عن زيادة عدد جواريه السود والبيض وأرقائه من المماليك حتى بلغ عدد من ملكته يمينه منهم ألف مملوك وأربعين كاشفا. وكان يشيد القصور الفخمة والمبانى المنجدة وأحد هذه القصور هو الذى سكنه تباعا كبار قواد الجيش الفرنسى بالازبكية (حيث اوتل شبرد الآن) وكان فى سياحاته ورحلاته ينقل معه أجزاء كشك من الخشب اذا ركبت صار غرفة كبيرة ذات أربع واجهات في كل واجهة منها نافذة ويصعد اليه بثلاث درجات. وكان ملما بشىء من علم الفلك وبأكثر منه من السحر الابيض . وكان ماهرا في الأنباء بمستقبل الحوادث معتمدا فى ذلك على مابينها من الارتباط

وعلى مايستنتج منها . فانه لما وصل الى مصر عائدا من الديار البريطانية خط رسما بالقلم الرصاص لم ينته منه حتى ارتعدت فرائصه وقال لرفاقه . « أرى مصائب كثيرة على وشك ان تنزل بنا وسأضطر الى مفارقتكم أربعين يوما » ولقد تحققت هذه النبوءة بشطريها. وإن لنا أن نسمي هذه العجيبة بما تشاء كبرياؤنا ان نسميه به ولكن الحقيقة التى لاجدال فيها هى ان العقل البشرى لايسعه الا الاعتراف بالمعجزة تجاه مايسوق القدر به من الحوادث المبنية في الغالب على المصادفة والجزاف

وكان ألفي بك على جملة طيبة من الاخلاق الفاضلة اذ كان بصيرا بالامور نشيطا فى العمل . ومع عجزه الفاضح فى الشئون الأدارية كان بلا شك جندياً بين البطولة وكان كريماً الى حد الأفراط فى السرف اذ كان يكره المساومة والمماكسة وما رؤى قط مساوماً ولا مماكساً بل كان يدفع ما يطلب منه دفعه بلا بحث ولا تدقيق وكان شغوفاً بالعلم والاستفادة به فكان لهذا السبب يتحرى ذوى الفهم والحجى لقضاء الوقت فى محادثتهم . والخلاصة ان حياته كانت تتلخص فى ثلاثة مقاصد لم يثنه عن حبها والشغف بها أحد وهى: النساء والكتب والأسلحة

بيع محمد الألفي الى مراد بك صغيراً بألف أردب من

القمح ولذا سمى بالألفى . وقد ترقى كعثمان بك البرديسى الى أسمي الوظائف ونال الحظوة عند استاذه مراد بك وحارب الفرنسيين فى واقعة الاهرام ثم انسحب الى الصعيد معه

ساعدت المنون محمداً علياً مساعدة لاشك فى أهميتها فأنها اختطفت من ميدان التنافس فى الاستئثار بالحكم فى مصر الخصمين الوحيدين القديرين على منازلته فيه . وكان محمد على يلتمس الراحة بالنوم فى صيوانه القريب من الجيزة حينما وصل أحد عربان الهنادى يبشره بوفاة الألفي وما استقر هذا النبأ فى سمعه حتى أمر للبشير بجائزة خمسة اكياس . ولم يبق من زعماء المماليك أمامه سوى ابراهيم بك إلا أن طعونه فى السن لم يكن ليجعل له أملاً فى الفوز بقوته ولا رغبة فى العودة الى ميدان النضال ، دع أن نشاطه كان من قبل مقتصراً على إمداد الشبان من الزعماء بنصائحه وخبرته . وكانت أمانيه منصرفة من جهة أخرى الى امر واحد وهو قضاء البقية الباقية من عمره فى ظلال الراحة بين الاهل والاقارب غير انه كان لا يزال يوجد قائد آخر من المماليك ألا وهو شاهين بك المردى الذى كانت تؤيده منذ قلد الامارة على بيت الألفي قوة مؤلفة من ٨٠٠ مملوك من الفرسان كاملي العدة و ٨٠٠ من المشاة الاتراك والنوبيين وعشرة مدافع

وكان يصحبه حيث سار قطعان من الماشية مؤلفة من ستة آلاف جمل وأربعين الف رأس من الغنم . ومن كان مثله فى هذا الحشد العظيم من الجنود والاتباع والمؤن قدير على دفع الغارات الشديدة ومقاومة الحملات العنيفة ولكنه لم يكن ملما لخصمه بالفنون العسكرية ولا قديرا على الزام عسكره ملازمة النظام والطاعة ورعاية الجدّ والواجب . وكان لايمضى يوم إلا ويفر فيه بعض الجنود لينضموا الى معسكر الوالى وبالرغم من هذا الانشقاق كان جاهين لايكف عن تكرار الجملة الآتية لمن حوله : « لقد توفى ألفى بك وسيعرف أبناؤه كيف ينتقمون له ويحكمون السيف فى رقاب اعدائه » . ولقد رأى محمد على الفرصة سانحة لسل سيفه فأمر الدلاة بالتجهز للقتال وجعل من جيوش عابدين بك وعمر بك جيشا واحدا وشحن ٨٠٠ قارب بالامتعة والمؤن ولكنه فوجىء اثناء ذلك بمرض أوجب القلق على حياته حتى تهافت المشائخ على عيادته ثم تحسنت صحته بالتدريج الى ان أبلّ وكان الطبيب المسيو يوزارى يعالجه . وفي اليومين الاولين من نقاهته اشتغل بترتيب المالية وناط بادارة شؤون الولاية الى كيخياه طبوز اوغلو . وفي ٤ ذوالحجة الموافق ١٨ فبراير تحرك فى جيش مؤلف من ٣٠٠٠ راجل و ٣٠٠٠ فارس وخصص ستة

زوارق مسلحة لحماية القوارب الحاملة للمؤن والذخائر

وعلم شاهين بك بهذه التجهيزات فهاله أمرها ونقل الى مخيم سليمان بك بضواحى المنيا. وكان الوالى قد تمكن من استمالة العربان المكلفين بحراسة هذا المعسكر الى حزبه فاتفقوا معه على ادخاله فى ألف من فوسانه الى معسكر المماليك وهم نيام وقد دخلوه فاخذوا يضربون بالسيوف من ادركوهم من المماليك وضيقوا على الفارين منهم بالمطاردة الشديدة حتى بلغت خسارتهم ٣٠٠ رجل مع جميع المدافع وأعلنت هذه الحادثة لاهل القاهرة باطلاق المدافع من القلعة وكانت الاخبار تتواتر في الايام السابقة بما لا يرتاح له أحد من شبوب نار الحرب بين الدولة العلية وبريطانيا العظمى ومغادرة السفير الأنجليزى ضفاف البسفور. ولكن وكلاء انجلترا السياسيين بالاسكندرية ودمياط ورشيد بقوا فى مراكزهم فاستنتجوا من ذلك ان اسطولا أروبيا سوف يصل الى القطر المصرى فأخذت الحكومة الأهبة للقائه بتعزيز الحاميات الأكثر من غيرها تعرضا للخطر وتحصين الشواطيء ولبث الجنود ينتظرون وصوله لقتاله

الباب السادس

الحملة الانكليزية فى مصر

سنة ١٨٠٧

فى الساعة السابعة من صبيحة ٧ محرم ١٢٢٢ الموافق ١٧ مارس ١٨٠٧ وصلت الى الاسكندرية دونننمة انجليزية مؤلفة من ٢٥ سفينة فبعث أميرالها (لويس) بلاغا الى القائمقام امين بك حاكم الثغر يسأله احتلاله لحمايتـه من غارة جديدة عزم الفرنسيون على القيام بها قريبا . وفى مســاء ذلك اليوم نزل الى البر فى مريوط ١٥٠٠ جندى انجليزى جاءوا من (مسينه) بقيادة الجنرال (فريزر) وفي اليوم التالى زحف هذا الجيش حتى بلغ الى المدينة فعسكر تحت أسوارها . وكان امين بك حاكمها المؤقت المذكور قـد استماله الانكليز اليهم بالاصفر الرنان فاباح لهم الدخول فيها فاستولوا عليها فى ٢١ مارس وكانت حامية الاسكندرية مؤلفة من ٣٠٠ جندى اعتبرهم الانجليز اسرى حرب وأرسلوهم الى مالطه معتقلين أما أمين الخائن فقد عومل بالحسني ممن

اشتروا ذمته بثمن بخس دراهم معدودات وطلب المسيو دروفيتى فيس قنصل فرنسا خلال المخابرات التى دارت بين الانجليز وأمين آغا إباحة السفر له الى بلاده لكيلا يقع أسيرا فى أيدى البريطانيين فرفض طلبه تقية الضرر الذى يمكن ان يسىء به الى السياسة الانجليزية اذا اطلق من كل قيد فمقد النية على ان لايكترث بهذا الرفض . وكان بالاسكندرية على وجه المصادفة ١٥ بحريا فرنسيا مسلحين بالغدارات فبعد ان اضطروا حراس أحد ابواب المدينة الى فتحه تهديدا بالسلاح انطلقوا منه قاصدين الى رشيد

وفى ٢٧ مارس أوعز القائد الانجليزى الجنرال (واكوب) الى أحد ضباطه بالزحف فى جيش مؤلف من ٢٠٠٠ جندى على ثغر رشيد واحتلاله ليستطيع بذلك امداد الجيش بما يلزمه من المؤن لقرب نفاد المدخر عنده منها حتى اوشكت المجاعة تنشب أظفارها فى الجنود .

وفي ٢٩ مارس احتل الجيش رشيد بلامقاومة وغرته الامانى فظن انه قد أصبح المتصرف فى شؤونها والمتحكم فى أمرها وكانت الجنود قد أعياها الحر الشديد وأمضها تعب المسير على الرمال المتحركة فما كادوا يصلون الى المدينة حتى انتشروا فى طرقاتها

وتجردوا من سلاحهم ليلتمسوا الراحة بالجلوس اوالنوم فى اعطافها
وتوقع على بك حاكم الثغر هذا الامر فلكى يبث الشجاعة فى رجاله
ويوئسهم من الطمع في النجاة نقل السفن والقوارب الراسية على
سواحل رشيد الى الضفة المقابلة لها من النهر ثم استدعى عساكره
من أتراك وارنؤود ، وكانوا متفرقين فى منازل ألزمهم الاختباء
فيها منذ أول النهار فأوقفهم بعتباتها وسطوحها و نافذاتها ثم سار
بشرذمة صغيرة يرود الطرقات فلم تمض لحظة حتى سمعت طلقات
البنادق فى كل مكان مصوبة نحو الانجليز النائمين فلما استيقظوا
من منامهم كان أول همهم الفرار لايلوون على شيء وسقط الجنرال
واكوب على الارض مصابا برصاصتين ولو أن الاتراك لم يقصروا
همتهم كلها فى ذلك اليوم على قطع رؤوس القتلى واقتفوا أثر الفارين
منهم لما نجا منهم أحد او وصل الى الاسكندرية لينقل الى القائد العام
خبر الكارثة. واصيبت أورطة المشاة البريطانيين بخسائر فادحة
وكان من بين ضباطها الذين قتلوا مهاجرو الفرنسيين مثل (ديتو)
و (دى لافيت) و (دى سومريكور) و (دوبلاتل) و (سان
جورج) و (لومتر) وخسر الانجليز فيما عدا الرجال مدفعا معتادا
و مدفع هاون وأطعمة وليمة فاخرة كان قنصل انجلترا فى رشيد
قد أعدها احتفاء بضباط أركان الحرب فتطعم بها عساكر الحامية

الظافرة متلذذين . واسر من الانجليز ١٢٠ سيقوا الى القاهرة في القوارب وشحنت معهم رؤوس تسمين من زملائهم القتلى ووضعت عند وصولها بأطراف الحراب وطيف بها فى الشوارع المارة بميدان الازبكية على صفين متآزيين

وكان محمد على لا يزال يضيق الخناق على المماليك فى الوجه القبلى فاستولى على اسيوط بعد معركة فاصله بالقرب من (منقباد) قتل فيها ثلاثة أمراء وأربعة كشاف وخمسة عشر فارساً ووصلت اليه فى الاثناء قصاد على الهجن فاخبروه بما شرع به الجيش الانجليزى من فتح البلاد فخابر المماليك من فوره فى الصلح على أن يقبل مطالبهم جميعاً بشرط التحالف معه على صد غارة الانجليز عن مصر واقترح أن يكون توقيع هذه المعاهدة بالقاهرة فى حضرة الشيوخ والوجاقلية وأعيان البلاد فتقدم المماليك على الضفة اليسرى حتى بلغوا الجيزة وتقدم الباشا على الضفة اليمنى محاذيا لهم . فلما كان مستهل صفر الموافق ١٠ أفريل وصل الباشا الى القلعة فى منتصف الساعة الثانية عشرة . وما انتشر خبر وصوله اليها حتى اهتز السكان ودب فى صدورهم الحماس وطلبوا الى العلماء والشيوخ التوسط لهم لديه في قبولهم لمحاربة ضد الانجليز فخاطبوه في هذا الشأن فقال :

— أنى أشكر لاهل القاهرة الكرماء هذه الغضبة للحق ولكن عندى من العساكر الشجعان العدد الكفيل بالانتصار وحسبهم وكفى ما يقدمونه من الاموال والاعانات

على أن محمدا عليا لم يلبث أن استخدمهم فى تحصين المدينة ورمّ الاسوار وتعزيز الاستحكامات التى كان قد شادها الفرنسيون وإطالتها من قلعة (كامين) الى بولاق ثم بنى حصنين جهزا بالمدافع الضخمة لوقاية النقط المعرضة اكثر من غيرها لهجمات العدو ونصبت بطريات المدافع على وجه الماء بواسطة جسر أقامه بين ضفتى النهر من قوارب أغرقت فيه عمدا وثبتت فى مكانها بقوائم خشب غرزت فى القاع. وكان المسيو دروفيتي يمد العاملين على إعداد وسائل الدفاع بنصائحه النافعة ويشاركهم فى انجازها على أوفق وجه لصد هجمات المغيرين وكان يرافق الباشا فى جولاته الاستطلاعية ويستنهض همم الرؤساء والزعماء الذين عرفوا ام وزعيمهم الاكبر السيد عمر مكرم كيف يستثيرون الحمية ويوقظون النعرة الوطنية فى النفوس ويبثون الجرأة والاقدام فى القلوب. وجعلت الجيوش كلها تحت قيادة كيخيا بك فلما أمرت بالتأهب للقتال اتجه منها ٤٠٠٠ راجل و ١٥٠٠ فارس جنوب منوف حيث انقسموا شطرين عبر احدهما النهر ثم استأنفا السير احدهما على احدى الضفتين

والثانى على الاخرى

وكان القائد العام فريزر يتلظى شوقا الى الاخذ بثأر قتلى رشيد فأنفذ اليها حملة ثانية بقيادة الجنرال (ستوار) مؤلفة من ٤٠٠٠ جندى ومعززة بستة مدافع ومدفعي هاون وحاصرها حصارا شديدا وظل يطلق القنابل عليها فلما كان اليوم الثالث عشر من هذا الحصار لاح للناظرين على مسافة سبعة أو ثمانية كيلو مترات جيش حسن باشا بالقرب من قرية (الحماد) التى كان الميجر (فوجلسند) على رأس حاميتها وما أخذ هذا الجيش يدنو منها حتى هجمت فصيلة من مشاته وفرسانه على تلك الحامية التى كانت مؤلفة من طوابير من اورطة (رول) الجرمانية فصد أحد هذه الطوابير الهاجين واقتفى أثرهم وأمعن في مطاردتهم إمعانا كان شراً عليه ووبالا لانه كان قد ابتعد كثيراً عن معسكره فساق حسن باشا لمضايقته وتشديد الخناق عليه كوكبة من الفرسان قتلت عشرين وأسرت خمسة عشر من رجاله

وكان كيخيا بك فى برنبال مترددا بين الزحف على رشيد أو الاشتراك فى الهجوم على حماد فلما شهد رؤوس العشرين قتيلا انجليزيا رأى العين فضل الانضمام الى حسن باشا ليشد أزره ويشاطره مجد الانتصار فلما جن الليل اجتاز النهر ولم

تطلع الشمس حتى كان جيشه قد انضم الى جيش حسن باشا .
وكان الميجر فوجلسند قد طلب الأمداد من الجنرال ستيوارت
فأمر هذا الكولونل مكلود بالذهاب الى هذه النقطة فى طابورين
من الأورطة التاسعة والسبعين الأيقوسية وثلاثة طوابير من
الأورطة الخامسة والثلاثين الانجليزية . فلما كانت الساعة
السابعة من صبيحة ٢٢ افريل ورأى ذلك الضابط ان قوات
الاعداء تحرك نحوهم خشى العجز عن مقاومتهم فتقهقر عن
مركزه . إلاّ ان فرسان الأتراك انقضوا على ميمنته لمنعها من
الانضمام اليه، على أن هذا الانضمام كان متعذراً لانقسام جنود
تلك الميمنة الى ثلاث فرق متباعدة بعضها عن بعض فأن المئتى
جندى الذين كان يقودهم الميجر (مور) فى الطليعة تلاشوا عن
آخرهم ووقع هو وبعض خاصة من رجاله أسرى فى أيدى الاتراك .
أما الكولونل مكلود الذى كان يشغل القلب فقد ألف من المائة
إيقوسى الذين كانوا تحت قيادته قلعة اضطرت الاتراك الى الاحتماء
بالآكام والروابى القريبة . غير ان المشاة الالبانيين عجلوا بالهجوم
على الضابط البريطانى فى الوقت الذى كان على وشك الانضمام
فيه الى الميجر فوجسلند وكان الكولونل مكلود قد قتل جواده
من تحته فسقط مهشم الجمجمة فتولى الكابتن (ماكى) القيادة

مكانه ورتب جيشه الصغير الذى كانت تحصد بنادقه العدو شيئاً فشيئاً هيئة طابور حاول ان يخترق به المسافة التى كانت بينه وبين الجنود الاحتياطية وهى بقدر مرمى المدفع مرتين مقاتلا بالحراب ولكن الأتراك أيدوا بسيوفهم بنادق الألبانيين بحيث ان الكابتن ماكى لما أدرك المؤخرة نظر حوله فلم يجد من عساكره سوى سيفه فقط. وكان الميجر فوجلسند قد نظم الطوابير الالمانية الخمسة التي عهد اليه بقيادتها على هيئة قلعة فى ارض غير ممهدة تحيط بها كثبان الرمل وتريث فلما هاجمه الأتراك قاوم مقاومة عظيمة قتل فيها نصف عساكره فيئس من النجاة ولجأ الى التسليم

وبلغ خبر الكارثة الى الجنرال استوارت وكان لا يأنس من نفسه القدرة على اقتحام عدوّ يتلظى حماسة لاعتماده على التفوق فى العدد وثقته بالنجاح فأتلف مدافعه الكبيرة وأحرق ما بقى معه من الذخائر والامتعة ثم أمر في الساعة العاشرة بالانسحاب العام والتقهقر فلما شهد الاتراك والألبانيون ذلك انطلقوا مع ٤٠٠٠ من العربان والفلاحين يطاردون الجيش البريطانى. على ان هذا الجيش كان من آن الى آن يدافع عن نفسه بالمدافع الرشاشة فألزم الشراذم المطاردة له بالعودة الى بلدة الحماد حيث معسكر الكيخيا الذى لم يلبث ان جرد قسماً من جنوده لمطاردة الانجليز

وكان الجنرال استيوار قد بلغ الى بحيرة إدكو فى الوقت الذى لاحت له فيه الجنود المطاردة فرتب جيوشه ثلاث مرات للقتال ضد الاتراك ثم استأنف السير ليلا بدون أن يعترضه أحد . فلما وصل الى ابو قير انزل جنوده فى السفن وسافر الى الاسكندرية

أما أسرى الانجليز فقد ألقي بهم في القوارب مكبلين وأرسلوا الى القاهرة وكان أغلبهم مصابا بجراح بالغة ولم يسعفوا اثناء سفرهم بعلاج ما اذ لم يكن للحرس الذى اقيم عليهم همّ إلا زيادة آلامهم . وكان التعب والحاجة قد اضعفا قواهم وزاد في آلامهم اشتداد الحرارة واصابة اكثرهم بالحميات وبعد ان قضوا خمسة أيام فى هذه الحالة ساروا من بولاق الى القاهرة مثنى مثنى لاينقلون خطواتهم إلا بعناء عظيم. وكانوا فى كل لحظة يسألون شيئاً من الماء وفتات الخبز ليقيموا به أودهم او يجهز عليهم تخلصا من ألم العطش والجوع . وقد أركبوا العاجزين بالمرة عن السير على الحمير وحملوا رؤوس القتلى بأطراف الرماح ودخل هذا الموكب المحزن القاهرة ظهر يوم ٢٠ صفر الموافق ٢٩ ابريل. وكان الاهاون عامة قد نسلوا من كل فج وحدب ووقفوا متزاحمين متلاحمين في الطرقات فلما مر أمامهم الاسرى أخذوا يقذفونهم بصنوف الشتائم الفاضحة ويلوثون أيديهم بما كان يسيل من دمائهم

على الطريق . وكان المنظر يفطر القلب ويفتت الكبد ويوجب الأسف وفى ميدان الازبكية مر الأسرى بين صفين من جماهير الناس كانوا يحملون بأطراف رماحهم رؤوس القتلى فى واقعة رشيد فلما وصلوا الى القلعة وضعوا فى غرف رطبة غير ملائمة للصحة واحصى عددهم فاذا بهم لا يقلون عن ٤٦٦ عدًّا

ولقد عوملوا فيما بعد معاملة تخالف على خط مستقيم معاملتهم السابقة . فان محمدا عليا لما جبل عليه من الكرم والشفقة أراد ان يعوض عليهم ما أصابهم من قسوة العساكر وشماتة الاهلين فعنى بأمر الجرحى وأجابهم الى مطالبهم وحقق أمانيهم وجعل لكل من الميجر مور والميجر فوجلسند مسكنا لاقامته بالقلعة ملائما لمكانته ومقامه . وحصل بعض المرضى على الاذن لهم بالاقامة فى القاهرة عند بعض الفرنسيين الذين اكرموا مثواهم وأحاطوهم بصنوف العناية والرعاية واهتم قنصلنا بالبحث عن الجراحين والأدوية اللازمة لعلاجهم وأخذ من عند الأوروبيين والدمشقيين الهدوم والثياب لكسوتهم . وكان يطوف عليهم كل يوم متفقدا أحوالهم وكتب القائد العام الجنرال فريزر الى الباشا يوصيه بأبناء جلدته خيرا وأرسل مع هذه التوصية آلات للجراحة وكانت القاهرة فى ذلك الوقت خالية منها وأمر

الصراف الانجليزى بأن يدفع كل تحويل يسحبه الضباط لافتداء أنفسهم من الاسر . ولعل عطفه هذا على جنوده سيخفف أمام التاريخ مسئوليته التى نشأت عن اغلاطه فى تدبير خطط القتال

وكان أحد البكباشية الالبانيين أسر ضابطا انجليزيا فأصبح بحكم العادات الشرقية مملوكا له وكان البكباشى يشدد عليه المراقبة ويضايقه لكيلا يفلت من يده فلما مل المملوك حرج هذا المركز التمس النجاة بحيلة أحكم تدبيرها فقد قال يوما لمولاه إن معه سفتجة بألف قرش إسبانى تبيح له قبضها من القنصل الفرنسى فأخذ الألبانى هذه الورقة المالية وذهب مع الأسير مملوكه الى الوالى ورجا منه التوسط لديه حتى يدفع القيمة فخابر محمد على باشا الموسيو دروفيتى فى الامر فأجابه بان السفتجة مزورة وان الضابط أراد بها الخلاص من ورطة الأسر وذل الاستعباد فتأثر الوالى لهذه الحكاية وافتدى الاسير بمال من عنده وأعتق رقبته

وكانت اعمال الدفاع بالعاصمة وضواحيها لاتزال مستمرة فحفر خندق واسع عميق حول الحصون وأحيطت هذه بالاسوار وحفر خندق آخر حول الاستحكامات وجعل متصلا بالنهر ليسهل عليه جر الماء اليه عند مسيس الحاجة . وكان الاهالى يخرجون صباحا لحفر الارض ونقل الاحجار ويتفقدهم الوالى

من آن الى آخر وجمعت الخيول احتياطا ورممت أسوار رشيد وقلعة جوليان . ولم يفكر فريزر بعد أن عراه من الفشل والياس ماعراه بسبب الكارثتين اللتين نزلتا بجنوده دراكا فى عمل تدبير للقتال ، مكتفيا بتحصين الاسكندرية التى كان البحر يحميها من جهة والماء الذى طغى على الارض عقب كسر جسر بحيرة مريوط وفصل بين الثغر وأراضى القطر المصرى من جهة أخرى

وكان المماليك الذين أرسل اليهم الميجر (ميست) قنصل جنرال انجلترا فى اليوم الرابع لوصول الحملة الانجليزية الى الثغر الاسكندرى رسلا يطلبون إعانتهم على قتال محمد على باشا فى في مقابل تسليمهم إياهم زمام الحكم على مصر التكأة الوحيدة التى يستند الانجليز عليها فى تحقيق آمالهم . لهذا لم يكد الانجليز يستولون على الاسكندرية حتى أرسلوا اليهم ذلك النداء على يد معتمدهم الذى نصحهم بالحضور الى دمنهور ووعدهم فيما ذكر من الوعود تعزيزهم بجيش كبير على وشك الوصول من انجلترا. وذكرهم فى الآن نفسه بالعهود التى قطعها محمد بك الألفى على نفسه ولكن المماليك لم يسارعوا الى إجابة هذه المطالب

وكان محمد بك المنفوخ وكثير من صحبه وأعوانه لا يفهمون كيف

استطاع الأتراك دحر الأوروبيين وقهرهم على الوجه المتقدم. ولعلهم كانوا يودون ان يمدوا يد المساعدة اليهم ولكنهم لم يستطيعوا ذلك لما شجر بينهم من الشقاق الذى يتعذر معه توحيد الاجراءات الحربية فى المعارك المنتظمة. أضف الى ما تقدم أنهم كانوا يخشون بأس محمد على باشا الذى ما انفك منذ صالحهم عن وصفهم بوصف الاصدقاء والحلفاء ودعوتهم الى الاقتراب من القاهرة ومكاتبتهم بواسطة المشائخ يهنئهم بميولهم السلمية التى أوجبت لهم احترام مواطنيهم فظلوا يوفدون اليه الكشاف لتقديم مفروض احترامهم وخالص ولائهم وصدق نزوعهم الى الوئام والاتفاق

واستفحل النزاع بين زعماء المماليك بعد ذلك واضطرب حبلهم فتفرقوا أيدى سبا فذهب فريق منهم الى بنى سويف وفريق الى الصعيد والفيوم فلما رأى محمد على باشا أنه لامنازع له على الحكم بتخاذلهم وأنهم لزموا الحياد حياله وأن ولاة الشام وافوه بخمسمائة من الدلاة تعزيزا لقوته اعتزم الزحف بنفسه لقتال الانجليز بدمنهور فارسل فى السفن مقادير هائلة من الذخائر والمدافع ثم تحرك بجيشه فعسكر بامبابه حيث اجتمع لديه ٣٠٠٠ راجل و١٠٠٠ فارس وعقد لطبوز أوغلو وعمر بك وعابدين بك على قيادة فرق هذا الجيش تحت إمرته العامة ، ولكنه ما كاد يتم هذه المعدات

حتى جاءه أحد ضباط أركان حرب الجنرال فريزر يحمل رسالة تتضمن اقتراحا بعقد اتفاق بينهما أساسه الجلاء عن الاسكندرية لان الحكومة الانجليزية أمرته بمغادرة القطر المصرى على الفور وكانت هذه الحكومة قادمة من التوقيع على معاهدة (تلسيت) فأصبحت فى حاجة بذلك الى حشد القسم الأوفى من جيوشها فى جزيرة صقلية فاستقبل الباشا المبعوث البريطانى بمظاهر الاحتفاء والتكريم وقال له إنه كان على وشك الزحف على دمنهور وسيتحرك اليها فعلا فاذا ما وافاها بحث فى الاقتراح المقدم اليه من قائد الجنود الانجليزية ثم أناب محمد على عنه في الولاية محمد أغا لاظ بَدلا من طبوز أوغلو. ومحمد أغا لاظ هذا هو الذى رافق ابراهيم بكري أبناء الوالى الى الاسكندرية ليضع نفسه رهنا عند قبطان باشا على الوفاء بالعهد الذى قطعه ابوه على نفسه

وفى هذه المدينة التقي بالجنرال (شربروك) المندوب للمفاوضات من قبل الجنرال فريزر فأذا بهذا يشترط في الجلاء عن الاسكندرية تسليم الاسرى اليه ، فرضي الباشا بهذا الشرط من غير تردد وأهدى الجنرال شربروك كركا من السمور وجواداً كريما كما اهدى الى من معه من الضباط سيوفا قيمة ثم أمر بترحيل جميع الاسرى من القاهرة الى رشيد . وفي ١١ رجب الموافق ١٤

سبتمبر اقلع الاسطول الانجليزى من الميناء القديم وعاد الوالى من دمنهور فى ألفي رجل واصلوا السرى طول الليل . وفى الفجر نصب خيامه بسواحل بحيرة المعدية حيث اقبل الكونتر أميرال (هالوول) وكان هذا القائد البحرى الذى استلم قيادة الاسطول منذ توفى الأميرال لويس بالحمي الخبيثة واحتفظ بجثته لتدفن فى انجلترا بعد ان وضعها فى برميل مملوء بشراب الروم ينتظره فى زورق . ثم استأنف محمد على سيره حثيثا الى الاسكندرية فوصل اليها فى ١٥ سبتمبر وكان متولى أمورها طبوز أوغلو . واغتنم محمد على فرصة وجوده بذلك الثغر للمبادرة بتوطيد شوكته فيه لانه امنع موقع حربى فى مصر بل هو بابها الحربى الوحيد وما استقر به المقام فيه حتى وفد عليه القناصل والقواد والشيوخ واعيان التجار للسلام عليه وتفرغ لتنظيم الترسانة (دار الصناعة) حيث كانت تصنع أدوات المدفعية وراجع سجلات الجمارك وأوفد الى القاهرة مصطفي أغا الكردى لاخبار الديوان بانسحاب الجنود الانجليزية وأرسل الباب العالى الى محمد على باشا على أثر هذا الجلاء خلعا من السمور وسيفا مرصعاً اشعارا برضاء جلالة السلطان عنه وتهنئته له بفوزه الباهر وخلعا أخرى وهدايا برسم كل من حسن باشا وطاهر باشا وعابدين بك وعمر بك وصالح كوش.

الباب السابع

الوقائع الأهلية الاخيرة

١٨٠٧ — ١٨١١

كف العربان والفلاحون عن الحضور الى السوق بالحاصلات الغذائية كعادتهم ولم يصل الى الاسكندرية منذ قطع السد ماء النيل لتملأ به الصهاريج فلما شحت الواردات وفسد فى الاذواق طعم ماء الآبار استاءت حامية هذا الثغر وسمعت باستيائها حامية القاهرة فاقتدت بها وبالغ الالبانيون منهم بالعاصمة فى التمرد والهياج والعيث الى حد انهم كانوا يطردون السكان من منازلهم ويخطفون النساء من الطرقات وانتهت انباء هذه الحوادث الى علم الباشا فغادر الاسكندرية فى ١٥ شعبان الموافق ٨ اكتوبر متبعا طريق البر . وقد قصد أولا الى رشيد يصحبه حسن باشا وبعض ضباط الجيش وقواده حيث أقام بضع ساعات أمر فى خلالها بانشاء سياج للمدينة ثم سافر بحرا وكانت الريح موافقة فسارت قنجته سيراً سهلا سريعاً فلما وصلت الى وردان هبت

عاصفة فقلبتها فلم يأبه محمد على باشا لهذا الحادث بل حفظ تجاهه الثبات والجلد وصاح بالنوتية ان يهتموا بانقاذ رجال حاشيته دونه ثم ألقى بنفسه فى النيل فوصل الى الضفة الأخرى سباحة . وحدث عند وصوله الى القاهرة أن عثر جواده وكبا به فاعتبر هذا الحادث مع حادث القنجة فألا سيئا تطير منه وتوقع بسببه الحوادث المكدرة

وفى ٢١ شعبان الموافق ١٤ اكتوبر وصل الى القاهرة فدخل داره التى بالازبكية فتهافت عليها الشيوخ والأعيان للسلام عليه وتهنئته بنتيجة الحملة إلا انهم شكوا اليه عبث الالبانيين والدلاة ولم يستصوبوا إلقاء حبلهم على الغارب فنظر الى هذه الشكوى بعين العطف وشدد على الموكلين بحفظ النظام والأمن فى مداومة التيقظ وتسيير العسس ليل نهار وآلى على نفسه القيام بهذه المهمة فكان يخترق أحياء المدينة على اختلافها واتفق انه كان مارا ذات مساء امام نسوة يرقصن فى الطريق وحولهن بعض البطالين يتسلون بالنظر اليهن فبلغ من وقاحتهن أن حيينه بدق الساجات دقا شديدا فأحب بعض الحرس منعهن وتنبيههن الى مايجب من الاحترام والتعظيم لولى الأمر . وكان بعض الجند يتمتعون بمرأى الرقص من سطح أحد المنازل فلما سكتت الراقصات إذعانا

لامر الحراس ساء هؤلاء ان ينغص عليهم فأطلق أحدهم عيارين نارين قتل بهما جواد أحد الضباط فما كاد الوالى يرى هذا الفعل حتى أمر باحراق البيت بمن فيه ولكن كبير أولئك العساكر دنا منه ملتمسا العفو ومعتذرا عن رجاله بان ما أتوه من ذميم الفعل إنما هو لأنهم فقدوا الصواب بما شربوه من المسكرات فعفا عنهم ساحبا أمره بأحراقهم

وكان عشرة آلاف جندى أى الجيش كله تقريبا موجودا بالعاصمة والحنق والتذمر يسريان بينهم سريان النار في الهشيم فلما كان الخامس من نوفمبر طلب الالبانيون ان يدفع اليهم مؤخر مرتباتهم فأبى فوقفوا صفوفا امام السراى وأطلقوا الرصاص عليها فأمر الوالى بان لايقابل عملهم بالمثل فانصرفوا وبعد انصرافهم تقدم الدلاة وفعلوا فعلهم فامر محمد على بصد القوة بالقوة فقتل أربعة من المهاجمين وجرح سبعة أو ثمانية وتراجع الباقون ولكن تأهبا للأخذ بثار اخوانهم وشاع فى المدينة هذا الخبر فأغلق التجار الاسواق والحوانيت وساد الرعب والانزعاج الليل كله

وفي اليوم التالى أحسّ محمد على بأنه ينقصه وسائل الدفاع في سرايه فانتقل الى القلعة بخزائنه تحت حراسة المماليك الفرنسيين بقيادة عبد الله ديرو ثم ارسل خازنداره الى السراى المهجورة

لاحضار ما فيها من الآثاث والرياش فوجدها قد نهبت وجردت من موجوداتها ولقد استمر الهرج ثمانيـة أيام بدون أن يشترك فيه أحد من الاهلين وحدث خلافا للعادة أن أمسك الشيوخ والصلحاء عن الاحتفـال برؤية هلال رمضان، وكان يوافق أول نوفمبر، اتقاء ما لعله يقع من المكروه ولم يقف أغوات الانكشارية ورجال الضبط لرصد الهلال من نوافذ المحكمة الشرعية ولم يؤلف أرباب الحرف والطوائف موكبهم المعتـاد إيذانا بالصيام وذهب الشيوخ الى الوالى مرارا وتكلموا معه فى صرف المرتبـات المتأخرة للجنـد حتى يكفوا عن عيثهم وكانت تبلغ ٢٠٠٠ كيس فاتفق معهم على أن يتحمل التجار نصف هذا المبلغ وارباب الحرف والملاك النصف الآخر

ولما توطدت شوكة محمد على باشا التى خضدتها هذه الحركة الثورية عقد النية على التخلص من مثيرى الفتنة لاتقائها فى المستقبل وكان من اكبر زعماء الثوار ألبانى اسمه رجب آغا وهو ممن تولوا قيـادة المشاة فى جيش ألفي بك فأمر الوالى بنفيه وانذره بمبارحة القطر فعصى الأمر فناط محمد على بحسن آغا القبض عليه لنفيه وكان رجب آغا يسكن احد الاحياء العامرة بالقرب من باب الخرق فانحلب اليه الناقون والمتذمرون من كل مكان

وتأهب لمقاومة حصار منظم فهيأ منزله بشكل الحصون ودق الاوتاد الكبيرة فى الطريق واسند اليها ما يتترس به فلما وصل حسن باشا أقام متراسا تجاه متراسه فى نفس الطريق ولكى يتمكن من التقدم الى الأمام نقب المنازل الفاصلة بينهما وأتم هذا العمل مقرونا بالنهب والسلب لأن الجندى كان في ذلك الزمن لا يطأ مكانا إلا ويختص بخير ما يحتويه . وفى اليوم الرابع توسط صالح قوج وعمر بك لانقاذ رجب من الخطر الذى يتهدد حياته فذهبا به الى بولاق واركباه السفينة الى دمياط

وكانت أسباب هذا الهياج مرتبطة بحادث مما يؤدى اليه الاختلاط والالتباك عادة في كثير من الاحوال فانه لما كان الباشا بالاسكندرية ظهر فى بنها العسل رجل انتحل المشيخة والولاية فالتف حوله كما يقع غالبا فى مثل هذه الاحوال فريق كبير من السذج والنوكى ودعوا اليه وحبذوا طريقته وضاقت بهم البلدة فضربوا حولها الخيام والصواوين لأيواء آلاف الواردين من كل صقع لالتماس بركات الشيخ وكانوا جميعا فى عوز شديد لأيسر أسباب المعيشة من طعام وشراب نخطر له أن يتولى تغذيتهم والانفاق عليهم ليحرز رضاهم فانصرف يفرض الفرض والعادات على أهل الاقليم زاعما أنه لايحق لأحد غيره أخذ حصة من محصولاتهم

وان عليهم منذ الآن فصاعدا الأمساك عن اعطاء شيء ما لأعوان الظالمين الذين يجبون الاموال وينهبون المحاصيل . وقد جاء هذا التحريض بما أراده الدعي الكذاب فان العساكر الذى نيطت بهم جباية الاموال قوبلوا من الاهلين بالخشونة والأذى ولم يجبوا شيئا . وحمل الشيخ نجاحه فى دعوته على توسيع دائرة عمله ودعا الى التفاف الاحزاب حوله وتواردت الانباء عليه باستعداد أهل القاهرة لمشايعته فى طريقته فانطلق اليها معللا النفس بالامانى الكبار ودخلها تتقدمه الطبول والبازات وتخفق فوق رأسه الرايات والأشارات ويحف به مائة وستون من الصحب والانصار وفى أعناقهم عقود الخرز الملون وسار فى موكبه هذا الى مسجد الحسنين وهو الوحيد من مساجد القاهرة الذى يباح للنساء الزيارة فيه يوم السبت فتوجه حملة الفرقعات (الفرقلات) من رجال الدعي الى دار السيد عمر مكرم وأخذوا يفرقعون بأسواطهم فرقعة تصم الآذان ثم عادوا الى المسجد وكان كيخيا الوالى قائماً مقامه فى الحكم يومئذ لغيابه فأمر باحضار الشيخ سليمان وهو ذلك المتنبيء فلما أبلغ الأمر الى شيوخ المسجد أبوا أن يكون القبض عليه فى حرمه فأصر الكيخيا على طلبه وشرع أعوانه يهدمون منزلا لجأ اليه جملة من أولئك الأنصار وحرضه

بعضهم الرجل على طلب النجاة بالتماس مكان حريز يأوى اليه خارج أسوار القلعة على مقربة من الأمام الشافعي فعمل بنصيحتهم ولكنها لم تنقذه من أيدى اعوان الكيخيا اذ قبضوا عليه وجاءوا به اليه ولما مثل أمامه لم تنبس شفتاه بكلمة فوبخه على كذبه وفساد مذهبه وقبيح فعله ثم قال له إنه لو كان عاقلا رشيدا لفضل العودة الى قريته وزاول الزراعة ليعيش بما يكسبه من كده وعرق جبينه . وعامله نائب الوالى بعد ذلك بالرفق وحاسنه الى حد أنه أمر له بقارب لسفره الى بلده وأرفقه بحرس من العساكر ليوصلوه الى قريته ويقطعوه من الارض مايكفيه ليعيش عيشة راضية

غير انهم ألقوا الشيخ وأصحابه فى البحر فغرقوا إلا واحدا منهم جيد المعرفة بالسباحة فانه سبح فبلغ سالما الى احدى الضفتين ثم أركن الى الفرار

وحدث من هذا القبيل ان جاءت امرأة تدعى السحر والأخاء مع الجن الى دمنهور وقالت إن العفريت الذى عليها لا يسمع صوته إلا في الظلام كأنه آت من باطن الارض وأنه يمد يده الى من شاء ليلثمها وأنه إذا مدها كانت كأنها بارزة من جدار الخ مازعمته من الخزعبلات . ولقد غررت بعقول الكثيرين حتى اعتقدوا بها ومنهم جماعة من الارنؤود ثم حضرت الى القاهرة

فأخذت تخترق الطرقات راكبة فرسا ومن أعجب العجب ان الناس
كانوا يقفون لها صفوفا ألوفا إجلالا لها وتقديرا لكراماتها وخشى
الباشا أن تكون هذه المرأة آلة بيد أعداء له يعملون ضده فى
الخفاء بالتأثير فى عقول العامة وافساد أفهامهم فاقسم ان يكشف
النقاب عن الحقيقة فاستدعى أربعة من مهرة البهلوانية ووعدهم
بعشرة اكياس من الذهب اذا جاءوه بالساحرة المزعومة فتغلب
عندهم حب المال على الخوف من العامة فاستقصوا من فورهم خبرها
وقصوا أثرها حتى اهتدوا اليها فى بيت الباش آغا رئيس العسس
فى جم غفير من المصدقين لخز عبلاتها فلما تقدموا للقبض عليها غضب
هؤلاء وهموا بأخراج البهلوانية الأربعة من الدار قائلين ان البيت
لينقض اذا مست ايديهم المدنسة هذه المرأة الصالحة وكان فشلهم
فى سعيهم باعثا على انتشار سمعة الساحرة وإقبال الناس عليها من كل
الجهات ورأى الوالى أن استفحال أمرها يستلزم الوسائل الصارمة
لاتقاء ضررها فطلب اليه الباش آغا وقال له إنه مشتاق لرؤية
ماتعمله المرأة ليعجب مع الجمهور بها فاخذها الباش آغا الى ميدان
الازبكية قبيل الغروب وكان الباشا فيه بالقرب من ساقية
يدخن النارجيلة تحت شجرة جميز . فلما أقبلت المرأة نحوه رجا
منها ان تطلعه على مايقوله الجنى ثم ذكر لها انه يحترم الجن ويود

تعظيمها فقالت المرأة بثبات ان محادثة الجن لاتتيسر الا فى الليل وان الجنى الذى تؤاخيه انصرف منذ ساعة الى المقام الحسينى ولا بد من انتظاره حتى يعود فسألها الوالى وهل يتأخر طويلا ! فأجابته كلا فأنه لن يتأخر

دارت هذه المحادثة على مسمع جم غفير من محبي الوقوف على حقائق الاشياء وكان محمد على يجهل العربية كما كانت محدثته لا تعرف التركية فكان المسيو بوزارى طبيبه الخاص المترجم بينهما لأجادته اللغتين بدرجة واحدة

عاد الباشا الى سرايه يحف به الآغاوات والبكباشية الذين كانوا يمنون أنفسهم بمشاهدة معجزاتها فجلسوا فى المنظرة وصعد محمد على الى الحرم حيث تناول بعض الطعام فلما جنّ الظلام ووصلت الساحرة نزل وجئ بها أمامه وكانت قبل دخوله قد قامت ببعض تجاربها السحرية على مثال أوجب دهشة الحاضرين فلما وقع عليها نظر محمد على سألها عن الجنى هل عاد من المشهد الحسينى فأجابت نعم فأمر بأطفاء الانوار وكان اسم الجنى الشيخ على فنادته باسمه وسألته أسئلة فأجاب بصوت أجوف يخيل للسامع انه صادر من بعيد . فاستأذنه الباشا فى لثم يده تبركا به فأبى الشيخ متجنيا إلاّ انه رضى فى آخر الأمر تجاه الحاحه ومد

اليه ذراعه فأمسك الوالى بها وصاح باحضار النور فأذا بالذراع ذراع المرأة نفسها وأدرك أنها ممن يتكلمون ببطونهم وهي خاصية فى بعض الناس. فلما انكشفت الحيلة وعامت المرأة حرج مركزها سألته الصفح عنها وأخذت تصيح بملء شدقيها: « سيبني انا امرأة غلبانه مسكينة » وكان الباشا على وشك ان يصفح عنها ويطلق سراحها ولكن بعض الحاضرين غاظهم تدبيره وقالوا إنه تهجم على كرامة الاولياء والصالحين ومرمروا بكلمات الكافر و الزنديق وما أشبههما فلما رأى الباشا امتعاضهم صاح بهم قائلا :

— إنكم لأغبياء وجهلاء . أو تحبون أن تخدعوا أنفسكم بخزعبلاتها وتصدقوا حيلها وأكاذيبها ؟ إنكم إذاً لا يستطيع أحد أن يقنعكم بكذب هؤلاء الادعياء ! خذوا هذه المرأة والقوها حالا فى بحر النيل

فما سمع الحاضرون هذا الامر الصارم حتى ازدادوا استياء وتذمرا فأخذت الباشا عزة الكبرياء والحق ثم وقف فى مكان أشرف منه عليهم وقال :

— ماذا تريدون ؟ أتريدون ان متشردة كهذه تسخر منكم الى النهاية . لقد قررت ان يكون النيل قبراً لها فهي نازلة فيه ولا بد ان تنزل، فاذا كان الجنى الذى تدعيه يستطيع امدادها بعونه

فليعدها بعد إغراقها الى وجه الماء فاذا لم يستطع فلا تكون حكاية الجنى الا أكذوبة فاضحة وقصة ملفقة وفى هذه الحالة يجب ان تعاقب المرأة بعقوبة من يجرأ على غش الأمة وخدعها

سيرت المرأة فى جمع حشيد من الناس الى شاطيء النيل لتلقي جزاء ما زعمته من باطل ولفقته من كاذب وكانوا اثناء سيرهم خلفها يتحدثون فى صرامة هذا الحكم ويصفونه بالظلم وغالى بعضهم فوصف المحكوم عليها بالشهيدة فلما وصل الجند بها الى حافة النيل ألقوها فيه ثم انتظروا وانتظروا طويلا فلم يعدها الجنى الى وجه الماء

ومما لا ريب فيه ان الحكم كان صارما جداً ولكن كان يسوغه من جهة السياسة أن المرأة التى تستطيع بمكرها ودهائها أن تجمع حولها ذلك النفر من الأعوان لقديرة على استدراجهم هم وأمثالهم الى ارتكاب الأعمال الضارة فكان من الواجب على الوالى من باب الاحتياط ان يظهر ازدراءه بكل ما من شأنه افساد أذهان العامة وسوقهم الى ارتكاب المنكرات

وبعد ان قضى الباشا القضاء المبرم على هاتين الحركتين الشريرتين لم يبق ما يشغل خاطره سوى تطهير البلاد من كل أثر للمماليك وجعل إصابة هذا الغرض نصب عينيه وأخذ يبذل

فى سبيله وسائط الحيلة تارة والشدة تارة أخرى فكان من نتائج ذلك ان تقرب منه بعض المماليك ومنهم شاهين بك الذى أحب الباشا أن يتودد اليه ويكسب ثقته فامر الحرس والموسيقى بالسير فى موكبه يوم حضر من مصر القديمة الى القلعة وأعد له فى قصر طوسون باشا وليمة فاخرة وألبسه أثمن كركى من السمور وأهداه الخيل المسومة والشيلان الكشميرية والخناجر المرصعة بالماس والجوارى الفاتنات بجمالهن وكان ذلك كله فى مقابل هدية اهداها هو له مؤلفة من عشرين جارية سوداء وأربعة آغاوات وثلاثين جوادا ومائتى قنطار من السكر والبن اشترك فيها معه ابراهيم بك ومحمد بك المنفوخ وأجاز الباشا لشاهين بك الاقامة بالجيزة وامتلاك عشر من القرى حولها مع اقليم الفيوم برمته وثلاثين قرية من البهنسا ، فتوارد من بعده للسلام على الباشا وتقبيل أطراف ثوبه تعظيما له جميع البكوات من بيت شاهين بك وهم نعمان ومراد واحمد وحسين فعادوا من حضرته محملين بالهدايا الثمينة . وكان سليمان بك البواب وأربعة من الكشاف ولفيف غيرهم من المماليك قد سئموا معيشة المعسكر فتواتروا تباعا الى قصر الوالى وسلموا بانفسهم اليه وأوفد ابراهيم بك ابنه مرزوقا لينوب عنه في أداء هذا الواجب فقلده محمد على باشا ولاية

جرجا وذكرنا فيما تقدم ان الباشا كان كثير التذمر والاستياء من الدلاة فمحا اسماء ستمائة منهم من بين اسماء العساكر الذين يحق لهم تقاضى المرتبات ووجه بهم الى سوريا مع قائدهم الكردى

وفى ٢٤ دسمبر سنة ١٨٠٧ وصل من الاستانة العلية قابجي وعلى يده فرمان باسناد ولاية مصر الى محمد على عن السنة التالية ودفترداريتها الى ابنه ابراهيم بك فسارت الاحوال على أحسن منوال. وكانت كذلك حينما ظهر من بين المماليك زعيم اسمه يس بك كان قد تقلد كشوفية الفيوم من البرديسي وأخذ يجوب انحاء مصر الوسطى فأقصاه الباشا عن ضواحى القاهرة بالمطاردة العنيفة على يد الالبانيين وعرب الحويطات ووالد يس بك نفسه الى شرق اطفيح. واتحد المماليك الذين كان يس بك يعتدى عليهم بالسلب والنهب والقتل لمقاومته وانضموا فى ذلك الى جند الباشا وما زالوا به حتى ضيقوا عليه الخناق فلما يئس من كل سند ومدد تنازل عن المنيا، وهي آخر البلاد التى اعتصم بها، الى خازندار الوالى وجيء به الى القاهرة ثم أرسل منها الى دمياط في ١٨ فبراير سنة ١٨٠٨ فجزيرة قبرص

وكانت قبائل العربان منشقة أيضا بعضها على بعض ودارت بينها رحى القتال فقبيلة الهنادى وقبيلة جامع أخرجتهما من البحيرة

بغير حق قبيله أولاد على فخضرتا الى العاصمة تلتمسان حماية الباشا فامر عساكره بتأديب القبيلة العادية وصدها الى الصحراء وانتصرت عليها مرتين نصرا مبينا . وشاعت فى القاهرة اثناء ذلك أنباء الثورة التى افضت الى جلوس السلطان محمود على عرش تركيا فلم يحفل محمد على بهذا الحادث الخطير وانما امر بان تكون الصلاة باسم السلطان الجديد غير مقيدة بأمره من يريد الصلاة باسم السلطان الفقيد . وهو سليم الثالث الملقب بمحب الاصلاح ولم تمنعه وفاة هذا السلطان من المثابرة على تحقيق اغراضه الخاصة بالتجديد فى مصر ، فاحتفل بافتتاح كثير من الاعمال التى ستخلد ذكراه على مر الادهار وكانت الحوادث والفتن التى تصدى لقمعها صارفة لنظر الحكومة عن مباشرة الاصلاحات التى لا تستدعى سرعة الانجاز . أما الآن وقد تفرق بقية أعداء محمد على بأطراف الصعيد فلم يبق له إلا ان يتولى اصلاحها وقد كان فى مقدمة اصلاحاته ترميمه عيون مصر القديمة الواصلة بين النهر والقلعة واقفاله بحر منوف الذى كان يستنفد مقدارا عظيما من الماء فيجعل منسوبه فى فرع دمياط واطئا وينشأ عن ذلك حرمان أغلب الارض الزراعية من الرى واقامته بالمدائن الأسبلة لارواء العطاش من ابناء السبيل وحفره الصهاريج لادخار الماء بالجهات التى

يقل فيها وإخضاعه الأدارة والجباية للأنظمة الجديدة العادلة .

وحدث ان كاشفا اسمه محو بك كان على دمنهور وكان مستبدا ظلوما قبض على أحد تجارها الأغنياء وفرض عليه مبلغا عظيما ليطلق سراحه فلم يسع المسكين إلا أن باع ما يملك لأداء المطلوب ولكن ثمنه لم يف به فألقاه فى غيابة جب عميق حتى مات وطلب أهله تسليم جثته اليهم فكان جواب محو لهم أنه لايفرط فى الرجل حيا ولاميتا إلا إذا حل ابنه فى السجن محله أو يؤدى ماكان مطلوبا من أبيه فلما اتصل بمحمد على هذا النبأ سخط على محو بك وصادر أملاكه ونفاه

وحدث أيضا فى ٢٣ جمادى الثانى ١٢٢٣ الموافق ١٦ اغسطس سنة ١٨٠٨ أن انخفض النيل فجأة بدلا من اطراده فى الارتفاع كالمألوف فى هذا الحين فتوجس الناس خيفة وتوقعوا القحط والمجاعة وما لبث ان اختفى القمح من الاسواق وخبأ المضاربون أصناف الحبوب وانزعج الشعب واستغاث وتوافد الشيوخ على محمد على فلم يروا لتفريج الأزمة منفذا إلا التضرع الى القدرة الربانية فى صلاة الاستسقاء ان يرفع النيل الى النصاب الموافق للزراعة فاجتمع الرجال والنساء والاطفال لهذا الغرض فى مسجد عمرو حتى غص بهم داخلا وخارجا وأقام السيد عمر مكرم نقيب

الاشراف تلك الصلاة التى حضرها فيما عدا العلماء والطلبة والائمة المسلمين من عرب وترك جميع من كانوا بالقاهرة من الحاخامات والربابنة والبطارقة الاقباط واليونان والأرمن والقساوسة ومبعوثى « الارض المقدسة » اللاطينيين والمبعوثين الايطاليين لنشر المذهب المسيحى والقسوس الموارنة الخ ؛ فكان منظر هذا الاحتفال جليلا مهيبا إذ تساتل اليه جميع الناس على اختلاف الاعمار والطبقات والمذاهب واللغات والتقوا فى مكان واحد الا وهو أول مسجد بنى للاسلام فى مصر وان للتاريخ الدينى ان يتذرع بهذا البرهان ليدمغ به على ملأ من الناس كل من يتهم المسلمين بالتعصب وعدم التسامح . ولقد صادف هذا الدعاء قبولا من الذات الالهية فانفرج الكرب وتبدد الحزن اذ لم تطلع شمس اليوم التالى لهذه الصلاة حتى ارتفع النهر الى المستوى الذى هبط منه وفى ٢٢ من الشهر قطع سد الخليج وجرت المياه فيه باحتفال عظيم

وبعد ذلك بيومين سافر الباشا الى دمياط فرشيد فالاسكندرية لاستجماع البيانات التى تعاونه على وضع أسلوب جديد لجباية الاموال وقد أحب ان يستميل اليه رجال المابين الهمايونى فأوفد الى الاستانة العلية مهرداره امين افندى لتسليمهم

مقادير وافرة من الأرز والبن والسكر والاقمشة الهندية النفيسة على سبيل الهدية

ولما عاد محمد على الى القاهرة أنس من الشيوخ ورؤساء الجند انحرافا عنه وميلا الى معارضته قد تولدا فى نفوسهم أثناء غيبته القصيرة عن العاصمة وتبين له انه قد أصاب في حدسه فأمر عمر بك الارنؤودى بالتخلى عن منصبه. وكان محمد على مفتقرا الى المال فأخذ مالزمه من مال الاوقاف فكثر اللغط بذلك بين العلماء وآل الأمر بهم الى تعطيل الدروس وبثوا فى نفس الجمهور روح التذمر والتمرد وطلبوا من نقيب الاشراف التوسط فى الامر فجمع المشائخ اليه واستكتبهم عرضاً طلبوا من الباشا فيه إعفاء املاك الأوقاف من الضرائب وآلوا على انفسهم الألية ان يظلوا متحدين لصيانة حقوقهم وامتيازاتهم وقدمه الى ديوان افندى وذهب بعض الموقعين عليها الى السراى وعاتبوا الوالى على فعله فجاوبهم على عتابهم بقوله: « هل أنا الذى يستفيد وحده من الضريبة! ألم تكونوا انتم الذين يبهظون كاهل الأمة بأثقل الأعباء ويكبدونها الضحايا؟ أنتم معشر الحاضرين هنا سبب شقاء الامة وآلامها لانكم مع تمييز الحكومة لكم باعفاء املاككم من الضريبة مابرحتم تتقاضونها من الفلاحين وهى لاتقل بمقتضى مابيدى من المستندات عن

ألفي كيس ولسوف أفحص هذه المستندات وأبيع من الاملاك المبينة فيها ماتجاسر اصحابه على جباية الضرائب الملغاة . ولقد سبق لى أن أنذرتكم منذ أقل من شهر بأن ساعة العدل آتية لاريب فيها . وأخبركم الآن باننى متى نظرت في مستنداتكم وحججكم قررت إلغاء ما لم تؤيده الشهادات الصحيحة منها . انكم اليوم تعقدون المجالس بالمساجد وتتكلمون عن والى مصر بلهجة تكاد تكون لهجة الآمر وهى نزعة باطلة تستدعي الضحك والازدراء ولا أحب ان تتكرر مرة أخرى . واذا كان بعض المجانين الذين يتزيون بأزيائكم قد تراءى لهم ان يحركوا العامة ويهيجوها علىّ فلتكونوا على علم بان أمثال هذه الخزعبلات ان تحرك منى ساكنا فلمن يريد منكم الفتنة والعصيان ان يرفع لواءهما فانى رامٍ بسيف نقمتى عنق من يستظل بهذا اللواء »

وجاءت الكتابة من الصدر الاعظم بطلب المال السنوى فأمر محمد على بوضع بيان ما أنفق على مصر فرفض السيد عمر مكرم التوقيع عليه فاستدعاه الوالى يسأله عن سبب امتناعه فأجاب بانه لايقابله إلا فى بيت السادات فصاح محمد على : « ما هذا ! أو يريد ذلك الرجل ان أترك ديوانى لأقابله فى دار أحد الافراد » ثم أرسل فى طلبه مرتين فكان السيد عمر مكرم في كل

منهما يأبى الذهاب اليه ممنيا نفسه بأن ينزل الى عنده ذلك الذى أصعده بيده الى كرسى الولاية فلم يسع محمد على باشا إزاء هذا الاصرار إلا ان ألبس الشيخ السادات كسوة نقيب الاشراف بحضور القاضى والشيوخ فى حديقة سراى ابنه ابراهيم بك بطرف ميدان الازبكية وأمر فى الآن نفسه بنفى السيد عمر مكرم .

قال شاهد عيان : « ورافق الشيوخ وجم غفير من الاعيان السيد عمر مكرم الى دمياط لمواساته ولكنهم كانوا جميعا على رأى واحد فى استهجان خطته مع الوالى »

وكان المشترط على الأمراء والمماليك أن يؤدوا فى مقابل الاراضى التى تنوزل لهم عنها مالا وأرادب من القمح كل سنة ولكنهم لم يرعوا هذا الشرط ففسخ الهدنة التى أبرمت معهم فى يناير ١٨٠٨ الى ٩ سبتمبر ١٨٠٩ وكان الالبانيون والدلاة قد اتفقوا فى بنى سويف على المطالبة بمتأخر مرتباتهم واستلامها قبل ان يبرحوا هذه البلدة فاستاء الوالى من تمردهم وبعث بجزء منه حصله من التجار غير الأفرنج ثم تحرك فى الفى رجل مستصحبا معه ولديه ابراهيم بك وطوسن بك وأركان حربه فما بلغ الى الدلاة والارنؤود هذا النبأ حتى فاءوا الى السكينة ولم ينبس أحد منهم بكلمة

ولما رأى المماليك ان الجيش المسير ضدهم مؤلف من ٦٠٠٠ مقاتل وأن وجود الباشا بالقرب منه سيضاعف قوته الى عشرة أمثالها تولاهم فزع شديد وخافوا سوء العاقبة وقرروا المفاوضة فى الصلح والاتفاق على أمر فاتفق الفريقان على أن يدفع المماليك مال الميرى ويقيموا بالقاهرة . وقد وفى بعضهم بعهده فأقاموا بالقاهرة وألبسهم محمد على لدى عودته اليها وفى ٢٥ اكتوبر الخلع من كرك السمور وأجرى عليهم الأرزاق ومن ذلك انه أعطى محمدا بك المنفوخ ايراد جمرك بولاق او مايؤازيه أى ٦٠٠ كيس

أما ابراهيم بك وزملاؤه فلم يطمئنوا للباشا بل اكتفوا بمبادلته الهدايا وكانوا يتقدمون على مهل نحو القاهرة ويكافون العربان استطلاع الطريق لهم . وفى منتصف يونيو ١٨١٠ انشق شاهين بك على حزب الارنؤود وهشم كل ماملكت يمينه من متاع ورياش مفضلا الانضمام مع اتباعه الى إخوانه الذين اختاروه لزعامة مماليك الامير مراد بك . وكان الوالى يحشد فى شبرا فرقتى المشاة الفرسان وقتما اتصل به نبأ هذا الحادث فلكى يتقى نتائجه عجل بالعدوان فملأ الفضاء المجاور للجيزة بخيامه ثم اتجه نحو كرداسة فقطع الطريق على العربان الذى تحركوا لينضموا الى المماليك وأمر بنهب أحدى القبائل على سبيل الزجر والعبرة ثم عاد

الى الجيزة فالقاهرة وكان الامراء وقتئذ فى دهشور وقد اتخذوا لهم معسكرا فى سهولها الرملية بالقرب من الرقة الغربية وعززوا جانبه بعربان الهنادى الذين ساقهم اليه الأمل فى الغنيمة وتلقى الوالي من عربان أولاد على طلب الانضمام اليه ضدهم فأدوا له خدما جليلة كافأهم عليها بتوزيع ٨٠ كشميرا و١٥ سمورا و ١٥٠ كيسا من المال على رؤسائهم ثم سير على الضفة اليمنى فرقة من الجيش وعلى النيل فرقة أخرى لتستولى فى الصعيد على المواقع المهمة وكان حسن باشا قائد الفرقة الاولي يرجو مباغتتهم ليلا فتم له مارجاه بعض الشيء إذ قتل أحد الكشاف وبعض الفرسان وبعث برؤوسهم الى القاهرة فلم يؤثر منظرها فى نفوس الأهلين الأثر الذى أحدثه فيها منظر جثث الأرنؤود التى كان يدفعها تيار النيل الى الشمال على أثر معركة ليلة ١٤ يوليو التى أراد المماليك بها الاخذ بثأرهم منهم

ونجم عن فشل الارنؤود فى هذه المعركة ان ثبت الفلاحون على الامتناع عن دفع « الميرى » ولكن الوالى ربح من جهة السياسة ربحا عوض عليه هذه الخسارة فان اربعة من البكوات وستة عشر كاشفا ونحو مائتى فارس من معسكر جاهين بك انضموا اليه فمنحهم ٢٠٠ كيس وجاء اليه من الشام بعد ذلك بأيام

نحو الفين من الدلاة ومن طريق دمياط نحو ستمائة من الارنؤود وبهذه المناسبة نستدرك مافاتنا من وصف الهيئة العسكرية للفريقين فنقول إن الدلاة وهم جميعا من الاكراد الفرسان كان سلاح الواحد منهم السيف وطبنجتان وكانوا يحملون على رؤوسهم قلنسوة اسطوانية من اللبد الاسود ارتفاعها عشرة ابهامات وهى لاحافة لها وانما باسفلها شريط من التيل على شكل الانبوبة أما الارنؤود فقد وصفهم الكاتب (دى شوازول) بانهم عصبيو المزاج تبدو عليهم علامات الكبرياء والأنفة وأنهم يجمعون بين النقيضين صلوحهم لأن يكونوا لصوصا وقطاع طريق وصلوحهم أيضا لأن يكونوا أبطالا باسلين . وكان شوارهم (لباسهم الرسمى) المعاطف المشغولة بالشرائط الكثيرة المزخرفة بالالوان المختلفة ثم اللباس الواسع والصدرية المكلفة بصفائح المعدن والسلاسل والزيتونات الفضية الكبيرة وطربوش أحمر كانوا اذا قاتلوا أزاحوه عن جباههم

وقد تولى محمد على باشا قيادة الجيش بنفسه ففي ٢٥ جمادى الثانى الموافق ٢٨ يوليو تحرك به الى بنى سويف ومنها الى بلفيا . وكان المماليك قد انسحبوا الى قنطرة اللاهون ووقفوا فى مصاف القتال على ضفاف البحر اليوسفي فتمكن الباشا من صدهم الى ما يلى القنطرة واستولى بهذا النصر على أقليم الفيوم الشهير

بخيراته الوفيرة ثم اقتفى أثرهم في اتجاه البهنسا فظفر بهم ثانياً على مقربة من البدرمون وأظهر الخصمان فى هذه المعركة بسالة عظيمة وثباتاً لا مثيل له ويرجع الفضل في الفوز الى القيام الحسن على المدافع والتنسيقات الحديثة التى أدخلها على أساليب القتال . وقد أبلغ خبر هذا الفوز فى بلاغ قصير نصه كما يأتى :

« من المعسكر المصرى بين بنى عدى ومنفلوط فى ٢٥ رجب ١٢٢٥ الموافق ٢٤ اغسطس ١٨١٠

على أثر استطلاعنا قوى الفصائل والفرق المملوكية هجمنا فى مقدمة فرساننا. وكانت تعزز المدفعية هذه الحركة وكان ابننا العزيز ابراهيم بك دفتردار الحكومة مرافقا لنا فما كدنا نتم الحملة الأولى حتى تفرق العدو أيدى سبا فطاردناه فى الجبال الى عقبة بنى عدى وقد تجاوز عدد الاسرى والقتلى منه ستمائة نفس وفر نحو الف رجل للنجاة بانفسهم قاصدين الى منفلوط واسيوط وغيرهما وبعد القتال دخل منفلوط واسيوط ثلاثة من بكوات عثمان بك حسن وبيك من حزب آخر وطلب ستة من البكوات وعدد عظيم من الكشاف وبعض الفرسان الامان . أما ابراهيم بك وسليم بك الاعمى وعثمان بك حسن وجاهين بك فقد قصدوا الى ابريم والسودان مثخنين بالجراح ومعهم فلول من جيوشهم فالحمد لله على زوال ظلم المماليك »

وكانت الضربة التى ضرب المماليك بها قاسية وستتلوها الضربة القاضية فان ابراهيم بك وعثمان بك حسن واتباعهما فرّوا الى ما وراء الشلالات أما السواد الاعظم من الأمراء فقد قدموا اليه فروض الطاعة والخضوع. وجاء شاهين بك ليعترف بسلطته وولايته فغمره بالهدايا النفيسة والأنعم الجزيلة وخصص منزلا لسكناه بالقرب من ميدان الازبكية . أما الأمراء والفرسان

الذين لاذوا بأطراف الصعيد فقد أتوا من القبائح والفضائح فى قنا مااضطر حاكمها احمد أغا لاظ الى سوق فصيلة قوية من الجنود الاتراك لتأديبهم والذين دنوا من القاهرة منهم لم يعدلوا قط عن فكرة الاخلال بالنظام ونشر أعلام الفتنة . فلما أنس الوالى منهم هذه النزعة الشريرة عقد النية على التنكيل بهم وإبادتهم عن آخرهم

وفى خلال ذلك خاطبت الدولة العلية محمدا عليا ثلاث مرات تدعوه الى الزحف على الوهابية لما ارتكبوه من صنوف العيث فى بلاد العرب وتخريبهم بلاد الحجاز والاماكن المقدسة واكثر الباب العالى من الألحاح حينما شجر (فى اكتوبر ١٨١٠) الخلاف بينه وحكومة مصر بشأن الضرائب الجمركية المفروضة على البضائع العثمانية . فان محمدا عليا لم يعبأ باحتجاجات الباب العالى عليها فى هذا الموضوع لأصراره على التملص من السيادة العثمانية واستشفت حكومتا باريس ولوندره حقيقة نياته من خلال معاملته البضائع العثمانية كالبضائع الأجنبية سواء فرفضتا بسبب الحروب التى شب ضرامها وقتئذ بأنحاء اروبا ولحاجتهما الى محالفة الباب العالى شد أزر مصر ومعاونتها على نيل متمناها وأن تصبح فى استقلالها شبيهة بحكومات الجزائر وتونس ومراكش

وطرابلس . ولما كان محمد على باشا لا يمكنه محاربة السلطان من غير عضد وسند من الدول الأجنبية فقد اعتزم محاربة الوهابيين وكانت حكومة الاستانة لا ترى من مصلحتها اظهار حنقها عليه فتناست ما بينهما من الخلاف ولم تظهر استياءها من اطراحه العمل باشتراطاتها عليه فى أمور كثيرة . وانتقلت من طور التناسى الى طور التسامح والكرم فانفذت اليه رئيس الخصيان ليسلمه هدية من السلطان خنجراً وسيفاً مرصعين ويعين فى الباشوية ابنه الاصغر طوسن بك . ومع هذه الرعاية السلطانية لم يبق لمصر مجال للاعتماد على أساليب التنصل أو التسويف . واذا كان محمد على قد استقبل صديقه يوسف باشا في القاهرة بعد عزله من ولاية دمشق ونفيه لامتناعه عن محاربة الوهابية بناء على أسباب وجيهة أبداها فان ذلك لم يمنعه من التفكر في حشد جنود الحملة تحت قبة العزب وتخويل طوسن بك الذى رقى الى الباشوية قيادتها . ودعى أكابر القطر وأعيانه والعساكر الى حضور تشريفات السلام على القائد الشاب الذي تقرر إلباسه فى يوم الجمعة التالى فروة التقليد وطواف طرقات المدينة به فى موكب جليل وممن دعوا دعوة خاصة الى شهود هذا الاحتفال المماليك المقيمون بالقاهرة فلبس كل منهم أفخر ما عنده من الحلل وامتطى اكرم

مايملك من الخيل وتقلد أمضى ما عنده من السلاح للاشتراك فى هذا الاحتفال الفخم

فلما كانت الساعة الثانية على الاصطلاح العربى من صبيحة يوم ٥ صفر ١٢٢٦ الموافق ١ مارس ١١٨١ صعد المدعوون جميعا الى القلعة وفى مقدمتهم شاهين بك واتباعه . وكان الوالى يستقبل البكوات المماليك جميعا بمظاهر الأعظام والتكريم ويلاطفهم بمحادثته حصة من الزمن تقدم اليهم فيها القهوة ثم ينصرفون من حضرته ويضرب النفير إيذانا بانصرافهم للانتظام فى سلك موكب الاحتفال . أما الموكب فكان مرتبا على الوضع الآتى : فى المقدمة فرقة الدلاة بقيادة أوزون على ثم الوالى وآغا الانكشارية والمحتسب فالوجاقلية فالالداشات المصرية فالالبانيون تحت قيادة صالح قوج فالمماليك وفى مقدمتهم سليمان بك البواب فالمشاة والفرسان وأرباب المناصب . واتجه الموكب حينما تحرك للمسير نحو ميدان الرميلة من طريق معوج منقور فى الصخر فاجتاز الدلاة والأغوات والوجاقلية والألداشيات باب العزب فعندئذ أمر صالح قوج باغلاق الباب الحديد الكبير الذى اجتازه هؤلاء ثم عرف طائفته بالمراد وأمر عساكره الألبانيين بتسلق الصخور على حافة ذلك الطريق وأخذ

مراكزهم لاطلاق النار وتحصنت المؤخرة أيضا للاشتراك مع المقدمة فى الضرب فلما وصل المماليك الى الباب ووجدوه مغلقا أدركوا الحيلة وحاولوا التقهقر ليصلوا الى الرحبة الوسطى من القلعة ولكنهم لم يمكنهم ذلك لانتظام الخيول واحتكاكها بالمضيق المنقور وأخذهم بضرب البنادق والقرابين من خلفهم وضرب العسكر الواقفين بالأعالى أيضا فلما نظر الامراء ماحل بهم سقط فى أيديهم والتبكوا وسقطوا فى غدير من الدم ونزع بعضهم ماكان عليهم من الفراوى والثياب الثقيلة بعد أن ترجلوا عن جيادهم وشهروا بأيديهم سيوفهم ثملين بخمرة الحنق والغيظ وتملكهم جنون اليأس فكانوا يلتمسون خصوما للقتال فلا يجدون من يلبى نداءهم بل وجدوا وابلا من الرصاص يهطل عليهم من أعلى الأسوار الحافة بالطريق والنافذات القريبة ويأخذهم من الخلف وصرع شاهين بك مثقوب الجسم بالرصاص فقطعت رأسه وأسرع بها الى الباشا لأخذ البقشيش عليها ووصل سليمان بك البواب لايكاد يكون عليه شىء من الثياب الى باب الحرم وصاح: « فى عرض الحرم » والعادة ان من استنجد بالحرم فى الشرق نجد لما يحدثه الاستنجاد من التأثير في النفس ولكن كيف يكون للنجدة مجال وقد أصبحت محاريب الرحمة هنا مذابح تفاض فيها

الأرواح بل كيف يجاب المستغيث وقد قطعت رؤوس المستغيثين وسحبت جثثهم على الارض بالحبال وسلبت ثيابهم ووصل نحو ثمانية من المماليك فى فرارهم الى مكان كان يقف به طوسن باشا وسألاه النجدة ولكنه كان كأبيه قسوة او أشد قسوة اذ لم يلن لاستنجادهم وصارت القلعة فى ذلك اليوم ميدانا للقتل والذبح حتى أن الباصرة كانت لا تقع الا على جثث الأمراء وقد اختلطت برمم الخيل وجثث سواسها والثياب الممزقة والاسلحة المكسورة وألقيت اسلاب القتلى بعد ذلك الى الجنود فتهافتوا عليها تهافت الكلاب المسعورة على الجيف (١)

ونذكر بالمناسبة ان الكاتب القصصى اسكندر دوماس نشر عن رحلته بمصر كتاباً لا ندرى لماذا أسماه (خمسة عشر يوما فى سيناء) ومما ورد فيه أن خمسة عشر فارساً من المماليك ألقوا بأنفسهم من حالق فماتوا هم ودوابهم، وأن اثنين منهم نهضوا من سقطتهم واقفين ففروا من المدينة راكضين وزعم ذلك الكاتب الطائر الصيت أنه رأى أحدا الاثنين والياً على أورشليم

---

(١) زاد الجبرتي على ذلك «ج ٤ ص ١٢٧» ما يأتى: «وقد اسرف العسكر في قتل المصريين يريد بالمصريين امراء المماليك — ولم يرحموا أحدا وأظهروا كامن حقدهم وضبعوا فيهم وفيمن رافقهم متجملا معهم من أولاد الناس واهالي البلد الذين تزيوا بزيهم لزينة الموكب وهم يصرخون ويستغيثون ومنهم من يقول انا لست جنديا ولا مملوكا وآخر يقول انا لست من قبيلتهم، فلم يرقوا لصارخ ولا شاك ولا مستغيث

ولسنا نعارض الكاتب فيما كتبه ولكننا لا نستطيع التسليم بما رواه تحت تأثير الحماس والغرض اللذين جعلاه يذكر استعمال المدافع الحاصدة والمدافع المعتادة فى حادثة لم تسمع فيها سوى نار البنادق هذا فضلا عن انه جعل زمن الحادثة سنة ١٨١٨ فى حين أنها حدثت سنة ١٨١١ـ ومما لا يغفر للكاتب ادعاؤه كثرة عدد المماليك الذين ألقوا بأنفسهم من حالق وان اثنين منهم استطاعا بعد نهوضهما من سقطتهما الفرار الى الشام حيث أسندت الى أحدهما ولاية إحدى مدائنه . فان هذا الزعم من مخترعاته وأوضاعه الروائية وليس من الحقيقة فى شىء . والحقيقة التى لا ريب فيها أن ٤٧٠ مملوكا دخلوا القلعة للاشتراك فى الاحتفال بتقليد طوسن باشا السر عسكرية فلم ينج منهم سوى واحد بدليل ما كتبته جريدة (المونيتور اجبسيان) بالعدد ٢٦ من السنة الثانية حيث قالت :

« ولم ينج من المماليك سوى واحد هو أمين بك أخ ألفي بك لانه تخلف هنيهة فى عمل هام فلم يدرك الا الصف الاخير من الموكب فلما سمع صرير الباب وهو ينغلق ودوى البنادق عاد بجواده الى داخل القلعة وأنشأ يبحث عن منفذ فلم يجد امامه إلا أسوارا في ارتفاع عشرين مترا فانطلق بجواده الى قمة مرتفعة فوقف

عليها واستفز الجواد فوثب به في الهاوية التي تحت قدميه فتهشمت أعضاء الجواد ونفق من فوره أما فارسه البطل فسقط عن سرجه ولم يصبه إلا اغماء بسيط لم يلبث أن افاق منه فركض من هناك حتى وصل الى اقليم الشرقية حيث لاذ بأحد عربانها فآواه وبعد أن اقام عنده اياما غادره فى بعض من اتباعه الى الشام» . وفيما يتناقله الناس هناك من الروايات ان الأدلاء جردوا امين بك أثناء سفره فى الصحراء وأساؤا معاملته وأن بعض العربان مروا به فرأفوا بحالته وعالجوه ثم أوصلوه الى صديقه والى عكا وأكد لنا رجل من ذوى الفضل والحجى وهو المسيو (دى فولابل) أن أمين بك مازال على قيد الحياة وأنه أقام فى طرابلس الشام زمنا ثم شغل فى خدمة السلطان منصب قبطان باشا وانه مابرح قائما به. وقد سميت الجهة التى وثب منها في القلعة «نطة المملوك»

ولم يقصد محمد على باشا ان يتناول تدبيره ضد الامراء المصرلية المماليك الفرنسيين ولذا عاتبهم على حضورهم حينما تقدموا اليه من غير ان يدعوهم بالذات وأمر كيخيا بك بان يحجزهم في غرفة محمد بك ناظر الحرب ولم يكاشف محمد على بذلك التدبير سوى أربعة من خاصة أخصائه وهم كيخيا بك والسلحدار سليمان أغا وحسن باشا وصالح قوج ولم يكن محمد على يتلذذ ساعة المذبحة

كما قال بعضهم بتدخين النرجيلة ، فى مكان لا تصل اليه عين حد وانما يرى هو منه كل شيء. والحقيقة انه كان جالساً فى بهو الديوان الكبير المطل على صحن التشريفات وهو لا يؤدى الى سطح ما . وكان المبصر به لا يشك فى أن الاضطراب كان سائداً على جميع حركاته لما كان يعلمه من قيام العساكر فى الخارج بعمل ضد خصومه الألداء يتوقف عليه إما موته وإما حياته فى القطر المصرى وذكر الذين شهدوه حينما سمعت الطلقات الأولى ان وجهه تقلص تقلصاً شديداً وأن هذا التغير نمّ عن اضطراب في حالته النفسية جعله يسلم فى هذه الآونة باحتمال حصول معركة بين الارنؤود والمماليك وجواز فشل الأولين فى تدبيرهم ضد الآخرين بل لعل ذلك التقلص كان الحركة المفسرة لأسف أخذ يخز ضميره لأنه لم يجعل ميدان القتال حكما فصلا بينه وبين اعدائه. وظل الباشا ملازما الصمت المفصح عن الالم زمنا مديدا الى أن دنا منه طبيبه الجنوى (مندريشى) وعلامات السرور والارتياح بادية على وجهه وصاح : « لقد انتهت المسأله على خير مايراد وان هذا اليوم ليوم عيد لسموكم » فلم يجاوب محمد على على هذه البشرى بل نظر الى الطبيب بقسوة وصرامة وارتسمت على شفتيه ابتسامة الاستهزاء والاحتقار ثم طلب

قليلا من الماء فشربه

وبينما كانت المذبحة دائرة رحاها بداخل القلعة كان سكان القاهرة أجمعين صفوفا على جوانب الطرقات ينتظرون مرور الموكب الجليل وكانوا يفدون أفواجا وفرادى يصيحون صيحات الفرح والاستبشار ثم يقفون مستطلعين طليعته مستشرفين لها فلم تكن إلا برهة حتى ظهرت صفوف الدلاة والاغوات ومر بعدهم الوجاقلية والالداشية ثم . . . لا أحد ! فخامر الشك النفوس لهذا الانقطاع الفجائى وتجمهر الناس فرقا وطفقوا يأولون الامر ويستكشفون السر وعلت المناقشات بينهم الى عنان السماء ثم أعتمدوا على أساليب الاستنتاج فى استقصاء الحقيقة فلم يسمع أحد دوى الطلقات التى كانت تفتك في القلعة بمئات الارواح . ومضى زمن وهم فى هذه الحال فأذا بجماعة من ملازمى ركاب المماليك وسواس خيلهم فى المواكب يهيمون على وجوههم صامتين باهتين ظاهرة على وجوههم علائم الوجل والانزعاج وصاح منهم صائح فقال: « لقد قتل جاهين بك » فما استقر هذا الصياح فى الاسماع حتى أغلقت المنازل والحوانيت وانصرف الناس فخلت الميادين والطرقات من الوف الناس الذين توافدوا اليها من كل صوب لمشاهدة الاحتفال ولم تلبث

المدينة التى كانت منذ دقائق آهلة بالناس تلوح عليهم لوائح الفرح والسرور أن صارت قاعا بلقعا وصحراء مقفرة ثم لم تمض دقائق حتى تدفقت جموع العساكر فأغاروا على دور المماليك ورموا أعناق من كانوا فيها من الرجال وجردوا النساء من ثيابهن عقابا لهنّ على ما كنّ يبدينه من إيثار المماليك عليهم وهتكوا اعراضهنّ وسلبوا حليهنّ وكان بيدى احداهنّ اساور من ذهب فتبهما جندى تركى ليأخذ الأساور بلا عناء وظلت القاهرة يومين كانت فيهما كأنها بلدة استولى عليها العدو عنوة وأباح نفوس سكانها وأعراضهم وأموالهم. أما الاسلاب والمنهوبات التى أخذها الجنود من بيوت المماليك فلا يمكن حصرها لا سيما وأنهم بعد أن آثروا الاقامة بالقاهرة وتركوا الرحلة أثثوا منازلهم بما يحبب المقام فيها من الرياش الفاخر. ولم ينج جيرانهم مما أصابهم فقد كان الجنود يعاملونهم بمثل ما عاملوهم به حتى بلغ عدد البيوت التى دمرت ونهبت أكثر من خمسمائة بيت

وإن البصر ليرتدّ حاسراً اذا نظر ما وقع بمصر من غرائب المصائب وإن الفكر ليحار اذا بحث فى اسبابه. ولو ان الباشا لم يأمر فى اليوم التالى للمذبحة بايقاف سيل الفظائع والجرائم عند حده لساء المصير وأعضل الداء وانقطع فى علاجه الرجاء.

فلقد نزل في اليوم التالى للمذبحة من القلعة فى عدد من الحرس وجاس خلال الأحياء الكبيرة وتفقد مراكز الجند وأنب رؤساءهم وعزرهم التعزير الشديد لأنهم ارتكبوا الفظائع فكانوا فيها قدوة لمرؤوسيهم وقد لقي فى جولته عند باب زويله رجلا مغربيا شكا اليه اعتداء الجند على بيته وتخريبهم إياه وقال إنه لم يكن من الأجناد ولا من المماليك فحقق الشكوى فلما ظهرت له صحتها أمر برمى رقبتى التركى والفلاح اللذين وجدهما في دار المشتكى

وبعث الشيوخ وفوداً ليقابلوا محمداً علياً في طريقه ويهنئوه بظفره فأجابهم بأنه سيذهب بنفسه اليهم ليتلقى التهانىء منهم وقد ذهب فعلا الى دار الشيخ عبد الله الشرقاوى ولبث عنده ساعة ثم خرج عائداً الى القلعة

ومنذ اليوم التالي جعل طوسن باشا همه توطيد دعائم الأمن واقرار النظام فى نصابه وأذن الكيخيا مع هذا بتفتيش بعض الدور على ان لا يمس أحد بسوء إلا اذا كان مملوكا اختفى أو بقى مجهولا وأن من يؤتى به اليه من المماليك رمى عنقه شاباً كان أو شيخاً بريئاً أو مذنباً . ومن آتاه الحظ بالأفلات من هذه المجزرة فرّ إما الي الشام متنكراً بملابس الدلاة وإما الى الوجه القبلى متزييا بزى النساء

وصدرت الاوامر الى كشاف الاقاليم بالأنحاء على من يجدونه من المماليك متفرقين أو مختبئين فاغتنموا هذه الفرصة ليدرجوا بين المقصودين بهذا الامر كل من أرادوا التخلص منه من أبناء البلاد المعادين أو المناظرين لهم . وارسلت الاكياس مملوءة برؤوس القتلى الى الباشا الذى أمر بأن يرسل الى الاستانة ما يكون منها رأس بيك أو زعيم

أما الجثث فقد حفرت لها الحفرات العميقة بميدان القلعة وجيء من الصعيد باربعة وستين مملوكا على قيد الحياة فلما جن الليل نفذ فيهم ذلك الحكم على ضوء المشاعل وألقيت جثثهم في النهر وعرضت رؤوسهم على باب زويله الذى شنق تحته طومان باى آخر ملوك المماليك الجراكسة قبل ذلك العهد بثلثمائة عام . أما أهل القتلى وأقاربهم من النساء فلم يلتمسوا مع ما نزل بهم من المصائب الاذن لهم بأداء الفروض المقررة للموتى إلا والدة مرزوق بك فانها التمست تسليم جثته اليها فبحثوا عنها طويلا مدة يومين حتى عثروا عليها ودفنت بالاحتفال اللائق فى مدفن الأسرة وتسلمت أيامى المماليك من الباشا الجوازات التى تبيح لهن الانتقال والبعض منهن المرتبات ومنح ابناؤهن اليتامى الرتب الادارية والعسكرية وقدم ابراهيم بك وعثمان بك حسن واتباعهم التماسا بالعفو عنهم فكان

جواب الوالى عليه اصداره الامر الى مصطفى بك بمطاردتهم الى ماوراء قلعة إبريم وخسر المماليك عدداً ليس بالقليل من رجالهم فى أسوان وذلك أنهم أحسوا فى أنفسهم العجز لقلة عددهم ونفاد الحيل والوسائل من أيديهم فتركوا بها خيولهم وعبيدهم وزايلوها الى النوبة عن طريق الصحراء ليعيشوا بها فى راحة وسكون أو ليتحينوا فرصة جديدة لزعزعة اركان حكومة أو ثل عرش من العروش

وهنا كلمة لا محيص لنا عن الجهر بها قبل ان نختم هذا الباب. ليس في وسعنا التدرج من ذكر المذابح والمجازر الى تحبيذها واطراء من يباشرونها . كلا ! بل اننا نود لو استطعنا أن نمحو من صفحات حكم محمد على سيرة المجزرة التى ألممنا الآن ببعض أطرافها، ولكن التاريخ واقف بالمرصاد يتأهب للحكم حكماً ليس لقوة فى العالم ان تنقضه . فليأخذ عدل التاريخ اذاً مجراه

أما الحسنو الظن الذين يقيسون جلال الكوارث وعظمها بمقدار مايذهب فى سبيلها من الأرواح فأولئك يأسفون بعض الأسف على إفضاء أمر المماليك الى مثل ما أفضى اليه من القضاء عليهم لانهم كانوا كما يقول أولئك المتفائلون اشجع فرسان العالم كله ثم تنكسوا فى حضيض من الفساد لا قرار له. ويزيدون على

هذا القول بيانا لهذا التنكس وصفهم حاشية الامراء الجراكسة بأنها بعد ان كانت فى ذلك العهد عنوان النظام والاخاء والأخلاق الفاضلة أصبحت منبعثا للعصيان والفتنة والشقاق والرذائل المخزية ثم لا يلبث أولئك الواصفون اذا أسلمت زمامك اليهم ان يدخلوا بك خيام المماليك فى عهدهم الاول فيطلعوك على ما كان بها من مظاهر الحذر العسكرى بوقوف الحراس عند أقدامهم طول الليل ممسكين بمقابض الخناجر ويلجوا بك بعد ذلك الخيام عينها فى العهد الثانى ليطلعوك على البأس الجثمانى والحياة النفسية وقد غشيهما الضعف من جراء الاخلاد الى الدعة والعكوف على الملاذ والتزام البطالة وقضاء الوقت فى شهود رقص الفوازى وسماع غناء العوالم . ولسائل ان يسأل هنا عن هذا الافراط فى المخزيات والتفريط في الواجبات أيستحق مرتكبهما مهما كانت آثارهما السيئة فى الافراد والجماعات تلك العقوبة البالغة الى أقصى مبلغ فى الشدة والصرامة وأن يسأل ايضا عن الاستعداد العقلى الذى كان يجوز بمقتضاه فى ذلك العهد التصرف في توقيع العقاب . واذا كان من أغرب العلاج ان يكون الموت الفجائي دواء للضعف والهزال أفلا يحسن ترك المريض الى ان يموت بمرضه ويزول بفناء قوته ؟ لقد وردت فى التاريخ أمثلة من الوسائل الصارمة التى

تخذها كبار الملوك والعظماء ، فان بطرس الاكبر وهو ذلك المصلح الشهير للدولة المسكوبية أفنى جماعة (الاستريلتز) في مذبحة أشد هولا وفظاعة من مذبحة المماليك لانه فتك بنحو الألفين منهم شنقا وضرب رقاب وعرض جثثهم فى الطرقات ووأد النساء ، ومع مافى هذه الجرائم من شناعة وفظاعة فقد اقتصر (فولتير) على وصفها بالقسوة والصرامة . وفى عهد السلطان محمود ذبح بضعة آلاف من الانكشارية بلا رحمة ولا شفقة ولم يكونوا مع هذا جندا أجنبيا بل كانوا كالأستريلتز فى الروسيا والمماليك فى مصر من أبناء الشعب القائمين بالدفاع عن الوطن . أما نحن فنجاوب على ما تقدم بأن الأمثال لا تبرر ، فلقد أسند الى محمد على باشا أنه قال يوما : « على الاعقاب الخالفة الحكم بأى الحادثين أحوج الى التسويغ والتبرير ، حادث ابادة المماليك أم حادث قتل الدوق دانجن ! » . وهذه المقارنة يعوزها السند المنطقي ولا نظن ان مثلها يخطر ببال رجل بصير رصين كالباشا . اذ ما الصلة بين الحظ الذى لقيه فرد من الناس والذى لقيه ألف وخمسمائة نفس خصوصا وأن ذلك الأمير الفرنسى لم يفاجأ بمكروه فى جلال السكون السائد على حفلة كان المنتظر ان تكون منبعثا للسرور ، دع أنه قبل أن يساق الى ساحة الأعدام كان

قد حوكم أمام قضاة نطقوا بهذا الحكم ضده . والمرجح عندنا أن الذى قاله الباشا فى المقارنة بين مذبحتين كان بمناسبة ما ذكر له عن صورة رقشها قلم المصور البارع (هوراس فرنيه) فأنه قال : « فى استطاعة هذا المصور أن يجعل لصورته هذه ذيلا بتصويره الفتك بمماليك بونابرت فى مرسيليا »

والأمر الذى نحن منه على يقين أن والى مصر المعروف بالاعتدال والتسامح وشرف العواطف لم يلجأ الى تنفيذ تدبيره الخطير إلا بعد امعان النظر وطول الروية وادمان البحث والفحص حتى اذا تجلت له ضرورته لصالح الأمة التى أخذ بيده زمامها لم يسعه الا القيام به ولكن رقة شعورنا نحن معشر الأوربيين تحل محل الاعتبار طبعا فى نظر السياسة الشرقية لأن هذه السياسة اعتادت ان ترى فى سفك الدماء أمراً لا غبار عليه اذا كان نفعه للجمهور مؤكدا . ولا يغرب علينا أننا في المناطق المعتدلة التى نعيش فيها لسنا فى الموضع الاكثر ملاءمة للحكم حكما صحيحا على ما يقع فى منطقة أخرى من الحوادث التى مصدرها شهوات النفس ومطامحها . ويقول ذلك الفيلسوف الخلقي أن المبادئ الحسنة والخبيثة تختلف باختلاف الشعوب والاقاليم التى يسكنونها وفى استطاعتنا نحن ان نبنى استدلالنا

المنطقى على الحقوق البشرية فأذا فعلنا فأنا لا نلبث أن نسوغ فى ثلاث كلمات الخطة التى سلكها الباشا حيال المماليك

إن أوامر صريحة كانت قد وردت اليه من الديوان السلطانى بالقضاء على المماليك فضلا عن أنه كان على وشك الدخول فى حرب طويلة من ضروراتها توجيه الجيش كله الى السواحل البعيدة وهو ما يحمل بالطبع ذوى المقاصد الشريرة والمطامع الكبيرة على بث الفتن الداخلية لتحقيق أمانيهم . وفوق هذا وذاك فقد كان الوالى يهمه امران : صيانة مستقبل مصر من عبث الطوارىء مع توطيد اركان سلطته واحباط المساعى المبذولة ضده والدسائس المدبرة للتنكيل به والتفكر فى ضمانة الأمن له ولأسرته واصدقائه والسبق الى الفتك بعدوه قبل ان يفتك به. ومن الحقائق التى لا يجحدها الا المكابرون ان المؤامرات ضده كانت تدبر بترتيب محكم وكان لا بد لمدبريها فى يوم من الايام ان يسفكوا دمه ويستلموا بأيديهم المخضبة به وبدماء المصريين الابرياء زمام الحكم عليهم . ولقد كان على رأس هؤلاء المتآمرين حسن بك اليهودى الذى كان يفتخر بأنه قتل فى بضعة أسابيع اكثر من خمسمائة حاج وهم فى طريقهم الى الحجاز. وهناك دليلان ناهضان على وجود المتآمرين واتخاذهم التدابير لتنفيذ نياتهم اللعينة

الاول انهم حاولوا أثنـاء سفر الوالى الى السويس اختطافه من بين حراسه ففشلوا والثانى انه كان يجول بضاحية مصر فأطلق أحدهم رصاصة عليه بنية قتله فاصابت صـابطا كان يسير بالقرب منه . واذ كانوا هم البـادئين بالشر ويجب ان تدور الدائرة على رؤوسهم لقبيح فعلهم ولأن من يزرع الريح يحصد العواصف ، كما يقولون ، فهم اذاً مستحقون لما حل بهم من العقوبة

ولقد رأى القنصل الأول (بونابرت) من قبل ان الاخناء على دولتهم واجب تحقيقا لسعادة مصر وهناء بنيها وتوطيدا لدعائم السلام والنظام فيها . وقال المسيو (ديلابورت) العضو فى لجنة مصر التى ألفها بونابرت قبل وقوع كارثة المماليك بأيام وقوله هذا منبعث عن شعور صادق بمستقبل الحوادث، ان إفناء المماليك خير ذريعة لقطع سلسلة الاضطرابات والفتن والجرائم التى لانهاية فى مصر لها . وقد جاءت الحوادث، مصدقة لقوله فانه اذا كانت الحرب الأهلية قد انتهت فى سنة ١٨١١ فان الحرب فى الخارج قد ألهبت القوى الخامدة وأيقظت الهمم النائمة وكانت ينبوعا غزيرا لتقدم مصر ورقيّ أحوالها

الباب الثامن

الوهابية والوهابيون

(١٨١١ — ١٨١٩)

وقعت فى الحجاز مناكر ضد الدين أثارت خواطر المسلمين بمصر وتركيا وفارس وجزيرة العرب. ذلك ان الدين الاسلامى يفرض على كل مسلم حج البيت الحرام ولو مرة واحدة فى العمر اذا استطاع اليه سبيلا. ووجه الاستطاعة ان لا يكون فقيرا أو به مرض. وفى مذهب أبى حنيفة مايبيح للمسلم الاستعفاء من الحج اذا أنفق على من يحج بدلا منه. والحجاج يتواردون على الحجاز كل عام من جميع الشرق وتمر قوافلهم فينمو عددهم بانضمام غيرهم من الحجاج اليهم ومن كان من هؤلاء فى يسر وغنى أخذ الهدايا برسم المسجد الحرام. وجرت العادة بان يرسل السلطان ووالى مصر صرة من المال فى كل سنة، فيقوم المحمل بالكسوة وبالهدايا قاصدا الى الحجاز بحراسة شرذمة من الجند ويرافق الحجاج والتجار المحمل مدججين بالسلاح ويأخذ بمقوده أحد

بكوات مصر اذا كان مصريا أو والى الشام اذا كان شاميا.
وكانت السفن تشتط السواحل لحماية النقل على البر. وكان النوتية الأتراك يجهل سوادهم الملاحة فكانت مراكب الصيد تجرأ على ضبط تلك السفن وتأسر ربابينها وتنهب مشحونها من الأقمشة والبن والعطارة وكانت الآبار فى الطريق تحميها حاميات صغيرة من الجند ثم دمرت وسدت فلم تعد نافعة لشىء وكانت تبلغ الجرأة بالأشقياء الى حد مطالبة الناس بجزية عن الأنفس او أداء مبلغ من المال أو مقدار معين من الأقمشة والثياب فى مقابل السماح لهم بحرية الطريق. فاذا لقوا معارضة لا يلبث الفريقان ان يلتحما فى معركة كثيرا ماتنجلى عن قهر القافلة الواردة من القاهرة أو دمشق او بغداد وحرمانها بذلك من أداء الفرض الذى من أجله جاءت الى هذا المكان

على أن الحرمين الشريفين ذاتهما كثيرا ما كانا يتركان فى نفوس الطامعين أثرا طالما أفضى الى امتداد الأيدى اليهما بالسلب والنهب، فأن مكة المكرمة وهي بيضة الاسلام والمدينة المشرفة وهى مهبط الخلافة كانتا تحتويان المخلفات النبوية ونفائس نادرة رفيعة القيمة فكان لا مفر من ان يعدو عليها العادون ويعبث بها العابثون، ولقد ارتكبوا هذا الاثم فعلا إذ دمروا

أضرحة الكثيرين من آل بيت النبوة فى العراق والطائف والمدينة وهدموا القباب وكانت القبة الكبرى التى فوق الضريح النبوى على وشك ان تتناولها المعاول بالهدم لولا حلما ازعج المجترىء على اعتزام ارتكاب هذه الجريمة فعدل عنها واقتصر المعتدون الأشقياء على انتزاع الزينة والزخارف وسلب الهدايا الواردة من جميع الانحاء منذ وفاة النبى الى ذلك العهد. كالأوانى والقناديل والشمعدانات المصنوعة من الذهب الخالص وحولوها الى سبائك وكذا صفائح الذهب الذى كفتت به الجدران والأخشاب وخمسمائة لوح من النحاس مصفحة بالذهب وعشرون سيفاً مرصعاً بالجواهر ومقدار جسيم من السجاجيد الطهرانية والاصبهانية والارضرومية واللؤلؤة الكبيرة بحجم بيضة الحمام المعلقة فوق الضريح الشريف والمعروفة باسم الكوكب الدرى كل ذلك سلبوه بلا خوف وباعوه علناً فاشترى الشريف غالب منها ما لا تقل قيمته عن مائة الف قرش وحمل المفسدون ما لم يبع فاقتسموه بينهم بالقرب من كربلاء بعد أن حسبوا حسابه

وهنا محل للسؤال هل حب السلب والنهب هو الذى أغرى وحده أولئك المفسدين بالتخريب والتدمير؟ إنهم كانوا وهم يخربون ويدمرون لا يكفون عن قولهم: « ان الله يغفر لمن

يهدم هذه المبانى الشاهقة ويجردها مما تحتريه ولا يغفر لمن بناها ولا لمن زخرفها »ثم إنهم كانوا يقولون على سبيل تقرير المبدأ ان حجراً واحدا يوضع شارة على قبر الميت خير من الضريح المزخرف وأن القبر من غير زخرفة خير منه بها وهو ما يؤخذ منه أن ذلك السطو وتلك السرقة تستران تحتهما شعورا دينيا تذكيه حرارة المشايعة للدين والتعصب له والدعوة الى حقيقته المجردة .

ومن هم اولئك الاشقياء الذين قطعوا السبل بين جدة والبصرة وبين البحر الاحمر والخليج الفارسي ؟ الجواب على ذلك فى الاسطر الآتية بعد

فى القرن الأخير من الميلاد ظهر بجزيرة العرب شيخ اسمه محمد بن عبد الوهاب بمذهب محدث فى الاسلام يقضي بان يكون الأيمان مؤيداً بالسيف وأن ترجع العقائد والمعاملات الى صراحتها الأولى بلا تعقد ولا ابهام. ولم يقتصر الشيخ على ذلك بل ذهب الى نبذ الاحاديث النبوية والقول بأنه لا كتاب من الكتب المنزلة أبلغ بالوحى الألهى على لسان جبريل وأن قوة الله تشمل الكون بأسره ولا قوة فيه إلا قوته تعالى وأن محمداً لم يكن إلا بشرا عرف بالخير والدعوة اليه وأنه كموسى وعيسى من المصطفين عند الله ، وإن الاعتقاد بالأئمة والتوجه بالدعاء اليهم ونسبة ما لم

يكن فى طوق البشر من القوة لهم كالكرامات وغيرها فى حياتهم ومماتهم كفر بالأيمان وانحراف عن الطريق القويم وأن النساء لا ينبغى لهن التحلى بالذهب والفضة ولبس الحرير كما لا يجب اقامة الاضرحة ولا القباب ولا الزخارف المفضية الى عبادة الاصنام . وتفرض تعاليم الوهابية فيما عداما تقدم ايتاء الزكاة والجهاد فى سبيل الله والقناعة فى الشهوات وإقامة العدل بين الناس (١)

---

(١) ورد بيان التعاليم الوهابية فى تاريخ الجبرتى (ج ٤ ص ٥) فى ذكر مسالة الشريف غالب شريف مكة لدعاء الوهابيين بسبب ماحصل لاهلها من المضايقة الشديدة وانقطاع الجلوبات عنهم حتى وصل ثمن الاردب المصرى من الارز ٥٠٠ ريال واردب البر ٣١٠ وسلوكه طريقتهم واخذه العهد على كبيرهم بداخل الكعبة مايأتى: « انه — اى الكبير — امر بمنع المنكرات والتجاهر بها وشرب الاراجيل بالتنباك فى السعى بين الصفا والمروة وبالملازمة على الصلوات فى الجماعة ودفع الزكاة وترك لبس الحرير والمقصبات وابطال المكوس والمظالم وكانوا خرجوا عن الحدود فى ذلك حتى ان الميت يأخذون عليه خمسة فرانسة وعشرة حسب حاله وان لم يدفع اهله القدر الذى تقرر عليه فلا يقدرون على رفعه ودفنه ولا يتقرب اليه الغاسل ليغسله حتى يأتيه الاذن وغير ذلك من البدع والمكوس والمظالم التى احدثوها على المبيعات والمشتروات على البائع والمشترى ومصادرات الناس فى اموالهم ودورهم فيكون الشخص من سائر الناس جالسا بداره فما يشعر على حين غفلة منه الا والاعوان يأمرونه باخلاء الدار وخروجه منها ويقولون ان سيد الجميع محتاج اليها فاما ان يخرج منها جملة وتصير من املاك الشريف واما ان يصالح عليها بمقدار ثمنها او اقل او اكثر » فعاهده على ترك ذلك كله واتباع ماامر الله تعالى به فى كتابه العزيز من اخلاص التوحيد لله وحده واتباع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام وما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون الى آخر القرن الثالث وترك ماحدث فى الناس من الالتجاء لغير الله من المخلوقات الاحياء والاموات فى الشدائد والملمات وما احدثوه من بناء القباب على القبور والتصاوير والزخارف وتقبيل الاعتاب والخضوع والتذلل والمناداه والطواف والنذور والذبح والقربان وعمل الاعياد والمواسم لها واجتماع « اصناف » الخلائق واختلاط النساء بالرجال وباقى الاشياء التى فيها شركة المخلوقين مع الخالق فى توحيد الالوهية التى بعثت بها الرسل الى مقاتلة من خالفها ليكون الدين كله

وهذه التعاليم والمبادىء تجمع الى الشدة والصرامة الجلال والاستقامة . فالوهابيون ليسوا اذاً بالنسبة للأسلام إلا كالبروتستانت بالنسبة للمسيحية من جهة العقيدة وكالبوريتان الانجليز الذين يذهبون مذهب التشدد والصلابة فى الأخلاق من جهة الفضائل . وانما يؤخذ عليهم انهم كانوا لا يتسامحون مع اضدادهم فى المذهب اذ كان لا يزعهم وازع عن إيذائهم ومعاملتهم بالعسف والشدة كلما تحينوا الفرصة لذلك فقد كانوا يتعدون على الحجاج ويسلبون السابلة ويريقون دماءهم وبعد ان ينهبوا السفينة يلقون بنوتيتها فى البحر ثم يمضون كما لو كانوا عائدين من مصاد لؤلؤ أو غرس نخل لبث دعوتهم والوقوف بين الناس موقف الوعظ أو الصلاة لحمد الله على ما أولاهم من نعمة القناعة والتطهر من ادران العيث والفساد . وكان اذا عارضهم أحد أو وقف فى سبيل نشر دعوتهم أو انكر خطتهم فى غاراتهم ذبح بلا رحمة. ولولا تحكيمهم البتار فى الرقاب لما استطاعوا نشر عقيدتهم

لله وعلى هدم القباب المبنية على القبور والاضرحة لانها من الامور المحدثة التى لم تكن فى عهده بعد المناظرة مع علماء تلك الناحية واقامة الحجة عليهم بالادلة القطعية التى لا تقبل التاويل من الكتاب والسنة واذعانهم لذلك فمنذ ذلك امنت السبل وسلكت الطريق بين مكه والمدينة وبين مكة وجده والطائف وانحلت الاسعار وكثر وجود المطعومات وما يجلبه عربان الشرق الى الحرمين من الغلال والاغنام والاسمان والاعسال حتى بيع الاردب من الحنطة باربعة ريال واستمر الشريف غالب باخذ العشور من التجار واذا نوقش فى ذلك يقول هؤلاء مشركون وانا آخذ من المشركين لا من الموحدين

او ألقوا الفزع في القلوب تمهيدا لقبولها وهاك مثالا من الدعوة التي كانوا يدعون بها جيرانهم الى مذهبهم (معنى لامبنى):

« بسم الله الرحمن الرحيم من خير القبائل الى فلان او فلان من اعيان البلد الفلاني ان الاسلام هو الايمان حقا بالله وبرسالة نبيه وبه يتميز المسلم الصادق من الكافر والذين يتولون الحكم عليكم وتأتمرون باوامرهم قد ملأ الفساد والظلم وارتكاب المنكر قلوبهم أما نحن فعلى غير ذلك ننصح اليكم بالعودة الى الايمان والاسلام وقد جئنا اليكم بجيوش من المؤمنين فمن منكم اراد الاسلام فليكتب لنا بما اراد فاننا نترك له املاكه ونقيمه فيما تحتويه من عرض الدنيا . واعلموا اننا وصلنا بسلامة الله وسنجيء اليكم بحشد حشيد من الجنود للجهاد على بركة الله وحسن معونته وهذا بلاغ اليكم فمن منكم تخلف عن الكتابة الينا بموافقتنا جرد مما يملكه ، ولا يعترف به احد منا وسنصل اليكم ان شاءالله فى هلال الشهر المقبل وهذه آخر مرة ندعوكم فيها الى الدين الصحيح فتكون بلادنا وبلادكم سواء والسلام على من اتبع الهدى »

فاذا بقي البلاغ الأول والذى يليه بلا اجابة بعث الوهابيون بلاغا ثالثا كهذا جعلوه عنوانا على فتح باب الخصومة التي لا واقي من شرها اذا كبير الوهابيين أخبر جنده وقتئذ بأنه لم يبق مجال للتسامح وأطلق لهم حرية النهب والقتل . وإذا كانت ثمة وسيلة واحدة لافتداء الحياة وصيانة شيء من المال فهى دفع مال الزكاة الى جباة معينين لهذا العمل يباشرونه فى كل شتاء بالبلاد الخاضعة للوهابية وجبايتها بنسبة رأس واحد من المعز من كل اربعين رأساً وقرش واف عن كل خمسة جمال وما يعدل ثمانية فرنكات عن كل رأس من الخيل ويجب على دافع الزكاة الاقرار في عهد يؤخذ عليه بأنه قد تحول عن عقيدته الأولى ويجهر فيه بأنه كان

الى وقت تحوله فى غير طريق الهدى وان القبور التى تضم رفات آبائه وأجداده إنما تحتوى بقية قوم كانوا على ضلال وفساد وقال (نيبهر) الذى زار بلاد الأسلام ووصفها فى سنة ١٧٧٣ : « منذ زمن قريب ظهر فى إقليم العرب مذهب جديد سيقلب هـذه البلاد رأساً على عقب ». وكان نظر نيبهر ثاقباً صائبا فان الوهابيين بدأوا بأخضاع ست وعشرين قبيلة كبيرة من القبائل العربان التى تنتجع نجدا في كل خريف ثم ثنوا بالولايات المجاورة فانهالوا على حكامها وشعوبها بالقدح والتعزير فلم يلبثوا أن استولوا بهذه الوسيلة على الحجاز واليمن ثم أخـذوا يتهددون ولايتى دمشق وبغداد . وكان العـالم الاسلامى حينئذ بحالة يرثى اليها من الضعف والانقسام ؛ فلم يسع بلاده التى فتحت ابواب حدودهـا بما ساد فيها من الفوضى لأولئك الأدعياء الأشداء إلا أن صاحت مستصرخـة طالبة اعلان الحرب على أولئك المبتدعة. وهذه الحرب هى التى قام محمد على وابناه ابراهيم وطوسن فيها بمثل ما قام به (جودفروا) و (تنكريد) و (رينو) فى الحروب الصليبية

وكانت مصر أوفق المواقع لابتداء الزحف منه استخلاصا للحرمين الشريفين من أيدى الوهابيين وكان هؤلاء يستوردون

منها حاجاتهم المعيشية عن طريق البحر الى ثغرى جدة وينبع .
وهناك اعتبارات مهمة حملت الباب العالى عقب امضائه معاهدة (بخارست) على الاستمداد بالباشا فى قمع الوهابيين، منها انه كان أقوى ولاة الدولة واقدرهم بمواهبه الذاتية على إيقافهم عند حدهم وكان السلطان سليم الاول لما هزم المماليك الشراكسة وقتل آخر ملوكهم أسمى نفسه فى خطبة الجمعة « خادم الحرمين الشريفين » وتسمى السلاطين من بعده كذلك ثم تلقب بألقاب الخلافة فكان من المفروض على سلطان آل عثمان بهذا الوصف ان يكون أول ما يهتم به قمع أعداء الدين والقضاء على بدعهم .

وكان من اختصاصه بالطبع النظر في أمور الدين إلا أن سياسته كانت لاتخلو من أثر التخوف والتهيب من امتداد شوكة محمد على ونماء قوته ونفوذه نماء محسوسا موجبا للحذر، فكانت في ذلك الوقت تقضى بان تزج فى حرب محفوفة بالصعوبات والأوعار مع أولئك الثوار الخوارج المبتدعين والياً تخشى نزعاته الاستقلالية لتضعف قوته وتستنزف امواله وتجعل سلطانها عليه بذلك مؤكدا

باشر محمد على بنفسه اتخاذ التدابير لمحاربة الوهابيين ورأى أن هذه المحاربة تستلزم إنشاء دونمة لنقل الجنود والذخيرة

والمؤن فى البحر الاحمر وكانت الوسائل متوافرة عنده لبنائها ، دع أنه كان من قوة الارادة وشدة العارضة بحيث يستطيع التغلب على ما يعترضه من العقبات فلقد جلب فى زمن يسير من موانىء بلاد الترك الاخشاب والحبال والحديد وكل ما يستلزمه بناء السفن ولما أتم تفصيل أجزائها نقلها الى السويس على الجمال وكان كثيراً ما يستدعي نقل القطعة الواحدة الثقيلة جملين أو أربعة جمال تقف على صف واحد ، فلا غرو اذا نفق الكثير منها تحت عبئها الثقيل . ولقد توقع ذلك فتدارك عواقبه من قبل بالاستعاضة عن تلك الحيوانات بعربان الصحراء اذ استخدم عشرة آلاف منهم لنقلها حتى تمكن بذلك من تركيب ثمانية عشرة سفينة فى مدة شهرين يختلف محمول كل منها من مائة طن الى مائتين وخمسين طنا بمعرفة الف عامل كان من بينهم اروام وافرنج وجعل الوالى بالقصير مستودعات للحبوب وبالسويس مستودعات غيرها للبقسماط وأصناف الغذاء وباشر بنفسه تشهيل هذه المهمات وإعدادها ثم عاد من السويس الى القاهرة فى ثمانية عشرة ساعة بينما القوافل السريعة السير لا يتيسر لها اجتياز هذه المسافة فى أقل من ثلاثة أيام . وعجز من كان معه عن إدراكه إلا واحدا منهم مات هجينه من تحته فأردفه الباشا حتى وصل الى السراى

وكان قد تقرر تحديد يوم ٥ صفر الموافق أول مارس لتولية طوسن باشا قيادة الحملة فأجل هذا الموعد الى يوم ٨ ربيع الأول الموافق ٢ ابريل الذى انقضى كله فى إطلاق المدافع (الشنك) وعزف الموسيقى . وكان طوسن باشا فى موكب التقليد بخلعة القيادة تسبقه الدواب المطهمة يمسك بأعنتها التتر ويرافقه كيخياه ويتبعه حرسه وكان محمد على وحسن باشا بأحد المساجد للتفرج. وفى الاسبوع التالى قصد الوالى الى الاسكندرية وفيها باع للانجليز اربعين ألف أردب من القمح وقبض في سفره على أحد المشائخ من قبيلة أولاد على وفرض عليها فرضة مبلغا جسيما من المال. وبعد عودته الى القاهرة فى ٢٥ مايو فرض على المياسير من أهلها ان يقدموا اليه إما بغلا وإما خمسمائة قرش وجند من أرباب الحرف والصنائع جيشا برسم الحملة

وفى ٢٤ شعبان الموافق ٣ سبتمبر نزل فى السفن تحت نظر الباشا ومباشرته ٦٠٠٠ عسكرى أغلبهم من الارنؤود ومعهم ذخائر الحرب فأقلعت قاصدة ثغر ينبع . أما فرسان الترك والعربان وعددهم الفان فقد تحركوا اليه برًّا يوم ١٩ شوال الموافق ٦ نوفمبر وكان طوسن باشا فى الجيش البرى تتبعه قافلة عظيمة تحمل الماء والمؤن والخيام والأمتعة . وكانت سنه لاتتجاوز عامئذ السادسة

عشرة إلا انه برهن فى حروب المماليك على قوته وشدة بأسه .
وقد ضم اليه أحمد آغا الخازندار الذى لبسالته لقب بيو نابرت. ونيط بالسيد محمد المحروقى وهو اكبر تجار القاهرة وأغناهم بعض أعمال الحملة ومنها الاتفاق مع العربان النازلين على شواطئ البحر واخذ معه شيوخا من المذاهب الأربعة لوعظ الناس وحضهم على الدفاع عن حومة الحرمين الشريفين والذود عن السلطان والوالى

أما الوهابيون فقد جمع زعيمهم سعود الجندى الباسل والسياسى المحنك خمسة عشر الفا من المقاتلة بقيادة ابنه عبد الله وعثمان المضايفى وعهد الى الشريف غالب بالدفاع عن جدة وينبع وكان بين الشريف ووالى مصر اتفاقات سرية رام الاول بها الانتقام من الوهابيين لتغلبهم عليه وإهانتهم إياه فكان أول همه حينما وصل الاسطول الانجلاء بجنوده عن ينبع . وكانت حاميتها من الوهابيين لا تزيد على ٣٠٠ رجل فقتل بعضهم وأسر الآخرون واستولت الحملة المصرية عنوة عليها ووصل طوسن باشا بعد ذلك بخيالته فأجهز على بقية الوهابيين وأتم هذا الاستيلاء وعززه لأنه كان يكفل للحملة ملجأ أميناً للسفن ومستودعا حريزاً للمؤن والذخائر ويبشر بالنجاح المأمول . وقد سقطت بيد الأمير قريتان بعد ذلك فشجعه فوزه على السير فى يناير ١٨١٢

الى المدينة ولما أوغل بمقدار عشرة فراسخ ووصل الى بدر التى تظللها النخيل واشجار الليمون والموز التقي بالوهابيين المرة الأولى فاضطرهم في معركة دامت ساعتين الى التقهقر تاركين ٦٠ قتيلا واصفين المصريين فى صياحهم بانهم كفار ومشركون

لم يلبث طوسن ان اتجه نحو الصفراء التى لجأ اليها العدو وتحصن بها وكان بين الصخور الصلدة المتشعبة دونها مضيق لا يزيد عرضه على ٤٠ متراً ويبلغ طوله مسيرة ساعة ونصف . وكان الوهابيون فى عشرين الف مقاتل بقيادة عبد الله وفيصل ابنى سعود فسدوا حلق المضيق بأهداف ودكاكين من الحجر فلما رأى طوسن ذلك تحمس وتحفز للهجوم وهاجمهم بالفعل حتى صدهم الى منتصف الحلق ولكن شرذمة كثيفة من الوهابيين وصلت من نجد فانتشرت باعالى الروابى الصخرية الحافة بجانبي المضيق فاضطرته الى التقهقر فى عناء وشدة ولطالما حض المؤخرة على الثبات وخاض بنفسه صفوف الوهابيين لا يصحبه من رجاله سوى فارسين قائلا لعساكره ودموعه منهملة من عينيه . « أما منكم من يقتدى بقائده ؟ » فكان لا يجاوبه احد على ندائه الحماسي حتى خيل له ان نوعا من الخبل والاختلاط قد استولى عليهم جميعا فتركوا الجمال والمهمات والمدافع وكل ما كان معهم من ورائهم

وعظمت النكبة حتى انه لم يتيسر لقواد الجيش الذى كان مؤلفاً من ٨٠٠٠ مقاتل ان يجمعوا فى بضعة اسابيع من فلوله المشتتة سوى ثلاثة الآف جندى . وكان عدد من قتل منه ٦٠٠ عسكرى وأضل الباقون الطريق فى ظلام الليل فماتوا جميعاً تعبا وعطشا وجوعا وقتلا بسيوف الوهابيين الذين انتشروا لمطاردتهم ولو أنهم أخلوا مواقعهم لاقتفاء أثر تلك الفلول ومطاردتها لما بقى منها من ينمى الى محمد على هذا المصاب الأليم . وكثيرا ما كان هذا الوالى يحنق على عساكره اذا نفي الى الصعيد من يتخلون منهم عن القتال وينكصون على الأعقاب بل لطالما محا أسماءهم من دفاتر ذوى الرواتب واقصى كبراءهم عن الديار لتقصيرهم فى أداء الواجب فكان فى مقدمة هؤلاء قائد من اكبر قواده ألا وهو صالح قوج

اعتقد الوهابيون ان المصريين لن يقوموا من سقطتهم هذه فعادوا الى بيوتهم تاركين بقلعة المدينة حامية منهم وبالمضائق جماعة من أهل الجهة لحراستها وعاد طوسن الى ينبع فاهتم بتحصينها واخضاع من حولها من مشائخ القبائل بقوة السيف تارة وقوة المال أخرى وتلقى من والده على أثر ذلك الفصائل الأولى من الحملة الجديدة فلما كان شهر اكتوبر ١٨١٢ أنس فى

نفسه القدرة على أخذ المدينه وكان الوهابيون غافلين بل نائمين
فى ظل انتصاراتهم السابقة . وكانت قبائل بنى صبح وبنى سالم
وهم افخاذ من قبيلتى حرب وجديده والعربان الذين فى الطريق
التى اعتزم السير فيها قد أقسموا فى حضرة طوسن باشا أن يكونوا
دائما أعداء أعدائه فنقل طوسن معسكره الى بدر واجتاز بلا
عناء مضائق صفراء وواصل السير حتى بلغ الى اسوار المدينة .
وكان يحميها جيش من الوهابيين واسوارها الرفيعة وقلعتها الحصينة
وكان فيها من المؤن مايكفي لمقاومة الحصر طويلا . ولم يكن مع
المصريين لفتح الثغرات فى الأسوار سوى مدافع الميدان الخفيفة
فضلا عن ان المقاتلين بها كانوا لايجسرون على العمل بها عملا جديا
نشيطا خشية ان يتصدع بسببها الحرم النبوى. على ان طوسن باشا
كثيرا ماصدّ الوهابيين ونال منهم كلما التمسوا الخروج من المدينة
ولقد لجأ الى بث الالغام لنسف الاسوار وبعث الى السكان
لينذرهم بوجوب ملازمتهم المساكن وحملهم الثياب المألوفة لكيلا
يمسهم العساكر بسوء اذا استطاعوا تمييزهم عن الجنود المدافعين.
وفى اليوم التالى كان الوهابيون يؤدون فريضة صلاة الظهر إذا
بجزء من الاسوار قد انقضّ ودخل المحاصرون المدينة من ثغرته
وانتشروا بأرجائها فقتلوا فريقا من الحامية ولجأ الفريق الآخر

الى القلعة واضطر هؤلاء الى التسليم فى نهاية الأمر لانقطاع المدد عنهم وانتشار المجاعة فيهم فأذن لهم الظافرون بأخذ مالهم من الأسلحة والمتاع عند مبارحتهم المدينة وبالغوا فى اكرامهم الى حد أنهم أعطوهم من الجمال مايكفى لنقل المرضى والجرحى وعنى أحمد بونابرت (أو بونابرتة الخازندار كما يسميه الجبرتى) بجمع ألف رأس ممن قتلوا بالمدينة وشاد بها برجاً على الطريق الموصل الى ينبع وكان أهل هذا الثغر قد ملوا الحصار لاستمراره ٧٥ يوماً فتلقوا المصريين كما يتلقى المكروب منقذه من الكرب واهتم طوسن باشا بالبلاد التى فتحها فصرف في تدبير أمورها كل عنايته وأعاد الأمن بها الى نصابه واختار لحكومتها والياً حازماً ونظم فيها الجنود وأمر بالاستمرار على استطلاع العدو ووضع فصيلة من الجند في الحناكية ثم سار الى البركة بجيش من المشاة وعرج على جدة فاستقبل فيها استقبال الظافر واحتفل الشريف بمقدمه ثم جعل اقامته بمكة

وكان محمد على قد استكشف فى الاثناء مؤامرة ضده أنفذ حكم الاعدام فى مدبريها وهم جماعة من زعماء الارنؤود منهم أحمد آغا لاظ وسليمان آغا لاظ وصالح قوج . وكان عندئذ فى السويس متفرغاً لتنظيم المدد للجيش المصري في بلاد العرب فجاءته

رسالة تدعوه الى التعجيل بالأوبة . وكان خبر الاستيلاء على المدينة قد وصل اليه فى ٥ نوفمبر ١٨١٢ فبعد العشرين منه وفد عليه قصاد يحملون مفاتيح قلعتها فبادر بارسالها الى الآستانة . وفى ٩ دسمبر وصلت الأنباء باحتلال جدة ومكة فأرسل الباشا الى الآستانة قاصداً يحمل هذه البشرى وأطلقت المدافع وأقيمت الحفلات والأعياد فى انحاء مصر وتركيا فرحاً بخلاص الحرمين الشريفين من أيدى الخوارج

وتلا وصول الشريف غالب الى مكة قيام سكانها بطرد الوهابيين منها فلما زحف طوسن باشا عليها وجد أبوابها مفتوحة ولم يظهر المضايفى وهو صهر الشريف غالب ميلا لمساعدة المصريين بل استعان بالفرسان الخفيفة على إبادة المتخلفين وضايق حامية الطايف أثناء صيف سنة ١٨١٢ فعول طوسن باشا فى يناير ١٨١٣ على ملاحقته وأخذ معه مصطفى بك الذى كان قد وصل من مصر في فرقة من الدلاة وطلب الشريف غالب الاشتراك فى هذه الحملة والمعاونة عليها لما كان بينه والمضايفي قريبه من العداوة لمحاولته خلعه من الامارة والحلول محله فلما اقترب طوسن باشا من الطائف فرّ المضايفي منها تاركا كل مافيها من ذخيرة ومؤن واعتصم بمكان على مسيرة أربع ساعات أو خمس فى صحراء أنشأ

بها لنفسه قلعة فى إحدى بقاعها الجبلية فحصرت هذا الموقع فرقة كبيرة من الجند وأطلقت النيران عليه فخرج المضايفى ليلا فى ثلاثين من رجاله متنكرين واخترق بهم صفوف اعدائه فأصابت فرسه رصاصة صرعتها فركض على قدميه يصحبه شاب من العربان ولكنه قبض عليه فى الصباح بالقرب من قبيلة عتيبة وجيء به الى الشريف غالب وتسلم من جاء به المكافأة الموعود بها وهى ٥٠٠٠ قرش واف. وأرسل المضايفى الى القاهرة اسيراً فاستقبله كيخيا الوالى استقبالا حسناً ثم أرسله الى الآستانة حيث قطعت رقبته عقب وصوله اليها بأيام. وكان عثمان المضايفى لقسوته وشدة طمعه اكبر نصير للوهابيين الذين لولاه لما استطاعوا فتح الحرمين الشريفين

أرسل محمد على الى الآستانة اسماعيل ثالث أبنائه حاملا اليها البشرى بالاستيلاء على الطائف وهو سوق مكة ومستورد حاجاتها وعاد منها منعما عليه بالباشوية ذات الذنبين وسلم السلطان قهوجيه سيفاً وخنجراً وثلاث ريشات مرصعة بالماس وكرك سمور وجملة شيلان كشميرية هدية الى محمد على وحمله بهدايا غيرها الى الشريف غالب وكرك سمور وريشة ماس برسم طوسن باشا وكان محمد على أندى يداً وأكثر بذلا اذ أهدى الى السلطان ٧٠٠٠ محبوب

(٤٩٠٠٠٠ فرنك) و ٥٠٠ فرد بن (١٧٥٠ قنطاراً)و٢٠٠ قنطار سكر مكرر و ١٠٠ قنطار سكر من مكرر المكرر (أى المكرر اربع مرات) و١٠٠ إناء صينى مملوءة بالمربيات المختلفة النادرة و ١٠٠ من كرائم الخيل نصفها بلا سروج والنصف الآخر بسروج محلاة باللؤلؤ اوالمرجان وبالات كثيرة من أفخر الأقمشة الهنديه وكمية وافرة من الاعطار الزكية

وبينما كان المليكان يتبادلان الهدايا والتحف النفيسة كان سعود يأمر فيصلا بمهاجمة الحملة المصرية فجعل هذا مشاته فى المواقع الحصينة وفرسانه فى حلوق الجبال بحيث يتمكن من مفاجأة العدو والانحاء على فصائله فى كل آن . وكانت هذه الخطة الحربية محكمة التدبير فحاول طوسن باشا أن يعرقلها ويفسدها على مدبريها بأن حشد جنوده جميعاً فانشق عنه العربان الموالون كى يتفرغوا لقطع المواصلات بين الطائف وترابه على مسافة ٨٠ ميلا منها . فلما كانت أوائل نوفمبر ١٨١٢ أنفذ مصطفى بك بقوة مصرية الى هذا الموقع الكفيل بالاتصال بين الوهابيين فى نجد واخوانهم فى اليمن . وكانت تحمى هذا الموقع الأسوار والخنادق وتسترها غابة نخل كبيرة ممتدة على مسافة ثمانية كيلومترات. وكانت القيادة العامة لجيش سعود هناك فلم تلق عناء فى صد القوة

المصرية التي انهكها التعب وحث السير . وكانت تقود المهاجمين امرأة اشتهرت بالبطولة اسمها غالية ارملة شيخ قبيلة صبيح

قرر مصطفي بك استئناف الهجوم فى اليوم التالى فأبان له الضباط خطر هذا الفعل لما يعلمونه من قلة المؤن والذخائر على أثر استنفاد معظمها أثناء الطريق فى معارك عنيفة ضد قبيله عتيبة التى طوردت فى الجبال . دع ان العساكر أنفسهم كانوا يأبون القتال ضد غالية لاعتبارهم إياها ساحرة تسعف الوهابيين بمساعدتها وتوئيدهم بنصرها . وحقيقة الواقع ان هذه العجوز كانت تبث الحماس فى نفوس القبائل بمالها وهو اصدق سلاح لها وصدق نظرها وبطولتها غير المألوفة فى بنات جنسها . فلما آثر المصريون الانسحاب بتأثير الخوف ألح أعداؤهم فى مطاردتهم والتضييق عليهم حتى غنموا أمتعتهم وخيامهم ومدافعهم ونشأ عن ذلك ان ستمائة رجل من الألفين قتلوا أثناء الانسحاب بالرغم من الجهود التى بذلها الفرسان فى تلك الاصقاع الجبلية لصد المهاجمين عن المصريين . ولم ينثن الوهابيون عن ملاحقة هذا الجيش إلا على مسيرة نهار من الطائف . ولحق مصطفى بك بطوسن باشا في مكة وهو فى اسوأ حال ولم يكن حظ الجيش المصرى فى الجانب الآخر من الحجاز أسعد منه فى هذا الجانب فان حامية الحناكية

كانت قدسلمت بنفسها الى سعود الذى زحف من فوره على المدينة فى جيش مؤلف من ٢٠٠٠٠ رجل وقد استفز الجند حب الاقتداء بهذا الزعيم بل تحريضه إياهم على أخذ المراكز الضعيفة والتعرض للسابلة الذين يقصدون الى مكة وجدة ونشأ عن شدة القيظ فى الحجاز ورداءة الماء وقلة الغذاء وشدة التعب والعناء أن خسر المصريون فى هذه الحوادث ٨٠٠٠ جندى و ٢٥٠٠٠ دابة و ٥٠٠٠٠ كيس من المال وكان طوسن باشا قد جعل في النقط المعرضة لمداهمة الاعداء فصائل من الجند لمعاقبة العربان عند مسيس الحاجة كلما بدت من ناحيتهم نزعة الى الشر أو الخيانة او اقتحموا هذه النقط، غير ان هذه الانتصارات الجزئية لم تكن الا كالدواء الملطف يسكن الالم زمنا ولكنه لا يستاصل الداء. ولقد نظر الوالى فى هذه الحوادث نظرة بصير فأدرك أول وهلة ان دفع الاخطار المقبلة يستدعي الاستعانة بوسائل للقتال أشد تاثيرا وفعلا من سابقتها فارسل من القاهرة على الفور ٥٠٠ جندى ومالا كثيرا وثيابا وذخائر الى السويس بواسطة القوافل ثم الى جدة فى السفن. وكان طوسن فى هذا الثغر فصدر له الامر بان يجمع فى المدينة جميع قواته العسكرية ولعامه بتأثير نتيجة هذه الحرب فى موقف الباب العالى حياله من رضى أو غضب ولشدة رغبته فى تأييد نفوذه

الذى طالما تنازعته الشهوات وحامت حوله المطامع بمجد يكسبه بحد السنان أراد ان يجمع الى حسن سمعته كقائد ماهر الاحتفاظ بمحبة الناس واحترامهم له ووقاية مصر من عيث الجنود بأبعاد الدلاة والارنؤود فعقد النية على الذهاب بنفسه الى ميادين القتال فى الوقائع التى ستنشب بينه وأولئك الاعداء الباسلين

عهد محمد على بمقاليد الحكم فى الوجه القبلى الى ابنه ابراهيم باشا وفى البحرى الى حسين بك . ثم أبحر من السويس في ستين من رجال حاشيته وألفين من مشاته بينما كان الفا فارس وثمانية آلاف جمل محملة بالاثقال يتقدمون بطريق البر . فلما وصل الى جدة في ٣٠ شعبان ١٢٢٨ الموافق ٢٨ أغسطس ١٨١٣ حياه فى السفينة الشريف غالب مصحوبا بطوسن باشا فدخل المدينة على دوىّ المدافع ونزل بقصر بناه ابنه بسيف البحر . وفى ٦ اكتوبر قصد الى مكة فزار الحرم واستقبل فى قصر أعده له الشريف وفود الأعيان فألبسهم الخلع من السمور . وحافظ محمد على مدة إقامته على أداء الفروض وألزم عساكره بأدائها فى أوقاتها . وكان يصلى الاوقات فى مواعيدها بالحرم المكى ويدفع الاموال الكثيرة لترميمه وزخرفته ودفع أجور القائمين على خدمته .

وكان يسهر حتى الساعة الثالثة بعد نصف الليل باحثا فى آيات القرآن مستوضحا غامض معانيها مع العلماء الذين كان يغمرهم بعطائه ويتحفهم بهداياه وكان يظهر فيما عدا ماتقدم الشغف الشديد بمعاشرة العلماء والصالحين

وكان الشريف غالب يقابله مرتين فى الأسبوع زائرا ومتفقدا ثم قلل زيارته شيئا فشيئا مستصحبا معه في كل زيارة بضع مئات من رجاله ثم انقطعت الزيارات بالمرة فلم يعد يتوجه اليه. وسبب هذا الجفاء ان خلافا ثار بينهما ثائره على جمارك جدة، على ان هذا لم يكن إلا سببا ثانويا فان غالبا كان قد ناط به الباشا توزيع مبلغ جسيم من المال على مشائخ العرب المجاورين حثا لهم على تقديم الجمال وأن يستعمل فى ذلك ماله من السطوة والنفوذ، ولكنه لم يعبأ بهذا الامر ولم يعن به العناية المنتظرة لا لأنه كان يربأ بما بينه والعرب من قديم الرابطة وإنما ليخدع ويخون ذاك الذى كان يتظاهر بالولاء له والانحياز اليه. وقد اتصل بمحمد على سر الخطة المدبرة نحوه ففكر فى وسائل اتقائها ودفع شرها عنه وعن أعوانه فذهب الى الشريف غالب مرتين آخذا عليه برفق إغفاله الوفاء بوعده ولم يكن معه أكثر من عشرين ضابطا آملا بذلك ان لا يتخذ الشريف حاشية اكثر منهم عددا اذا رد اليه هذه

الزيارة . ولم يكن الشريف غالب قد أهمل الاحتياط لوقاية نفسه لما داخله من الشك والريبة فكان يغلق على نفسه داره ولا يخرج منها إلا في أيام الجمعة لأداء صلاتها فى الحرم حيث لا يستطيع أحد ان يمسه بسوء . وكان غالب يسكن بسفح الجبل قصرا وثيق الأركان رفيع البنيان يتصل بقلعة حصينة تحكم المدينة بواسطة نفق تحته وفيها من الصهاريج المملوءة بالماء والمؤن الوفيرة والذخائر الكثيرة والمدافع (وعددها ثمانية) والحامية (وعدد رجالها ٨٠٠) مايكفي للدفاع عند الحاجة . وكان العساكر من أهل اليمن والعبيد المسلحين ، هذا فضلا عن أن زملاء الشريف فى مكة وخدمه وأصدقاءه من البدو وجنوده فى الطائف وجدة كانوا على قدم الاستعداد لتأييده وشد أزره فى حالة الحصار . وكان باستطاعته الاعتماد على مؤازرة ألف وخمسمائة رجل فى مكة وحدها فلما رأى محمد على نفسه فى هذا الموقف لجأ الى ذكائه فى استنباط حيلة للخلاص منه فأقنع غالبا بان يدعو طوسن إلى الحضور لأداء فريضة الحج قبل وصول القوافل تقية الزحام فبرح طوسن جدة . ففى مساء ٦ الحجة الموافق أول دسمبر دخل مكة فكاشفه أبوه ليلة وصوله بما نواه نحو الشريف ثم أمر فحضر في الحال مئة عسكرى فوضعوا فى الحجرات المطلة على صحن دار

طوسن. وكان الأدب المرعى يقضى بان يخرج ليتلقى هذا الزائر واغفال العمل بهذا الأدب يعد مواجهة بالعداء، فلما كان صباح اليوم التالى برح الشريف داره فى نفر قليل ليقدم فروض تهانئه إلى طوسن باشا وتوخى الحضور في البكور لكيلا يتوافر الوقت لنصب المكائد له فبعد أن تعاطى القهوة أشار طوسن الى الحاضرين بالانصراف فنزل حراس غالب الى صحن الدار ولبث يتفاوض مع زائره نحو عشر دقائق أمر بعدها باحضار شراب مرطب اليهما وكان هذا الامر أشارة متفق عليها للقيام بعمل معين . وهمّ الشريف بعد تعاطي الشراب بالانصراف فبرز له عابدين بك أحد كبار الارنؤود من الحجرة المجاورة فاعترضه ودعاه الى تسليم جنبيته وأعلنه بانه صار فى أسره .فلم يبد غالب مقاومة ما واعتذر طوسن بأن ما يفعله معه إنما هو بأمر شاهانى وان ليس هناك ما يخشاه على حياته لأن والده سيتوسط له لدى الباب العالى وأنه لن يصيبه مكروه فلما سمع الشريف هذا القول تقدم نحو النافذة وأمر رجاله الذين بصحن الدار بالانصراف الى منازلهم قائلا لهم أن ليس هناك ما يبعث على الخوف بشأنه وانطلق أحد أتباعه ليخبر بالحادث أولاده وعبيده الذين كانوا معتصمين بالقلعة تأهبا للدفاع اذا مست اليه الحاجة ثم ذهب ابراهيم افندى مهردار الباشا ليطلع

الشريف غالبا من طرف الوالى على الخط الهمايونى القاضى باعتقاله وارساله الى الاستانة فاجابه الشريف بقوله إن الله هو الحكم العدل وأنه اذا كان رجل مثله قضى حياته كلها فى تأييد عرش السلطان والاخلاص له فأنه لن يخشى الوقوف أمام هذا العرش وبناء على ما وعد به من حسن المعاملة كتب الى ابنائه يحضهم على السكون والسلم والاقرار للباشا بالطاعة . ولقد قصدوا اليه يوما ففيما هم بالطريق اذا بعابدين بك مقبلا فقبض عليهم جميعا وسجنهم . وفى اليوم التالى استولى العسكر على قلعة غالب ولاذ بعض حاميتها بالعربان المجاورين وانضم البعض الآخر الى الوهابيين . وبث الوالى العيون والحراس في جميع المنافذ ليمنعوا النساء من الفرار خيفة ان ينقلن معهن شيئاً الى الخارج ونيط بالقاضى وأحد ضباط الوالى وبعض الكتبة حصر أملاكه وآثاثه وأمتعته وجواهره ، فباشروا هذا العمل ولكنهم لم يعثروا على الخزائن التي تواتر على الألسنة أنه يكنز فيها أمواله الجسيمة التى جمعها اثناء قبضه على زمام الامور أى في مدة ثمانية وعشرين عاما ببخله وجشعه وابتزازه اموال الناس بغير الحق وفرضه الضرائب الفادحة عليهم وجبايته الغرامات مضاعفة عن الجرائم الصغيرة والهفوات التى لا تقابل بغير الأغضاء أو العفو . والراجح أن سفينة

من السفن الكثيرة التى يسيرها باسمه فى الخليج الفارسى نقلت أو فى شطر من هذا المال الى الهند الشرقية أو بومباى التى يرتبط بها بروابط التجارة والمعاملات منذ زمن قديم . أما ما ضبط عنده ووقع تحت الحصر فقد بلغ ٩١٠٠٠ محبوب بندقى و ٢١٠٠٠ ريال ومقدارا وافرا من الجواهر والبن والاقمشة والبضائع المختلفة الاصناف والاشكال ولقد حملت هذه الموجودات على متون الدواب بحراسة فرقة من الدلاة تحت قيادة مصطفى بك فتألفت من ذلك قافلة كبيرة أخذت سمتها فى الحال الى القاهرة . وكان الغرض المقصود من رجوع هذا القائد الى مصر معاقبته على خذلانه فى قتال المرأة غالية ولأنه حينما كلف باخلاء دار الشريف غالب من أهله وقرابته وخدمه استعمل معهم الشدة والغلظة . وكان من بين النساء اللائى اخرجهن مائتا امرأة من صنف الحبشيات أما زوجته فقد عادت الى دار والدها السيد محمد نقيب الاشراف وقد بعث محمد على الى بيته من يعزيهم على ما نزل بهم من المصاب ويعلمهم بأنه رتب لهم المرتبات السنوية ليعيشوا بها ثم اختار للشريف غالب خلفا وهو يحيي بن سرور أخيه . وكان يحيي رجلا جليل المقام عظيم الاعتبار ولكن محمدا عليا لم يخصه بهذا المنصب الا لأنه كان منذ زمن طويل يناصب عمه العداء . وقد رتب له

معاشا شهريا عشرين كيسا

ولم يلبث الشريف غالب أن أرسل مخفورا الى جدة . ولم يؤذن له بان يأخذ معه شيئا من المتاع فلم يكن يحمل الا الثياب التى كان يلبسها ساعة قبض عليه . ويظهر ان الحراس الموكلين بخفارته أرادوا تخفيف أعبائها عنه فسلبوه نطاقه ورقعة شطرنج جاء بها لتزجية الوقت فى اللعب مع أحد خصيانه وكان قد استصحب من هؤلاء الرجال - اذا صح ان نسميهم كذلك - إثنى عشر خصيا وأخذ الشريف غالب يروى أثناء الطريق على كنج أغا كبير الدلاة أنه فى ليلة القبض عليه ألحت ابنته عليه فى عدم الخروج لانها رأت مناما توقعت منه الشر له. وبقى الشريف ومن معه بجدة بضعة أيام ثم سافروا فى سفينة الى القصير فوصلوا يوم ٤ دسمبر ١٨١٣ الى القاهرة وكان نساؤه قد وصلن اليها من قبل عن طريق السويس فحيته المدافع بطلقاتها واستقبله كيخيا بك الوالى والسيد محمد المحروقى بمظاهر التبجيل والتكريم . وقد دعاهما الشريف يوما الى تناول الطعام على مائدته فقال لهما فى حديثه: «كنت معتقدا أن محمدا عليا سيدبر ضدى مثل هذه المكيدة ولكننى لم يخطر قط ببالى أنه سيعجل بها الى هذا الحد» وكان الوالى قد عامل غالبا بادىء ذى بدء بشىء من الشدة والعنف

ثم تغلبت عليه فطرة الكرم والمعروف فأمر كيخياه بأن يرخى له العنان حتى تمكن أحد ابنائه من الفرار متنكرا فجىء به من حلوان التى أدرك فيها الى السيد محمد المحروقى فوضع كيخيا بك عليه الرقباء وشدد المراقبة على أبيه وأخيه. ويذكر عن عبدالله بن سرور احد ابناء عم الشريف غالب وكان مسجونا بمكة ثم جىء به الى القاهرة أنه حاول الفرار كذلك على أثر وصوله اليها. على أن محمدا عليا لم يعامل الشريف وأبناءه بهذه المعاملة إلا فى دائرة الحقوق المخولة له بمقتضى الفرمان السلطانى الذى ترك له حرية التصرف فى الشريف إما بأبقائه قابضا على أزمة الحكم فى مكة وإما بابعاده عنها ولقد ألقى نظرة من نظراته الى صحفه السابقة فى خدمة الاسلام والمسلمين فالتمس من السلطان العفو عنه فورد عليه بالحجاز على يد أحد القابجية الامر برد الاملاك التى صودرت اليه ولم يقف محمد على باشا عند هذا الحد بل وافاه من ماله الخاص بخمسمائة كيس وتخير له الاقامة بسلانيك فسافر الشريف غالب اليها مع أحد ابنائه لوفاة الثانى في معتقله بالاسكندرية ولم يعش الشريف غالب وأعضاء اسرته بالبلاد الاجنبية اكثر من اربع سنوات بسبب اختلاف الاقليم والحنين الى الوطن والحزن على مافقد من الجاه والكرامة فان هذه العوامل أتلفت صحته

وحفرت له من تحت قدميه القبر الذى أهال ترابه عليه طاعون سنة ١٨١٦

وكان لعارف افندى أحد كتبة الاسرار فى الديوان مملوك يدعى لطيفا فأهداه الى محمد على باشا فاكرمه الوالى وأفاض عليه الخيرات والنعم وعهد اليه بمفتاح خزنته ثم اختاره لمرافقة ابراهيم باشا فى سفره الى الاستانة حين نيطت به مهمة تقديم مفاتيح مكة والمدينة الى السلطان فانعم عليه هذا بالباشوية ذات الذنبين فانتفخ كبرياء وصلفا وانفتحت في وجهه أبواب المطامع فلما عاد الى مصر أذاع على الملأ أنباء بوفاة محمد على واستمال اليه بعض العساكر بما كان يبذله من العطاء وجعل داره ملتقى الندماء يتذاكرون علنا فى شؤون السياسة فحامت حوله الشبهات وتطابقت الآراء على انه طامح الى السيادة والحكم فى البلاد. واشتهر ان شيخا كان قد عمل له استخارة قال له فيها انه سيرقى الى أعلى المناصب فلما وقف كيخيا بك الوالى على حقيقة الحال أمر بذلك الشيخ فألقى فى النيل وسيق لطيف الى الجلاد فرمى عنقه

لم يكن هذا الحادث وأشباهه كل مااهتم به محمد على أثناء وجوده بمكة فلقد صرف كثيرا من جهوده فى مصالحة أهل الحجاز واستمالتهم اليه بتوزيع النقود والغلال وتخفيض الرسوم الجمركية

التى فرضها غالب على الواردات وإلغاء الضرائب والمكوس الأخرى التى أبهظ هذا الشريف ظهور الاهلين بها ومعاقبة كل من يعتدى عليهم بالظلم والاهانة والنظر بعين الانصاف فيما يقدم اليه من الشكاوى . وبالجملة فقد أخذ بناصر العرب وشد أزرهم فقلت بالتدريج أسباب الشكوى والتذمر وامتدّ رواق العدل ولم يقتصر على ماتقدم من جلائل الاعمال بل اهتم بجعل ثغر جدة المستودع الاكبر لذخائر الجيش ومؤنه ورتب الوسائل الكفيلة بنقلها الى الداخل على أحسن حال واستأجر من إمام مسقط عشرين سفينة لمدة سنة ورتب للعربان الموكول اليهم حفظ الأمن في الطريق الرواتب الشهرية وأقام الحاميات العسكرية فى الجهات الأكثر تعرضا من غيرها لخطر المداهمة ثم سير ابنه طوسنا في ٥٠٠٠ راجل و ١٠٠٠ فارس وستة مدافع الى ترابه التى اصبحت قاعدة لأجراءات العدو منذ اليوم الذى تراءى لسعود الوهابى فيه ان يعدل عن الزحف على المدينة وقام الوالى بنفسه من مكة قاصدا العميلة ليجعل فيها فرقة احتياطية من الفرسان فقصد طوسن الى الطائف حيث أنشأ المخازن والمستودعات للجيش ثم الى كلاخ فترابه فوصل اليها بعد عناء شديد بسبب مالقيه من عنت شيخ العربان ودليلهم المسمى الشريف

راجح فان هذا الرجـل لم يلبث ان انشق على المصريين وعاد لقتالهم فى سهل (بسل) فى حشد حشيد من الوهابيين . وكانت المؤن عند وصوله الى ترابه قد نفدت عن آخرها فاضطر الى تغذية عساكره بنخاع النخل ثم عقد مجلسا من رؤساء جنده تقرر فيه الاحجام عن الهجوم والارتداد الى الطائف فرفع طوسن الحصار ليلا فسار الوهابيون فى مطاردته وغنموا منه مدفعين ولـكنه لم يلبث ان استردهما بعد أن قتل خمسين رجلا منهم فأرسل من الطائف فيما بعد الى والده تقريرا بالاسباب التى استدعت ارتداده. وكان محمد على يشعر بما هنالك من الحاجة الى تسكين الخواطر واستفزاز الهمم فخاطب قواد الجيش بما ياتى :

« تحققت ان الخذلان الاخير لاينبغي ان يعزى اليكم بل الى العربان الذين ستلاقيهم عقوبتى. وليس عندى مايحملنى على الشك فى بسالتكم وحسن سلوككم الذى استحق منى جزيل الثناء والواجب عليكم أن لاتتركوا لليأس سبيلا الى أفئدتكم فان الحرب أدوار فيوما تجىء بالنصر ويوماً بضده . واعلم أن نفاد المؤن اضطركم الى الأوبة الى الطائف وسيلقى الخائن جزاء خيانته

وكان عربان اليمن يناوشون المراكز العسكرية المتفرقة ويؤذونها فرأى محمد على لتأديبهم وزجرهم ان يرسم خطة جديدة

يحول بها الانظار من مكان الى مكان فعهد الى والي جدة بقيادة ٢٠٠٠ راجل و ١١٠٠ فارس وجهز اسطولا من السفن الخفيفة لحمل الذخائر فبعد مناوشات قليلة وصلت الجنود قرب قنفذة بدون ان يسفك دم واستولت عليها فى ١٤ مارس ١٨١٤ وكان يحتلها منذ خمس سنوات (طامى) شيخ عرب العسير المعروفين فى جنوب مكة بشدة البأس والمشايعة للوهابيين فلما وصل نبأ هذا الفوز الى محمد على باشا كتب الى والى جدة بتحصين الموقع ووضع حامية فيه واستئناف الزحف ، ولكن حدث ان فرطت غلطة ذهبت معها هذه الاحتياطات كلها هباء منثورا . ذلك ان بلدة قنفذة تنقصها مياه الشرب ويجلب أهلوها الماء اللازم لمرافقهم البيتية من مكان على مسيرة ثلاث ساعات منها ، فكان من الواجب إقامة الاستحكامات حول آبار هذا المكان مع تأمين الطريق الذى بينها والبلدة بخط من الأبراج أو البطريات . ولم يدرك والى جدة أهمية هذا الاحتياط فاقتصر على تخصيص ١٥٠ ألبانيا لحراستها فاستطاعوا منع قطعان الاغنام عن ورودها ولكنهم لم يستطيعوا رد الاعداء عنها حينما داهموها

وقضى المصريون شهراً فى قنفذة من غير حراك فلما كانت أوائل مايو فجأهم جيش من الوهابيين مؤلف من ٨٠٠٠ مقاتل

بقيادة طامى فقاومهم حراس الآبار حتى المساء ببسالة وثبات ثم انسحبوا الى داخل الأسوار فلم يجدوا حاكمهم لانه آثر على البقاء فى هذا المأزق الحرج والتعرض فيه للأخطار المهلكة النجاة بنفسه فى سفينة تاركا جيشه كالقطيع بلا راع . وكان الجنود من مشاة وفرسان ورؤساء ومرؤوسين قد روعهم فرار قائدهم فانقضوا على القطائر الراسية وتزاحموا على ركوبها التماس النجاة . والذين منهم تعذر عليهم النزول فيها وكانوا لا يعرفون السباحة فقد فتك الوهابيون بهم ومن لم يمت بصوارمهم البتارة مات غرقا أو بحد السيف أيضا حينما ادركهم أولئك الاعداء وهم فى القطيرة أو على الاخشاب فانهم ما زالوا بهم حتى أفنوهم عن آخرهم وصبغوا ماء البحر بدمائهم وقد غنم الوهابيون فى هذه الحادثة ٤٠٠ حصان وعددا عظيما من الجمال وقدرا وافرا من المدافع والامتعة. اما الذين نجوا فى السفن فقد مات اكثرهم جوعا وعطشا اثناء الطريق ومما يروى عن سفال نفس ذلك الحاكم وخسة طبعه أنه كان لا يغسل يديه إلا بالماء العذب بينما كان العطاش يتلهفون على قطرة منه ويلهثون كما تلهث الكلاب . ومثل هذه التهمة كان محمد على باشا لا يترك مرتكبها من غير عقوبة ولهذا نرجح ان تكون مفتراة على من أسندت اليه كما كان لا يحرم من المكافأة مستحقها . ولقد

كافأ اثنى عشر من الجنود قضوا ليلة الهجوم فى الدفاع عن البلدة بأحسن ما يكافأ به الابطال المخلصون

ومما ضاعف المصاب وزاد فى الأوصاب ان الامراض الوبيئة كالحمى المتقطعة والدوسنطاريا والايدروبيزيا وغيرها من الأدواء التى يرجع سبب انتشارها الى فساد الماء والهواء أن العربان أخذوا يعيثون فى الارض الفساد فقطعوا الطرقات على السابلة ودهموا القوافل فلم تستطع احداهن الذهاب الى جدة ولا الاياب منها مالم يكن عليها العدد الكبير من المحافظين وانتهى الامر بالوهابيين الى حصر الجنود المصرية بمكة وما يلى ضاحيتها الى مسافة بضعة فراسخ منها

وكانت حالة الجيش فى الحجاز تبعث على القنوط ولا تدع مجالا للأمل ، غير ان محمدا عليا كان ماضي العزيمة لا تزلزله الحوادث ولا تذهب بصبره الكوارث فلقد بعث يستنجز كيخياه بالقاهره ارسال المدد الذى طلبه قبلا وهو ٧٠٠٠ مقاتل و ٧٠٠٠ كيس وعهد الى الشريف يحيي بمهمة فيما وراء الجبال وأرسل معه مالا يحصى عدده من رؤوس الأغنام والجمال واستدرج فى الآن نفسه الى الاستظلال برايته القبائل التى لم تخضع له بعد وعامل الاسرى بالكرم والتسامح فأطلق سراحهم يروحون ويغدون

بحسب مشتهاهم على ان يجتنبوا الوقوع فى مثل ما أوجب اعتقالهم
وحالف عربان هذيل وثقيف وبنى سعد وعتيبة وكلها من القبائل
المطنبة بين مكة والطائف ثم قصد الى الطائف لا ليتمتع بمناخها
الحسن وهوائها النقي وانما لتوكيد الروابط معهم . ولقد حضر
للقائه لفيف من مشائخهم فى نحو خمسمائة من رجالهم فأهدوهم ما
لا مطمع بعده من الثياب والنقود وأجرى عليهم من الارزاق
والمرتبات مايعدل ضعف مرتب الجندى المصرى . وكان يصغي
الى اعتراضاتهم ويحتمل انتقالهم الفجائى من حديث الى حديث
بصبر وهشاشة جذبت اليه أفئدتهم . وجاءه يوما رجل من عتيبة
فلما دنا منه تناول لحيته بيده مغتبطا وقال : « كنت هجرت
مذهبي الأول وهو المذهب الصحيح مستمسكا بمذهب الوهابى
الخارج المبتدع والآن اعتنق مذهب محمد على » فأجابه الباشا :
« انى أود ان تبقى مبتدعا ثابت اليقين فى ابتداعك » وكان
الشريف راجح الذى ذكرنا انه انضم الى الوهابيين قد عين على أثر
انضمامه شيخا لمشائخ الحجاز ولكنه انتقض عليهم وعاد الى موالاة
الوالى الذى قلده قيادة العربان الموالين له ليستفيد بجاهه ونفوذه
بين القبائل العربية . وورد فى الاثناء نبأ من الاهمية والخطورة
بحيث ترتب عليه تغيير محسوس فى طبيعة القتال وخططه ونتائجه

ألا هو وفاة سعود بالدرعية عاصمة بلاده فى الثامنة والستين من عمره يوم ٨ جمادى الأول ١٢٢٩ الموافق ١٨١٤ . وكان معروفاً بالبسالة والهمة والكرم فلما توفى خلفه عبد الله ابنه الاكبر على زعامة الوهابيين

وكانت الجنود المصرية موزعة وقتئذ فى الحجاز كما يلى : ٤٠٠ راجل فى الطائف بقيادة محمد على باشا و ٣٥٠ بين المدينة وينبع بقيادة طوسن باشا و ٢٠٠ ألبانى فى مكة بقيادة ابراهيم آغا مهردار الوالى و ١٥٠ من العربان بقيادة يحيي و ٤٠٠ فى المدينة بقيادة ديوان افندى و ١٠٠ فى ينبع و ٢٠٠ في جدة و ١٠٠٠ فى كلاخ بقيادة حسن باشا وكان قد وصل حديثا من مصر و ٤٠٠ من الدلاة و ١٢ من الارنؤود بقيادة عابدين بك أخى حسن باشا وكان قد وصل معه من مصر بحرا واشترك معه في حفظ النقط الامامية الواقعة على مسيرة أربعة أيام من جنوب الطائف نحو اراضى زهران حيث يقيم بخروج شيخ عربان غامد وهو اكبر المعاذين للمصريين وبهذا أصبح الجيش المصرى المؤلف من ٣٥٠٠٠ جندى مشتتا فى جميع الاراضى ولا يوجد منه بالقطر المصرى نفسه سوى ١٥٠٠٠ فقط وكان الغرض الذى يرمى اليه بتبديد تلك القوه ونشرها فى كل مكان ايهام الاعداء بكثرة العساكر المصرية وأنهم لاقبل لهم

بهم على ان الجيش الحقيقى المؤلف من ٤٠٠٠ عسكرى يعززه ٤٠٠ من العربان كان كافياً اذا كان المراد منه الذب عن الحرمين وإدخال البلاد المجاورة لهما فى الطاعة ولكنه لم يكن كذلك اذا كان القصد منه قهر الوهابيين. وكان من أهم ما أضر بالاجراءات الحربية وأقام فى طريقها العقبات قلة الجمال اللازمة للنقل فانه منذ الشروع في محاربة الوهابيين نفق من هذه الحيوانات ٣٠٠٠٠ رأس على ان هذا لم يحجم بالوالى عن استعارة ٥٠٠ جمل من عربان (حرب) لنقل الذخائر بين جدة والطائف . وكان ينتظر ان يصل اليه منها عدد عظيم بواسطة القوافل الواردة من سنار ودمشق. وكان ابراهيم باشا قد حصل من جهة أخرى على مقدار منها بواسطة قبائل صحراء ليبية لنقل أمير الحج المصرى الى الحجاز وكانت حامية الطائف لامؤن عندها فكانوا كلما وصلت القوافل بشيء من الغلال وزعوه على الجنود بدون ادخار شيء فى المخازن وكان الجندى فى النقط الامامية ككلاخ وزهران لا يستطيع طحن القمح الذى وزع عليه فكان يصحن مايكفيه منه يوميا بين حجرين ثم ينضجه فى الرماد وفى هذا الوقت شرع عربان اليمن لسوء الحظ يوالون الهجمات على المصريين فسير محمد على اليهم فى اقليم زهران جيشا بقيادة عابدين بك الذى استولى عليه بعد

قتال يومين وطرد منه السكان واعتقل فيه الأسرى . وكان الوادى الفاصل بين اليمن والحجاز الاعلى كثير الخيرات فكانت فيه الفواكه والأعناب وغابات اللوز وعيون الماء العذب النقى فكانت هذه المزايا فى مثل تلك الظروف كالكنز الثمين ولكن الزعيم الأرنؤودى أبى إلا التدمير والفساد فى أرض لا يقل امتدادها طولا عن أربعين ميلا، فانه ليتقي وبال الهجوم عليه اتلف ودمر كل ماخاله ملائما لسير الجيوش المنظمة. وبالجملة فانه بسوء تدبيره وقصر نظره فى العواقب حفر حفرة عميقة فى المكان الذى كان يجب ان يعتبره بالنسبة لحالته كأرض المعاد بالنسبة لبنى اسرائيل وقد اضطر على أثر هذا التخريب الى بث فرسانه بكل مكان فى طلب المؤن والأغذية فكانت النتيجة أن دهمه العدو في نقطته التى لم يعن بانشاء الاستحكامات حولها ولا بوضع الحراس عليها اعتقادا منه بأن الصحراء التى بتخريبه إياها بدلت من حالها بحال ستكون حصنا منيعا. وبيان ذلك ان بخروجا انقض بعربانه صباح ذات يوم على المعسكر المصرى وحاول طامي أن يقطع بجيشه المؤلف من ٣٠٠٠ وهابي خط المواصلات بين مشاة عابدين بك والفرسان إلا ان هؤلاء اخترقوا صفوف العدو لادراك اخوانهم والانضمام اليهم وتمكن المشاة من صد الهجمات واستولوا على

(منصيرة) فلم يفت هذا الفشل فى عضد الوهابيين ولم يثنهم عن عزيمتهم فعادوا فى حشد أعظم من الأول فحاول عابدين بك التماس طريق بين المهاجمين للخلاص من حصرهم إلا ان بخروجا قام بحركات حربية أراد بها غير مايضمره فاستدرجه بذلك الى الحزَن حيث نصب الكمائن والشراك فلما وصل المصريون الى هذا المكان أصلوا من البنادق بنار حامية انتهت بها تلك الخدعة. أما الروملليون وكان قائدهم أنشط قائد للباشا فى الحجاز فقد قاوموا مقاومة اليائس وأصاب الأرنؤود شىء من الخبل والاختلاط فتركوا ذخائرهم وخيامهم ومدافعهم وحمى حسين بك رئيس الدلاة انسحابهم فصان الجيش بذلك من التلاشى فان عدد القتلى بلغ ٨٠٠ من المشاة و ٨٠٠ من الفرسان واقتفى بخروج أثر المنسحبين يومين متتاليين بليلتيهما فلجأوا الى بلدة (لية) وتلقى عابدين بك الامداد من الطائف وكلاخ ولكن فريقا من عساكره انشقوا عليه اذ رأوا ان من المجازفة التى لافائدة منها بالحياة إلقاءهم بأنفسهم فى التهلكة وانصرفوا قاصدين الى الطائف

أما الاعمال الحربية التى تولاها الوالى بنفسه فقد ظهرت منها بوادر النجاح إذ عادت الصلات التجارية بسببها مع موانى الخليج العربى الى سابق عهدها وتوافد عليه القصاد من الشريف حمود

ابو مسمار وامام صنعاء ووجه الى ابنه طوسن باشا ٤٠٠ من العربان الذين كان ابراهيم باشا قد استجاشهم فى ليبية وعهد الى بقيتهم مهمة الاستطلاع والهجوم فى جهات متعددة. وكان لكل فارس منهم جواد أصيل وجمل يحمل مؤونته وذخيرته وبندقة وطبنجتان . وكان الأعداء يخشون بأس هؤلاء العربان لبسالتهم وعلمهم بأساليب حربهم ولكونهم اذا خرجوا للقتال لا يعودون منه الا بأكاليل الانتصار . ولقد أوغلوا مرة شرقى ترابة متخذين عربان الناحية أدلاء لهم فغنموا من الوهابيين ٨٠٠٠ رأس من الضأن

ولما اقتفى بخروج وطامى أثر عابدين بك لم يصدهما عنه سوى اسوار الطائف . فضيقا عليها الحصار وخيف على طوسن باشا ان يصيبه من جراء الحصر أذى فسيرت سرايا الحاميات اليها لاستنقاذها . ورأى محمد على ان الافضل له الانقياد لما كان يوحيه اليه وجدانه الأبوى فعجل بمبارحة جدة ممتطيا جوادا وكان مقيما بها وانطلق فى طريق الطائف لا يصحبه غير عشرين جنديا فلما وصل الى قمة جبل (خراع) استكشف معسكر العدو ووقف على سر تدابيره الحربية . وكيفية ذلك ان حراسه قبضوا على وهابى يشتغل بالصيد والقنص فسأله الوالى عن مواقع

المحاصرين وتدبيراتهم فأعجبته صراحتـه في جوابه فاتحفه بهدية ثمينة آخذا العهد عليه ان لا يفشى ما كان بينهما إلا فى صباح الغد وان يوصل الى حاكم الطائف وريقة كتبت برسمه فلما أقسم الرجل اطلق سراحه وكان الليل قد ارخى سدالة فتعشى محمد على ودخن التنباك ثم نام. ولم يخس حامل الرسالة فى يمينه إذ قام بما عهد اليه على أحسن ما يرام . وكانت الرسالة تحتوى الكلمات الآتية : « إنى الآن بجبل خراع فهلم الىّ » فطفر طوسن باشا سرورا بتلاوة هذا السطر وأمر باطلاق المدافع اعرابا عن سروره ثم امتطى جوادا وسار برجاله نحو المكان الذى كان والده موجودا به فلما سمع الوهابيون دوى المدافع ورأوا منظر الجنود وهي خارجة من المدينـة اعتقدوا صدق ما ابلغهم الوهابى إياه من أن الوالى على وشك الوصول في طليعة جيش عرم لاستنقاذ الطائف وخافوا الوقوع بين نارين فعجلوا بالانسحاب الذى كان الباشا كلما حرك سيرته ضحك وقال إنه تغلب على العدو بدون ان يطلق بندقة ولا مدفعاً أو يجرد سيفا . وانصرف محمد على وابنه بعد ذلك الى مكة فجدة وصرفا كل عنايتهما الى تموين الحاميات العسكرية بالبلاد الحجازية

وكان ابن مدين شيخ عربان حرب قد قصد الى المدينـة

لمقابلة ديوان افندى فى أمر ما فقابله بالمجلس وجرت بينهما محادثة فاه ديوان افندى فى خلالها بعبارات تنم على الفخر والصلف. وكان الشيخ عظيم الجرأة والقحة فقال له : « الزم الصمت لان هـذا السيف (ثم ضرب على سيفـه بيده) هو الذى فتح للمصريين أبواب الحرم » فخنق ديوان افندى وأمر فى الحـال بشد وثاقه و تفتيشه فوجدت معه كتب كثيرة تدل على تواطؤه مع الوهابيين فاستند عليها في التخلص منه باعدامه اياه بيده فى اعماق السجن ولما اتصل بقبائله وعربانه نبأ قتـله قطعوا الطريق على القوافل وتعدوا على مراكز الجنود المصرية فلما أيقن محمد على فداحـة خطرهم وسوء مغبةفتنتهم عقـد النية على قمعها تقية الوقوع فى القحط بانقطاع الوارد فأطلق لطوسن باشا حرية التصرف ثم قصد الى ينبع فحصل بمساعيه السامية وسجاياه الـكريمة على ما لم يكن يحصل عليه لو استعان بالأربعمائة راجـل والخمسمائة فارس والمدفعية على تعزيز جانبه وإعلاء كلمته فلقد استطاع أثناء وجوده فى ينبع وبدر أن يستميل اليه شيوخ العربان ويستدرجهم الى مخـالطته والأنس به وأهداهم الهدايا الثمينة من السمور والشيلان الـكشميرية. وأكد في تصريحاته لهم انه يعتبر نفسه ضيفا عند قبائل العربان لاخصما لهم. وبعد أن وعد بعقاب المسيء

ومكافأة المحسن سار بجنده قاصدا المضائق وقال إن كل مايبتغيه منهم تسليمها اليه. وكان عليها محافظون من العربان آلوا على أنفسهم ان لايتنازلوا عن شبر منها . فلما لاح لهم طوسن باشا وجنوده أطلقوا الرصاص عليه . فلم يعبأ بهم بل اهتم بنقل خيامه الى قمم جبل الصفراء وجديدة ونصبها فيهما وكانا هما مخرجا حلق الوادى فشاد فى كل منهما طابية ورمم طابية ثالثة بداخل أسوار القرية وجعل بها فصيلة من المشاة ومستودعا للذخائر. ومن محاسن المصادفات أن توفى ديوان افندى تحت عبء الشيخوخة ومشاق الحرب فى الوقت الذى كانت صيحات المحتجين عليه من العرب تطالب برأسه فأبلغ الامير طوسن الى العربان نعيه مدعيا انه أمر بقتله لانه قتل شيخهم ففاضت قلوبهم بالفرح موقنين بصحة هذا القول وتم الصلح بذلك فضمن المرور لسرايا الجيوش المصرية وتجريداتها واخترق طوسن الجبل فعلا فدخل المدينة فى اكتوبر ١٨١٤ تتبعه قافلة مؤلفة من الف جمل محملة بالمؤن للاهالين وترك فى حناكية بجوار المدينة خاصة فرسانه ليخرجوا صباح كل يوم فى طلب الوهابيين ومناوشتهم بالأراضى الواقعة شمالى المدينة

وكان موسم الحج قريبا فوصل من الحجاج فى نوفمبر نحو ٨٠٠٠ منهم فريق كبير من عظماء الآستانة وأعيانها . وكانت

زوجة محمد على الأولى وهى التى خصها بحظوته واسكنها القلعة قد وصلت الى مصر فى اخريات سنة ١٨٠٨ آتية من الروملي مع ابنتيها واسماعيل ثالث الذكور من ابنائها. وكان ابراهيم وطوسن قد حضرا الى مصر قبل أمهما في ٧ سبتمبر ١٨٠٥ فلما وردت الاخبار بقرب وصولها ذهبا الى شبرا لاستقبالها وحيتها مدافع القلاع عند وصولها ورافقتها الى القاهرة ٥٠٠ سيدة راكبات الحمير وفى مقدمتهن أرملة مراد بك وقد ارادت أداء فريضة الحج لذلك العام فوصلت الى جدة سنة ١٨١٤ وحملت الى مكة فى عربة مقفلة يجرها اثنان من جياد الخيل ونقلت امتعتها الى مكة على خمسمائة جمل فكانت هذه الأمتعة من الجلال والفخامة بحيث تليق بالملوك ونصب صيوانها فى سهل عرفات فكان أفخم واجمل مانصب فى هذا المكان من الصواوين . وضربت بالقرب منها اثنتا عشرة خيمة لنزول صاحباتها وكان يحيط بهذه الصواوين سياج من قماش الكتان محيطه ٨٠٠ خطوة ويقف الأغاوات بباب هذا السياج بملابسهم المزركشة الجميلة. أما الرجال من حاشيتها فقد نصبوا خيامهم حول هذا السياج من خارج وكان نقش الصواوين وتطريزها وتنوع ألوانها مما يحار العقل فى تصويره ويعجز اللسان عن وصفه . وعول محمد علي على قضاء

فريضة الحج فأحرم بشالين كبيرين من الكشمير الأبيض ثم امتطي جوادا وهو مكشوف الرأس للسعي بين الصفا والمروة وكان أحد كبار الجند يظله وقتئذ بظلة وفرح الأهلون بفخامة المحمل المصرى وما أحاط به من مظاهر الأبهة والجلال وأعجبوا بحسن منظر جنود الحرس . وعلق مائة مصباح كبير في وادى منى للارشاد الى موقع مخيمه وأنشأ أمام صيوانه حوضين كبيرين ليستقي الحجاج الماء منهما ماشاءوا وصف اثني عشر مدفعاً لاطلاق النار وعلق جثتين لاثنين من العربان سلبا أحد الحجاج ثلاثمائة قرش واثني عشر جملا . وقد زاره سليمان باشا والى دمشق فى موكب جليل سارت فيه الجنود بالملابس المزركشة بالذهب والف وخمسمائة من الدلاة ركبانا على الجياد الصافنات وستون مدفعيا على الهجن وبأيديهم المقاليع وأدى اليه قاضى مكة وكبار تجارها ووجوه الحجاج من جميع الأقطار فروض التعظيم والاجلال وتشرف رؤساء الجند وكبار القواد بلثم يده . وكانت قافلة حجاج مصر مؤلفة بعضها من رجال الجيش وبعضها من المصالح التابعة له فطلب الوالى منهم مصادرة الخيول والجمال فبلغ ماتوافر عنده من الجمال وحدها ١٢٠٠٠ رأس وأراد بهذه المصادره التعبئة للحملة المقبلة

ولما حشد جميع قواه بين مكة والطائف وتفقد مخازن الذخيرة والميرة والعلائف وعين المراكز والنقط لاقامة الجند ورتب مدفعيته المؤلفة من اثنى عشر مدفعا أذاع فى الناس عزمه على قيادة الجيوش فأيقن العساكر بالظفر ولكى يبقي هذا الاعتقاد مستقرا فى القلوب جئ من وادى فاطمة بحمل من بذور البطيخ طافوا به شوارع مكة وسككها فى موكب عظيم منادين بأن هذه البذور ستبذر فى موضع بلدة ترابه بعد تدميرها ولا ريب فى أن الاستيلاء على هذه البلدة كان من الصعوبة بحيث دعت الحاجة الى اتخاذ هذه الوسائل للحث عليه والترغيب فيه . وقبض في طريق جدة على ثلاثة عشر من العربان بتهمة الارتباط فى الخفاء بالوهابيين فرميت أعناقهم على مرأى جمهور عظيم من الناس . ولما انتهت التعبئة وجهزت المعدات الحربية سير محمد على بتاريخ ١٥ دسمبر ١٨١٥ السرايا من العساكر الأرنؤود بقيادة حسن باشا للانقضاض على جناحى العدو ومؤخرته طبقا لخطة مرسومة وتأهب محمد على بعد ذلك بتسعة ايام للانضمام اليه فى ١٢٠٠ فارس فاذا بالاخبار الواردة تفيد وصول جيش من الوهابيين الى قنفذة متجها نحو جدة وعلم أهل هذا الثغر بذلك فانذعروا وتروعوا لقلة الماء فيه منذ اشهر واستحالة الحصول عليه اذا

انقطعت المواصلات مع مكة وضاعف الرعب والحزن أن ارتفعت اسعار المواد الغذائية بنسبة الثلث لمجرد شيوع تلك الاخبار فاضطرت الحكومة الى الختم على الصهاريج للانتفاع بمياهها عند الحاجة وألزمت الأهلين بالاستقاء من الآبار البعيدة عن الثغر بثمانية كيلو مترات ولكن العربان المنوطين بالاستطلاع وضعوا لذلك الفزع حدا لأن الوهابيين الذين ظن فى بادىء الأمر انهم فى كثرة من العدد لم يكونوا إلا شرذمة صغيرة جدا من جنود طامي نزلت على مقربة من قنفذة وانها ليست من القوة بحيث تسوغ ذلك الذعر . ووردت على محمد على باشا عقب ذلك بأيام اخبار تفيد إساءة بخروج لحلفائه عربان قبيلة (ناصر) بارتكاب الفظائع فى حقهم من قتل ونهب وتخريب بالرغم من دفاع الارنوؤد عن بلدة (بجيلة) عاصمتهم دفاع الاستماتة واليأس

ونمي الى الوالى أن ترابة تتوارد عليها الامدادات بلا انقطاع فرأى من الحكمة التعجيل بالزحف . فلما كان يوم ٢٨ محرم ١٢٣٠ الموافق ١٠ يناير ١٨١٥ برح مكة الى كلاخ وكان ينتظره بها حسن باشا وعابدين بك وطبوز أوغلو ومحو بك وبونابرت الخازندار والشريف راجح ومعهم من المؤن كفاية شهرين فوجه الشريف راجحا عند وصوله الى عتيبة لأمدادها وكان الوهابيون يضيقون

عليها الحصر وسار بنفسه فى جيش من الفرسان الى بسل وكان العدو
قد استولي عليها . وقد اتخذ الوهابيون معسكرهم بسفوح الجبال
المفضية الى السهول المقابلة للطائف وكانت عندهم حيث عسكروا
آبار ذات مياه غزيرة جيدة بخلاف المصريين فقد كانوا مضطرين
الى جلب مياههم من كلاخ محملة على الدواب . وكان عدد الوهابيين
فى الجنوب لا يتجاوز ٢٥٠٠٠ راجل مسلحين بالطبنجات و ٥٠٠٠
هجان أما الفرسان فكانوا قليلى العدد لان مناورات طوسن
باشا حول المدينة عرقلت حركاتهم وأصابتهم بالفشل . ولم يكن
مع هذا الجيش العظيم مدفع واحد وقد انضم اليه الابطال
المشهورون بالبسالة من زعماء شمال اليمن والسهل الجنوبى الشرقى
وكان الغرض الذى رمي اليه بتوجيه شرذمة منه الى قنفذة تحويل
انظار محمد على عن المعسكر الأساسى وقد تمكنوا بهذه الخدعة
من اكتساب الوقت لمفاجأة بسل واختيار الميدان الملائم
لأساليبهم فى القتال . وقد اعتصموا بأعالى جبالهم لا تبدو منهم
حركة إلا لمنع المصريين من نصب بطرياتهم فى السهل . ولقد
وقعت بين الفريقين مناوشات كثيرة ظهر للباشا منها ان نجاحه
لا يكون موفورا ولا موثوقا به إلا اذا أعمل الحيلة على استخراج
العدو من الجبال التى اعتصم بذراها وامتنع على من يرومه فيها

فأرسل ليلا فى طلب المدد من كلاخ ونصب مدافعه فى المواقع الملائمة وأرصد الفين من الارنؤود على أحد جناحيه فلما كان فجر اليوم التالى أمر بالقتال فتقدم القواد كل منهم بجيشه حتى بلغوا بناء على التعليمات الصادرة اليهم الى منتصف مرمي الطبنجة واطلقت المدافع قذائفها فى الحال ثم انثنوا فجأة على الأعقاب متظاهرين بوقوع الخلل والفشل فى صفوفهم فاعتقد الوهابيون أنهم ولوا منهزمين ورأوا الفرصة سانحة لمطاردتهم والقضاء عليهم والقبض على محمد علي نفسه مطرحين بهذا الاندفاع وهذا التهور وصايا شيخهم سعود الوهابى ساعة حضرته الوفاة حيث سألهم أن يعاهدوه على اتقاء القتال فى بسيط الارض لتفوق اعدائهم عليهم فيه وقلة خبرتهم بأصوله فغادروا مواقعهم الحصينة البعيدة المرام وانطلقوا فى السهل يقتفون أثر المصريين فلما رأى الباشا نجاح حيلته نجاحا فوق المأمول وان الوهابيين قد ابتعدوا عن معتصمهم ابتعادا يكفل تكليل حيلته بفوز باهر أمر فرسانه بعد أن رتبهم ترتيبا محكماً بتحويل وجوههم الى الجهة التى انصرفوا منها وأن يقابلوا الأعداء وجها لوجه وما شرعوا بتنفيذ هذه الحركة حتى لاحت لهم بشائر الفوز. وقد اشترك محمد على باشا في المعركة فأردى بيده أحد الوهابيين وكان المشاة المصريون

يقومون فى الوقت نفسه بحركة التفاف حول الوهابيين لحصرهم ومنعهم من التسرب الى الجبال . وكان الشريف راجح قد عاد من قبيلة عتيبة بعد أن أمدها بالرجال والمؤن والذخائر وانتشر عربانه فى الوادى الذى كان لا بد للوهابيين من اجتيازه أثناء انسحابهم فأوقع الخلل فى صفوفهم . وكان راجح ممتطيا فرسا من كرائم الخيل وبيده رمح فحمل على العدو وحده حملة شديدة وأوغل فى الحملة فلم يقف إلا بالقرب من خيمة جمعت الى جودة الصناعة جمال الترتيب وحسن التنسيق فترجل وغرس أمامها فى الأرض رمحه ثم وقف يصد عن نفسه بسيفه جمهور المهاجمين ولبث كذلك حتى أدركه محمد على فانقذه من هذا الموقف الحرج ثم سأله بعد أن أشار الى الخيمة: لمن هذا البيت؟ فأجاب: هو لفيصل بن سعود . فقال الوالى: « لك ان تقول الآن أنه لك لا له» . وقد دخله الاثنان فوجدا به ألفى قرش واف . وارسل راجح فريقا من فرسانه لمطاردة الهاربين فانضم اليه العربان المجاورون لا لعداوة بينهم والوهابيين بل لالتماس ما يسدون به الرمق وقد تمكنوا من حصر ١٥٠٠ وهابى ضربت اعناقهم جميعا واستطاع ابن شبقان منهم ان يشق له طريقا بين صفوف المصريين فى مئة من اعوانه بمعجزة . وقتل بخروج وهو أشد زعماء العدو

حماسا وتهورا اثنين من الضباط المصريين وقتل جواده من تحته فتمكن من الاندساس بين الفرسان المصريين فبعد أن ارغم بالقوة أحدهم على النزول عن جواده امتطاه وفرّ به. أما طامى فلم يستطع أن يعود من المعركة فى نفر قليل من رجاله إلا بعد هول ومشقة ونادرا ما كان الوهابيون يطلبون الأمان أو الصفح ؛ ولهذا أوصى الوالى رجاله بتأمينهم والصفح عنهم من تلقاء انفسهم وبلغ عدد الذين أسروا منهم ثلاثمائة. أما الغنائم فتناولت مقداراً عظيما من الخيم والمهمات. وكان مقررا منح ستة ريالات لكل جندى من المصريين يجىء برأس عدو فاجتمع بهذه الطريقة ٥٠٠٠ رأس. وعثر فى الجبال على جماعة من أهل العسير وقد شد وثاقهم لأنهم كانوا ليلة رحيلهم للقتال أقسموا لزوجاتهم بالطلاق ان لا يولوا ظهورهم للأعداء فلما نفدت منهم الذخائر ورأوا أنهم اذا رجعوا وقعت هذه اليمين شدوا وثاق بعضهم البعض حتى يأتى العدو فيأخذهم أسرى

وقد قضى محمد على مع عساكره الليلة في كلاخ فاذا كانت عينه قد غفت لحظة فأن همته لم تنم إذ لم تمض أربعة أيام عقب ذلك حتى وصل الى أسوار ترابة فانسحب منها فيصل بلا مقاومة ولما لم يجد السكان من يدافع عنهم ويصونهم طلبوا الامان وقدموا

فروض الطاعة وقد اتخذها الباشا منذ هذا اليوم معسكرا عاما له وحاول المصريون نهب بعض المساكن وتدميرها واغتصاب النساء الجميلات فكبح محمد على جماحهم وأوقفهم عند حدهم وألزمهم رعاية الأدب ثم صرف همه الى تعزيز الشريف يحيى بقوة من الجنود تحت قيادة محو بك وكان الشريف يزحف برا على قنفدة فى عربانه بينما كانت الذخائر والمؤن تصدر اليه بحرا من ثغر جـدة وقد عول الباشا تجاه ما أبداه العدو من العجز عن تخطي مواقعه الجنوبية على الذهاب اليه فيها ليلقي الروع والرهبة فى قلوب رجاله فحمل ما جمعه فى كلاخ من المؤن والذخائر على ١١٠٠٠ جمل وهي الجمال التى أصبحت ملك يمينه منذ ضاعف عدد دوابه بما أحرزه من النصر ، على أنه رأى قبل ارتحاله ان يخبر بفوزه كبـار أهل المدينة كما أخبر به أهل القاهرة والآستانة وكانت الرسالة التى ضمنها هذا الخبر بتاريخ ٧ صفر سنة ١٣٣٠ وقد قرئت فى المساجد الكبرى بالمدينة وهي تتضمن شرح الوقائع وطلب الدعاء له فى الحرم المدنى أمام الضريح الشريف بتحقيق آماله والفوز على أعدائه وتطهير الحجاز من أدران الخوارج بالقضاء عليهم أجمعين

واخترق محمد على بجيشه كما رسمه من بادىء الأمر ، أراضى عربان (أكلب) متجها نحو الجنوب قاصـدا (رنية) وكان ابن

كتنان شيخهم قد أقام حصنا صغيرا فانفتحت أبوابه للمصريين الذين واصلوا السير أربعة أيام حتى وصلوا الى أرض (بيشه) لبنى سالم وهم قبيلة ابن شقبان وكان بها حصنان شادهما سعود الوهابى وكان فرسان محمد على معسكرين في نقطة بالجنوب ذات أشجار مورقة ونخيل باسقة ومعهم مشاة من الأرنؤود بقيادة حسن باشا فأقاموا خمسة عشر يوما بتلك الجهة التى يعتبرها عربان الشمال مفتاح اليمن الشرقى وأثناء اقامتهم كان العربان يتواردون ضارعين الى محمد على ان ينصرهم على سعود لانه ارتكب فى حقهم صنوف الجرائم وأبهظ عواهنهم باعباء الكلف ، فاغتنم الوالى هذه الفرصة لينال من خصمه بزيادة عدد الموالين له من خصومه فعزل من ولاهم الأمير الوهابى فى المناصب من صنائعه ووردت اليه الأخبار هناك بأن طاميا مجدّ فى تعبئة الجند لقتاله رجاء الظفر به . فقال الوالى انه سيوفر عليه عناء الطريق بذهابه اليه . وقد تحرك فعلا بجيشه متجها نحو الغرب لقتاله فنال عساكره من الجوع والمشاق مالا يوصف لان أهل القبائل كان يروعهم منظر الجنود الظافرة يهجرون مساكنهم حاملين معهم مايملكون من ماشية وأغذية .

ولما بلغ الجنود الى آخر مرحلة من هذه الرحلة الشاقة

وكانوا قد استنفدوا فى الطريق زادهم لم يجدوا امامهم مايسدون به الرمق سوى لحوم الجمال التى تنوء تحت اثقالها فتشرف على الهلاك . وقاسم محمد على جنوده هذا الضنك مشاركا إياهم فى هذا الغذاء وأراد ان يسهل عليهم شراء الغلال لعمل الخبز فزاد مرتب كل منهم قرشا واحدا ، وقضوا أياما استراحوا خلالها من عناء النقله والارتحال وأعاد الوالى فيها زمام مشيخة جبل (شمران) الى الشيخ حسن السلسان مع الحقوق والامتيازات التى أولاها أسرته السلطان سليم الأول قبل ثلاثة قرون بحصر الامارة فيها. وقد نفق مائة جواد فى يوم واحد فقلق العساكر لذلك وتوجسوا خيفة ولـكن همتهم لم تثبط لذلك لاستشعارهم بان تراجعهم الى الخلف خطوة واحدة يفضي حتما الى هلاكهم ونزل محمد على وسائر قواد جيشه عن دوابهم وساروا فى مقدمة جيوشهم راجلين فكان ذلك مشجعا للمشاة على مواصلة السير بجد ونشاط ومناهم الباشا بغنيمة عظيمة إذا فتحت اليمن لهم أبوابها وتلقي بمظاهر الاكرام عليا المضايفى الذى كان من أوثق أركان الوهابيين ثم تركهم ملتمسا العفو من الوالى فأقطعه قرية تبعد عن الطائف بعشرين كيلو مترا وتعذر على العساكر المصريين إمرار مدافعهم خلال الشعاب الصخرية التى تحمي قبائل العسير فلما وصلوا الى أراضيهم

بعد أن عانوا صنوف المشاق فى ذلك وكان قد مضى خمسة عشر يوما على ارتحالهم من بيشة فهاجموا قصر (الطور) المشيد على رابية عالية ويعتقد اليمانيون أنه أمنع من العقاب الجو. وكان لطامي فى هذا المكان ١٠٠٠٠ مقاتل فبرزوا وهو فى مقدمتهم حاثا لهم على القتال فى أبيات حماسية فلما كان اليوم الثانى نصب المحاصرون مدافعهم فى النقط الملائمة فألزموا الوهابيين الادبار واحتل المصريون القصر بعد جلائهم فوجدوا به صنوفا لاعداد لها من الذخائر والمؤن والادوات ومن بينها المدافع التى خسرها المصريون بقنفذة فى العام السابق وبضعة آلاف من البنادق الجيدة ذات الأنابيب الفارسية القديمة فبعد أن عين محمد على (ابن مدرى) شيخا على قبائل العسير هبط السواحل من الحلوق الصخرية للجبال واتجه منها الى قنفذة التى كانت الاقوات والاعلاف الكثيرة قد وردت من جدة اليها

وسيق الى المعسكر العام في الآن نفسه اثنان من كبار الأسرى أحدهما طامى الذى لاذ بعد الهزيمة بأحد الاشراف فسلمه الى المصريين وبخروج الذى أسر فى زهران إذ دهمته فصيلتان مصريتان فوقع منهما بين نارين. وجعل محمد على الاسيرين فى خيمتين مجاورتين لخيمته ولطالما حادث طاميا وانعطف عليه

لانه مع طعونه في السن وبياض لحيته كان متقد العينين شديد البأس ثبت الجنان فى مصابه . أما بخروج فقد كان محمد على ينقم عليه تمديه حدود الليقان فيما وجهه من الرسائل فمن ذلك قوله : « لقد خبرت بنفسك صلابة الوهابيين وعجمت عودهم فأولى بك ان كنت عاقلا ان تعود الى مصر وان تشرب من ماء النيل» وقد انتهز بخروج فى الليل غفلة من حراسه فمد يده الى جنبية (خنجر) وقطع بها وثاقه ثم لاذ بالفرار ولكنه لم يلبث أن قبض عليه بعد مقاومة ونضال جرح فيهما رجلا وقتل اثنين آخرين فاستدعاه الوالى اليه وسأله: « باى حق تقتل عساكرى» فأجاب: « مادمت مطلق اليدين فأنى أعمل ما تشتهيه نفسى» فقال الباشا: « كما قتلت عساكرى ستقتل أنت أيضا » وفعلا فقد قتل بخروج وأرسل رأسه الى القاهرة ومنها الى الآستانة ثم تلاه طامى إذ ارسل أيضا الى العاصمتين وفى الأخيرة منهما قطعت رأسه

وكانت خسارة المصريين فى معاركهم الأخيرة ١٨٠ عسكريا قتلى و ٣٠٠ جرحى فيما عدا المرضى وكان عددهم عظيما. وكان التعب قد أنهك قوى العساكر فرجع معهم الى جدة حيث انزلوا بالسفن والقطائر عائدين الى مصر وانما استثنى منهم بضع مئات من الألبانيين بقيادة حسن باشا . وفى ٢١ مارس ١٨١٥ عاد محمد على

الى مكة فقضى بها أياما قلد أثناءها حسن بك ولاية هذه المدينة وحسين بك قيادة الفرسان والشريف راجح حامية ترابة وبيشه ثم قصد الى المدينة فبلغ اليها فى ١٤ ابريل وكان في قوة لا تزيد عن ٤٠ هجانا وكان ذهابه اليها لغرضين أحدهما الوقوف على الاحوال فى شمال الحجاز والثانى زيارة قبر النبي عليه السلام

وكان عبد الله بن سعود جاثما فى القسيم يرجو الحيلولة بين طوسن باشا والمدينة فلما وصلت اليه الانباء بفوز الوالى فيما ذكرنا من وقائعه خشى أن يصيب الدرعية سوء فعاد من فوره اليها واهتم بصيانتها . فعول طوسن على الذهاب اليه لمقاتلته فيها . وبعد عودة الوالى من حروبه مكللا بالفوز تحرك طوسن فى ٢٥٠٠ فارس وجمع كثيف من العربان الموالية وأخذ معه ثلاثة مدافع فهجم أولا على عربان (حطين) فى شرذمة من رجاله فغنم منهم ٥٠٠ جمل استخدمها فى نقل الأزواد وتحفز أهل قرية (شنانه) للمقاومة فحاصرهم وبعد يومين ألقوا السلاح من أيديهم ولم ينس عبد الله خلال هذه الحوادث ما يجب عليه باعتبار كونه أمير أمة وقائد جيش فبرز الى عربان نجد بدوا وحضرا ليستجيش منهم ثم اتجه الى القسيم بحشوده فنصب مخيمه على مقربة من (شنارة) على مسيرة خمس ساعات من معسكر طوسن وكان الجيشان يرميان كلاهما

الى أخذ بلدة (الرس) المتصلة بالمدينة يمنة وبالدرعية يسرة فحث كلاهما المسير اليها فأحرز طوسن قصب السبق بالوصول قبل خصمه اليها وأستيلائه في جنح الظلام عليها فتقدم المشائخ اليه مقرين بطاعته فأتحفهم بالهدايا الثمينة وألبسهم الفراوى السمور وأوصاهم بجعل الصلاة يوم الجمعة باسم السلطان . ولم يجد عبد الله تجاه هذا الفشل سوى الهجوم على قافلة تحمل الازواد من المدينة ورمى رقاب حراسها ورأى طوسن باشا أن الـ ٢٠٠٠٠ جمل والـ ٢٠٠٠٠٠ رأس من الغنم التى للعربان المحالفين ستأتى على مافى ضواحي الرس من المراعى الخضراء والكلأ وأن هـذه المدينة تنقصها المؤن فبادر باتخاذ الوسائل الواقية من المجاعة . ولكى يمنع الوهابيين من البقاء بهذه الجهة هدم بعض القلاع والاسوار ثم ذهب الى جهة (الشبيبية) فاحتل عبد الله بن سعود ورجاله اراضى عربان (عنيزة) البعيدة عنها بأربعة فراسخ واستمرت المناوشات عشرين يوما بين العربان الحافظين للنقط الامامية من الجيشين وكادت آخر مناوشة منها تفضى الى معركة عامة أو واقعة حاسمة يحتل الظافر فيها الارض المتنازع عليها

وحدث أن اشتدت الحرارة اشتدادا جعل أشعتها كسهام نارية ترشق الأبدان وتعذر لهذا السبب ولما حل بالجنود من

التعب الزحف بها الى الامام . وأخذ تضييق الخناق على معسكر طوسن يشتد حينا فحينا وأقواته تنقص نقصا محسوسا فاضطر ان ينقل مخيمه الى الرس ويرسل منه الى الهلالية فالبكيرية بعض فصائل من جنده لتوافيه منهما بما يسد الخلة . أما اهل البكيرية فتلقوا طالبي ابتياع الاقوات منهم بالرصاص . فلما نمى هذا الخبر الى طوسن باشا حنق حنقا شديدا وفرض عليهم حاكماً من طرفه بعد أن هدم أسوارهم وعامل بمثل ذلك اهالى (شنانة) فأنه بعد ان حاصرها أربعة أيام وقتل ٢٠٠ من المحصورين هدم منازلهم وشتت شملهم اذ ظهر له انهم تآمروا مع أهل الرس على الفتك بحاميتهم المصرية

كان طوسن باشا فى ضيق محرج وكرب شديد لانقطاع الأخبار عن مصر وقلة الذخائر والأقوات والأموال عنده لدفع مرتبات الجنود وضعفت ثقته من جهة أخرى بالعربان الموالين لاستيائهم من رؤية الوهابيين ينالون منهم فى كل وقت بالسلب والنهب حتى انهم كانوا يصفونهم فى حديثهم بالكلاب وخدم الكفرة والمشركين بدون أن يثأروا لانفسهم من ذلك الاعتداء الفاضح ، دع أنه كان يبعد عن المدينة بنحو ١٠٠ فرسخ تحيط به الأعداء من كل جانب . وكان احمد أغا خازنداره قد استطاع

فى غفلة من الوهابيين مغادرة المدينـة فى مدد مؤلف من ٦٠٠ رجل و ٢٠٠ جمل محملة بالاقوات والذخائر وأدوات المدافع

وكان عبد الله يرى من ناحيته أنه اذا أسعفته المقادير على الفتك بالجيش المصرى كله فأن النتيجة ستبقى بالنسبة له سيئة على كل حال اذ لو فرض وتحققت له هذه الامنية لما وقف محمد على إزاء هذه الكارثة ساكتا بل كان لا بد له من انزال صواعقه بنجد وسكانها . وكان عبد الله لا يجهل ما عليـه مصر من الرخاء وسعة الثروة وان فى قدرة محمد على بهذه الوسائل القوية الاكثار من القبائل الموالية مع إكمال النقص فى جيشه وسد الثلم التي تصدعت بها اركانه مهما اتسعت وان مصائب الحروب وكوارثها ستنصب لهذه الاسباب على الحجاز سنوات عديدة مديدة بلا ثمرة منها ترتجى وان الكثيرين من اعوانه يترقبون بذاهب الصبر الساعة التى يتاح لهم فيها الخروج عن طاعتـه . فرأى احتفاظا بمودة القبائل وتمسكا بمحالفتهـم التعويل على طلب الصلح فالتمسه فعلا من محمد على بواسطة وفد قرر أن ينفذه الى مصر فوقف بباب طوسن باشا ملتمسا الصفح عنه وقبوله فى عداد رعايا السلطان ورعاية أوامره والدعاء له فى خطبة الجمعة وتلقي طوسن من هذا الوفد هدية جليلة من كرائم الخيل والهجن فاكرمه بتقديم القهو

اليه وعرض عليه شروطا لقبول الصلح منها العدول عن بدعة المذهب الوهابى والتعهد بتنفيذ أوامر السلطان وتوجه موفده الى الآستانة اذا طلب ذلك منه وتسليم مفاتيح عاصمته والاقتصار في التلقب على لقب شيخ البلد ورد النفائس التى سلبت من الحجرة النبوية وضمانة المواصلات للحجاج والتبعية لوالى المدينة فقبل الوهابيون باسم زعيمهم هـذه الشروط على شدتها ونيط بضابط من الجيش المصرى الذهاب الى مخيم العدو لتلاوتها عليه وقد قوبل فيه بمظاهر التعظيم والتكريم والتصفيق الحاد والهتاف الشديد وباليمين من الجميع ان يراعوا هـذه الشروط ويحافظوا على ما ورد فيها من العهود . ولقد وقف الامير الوهابى متزييا بزي الاحتفال احتفاء بالمندوب المصرى وتوقيرا لحرمته فقدم المندوب اليه سيفا وقال له إن هذا السيف هو الضمانة لخضوعك وسيكون لك سنادا إذا انت وفيت بعهدك ونقمة اذا أنت خالفت أوامر السلطان وانطلق المنادون بين الناس باعلان الصلح وفى مساء ذلك اليوم ذهب الوهابيون بالمؤن والاعلاف الى معسكر طوسن . ولكي يمحو الرئيس الوهابى كل ريبة فى أمانته وحفظه لعهده طلب ان تكون اثمان هذه الاشياء من خاصة ماله

وما ابتعدت الجنود المصرية عن البلاد حتى عين الوهابى

حكاما للقسيم والعارض خلافا لما أخذه على نفسه من العهود وأنزل
نقمته بكل مشايع للسلطان وحرض القبائل الموالية من العربان
بعضها على بعض وحصن المدائن الكبرى في نجد . فلما عاد
طوسن باشا الى المدينة نبهه كتابة الى ما فى هذا المسلك من اخلاف
الوعد ونقض العهد والخفر بالذمة وان ذلك كله ربما أفضى الى
خراب البلاد فلا تعود تقوم لها قائمة فلجأ الى مألوف عادته من
التوسل والضراعة فعفا طوسن عنه مكتفيا بانذاره بأنه اذا عاد
الى الخيس بيمينه ونقض عهده فانه سيصب عليه جام غضبه
ويورده موارد الهلكة هو وأعضاء أسرته ثم اذن الى الرهائن
من رجاله بالرجوع الى قبائلهم بعد ان أقاموا بمكة زمنا فجاءت
الوفود من أهليهم ليقدموا اليه فروض الشكر على هذه الاريحية

وفى اواخر يونيو ١٨١٥ قفل طوسن راجعا الى المدينة
لالتماس الراحة من عناء تلك الحرب الطويلة فلم يجد بها والده
الباشا لان سليم آغا والى ينبع كان منذ ١٩ مايو قد تلقى الامر منه
بتجهيز سفينة للسفر ليلا . ففى اليوم التالى وصل محمد على الى
جدة راكبا الهجين يصحبه قليل من الحرس ونزل فى السفينة
وسار بها على الفور آمراً الربان بأن لايشتط السواحل كالعادة مع
علمه بان الماء المدخر فيها لايفى بحاجة ركابها مدة السفر بل أمره

بان يوغل فى البحر على خط مستقيم فوصلت به الى القصير وفيها لم يجد من الدواب مايصلح للركوب سوى الحمير فامتطى حمارا منها وهكذا فعل حراسه واخترقوا الصحراء جميعا على متونها ثم أبلع من قنا معهم فى قارب فوصل الى القاهرة فى ١٩ يناير ١٨١٥ وفيها توارد العظماء والأعيان والقناصل والقواد يهنئونه بسلامة العودة وبالفوز على الوهابيين . وترجع هذه العودة الفجائية الى اسباب ثلاثة أولها ظهور شأن نابليون ثانيا فى أوروبا وثانيها وجود مؤامرة بمصر لقلب الحكومة وثالثها تخوف أهل الاسكندرية من حركات الاسطول العثمانى الذى اخذ يتجول بعد خروجه من بحر مرمرة فى بحر الأرخبيل

وقضى طوسن باشا شهر رمضان بالمدينة وفيها سمع الاشاعات المتواترة بوقوع فتنة جسيمة بالقاهرة وأن محمدا عليا اغتاله الجنود الذين عاثوا فيها فسادا وانسابوا فى دورها وقصورها للنهب والسلب وبدهى ان هذه الانباء واشباهها اذا تداولتها الألسنة أحدثت فى النفوس أثرا يجعل مركز الجيوش الموجودة بالحجاز محفوفا بالأخطار فرأى طوسن باشا ان يوقى البلاد وخامة هذه العاقبة بالاستفهام من والى جدة عن حقيقة الأخبار وامره بان يذكر فى إجابته أن قاصدا سيقوم وشيكا

الى المدينة حاملا رسالة بشرح الواقع . وقد وصل هذا القاصد فعلا وقرئت رسالته فى جمع من الناس وفيها مايبعث على الاطمئنان والاستبشار فأمر باطلاق المدافع إيذانا بذلك. ومؤدى الرسالة أن السكون لايزال شاملا لمصر والهناء ناشرا عليها أجنحته . وكان مع هذه الرسالة رسالة أخرى تفيد حقيقة الواقع ويؤخذ منها ان فتنة فشت فيها على أثر ادخال النظام الجديد فى الجيش وهو ماسنتكلم عليه بما فيه الكفاية . وعلى كل حال فقد جازت حيلة طوسن باشا على الناس ولاتمام فائدتها أرسل الى نقطة قريبة من ينبع بعض فرق جيشه للارتحال منها الى مصر وقصد هو الى هذا الثغر وأبحر منه الى مصر فوصل فى ٤ من ذى الحجة ١٢٣٠ الموافق ٧ نوفمبر سنة ١٨١٥ الى بركة الحاج وكان في استقباله بها الكبار من رجال حاشية الوالى وقواد الجند وأعيان القاهرة وما استتب له المقام فيها حتى برحها الى الاسكندرية وكان والده مقيما بها منذ ١٩ اكتوبر سنة ١٩١٥ فزاره ووالدته وهناك حظي لأول مرة بمشاهدة عباس بك ابنه الذى رزق به أثناء تغيبه بالحجاز وكان يبلغ من العمر عامين وقد استصحبه فى عودته الى القاهرة كما استصحبه والده الباشا فى سفره من القاهرة الى الاسكندرية

وقبل هذه الحوادث بثلاثة أسابيع رجع من مصر الى نجد وفد عبد الله بن سعود الذى كان قد حضر للتصديق من محمد على باشا على الاتفاق الذى أبرمه معه طوسن باشا وقد زود الوالى هذا الوفد قبل سفره برسائل الى عبد الله يأخذ عليه فيها سيره بين الاهالى بالظلم والجور وقتله الحجاج المسلمين من غير الحق ومحاربته أهل الحرمين الشريفين وقدحه فى حق الحضرة السلطانية ونهبه الحجرة النبوية ويدعوه الى رد المسلوبات وتسليم أمير المدينة زمام إمارة الدرعية عاصمة الوهابيين . وأضاف الى ما تقدم قوله انه لا يدخل في اختصاصه اعفاؤه من تقديم الحساب الى الديوان السلطانى عن تصرفاته السابقة . فأجاب الامير الوهابى بان النفائس المسلوبة لم يبق عنده شىء منها لوقوع البيع أو الاقتسام عليها ثم تنصل من السفر الى الآستانة فلما اطلع محمد على باشا على هذه الاجابة وكان قد سئم مطل الوهابى وعناده أخذ يرفض الهدايا التى كانت ترد تباعا اليه من عنده وأنذره بأنه سيسير اليه فى القريب العاجل جيشا جرارا لا يفهم معنى الشفقة والرحمة . ومما ذكره في انذاره هذا بالنص : « سيصل الى قطركم ولدنا العزيز ابراهيم فينزل به الهلاك والخراب ويرمى أعناقكم بسيفه ولا يدع فى حاضرتكم حجرا على حجر ويوجه بكم الى اعتاب جلالة

السلطان » الخ وسنعرف مما يأتى كيف استطاع ابراهيم تنفيذ إنذار أبيه بحزمه وكيف حقق هو بالفعل ما اعرب عنه هذا بالقول

ويؤخذ من أقوال شيخ عربان أوس وهو ممن شهدوا هذه الحوادث بالعيان ورووها على الناس ان محمد بن سعود واضع سياسة الوهابيين ومؤسس مذهبهم والمحرك الأول لهذه الحرب الشعواء دعي الى جوار ربه فى افريل سنة ١٨١٤ تاركا اثنى عشر ولدا خلفه فى الزعامة والحكم على الوهابيين منهم اكبرهم عبدالله فلنذكر الآن طرفا من أحوال هذا الزعيم الذى سيتجهز ابراهيم للاحتكاك به فى الحرب المقبلة

كان عبد الله اذا انتهى من طعام العشاء اجتمع اليه أعضاء أسرته فى حلقة كبيرة فيشرح لهم الاحاديث النبوية لأنه كان ضليعا فى العلوم الشرعية متفوقا فيها على أبناء عصره وكان العرب يضربون المثل بفصاحته وقوة حجته ودامغ برهانه. فى المناظرات والمناقشات . وكان كأبيه جهورى الصوت فى سلاسة ورقة حتى ان السامع له وهو يتكلم يشعر بكلماته وقد وصلت الى اعماق قلبه . وكان مع براعته وسعة علمه شديد التواضع حتى كان اذا ناقش خصمه فأفحمه وألزمه العى ثم استأنف مسترسلا فى بيانه

وشرحه ختم ذلك بقوله : « والله أعلم ، وكان ابوه يبيح له فى عهده الجلوس أثناء الطعام بجوار العلماء ليأخذ حصته من اللحم والأرز ويوليه النظر فى شؤون الأمة لمساعدته على القيام باعبائها وكان بالجمله الوحيد من اخوته الذى يوجه أبوه اليه السؤال بالاستشارة فيما هو دائر من المفاوضات او المناقشات لامتيازه عنده باصالة الرأى وصدق النظر حتى لقد خصص له ٣٠٠ فارس فى حين انه لم يخصص لكل من ابنائه الآخرين اكثر من ١٥٠ فارسا وكان جميل الطلعة طلق المحيا كفيصل أصغر اخوته وهو الذى اشتهر فى الدرعية بوسامة الوجه وجمال الطلعة وبانه أجمل فتيانها . فلما بلغ الحلم زوجه من ابنة شيخ قبيلة (الزاب) ونحر اكراما له ٣٥٠ قعودا و ٢٥٠٠ رأس من الغنم وهيأ لحومها طعاما لاهل الدرعية والغرباء ثلاثة ايام تباعا . وكان يملك ألفين من كرائم الخيل تأكل الشعير والكلاء في مرابطها او البرسيم في مراعيها . أما الذلول من هجنه فكان لا يحصى له عد كما كان لا يعرف عدد السود من عبيده . وكان سعود يكره الامتياز على الناس بالثياب اذ لم يلبس قط سوى العباءة والقميص والكوفية وهى ثياب الأفراد من متوسطى الحال . وكان لا يأذن لاحد ما ان ينهض واقفا إجلالا له وكان الحقير كالجليل يغشى مجلسه فيسلم عليه

بلسانه ويصالحه بيده. ومنع الناس من ان يلقبوه او يكنوه عند نداءهم له بغير « ياابا عبدالله » وكانوا مجمعين على اسناد معجزات كثيرة الى رب هذه النفس العالية والخصال الكريمة كما كانوا يقولون عن ولده عبدالله انه الينبوع الدافق بهذه الفضائل والخصائص لما عرف عنه من اصالة الرأى وصواب الحكم. وكان سعود كث اللحية والشاربين فكنى لهذا السبب بأبى الشوارب واشتهر منذ نعومة أظفاره بالبسالة لأنه وهو فى الثانية عشرة من عمره ألقى بنفسه فى معركة كان الخطر فيها منه قاب قوسين أو أدنى فلم يعبأ به وكان لايتجاوز حرسه ستة من الهجانة فلما قلد الامارة اكتفى عند شبوب القتال بالتزام المؤخرة للاشراف على الحركات والأمر بتوجيهها على مايرى فيه الضمانة للنجاح والفوز. وقد رويت حوادث كثيرة وشواهد تدل كلها على بسالة ابراهيم واقدامه وكان من القوة البدنية والشجاعة بحيث اذا ضرب الجمل الصغير بضربة واحدة من سيفه شطره. وفيما أظهره من ضروب البسالة فى حروبه مع البكوات الشراكسة واقتفائه اثر العربان اللصوص بالصعيد ماهو مضرب الامثال وقدوة الابطال وكان مع شدة بأسه كريم النفس رحيم القلب وهو الذى توسط فى تاخير انفاذ الاعدام في أبى كريم شيخ قبيلة (طرحونة) رجاء



ابراهيم يزحف راجلاً في طليعة جيشه

ان يعفو السلطان عنه

ولقد أخذ عبد الله بن سعود الوهابى حينما قرأ انذار محمد على باشا يمعن النظر فى الأمر ويتأمل فى عواقبه ويقيس المستقبل بالماضى فعول على أن يجمع اليه شيوخ القبائل وأكابر الزعماء في الاقاليم لأخذ آرائهم دفعا للمسئولية التى تترتب عليه تجاههم فيما لو دارت الدائرة على الوهابيين وبعد أن استوثق من موافقتهم على وجوب محاربة المصريين خاطب عربان القبائل جميعا في الاستعداد لها وختم خطابه اليهم بقوله : « وانا نحن نحارب للدفاع عن مذهبنا والذود عن حياض وطننا وعن الأمم والشعوب الكبيرة المقرة بوحدانية الله . نحارب الكفرة والمشركين وانما النصر بيد الله يؤتيه من يشاء »

وأخذ أئمة المساجد يخطبون فى الناس حثا على الجهاد حتى أضرموا فى نفوسهم نار الحمية والغيرة على الدين والوطن ويذكرونهم بما ينتظر المجاهدين من الثواب والمتخلفين من العقاب والعذاب وباع الأمراء الوهابيون كل ما ملكت أيمانهم لدفع نفقات الحرب وسد ضروراتها فاقتدى الناس بهم إذ قاموا قومة رجل واحد وتقلدوا السلاح وتنادوا بالدعوة الى الكفاح وانطلق عبد الله يعمل للدفاع ويتخذ وسائله إذ نصب المدافع فى

المعاقل والحصون حول عاصمته والمدن التى على طريق المدينة ومون المواقع الحصينة بالزاد والذخائر ونفى الى الجهات القصية القواد المشتبه فى أمانتهم وصدق ولائهم وأحل المخلصين محلهم وطلب من الزعماء والمشائخ أداء يمين الطاعة والاخلاص بين يديه وحشد ثلاثين ألف مقاتل جعل بعضهم للدفاع عن الدرعية والآخرين للقتال متنقلين أو لقطع خط الرجعة على الاعداء ولم تكن هذه الاحتياطات والاستعدادات غير ذات بال اذ ما من جيش أو جمع من جيوش وجموع الوهابيين الا وقد نهض للذود عن حمى الوطن المقدس وكيف لا والأمير الوهابى كان شديد الحرص على مكافأة العاملين فلم ير جنديا امتاز فى الحرب الماضية بالبسالة والاخلاص إلا وقد أجزل له العطاء فوق ما هو مرتب له من الرواتب والمخصصات

وكان عبدالله بن سعود يتخذ هذه التدابير بحكمة وتأن ويستعين فى تنفيذها بسياسة صريحة ماهرة لايجرأ غير الذين اعتادوا غمط الحقوق والغض من كرامة ذوى الفضل انكار الغاية الشريفة التى ترمى اليها. ولما اجتمعت الى عبدالله بن سعود تلك الجموع الحشيدة أخذ يشحذ حماسها ويستثير نشاطها بفصيح عبارته وتجاوبت الاصداء فى انحاء آسيا كلها بسيرة هذه

النهضة العامة والحركة المباركة للذود عن حياض الدين والوطن ولكن ما يستغرب منه ويقف المرء باهتاً له ان يلتجىء الزعيم الوهابى مع هذه النزعة الشريفة الى الحيل السافلة بمحاولته شراء ذمة أميرى الحرمين بالمال وتأكيده لمحمد على ان نجداً تحب الخير للسلطان وله وأنها مع اجازتها للقوافل بالمرور تتعهد بحمايتها من الاشقياء وأن العربان بعد ان أوقفهم أبناء سعود عند حدهم قد أخذوا المواثيق على أنفسهم ان يراعوا الصدق والأدب وانه لن يتوانى فى دفع العشور والمكوس الى من يعتمدهم الباشا وأن قصارى أمله ان يكون هو وآله وأتباعه من رعاياه المخلصين الذين لا يعوقهم مانع عن الانقضاض على الخوارج وأنه فى النهاية يلتمس العفو عما سلف ويسأل الله ان يبارك فى عمر محمد على باشا ويتقبل منه أعماله الصالحات

وصل الى مصر من طرف الوهابى قصاد يحملون هذه الرسالة وكان الغرض الصحيح من حضورهم الوقوف على التجهيزات المشروع فيها لقتاله . ولكن محمداً علياً لم يكن ممن تجوز عليهم هذه الخدعة . على انه استقبلهم كما لو لم يكن مرادهم التجسس ومضى فى التسامح والتجوز معهم الى حد انه سهل عليهم المهمة التى جاءوا فى الحقيقة من أجلها فبعث بهم يتفقدون المعسكرات

والتكنات ومخازن معدات الحرب قبل أن يعربوا عن رغبتهم فى ذلك. ولم يسرهم بالطبع ماشهدوه من وفرة المعدات وكثرة الجنود فانصرفوا عقب رؤيتها قلقين واجمين وظلوا كذلك حتى اذا حان ميعاد سفرهم قال لهم محمد على: «هاأنتم قد حصنتم المدن وحشدتم الجند وتأهبتم للقتال وهو ما أنا موقن به. فأخبروا مولاكم باننى احذره كل الحذر وادعوه الى اتخاذ الحيطة لنفسه لاننى سأرسل اليه الامير ابراهيم الذى سينزل به وبحزبه العقاب الصارم. وسيكون حظ عاصمتكم التلاشي والفناء وخاتمة سكانها أن يؤتى بهم الى هنا إما اسرى وإما قتلى. على انه اذا حاسب عبدالله نفسه وحثها على الطاعة وحفظ العهود واحترام الأيمان فان هذا أولى به وإلا أخضعته جنودى بقوة السيف وانه لجدير به الاسراع بالحضور ليسترد شرفه المضيع ويصون بلاده من الخراب وأعراض الحريم من الهتك والفضح والنفوس البريئة من الهلاك وانى لممهله مايريد من الوقت للتروى فلا تضيعوا هذا الوقت فيمالايفيد واعلموا اننى طويل الصبر والاناءة في الانتقام ولكن ذلك ليس بدافع له ولا بمانع من أن يكون شديداً»

وكتب محمد على رسالة الى ابن سعود فى هذا المعنى وأخرى الى العربان يدعوهم الى الطاعة لابراهيم باشا قائلا أن وصوله اليهم

لقريب وداعيا إياهم الى معاونته بأداء ما يحتاجه من المؤن ووسائل النقل . فلما وصل القاصدان الى نجد أمرهما عبد الله أن لا يبوحا لأحد بسر ما انتهت اليه مهمتهما ثم تناول الرسالتين الموجهتين احداهما اليه والاخرى الى العربان فمزقهما ثم افترى رسالة من عنده بدلا منهما عنونها بعنوانه وليس فيها شيء بالطبع مما ذكره الوالى فى رسالته الممزقة من التأنيب الشديد . واذا ترك شيئاً من هذا فقد وجهه الى أحزابه وانصاره دونه كما جعل المطاعن التى احتواها موجهة الى العقيدة الوهابية لا الى ماوقع من الخيانة السياسية . وزاد عليها عبارات المدح فى نفسه واحتجاجاً شديداً على ارتكاب الجرائم التى تلوث بالعار كل وهابى لا يعدل عن المذهب الذى يتمسك به . وبلغت به الجرأة بعد ذلك ان تلا هذه الرسالة الملفقة فى مجلس حفيل بالكبار والأعيان فكان جواب أعوانه جواب من تحركت فى نفوسهم عوامل الاعتبارات الدينية التى تجعلهم يصرون على مذهبهم ويزدادون استمساكا بمبادئه فقالوا إنه اذا اعتمد محمد على فى قتالهم على ابنه فانما هم يعتمدون على مولى الوهابيين وهو الله جل شأنه . واستأنف عبد الله العمل بعد ذلك على إقامة الحصون والاستحكامات وتفقد الاقاليم لهذا الغرض وللاستيثاق من وفرة الذخائر والمؤن

وكفاية الجيوش المحشودة واخلاص الزعماء والرؤساء وتعيين الفرق المخصصة لقطع خط الرجعة على العدو أو مهاجمة القوافل او الترصد للأعداء فى مكان مرورهم

وفى أوائل سنة ١٨١٦ بث الزعيم الوهابى رسله فى انحاء الحجاز يستصرخ بشيوخه على ابراهيم باشا وكانت عيون الناظرين لا تقع خلال الثمانية الاشهر التالية الا على الجمال محملة بالاثقال من الدقيق والغلال ومهمات الجيش قاصدة السويس والسفن صاعدة النيل الى قنا مشحونة بالمدافع والقرب والبقسماط والذخائر وعين قواد الحملة فخيموا بعساكرهم بين مصر القديمة وطره ونزل المشاة منهم وعددهم ألفان فى القوارب والسفن تحت إمرة البكباشية قاسم وبابا مصطفى واسماعيل اغا وسار حسن كاشف الى بلاد العرب براً فى خمسمائة فارس من المغاربة على ان ينتظر فى ينبع وصول الامير ابراهيم . واشتبه في الشريف راجح انه يدس الدسائس لصالح الوهابيين فأرسل تحت الحفظ الى القاهرة فى سبتمبر ١٨١٥ ولكن محمداً علياً تأكد براءته فأجزل له العطاء واغدق عليه النعم . وطلب الشريف اثر ذلك ان يرافق ابراهيم الى المدينة ليؤثر فى القبائل بنفوذه الشخصى واندرج فى سلك الجيش المصرى كثيرون من الافرنج وهم على الارجح أول من

وطأ أرض نجـد من الأجانب نذكر منهم (فيسيير) الضابط الفرنسى الذى ألقت به على ضفاف النيـل عواصف حوادث سنة ١٨١٥ بأوروبا وكان ملازم ركاب ابراهيم باشا و (انطون اسكوتو) طبيبـه و (اندرى جانتيلى) و (تودسكيـنى) و (سوشيو) الجراحين الصيدليين. وقد عهدت الى بعضهم مهمة اسعاف المرضى والجرحى . وفى ١٠ شوال ١٢٣١ الموافق ٥ ستمبر ١٨١٦ ودع ابراهيم باشا أسرته ورجال الحكومة والعظماء فناطت والدته برقبته عقداً من الجواهر سألته ان لا ينتزعه إلا فى الحجرة النبوية هدية الى الضريح الشريف من طرفها فوعدها بالوفاء بهذا النذر وبأن لا يقص شعر رأسه الا بعد انتصاره على العدو عملا بوصيتها ثم نزل مع أتباعه فى القنجات بساحـل مصر القديمة فأقلعت به نحو الجنوب

قضى ابراهيم ثلاثة أيام فى النيل حينما بلغ الى موردة الحمراء بالضفة اليسرى وكان بينها واسيوط جسر يؤدى بالسائر الى هذا البندر من غير عناء كبير ولأهمية موقع هذه المدينة و كثرة سكانها البالغ عددهم ١٥٠٠٠ نسمة ولانها ملتقى القوافل الآتية من النوبة والسودان ، ولاتساع نطاق تجارتها ووفرة فواكهها وثمارها وغلالها وكتانها وقطنها ونيلتها كانت عاصمة الصعيد كله

وكان كل ما فيها من أشجار المشمش والتين والرمان والنبق والجميز والمقابر المظلمة المنقورة فى الجبال لاقامة مراسيم الجناز على الموتى ايام الوثنية ولتفرغ الزهاد للعبادة على عهد المسيحية يعرفه ابراهيم باشا مذ كان واليا على الصعيد فاختار من أهل هذه الجهة بصفته القائد العام لجيوش الحملة على الوهابيين ألفين رأى فيهم الصلاحية للخدمة فى معسكره ويمم بهم وبجيشه الى قنا وهى المدينة الواقعة على الضفة اليمنى والمشهورة بآنيتها الصلصالية وفيها دبر الوسائل لتصدير الأمتعة والمهمات ففرغ مشحون القوارب منها وحمل به ستة آلاف جمل جمعها من عربان قبيلة العبابدة فسارت الى القصير . وقطع المشاة هذه الشقة سيراً على الاقدام . وزار ابراهيم باشا فى قنا ضريحين لشيخين معروفين وتصدق فيهما على الفقراء ثم سار على هجين ليدرك جيوشه فشيعه الأهلون بتصفيق الاستحسان وهتاف الحمد والثناء . ورأى فى سيره أسراب الاوز البرى والطيور تصيح بصيحاتها المألوفة فتفاءل بها خيراً ولم يقم بالقصير إلا ما كفي من الزمن لشحن السفن بالرجال والمؤن والمهمات والمدافع والذخائر وتحركت هذه السفن فى أول القعدة الموافق ٢٣ سبتمبر قاصدة الأقطار الحجازية

وما ترك سواحل مصر حتى مر بجزر جبل الحسنى المحفوفة

بكثبان الرمل وصخور المرجان التى تكسب الماء من بعيد ألوان قوس قزح وفى هذه الجهة مكان يعتقد ربابنة السفن وملاحوها أنها مسكونة بشياطين خاصتها إيذاء السفن وكانوا يتقون شرها بنثر الدقيق عليها كلما قاموا لتناول طعامهم وهذا الاعتقاد شائع عند جميع الناس فى تلك الجهات . فلما مرت السفن المقلة للحملة ومهماتها تجاه تلك الجزر لم يعبأ ابراهيم باشا بتلك الخرافة وانما أرسل كمية وافية من البقسماط والسمن والبن، بناء على عادة قديمة مرعية هناك ، الى القبيلة الموكول اليها حراسة قبر الشيخ حسن ولى هذه البقعة وقطبها . وفى ٨ القعدة الموافق ٣٠ سبتمبر ألقت السفن مراسيها فى مياه ينبع فنزل مع كبار ضباطه سراى الحاكم وجعل معسكره خارج اسوارها . ولقد أحسن الاختيار لان بعدها عن الحدود الغربية لنجد لا يزيد على مسيرة اربع ليال لأنها ذات أبراج وطيدة ومواصلات سهلة مع القاهرة والاسكندرية ومنهما تستمد كل ما يلزمها من الحاجيات الغذائية وغيرها . على انها منذ افتتحها المصريون فى خريف ١٨١١ صارت المستودع العام لمهماتهم العسكرية هذا فضلا عن ان هناك ذراعا من الماء تشقها من وسطها وأن عمق الماء فيها يكفى لرسو السفن الضخمة ووقايتها من الامواج . وما لم يستحسنه منها وتأذى به كل

التأذى انتشار الذباب فيها انتشاراً مروعاً مزعجاً فأنه يداهم السفن المقبلة اسراباً كثيفة ويقيم بها ويلازمها فى كل مكان قصدت اليه وهذه الخاصة فيه مضجرة لأهل البلد أيضاً لانه حيثما ساروا وأينما حلوا يحف بهم كما يحف الحرس والجند بالأمراء واذا جلسوا الى الطعام انتشر على موائدهم وتساقط فى الاطباق واذا صدوه عنهم بالمراوح والمذبات عاد فى أقل من طرفة العين الى حيث كان ولقد عيل منه صبر ابراهيم لا سيما وقد تضاعف عدده الى ما لا يحصى من المرات فى السنوات الاربع التى كثر فيها عدد الموتى وتفشى الامراض بسبب القتال . على انه قد خفف ضجره منه بعض الشيء بانكبابه على البحث فى احوال أهل ينبع واهتمامه باخلاقهم وعاداتهم وإعدادهم الى ما يوافق نجاح مقصده فيما هو مقبل عليه من الحروب العنيفة . فكان أول عمله أثناء مقامه بينبع عرضه الجيوش عرضا استدعى ارتياحه لحسن منظرهم وسهولة حركاتهم وكان له تأثير فى نفوس الاهلين فأنه لم تمض أيام عليه حتى أقبلت على المدينة وفود القرى المجاورة والقبائل المتحابة يقدمون اليه فوق ما طلبه منهم من وسائل النقل التى ما كادت تتوافر حتى عجل بالقيام في جيشه الى المدينة .وكان قد تقدمه فى قلة من حرسه فوصل اليها فى ٢٧ القعدة الموافق

٦ اكتوبر ١٨١٦ .

وبيان هذه الرحلة انه بعد ان اجتاز الخليج الممتد وسط ينبع أوغل في سهل فسيح كانت تنبثق فيه هنا وهناك شجيرات تذهب بشيء من جفاء لونه الطبيعي. ومر بعد ذلك باشجار لبخ تلقى أفنانها الملتفة ظلا يخفف وطأة القيظ .وما زال سائرا حتى وصل الي (بريكة) قبلي ينبع واجتاز كثبان الرمل المتحركة التى يأوى اليها طير الرخم . وهناك قمة تنسب الى على بن أبي طالب لأنه وقف عليها فى واقعة بدر .وهذا المكان على مسيرة يومين من الساحل و٣٥ ساعة من ينبع وهو ملتقى حجاج مصر والشام فى ذهابهم معاً الى مكة.وقف ابراهيم باشا على تلك الربوة يتأمل فى مواقف الجيشين المتحاربين جيش قريش على السفوح الجنوبية وجيش محمد فى السهل وعلى المرتفعات الغربية ووقف خاشعاأمام أضرحة الصحابة الثلاثة عشر الذين قتلوا عند أول صدمة بين الجيشين ثم أمام أطلال القباب التى هدمها الوهابيون وزار بعدذلك مسجد الغمامة التى أظلت النبي فى المكان الذى بنى هذا المسجد عليه. وبرح ابراهيم باشا بدراً فاجتاز أودية عريضة متعرجة فيها ينبت السنا والحشائش العطرية التى اشتهرت مكة بها ومر بقرية (جديد) وصعد فى صخور (ثنية واسط) متقدماً نحو العيون

والينابيع التى تروى مياهها حدائق (الواسط) ثم مر بين صفي نخل ينتهيان الى الصفراء وهى سوق القبائل المجاورة وعلى مسيرة اربع ساعات من (الدار الحمراء) ثم (الجديدة) مقر قبائل بنى حرب الذين طالما دفع لهم الحجاج الاموال تأمينا لطريقهم . وبلغ ابراهيم عقب اجتياز هذه الفدافد الى بلدة (الـكيف) فوادى (مدك) حيث زار قبور الشهداء من الصحابة وصعد بعد ذلك في منحدر (الفريش) و(السلسلة) ثم ذهب هابطا الى ضفاف وادى(العقيق) التى يضوع فيها شذا النباتات العطرية واخترق هذا المسيل الذى يترنم به شعراء العرب فسار حتى لم يبق بينه وبين المكان الذى يقصد اليه الا ثلاثة ارباع الساعة .والأرض فى هذا الطريق هى من دون الاراضى الموصلة الى المدينة قحلاء كثيرة الحزون لا نبت بها بخلافها من حولها شمالا وجنوباً وشرقاً حيث يكثر النخل وتمتد حقول الشعير والحنطة الى مدى بعيد تتخللها فيه مساكن المزارعين والبيوت الخلوية التى تقصد للتنزه وتبديل الهواء

استقبل ابراهيم باشا بطلقات البنادق وحياه عند وصوله آغا الحرم ومعه ثمانون من الحرس ووفد للسلام عليه مؤلف من القاضى والسادات والشرفاء والشيوخ ثم دخل باب القاهرة وهو اكبر الابواب وأحسنها بناء وأن يكن من الخشب كبقية الابواب

واجتاز الاسوار الكثيفة التى تحتوى خمسة واربعين برجا ويحيط بها خندق من عمل الوهابيين وقلعة مبنية فوق الصخر تسع ٨٠٠ من المقاتلة وفيها بئر ماؤها صالح للشراب وغرف عديدة مسقوفة لاتؤثر فيها القنابل . واجتاز (سوق العنبرية) ثم (المناخ) الذى تقف عنده القوافل وفيه الحوانيت الصغيرة لبيع السلع على اختلافها وكان مروره بهذا المكان بين صفوف متزاحمة متلاحمة من العربان والهجانة وخيل للرائين أن سطوح القهوات توشك ان تنوء بمن فوقها من المتفرجين ووقف نظر ابراهيم على بيت النبى محمد أثناء مروره أكثر مما وقف على الدور الجميلة ذات الأحواض المرمرية التى يلذ للانسان النوم بجوارها فى القيلولة وحارة العنبرية ذات الطرقات الواسعة المستقيمة المبلطة بالبلاط الكثير. وواصل السير الى الامام على خط مستقيم فوجد أمامه الحرم المدنى الذى كانت تلوح له منذ قصد الى قبته الرصاصية العالية تعلوها أكرة مذهبة فوقها هلال مذهب فقام بما هو مفروض على كل مسلم فى العالم أن يؤديه من شعائر الزيارة وكان رجال حرسه قبل وصولهم قد تطهروا وتوضأوا وتضمخوا بالمواد العطرية وأطال ابراهيم النظر فى جهة من الحرم بها مأذنة كان بلال الحبشى يدعو المؤمنين منها الى الصلاة ثم صعد فى الدرج المؤدى الى الباب المسمى

الآن بباب السلام وذكر السمهودى انه كان يسمى قبلا بباب مروان فشهدجوانبه المكسوة بالمرمر ونقوشه البارزة واجتاز بقدمه اليمنى عتبة مبلطة بالرخام الجميل ثم سار متحرك الشفتين بالأدعية والصلوات فى طريق فرش بالحصر وحفت به أعمدة من الحجر متصلة الاسطوانات بالارض متجها نحو الروضة فركع اربع ركعات على سجادة صوف فى الصف الاول من الحاجز الموازى للجدار الجنوبى وعلى مقربة من الامام الذى لا يدنو منه أثناء الصلاة إلا الكبار والعظماء وبعد أن قرأ السورتين التاسعة بعد المائة والثانية عشرة بعد المائة من القرآن الشريف تقدم . بتؤدة وسكون نحو الشباك الحديدى الأخضر الذى يليه الضريح النبوى فوقف أمامه باسطاً يديه مسلماً بقوله : « السلام عليك يامحمد السلام عليك يارسول الله » ثم طفق يذكر أسماء الرسول وبعد أن قضى بضع دقائق فى التأمل تراجع الى الخلف ثلاث خطوات وركع أربع ركعات أخرى ثم تقدم نحو الشباك الأيسر الذى يرى منه ضريح أبى بكر الصديق ثم الى الثالث من الشمال ايضا تجاه ضريح سيدنا عمر بن الخطاب وقرأ امام الضريحين ما تيسر من الآيات والدعوات ومن ثم الى قبر مجلل بقماش اسود مشغول هو القبر الذى يضم اليه رفات فاطمة الزهراء ولكن يذهب

البعض الى أنها دفنت خارج المدينة على بعد نصف كيلو متر من (باب الجمعة) وبعد أن صلى أربع ركعات وقف أمام الفتحة الجنوبيـة التى كتب عليها (لا اله إلا الله الحق المبين) فدخل المكان المخصص للباشـوات ورؤساء قوافل الحج فأذا به أمام تابوت مصفح بالفضة فتوسل بالنبي داعياً الى الله أن يشتت شمل الأعداء ويجعل جهنم مباءة لهم ولبس الأغوات أفخر ما عندهم من الشيلان الكشميرية والثياب الحريرية وأحاطوا بمائدتهـم ولبس رئيسهم وهو شيخ الحرم رداء مزركشاً وتسلح بجنبية مرصعة بالماس ووضع على رأسه القاووق ثم وقف وسط الفراشين وبأيديهم العصى الطويله باسطاً كفيه بالدعاء الى الله ان يكلأ ابراهيم باشا كبير أبناء محمد على بعين عنايته وأن يلهمه الحكمة والصواب فى تمزيق شمل أعداء الدين وأعدائه وتأبيد الشرع ونصرة الكتاب الكريم . وتلاه ابراهيم باشا فطلب من الله تعالى ان يشد أزره ويقوى ساعده للبطش بأعـداء الدين وتمزيق شملهم وتشتيت جموعهم وأقسم أن لا يدخل السيف فى غمـده الا اذا فتك بهم وأفناهم وأن يعتق اذا ما كللت حروبه بالنصر، جميع ماملكت يمينه من الأرقاء بيضا وسـودا وأن لا يشرب ما بقي حيا خمراً أو شراباً حرمه القرآن وان يذبح ثلاثة الآف كبش على جبل عرفات.

ثم مد يده فوضع على الضريح النبوي العقد الثمين الذى سلمته والدته اليه لهذا الغرض

وظل فى الحرم طويلا مصليا وداعيا ومتأملا فى الشموع الكبيرة التى توقد كل مساء الى جانبي المنبر وأمام المحراب وهى من الشموع التى بعث قائد بك بعضها من الاسكندرية وبعث سليمان بن سليم البعض الآخر من الاستانة العلية. وكان ابراهيم كثير البذل والعطاء فأنه لم يترك احداً من الجالسين فى الحرم إلا وألقى فى منديله شيئاً من المال وفعل مثل هذا مع النساء اللائى يجلسن بالقرب من شباك السيدة فاطمة والأئمة والمؤذنين والمزورين والآغوات حراس الحرم. لهذا تطابقت الألسنة بالثناء على الزائر الجليل وما من فقير أو مسكين فى خارج الحرم إلا وظفر بقسط من تلك التبرعات وأطلق لسانه بصالح الدعوات وما انتهى من الزيارة وعاد الى داره حتي بادر بالوفاء مقدما بما نذر به إذ أمر بتحرير أوراق العتق لأرقائه جميعاً بشرط استمرارهم على مرافقته مدة الحرب كلها ولا يتركونه وعمد الى زجاجات الخمر التي كان قد احضرها معه فكسرها وأهرق ما فيها. وبعد أن قام بالفروض ووفى بالوعود والنذور على هذا المثال زار البقيع فى ضاحية المدينة وهي مقبرتها ورأس الطريق المؤدى الى نجد ودعا وصلى أمام

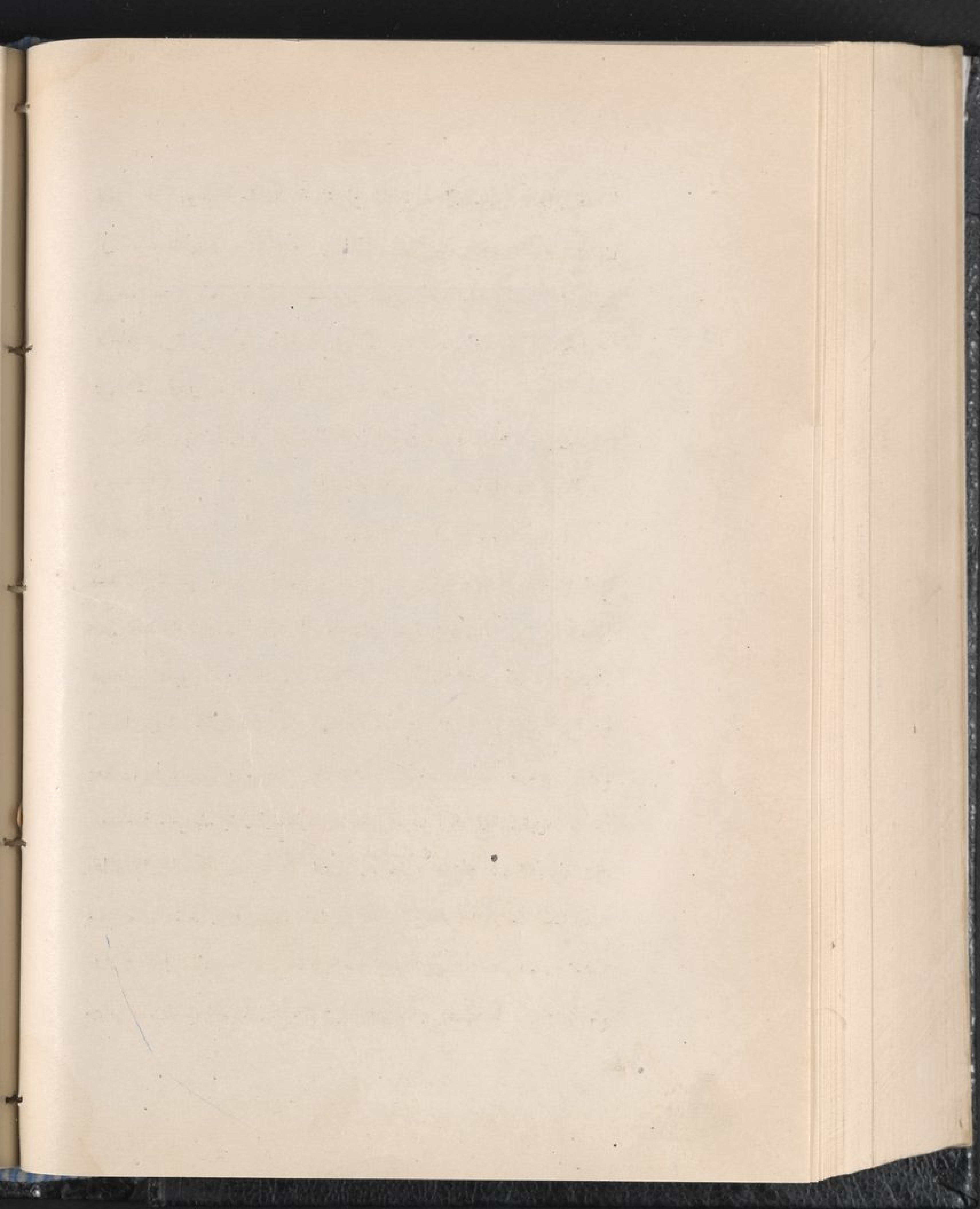
قبور آل البيت النبوى ومنهم ابراهيم بن النبي وبعض نسائه وخالاته وفاطمة بنت أسد أم على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب ثم الأمام مالك بن أنس وعثمان بن عفان والحسن ابن على الذى رأسه مدفون فى القاهرة وقبور الشهداء الذين قتلهم بهذا المكان فى عهد يزيد بن معاوية خوارج الشام سنة ٦٢ للهجرة ودعا ابراهيم باشا لكل منهم امام قبره بدعاء قصير ثم برح مكة بعد ذلك من شمالها فوصل الى جبل (أحد) الذى انتصر النبي محمد فيه بجيشه الصغير على قريش واستشهد فيه حمزة عم النبي وخمسة وسبعون من الصحابة . ولما اجتاز المكان الذى ينصب الحجاج السوريون فيه مخيمهم وبه الآبار التى يستقون الماء منها صلى عند الاطلال التى لبس محمد بجوارها الدرع قبل النزول فى ميدان القتال ثم استند الى حجر قريب منها مدة دقائق قرأ اثناءها سورة الفاتحة واستأنف السير الى الشرق في طريق وعر حتى وصل الى مسجد صغير بالقرب من صهريج ماء يوجد فى صحنه قبر سيدنا حمزة وقبور من استشهدوا معه من الصحابة فابتهل ابراهيم الى الله تعالى أن يبث فى نفوس رجاله الايمان والبسالة وقرأ سورة الاخلاص مكررا اياها أربعين مرة

وعلى مرمى البندقة من هذا المكان ركع بعض ركعات فوق

اطلال قبة هدمت وكانت تدل على الموقع الذى أصيب محمد فيه
اثناء القتال بحجر ظن أصحابه انه توفى بسببه ولم يكن فى الأمر
سوى أن كسر بعض اسنانه وتلا ابراهيم بعد ذلك على قبور الاثنى
عشر صحابيا الذين مانوا فى الواقعة ماتيسر من آى القرآن الكريم ٧٢ صحابيا
وخطا خطوات على منحدر جبل أحد فاذا به أمام المكان الذى
انتهت تلك الواقعة فيه بنصرة الدين وستبعث قممها الصخرية
الثلاث مع الاحيـاء يوم الدين. وما برح يتنقل من زيارة موضع
الى زيارة موضع حتى بلغ الى (قبا) من سهول رملية بيضاء
تحف بها حدائق ذات فواكه واعناب. وتتابعت مناظر النباتات
الناضرة والأشجار المثمرة حتى لكأن هذه البقاع أرادت ان
لاتقع العين منها إلا على مايثير في نفسه ذكرى مصر ذات
المزارع الواسعة والاشجار الباسقة وكان مما استرعي نظره
مصلاة على بن ابى طالب تتضوع من حولها الارواح الزكية
والمسجد الذى وضع النبى أساسه بيده وزار مناخ الناقة التى هاجر النبى
عليها من مكة ولم تبرحه إشارة الى انه مما يحسن البقاء فيه فالبئر
المعروفة بالعين الزرقاء. وبالجملة لم يمر ابراهيم ببناية أو قبة أو قبر
إلا ورأى ان الوهابيين قد عبثوا به إتلافا وهـدما ذلك لأن
مذهبهم يقول بتساوى الخلائق امام الله وينكر كل أثر لهم ولو



محمد علی باشا يقول لوفد الوهابی : « انی مرسل اليكم ابراهيم ابنی
وسيأتي بكم موتی او احياء »



بلغوا من الولاية والكرامة الى الدرجة القصوى، فكان بدهيا ان يحرم التزويق والنقوش في المقابر وكل ما يتعلق بالموتى. وكان فى مقدمة ما تناولوه بيد التدمير قبور الاولياء والصالحين التى لاتخلو منها قرية بل تقام لهم فى كل سنة حفلات الموالد يشترك فيها الأهلون نساء ورجالا كبارا واطفالا

وكان محتملا بل ومتوقعا أن يحول فساد النظام في الجيش وجهل العساكر بما يترتب على الطاعة من استقامة الاحوال ان لا يلقى المجرمون الذين دنسوا تلك الاماكن المقدسة عقابا ما. فقد كان ضمن الجيش المصرى فريق من الارنؤود لا يفقهون معنى الطاعة وأحس محمد على بما ينجم عن وجودهم من الضرر فعجل بتطهير البلاد منهم لكيلا يسرى فسادهم الى غيرهم. وأدرك ابراهيم باشا ذلك يوم أمر بتوقيع العقوبات على فريق من المجرمين بعضهم بالضرب والبعض بالاعدام فامتنع أولئك العساكر عن تنفيذها مع مطابقتها للعدل. ولقد نفذت نجاءت بفائدة جليلة أقلها مبادرة أهل المدينة بالانحياز الى جانبه كما انحاز سكان ينبع من قبل حينما طلعت عليهم دوننمته وقد امتاز أهل الجهات المغروسة نخلا فى تلك الأرجاء بالقيام فى وجه الوهابيين دفاعا عن مزروعاتهم بحماس تستدعيه مخالفتهم إياهم في مذهبهم ومرافقهم لأنهم من أهل

السنة ظاهرا ومن الشيعة باطنا فاغتنم ابراهيم هـذه الفرصة لتوطيد مركزه فى الحجاز بصيانة الحدود الفاصلة بين الفريقين من شر الغارات الوهابية والسماح لحجاج الشام بالمرور آمنين . وفى ١٣ الحجة اى فى اليوم الرابع من عيد الاضحى كاشف ابراهيم باشا - آغا حراس الحرم برغبته في قضاء الليله بطولهـا فى حظيرة المسجد فأقفلت أبوابه عليه فى الساعة الثالثة بعد الغروب ثم برحه بعد الفجر بساعة تاركا المدينة لادراك معسكره

أما الأوربيون الذين اندرجوا في سلك أركان حرب ابراهيم باشا فقد اضطروا الى البقـاء فى ينبع كما بقي خارج اسوارها قبل أربع سنوات اثناء الحملة الماضيه اليونانيون الكاثوليك وغيرهم من المسيحيين الذين كانوا فى خدمة الجيش. ذلك لان النبى محمدا حرم دخول مدينته على كل ذى مذهب مالم يكن من المسلمين. وهذا التحريم سار على مكة أيضا حتى انه من الراسخ فى اعتقاد القوم أن غير المسلم لايلبث اذا اطلع عليها من بعيد ان يصاب بالعمى أو إذا اجتاز باباً من أبوابها ان يموت فجأة مالم يلهمه الله بالخروج من دينه لاعتناق الاسلام فانه عندئذ يوقى العمى أو الموت . والأرض التى تحيط بالمدينة فى دائرة طولها ١٢ ميلا وتكتنفها الجبال جنوباً وشمالا تعتبر من الحرم فلا يهدر فيها دم

الكافر الذى يحاول وطأها بقدميه أو دم عدو يريد الشر والعدوان بها ولا يمس بأذى أو عطب شيء مامن الاشجار والأطيار. ولقد حدث في جمادى الثانى عام ٦٥٤ للهجرة ان زلزلت الارض زلزالها فتهدمت البيوت وسقطت الأسوار واندلع من جوف الأرض لهب شديد يمثل مدينة تتجه أسوارها ومناراتها نحو السماء ويتخلله مع تحول لونه الى الارجوانى تارة واللازوردى تارة أخرى دوىّ الرعد وانقشاع ظلمات الليل حتى صار نهارا ساطعاً بل اسطع مايكون اذا تكبدت الشمس السماء. وظلت الحالة خمسة أيام فاستطاع بدوى من تيماء ان يكتب ماشاء على ضوء ذلك اللهب وهو سائر فى الصحراء على مسافة ثمانين فرسخا. وخيل للناس ان القيامة قد قامت وانهم لمحشورون اذ جاء فى حديث نبوى وصف علامات الساعة بأنها تكون اذا ظهر فى الحجاز ضوء يضىء أعناق الجمال. وكان عرض ذلك اللهب أربعة فراسخ أى اثنى عشر ميلا فى طول اكثر من فرسخ وسمك ثلاثة أمتار. وقد تدهورت الصخور وانقلبت الكثبان والآكام. ولما كان النبى قد حرم اتلاف شجرة ما فى حدود الحرم فلم يتناول لسان ذلك اللهب الاشجار الداخلة فى هذه الحدود وكان أهل المدينة يعتبرون وصول المسيحيين اليها مصابا كبيرا ورزءا تخشى

عاقبته فقد راعى المسيحيون الذين في جيش ابراهيم ذلك التحريم واحترموه مذ وقفوا على حقيقته

ولما أدرك ابراهيم جنوده نقل المعسكر الى أبعد من موقعه بستين كيلو مترا اى الى قرية (السويذره) بين ينبع وجدة واتخذها مستودعا وقتيا للمؤن والذخائر ثم سير منها الى الحناكية القوات التى لم تكن هناك حاجة لبقائها بها وكانت السويدرة قد استولى المصريون عليها قبل سنوات قليلة بدون أن يسفكوا قطرة دم لان شيوخ العربان الذين خدعهم عبدالله بحيلته ونفاقه أبوا أن يوافوا ابراهيم باشا بما طلبه منهم من الجمال والمؤن بل ولوا له ظهورهم مدبرين وأخذوا يعيثون فى البلاد ويرتكبون الفساد بقطع المواصلات وسلب القوافل القاصدة من ينبع الى مكة والمدينة . وكان مما يتحتم في بداية حملة عسكرية كهذه منع سريان عدوى القدوة الرديئة بين الناس باظهار الشدة والقسوة لهم فبادر ابراهيم باشا بانفاذ ألفي رجل من المشاة والفرسان لمعاقبة أولئك العصاة وكانوا قد استعدوا للدفاع على أثر علمهم بتحرك الجيوش لمقاتلتهم

وعلى مسيرة يومين من المعسكر المصرى ظهر عربان طلوا اجسامهم وعيونهم بزيت مزج به مسحوق اسود ووضعوا

على جباهم طاسا حديدية وشدوا رؤوسهم بسيور من الجلد تهبط من تحتها شعورهم السوداء على اكتافهم وحملوا فى نطاقهم ذخيرة الخرطوش والجنبيـة والسيف الذى يلازمهم حتى اذا أرادوا شرب القهوة، وقبضوا على (الـكلنج) أى الـكتلة ذات المقبض الخشبي والرأس الحديدى والقطاعة وهى رمح خفيف قصير محلى الطرف الأعلى عند مأخـذ السنان بعقدتين تنبعث منهما أشرطة قماش أحمر مضفور وكان يسير فى الصفوف الأولى من جيش العدو الملابيس وهم فرسان يلبسون الدروع أو القنابيز وكان مع كل منهم مايلزمه من الماء والغذاء ويتبع هؤلاء الفرسان أو الخيالة، (الركوب) أى العساكر الهجانة. وكانوا يحدون إبلهم حثاً لها على السير بمعنى الدعاء الى الله أن يصونها من الأخطار ويقوى قوائمهـا حتى تكون فى صلابتها كقضبان النحاس . وكانت هذه الدواب كلما سمعت صوت الحداء ازدادت نشاطاً وهمـة وتحفزت تحفزا للسير الى الأمام وكانت نساء المحاربين وهن على ظهور الجمال يصحنّ الحنطـة بالرحى ويعجنّ الدقيق ويخبزن الخبز فى فرن صغير من الطـين يوقدنه بالقصل . أما المؤخرة فكان يتألف منها المتراس وهم المشاة مسلحين بالطبنجات الـكبيرة وبأيديهم الدرق كل درقة قطر دائرها ١٨ إبهاماً وهى

متخذة من جلد الجاموس المقوى بصفائح الحديد . وما ابصروا بالعدو حتى صاحوا صيحات حادة وضربوا الطبل وتغنوا بأناشيد العساكر التي من أشهرها (الحدو) وفيه ما معناه : « أيها الموت ارفع غضبك عنا ! أيها الموت صبرا حتى ننتقم للدم المسفوك ! » الخ . وكان المشاة يتلظون شوقاً للقتال فى المقدمة فاندفعوا اليها وبعد أن أخذوا المواقع الملائمة لهم بين صفوف الفرسان بدأوا يثبتون سلاحهم على الاحجار البارزة للأجادة فى إصابة المرمى وانسلخت منهم فصيلة طيارة للتنقل يسمونها فصيلة الغزو فانطلقت تناوش المصريين واشتد القتال عنفا بعد ذلك فاشتبكت فيه فرق الفريقين على اختلافها وحمي وطيس القتال زمناً لجأ العرب بعده الى الفرار جاعلين أطراف الأسنة من خلفهم ، يرهبون بها الظافرين المقتفين لآثارهم وظلوا فى إدبارهم نصف ساعة فوجدوا الزاملة منتظرين على الهجن فى أحد الأودية عند إحدى النقط الثلاث التى اتفق على الارتداد اليها فى حالة الانسحاب او الهزيمة.

وحينما رأى النسوة المحاربين مرتدين لم يتلقينهم بزغاريد الفرح والأبتهاج كعادتهن . اما المصريون فما زالوا بالمنهزمين ملاحقة حتى بلغوا الى دورهم حيث تفرغوا للنهب والتدمير ردحاً من الزمن عادوا من بعده الى المعسكر بقطعان الأغنام وجم غفير

من النساء والأطفال، ولكن ابراهيم باشا لم يلبث أن رد هؤلاء على أهليهم. ولم يجرأ العربان بعد هذه المعركة العنيفة على استئناف القتال ولا على النهب والسلب فجاءوا يسترحمون القائد المصرى ويخضعون للكلف التى يفرضها عليهم مهما بلغت

وبعد أن مضى ١٥ يوماً على الجنود فى السويدرة استأنفوا السير فى الطريق المؤدى الى القسيم وهو قريب من يثرب التى سميت منذ ظهور الاسلام بالمدينة فقط إشعارا بجلالها وبيانا لأهميتها وعلوّ قدرها. وكان العرب في الأندلس يسمون بالمدينة كثيراً من المدائن التى يميلون اليها ويؤثرونها على غيرها ولا تزال تسمى حتى الآن بهذا الاسم مثل (مدينة كلى) و (مدينة دلريوسكو) و(مدينة سيدونيا) وكما كان قدماء المصريين يسمون طيبة وهى الأقصر الآن (طباكى) أى المدينة والرومانيون يسمون رومية (أوربس) أى المدينة ويونان الدولة الأخيرة يسمون القسطنطينية (بوليبس) أى المدينة

وبوصول الجيش الى المدينة لاحت الفرصة للعساكر ان يضرعوا الى الله بطلب التأييد لهم فى حرمه الذى اختاره لنصرة دينه. نعم إن زيارة هذا الحرم لم تكن من الفروض الالهية المحتمة كالحج الى بيت الله الحرام ولكنها من الأعمال المحمودة لدلالتها

على الورع والتقوى . قال محمد أديب في كتابه (دليل الحاج) إن الصلاة فى الحرم المدنى أفضل منها في باقى الاماكن المقدسة ولهذا السبب ترى قوافل الحجاج تقضى بالقرب من الضريح النبوى أربعة ايام او خمسة فى ذهابها الى مكة او في عودتها منها. وما من مسلم صادق الأيمان من رجال الجيش إلا ويحفظ عن ظهر قلب الأربعين حديثا التى تدخل حافظها فى شفاعة النبى وتنقذه من نار الجحيم. وامتاز المغاربة بالاخلاص فى التعبد خصوصاً وان فى المدينة قبر الامام مالك بن أنس صاحب المذهب المالكى الذى يتمسكون به هم والدكارنة من أهل السودأن. وأقام ابراهيم بالمدينة أسبوعين كاملين انفذ بعدها الى الحناكية ٤٠٠ فارس من طلائعه ليحتلوها بعد ان دمرها الوهابيون قبل انسحابهم داخل نجد. وكان المصريون فى حملتهم الأولى قد حصنوها تحصينا جيدا

وفى أول دسمبر شرع فى انشاء استحكامات وقلاع بهذا الوادى الملائم للاجراءات الحربية لاحتوائه عددا عظيما من أشجار النخل وبعض المستنقعات وعيون الماء العذب التى تروى ما حولها من الأراضى الخصبة فلما حصن ابراهيم باشا هذا المكان لبث ينتظر فيه ورود الامدادات من الفرسان والمدافع وهى الامدادات التى أخذ والده يبعث بها تباعا لتحل محل الفصائل

التى يقضى التدبير العسكرى بجعلها على حراسة النقط الخلفية احتفاظا بخط الاتصال . وكان الزعيم الوهابى قد عقد النية على الدفاع عن المدن وازعاج القوافل على يد حلفائه من العربان ولكن كانت تبدو على هؤلاء علامات الامتعاض والتذمر والاحجام عن اقتحام مدفعية علموا مبلغ ضررها من قبل فنشأ عن ترددهم هذا شقاق جاء غانم شيخ قبيلة حرب على أثره الى الباشا لمقابلته ومفاوضته . وقبيلة حرب هذه معروفة ببسالتها فى القتال، ومع انها أقل نفرا وأضعف شوكة من قبيلة عنيزة إلا انها منتشرة بالأراضى الواقعة بين القسيم والمدينة ومكة فيما عدا الجزء الصغير الذى تشغله قبائل مطير وحطيم . وهي اذا هبت للقتال اجتمع من رجالها أربعون الف مقاتل . وكان الخيالة منهم قليلين جنوبى المدينة ولكنهم يسلحون عادة الشطر الاكبر من شبانهم حتى ليندر ان تجد شابا غير مسلح ببندقة . وكانوا لثروتهم التى يكفلها لهم مرور قوافل مصر والشام بأرضهم يملكون مفتاح الحجاز الشمالى. ولم يسبق لهم ان يتنحوا عن هذا المكان لغيرهم قبل غارة الوهابيين عليهم وخضوعهم لسطوتهم بعد أن خضع لها قبائل الصحراء جميعا. ومع متاخمة أراضيهم لحدود اراضى قبيلة جهينة التى استمالها طوسن باشا الى محالفته في سنة ١٨١٢ فقد كانوا يرفضون كل

مايقترحه هذا الامير عليهم حتى اليوم الذى عقدت فيه معاهدة الرس . وكان غانم يمنى نفسه حينما تقدم لخدمة ابراهيم باشا باسترداد الأراضى التى اجبر على تركها للدولة العثمانية . واستمال ابراهيم بهداياه كثيرين من العربان أصحاب الجاه والنفوذ لأنه كان يرى الفرصة ملائمة للأيغال فى البلاد وتدريب عساكره على الحياة فيها فتحرك يوم ٢٧ دسمبر فى جيش مؤلف من ١٨٠٠ فارس مزودين بالمؤن لمدة عشرة أيام وانضم اليهم غانم فى ٥٠٠ من العربان الذين استجاشهم فى الطريق. وسار في الطليعة جماعة من نجد الغربية كأدلاء وجواسيس فدخلت هذه القوة نجدا فى ١٧ يناير ١٨١٧ بعد مشاق مضنية وحرمان متلف انتهى بسرور الفوز. ولم يتجاوز عددمن فقدوا فى الطريق عشرين رجلا فوصل الجيش الى الموقع الذى وصل اليه فى ذلك اليوم كاملا تقريبا ويصحبه ٨٠ جمل و ٤٠٠٠ رأس من الضأن ومقدار كبير من المهمات

وقد دهش الموالون للوهابيين لهذه المجازفة واستقر في أذهانهم بعد ان ظنوا بالفرسان المصريين العجز عن تكبد المشاق والتغلب على المصاعب أنهم جديرون بالمدح والاعجاب. ولم يلبث مشائخهم بعد أن حسبوا لهذه الغارة عواقبها أن سارعوا الى قيادة الجيش للمفاوضة فاشترط ابراهيم باشا عليهم التعهد

بتوريد وسائل النقل كلما مست الحاجة اليها واغتنم فرصة وجودهم عنده لعرض الفرسان والمشاة عليهم فقاموا أمامهم بأداء الحركات العسكرية واطلاق المدافع والضرب بالسلاح . ومن دلائل لباقته ولطف سياسته أنه جعل الفرقة الواحدة تقوم أمامهم بتدريبات متنوعة في أدوار متفاوتة فكان يبدو للرائى أنها فرق بقدر عدد هذه الأدوار وانها ملمة تمام الالمام بأحوال الحرب

وفى ١٩ يناير ١٨١٧ تلقى ابراهيم باشا من القاهرة نبأ إنعام السلطان عليه بالباشوية ذات الثلاثة الأذناب اى بالرتبة التى تخوله حق حمل ثلاث خصلات من شعر الخيل لا خصلتين فأوفدت المدينة الوفود من عظمائها لتهنئته فبعد ان تلقى منهم التهانئ عاد معهم الى المدينة حيث أقيمت الافراح ومعالم الزينات إيذانا بذلك وألبسه المفتى شارة الترقية وبعد هذا الاحتفال الذى رفع مكانته فى العيون وألقى هيبته فى النفوس عاد الى معسكره . وكانت قد طرأت فيه حوادث استدعت تعجيل الأوبة فتلافاها بحكمته وقوة ارادته إذ ظهر ان بين الجيش جماعة ثبتت في حقهم تهمة التجسس فكان الأعدام نصيبهم وتواترت اشاعات بانقطاع الصلات السياسية بين الروسيا والباب العالى فجزع الجنود وأيقنوا أن مركزهم فى الجيش أصبح غير ثابت فأخذوا يطالبون

بمرتباتهم وتدارك ابراهيم الفتق قبل استنهاره فدفع لهم حقوقهم
وكانت حرارة الشمس المحرقة نهارا ورطوبة الجو الشديدة ليلا
وقلة الملابس وندرة الماء الصالح للشرب والحرمان من ملاذ الحياة
وتفشى الحميات والدوسنطاريا بشكل وبائى مما حمل العساكر
على التذمر وخور العزيمة وضيعة الرجاء وكان المرضى والمصابون
يرسلون تباعا الى الخناكية. وكان الاطباء بالرغم مما أبدوه من
الهمة والنشاط لايستطيعون استئصال شأفة هذه الادواء القتالة
فكثر عدد الوفيات وأظهر الباشا ازاء هذه الكوارث جلدا
وصبرا عجيبين وكان قد وصل اليه مؤخرا ثلاثة مدافع اثنان
عاديان وواحد من طراز الهاون يظهر أنها مما تركه الفرنسيون
قبل جلائهم عن مصر فقد شوهد مكتوبا على مؤخراتها (صب
فى دار صناعة باريس سنة ٢ من الجمهورية. حرية ومساواه). وكان
معها مائتان من المدفعيين . ولكن الظروف التى أصبح
الجيش محاطا بها كانت تستدعي كثرة العساكر لا كثره المدافع
لسد النقص الحادث بالمرض والموت . وقد سأل ابراهيم والده
ان يوافيه بألفي مقاتل وباشر عقد معاهدات جديدة مع العربان.
وألزم الاصحاء ليمنع سريان العدوى فى معسكره بتلك الامراض
بحمل السلاح وجمل العربان والمصريين جيشا واحدا وكان

عدد الأولين ١٢٠٠ والآخرين ١٥٠٠ فلما كان يوم ٥ ربيع الثانى ١٢٣٢ الموافق ٢٢ فبراير ١٨١٧ زحف على الرس عاقدا النية على أخذها مداهمة غير ان توالى هطول الامطار حال دون وصول جيشه اليها، وقد أوغل فى الصحراء، فى الموعد الذى ضربه. فتراجع به خلوا من المؤن ومكتفيا بأكل الشعير من غير طحن لسد الرمق على أنه تمكن من اخضاع قبائل كثيرة فى الطريق وأخذ أسرى عديدين وغنم مقدارا وافرا من الجمال. وكان الجيش بحاجة الى الراحة فقرر الباشا ملازمة الحناكية حتى الخريف ولما كان مفطورا على الشهامة وحب الخير فانه لم يدع وسيلة إلا اتخذها لوقاية الجنود من شر الأمراض وتوفير الراحة والرفاهية لهم فأمر بانشاء بيوت كبيرة من الخشب ليتقوا بالالتجاء اليها شر الاختلافات الجوية وما من يد عاملة إلا واشتركت فى اتمام هذا العمل حتى يد الأمير نفسه. واستغرق انجاز هذه الاعمال شهرين وقد ظهرت فوائدها حالا اذ زالت الأمراض وقلت الآلام بالتماثل للشفاء

أما عبدالله بن سعود الذى كان الموالون له يعرضون عنه بالتدريج على أثر ماوقع فى نفوسهم من الروع عقب خروج الباشا مرتين للقتال على النحو السالف؛ فقد أمر بتأجيج نار القتال قبل

وصول المدد من مصر. ونمى هذا الخبر الى ابراهيم باشا فهب للقتال من فوره ليعوق احتشاد الأعداء وانضمام القبائل اليهم ويستميل اليه القبائل المتربصة بحدود الصحراء بحجة الحياد، وماهو الحياد فى الحقيقة وانما هو التربص والتريث للانضمام الى الفريق الغالب. ولقد كان الفوز فى تلك المعارك للفرسان المصريين كما كان لها فى المعارك السابقة اذ قتلت اكثر من ٨٠٠ مقاتل من العدو وغنمت ٢٠٠٠ جمل ومقدارا من الماشية. وكان هم ابراهيم باشا ان يستعين بالمظاهر الدينية في حرب اكتسبت صفة القداسة. لذا سارع بالذهاب الى المدينة ليحمد الله فيها على ما أولاه وجيوشه من التوفيق للظفر، ولما أتم هذا الواجب عاد من المدينة فى ٢٠ ابريل. ومما جذب الى ولائه العربان الموالين للوهابيين اكرامه مثوى غانم شيخ قبيلة حرب وغيره من الشيوخ ووعده اياهم بعدم فرض الجزية أو الكلف عليهم وبان يدفع لهم ثمن مايوردونه اليه بغير مماكسة، دع لقاءه الناس بالبشاشة وسعة الصدر والسخاء. ولقد بلغه أن عبدالله بن سعود ينهب القبائل التى تأبى التوجه الى الرس ويزحف فى ٢٠٠٠ مقاتل لمهاجمة المصريين ويدعو جميع رعاياه الى شد أزره بمالهم وسلاحهم ويمنع الذين فرض عليهم القتال من استبدال انفسهم

من غيرهم مدة ٤٠ يوما في مقابل عشرة قروش وافية ، ويأبى منح الاجازات مهما قصرت مدتها وتسريح الذين انقضت مدة خدمتهم فى الجند وهى اثنى عشر شهرا ، ولا يعفى من هذه الخدمة العزب ولا المتزوج ولا رب العائلة مادام عمره لايقل عن الثامنة عشرة ولا يتجاوز الستين، وأنه يقول بمناسبة حشد هذا الجيش: « ليس فى نيتنا احصاء المنتظمين فى سلك الجيش بل المتخلفين عنه »، وبقدم الى المحارب الفقير من بيت المال الدابة والسلاح ويلزم الغنى بهما من عنده، وان مما يقدمه بيت المال للجميع بلا استثناء البارود والرصاص ومعدات القتال، وأنه قرر ان يتقاضى الفارس مرتبا شهريا وعلف جواده، وان لايعطى مرتب قط لا للمشاة ولا للركوب (راكبي الهجن)، وأن تكون ذخيرة المقاتل وأدواته قربة ماء وأخرى تحتوى ١٠٠ رطل دقيق و٦٠ رطل تمر و٢٠ رطل زبدة وغرارة حنطة أو شعير للجواد أو الجمل ، ويجهز كل مقاتل بمؤنة تكفيه خمسين يوما على نفقته وبسلاح مؤلف من خنجر وسيف وجبيرة على نفقته وببندقة بشريط اذا كان من المشاة وإلا فبرمح وطبنجتين، وفي مقابل ما أعطي من ذلك يكون له الحق في القيمة التى يغنمها من الأعداء بعد أن يؤدى الخمس منها الى بيت المال . أما الأمراء فبعد ان ساروا

تتقدمهم الاعلام والبيارق ويصحبهم كاتبان وامام للوعظ وحسم المشكلات والمنازعات واجتمعوا على سبيل الخدعة فى نقطة مضادة لاتجاه العدو لكى اذا سار فى أثرهم واصلوا الزحف الحثيث للانقضاض عليه . وكانت طليعتهم شرذمة مؤلفة من أربعين فارسا تقدم خمسة وعشرون منهم الجيش الأصلى حتى ابتعدوا عنه بمسافة ٨٠ كيلو مترا .وفى ليلة الارتحال للقتال جهزت كل أسرة من أسر الجنود لرجلها طعاما من التمر المحمر فى السمن لغموس الفطور وطعاما آخر من التمر المعجون بالدقيق والمنضج على حرارة الرماد بعد قطعه قطعا مستديرة كالخبز لطعام المساء .ومما قرره الوهابى حفر الآبار اذا شح الماء فاذا لم تأت الآبار بالماء الصالح شربت ألبان النوق وأكل لحم الجمال اذا قلت الأطعمة بأن يذبح منها الأضعف فالضعيف وان يحمل كل جمل من هذه الجمال رجلين من المشاة حتى اذا شب ضرام القتال يكون الجنود من القوة والانتعاش بحيث يقدرون على تكبدها

وصل الوهابيون على هذا الترتيب الى احدى الآبار وكانوا عشرة آلاف فنصبوا خيامهم وبيوت الشعر السوداء وجعلوا سرادق زعيمهم فى الوسط ورفعت الاثقال عن المائتى

راحلة المخصصة للنقل ونشرت راية الامير فوق سرادقه ووقف الفرسان حول المخيم على شكل الدائرة واصطف حراس الشرف وهم الفرقة الوحيدة الدائمة من الجيش الوهابى المؤلفة من ٣٠٠ عربى يشترط فى قبولهم أن يكونوا ممن امتازوا بعمل جليل ومن العادة ان يعطى لكل منهم مايحتاجه سنويا من القمح والزبدة والتمر مع جواد كريم بما عليه من اللبس أى الصوف الذى لاتنفذ منه الرماح ولا تعمل فيه السيوف . وما من واقعة اشتركوا فيها او عمل دعوا لأدائه إلا وكان التوفيق رائدهم فيه وهذا مادعا الأمير الى الاحتفاظ بهم احتفاظ المرء بأنفس ماعنده واتخاذه اياهم جندا احتياطيا للقتال لاترسل منه إلا فصائل قليله لتعزيز النقط الضعيفه. وكان الجيش الوهابى قد عين مراكز الحرس والتربص الأمامية ووافاها بكلمة «سر الليل» وقرر أن لا يخلفها غيرها فى العمل إلا بعد أربع وعشرين ساعة وجعلها على مسافة أربعة كيلومترات منه. وكان محتما على رجال هذه المراكز أن لاينامو الا فى النهار وأن لا يتناوبوا الحراسة إلا خمس مرات فقط والذين تنتهى نوبتهم يبرحون المعسكر لأداء فروضهم الدينية حيث شاءوا وكان وضوءهم تيمما يباشرون الصلاة بعده وفيما بين غروب الشمس وشروقها كان العساكر يتلون

القرآن أو يتسامرون بذكر الحوادث الماضية وكان اكثر حديث عبد الله اهتمامه بحوادث المستقبل فلقد انتهى اليه ان الباشا أنفذ فى ٢٦ افريل جيشا بقيادة أزون على مؤلفا من ١٠٠٠ راجل و ٤٠٠ فارس ومدفع واحد وشراذم من البدو لاحتلال (المهوية) فاستولوا عليها فقرر عندئذ الزحف عليها لطرد البدو منها ومضى فى نيته الى أبعد من ذلك حيث جزم بضرورة الانقضاض على المدينة في ٣٠٠٠٠ مقاتل ورمي اعناق اهلها جميعا وحصر ابراهيم باشا فى الحناكية بذلك بين نارين بينما يزحف فيصل أخو عبدالله ابن سعود على مكة وجدة وينبع لقطع خطوط المواصلات دونه وسلب من يصادفه فى الطريق من القوافل . وهذا التصميم يدل على ما كان عند الوهابى من الجرأة والحذق وقد تعاهد أعوانه على انجاح المشروع فاشتغل فريق بصناعة البارود وفريق بتكرير نترات البوتاسا المستخرج من الجبال، وعقد الأمير النية على معاقبة المقصر فى عمله بدفع غرامة فادحة المرة الأولى وبالطرد والعزل فى حالة العود ومن يخالف الرؤساء بالجلد ومن يولى الأدبار برمى العنق وأثارت الثقة بالنجاح الحماس والشجاعة فى النفوس

ومما لا شك فيه ان مدفعية ابراهيم باشا كانت أقوى من مدفعية الوهابيين وان عساكره كانوا أجود سلاحا ولكن

عبد الله كان يرجح الفوز مع ذلك لعساكره لتفوقهم فى العدد، دع
أنه كان لا يسلم بوجود شعب على وجه الأرض غير العرب
متفوقا فى الحرب بالرماح والسيوف حتى كان كثيراً ما يقول :
« البدوى ابو سيف والفرنجي ابو مدفع » وكان ابراهيم باشا
معتمدا فيما عدا ما ذكر من تفوقه الفنى فى القتال على ما كان
منتظرا وقوعه من التنافس والشقاق فى دولة حديثة العهد بالوجود
كدولة الوهابيين وعلى ما يتناول الاخلاق والمصالح المتناقضة من
الجاذبية المتعاكسة جاذبية المد والجزر فيها وعلى غيظ سكان ثغور
الحجاز ومدنه من انقطاع السبل على الحجاج والقوافل الذين هم
مصدر ثروتها وعلى بقاء الأهلين مرتبطين سراً بعقائدهم السنية
الأولى، غير ان هناك محلا للسؤال هل ما مضى من الوقت كان
كافياً لاستكناهه حقيقة المواقع العسكرية فى تلك الأرجاء
وتدريب جيوشه على القتال فى أرض كأرضها وجو كجوها واعتماد
اسلوب القتال وميدانه الملائمين له . وبافتراض انه استولى على
جميع المدائن والقرى الواقعة على سواحل البحر الاحمر أفلا يجوز
ان يلزم الوهابيون الراحة والسكون ريثما تتاح لهم فرصة
للاستيلاء على المواقع المتروكه، ثم من يستطيع اقتحامهم فى ارض
غير ممهدة لا يتيسر لغيرهم ان يعيش فيها بقرص ذرة أو شعير

وقبضة اليد من التمر كما يعيشون هم ولا يمكن لغير جيادهم ان يعيش بنوى هذا التمر وبعض الحشائش الطفيلية أو لجمال غير جمالهم ان تقتصر فى غذائها على القتاد والعوسج وفى ريها بما لا يتجاوز رطلا من الماء فى اليوم ؛ وهذه الفروض والتخمينات كانت تتوارد على خاطر الزعيم الوهابى اثناء زحفه على المهوبة فيقلبها على وجوهها ويزنها بميزان الروية والتبصر

وفي فجر ٢ مايو اطلقت البنادق ورميت النبال فدل ذلك على دنو المهاجمين ثم لمعت في ضوء الشمس الرماح تحركها سواعد الوهابيين المتحمسين وسمع من بعيد صليل السيوف ووقعها على الدرق . فما هى إلا فترة من الزمن حتى شوهدت اشباحهم النحيله مختلطة بعضها ببعض فى تدفقهم نحو المعسكر المصرى مترنمين بأناشيد القتال راقصين رقص الحرب . وكان النظر السطحى على تلك الكائنات التى يكاد يلتصق جلدها بعظمها ضؤولة ونحولا وقد حملت فى مناطقها الخناجر كافيا للاعتقاد بأنها اشباح عجائز أفلتن من جهنم فاذا ارسلت النظر نفسه من جهة أخرى الى الأجسام العضلية النشيطة ذات الأساطين القوية والعيون التى اقدح شرراً والشعور السوداء والوجه الذى تلوح عليه لوائح الحماس ، وقد حملت السيوف الطويلة وقبضت بيدها على مقابضها

وطرحت الأردية على الاكتاف أيقنت انها كأجسام أبطال اليونان الأقدمين كلهم وثيق الاركان مدمج المفاصل . تلك كانت صفة عساكر ابراهيم باشا الذين شرع الوهابيون يهاجمونهم بدون ان يرسموا لانفسهم خطة أو يتخذوا أهبة . وغاية مافعلوه أنهم أخذوا يلتمسون الجهة التي ينبغي لهم ان يحتشدوا فيها بدون ان يهتدوا اليها حتى كونوا اعتباطا من انفسهم خطادائرا ثم حاولوا الحملة على المصريين فأمر أوزون على بأطلاق البنادق بشدة وما زال بهم حتى ألزمهم الفرار ثم انبرى زاحفا على هجانتهم فاوقع رجالها فى الالتباك والخلل . وشعر عبد الله بحرج موقفه فتقدم بفريق من فرسانه نحو معسكر المصريين . وكان المدفع يعزز جانب مشاتهم المحاربين بالبنادق فأمر الوهابى رجاله بأن يطرحوا انفسهم أرضا فاغتنم فرسان المصريين فرصة اضطرابهم وترددهم وهم يقومون بهذه الحركة للانقضاض على صفوفهم المختلة . وكان حلفاء عبد الله قد ولوا الادبار فأبرز الامير أمهر هجانته وفصيلة من العرب المجندين بنجد واليمن مقابل أجرة قدرها سبعة قروش وافية شهريا عدا المرتب الغذائى من الزبد والدقيق . إلا انه عبثا حاول الظفر بمراده بل زاد أنه أفنى تلك القوة التى طالما احتفظ بها للحوادث الطرآنية الخطيرة ولم يبق أمامه لصيانة حياته من

الخطر سوى اقتفاء أثر الهاربين . ولقد اشتد الحرج به وبرجاله فما هى إلا لحظة حتى سمعت التكبيرة (الله اكبر) التى تلاها الاستيلاء سريعا قبل الفرار على جثث ٣٠٠ قتيل لدفنهم تقية العار الذى يلوث زملاءهم الأحياء اذا لم يقوموا بهذا الواجب وأسر المصريون ٢٠٠ أسير بينهم بعض اقارب عبد الله وجملة اتراك من المدفعيين الذين فى خدمته وغنموا عدداً وافرا من الجمال والارز والشعير وذخائر الحرب . أما خسارتهم فلم تزد على ١٢٠ قتيلا و ١٦٨ جريحا وكان القتال بينهم والوهابيين بنسبة واحد من أولئك وعشرة من هؤلاء

وبينما كان ابراهيم محافظا على خط الحناكية طبقا لأوامر والده ريثما توافيه الامدادات أرسل فيصل شيخ قبيلة مطير وهو الذى قتل زعيم الوهابيين أخاه يخبر الباشا بأنه اذا وصل المصريون الى المهوية انضم اليهم وحالفهم على إبادة الوهابيين وقتل زعيمهم انتقاما منه على قتله أخاه فهش ابراهيم لهذا النبأ وسارع يوم ٣٠ أفريل الى المكان المعين للاجتماع بفيصل ومعه ٤٠٠ فارس ومشاة راكبون على الهجن وثلاثة آلاف جمل تحمل الذخائر الكافية لمدة شهر وفى ٢ مايو جاءه قبيل المساء قاصد ثم ثلاثة من الجند فأخبروه جميعا بانهزام الوهابيين فى الواقعة السالفة فأنعم على القاصد الاول

الذى حمل البشرى مائة ريال مكافأة وكسوة كاملة . ورأى ابراهيم بعد ذلك ان يحث السير . وليأمن غدر الاعداء ومفاجآتهم اتخذ للجيش طلائع تحرسه من جنبيه فلما وصل الى النقطة المقصودة تهلل الجند فرحا واطلقوا البنادق إيذانا بسرورهم ونزل فى خيمة أوزون على وهناه هو وغانما شيخ عربان حرب بيسالتهما وقد جرح جواد هذا الشيخ أثناء المعركة وأصيب أخوه بطعنة رمح وبعد استراحة بضع ساعات تفقد ابراهيم المعسكر فأمر بجعل الأسرى السودانيين خدما فى الجيش . ولما رأى الوهابى ان الدائرة قد دارت عليه عدل طبعا عن الزحف على الحجاز وجمع فلوله فى ضاحية عنيزة ثم أرسل الى الرس مائتى رجل مددا وذخائر كثيرة وقصر همته على إعداد وسائل الدفاع عن عاصمته وعن الولايات الوسطى من مملكته

أما ابراهيم باشا فقد فكر بحق فى الاستفادة بالمزايا التى نجمت عن انتصاره فاستقدم حامية الحناكية كلها ماعدا اربعين رجلا منها وكتب الى المدينة فى طلب المؤن والذخائر الحربية والى مكة يستقدم الفرسان الذين وصلوا حديثا اليها من مصر لأمداده وترأس أثناء ذلك على الحملة التى جردت لمطاردة القبائل المعادية فاجتاز أوعار الجبال ثم عاد بشىء كثير من الجمال

والماشية فوزعه على قواد جيشه وكان التعب قد أنهك الفرسان وخيولهم فتقرر إمضاء شهر فى التماس الراحة للتقوى من الضعف والضنى، وقد وصلت فى خلاله حامية الحناكية والـ ١٢٠٠ فارس التى برحت مكة

وفى أوائل يوليو غادر ابراهيم باشا المهوية فى ٤٠٠٠ راجل و ١٢٠٠ فارس غير العربان وكانت صحته قد اعتلت كثيرا لما تكبده من التعب ولم يكن قد عنى بنفسه فلزم الفراش ستة أيام وصالا ولكن ذلك لم يقعد به عن العمل لانه أمر أوزون على بالتقدم فى جيش مؤلف من ٢٠٠٠ عسكرى ومسلح بثلاثة مدافع، وما كاد يتماثل للشفاء حتى نهض للسير فى أثره

وكانت الشقة طويلة جمة الأوعار والوهاد والنجود فكان لا يتقدم قليلا الا بعد اتخاذ التدابير لاتقاء المفاجأة وكان الماء نادرا جدا يزيد الشارب منه، بعد بذل العناء وتحمل المتاعب في استكشافه، عطشا وألما حتى ان الجمال والهجن حرمت شرب الماء فحدث مرارا ان قضت ٧٢ ساعة بدون ان تبتل شفاهها به وبر فيصل بوعده فالتقى بابراهيم ووافاه بمؤن وافرة ودواب للنقل كثيرة وانضم اليه بحيث صار هو ورجاله جزءا من الحملة المصرية وما قبل الهدايا التى وجهها الباشا اليه إلا بعد ان قبل مثلها مشائخ

العربان بين المدينة والقسيم . وقد حشد ١٠٠٠ راجل و٢٠٠٠ فارس بعد تكبد الشدائد فى اقناع قبائله بفوائد البقاء على ولاء المصريين. وكان نفوذه يمتد الى مايلى تلك البلاد بالنظر لقرابته من الزعيم الوهابى وحسن سمعته فى نجد الوسطي فاستمال الكثيرين من الشيوخ الى مؤازرته والاقتداء به

وكان منظر بلدة شنانة وقد اكتنفتها الأشجار يشعر بأنها غزيرة الخيرات متوافرة النعم فلما دنا الجيش المصرى منها وجدها قفراً بلقعا لأن الذكور القادرين من أهلها على حمل السلاح أخذوا لتعزيز الرس البعيدة بمسيرة اثنى عشر يوما من المدينة . أما الشيوخ والنساء والأطفال فقد فروا الى (الشقراء) ومعهم ماملكت أيمانهم من الماشية والمتاع . وكان التعب والأعياء قد نالا كثيرا من العساكر فأقاموا أسبوعا فى هذه الواحة ثم تحركوا نحو تلك البلدة وتقدمهم الباشا فى ٥٠٠ فارس للاستطلاع فقتل رجلين وجرح خمسة . وفى اليوم التالى بدأ الحصار ووضع مدافعه فى الأماكن المناسبة وعكف على ضرب المدينة بها ستة أيام ولكن شاء القدر أن القنابل لم تلحق بمبانيها ضررا ما حتى السور المحيط بها لأن القائمين على المدافع لم يكونوا من البارعين فى عملهم فكانت قنابلهم تنفجر قبل أن

تم سيرها في خطها المنحنى فلما وقف الباشـا على الحقيقة أمر
رجاله في الساعة الثانية من الليل بالحملة وتسلق الأسوار وأطلق
مدفعا إيذانا بذلك للمشاة فركضت الفصائل لاستطلاع المكان
ومنع المحصورين من مبارحته وخـدع أوزون على هو والدلاة
والمغاربة من جنوده العدو بأن لفت نظره نحو جهة غير التى كان
ينبغي أن تنصرف اليها اذ قام بهجوم كاذب عليها إلا ان الاهالى
استرشدوا بدوى المدافـع المصرية فوقفوا على الأسوار وظلوا
أربع ساعات يصـدون المهاجمين برماحهم وبنادقهم والمدفعين
اللذين كانا عنـدهم . وكان النساء والشيوخ يحرضون المدافعين
من وراء الاسوار على الثبات والاستماتة ويعاونون الجرحى
ويضيئون ميـدان القتال بسعف النخل الجاف المطلى بالصمغ .
ولقد أبدى الفريقان من ضروب البسالة ماقضى بالعجب وانتهى
بالمصريين الأمر الى الرضى بأيقاف القتال لما أصابهم فيه من
الخسارة الفادحة التى بلغت ٨٠٠ رجل بين قتيل وجريح ولم تكن
خسائر العدو تنقص عن هـذا القدر فعزز ابراهيم جيشه بـ ٩٠٠
جنـدى تحت قيادة البكباشى ياور على وقرر استئناف الهجوم
عند طلوع الفجر وكان قد أمر بقطع النخل الكبير ليقيم به حصونا
متفرقة بارتفاع بضعة أمتار اذ قد بدا له ان فشل الهجمة السابقة

يرجع الى قلة المرتفعات التى تمكن الجنود من ضبط مرمى المدافع . غير أن المهندس لم يفهم مراده تماما فبدلا من ان يحتفظ بتلك الاشجار كاملة قطعها قطعا صغيرة ورتبها اكواما بدلا من أن يضعها بطولها لتسند ماسيوضع من التراب خلفها . دع ان جعل تلك القطع على الترتيب السابق كان لا يكفل متانتها ولهذا السبب لم يبتدىء إطلاق المدافع حتى نشأ عن تراجعها الى الخلف ، وهو مالا بد من حصوله كلما ضربت ، سقوط تلك الأخشاب من مكانها . وشجع هذا الحادث المحصورين فتمكنوا من صد المراكز الامامية وانقضوا على المدافع ولكنهم بدلا من ان يسدوا ثقوبها بالمسامير ليجعلوها غير صالحة للاستعمال أخذوا يدوسونها بالاقدام . وكان ياور على أثناء القتال فى طليعة رجاله فأصيب بجرح بالغ . وحينما رأى المصريون ماحل بهم بثوا ثلاثة ألغام فلم تف بالمراد لتيقظ الحامية الوهابية وذهبت حيل المصريين للاستيلاء على الموقع هباء ولم يبق لهم من وسيلة يعتمدون عليها سوى الهجوم عنوة فقاموا به ولكنه كالهجومين السابقين لم يثمر غير الخيبة والفشل .

وكان موقف ابراهيم حرجا لأن ثلاثة آلاف من رجاله هلكوا امام الرس ونفدت ذخائره وتهددت المجاعه بقية جيشه

ولم يبق له أمل فى عون ولا مدد، وقد أصبح فى الصحراء على بعد سحيق من مصادر النجدة. وكان معسكر عبدالله بن سعود بين عنيزة و(رودة)فأخذ أخوه فيصل يكثر من الاستطلاع حول الرس فلم يجد مايحول دون امدادها وتعزيزها. ولو أن قائدا أقل من ابراهيم رصانة وتريثا في عمله واكثر تروعا منه وجزعا أمام الحوادث اذا قلبت له ظهر المجن لترك ميدان القتال يائسا وانقلب الى الحجاز فورا. ولكن الكارثة التى نزلت به وبجيشه زادته اصرارا على ارادته وتمسكا بتنفيذ مشيئته ومضيا فى عزيمته. على أن الكارثة لم تقف عند هذا الحد فقد ثارت عليه أيضا عناصر الطبيعة واتحدت ضده مع العدو لأن الزوابع والعواصف ثارت ثارتها على وجه لم يكن مألوفا من قبل فهبت الرياح الشديدة تسفى التراب والرمل وتنتزع المضارب والخيام وتسلب الانسان والحيوان التنفس والحركة وسقط الجرحى على الارض بلا حراك والاصحاء بلا قوة وحل اليأس من نفوس الجنود محل الأمل وبدأت الامراض تعتور الاجسام وتصيبها بأشد الآلام. أما الوهابيون فقد أخذت فصائلهم تتفرق فى البلاد فتسلب الجمال وتأسر قادتها وحراسها، ومع اشتداد تلك العواصف التى يشبه فعلها فى طبيعة الكون فعل التشنج العصبى فى الانسان فان

ابراهيم كان لا يزال ثابتا كالصخر الصلد لانه بينما كانت الاخطار محدقة به كان لا يفكر فى غير الفتح والانتصار ولقد امتطى جواده فى يوم من هذه الأيام العصيبة وسار فى ١٠٠٠ فارس فانقض على شيع العدو فمزق شملها كل ممزق بعد ان قتل وجرح ٣٠٠ منهم وقد قطع رؤوس الجرحى وعرضها مرفوعة على النبابيت أمام الرس . وإنما أراد بهذا المنظر الشنيع التأثير فى نفوس المحصورين بالقاء الروع فيها ولكنه بث بهذا الفعل نشاطا جديدا فيها لطلب الانتقام فاندفعوا خارج الأسوار واشتبكوا فى معركة سالت الدماء فيها غدرانا

وكانت ظروف الاحوال الى هنا ملائمة للزعيم الوهابى ومساعدة على تمهيد كل طريق يطرقه لانقاذ بلاده من خطر كان منها قاب قوسين أو أدنى ولكنه بدلا من شروعه فى هذا العمل الذى كان يكفي لأنجاحه الجمع بين الهمة وقوة الارادة واللباقة انزوى فى عاصمته مضحيا المصلحة العامة فى سبيل نجاته ونجاتها من السقوط تاركا قواده يقتحمون غمار القتال وحدهم ضد المصريين ومكتفيا من شؤون هذه الحرب بأيفاد اثنين من مقربيه لمفاوضة ابراهيم باشا فى الصلح وهما الشيخ محمد الحنبلى والشيخ عبد العزيز بن محمد وقد طلباه مشترطين فى مقابله رفع

الحصار حالا . فكان جواب ابراهيم أن أنذر محمدا بن مزران حاكم الرس بوجوب تسليم المدينة اليه فرد عليه هذا بقوله : « تعال نخذها » فاستؤنف القتال بين الفريقين وتابع عبد الله مخابرات الصلح التى بدأ بها . وكان يهمه التسويف والأطالة فيها لأعطاء إخوانه الوقت اللازم للاحتشاد . فطلب منه الباشا دفع نفقات الحرب ومتأخر الرواتب للجند وتقديم ألفى جواد وثلاثة الآف هجينة ومؤن الجيش لستة أشهر وتسليم اثنين من أولاده رهناً عنده . وهى شروط فادحة ولكن فداحتها ترجع الى ما أظهره عبد الله من الذلة والاستكانة حتى ترك لخصمه زمام الحق فى فرض الشروط على ما يهواه والتكلم بلهجة الغالب لا المغلوب فلاحظ صالح بن الرشيد المندوب الوهابى أن خصم الامير المصرى لم يكن فلاحا ولا من رعايا محمد على وإنما هو أمير نجد وصاحبها وحاكمها . وظهرت طلائع المشادة من الطرفين .فلم يبت أمر ما في الصلح المنشود

وكان سكان الرس قد سئموا انتظار وصول المدد اليهم ولم تعد لهم طاقة برؤية الخراب تمتد يده الى البيوت والموت يحيف السكان منذ ثلاثة عشر شهراً وسبعة عشر يوما فعولوا وقد تولاهم اليأس هم وحاكمهم على أن يطلبوا من ابراهيم هدنة شريفة فتم

الاتفاق بين الطرفين على أن يرفع الحصار وأن يذهب الحاكم بجيشه الى حيث شاء إلا الى داخل الرس وأن لا يفرض على الاهالى مغارم من المؤن والمال ومطالب الحرب واشترطوا على انفسهم الموافقة على وضع حامية مصرية فى مدينتهم إذا وقعت عنيزة فى يد المصريين

بلغ عدد المصريين الذين قتلوا أو دفنوا حول أسوار الرس ٣٤٠٠ على الاقل ، ولكن إبراهيم كان جسورا لا تصده العقبات عن الوصول الى غرضه فأنه زحف بمن بقى من جنده فكان الانتصار معقودا بحركاته . وصل الى مدينة (الخبراء) فلم تلبث ان فتحت ابوابها لجنوده بعد مقاومة ضعيفة فاستراح الجنود بها أحد عشر يوما قدم السكان اليهم فى خلالها ما لزمهم من الشعير والقمح وغيرهما من الحاجيات التى بادر الباشا بدفع أثمانها عن سعة حتى تبقى شهرته التى اشتهر بها بالأمانة بين قبائل العرب مصونة يضرب بها المثل . ووافق زعيم الوهابيين على اتفاقية الرس ثم انثنى نحو (بوريده)، وكان قد نصب خيامه فى عنيزة ومضت على اقامته بها ثمانى ساعات حينما تمكن المصريون من إقامة معسكرهم بها لأن مدداً مؤلفاً من ٣٠٠ فارس بقيادة رشوان آغا كان قد وصل اليها فجهز ابراهيم مدافعه للقتال وكان ذلك الموقع فى قيادة محمد

ابن حسن وبه قلعة منظمة مشيدة على مسافة ربع فرسخ من السور فسلمت القلعة بعد ضرب عنيف من المدافع مدة ستة أيام وختمت الخسائر التى أحدثها الضرب بانفجار مستودع البارود . وقد خاف الجند على حياتهم فلاذوا بالفرار من غير أن ينتظروا عقد التسليم الذى وقع الرؤساء عليه وقد أثبت لهم ابراهيم أنه كان من الواجب عليهم الالتجاء الى رحمته وشفقته ثم اذن لهم بالذهاب الى حيث يريدون بشرط ان لا يحملوا معهم سلاحا ولا مدافع ولا مؤن ولا أمتعة وألزمت المدينة بأحد أمرين إما تموين الجيش المصرى بما يلزمه من المؤن والعلف وإما بدفع المال اللازم لشراء ذلك له . ونشأ عن الاستيلاء على عنيزة التى كان مما يزيدها أهمية فى نظر الطرفين المتحاربين كونها فى منتصف الطريق بين البحرين أن اضطر الزعيم الوهابى الى الانسحاب نحو الشقراء والاشتغال بتحصين الدرعية . وبناء على الاتفاق المبرم مع أهالى الرس وضعت بها حامية مصرية اذ من مقتضى هذا الاتفاق كما ذكر سابقاً ادخال هذه الحامية فيها بعد سقوط عنيزة

ولما شهد أهل القسيم وهى مقاطعة غنية بالحاصلات آهلة بالسكان ماحل بعنيزة أقروا بالطاعة لابراهيم الذى باستيلائه على هذه البلاد أصبح الطريق الموصل الى عاصمة الوهابيين مفتوحاً

أمامهم . ولكن لم يكن فى هذا الطريق ما يعترض سيره أو يجعله متعذرا سوى مقاطعة (الوشم) وسلسلة صحارى آخذ بعضها ببعض وجملة من المدن

وفى هذا المكان كان ابراهيم قد ترك الحدود التى هى اقصى ما بلغ اليه أخوه طوسن فى حملته فرأى ان من الحكمة قبل الايغال فى نجد الاحتفاظ بموقع حصين للاعتصام به عند الحاجة فأمر بترميم قلعة عنيزة وقطع نحو ستة آلاف نخلة لنصب بطاريات المدافع خلفها وعمل سياج لمعسكر حصين ثم أرسل الرسل الى مصر لنشر بشرى الفوز بين أهلها . وكان مما عقد النية عليه الانتظار ريثما تصل اليه الامدادات والمؤن ليستأنف الاجراءات الحربية ، ولكنه كان رجل جد وعمل فزحف من فوره على بوريده وظل يطلق القنابل عليها حتى هدم اسوارها واستولى على احدى قلاعها ورمي اعناق حاميتها المؤلفة من ٢٠٠ مقاتل

وكان (عجيلان) حاكمها هو الذى حاصره (سعدون بن آريار) خمسة أشهر فقاومه مقاومة عنيفة وصدّ فى سنة ١٧٨٠ رجال (الحسا) بسيفه وبندقته ثم أحرق معاقلهم وأخذ خيامهم والقى الروع فى أفئدة اعدائه فهزمهم وبدد شملهم حتى عجزوا عن

أخذ جثث قتلاهم كي يحتفلوا بدفنها . فذلك البطل الباسل اضطرته ظروف القتال ضد ابراهيم الى ارسال ابنه اليه ليكون رهنا عنده مقابل حصوله على الأذن بالأقامة فى المدينة حيث وافته المنية عقب وصوله اليها بقليل . وعقب سقوط بوريدة دمرت ابراجها وحصونها وتفرغ الباشا لتدبير الأغذية والمؤن من جهة وتعزيز قواه العسكرية من جهة أخرى لما كان اعتورها من الضعف بسبب ترك نصائل منها في الرس وعنيزة وما سيعتورها منه عند مايبرح بوريدة ويترك بها فصيلة أخرى لوقايتها من الغارات . ولقد كتب الى والده فى هذا الشأن طالبا منه المدد فأجابه الى طلبه فورا اذ تحرك هذا المدد مع قافلة محملة بالمؤن والذخائر بقيادة كيخيا ابراهيم باشا، ولكن لم يبتعد هذا القائد عن القاهرة بمسيرة يومين حتى ترك حملته فجأة قاصدا الى الشام آخذا معه الـ ٢٤٠٠ كيس من النقود التى عهد اليه بتوصيلها الى ابراهيم باشا. وكان هذا المبلغ كل ماجمع من فرضة ضربت على أراضى القطر المصرى بعضها بنسبة سبعة قروش عن الفدان الواحد من الأرض الجيدة والبعض بنسبة ستة قروش عن الأراضى المتوسطة برسم الانفاق على الحملة . وحدثت فى بوريدة حوادث ليست أقل من تلك أهمية ولا تأثيرا

فى الحالة النفسية للجنود المصرية

من ذلك ان البكباشية كانوا قداعتادوا كلما قبضوا مرتبات جنودهم تقديم احصاء عنهم يتجاوز العدد الصحيح فراب ابراهيم من ذلك شيء فى مبدأ الأمر ثم أراد الاستيثاق فأخذ، كلما عرض الجنود، يحصي عددهم فى نفسه ويقدرهم تقديرا دقيقا وشعر البكباشيه بشيء من ذلك فسقطوا فى أيديهم . وكان العرض للمناورات والتدريبات الحربية لايلائم طباعهم ولا يوافق أمزجة العساكر لما جبلوا عليه من الدعة والكسل؛ فاتفق ذات يوم أن مل ابراهيم باشا مقابلة مشائخ القبائل والقرى طول النهار فاستدعي بعض العارفين بحوادث التاريخ لمسامرتهم وتسرية الملل عن نفسه بسماع طرفهم فبينما هو كذلك اذا بخيمته قد اشتعلت النار فيها والتهمتها قبل أن يستطيع أحد استنقاذ شيء مما كانت تحتويه من الاعلاق والتحف النفيسة وكانت دلائل سوء النية فى هذا الحادث محسوسة ملموسة، اذ تبين ان مرتكبيه كانوا يدبرون فى الخفاء منذ زمن وسيلة للخلاص من القائد . فلما نفذوا مكيدتهم هذه ورأوا أنهم فشلوا فيها عمدوا الى مكيدة أخرى خبرها أنه بينما كانت الفرسان قائمة بالتدريبات النارية فى الظهيرة اذا رصاصة اخترقت عمة ابراهيم واتضح ان مطلقها مغربى

فرّ بعد اطلاقها . على ان الامدادات المنتظرة وصلت بعد ذلك بقليل مؤلفة من ٨٠٠ رجل ومدفعين للحصار وجمال كثيرة ومؤن وذخائر فاصبح الجيش المصرى بها مؤلفاً من ٤٠٠ ألبانى ومصرى و ٥٠٠ مغربى تحت قيادة حسن كاشف ثم من عربان قبائل مطير وحرب وبنى خالد وعتيبة الذين كان مشا يخهم يقيمون فى المعسكر المصرى العام ويقومون بالاستطلاع للجيش المصرى وحراسة القوافل الحاملة للميرة والعلوفة والذخيرة . وكان مع هذا الجيش فيما عدا المدافع المتقدمة اثنى عشر مدفعاً وبضعة آلاف من الخدم و ١٠٠٠٠ دابة للنقل . وكانت أفواه هذه الكائنات المختلفة تستنفد طبعا المؤن المدخرة شيئاً فشيئاً

وقد وصلت الى ابراهيم باشا أنباء تعلن اهتمام الوهابيين بتشييد الحصون والاستحكامات للدفاع حول بلدة الشقراء فأمر فرسانه بالتقدم نحوها ثم قصد اليها بنفسه بعدهم يوم ١٨ صفر ١٢٣٣ الموافق ٢٨ دسمبر ١٨١٧ بعد أن مكث في بوريدة شهرين كاملين فبلغ الى أسوار (المذنب) واستولى عليها واصبح من عاصمة الوهابيين بذلك على مسافة ٢٠٠ كيلومتر كلها جبال صخرية وفياف قاحلة ولقد رتب جيشه برسم الزحف عليها كما يأتى : الفرسانَ في الطليعة والمشاة والمدفعية ودواب النقل فى الوسط

والمغاربة في المؤخرة على مسافة سحيقة منه وكانت الجيوش كلها تسير سيرا وئيدا ست ساعات فقط فى كل ٢٤ ساعة لتتلافى مشاق الرحلة وتعب النقلة. وكانت ترى من آن الى آن في تلك البيداء الواسعة نخلة واحدة أو كوخا منعزلا فيظن الراؤون ان وراء الاكمة ما وراءها فيتنازعون مقدما على الاختصاص بثمار الشجرة أو أوراقها أو الماء الذى يرجى أن يكون بجوارها، ولكنهم كان يخيب رجاؤهم متى وصلوا إذ يجدون الكوخ شاغرا من السكان والنخل بلا ثمر والآبار بلا ماء وكانت لاتقع الانظار بعد ذلك إلا على صورة مجسمة من صور الخراب المحزن بل على نتيجة من نتائج استبداد الأمير الوهابى وصلابته فأنه جمع عربان القبائل الموالية له حول (درامة) والدرعية للذود عنهما فخرب منازلهم وأتلف مزارعهم. وكانت الشمس أثناء زحف الجيش فى تلك الاصقاع ترسل الى الجباه أشعتها المحرقة واقدام الزاحفين تهوى في اخاديد الارض أو تنغرز فى الرمال المتحركة وكان كلما عنت حاجة الى الصعود من اكمة أو جبل أو هضبة ركب العساكر الجمال كل اثنين جملا ولكن كان ابراهيم فى مقدمة الجميع يسير على قدميه ليكون لهم مثلا أعلى فى الصبر والجلد والاقدام

ولما لاحت له الشقراء نصب مخيمه على مسافة ١٦ كيلومترا

منها بين قريتين أذعن أهلوهما له بالطاعة ثم وردت عليه الأنباء
بأن حسن باشا والى مكة أدب عرب اليمن تأديباً زاجراً اذ
كانت شيعهم تغير على الاقطار الحجازية من آن الى آن فتلحق
بها الأذى وقتل ٣٠٠ من رجال الشريف حمود ابو مسمار . وفى
٥ ربيع الأول سنة ١٢٣٣ الموافق ١٣ يناير سنة ١٨١٨ خرج
ابراهيم في ٨٠٠ فارس للاستطلاع حول الشقراء واختيار الموقع
المناسب لأقامة معسكره فحدثت بينه وبين حاميتها مناوشات
جرح بسببها بعض عساكره فلما كان المساء عاد الى معسكره
وانذر القواد بوجوب الاستعداد للزحف فأخذوا لذلك عدتهم
بحيث انه لم تشرق شمس اليوم التالى حتى كان جيشه المؤلف
من ٤٥٠٠ فارس وراجل و ٦٠٠٠ جمل محمل بالمؤن والذخائر قد
استأنف المسير . ومما هو جدير بالذكر أن المدفعية لقيت في السير
على الرمال عناء شديداً، ولكنهم وصلوا على أحسن حال الى الموقع
الذى اختاره ابراهيم للقتال فنصبوا مدافعهم على مرتفع من الارض
ثم بدأوا باطلاق القنابل منه وساعدهم المشاة باطلاق البنادق من
جنوب المدينة وشرقها واستمر القتال الى ليل ٨ ربيع الاول
الموافق ١٦ يناير سنة ١٨١٨ حيث أحدثت القنابل ثلمة فى أسوار
الحدائق المحيطة بالشقراء فحمل المصريون على المنازل الواقعة

خارج السور فصدهم الوهابيون بعنف وبسالة ولكن التلف الحادث من رمى القنابل كان قد ألقى الروعة فى نفوسهم فانسحبوا الى داخل المدينة وبلغت خسائر الجيش المصرى فى هذه المعركة ١٠٠ جريح و ٤٢ قتيلا وأسيرين. ولكن لم يلبث أن وردت عليه أعلام كثيرة مما خسره العدو وآذان ١٦٨ قتيلا وبادر الباشا ا بعد ذلك فضرب نطاقا من الجنود حول المواقع الخارجية وعهد بأعمال الحصر الى مسيحي وهو الضابط الفرنسى (فسيير) بالرغم من تذمر العساكر واحتجاجات القواد واعتراضاتهم فشيدت جملة معاقل وأطلقت القنابل منها فى الوقت الذى كان فرسان المغاربة فيه قد عادوا من غزوة ضد القبائل المعادية بالغنائم الوافرة من الماشية والجمال والأمتعة . وفي مساء ١٩ يناير اختار السكان والحامية الوهابية رجلا من بينهم للمفاوضة مع القائد المصرى فذهب هذا الرجل الى المعسكر العام للمصريين وأوقفت المحاربة بسبب ذلك ساعتين فلما لم يتفق الطرفان على شيء يحسن الوقوف عليه استؤنف القتال واستمر الى ١٣ ربيع الأول الموافق ٢١ يناير. وفى هذا اليوم ندب قائد وهابى للذهاب الى ابراهيم باشا ومفاوضته فى أمر الصلح فوقع الاختيار على احمد بن يحي صهر عبدالله بن سعود وكان حاكم

الموقع فسلم ابراهيم اليه منديلا أبيض إشارة للأمان وعلى أثر ذلك فتحت الأبواب في وقت الظهر. وفى ١٤ ربيع الاول الموافق ٢٢ يناير ألقي رجال الحامية وعددهم ١٤٠٠ السلاح من أيديهم عملا بشروط الاتفاق الذى افضت المفاوضة اليه وانصرفوا الى بلادهم بعد ان تعهدوا بان لايحملوا السلاح منذ الآن فصاعدا في وجه الجيوش المصريه . وتسلم ابراهيم مااحتوته البلدة من معدات الدفاع وهى خمسة مدافع كان يديرها رجل خائن من جيش طوسن باشا وأمتعة المعسكر وجميع الذخائر والاسلحة فلم يكن من ابراهيم الا ان فرق الرماح والبنادق والبارود على القبائل الموالية له فى نجد وأرسل الى والده بالقاهرة مقدارا كبيرا من الآذان وأخبره بالزحف قريبا على الدرعية

وقد كفى ماوجد فى البلدة من القمح والشعير والأرز لتموين الجيش شهرا كاملا . وكان حصول الباشا عليها بطريق الشراء لا طريق الغصب . وهو مسلك يناقض مسلك عبدالله بن سعود الذى انشأ الحصون وحفر الخنادق دون أن يدفع أجر العمال أو يزودهم بطعام . وبلغت خسارة المحصورين من القتلى فى الايام الستة التى قاوموا فيها ١٧٠ ومن الجرحى ٢٤٠ منهم ٣٥ امرأة و١٢ طفلا

أما خسارة المصريين من القتلى والجرحى فلم تتجاوز ١٣٠ قتيلا وجريحا، وهذا بلا شك ثمن بخس لمثل ذلك الموقع الحصين الذى هو مفتاح العاصمة الوهابية . ومن مزايا الشقراء عدا ماتقدم انها قاعدة اقليم الوشم وأنها قائمة فى وسط سهل من الأرض لا يبعد عن المدينة بأكثر من ١١٢ كيلومترا وأنها خط الاتصال بالجهات الغربية التى يمر منها الطريق بين الرس والدرعية ثم ان جبال الطويق تحيط بها من جميع الجهات ولها تجارة رائجة فى الماشية والأصواف والسجاجيد مع دمشق وبغداد والبصرة وفيها مساجد عديدة وشوارع عريضة تحف بها من الجانبين اشجار باسقة، دع ما امتاز به رجالها من النشاط وكرم المثوى ونساؤها من الجمال والعفاف وطقسها من الاعتدال وأخلاق أهلها من الدعة والسكون . ولتوافر هذه المزايا فيهم تجد أنهم يعمرون طويلا فلقد رأى المصريون بها امرأة في السابعة عشرة بعد المائة من عمرها لم تفقد شيئا من شعرها ولا من جودة صحتها وحسن نطقها وعذوبة لفظها واستوقفهم مرة منظر فتاة فى الثانية عشرة من عمرها صهباء شعر الرأس كالفتاة الانكليزية وقد رجحوا أن تكون فارسية الأصل من فارس الشمالية وأن أباها تركها فى هذا المكان اثناء الحج

فكر ابراهيم فى الارتحال الى الشقراء ولكنه عنى قبل ان يرتحل اليها بانشاء مستشفى بادارة الطبيب (جنتيلى) لعلاج الـ ٣٠٠ مريض وجريح الذين كان مضطرا الى تركهم . وعقب ابتعاده عن الشقراء هطل مطر غزير فاض الماء بسببه فى الوادى فاضطر الى نصب مخيمه على سفح الجبل المجاور وأتلف الماء جزءا من المؤن ولكن الأرض لم تكد تجف وتصلح لمرور المدافع حتى أمر الجيش بالارتحال فأقرت له بالطاعة قرى كثيرة فى الطريق . ومر بقرى كثيرة شاغرة من السكان لأن الزعيم الوهابى أمر بجمعهم وسوقهم مع مايملكون من قطعان الماشية والاغنام الى (الحسا) التى وجه كل همه الى حشد اكثر مايستطيع من الجند فيها وكانت درامة التى تحميها أسوار الحدائق وفسيح الحقول المغروسة بالأشجار ومختلف النباتات فى مدخل المضيق الذى يؤدى الى جبل الطويق على مسافة ٤٠ كيلو مترا منه فالموقع المقابل للدرعية . فلما وصلت طلائع الجيش المصرى اليها تلقاها الأهلون بنار حامية فثارت فى العساكر ثائرة الغضب والغيظ فانقضوا على المدينة ينهبون ويسلبون ويفضحون البنات والنساء ويرمون اعناق الرجال حتى ارتوت الارض فى المنازل والطرقات بالدماء . ومن بقى منهم على قيد الحياة أجيز له البقاء بين

هذه الاطلال الدارسة بالقرب من رمة والد أو جثة أخ أو أشلاء
زوج . وكان والى هذه البلدة وهو سعود بن عبد الله قد اعتصم
هو ومن يثق بهم من رجاله في بناء فسيح نقل معه اليه اسلحته
وخيوله ووضع امام البناء مدفعين . فلما شهد ابراهيم ذلك أمر
بأيقاف الهجوم قائلا إن فيما وقع من التشفى والا نتقام ما يكفى
وعفا عن الذين ما برحوا يدافعون عن درامة بشرط ان لايحملوا
سلاحا ولا يأخذوا أمتعة ولا يشتركوا في قتال أبدا ضد المصريين
وقد وجد هؤلاء فى درامة من لوازم الغذاء ما عوضوا به
المستنفد من مؤونتهم لان الارض فى هذا المكان كثيرة الخصب
والخيرات بها وفيرة ومنها تتزود القوافل الذاهبة الى فارس ومكة
فضلا عن كفايتها لسد حاجات سكانها الذين كان عددهم لا يقل
عن ٧٥٠٠ نسمة وسكان الدرعية الذين كان عددهم غير الاطفال
١٣٠٠٠ نسمة واتفق ان هطلت الامطار وهبت العواصف فعاقت
ابراهيم عن الرحيل فأنه لم يبرح تلك البلدة الا يوم ١٤ جماد الاول
الموافق ٢٢ مارس . وكان جيشه مؤلفا من ٥٥٠٠ فارس وراجل
و ١٢ مدفعا منها اثنان من الهاون واثنان لقذف القنابل المستطيلة
فوصل بهذا الجيش الكثيف الى (الملكه) القريبة من الدرعية
واضطر فى قطع شطر من هذا الطريق الى السلوك بين الجبال

والمضائق الوعرة . فلما كان اليوم التالى خرج ابراهيم فى ٨٠٠ فارس ومدفع واحد للاستطلاع فبلغ فى جولته الى استحكامات العاصمة الوهابيـة وحدثت مناوشات بين الفريقين انجلت عن قتل بعض الناس منهما. ثم عاد الامير الى معسكره بعد ان جس مخاضة العدو وعرف ما ينبغي اتخاذه من التدابير فى قتاله وفى ٢٩ جماد الاول الموافق ٦ افريل ١٨١٨ أقام أمام الموقع ، بعيدا عن مرمى المدفع منه ،حصونه الامامية فعين الوهابيون النقط التى ارتأوا انها أوفق ما يكون لهم فى القتال وخرج جيش منهم موءلف من ٢٠٠٠ رجل بقيادة فيصل أخى عبدالله فشاد على مرمي البندقة من الاستحكامات المصرية استحكامات موازية لها فلما شهد المصريون ذلك شادوا جملة معاقل واتخذوا الوسائط اللازمة لأخراج العدو من القلاع والآكام التى احتلها

أما الدرعية وهى نقطة ارتكاز الوهابيين ومركز حشدهم وتعبئتهم وعاصمة اقليم نجد وقاعدة (العارض) فواقعة في الجزء الشرقي من بلاد العرب على مسافة ٨٠٠ كيلو متر من ينبع على خط مستقيم فى نهاية واد مشهور بالخصب بين جبلين يحتويان عيونا للماء غزيرة ويمر بها مسيل الباتن الذى يجف طول السنة إلا فصل الشتاء ويروى على امتداد ٣٢٠ كيلو مترا حقول القمح

وكروم العنب وغابات النخل وهناك مروج واسعة ترعاها قطعان الماشية والأغنام فتعطى اللبن والجبن واللحم . وتؤخذ بقية حاجيات المعيشة والحبوب اللازمة لغذاء الطيور والحيوانات الداجنة من الاراضى الأخرى القابلة للزرع . أما التجارة فرائجة زاهرة ومن أخص صناعاتها صناعة القلنسوات السوداء الطويلة الشائعة الاستعمال فى الشرق أما موقع المدينة فحسن جدا كان الناس يعتقدون أنه من المواقع المنيعة لأنه لا يوصل غربا اليها سوى حلق ضيق من حلوق الجبل وفيه الخطر كله على من يريد الهجوم أما من الجهات الباقية فتحميها على مسافات بعيدة منها النفود أى الفيافى الرمليه التى لا ماء فيها على الاطلاق

ومما هو خليق بالتأمل ان الدرعية تتألف من خمس مدن صغيرة لكل مدينة منها أبواب وأسوار خاصة تتخللها الحصون والأبراج . وفى عهد هذه المحاربة كانت بها قلعة تحمى حي الطرفية وحي الغسيبة المستندين الى القلعة واكمة عالية بجوارهما . وكان مقام زعيم الوهابيين فى حي الطريف الذى تفصله عن السهل قناة لماء السيل . أما حي القصرين فيمتد بين الحدائق الغناء وقد هجره سكانه منذ بداية الحصار الى الاحياء الاخرى للاحتماء بمنازلها . ومحيط هـذه الأحياء اثنى عشر كيلومترا ، وهى دائرة كان من المتعذر

حصرها بأقل من ٢٥٠٠٠ مقاتل أى بأربعة أضعاف جيش ابراهيم باشا . لذا كان من أول ما اتجهت اليه همته حشد قواه كلها في نقطة واحـدة للهجوم بها على حصن هناك سناده اكمة مرتفعة. فلما كانت ليلة ١٢ ابريل ١٨١٨ نصب ابراهيم تحت جنح الظلام مدافع بطريتين فى الاماكن الملائمة للقتال . وما اسفر صبح ١٤ ابريل حتى بدأت هذه المدافع تقذف حممها وأمر البكباشية بتعزيزها فقام الدلاة والايشاغاسية بحراسة مضيق المسيل . وأخذ فرسان رشوان آغا يعزز العربان المصريون مواقفهم على خط الصحراء وأحدثت القنابل ثلمة فى القلعة السالفة الذكر فانقض برج من ابراجها وفر حماته تاركين جرحاهم ومدفعين وكثيرا من المؤن وذخائر الحرب وأمتعة العساكر فطوردوا مطاردة عنيفة حتى بلغوا حدائق المدينة وأسر منهم كثيرون ولبث ابراهيم بعد ذلك ينتظر ورود الامـدادات اليه ليحسن ختام براعة هذا الاستهلال المجيد

أما الزعيم الوهابى فلم يدع وسيلة الا اتخذها لبث الحماس فى نفوس رجاله فكان يوزع عليهم الذهب والثياب ويعين للمشائخ المواقع الهمة . وأخـذ صنائعه يكررون على المسامع أنه لا ينبغى الاصغاء منذ الآن لصوت غير صوت الانتقام من عدو بنى خطته

في قتالهم على نهب المدن وهدم المساجد وذبح الرجال وسبي النساء
وعول الباشا بعد ان قضى الايام السابقة فى مناوشة النقط
الامامية على الاشتغال فى ساعات فراغه بالأعمال الجدية . فمن
ذلك أنه شهد مدفعين للاعداء وضعا على قمة أكمة وكان يخشى
ضررهما فأمر رجاله بأخذهما عنوة فحمل كل من أوزون على
ورشوان أغا حملة جانبية على الوهابيين فقاوموا بعنف نحو
نصف الساعة ثم تقهقروا الى المدينة للاحتماء بها .. وقد قتل فى
هذه المعركة سليم آغا خازندار ابراهيم وتأمل فيصل بن سعود
طويلا فى عاقبة هذا الفوز الباهر فرأى ان استحكاماته أصبحت
معرضة للخطر وإمداده من الخارج متعذرا إن لم يكن مستحيلا
فانسحب فى قوته وحشده الى وسط الحدائق مستعصما ببعض
الاستحكامات فيها. ومما ضاعف نشاط المصريين وقوى رجاءهم
فى النجاح وصول ١٥٠٠ جمل اليهم محملة بالأرز والشعير والدقيق
بعث بها والى البصرة . واتصل بالباشا فى الآن نفسه أن والده
أرسل اليه فرقة من المغاربة ومدافع وأدوات للقتال .وهذا فضلا
عن أن المرضى والجرحى الذين تركهم بمستشفى الشقراء كانوا
قد أبلوا من أمراضهم فعادوا الى صفوفهم ووصلت بعد هذا
وذاك قوافل من المدينة وعنيزة ومعها ٥٠٠ رأس من الضأن وشيء

كثير من البقسماط والقمح والشعير والسمن والبارود والقنابل فلما شهد الجنود ذلك بدت عليهم آيات السرور والبشر

ورام الوهابيون الخروج لمهاجمة معسكر رشوان آغا بالجناح الأيسر فصدوا بعنف وخافوا ان يهجم المصريون عليهم لمقابلة المثل بالمثل فأقاموا أسوارا وحفروا خنادق . ولقد تركهم المصريون فى عملهم لا يتعرضون لهم فأجادوا التحصين وكان كل يوم يمضى يجعل دم المصريين عزيزا غاليا ويبعث على الضنّ به لازدياد المرضى منهم هذا فضلا عن أنه كان مما يشق على نفوس العساكر البقاء تحت السلاح ست ساعات فى كل اربع وعشرين ساعة لا لغرض سوى دفع مناوشات العدو ورد غازاته الجزئية الفجائية. واذا اتفق ان شيوخ القرى الذين يقصدون الدرعية لتلقي الأوامر والتعليمات من زعيمهم كانوا يفضلون الوقوف بقطعانهم ومؤنهم في معسكر ابراهيم لبيعها بالأثمان الملائمة لهم فان الأمدادات الواردة الى الوهابيين من اقليم الحسا كانت تصل الى الدرعية بلا معارض من الجانب الآخر من المدينة. وتساهل المصريون فى مرورهم لما كانوا هم عليه من قلة العدد فى تلك الجهة ومال الباشا الى إزالة هذه الصعوبة بالحيلة التى وفق لتدبيرها منذ بدء الحصار فأنه كلف (فيسيير) بانشاء معاقل استطاع بواسطتها

تدمير البرج المطل على الحدائق والمجاور لاستحكامات (غسيبة) فبالرغم من تيقظ الوهابيين لصد هـذه الغارة تمكن المصريون بما احدثوه من الثلم فى الحصون من زحزحتهم عن مواقعهم. وكانت الظروف ملائمة للهجوم إلا ان الضباط ابوا القيام به لتمرد العساكر وامتناعهم عن الانقياد اليهم ولـكن العساكر كذبوهم إذ صاحوا بأعلى أصواتهم ان رؤسـاءهم هم الممتنعون عن الهجوم لا هم فلما سمع ابراهيم ذلك غضب غضبا شـديدا وترك ميمنة المعسكر عائدا الى خيمته وكتب الى والده بما احزن فؤاده. وقبل ان يسلم الرسالة الى القاصد وهو خاله احمد آغا ترددهنيهة متسائلا اذا كان عقله أو قامه أضلا السبيل بتأثير حلم مزعج ولـكنها كانت الحقيقة التى لا ريب فيها فقد حدث بعد ظهر ١٦ شعبان الموافق ٢١ يونيه ان الوهابيين اشتبكوا مع المصريين فى معركة قتل وجرح فيها من هؤلاء ١٦٠ من بينهم ضباط امتازوا بالبسالة والحذق فلما عادوا الى المعسكر لالتماس الراحة من عناء هـذه المعركة هبت ريح جنوبية من التى يندر هبوبهـا فى بلاد العرب من غير ان تكون مصحوبة بزاوبع التراب والرمل فحدث أن حملت فيما حملته معها جذوة نار من موقد كان عسكرى يصلح عليه طعامه فألقتها على خيمة كبيرة منصوبة بين ربوتين عاليتين وفيها

مستودع القذائف و ٢٠٠ برميل بارود و ٢٨٠ صندوق خرطوش وقنابل مستديرة ومستطيلة فلما احترقت الخيمة اتصل اللهيب بالذخائر فانفجرت كلها واحترقت بسببها اكوام هائلة من الشعير والقمح وتتابع الانفجار باتصاله من برميل الى برميل ومن صندوق الي صندوق مدة عشر دقائق وانقلبت الخيام على ساكنيها أو احترقت وصارت رمادا واحترقت الاجسام فصارت فحما أسود وطارت أشلاء اجسام أخر فتناثرت هنا وهناك وتروّع الباقون على قيد الحياة وأصبح ابراهيم الذى كان لايتجاوز عمره عامئذ التاسعة والعشرين بلا مؤن ولا ذخيرة وسط الصحراء بعيدا عن مخازنه ومستودعاته الأساسية بنحو ٢٠٠ كيلومتر وعاجزا عن الوقوف امام عدو متفوق عليه فى العدد اضعافا كثيرة وكل مابقى عنده من ذلك هو ما احتوته جبائر العساكر وما نجا من نار الحريق وهو لا يزيد على الـ ٣٠٠ القذيفة التى كانت مع البطاريات فالرزء كان شديدا والمصاب جللا والفتق متعذر الرتق . غير ان ابراهيم تلقي تلك النكبات بالصبر والثبات وسرعة البديهة وقوة الارادة ومضاء العزيمة فكأنه لم يشعر بوقع الكارثة

وكان أوزون على يقود النقط الامامية فبعث رجلا ليسأل الباشا هل استطاع استخلاص شيء من الذخائر فكان جوابه

« لقد فقدنا كل شىء الا البسالة وسيوفنا فبالبسالة والسيوف نستطيع الهجوم والانتصار » أما الانفجار فقد زلزلت الارض من جرائه وأحس الناس به من بعيد ومنهم أهل الدرعية ورام عبدالله استقصاء الخبر فبعث ثمانية أو عشرة من كشافته لتسقط الاخبار وتعرف سبب الرجة الهائلة وما يمكن ان يستفيده من الحادث فصدهم المصريون الى وراء بعد عراك عنيف على أن الزعيم الوهابى وقف على الحقيقة فعقد مجلسا كان من مظاهر ما استقر الرأى عليه فيه ان أخرج فى اليوم التالى ١٥٠٠ من جنوده فأيقن ابراهيم بحرج موقفه فجمع في الحال اليه عساكره ووقف وسطهم آمرا إياهم بان يضنوا كل الضن بما معهم من الذخائر وأن لا يطلق أحدهم رصاصة إلا فى مواجهة الخصم بحيث لا تخطىء الرصاصة مرماها وأنذر كل متقهقر بالاعدام لا محالة . فلما أسفر الصبح انبثت الطلائع المصرية للاستكشاف والهجوم على العدو فاستنفدت الخراطيش ولم يبق أمام الرؤساء إلا أن يتبعوا بالندقة أمر الباشا ووقف هذا على ربوة فيها ثلاثة مدافع وأرسل الضباط الى جميع النقط يأمرون العساكر بترك العدو يتقدم نحوهم ومراعاة الاقتصاد فى إطلاق الرصاص حتى اذا اقترب منهم كثيرا صعقوه بالطلقات.
وكان من عيوب الوهابيين في الحرب أنهم اذا خرجوا للقاء

أعدائهم قاموا بحركات سريعة ودنوا منهم فى أقل من لمح البصر بدلا من أن يجعلوا هذه الحركات فاترة ومتفرقة ليستنزفوا بذلك ذخائرهم فلما دنوا على المثال المتقدم تلقتهم المدافع بمقذوفاتها فحصدتهم حصدا ذريعا واضطرتهم الى التقهقر

ساء عبدالله هذا الفشل فارتأى ملازمة الدفاع . وعنى ابراهيم بحالة جرحاه ومرضاه الذين كانت علة أمراضهم شدة البرد فى الليل وشدة الحرارة فى النهار . وكانت الأمراض الاكثر تفشيا بينهم الدوسنطاريا والرمد الصديدى وأصيب هو ذاته بالداء الأخير أياما لان عنايته بأحوال عساكره حالا واستقبالا كانت تعوقه عن التماس الراحة لنفسه . على أن الآلام النفسية والجثمانية التى نزلت بالجيش المصرى لم تلبث ان زال الكثير منها وحل محله شفاء الابدان من الاسقام وشفاء القلوب من اليأس . وقد أرسل مساء يوم الانفجار الرسل الى الشقراء وبوريدة وعنيزة ومكة والمدينة فى طلب مايتلافى به ضرر ذلك الحادث . وفى الواقع فقد وصل اليه بعد خمسة وعشرين يوما من طلبه ٢٠٠ من دلاة حامية عنيزة ومعهم مائتا جمل محمل بارودا ورصاصا وقنابل وتواردت عليه القوافل التى ارتحلت من المدينة بذخائر من هذا النوع ومدفعين يتبعهما ٦٠٠ عسكرى فتمكن

ابراهيم بهذه القوة الجديدة من اخضاع القرى التى تمد الدرعية بالمؤن على مايؤخذ من تقرير بعث به فيصل شيخ عربان مطير الذى كانت مهمته ابعاد القبائل المعادية عن المعسكر المصرى

وفى ليلة ١٥ اغسطس خرج الباشا فى ألفى عسكرى ومدفعين فاستطلع الطريق مستترا بالظلام وخبر حالته ولكن الجلبة التى نشأت عن جر المدافع وسير الجند وصهيل الخيول نمت عليه وفضحت أمره فهب الوهابيون الى مدافعهم يطلقونها فألحقوا بالمصريين خسارة لا يستهان بها . وأراد عبد الله فى اليوم التالى ان يغتنم فرصة غياب خصمه فأمر بالخروج لمحاربة خط المحاصرين كله فاستمر القتال اربع ساعات تحت شمس محرقة أبدى الفريقان فيها من البسالة مايحمدان عليه وانتهى بصد الوهابيين. وشوهدت النساء فى هذه المعركة يقتحمن خط النار وعلى رؤوسهن قدور الماء يحملنها الى العساكر المدافعين . وذهب الطبيب (جنتيلى) ليسعف بعلمه الجرحى فى خيمة البكباشى اسماعيل آغا فأصابته قنبله ذهبت برجله فتولى بترها زميله (تودسكينى) وفى اليوم التالى عاد ابراهيم من غزوته بعد ان استولى على بلدة (خرقة) وترك بها حامية من جنده وبمجرد عودته الى المعسكر زار الطبيب جنتيلى يصحبه (فيسيير) وأظهر له من آيات العناية

والرعاية ماجعله مطمئنا على مستقبل حاله. وتوارد وصول الامداد وانضمامها الى الجيش ومنها ٤٠٠ من المشاة بيادة البكباشى (باشو) وفرقة فرسان تتبعها قطعان الماشية والدواب الحاملة لذخائر الحرب. وانتهى الى علم الباشا ان والده سير اليه مددا موءلفا من ٣٠٠٠ راجل وفارس بقيادة خليل باشا حاكم الاسكندرية ولكن ابراهيم باشا كان غيورا على مجده ويرى فى هذا المجد انه حظية جميلة وديعة لايود ان يشاركه فى محاسنها أحد ، فلما انتهى اليه هذا الخبر عول على ملاحقة الوهابيين في معتصمهم الأخير وإفنائهم عن آخرهم قبل وصول الامدادات من مصر اليه ولذا كاشف جيشه بعزمه الاكيد على أخذ عاصمة الأعداء فى أقرب ما يمكن من الزمان.

بدأت المدفعية باطلاق القنابل وتبعها المشاة بضرب الرصاص من عيون المعاقل الامامية وكان فيصل أخو عبد الله يستكشف في طليعة فأردى برصاصة وعاد جواده راكضاً نحو الجيوش الموالية ووصل نعيه الى أخيه عبد الله فتلقاه فرحا مستبشرا إذ بلغ النعى اليه فى الصيغة الآتية : « لك ان تفرح ياعبد الله فقد عاد جواد أخيك من غيره لانه صار فى جوار ربه » فحمد الامير الوهابى الاله سبحانه وتعالى واثنى عليه . واستفز ابراهيم باشا

جنده الى الهجوم بعد ان حشدهم تحت جنح الظلام والقى عليهم التعليمات وطالبهم باتباعها ولم يترك فى المعاقل والحصون وعند البطاريات إلا من يكفى منهم لحفظها والقيام عليها وأمر سلحداره وفرسان الأيشاغاسية بالكمون وراء جبل بالجهة اليمنى ليتمكن عند الحاجة من التقدم نحو مسيل الباتن والهجوم عليه وعهد الى أوزون على بمراقبة حركات العدو واعماله . وكانت القنابل والقذائف من كل الانواع تخترق الفضاء واتصل بالوهابيين من عيونهم خبر الهجوم فاستعدوا له من جميع نقطهم ومراكزهم إلا أن ابراهيم عمد الى جسر خال من مراكز للعدو فتمكن بواسطته من ايصال ٨٠٠ فارس الى داخل الحدائق بدون ان يشعر بهم أحد فلما استيقظ الوهابيون من سباتهم وادركوا انهم مفاجأون لا محالة تركوا حصنا لهم كان يحتوى ثلاثة مدافع فتمكن المصريون عندئذ من تضييق الخناق على (غسيبه) والاحاطة بالقلعة التى كان يقود الوهابيين فيها سعد بن عبد الله ابن سعود وكان مع هذا الأمير الشاب ١٥٠ مقاتلا ولديه مقدار وافر من المدافع والذخيرة وانما لم يكن عنده من المؤن الغذائية الا كفاية يومين فلم يسعه الا التسليم فى اليوم الثالث حيث سلم الموقع وأسر . وقتل الأيشاغاسية وجرحوا عددا عظيما من

الأعـداء منهم أقارب عبـدالله كمحمد بن المقرى صهره الذى أصيب بشظيه قنبلة. وكانت خسائر المحاصرين قليلة ولـكنه كان لايمضى يوم إلا ويموت فيه عدد عظيم منهم لامتناعهم عن تكبد العمليات الجراحية على أن ابراهيم كان قريبا من الدرعية فعين المواقع لنصب مدافعه التى زاد عددها بمقدار ماغنم من مـدافع العـدو وشرع يقذف منها المقذوفات على الدرعية ففتكت بالأهلين فى (سهل) و (غسيبة) وضربت منازل هذين الحيين وعلت أصوات البكاء من النساء والأطفال فاضطرا الى التسليم بشرط أن لايدخلهما الأمير المصرى إلا اذا احتل حي طريف ولم يكن فشل الوهابيين فى هـذه المعركة والمعارك السابقة أعماهم عن الهاوية الفاغرة فاها تحت أقدامهم، فان سعودا بن عبدالله والى (درامه) عالج الخروج منها واقتحام خط الحصار فتلقفته فصيلة الفرسان القائمة بحراسة الممرات والمضايق. وقد جىء به أمام ابراهيم باشا فوبخه على خيسه فى يمينه وإخـلاله بعهده الذى عاهده عليه من الاحجام عن محاربة المصريين ثم أمر باعدامه فرميت عنقه ولم يلحق أصحابه أقل اذى

ونظر عبدالله حوله فلم يجـد من رجاله وحرسه الخاص المؤلف من ٤٠٠ سودانى سوى نفر قليل. وكانت الطرفية قد

سلمت الى المصريين وأخذت مبانى طريف تسقط تحت تأثير المدافع فحض عبدالله قومه على المقاومة واستفز همتهم واستثار حميتهم فلفتوا نظره الى الحي وقد دك عن آخره ولم يبق فيه حجر على حجر وضرعوا أن يحتفظ ببقية الأسوار ليواروا تحتها الشهداء من أبنائهم وعلا الصياح واشتد الصخب فلم يسع الزعيم الوهابى الا ان يطرق برأسه الى الأرض حزنا وخجلا وأجابهم الى ماطلبوه من الرضا بحكم القضا فرفع راية التسليم والامتثال وطلب الكف عن القتال . وفى ٨ القعدة الموافق ٩ سبتمبر وصل رسول من طرف الوهابيين فلما دنا من المعسكر صدر الامر بايقاف الضرب فوقف الرسول أمام ابراهيم ملتمسا بالنيابة عن أميره إيقاف رحى القتال وتعيين موعد للقاء الامير ومفاوضته فأجابه الى التماسه . وبعد ساعات حضر عبدالله فى مائتين من حرسه وكان ابراهيم جالسا على صفة فى خيمته فتلقاه بمظاهر الرعاية والود وأراد عبدالله أن يلثم يده فأبى وسحبها منه تواضعا واحتراما ثم أجلسه الى جنبه ودار الحديث بينهما فسأله ابراهيم لم ظل مصرا على المقاومة بينا الاهلون كانوا مجمعين على عدم فائدتها ويوافقون على التسليم والرضا بما جاء به القضا . فأجاب عبدالله : لقد انتهت الحرب الآن وكان ماهو كائن بقضاء الله

وقدره . فقال ابراهيم : لايزال عندى الشيء الكثير من البارود والذخائر فاطلب ماشئت وهلم بنا نستأنف الصراع . فأجاب عبدالله : لاأريد شيئا من هذا وانما أسأل ان يحميك المولى ولست أنت الذى اذلنى وانما المذل والمعز هو الله .وخفت صوت الأمير وهو ينطق بهذه الكلمات وانهملت الدموع من عينيه . فعزاه ابراهيم بقوله إنه مامن بطل فى العالم إلا وبه نقص وضعف وان الكمال المطلق مستحيل على الانسان فهو غير معصوم من نوازل القضاء والقدر . فقال عبدالله : انى أسألك الصلح ياسيدى أفتمنحه ؟ فأجاب ابراهيم : نعم وانى لجاعلك الحكم فى شروطه وانما هناك أمر لاتصرف لى فيه ألا وهو بقاؤك فى الدرعية فان الأوامر الواردة الىّ من الوالى تقضى بتوجيهك الى مصر . فأطرق عبدالله هنيهة وطلب ارجاء إجابته النهائية فى هذا الموضوع الى الغد ثم انصرف بعد القهوة والتدخين ورد اليه ابنه سعد الذى كان اسيرا . وكان المصريون قد استولوا على الدرعية ولا تزال منافذها الخارجية خارج قبضتهم فخشى ابراهيم ان ينتحر عبدالله أو ان يلوذ بالفرار على احدى هجنه الخفيفة السريعة فأمر فرسانه بتشديد المراقبة عليه حتى لايلجأ الى أحد هذين الامرين وقد تولاه بسبب ذلك القلق فقضى ليله واقفا على قدميه

ولكن الزعيم الوهابي كان رجلا صادقا شريفا اذا وعد وفى فأنه حضر فى الميعاد المضروب فتلقاه ابراهيم بمثل ما تلقاه به أمس من البشاشة والايناس ثم سأله: بم جئت اليوم من النية. فأجاب: أسافر الى مصر اذا ضمنت لى النجاة. فقال ابراهيم: اذا كنت لا استطيع التصرف فى إرادة الوالى فانى لعاجز من باب أولى عنه فى ارادة السلطان، ولكنى اعتقد عن ثقة أنهما من كرم النفس وسعة الصدر بحيث يأبيان التنكيل بعدو سلم بنفسه اليهما. فقال عبد الله: انى واثق بكرمك يا ابراهيم فأوصيك باولادى واخوتى وابناء وطنى خيرا واطلب لهم السلامة جميعا قبلى. فتلقى عبد الله من ابراهيم منديل الامان الأبيض الذى يشير الى الصلح وعاد الى طريف كى يتجهز للسفر فلما أتم معداته أقام بالمعسكر المصرى اياما كان كثيرا ما يرمى الطواف به أثناءها الى مكان القيادة العامة فيقع نظر ابراهيم عليه فيدعوه الى تناول الطعام معه معاملا له معاملة الصديق. ومثل هذا فعل (البرنس دوغال) فى ستمبر سنة ١٣٥٦ حينما كان يواسى (جان دى فالوا) فى مدينة (پواتييه) اذ كان يقول له إنه اذا فاز عليه فما هي إلا رمية من غير رام وأخذ يحبذ خصمه المغلوب ويطرى صفاته ويسليه بقوله انه قد جاء بكل ماكان مستطاعا وفى طوق البشر فعله. وكان

كثيرا ما يبرز من خيمته فيدعو اسيره الى تناول الطعام على مائدة جمعت الالوان الكثيرة من شهي الطعام بل بالغ فى اكرامه الى حد أنه كان يقف خلف كرسى هذا الاسير ليقدم اليه بخضوع اصناف الاطعمة فكان اذا اعترض واحتج قال انه لا يرى فى نفسه الأهلية التى تبيح له الجلوس الى جانب شهم باسل مثله!

وفي ١٤ القعدة الموافق ١٥ ستمبر ودع عبد الله بن سعود أسرته الحزينة واصدقاءه ومن دافعوا عنه حتى اللحظة الأخيرة ثم ودع قصره المنيف بنظراته وابتعد بخطوات متثاقله يصحبه خازنداره وكاتب اسراره وبعض عبيد قاصدا بحموله الى خيمة ابراهيم فتسلم منه رسائل برسم أبيه محمد على ثم أوغل فى الصحراء يحف به ٤٠٠ جندى بقيادة رشوان آغا الذى أمر بمقاومة عبد الله اذا تحفز للفرار وظل سائرا فاخترق أسيرا تلك الارجاء التى كان يحكمها سيدا متصرفا وقضى فى هذا السفر الذى اجتاز فيه نجدا والحجاز والبحر الاحمر شهرين كاملين . وفى ١٨ محرم ١٢٣٤ الموافق ١٧ نوفمبر سنة ١٨١٨ وصل الى القاهرة فجىء به الى شبرا وقدم الى الوالى فقبل يده وشرب القهوة عنده فسأله محمد على عن رأيه فى الحوادث والحروب التى اصبحت اليوم فى حكم الماضى فاجاب عبد الله : ان تلك الحوادث كانت مقدرة فى الازل قبل

ان يعلم بها انسان . فسأله وما رأيك في ابراهيم باشا وبم تحس به نحوه وما قولك فى خلقه وطبعه؟ فأجاب : إن ابراهيم قد قام بالواجب عليه كما قمنا نحن بالواجب علينا وقد أراد الله ذلك وقضى به ولا راد لقضائه

وكان بين يدى عبدالله صندوق صغير فلما وقع نظر محمد على عليه سأله عنه فقال : إن فيه الجوهرة الوحيدة الباقية من الجواهر التى أخذها محمد بن سعود والدى من الضريح النبوى وكانت تحت يدى طول الطريق التى سلكناها من نجد الى هنا لاننى وعدت بردها وسأسلمها الى السلطان . ثم فتح الصندوق وهو مصنوع بالعاج وأخرج منه ثلاث مصاحف رصعت بالجواهر والاحجار الكريمة و ٣٠٠ لؤلؤة من اكبر اللآلىء وانقاها ماء وزمردة يتصل بها شريط من الذهب فقال محمد على: هذا حسن ولكننى أعرف أن أشياء كثيرة غير هذه سلبت من الضريح النبوى فأجاب: إن والدى أخذ منها حصته وهي ما أقدمه أما الباقى فبيع بعضه واقتسم بعضه اشراف مكة والأغوات ومشايخ العربان وعليهم هم ان يقولوا أين أخفوا هذه البقية أو على أى وجه تصرفوا بها. فقال محمد على: الحق يقال لقد وجدنا كثيرا من هذه النفائس عند الشريف غالب ثم ختم الاثنان على الصندوق وقال الوالى دع هذه الجواهر

معك يا عبد الله واحرص عليها كل الحرص ثم اذهب لتسلمهـا الى جلالة السلطان فعسى أن يشفع لك لديه أصلها الشريف

وبعد المحادثة ألبسه محمد على خلعة من السمور ثم أسكنه ببولاق بيت ابنه اسماعيل باشا ومنه أنزل فى قنجة أقلعت به الى دمياط حتى اذا كان يوم ٢٠ محرم الموافق ١٩ نوفمبر أخذ عبدالله سمته الى الآستانة ولم تتجاوز مدة اقامته بمصر ثلاثة أيام وكلف بعض التتر بحراسته ورافقه فى رحلته كل من خازنداره وكاتم سره وفى ١٦ ديسمبر وصل الى البسفور. وكان محمد على قد التمس من السلطان العفو عنه إلا ان رجال المابين كانوا لتعصبهم يرون وجوب معاملته بالصرامة فطافوا به وبزميليه شوارع الآستانة ثلاثة أيام ثم أعدموهم فى ميدان مسجد آيا صوفيا ووضعوا على صدورهم كتابة بالجريمة المنسوبة اليهم ومما جاء فى هذه الكتابة:

« هذا ماحكم به على الشيخ عبدالله بن سعود الذى أسره ابراهيم باشا بن سمو والى مصر الحالى وقد شاركه فى جنايته العربيان سرى وعبد العزيز بن سلمان ولذا وجب ان يقاسماه العقوبة وكان عبدالله بن سعود قد أظهر منذ زمن طويل منتهى الوقاحة والعصيان اذ كان يعذب ويحتقر الانصار في المدينة المنورة وهم سلالة أولئك الذين نصروا النبي صلى الله عليه وسلم بعد هجرته

من مكة كما عذب واحتقر المهاجرين سلالة الذين هاجروا معه عليه الصلاة والسلام وعـذب واحتقر المجاورين وهم أولئك الاتقياء والصلحاء الذين آثروا الاقامة فى مكة والمدينة للتبرك بجوارهم من الحرمين الشريفين . وكان يرى أن من أجل الفضائل قتل المؤمنين والموحدين وقد سد سبل الحج وقطعها على الحجاج بتغريره بمشائخ العربان وقد اقتدى بمسعود المضيان وحسن الخلاجى والمضايفى وطامى وغيرهم الذين أعدموا جميعاً بين هذه الجدران فسار سيرة مضادة للنواهى الشرعية الخـالدة بتحريض القبائل على العصيان وخيانته للاسلام والدولة » وظل المتفرجون يقرأون هذه الجملة على صـدور الجثث الثلاث بعد أن قطعت رؤوسها ثلاثة أيام متتابعة وشاع بين الناس في الآستانة يومئذ أن هذه الرؤوس أخذت وسحنت فى هاون الحـكومة وجعلت الجثث الثلاثة ملكا للشعب ولسنا نظن أن النسورة والبزاة وثبت عليها كما وثب أهـل الآستانة بفرح وسرور ينمان على طبيعة الوحشية المستقرة فى نفوسهم

يرى ممـا تقدم أن ابراهيم قد فتح البـاب بقوته الذاتية لمطامعه العظيمة فانه لما وصلت الى المدينة الامدادات التى أرسلها والى مصر كان لم يبق للاعمال الحربية مجال. فشعر خليل باشـا

قائدها بشيء من الخزى اذا هو عاد الى مصر كما جاء منها فرأى ان يهجم بجيشه المؤلف من ألفى راجل وفارس وعربان الشريف راجح على بلدة (ابو عريق) عاصمة (تهامـه) فاستولى عليها وبعث الى القاهرة الأمير احمد بن الشريف حمود وخلفه فى الحكم على هذه البلاد ولم يقم هـذا الامير فى مصر طويلا حتى أصيب بالجدرى وتوفى به فلما نال خليل باشا هذا الفوز ارسل بأمر من السلطان لتولى باشوية مكة وفيها لقي حتفه بعد اشهر قلائل

ولقد اخطأنا الصواب حينما تركنا القارئ يستشعر بأن سقوط الدرعية كان لا بد ان يتلوه سقوط بلاد نجد كلها فأن أقليم (الأريك) كان لا يزال حافظا استقلاله ولكنه ارغم على تضحيتـه تحت تأثير المدفعين اللذين فتح السلحدار بهما أبواب (الحلوه) بعد مقاومة قليلة باسم ابراهيم. ولم يكن ابراهيم باشا ممن يستنيمون الى ما أصابوه من الفوز فى الحرب فانه لم يقف عند حد الوقائع السالفة بل وسع نطاق اجراءاته الحربية فدخل الدرعية واسكن منازلها فريقا من عساكره وانزل الفريق الآخر بالميادين العامة وخصص القلعة التى أخذها من يد سعد بن عبد الله لأقامة المرضى والجرحى . أما هو فقد جعل معسكره العام فى طريف بالمكان الذى كان يسكنه زعيم الوهابيين

واختص نفسه بالأسطبلات الفسيحة ودار الصناعة الصغيرة التى كانت للأمير العربى وترك لعائلته كل ما كان يملكه غير ذلك . واذ صار المتسلط المطلق التصرف فى شئون الأمة النجدية فقد استفاد بما تخوله أياه حقوق الفتح أذ عاقب بالصرامة القصوى الشيخين احمد الحنبلى وصالح بن رشيد اللذين نيط بهما ابلاغ اقتراحات الصلح اليه أيام محاصرته للرس لانهما كانا من القحة والتبجح بحيث خاطباه بلهجة العنف . ولقد أسف فيما بعد لانه اطاع هواه فأصلح الضرر الذى أصاب أحد الرجلين من جراء الشدة التى عومل بها فاجرى عليه رزقاسنويا واختاره لتعليم مماليكه وانطلق بعد ذلك يفرض المغارم على الاغنياء والسراة من أهل الدرعية . وعطل بمحض ارادته الأعمال الزراعية التى استأنفها الاهلون لاعتباره اياها الوسيلة الوحيدة للخروج من ضيقهم الشديد وأمر بهدم قصور عبد الله والمساجد وتدمير ما بقي من الأسوار والقلاع بعد الحصار وأعطى الموالين له من العربان ٤٠٠ درع من الحديد وأسلحة كثيرة عثر عليها فى مغائر عبد الله ومخازنه وخشى أهالى الاقاليم النجدية أن يحل بهم ماحل بالدرعية من التنكيل والخراب فارسلوا الوفود الى ابراهيم فى التماس تقرير الصلح فكان أول ما اشترطه عليهم تقديم قدرعينه

من المؤن والأغذية لان الجيش كان ينقصه الكثير منها ولم يكن في الجهة التي يعسكر بها شيء مدخرا فضلا عن ان العربان المعادين قطعوا الطريق على قافلة مؤلفة من ١٠٠ جمل تحمل الأرز والتمر فلما لم يجد العساكر ما يقتاتون به تغذوا بنخاع الأشجار واشتد القحط حتى تعذر على الخيالة وجود العلف لخيلهم وأخذت الخيول تنفق تباعا من الجوع وآلت الحالة بالجنود الى أكل الحشائش التي كانوا يدوسونها بأقدامهم ولم يطرق الآذان بعد ذلك سوى نداء واحد وهو : الخبز . . . الخبز . . ومفهوم ان هذا الصياح اذا انبعث من صدر جندى امتلأ باليأس كان دليلا ناطقا على قرب وقوع الثورة والعصيان

رفض رؤساء الجند التصدى لتسكين المتمردين ولكنهم أحدقوا به للدفاع عنه ، غير أنه لم يكن بحاجة الى مثل هذه المظاهرة الولائية ليبقى ثابت الجأش امام الزوبعة فقد حدث أن ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ متمرد تجمهروا بالقرب من المعسكر العام. فلما أبصر بهم ابراهيم عز عليه أن يكظم غيظه فعول على أن يسير حالا في حراسه لتأديبهم ومقاومة تمردهم . وعبثا بذل أولئك الرؤساء سعيهم لديه ليحملوه على العدول عن نيته ولكنه مال الى ماتغريه نفسه من التهور والمجازفة فاستل سيفه وسار يتبعه بعض

الايشاغاسية حتى بلغ الى سطح واسع يتصل بمسجد قريب من مكان التجمهر . وفى الآن نفسه ظهرت فرقة من الفرسان بالجانب المقابل للمسجد عن طريق مسيل الباتن فلما فوجىء المتجمهرون بهذه المناورة وقع الاختلاف بينهم والتردد . وأمر ابراهيم الفرسان باطلاق نار البنادق عليهم فتفرقوا يلتمسون الفرار . ولكنهم فى هذه الاثناء ارتكبوا الكثير من الجرائم الفاضحة كالانقضاض على الحوانيت بالنهب وعلى النساء المارات فى الطرقات بسلبهم مصوغاتهن وجواهرهن وساد الاختلال ثلاث ساعات اعيد السكون عقبها بعد أن قتل ثلاثون نفسا وجرح خمسون. وعند غروب الشمس أعدم اثنان من رؤساء الجند وضرب غيرهم بالعصى أو كبلوا بالاغلال ليزجوا فى السجون .

وفى الأيام التالية وصلت قافلة بالمؤن والاغذيه وأرسل جيش من المشاة الى عنيزة وقصد ابراهيم الى العارض في طلب الأغذية والمؤن فعاد منها بالشىء الوافر واشتغل بتوفير وسائل النقل ليتقى بها وقوع المجاعة بين الجند مرة أخرى ثم أجلى مدفعيته عن الدرعية وتوجه في ألف من المشاة والفرسان الى درامة وعهد الى مهردراه محمد افندى بزمام الحكم على نجد قبل مبارحته لها فقام محمد افندى بالمهمة الموكولة اليه طبقا للخطة التى

رسمت لمعاقبة العاصمة الوهابية بأقصى مايخطر بالبال من الشدة والقسوة فان هذا الحاكم الذى تجرد قلبه من عواطف الرحمة والشفقة أمر بقطع النخيل والاشجار جميعا في دائرة يبعد محيطها عن الدرعية بأربعة كيلومترات وصرف الهمة الى تدمير الدور وما لم يستطع هدمه منها أضرم فيه النار فخرج السكان جميعاً على وجوههم للفرار من النار والتماس مأوى يأوون اليه والبعد عن منظر المزروعات تحصدها يد الفناء . وبعد أن قام محمد افندى بعمله الجائر تحرك بمن معه من الجند فأدرك ابراهيم باشا فى الشقراء حيث كان ينتظر للرحيل عنها عودة الجمال التى خرجت مع القوافل السابقة . ووصل الباشا بعد ذلك الى درامة وفيها كاد يذهب ضحية لمؤامرة سوداء بيانها أن أربعة من المماليك الذين شقوا عليه عصا الطاعة وتركوا المعسكر متشردين كان قد حكم عليهم بالاعدام كما حكم على غيرهم بالضرب بالعصى وكانوا يرون بعد أن أفنت الامراض والمعارك سوادهم الاعظم ان الاصلح لهم إخلاء سبيلهم ليتمتعوا بحريتهم فقرروا بينهم قتل الباشا ليلا وتجريده مما معه من المال والفرار بعد الى بغداد . وكان بين المتآمرين رجل اسمه على صار فيما بعد خازندارا له فذهب الى ابراهيم وأطلعه على سر المؤامرة والغاية منها فاستدعي ابراهيم فى

الحال يوسف زعيم العصابة ثم أمر من كانوا عنده بالانصراف فلما اختلى به أخذ يحدد فيه نظره. وعالج نفسه حتى اذا ضبطها وملك عنانها تظاهر له بالعطف وقال له بلهجة التؤدة والسكون: « إنى قائدكم وسيدكم جميعاً فأنت وأعضاء العصابة التى تمالئك على جريمتك لستم الا كفرة بنعمتى ولقد كان فى نيتى ان أرفع رتبتك وأعلى قدرك ولكنك تريد قتلى » فحاول يوسف تبرئة نفسه من هذه التهمة وبالغ فى انكارها فحنق الباشا من اصراره على الكذب والتكذيب ووضع يده على مقبض سلاحه فلم يكن من المملوك الا ان أخرج طبنجته وأطلقها على مولاه وانصرف محاولا الفرار وكانت الرصاصة قد مرت بين رقبة ابراهيم وكتفه اليمنى فهرول نحوه كيخيا الامير وبعض ضباطه وركض الحراس فى أثر القاتل الذى عثر فى طريقه اثناء فراره ببندقة فاخذها وكان مسلحا من قبل بسيف وخنجر وطبنجتين فلما أيقن بانه غير مفلت من ايدى مطارديه عول على بيع حياته باغلى ثمن فاستند الى شجرة وأخذ يدافع عن نفسه بغيظ وغل . ولقد أطلق عليه رصاص كثير ولم يصب برصاصة واحدة ولكن الاخيرة أصابته فى مقتل فصرعته . وكان وهو طريح على الارض بل وهو يسلم الروح لا يزال يضرب بسيفه يمنة ويسرة ، غير ان طلقة نارية

أخرى أجهزت عليه فقطعت رأسه وألقى بها بين قدمى ابراهيم وفى اليوم نفسه ضرب عنق أحد المتآمرين وعوقب خمسة غيرهم فيما بعد بالاعدام ومنذ هذا الوقت منع المماليك من الخدمة فى خيمة الباشا واستعيض عنهم ببعض العساكر النظاميين

كانت الرسائل الواردة من محمد على باشا الى ابراهيم باشا تأمره بمغادرة نجد والعودة الى الحرمين فلكى يحصل ابراهيم على الأغذية اللازمة له فى هذه الشقة الطويله طاف بالصحراء أياما فى الف من فرسانه وكان حزب كبير من عنيزة بزعامة ابن مكلف قد اعتصم بجبل شمر فى موقع منه عزيز المرام . فقاوم العنيزيون هجمة المصريين مقاومة عنيفة جدا وكان هؤلاء على وشك الانهزام لولا أن أثار الباشاحميتهم بمادعاهم اليه من الاقتداء به فى بسالته وثباته اذ أنه طوح بنفسه رغم كل صعوبة وسط العربان وزج به الى ملحمة عنيفة بمنعرجات الجبل واقتفى المصريون أثرهم ولكنهم كانوا مابرحوا يقاتلون أثناء انسحابهم تاركين من ورائهم الماشية والخيام. وعلى أثر ذلك بادر الأهلون بتقديم مطالب الجيش ورأى ابراهيم أنه أصبح فى مركز حرج لأنه اذا فشل كان فشله عنوان فتنة عامة فى جميع الأقاليم ينال ضررها العساكر المصريين لتفرقهم فى جهات متنائية . وقد أمعن الباشا نظره فى

ذلك المركز فارتأى أن خير الوسائل للخروج منه الثبات حتى النهاية فصمد لاعدائه وما دنا منهم أحد لقتاله حتى لقى حتفه وأصيب جواده بجرح بالغ فلم يفل هذا الحادث من عزمته وبلغ من أمره أنه كان فى غيبة الاطباء يسعف الجرحي من العساكر بالعلاج

ولطالما خرج لغزو العربان فكان يعود من كل غزوة بالغنائم الكثيرة ووردت عليه من والده نصوص الأوامر السلطانية القاضية بتدمير الدرعية وجعل عالى أسوارها وحصونها سافلها وإحراق بيوتها وإرسال أفراد أسرة عبد الله وأكابر الوهابيين وزعمائهم من سكان تلك المدينة الى القاهرة وأن يجتاز هو والجنود الظافرة البحر الاحمر عائدا الى الديار المصرية

فارسل ابراهيم فهداً وسعدا وحسنا وخالدا إخوة عبد الله وأربعمائة من الأعيان الى ينبع تحت حراسة الجنود . وكانت السفن تنتظر فى الثغر وصولهم لتنقلهم الى السويس . أما سعد ونصر ومحمد أبناء عبد الله وعمر وعبد الرحمن عماه فقد وجهوا مع قسم من المدفعية الى المدينة ليرسلوا منها الى القاهرة وقد وصلوا اليها فقرر لهم محمد على باشا المرتبات لمعاشهم بسخاء عظيم ليهون عليهم ذل السقوط من عرش الأمارة ويعوض عليهم بعض

ماخسروه من أموالهم . وكان سفر جنود ابراهيم محفوفا ببعض المصاعب لأن الهاربين من الجهات التى دمرت بسبب الحرب كانوا قد اتفقوا مع البدو على التلصص وإلحاق الأذى بالناس وكانت الجمال التى تحت تصرفهم قليلة العدد لم ويكن فى الوسع جمع ما يكفي منها بالنظر لتفرق الاهالى وتشتتهم فى الصحراء حفافى الخليج الفارس ، دع أن الوباء الناجم عن الحصر والمجاعة كان قد تفشى فى الناس وأصيب به جملة من البكباشية ولم يستثن من العدوى به القائد العام الذى ما كاد ينال الشفاء حتى جمع فى الدرعية شيوخ بريدة والشقراء والرس وعنيزة وأمرهم بتدمير الحصون والمعاقل والاسوار فى أقرب ما يمكن من الوقت منذرا المخالف منهم أو المتخلف بالاعدام . ثم وجه بفرقة من المشاة فى طريق العودة ومعها المدافع غير الصالحة للاستعمال وقد كسرت قطعا لسهولة الحمل والنقل واخترق ابراهيم الاقاليم فى اربعمائة هجان ليتأكد من تنفيذ الاوامر القاضية بتدمير الحصون والاسوار ثم استأنف سيره الى المدينة التى كانت الجنود قد سبقته اليها وهناك بادر بزيارة الضريح النبوى الشريف

وفى سبتمبر سنة ١٨١٩ وردت الاخبار الى ابراهيم باشا برغبة الكابتن (سادلييه) الضابط بالجيش البريطاني فى مفاوضته

وانه لتعذر دخوله المدينة بصفته مسيحيا قد وقف غربيها عند بئر على فقصد الباشا اليه فى هذه النقطة فعلم أن حكومة الهند الانكليزية ساءها تكرر العدوان من سكان سواحل (الحسا) على السفن الماخرة فى الخليج الفارسى وأنها ماعلمت باخبار حملة مصر العسكرية فى نجد حتى قررت ارسال اسطول حربى لغرضين حماية التجارة البحرية وتحويل همة الوهابيين تحويلا يلائم مصلحة الحملة المصرية . ثم قال ان فرقاطة واحدة وبضع سفن للنقل قد انزلت ثلاثة آلاف جندى هندى الى جون القطيف حيث أصابتهم الدوسنطاريا بسبب رداءة الماء وأن قائدهم علم عند ماوطأت قدماه جزيرة العرب ان دولة الوهابيين قد دالت وان الدرعية عاصمتهم قد أصبحت أثرا بعد عين فاعترته لذلك دهشة شديدة إلا انه ودّ ان يبلغ الى ابراهيم باشا ماكان مرسوما للدونئمة الانكليزيه أن تقوم به من الأعمال المعززة له . فشكر الامير له هذه النجدة التى لم يبق لها محل بعد فعرض عليه المستر سادليبه خططا أخرى مؤداها عودته الى نجد لاحتلال النقط التى انجلى عنها فأرسل الباشا الى والده ليوافيه بهذا الاقتراح ويسأله رأيه فيه وقدم الضابط الانكليزى الى ابراهيم هدايا جليلة فى مقابل ماقدمه الباشا اليه من المؤن

والمرطبات وأظهره نحوه من جميل الرعاية وجاء الرد من محمد على الى المستر سادلييه مباشرة برفض ذلك الاقتراح واهداء جوادين كريمين اليه فى الآن نفسه فاعتذر الضابط عن قبولهما لان حكومته لم تعطه ترخيصا خاصا بقبول مثل هذه الهدية ثم أبحر بسفينته الى (مخا) حيث كان ينتظره أمير الاسطول الانكليزى الذى لم يلبث أن أخذ سمته الى بومباى

وفي أوان الحج زار ابراهيم الضريح النبوى مودعا ثم سار الى مكة فطابق وصوله اليها وصول المحملين المصرى والشامى فأخذ ابراهيم مكانه بين الحجاج كواحد منهم اذ قام بفروض الحج ومناسكه وصعد فى جبل عرفات وضحى الثلاثة الآلاف رأس من الغنم وفاء بنذره اذا هو أوتى الظفر ووزع فى عودته من عرفات الى مكة المكرمة الصدقات الكثيرة واجتمع على أثر ذلك بجنوده الذين قرر سفرهم الى ثغر ينبع للعودة الى مصر بعد أن ترك الحاميات العسكرية في المدينة ومكة وجدة وقنفذة ووجه الى القصير المشاة والمدفعية والأمتعة والمهمات وتقدم الفرسان في الصحراء الممتدة بين القصير والنيل ومعهم مئتان من أكرم الجياد النجدية وأبحر ابراهيم من ينبع في إحدى السفن وبصحبته سلحداره تخفق فؤاده حينما تراءت له سواحل

مصر . وما كادت تطأها قدماه حتى بعث قاصداً الى والده ليبشره بعودته وفى ١١ صفر سنة ١٢٣٥ الموافق ٩ دسمبر ١٨١٩ وصل الى الجيزة حيث اجتمع بأسرته بعد أن قضى ثلاث سنوات فى قتال الوهابيين قتالا عاد منه بأكاليل المجد والفخار

وهنا مجال للقول بان القتال بين الأميرين المصرى والنجدى كان من أجل مظاهر الشجاعة والبطولة فانهما ساقا الى الميادين قوات كبيرة من الجند كان التفوق العددى فيها للنجديين ولكن ابراهيم كان متفوقا بالمزايا العسكرية فعوض بها ذلك النقص وكان عبدالله بن سعود اذا انبرى للقتال هماما مقداما وانما كان ينقصه صدق النظر والخبرة فى تدابيره الحربية والصلابة فى المفاوضات السياسية . وهذان العيبان اذا اجتمعا فى أمير بيده زمام أمور أمة ألحق بها الضرر الفادح وكان عبدالله بن سعود شغوفا بفرض المغارم الثقيلة والضرائب الفادحة على أمته شديد الحرص على المال لايكافيء به أحدا حتى العاملين لمصلحته فكان من هذا الوجه نقيض أبيه ولذا كثر المبغضون له لشحه وضنه فهم يعملون بمقتضى المثل العامى الشائع بمصر وهو «حبيب ماله حبيب ماله» ونذكر في هذا الصدد أنه لما ولى محمد على الحكم بمصر بدلا من خورشد باشا الذى اعتاد التسويف فى دفع المرتبات للجند قال له

على ماذكره الشيخ محمد بن عمر التونسي في كتاب رحلته الى دارفور : « لقد خلعت نفسك بيدك حينما جاوبت الجند بقولك لهم : لن أدفع لكم شيئا . فان الواجب على ولى الأمر ان يكون سخي اليد كثير البذل . ألا تدرى أن كلمة (لا) قد تقلب كيان كل شيء وتبدل حالا بحال غيرها ؟ »

ومما لا ينكر ان الجيش النجدى لم يكن تنقصه الصفات الكفيلة بالفوز فانه كان مطيعا بقدر ما كان باسلا وقنوعا بالقليل بقدر تحمسه فى العمل وعدم كلاله من مزاولته وانما كان ينقصه قائد قدير على السير به الى مواطن القتال ملمّ باساليب الحرب بعيد النظر فى مصائر الامور حاضر الذهن لا يرد الموارد ولا يصدر عنها إلا وهو عالم بما فيها من الفائدة للمصلحة العامة والظاهر ان الجرأة التى أظهرها المصريون منذ البداية قد بهتته فافقدته الرشد والصواب وضاعف حيرته ما رآه من الوسائل والمعدات التى بنوها على ذلك فانها أضعفت ثقته فى المستقبل وتركت لليأس مسربا الى فؤاده وكان الواجب عليه ان يتخذ مركزا له فى حدود بلاده لقتال العدو المغير وأن يؤثر الموت دفاعا عن هذه الحدود على أن يسمح بتجاوزها والايغال في الداخل علي غرة من الاهلين وكان له من طبيعة الارض

وما يتخللها من الحزون والاوعار والجبال الشاهقة والفيافى المترامية الاطراف الى أبعد مدى عونا ووزرا على النجاح . وكان فرضاً لازما عليه بعد أن فرطت منه هذه الغلطة ، أن يبذل همته لمنع وصول القوافل بالمدد المتوالى الى الجيش المغير وأن يقطع عليه خط الرجعة بشراذم من الخيالة يدربها تدريبا خاصاً على مهاجمة المؤخرات ومناوشتها . ولكنه لم يفعل شيئا من هذا كله بل ترك الفرص كلها تفلت من يديه فلم يستفد منها بشىء

ولقد كان فى مكنته أيضا ، وقد خسر هـذه الفرص ، ان يستدرك بعض مافاته فى معركة الرس أو أمام أسوار الدرعية . وهل ثمّ فرصة كانت أوفق لضرب المصريين الضربة القاضية من اليوم الذى فنيت فيه ذخائرهم عن آخرها بتلك الجذوة التى ألقتها الرياح السوافي عليها فاصبحوا ولا خرطوش معهم ولا بارود ولا وسيلة للخلاص من مأزقهم ؟ إن تلك الساعة لم تك فقط ساعة الخلاص بل ساعة القضاء عليهم ، ساعة الضربة الشديدة بجماع اليدين

لم يغتنم عبد الله فرصة ما من هـذه الفرص التى اتاحتها له المصادفات والظروف ففشل فشلا ساعد على وقوعه بل سببه أن التعليمات التى زود محمد على باشا بها ابنه كانت مبنية على الصواب

والحكمة وبعد النظر وان سعودا كان فى العهد الأخير من حكمه قد فقد كثيرا من الصفات الفاضلة التى يمتاز بها الأمراء القادرون على السير بين رعيتهم بالعدل فأنه أعار أذنيه للوشايات فهام فى بيداء الأهواء الجائرة وأطاع الشهوات المفضية الى التحاسد والتحاقد والانشقاق بين جموع المشايعين من أهل المذهب الوهابى بل بين أعضاء أسرته أنفسهم . وفضلا عن كل ما تقدم فأنه كان قليل الاطلاع على أساليب التصرف فى مصالح القبائل الخاضعة له وصيانتها فنفرت منه القبائل الشمالية الذين اشتهروا بالفروسية وكان باستطاعتهم مؤازرته بمعونتهم وتعضيدهم كما نفرت قبائل الجنوب وهم اكثر القبائل تعرضا للغارات الآتية من الخارج فضلا عما أوقعه بينهم من البغضاء والشحناء فاغتنم والى مصر فرصة الاختلاف المستحكم بين أعضاء الاسرة الوهابية المالكة والضغائن المفرقة لوحدة القبائل والجشع المتسلط على نفوسهم والدافع لهم في الغالب على حب الكسب من طريق السلب والنهب والعمل بالكراء ليدبر شؤون الحرب وفاقا لما رسمه من الخطط حتى يخلص له زمام الحكم والتصرف فى جزيرة العرب ومستقبلها وكانت نتيجة ذلك كله أن أذعن الوهابيون وهم الذين ضربت ببسالتهم الامثال لمقتضي التدابير المصرية المبنية

على الروية والنظر البعيد

وكان مما زاد الطين بلة ماوقر فى نفوس الوهابيين من اعتقاد العزة والمنعة فى أسوارهم فاستكانوا اليها واعتصموا بها ولم يهبوا من سباتهم العميق الا وقتما رأوا صواعق النار تكتسح الاسوار وتحيف النفوس وثبت ان ذلك الاعتقاد لم يكن إلا ضربا من ضروب الغرور .وكان المحصورون يسخرون بالمصريين لانهم « يضربون الأحجار » فكان المحاصرون يجاوبونهم على استهزائهم بقولهم : « المدينة المحصورة مدينة مأخوذة » ولكن هل جهل اولئك الناس ما اجتازه المغير قبل وصوله الى تلك الأسوار وأنه بعد ان عبر البحر اجتاز اقيانوسات عديدة من الرمال لا نهاية لآفاقها وصخورا جرداء وجبالا شاهقة وأنه كان اذا سرح الطرف حوله لا يرى الا العراء والقحولة والسكون الشامل فلا شجر ولا نبت ولا حشيشة خضراء ترتاح لرؤيتها العين وانما كانت الشمس المحرقة يضاعف سعيرها ما يتشعع من الحرارة الكامنة فى السهول الفسيحة التى لا غطاء لها من شجر أو سحاب والرياح التى يشعر من تهب على وجهه انها منبعثة من تنور تتسعر ناره . فمخترق تلك الصحراء كراكب سفينة تخترق نار الجحيم لا رجاء له في الراحة ولا وفى الرسو على ساحل الهناء

تنبعث نظرات الناظر في تلك الصحراء الجرداء فلا يعوقها قط عائق عن النفوذ الى منتهى الأفق ولا ترى أمامها ومن خلفها وحواليها إلاّ سماء ملتهبة وارضا محرقة وصخورا كالفحم المتقد. وليس فى مثل هذا المكان يحسن الانتظار ريثما تهطل السماء امطارهـا الدورية التي يعقبها فى الهند الخصب العظيم والخيرات الوفيرة فأن اقليم جزيرة العرب لا يستطيع الحياة فيه سوى صنفين من الكائنات: الصقر والبدوى. على ان هـذا الجارح لا يزج بنفسه الى اطراف تلك الأصقاع إلا اذا دعاه داع من دم بشرى سفكه هـذا البدوى. تلك هى الصورة الحقيقية لتلك الأصقاع المحزنة على ماحفظته ذاكرة الذين رأوهـا رأى العين بل هى تلك البلاد التى سماها الأقدمون بتسامحهم الأعمى «بلاد العرب السعيدة». وقبل الاقطار التى سرنا فيها بالقارئ خطوة واحدة يوجد خليط من الأهالى هم من كثرة العـدد بحيث لا يجوز لنا أنكار وجودهم، نريد بهم الجراد الذى عد فى الازمان السابقة من الضربات العشر التى ضرب بها آل فرعون. نعم إن صعيد مصر يتردد عليه من هذه الكائنات كل سنة مالايقع تحت حصر ولا عد، وهى تقصد منه الى سنار والنوبة وإنما يجوز لنا القول بأن البلاد النجدية هي، ولا فخر، موطن تلك الحشرة

الضارة التى من أقل اضرارها فى تنقلاتها الكثيرة بهذه البلاد إتيانها على كل خضراء وغضراء فيها ولا سيما اوراق النخل

وفى سنة ١٨١٣ كان المصريون قد انفذوا طليعة من جيشهم الى الطريق الذى سيسلكه وكلفوها بحفر الآبار واستنباط المياه الكافية منها لحاجات العساكر . فلما شهد الوهابيون ذلك ارسلوا فى أثرها بعض خيالتهم لمنعها من القيام بالمهمة الموكولة اليها . وكان متعذرا على الجيش اسعاف تلك الطليعة وكف الأذى عنها ، فلما لم ينجح سعود فى سعيه سد بالأحجار جميع الآبار الموجودة بين الدرعية ومكة والمدينة وهى آبار يقال أن الذين حفروها جيل قديم من الجبابرة إلا الحديث العهد منها فقد حفره الوهابيون بما لهم من الشهرة بالعيافة اى تحديد اعماق المياه بباطن الارض بمجرد النظر الى سطحها والبحث فى النباتات النابتة فيها. نخطة العدو هذه لم تكن فى شىء من حسن الذوق ولا المصلحة . إلا ان العامة الجاهلة اسندت الى ابراهيم باشا سد تلك الآبار النافعة وقالت إنه لم يكن له من قصد سوى الانتقام بدليل تجاوزه مقتضيات الحرب في القسوة والصرامة حتى جعل الصحراء على اتساعها آهلة بجثث القتلى فكأنه لم يجد وسيلة لقمع الفتنة أنجع من اغراقها فى دماء الأبرياء. ولم يبق لدى ابراهيم الا اليسير من

الجند مع ترامي اطراف البلاد التى يروم اخضاعها لشوكته فلو أنه ترك فى كل نقطة فتحها حاميـة من جيشه الضئيل لا نتهي الأمر به الى أن لا يبقي معه سوى شرذمة تعـد رجالها على الاصابع . وهذا ما حدا به الى تدمير الحصون والمواقع المنيعة حتى لا يضطر الى ترك حامية كبيرة فيها وحتى لا تسد من خلفه سبل الرجعة فتفسد الخطط التى وضعها لتكفل له النجاح فى القتال . فالاطوار التى تقلب فيها وهي محفوفة بالمصاعب والشدائد لم يكن ليخرج منها سليما لو أنه اظهر شيئاً من لين العريكة والتردد فى العزيمة . ولا جرم فان المراكز الحرجـة يقتضى الخروج منها الارادة القوية والعزم الماضى والرأى السديد ويدا من حديد تستطيع فى مثل البلاد النجدية صد تيار القبائل المتعصبة وصيانة النظام فى جيش تحتك فيه العناصر المختلفة المتضادة

ولننظر الآن فى شيء من احوال الخصم فنقول إن عبد الوهاب واضع أساس المذهب الوهابى جعل شارة مذهبـه « الفوز أو الموت » فجمع تحت هذا العنوان القصير الوسائل التى تبيح له التعدى بالقتل على كل مخلوق لا يرتضي الوهابية مذهبا له . وكان عبدالوهاب يرى ان القرآن أمر بقتال الكفار حتي يؤمنوا أو يدفعوا الجزية وكان فى بعض القبائل لا يستطيع تحديد

شروط الزواج أمام فقير ولا مطالبة فتاة بقبول الزواج مالم يلوث رمحه بدم المعركة (١) وكان يقول : « ان الله قلدنا السيف لتأييد وحدانيته ضد الكفار واننا وقد اعتقدنا بالله القادر على كل شيء وبسر التكبيرة القدسية ـ الله اكبر ! الله اكبر ! ـ التي تلقى الفزع فى قلوب اعدائنا يوم القتال فأننا نتقدم الى الامام فيقع العالم تحت سطوتنا » . كان يقول ذلك مفتخرا ، ولكنك اذا ذكرته باستحالة المقاومة عليه قال : « مهما تكن قوتك فان الله وحده هو المولى القدير وفيه ينحصر كل رجائنا . إنا اذا دافعنا فأنما ندافع عن عقيدتنا وهى دين الله الواحد الاحد فالأحسن لنا ان نموت فى سبيل هذا الدين من أن نعيش خارج سياجه »

وكان اذا جندل الوهابى بطعنة ثم أشرف على الموت ووقع نظره أثناء ذلك على الظافر الذى أورده هذا المورد قطب وجهه ثم أسلم الروح الى بارئها . واذا أتيح له ان يتكلم فما هو الا ليلعن او ليستنزل غضب الله ومقته . وقد سئل أحد شيوخ الوهابيين لم لاتميزون اذا استوليتم على بلد بين أهليه من مسلمين ومسيحيين ويهود بل تقتلون الجميع على حد سواء فقال : « انك اذا أردت ان تطحن حنطة رأيت فيها بعض حبات من الحمص والفول أفلا

(١) اى افتض بكارتها

تلقي الـكل فى الطاحون حتى لا تكلف نفسك عناء تنقية الحنطة مما اختلط بها من الحبوب الغريبة ؟ » ويؤيد هذا القول الذى ينم على فطرة وحشية وقلة اكتراث بالحياة الانسانية انه لم تذكر حالة واحدة أثناء السنوات الأربع التى انقضت فى الحرب بين نجد ومصر تدل على أن نجديا أشفق بعدوه . أفبعد هذا يستغرب ان يجعل قطع الرقاب والأحراق بالنار عقوبة لمن عمدوا الى النار والحديد في التنكيل بغيرهم ؟ إن من عادة الحروب التى يؤجج نارها التشيع للمذاهب ان يطول أمد ضرامها فلا تخمد إلا بعد زمن ، وان يسمى المهجوم عليهم منهم بالمظلومين المغبونين المعذبين وأن يسمى القتلى فيها بالشهداء . وهى أسماء مبرقشة بألوان خداعة فتانة لمن تحدثهم نفسهم بالمشايعة . ولقد حاول أشياع المذهب الوهابى النهوض من عثرتهم فهبوا للعمل فى سنى ١٨٢٤ و ١٨٢٥ و ١٨٢٧ و ١٨٢٨ و ١٨٤٢ ولـكنهم لم يرفعوا رؤوسهم فى سنة من هـذه السنين إلا وخيل لهم أنهم يسمعون اصطفاق أجنحة ونقر مناقير . فأرسلوا نظرهم فاذا بالطيور الجارحة تبتز من الهياكل التى جففتها الشمس والعظام التى ابيضت بطول الزمان مابقى فيها من غذاء واذا بأشباح اخوانهم الذين قتلوا خلال الحرب الماضية تتحرك أمامهم واذا بهم يشعرون بالأرض وقد

زلزل من تحت أقدامهم زلزالها فلا يلبثون أن يفيئوا الى ما كانوا عليه من الاستكانة والسكون

ولنعد الآن الى الكلام على نتائج سنة ١٨١٩ فنقول إن ابراهيم باشا بكبحه جماح الوهابيين وثله عرشهم قد أعاد مياه العلاقات التجارية الى سابق مجراها وخلص الدولتين العثمانية والفارسية من القلق الذى استحوذ عليهما ووقى الاسلام خطر السقوط فى هوة الخلل والفساد . فلا جرم اذا أعجب بفتوحاته شعوب آسيا وأوروبا واتجهت اليه انظار العالم السياسى وتأيدت شوكة العرش المصرى فى الخارج كما تأيدت فى الداخل . ولقد أنعمت الدولة العلية على محمد على وابراهيم ابنه بأسمى مراتب الباشوية فى المملكة العثمانية ، وضربت بعبقرية الأول فى سياسة شؤون الدولة وسن القوانين لها الامثال بين الشعوب كما سارت الركبان بذكرى نبوغ الثانى فى الفنون العسكرية والبسالة الذاتية فى القتال، حتى نجم عن ذلك ان العرب شبهوا ابراهيم باشا بابطالهم العظام وأوردوا سيرته فى القصص والروايات ورفعوه فوق بطلهم الحديث الذى لايكفون عن الترنم بذكره ألا وهو (جدوة بن غيان الشمسى) الذى يفتخرون بأنه ماتراجع قط امام عدو وأنه شق فى يوم واحد صدور ثلاثين من أعدائه

ولو لم يكن عنترة عبد رق لشبهوا الفاتح ابراهيم باشا بهذا البطل الشهير فى التاريخ

كانت قد مضت أشهر طويلة ولم يصل الى محمد على نبأ من ابنه عن نتائج حروبه فى نجد . وأصيب في أكتوبر سنة ١٨١٨ برمد صديدى اشتد بسببه قلقه وكربه فأوعز الى المشايخ بالصلاة والدعاء لله أن يكلل بالفوز مساعي ابنه وبتلاوة البخارى كل يوم فى مسجد الأزهر فما هى إلا أيام حتى تبدل كربه بالفرج وحزنه بالفرح الشديد فقد أبلغه عثمان آغا والى ينبع ومحمد افندى كاتم اسرار ابراهيم خبر الاستيلاء على الدرعية فأطلقت المدافع فى يوم ١٨ أكتوبر إيذانا بهذه البشرى وأقيمت الافراح والزينات سبعة أيام ذهب محمد على بعدها إلى الاسكندرية فاستقبل فيها بأفخم مظاهر الاحتفال وتنافس الافرنج فى إقامة معالم الزينات على مثال لم يسبق له فى البلاد نظير اجلالا واعظاما لقدر الأب وتقديرا وإعجابا باعمال الابن . ولما كان من فطرة القلوب اذا نالت مبتغاها ان تكون الى الرحمة أميل منها الى الشدة فقد قابل التهنئة التى بعث بها السيد عمر مكرم المنفي فى طنطا بالاذن له باداء فريضة الحج واستدعاه لهذا الغرض من منفاه . واكرم مثوى محمد بك ابو نبوت والى يافا المعزول بامر المابين وبالغ فى

اكرامه الى حد أن رتب له من ماله الخاص ستة وثلاثين كيسا شهريا أى ٤٥٠٠ فرنك ثم صالحه على الصدر الاعظم وحصل له على الاذن بالعودة الى وطنه وإسناد احدى الوظائف فى حكومة الدولة اليه

وفى أثناء إقامة محمد على بالاسكندرية وافته بشرى انشرح لها صدره. فقد جاءه زائر بلباس من القماش ورداء أبيض وقفطان من الجوخ وعباءة وحذاء من الجلد وشال مسقطى تعمم به وتساقطت عذباته على صدره وجعل فوق العمة منديل قطن معلم بخطوط حمراء وخضراء هبطت أهدابه على كتفيه. فلما وقع نظر الوالى على هذا اللباس الغريب سره حسن منظره وتوافر الشبه بين لباسه ولباس الوهابيين . ولكن من ذا الذى كان يلبس هذا اللباس؟ هو ملازم ركاب إبراهيم باشا المسيو فسيير الفرنسى الاصل ، جاء يبشرى وصول الأسرى الذين أخذوا فى المعارك المختلفة وكان يحمل رسائل برسم محمد على باشا من قائده ابراهيم وكان هذا قد أوصاه بان يمثل بين يدى والده بثياب الوهابيين لينوب عنه فى إخباره بما أحرزه الجيش المصرى من الفخر والمجد وأراد محمد على أن يشكر لابن جلدتنا الخدم الجليلة التى قام بها فأهداه من القمح والارز والقطن ما يعدل ثمنه خمسين الف ريال وأهداه غير ذلك ثوبين جميلين من الثياب العثمانية وشالين

كشميريين ليتخذ من أحدهما عمامته ومن الآخر حزامه

وعاد محمد على الى القاهرة فى ٢٥ مارس ١٨١٩ مصحوبا بقابجي الباب العالي الذى كان قد وصل من الآستانة ليقدم اليه من طرف جلالة السلطان تذكارا نفيسا لانتصاراته الجليلة فى بلاد العرب وهو ساعة وخنجران وريشتان من الماس وسموران من انفس انواع السمور واحد منهما برسمه والآخر برسم ابراهيم. وكان على يد هذا القابجى مرسوم سلطانى بترقية عباس بك حفيد محمد على واحمد آغا بن طاهر باشا الى رتبة الباشوية ذات الذنبين. كل هذا مع التصريح له بالانعام برتبة القابجية على من يريد فأنعم بها فى الحال على حسن آغا الازرنجلى وشريف بك ناظر المالية وخليل آغا وعلى بك

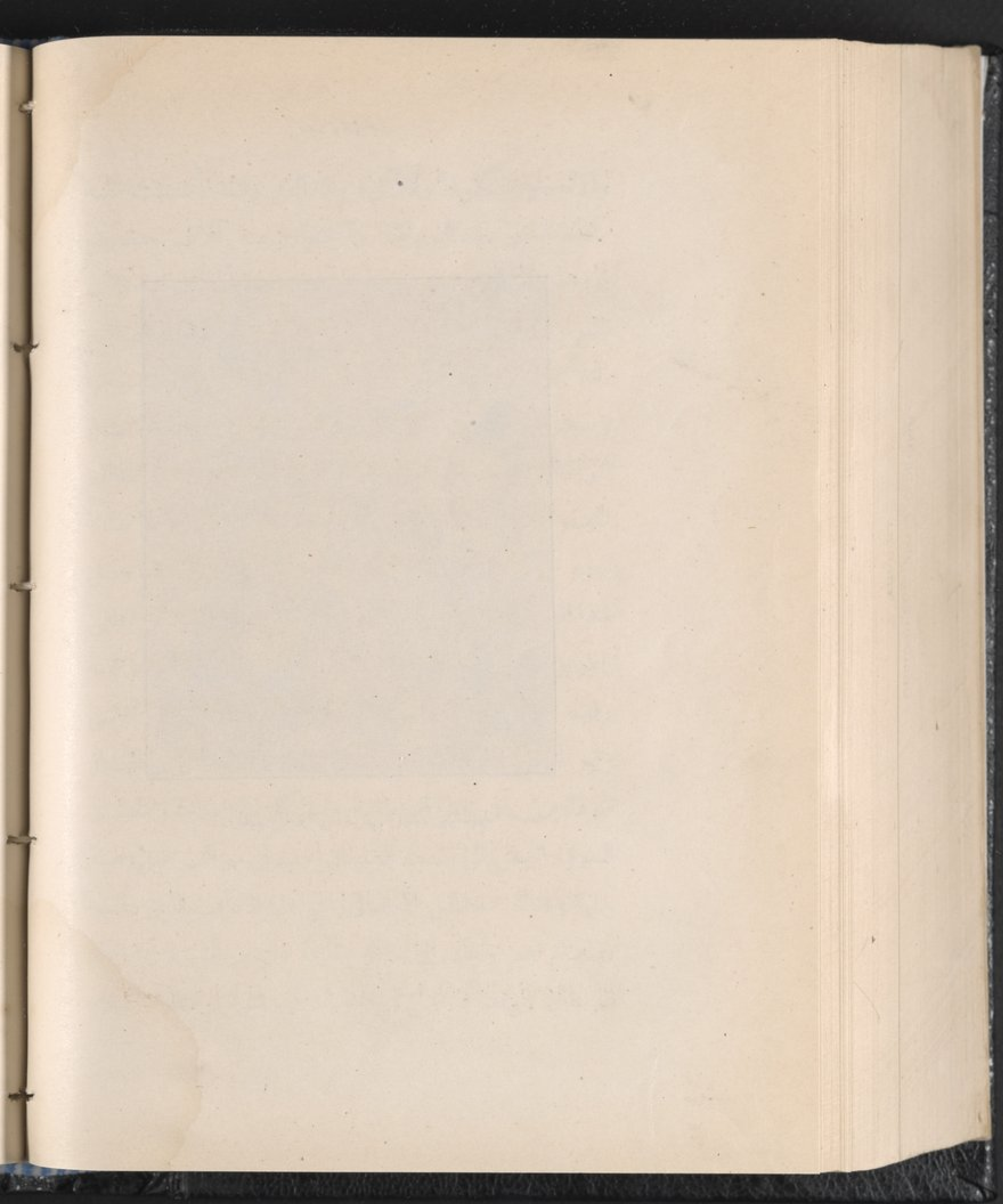
وفى ٢٥ صفر ١٢٣٣ الموافق ١١ دسمبر ١٨١٩ وصل ابراهيم من بلاد العرب فاستقبله فى قصر شبرا كبار رجال الحاشية وعظماء قواد الجيوش بجنودهم والآغوات والاعيان فتقدم يحف به ذوات مصر وتتقدمه الأذناب الثلاثة المرموز بها لرتبته واثنى عشر جوادا مطهمة ومغطاة بأغطية مزركشة بأسلاك الذهب وكان دخوله القاهرة من باب الفتوح فظل سائرا حتى صعد الى القلعة الصلاحية وكانت الحوانيت والشرفات والطنف والنوافذ مزينة

باجمل الزينات والأهلون يسيرون أفواجا فى الطريق فكان كلما تراءى لفوج اختلط تصفيقهم وهتافهم له بدوى البنادق والمدافع وبالجملة فقدشهد سكان العاصمةالمصرية جميعا هذا الاحتفال الجليل إلا رجلا واحداً التمسته الانظار فى مظان وجوده بين الجموع الكثيفة بل التمسته القلوب فلم تجده ، ذلك هو محمد على باشا . حقا ان والى مصر عرف بالهمة والعزيمة ولكنه لم يأنس من نفسه القدرة على الاحتفاظ برصانته أمام هذا المنظر السار فأراد بتغيبه ان لايؤثره أحد على ابنه بشىء من الهتاف ومظاهر الحفاوة التى كان ابراهيم جديرا بها فلهذا اكتفى بأن يتخذ له فى مسجد السلطان الغورى مقعدا بسيطا شهد فيه الاحتفال الباهر كما شهده غيره من مطلق الناس فلما أوشك ان يمر امامه بسط يديه لله شاكرا حامدا مثنيا ثم وضعهما على صدره حتى لاينفجر من طفرات قلبه الطافح بالسرور . ثم نظر الناس حولهم لدى مرور ابراهيم أمامه فلم تقع انظارهم على والى مصر وانما وقعت على الوالد الذى غمره هذا المنظر في بحر خضم من السعادة والسرور فساقطت دموع الفرح من عينيه . وفى اليوم التالى تواردت الوفود على ابراهيم يهنئونه بالظفر ويقدمون اليه الهدايا الجليلة من الكشامير والاشياء المشغولة بالذهب والفضة

والاحجار الكريمة واللآلىء والنفائس وقد أحصيت قيمة ماقدم اليه فى ذلك اليوم فاذا بها تتجاوز ستة آلاف كيس اى ٧٥٠٠٠٠ فرنك واستمرت الأعياد سبعة أيام بلياليها كانت الشوارع والميادين العامة فيها مزينة بالأنوار الزاهية والمصابيح المتلألئة وأخذ الناس يطوفون شوارع القاهرة ويزورون أسواقها ويذهبون الى بولاق حيث كانت الزوارق أمامها مزينة بالاغصان المورقة والازهار المونقة وتتهادى على النيل بين طلقات المدافع المصفوفة على الضفتين وبلغت أنباء هذا الاحتفال الى الآستانة العلية على يد مبعوث خاص أرسلته الحكومة المصرية فلما وصل هذا المبعوث سار بين جماعات من الاهلين قد اصطفوا على عطفى الطريق وقد ألبسه القائمقام خلعة من أعلى الخلع وأغلاها قيمة وقصد السلطان ووزراؤه وقبطان باشا وقابجى باشا وكزلار آغاسى وقبو آغاسى وجميع العلماء والقواد وضباط العساكر وكبار الموظفين فى المعية السلطانية والحكومة العثمانية والخصيان السود والبيض الى مسجد السلطان ايوب فى موكب جميل وهيئة جليلة وهناك حمد المفتى الله تعالى واثنى عليه اذ عاقب الذين دنسوا مقام ابراهيم وأعاد الى سلطة الخليفة الحرمين الشريفين. وعاد السلطان الى قصره فجلس فى قاعة العرش فتوارد العظماء للسلام



ابراهيم باشا يواسي الجرحى ويضمد جراحهم



عليه وتهنئته وظلت الحفلات مقامة في الآستانة سبعة أيام كانت مدافع السراي الشاهانيه والدونتمة والمدينة تطلق فى خلالها صباحا وظهرا ومساء . وكان السلطان ورعاياه يخرجون صباح كل يوم ليركبوا القنجات أو الخيل للنزهة . وبينما كان اسم ابراهيم تردد صداه أركان المملكة العثمانية ويعجب العثمانيون بشجاعته ويحمدون عمله ابتلاه الله بمحنة من محنه حتى لا تنبعث نفسه بالكبرياء والصلف وليعلمه الله أن الرؤوس مهما ارتفعت عزة ومجدا فلا بد لها من الانخفاض يوما وان الناس مهما علت مراتبهم فانهم غير معصومين من فتكات الموت

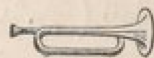
كان ابراهيم قد اشترى من المدينة جاريه فارسية فرزقت منه بغلام ، فبعد أن سقطت الدرعية بأربعين يوما وصلت اليه الوالدة والولد فى تختروان محمول على جمل يحف به ٤٠٠ فارس ليكافئاه على أعماله الجليلة بقبلاتهما . وكانت عربة الباشا قد أخذت الطريق نفسه يجرها أربعة بغال للعودة فلما التقى بابنه وزوجته أخذهما فى مركبته فأراد الله عند ما وصلوا الى المدينة ان تموت الزوجة على أثر وضعها غلاما آخر توفى بوفاتها . فعهد الى كيخياه العناية بعثمان بك ابنه الاكبر اثناء السفر الى السويس . واتفق عقب الوصول الى هذا الثغر أن الأمير الصغير كان نائما فى حجر جاريته

السودانية اذ أصيب فى ركبته بضربة شديدة خطأ من يد امرأة بيضاء كانت تقصد باعتدائها الجارية السوداء فتوفى على الأثر فجاء هذا المصاب بعد مصابه الاول بفقد زوجته وابنه الاصغر ضغثا على إبالة وناله من جرائه حزن شديد بينما كان هو يملأ قلب والده بعودته سرورا وفرحا

على انه مامن والد او والدة او زوجة إلا وقد ناله مكروه كما نال ابراهيم بفقد عزيز عليه فبكى الوالد والوالدة ولدهما والزوجة زوجها وصاحت ، والوجد على فقيدها يضنى فؤادها ، ياسبعي ! ياجملى ! يامصيبتى الخ صيحات العويل والانتحاب. ذلك لأنه مامن أحد أصيب بفقد عزيز عليه إلا وقد ضاع منه الأمل فى رؤيته لاسيما اذا أثار المعزون ثائرة الوجد فى نفسه بتعزيتهم إياه بمثل قولهم : عوضك الله خيرا . أما الذين لم تدفن جثثهم في رمال صحراء نجد فقد قرت بعودتهم أعين وابتهجت أفئدة. نعم انهم عالجوا من المصاعب واقتحموا من الأهوال الشيء الكثير، ولكن فى عودتهم مكللين بأكاليل الظفر مايخفف عنهم عبء ماتكبدوا

طابقت عودتهم الى مصر شهر صفر من السنة وهو الشهر الذى يعود فيه من مكة المحمل الشريف . ولا يذهبن الاعتقاد بك الى أن الحجاج العائدين استأثروا وحدهم بتوقير الجمهور ونظره

لهم بعين الاجلال التى ينظر بها من يقومون بمناسك الحج
وفروضه ، فثمة أولئك الابطال الذين مابلغوا أربهم من كبح
جماح الوهابى وقمع شيعته وتعطيل مذهبه إلا بعد معاناة الشدائد
من حرمان مهلك وسير فى القفار وأوعار الجبال على مسافة لاتقل
عن ١٥٠ مريامترا . تراهم بعد عودتهم يطوفون الشوارع والاسواق
فى سكون ووجوم وربما نام البعض منهم وهم جلوس على القهوات
فاذا شهدت عجوزا درديبسا قدعمدت الى الاحتكاك بأحدهم
فما ذلك إلا للتبرك به أو للشفاء من مرض أصابها اعتقادا منها بان
الذى يستنقذ الحرمين الشريفين لجدير به ان يكون من الاولياء
والصالحين . هذا الاعتقاد هو بلا شك باطل وخرافة ولكن
ألم نر عساكرنا الابطال وقد عادوا من افريقية الفرنسية الى وطنهم
والعرق يتصبب من جباههم والصدور مجللة بالجراح الدامية
والشوار ممزقا بالرصاص والاعلام كالخرق البالية موضعا للتبجيل
والتعظيم والتوقير والتكريم ؟



الباب التاسع

افريقيـة العليا

من سنة ١٨١٩ الى سنة ١٨٢٣

فتن الحظ المؤاتى والتوفيق المستمر فاتح جزيرة العرب وأغراه النجاح بالمطامع فطمح الى المزيد من النفوذ والشوكة بصرف همته لتنفيذ مشروعات جديدة . وكأن حصد الثمار من فتوحاته السابقة لم يضعضع همته ولم يفلّ عزمته فعمد الى توسيع المجال للاستثمار إذ عهد الى حسن بك الشماشرجي مدير اقليم البحيرة برياسة بعثة علمية عسكرية لفتح واحة سيوه والبحث فيها عن هيكل شيد فى الأزمان القديمة إجلالا لأله الآلهة

ألفت البعثة من ألفي رجل وبضعة مدافع وثلاثة أوروبيين وهم : الموسيو (دروفيتى) قنصل فرنسا الجنرال و (لينان) الطالب بالبحرية الفرنسية و (ريتشى) الطبيب والرسام الفلورنسى. وقد كان هؤلاء الثلاثة خير معوان على تحقيق الغرض المضاعف من تلك البعثة اذ رسموا المناظر الغريبة في تلك الجهة ووضعوا لها

الرسوم الهندسية وسافرت البعثة من الطرانة بالبحيرة فوصلت الى الزيتون بعد مسيرة ١٤ يوما وقد تخلف أولئك الأروبيون بها زمنا لمشاهدة الآثار القديمة وسار حسن بك الشماشرجى بالشطر الاكبر من جنده حتى وصل الى سيوه . وكان قد اتصل بأهلها خبر البعثة فأغرقوا ماحولها بالمياه واضطروا قافلة مؤلفة من مائة بدوى كانت آتية من ضاحية بنى غازى لأعمال تجارية الى الوقوف فى صفوفهم للذود عن الواحة وتحصنوا بالاستحكامات وأسوار الحدائق وأشجار النخل فحاربوا ببسالة وعنف مدة ثلاث ساعات لم يكفوا فيها عن اطلاق النار من ستة آلاف بندقية فلما شهد المصريون ذلك عمدوا الى المدافع فأطلقوها على المدافعين فقتلت قذيفة من قذائفها امرأة وأولادها فذعروا جميعا ووقفوا القتال بعد أن بلغت خسائرهم اربعين رجلا مقابل خمسة عشر من المصريين وفرض حسن بك الشماشرجى على أهل البلدة غرامة عشرة آلاف ريال وفاوضهم فى ان يقدموا اليه ألفى حمل من البلح سنويا ولكن الموسيو دروفيتى رأى الفرضة فادحة لا يتحملها أولئك الفقراء فتوسط فى تخفيضها فخفضت رعاية لخاطره . وأراد الافرنج المرافقون للبعثة دخول البلدة فاعترض أهلها قائلين انهم لا يحبون إطلاع الاجانب على ينابيع مياههم ومسالك طرقاتهم

خيفة ان يفضى ذلك الى ضياع استقلالهم الذى تحميه الصحارى الرملية فتهددهم حسن بك بهجوم ثان بالمدافع اذا أصروا على المعارضة فلم يسعهم الا الأذعان وتمكن الثلاثة الأوربيون بذلك من مباشرة ابحاثهم وتفقدوا البحيرة ذات الاسرار العجيبة الموجودة بجزيرة (العراشية) وكانوا يرجون ان يهتدوا فيها الى هيكل (زفس أمون) أى المشترى فاتضح لهم ان هذا الهيكل القديم هو هيكل (أم بيضه) الواقع فى بلدة سيوه

وفى أول يونيو عاد محمد على باشا من الاسكندرية الى القاهرة حيث أقام بضعة أسابيع ذهب بعدها الى الاسكندرية وكان شاه فارس أرسل اليه فيها هدية من الطيور النادرة والكشامير الدقيقة السلك والخيول العربية الكريمة فعهد بزمام الحكومة أثناء غيابه الى ابراهيم باشا كما عهد اليه به سابقا فأقام الزينات والافراح ثمانيـة أيام متوالية للاحتفال بختان عباس ابن أخيه . وحدث في هذا الاجتفال أنه جاء باربعمائة طفل من الفقراء فأعطى كلا منهم سريرا وبذلة وخمسة وعشرين قرشـا وصفهم صفوفا حول الامير الصغير فى موكبه ثم ختن لهم معه وكان ختان عباس فى قصر ابراهيم بحضرة القاضي والمشائخ وكبار رجال الحاشية

ولسائل أن يسأل: لمَ لمْ يقم طوسن باشا والد المحتفل به بهذا الاحتفال ؟ الجواب ان طوسن باشا كان قد توفى منذ ثلاث سنوات بمرض عصبي. وكان قبل وفاته قائد الجيوش المعسكرة على فرع رشيد وكان مقر القيادة العامة بلدة (برمبال) ورأى أن يلتمس هناك الراحة من المشاق التى تكبدها فى الحجاز فجمع اليه الموسيقيين والراقصات والمغنيات من أجمل الجوارى ففي ذات يوم شوهد فى جسمه انتفاخ واصفرار فظن رجال حاشيته انهما اصابة طاعون ولكن علم بعد البحث انهما من اعراض الافراط فى اللهو والجماع وكان أشد هذا الافراط فى ليلة قضاها مع جارية شركسية بارعة فى الجمال . فلما أيقن محمد على باشا أنه توفى اذ كان كيخيا بك يحاول أن يبلغه الخبر فتخنقه العبرة سقط مغشيا عليه فرفعوه واجلسوه في مكانه وحينما أفاق من غشيته أخذ يطالبهم تارة بالرجاء والترغيب وطورا بالتهديد والترهيب باحضار ابنه العزيز اليه فلما لم يجد منهم الا الصمت والذهول والحزن استرسل فى البكاء والأنين ولم تجد فى تسكينه من هذا الجزع وسائل التعزية. وأحب حينما بدىء بتسيير الجنازة أن يشيعها ماشيا من بولاق الى الامام الشافعي ولكنهم منعوه من ذلك بعد الرجاء الشديد وفى اليوم التالى وزعت صدقات جمة على الفقراء

وكان طوسن كثير البذل والاحسان لا يحسب فى بذله حسابا لغده ومن أقواله المأثورة : «خليق بابناء الملوك المحبين لخير بلادهم ان يكونوا كالنسيم الذى يسوق السحب لتروى الارض بمائها فتخرج الحب والنبات» وبعد وفاة طوسن باشا حصر محمد على آماله ومحبته فى ابراهيم. وكان فى سنة ١٨١٢ قد ناط به جباية الضرائب فى الصعيد فاستطاع بما جبل عليه من العدل التوفيق بين مقتضى المهمة الموكولة اليه ومصلحة الأهلين. وعين حاكما للوجه القبلى فى سنى ١٨١٣ و ١٨١٤ و ١٨١٥ ثم واليا مؤقتا لمصر فى سنة ١٨٢٠ فتمكن بحكمته وسداد رأيه من وضع حد لاستبداد العمد والمشايخ الذين كانوا يسيرون بين الناس بالظلم قضاء لمطامعهم وغاياتهم ودافع عن حقوق الفلاحين بما أوجب شكرهم له وحبهم إياه كحبهم والده الذى خلصهم من ربقة البكوات الجراكسة وكشافهم

وكان المماليك الذين نجوا بحياتهم بعد طردهم من إبريم لا يزالون فى حركة ونشاط بأقليم دنقله اذ اخضعوا لنفوذهم واستبدادهم فيه ملوك القبائل وشيوخها وقتلوا الكثير منهم. ولقد دبت فى نفوسهم عوامل الكبرياء والجبروت لما اختصوا انفسهم به فى ذلك الاقليم من السلطة الظاهرة والحكم الوقتى

فحدثتهم نفسهم بالنزول الى مصر . ولكن أبى محمد على ان ينتظرهم حتى يصلوا اليه بل عول على الذهاب اليهم لمطاردتهم فى ملاجئهم التى آووا اليها ليقضى عليهم قضاء أبديا . وكان يرمى بهذا المشروع الى غايات أخرى وهى امتلاك النوبة لاستخراج الذهب والماس من مناجمها . فلقد اتصل به ان دنقله وسنار وكردفان ودافور تحتوى الكثير منها، ثم اغتنام هذه الفرصة للتخلص من الجنود الذين ما برح اختلال نظامهم ومخالفتهم الطاعة لرؤسائهم مصدر بلاء عظيم لمصر وحكومتها وتجنيد الجنود من السودانيين المعروفين بالطاعة والصبر والقناعة والبسالة فى القتال بدلا منهم . ومن هذا الوقت أشير فى المصورات الجغرافية الى ما يفيد ان النوبة العليا والسفلى اصبحت جزءا متمما لباشوية مصر وان اقليم سنار سيصبح قريبا تابعا لها . وكانت الاقوام الذين عقد محمد على النية على قتالهم معروفين بالأقدام والبسالة والبراعة فى ركوب الخيل وانهم مع تجردهم من الثياب والاسلحة النارية لا يفوق عليهم أحد فى الضرب بالسيوف ذات الحدين المصنوعة بالبلاد الالمانية وهى ذات مقبض من الخشب وقراب من الجلد ،ولا فى الطعن بالرماح ذات النصال المسننة . ولقد أوغل محمد بك الدفتردار بتلك البلاد فى ٥٠٠ فارس حتى أدرك حدود دنقله فلما رآه المماليك ولوا

مدبرين الى شندى واستولى الذعر على خمسة وعشرين منهم فجاءوا الى القاهرة بثياب بيضاء التماس الرحمة بهم والتجاوز عما سلف من ذنوبهم فوعدهم محمد على بالعفو عنهم جميعا إلا زعيميهم محمد بك المنفوخ وعبد الرحمن بك وكان قد توليا الزعامة على المماليك بعد وفاة عميدهم ابراهيم بك سنة ١٨١٦ متجاوزا الثمانين من العمر

وفى نفس الوقت الذى كانت الجمال الكثيرة تجمع باسنا لنقل الأحمال فى الصحراء كان ٣٠٠٠ قارب مهيأ فى يونيو ١٨٢٠ بموردة مصر العتيقة لحمل ٣٤٠٠ جندى من المشاة وعشرة مدافع ومدفع من طرز الهاون وكثير من الذخائر والأمتعة والمهمات

ولقد أقلع هذا الأسطول العظيم وسار ألفا فارس من بينهم ٥٠٠ من عربان العبابدة على ضفة النيل بقيادة عابدين كاشف حتى بلغوا الى أسوان ملتقى الحملة فلما كمل اجتماعها فيها سارت ومعها ثلاثة من العلماء للقيام ببعض المهام السياسية دفع الى كل منهم مقدما خمسة عشر كيسا وبذلة وترأسها اسماعيل باشا أصغر ابناء محمد على باشا فاجتاز بها الشلالين الأول والثانى واخترق دنقلة من غير ان يجد مقاومة. وقد التقى على مسيرة يومين منها برجال من قبيلة الشايقية المعروفة بكثرة عددها وشدة بأسها في القتال حتى تسلطت على الاهالى بالقهر والأذلال وهتك الأعراض

ونهب الأموال . ولم يكن مع الباشا سوى بعض الحرس من الطليعة ومع هذا فقد أوغل فى تلك الأصقاع المحفوفة بالاخطار فاعترضه جم غفير من الأهالين وأرادوا قطع الطريق عليه فدهمهم الأمير ونكل بهم وقتل منهم عددا ليس باليسير وأرسل رؤوس ستة من المشائخ القتلى وآذان ٥٠٠ من الربان الى محمد على باشا ليخبره بما أحرزه من النصر وأوتيه من التوفيق فى الايغال وبعد مسيرة ثمانية أيام كان الأهلون المعادون لا يزالون يواصلون التقهقر رغبة منهم فى حشد جموعهم . فاغتنم المصريون هذه الفرصة للاستراحة على ضفاف النيل فى مزارع الذرة القريبة من (كورتى) وبعث الامير يرسل من عنده الى النوبيين يدعوهم الى السلام بالقاء السلاح وتسليم الخيل والاقتصار على زراعة الأرض ودفع ضريبة قليلة من المال فوافق الشايقية على مسألة الضريبة وانما أبوا التجرد من السلاح والتخلى عن الخيل قائلين إنهم يؤثرون القتال على الرضي بهذا الاقتراح . وكان اسماعيل باشا شابا متوقد الحماس متعطشا الى المجد والفخار فأبى إلا تحتيم ارادته بالقوة إذ أنفذ فصيلة مؤلفة من مائة بدوى للاستطلاع ولكنها ماكادت تتحرك لقضاء مهمتها حتى أحاط الشايقية بها . وبالرغم من شدة مقاومتها فقد خسرت ٩٥ من

من رجالها و ٢٠ جوادا. ولو لم يكن مع اسماعيل باشا اكثر من ٨٠٠ فارس ولا شيء من المدافع لما منعه ذلك من أمر جيشه الصغير بالتقدم فى سهل فسيح يمتد النظر فيه الى أربعة أميال وتخير له موقعا ملائما بين الاراضي المزروعة ورمال الصحراء فلم يظهر للعدو أثر أثناء النهار فقضي العساكر ليلتهم بدون أن يغمض له جفن توقعا لمداهمتهم

وفى ٢٧ محرم ١٢٣٦ الموافق ٤ نوفمبر ١٨٢٠ ظهر أربعون شايقيا قبيل الساعة الثالثة بعد الظهر وتحيلوا لاستدراج المصريين اليهم وكان اسماعيل متحفزا دوما للقتال فتفقد عساكره وحضهم على الثبات وحسن البلاء وكانت هذه أول مرة دبر فيها قتالا مع عدو فارتأى بعض كبار الجند الذين خبروا القتال من قبل ومن بينهم بعض الكشاف أن يبدوا له ملاحظات عنت لهم فما كان منه إلا ان اتخذ أمامهم وقفة العزة والشمم وسألهم بصوت جهورى عمن له القيادة على هذا الجيش، هو أم هم فلم يسعهم وقد سمعوا هذا السؤال إلا ان أقروا له بالطاعة والانقياد لأمره، فقال: « اذا كان الامر كذلك فلقد ملأتم فؤادى بهجة وارتياحا وثقوا بأن الفوز والغلبة سيكونان لنا » ثم أمر باتخاذ التدابير اللازمة ورسم الخطط الواجب اتباعها فلم تمض على

أثر ذلك برهة حتى شوهد من ناحية الشرق كأن سحابة تتقدم نحوهم وتعظم كلما دنت منهم . وبعد هنيهة انجلت هـذه السحابة عن جيش ضخم من الرجالة والخيالة والهجانة المسلحين بالسيوف والرماح . وكان قوادهم يلبسون الزرد ويحملون الدرق المستطيل المتخذ من جلد التمساح او جلد العسنتة (فرس البحر) والبنادق وغيرها من مختلف الاسلحه فاصطف المشاة صفا والفرسان من ورائهم وبرزت فتاة من القبيلة على هجينة مطهمة فأعطت الجيش شارة القتال بصوت كسجع الحمام وارتفعت الأصوات الحادة مختلطة برنين البازات فما هى الا طرفة العين حتى تدفق الهجانة على ميمنة المصريين بينما كانت الفرسان تحمل بعنف على الميسرة وحمى وطيس القتال وكان بين الطرفين سجالا . وكان عابدين كاشف يقود فرقة احتياطية مؤلفة من مائتين من العربان فحمل على الاعـداء ثلاث حمـلات متتابعة غير مألوفة الشدة استطاع بها احداث ثغرة فى صفوف فرسان العدو فوافاه اسماعيل باشا بمدده وضم جهده اليه وتعرض هو وعابدين بك فى مقدمة رجالهما لصد صدمات الاعداء وعززهما البكباشى عمر اغا فلم تمض على القتال ثلاث ساعات حتى تشتت شمل العدو . وكان فرسان الشايقية يبلغون الألف عدا فلم يفقد منهم سوى خمسين فارسا

واذا كان المصريون لم يتمكنوا من إعمال السيف فى بقيتهم فما ذلك إلا لأن الليل كان قد أرخى سداله فاستتروا به للنجاة من الموت . وحملت مشاة العدو الشطر الاكبر من عبء الصدمة وكانت مؤلفة من خليط الفلاحين الذين اتخذهم المحاربون سياجا لهم اذ لم يكن معهم سلاح في الغالب سوى ما ألقاه بعض المشائخ فى عقيدتهم من أن الرصاص لايقتل صحيح الايمان فعرضوا نفوسهم لوابل الرصاص بثقة عمياء ناشئة عن هذا الاعتقاد . وقد اخذوا معهم حبالا باعتقاد أن اعداءهم سيسلمون بانفسهم ويمدون اليهم أيديهم وبلغ الاعتقاد ببعضهم انهم بما دبروه من السحر وحملوه من الطلسمات قد اختفوا عن أعين النظار فلم يعد أحد يراهم مع رؤيتهم له .لهذا لم تكد تنتهي المعركة حتى تقدم فريق منهم فى المعسكر المصرى نحو خيمة اسماعيل باشا فلما أيقن الحراس أنهم من الأعداء قبضوا عليهم وهم يحاولون دخولها

وكانوا قد ظنوا في بادىء الامر أنهم من الجلابة اصدقاء الباشا فسئلوا عن حقيقة مقاصدهم ونياتهم فأجابوا صراحة بأنهم يرجون القبض على الامير وشد وثاقه وأخذه من خيمته والذهاب به مكتوفا الى أخيه ابراهيم قاهر الوهابيين . وبلغ من تطوحهم فى الخرافات الباطلة أنهم لم يفكروا قط لماذا لم يأت

السحر ولا الطلسم بالغرض المقصود وهو الاختفاء عن الانظار لنيل الأوطار. ولقد أصاب بعضهم الرصاص وأشرفوا على الموت لشدة ما شعروا به من الألم فكانوا يهزأون بالموت ويقولون إنه لن يلاقيهم مهما بلغت فداحة جراحاتهم. وربما كان سبب ضلال عقولهم انهم قبل النزول في ساحة الوغى بل بعد نزولهم فيها كانوا يكرعون الشراب المعروف عندهم باسم (أم بلبل) وهو نوع من الجعة شديد الأسكار. فكانوا كلما شربوا منه اندفعوا في المعمعة غير حاسبين لحياتهم حسابا وأخذوا يلقون في وجوه المصريين الرمال أو يحيونهم بتحية الاسلام قائلين « السلام عليكم» وكانوا يفعلون ذلك على سبيل التهكم والسخرية ولكنهم دفعوا ثمن سلوكهم غاليا جدا لأن عددهم كان حينما بدأت المعركة ٢٥٠٠ فقتل منهم ٨٠٠ مقابل ٣٠ قتيلا و ٤٠ جريحا من المصريين

وفي مساء ذلك اليوم نقل اسماعيل معسكره الى ضفة النهر ومع ما بذله من الجهود لمنع الجنود عن ارتكاب الفظائع التى كانت في بلاد الشرق وقتئذ خير مايختم به الانتصار لم ينجح فى صدهم عن هتك الاعراض وقتل الأنفس ونهب الاموال وإحراق البيوت. ولنا أن نقول إن (كورتى) عاصمة الشايقية أحرقت بايديهم عن آخرها فلم يبق منها حجر على حجر. وما من أذن أمسك بها جندى

إلا وقطعها بخنجره حتى بلغ ما أرسله اسماعيل من الآذان الى والده فى زكيبة واحدة سبعمائة وعشرين أذنا كانت الشهادة الناطقة بما أحرزه من الفوز والنجاح فى فتوح البلاد . وشمل قطع الآذان آذان النساء إلا أن اسماعيل باشا استاء من معاملتهن بهذه القسوة ووبخ مرتكبيها وأمرهم بالامساك عن معاملة النساء بالشدة والصرامة . وجيء أمامه بناء على أمره بستمائة أسيرة كان المنتظر استرقاقهن فلما مثلن بين يديه أخذ بعضهن يبكى ويولول وأسلم البعض الآخر أمره الى الله قائلا : « سيأخذوننا الآن ويقطعون رقابنا ولكن يد الله هى التى ستضرب زوجات الشايقية . وما كان مكتوبا في الأزل لا بد من نفاذه » . على أنهن قد ظهرت عليهن علامات الدهشة حينما أخبرن بانهن لن يعاملن بالقسوة ولا بالقتل كما ظنن بل سيطلق سراحهن ويرسلن الى جزيرة (شترب) مزودات بما يلزمهن من حاجيات المعيشة . وأطلق اسماعيل أيضا سراح جماعة من أهل دنقلة أشركهم الشايقية معهم فى القتال رغم أنوفهم وأعادهم الى بلادهم . وفى ٢٨ محرم الموافق ٥ نوفمبر جيء بعشرين أسيرا امام اسماعيل فسألهم كم كان عددهم فى هجومهم يوم أمس فلم يقصر أحدهم فى المبالغة جوابا على هذا السؤال اذ قالوا : « كنا خمسة الاف وكان الله معنا » فقال لهم

الأمير : « عودوا الى زعمائكم ومشائخكم وقولوا لهم إننى بقليل من العساكر استطعت محاربة الكثير منكم وانكم اذا ضاعفتم عدد جنودكم الى عشرة أمثالها فى بداية هجومكم فانه لايكون من حظكم غير مالقيتموه أمس من الفشل والتقهقر . وأخبروهم بالنيابة عنى، اذا كانوا يجهلون ماهى قوة جيشى، انها أربعة أمثال من رأوهم فى الامس . هذا فيما عدا الاثنى عشر مدفعا التى لو أطلقت عليهم مرة واحدة لأفنتهم عن آخرهم ثم اخبروهم أيضا بأننى اذا أطلقت لجنودى العنان ليقتلوا ويستبيحوا منهم ماأرادوا فليس فى قدرتى ان أحول بينهم وما يقصدونه فتحترق منازلكم وتقطع رقاب نسائكم وأطفالكم . فعليكم اذاً ان تنصحوا الى زعمائكم بالحضور لتقديم فروض الطاعة حتى أكفي مؤنة الأسف على إهراق دمائكم من غير جدوى ولقد أمرت خازندارى بأن يسلم كلا منكم محبوبين فانطلقوا الآن من حضرتى احرارا غير مقيدين »

وسلمت صورة هذا الخطاب الى الأسرى الذين صحبهم بعض الحراس الى خارج المعسكر فأخذوا سمتهم الى زعمائهم بدون ان ينالهم أذى

تلك الخلال الفاضلة والصفات الانسانية التى امتاز بها

اسماعيل باشا جديرة ولا شك بالمدح والثناء ولكنها لم تكن لتقنع أحدا من المغلوبين بوجوب الطاعة والخضوع للمصريين كما لم تقنعهم، لأصابة هذا الغرض، اقوال العلماء الذين صحبوا الحملة ليكونوا لدى الاعداء كرسل مفوضين لحثهم على الاقرار بالطاعة للحكومة المصرية فان الشايقية عبروا النهر سباحة على مسافة إثنى عشر كيلو مترا من معسكر الجيش المصرى أو ركوبا على الجياد أو تعلقا بقطع الاخشاب ثم جمعوا شتاتهم بالقرب من جبل (داجر) الذى باعلاه قصر حصين وكان قد وصل ٢٠٠ فارس و ٣٠٠ راجل فانضموا الى جيشه بمدفعين وعبر هو النيل فى ٤٠٠ فارس فهجم الشايقية عليهم بجميع قواتهم يقذفون بالاحجار أولا ثم يطعنون بالرماح فتلقى المصريون صدمتهم العنيفة بجنان ثبت كى يمكنوا بقية الجيش من عبور النهر فلما عبرته تقدم المشاة فأمرهم اسماعيل بستر المدفعين اللذين معهم فقاموا بمناورة لهذا الغرض أفضت الى قطع الصف الاول من صفوف الاعداء فبدأ المدفعان عندئذ يرمى مقذوفاتهما فاحدثا ثغرة واسعة بينها ثم أطلقت المقذوفات منهما على بعد يعدل نصف المرمى فتشتت شمل الشايقية عند الطلقة الثانية وذهبت جموعهم الكثيفة بددا واحتمي ثمانون منهم بالقصر السالف الذكر ولزموا فيه خطة الدفاع غير ان قذيفة

سقطت بينهم فكسرت شوكتهم وثبطت همتهم ففتحوا أبواب القصر للظافرين على مصاريعها ولم يبق بميدان القتال نفسه احد ولم يشاهد للنساء اللائي كن يثرن بصيحاتهن الحماس فى نفوس المحاربين أثر بل لذن بالفرار معهم ونزل بالأهلين من المحن والمصائب ما أنذر به اسماعيل الاسرى العشرين فى خطابه لهم يوم أفرج عنهم. فان قرية (داجر) أحرقت بالنار فالتهمت النار بيوتها وأحرقت ألفا من الاعراب ذكورا ونساء وأسر جندى طفلة ليسترقها فتبعته والدتها ونازعته عليها فلما وجد الجندى ان لا مناص له من التخلى عنها طعنها بخنجره ولم يشفق عليها وحدث أن امرأة أبت ان تبذل عفتها لجندى فطعنها بسكين وقبض العربان على فتاة فى السادسة عشرة جميلة الطلعة رشيقة القوام يستر عورتها رهط من الجلد تتدلى منه خيوط محلاة فى وسطها بصدفة واحدة رمزاً للبكورة وفى قدميها صندل طويل يدل حسن صناعته وما فيه من الزخرفة على أنها من بنات الأعيان. فلما جيء بها الى اسماعيل باشا، وكانت قد بدت منه حركة دهشة واعجاب عند ما وقع نظره عليها سألها عن حقيقة أمرها فأجابت بان اسمها صفية وان والدها من الامراء فسألها عن اسمه فأجابت : الملك زبير. ثم انهملت الدموع من عينيها. فاشفق اسماعيل بها وبعد أن

ألبسها رداء جميلا وأهداها عقدا من المحابيب الذهبية ومقدارا لا بأس به من المصوغات والجواهر لم تعبأ الفتاة بهذه الهدية النفيسة اذ كان كل همها السؤال عن والدها والذهاب اليه من غير حلى ولا زينة فهدأ الامير جأشها ثم أمر لها بناقة فركبتها وكلف بعض ضباطه بايصالها سالمة الى أبيها. وكان قد اتصل بأبيها خبر سبيها فنهض فى جمع من رجاله لاستنقاذها أو ليلقي حتفه وحث السير. وفيما هو فى الطريق إذ التقت صفية به فرمت بنفسها على صدره المضطرب. وقد خيل له بادىء ذى بدء أنه يرى حلما لا حقيقة محسوسة فأخذ يمعن النظر كأنه خشى أن الله لم يعدها اليه ثم لم يلبث أن احمرت عيناه وجحظتا وتقلبتا فى حجاجيهما كأنه رأى رؤيا أزعجته واضطرب من أجلها ضميره وخفق بسببها فؤاده فتقطبت جبهته وأخذ يحملق فى ابنته بعينيه حملقة الخانق الساخط لما رابه من أمرها بسبب ما رآه عليها من الحلل والحلى فبعد سكوت طويل بدت فى خلاله على وجهه آيات الألم النفسى قال لها بصوت متهدج: «ألا تزال بكر الملك زبير أهلا لأن تعيش بين أهلها» فصاحت صفية: «والدى ان ابنتك مابرحت طاهرة الذيل وما ابن محمد على باشا إلا يافعا شريف النفس نبيل القصد»

فأخذ العجب والاعجاب من الزبير كل مأخذ وانطلق لسانه بالشكر لعدوه على ماعامل ابنته من الكرم وشرف النفس ثم أمر رجاله ان يقتدوا به فيما هو صانع . وقصد من فوره نحو الأمير المصرى فقبل ركبتيه وألقى سلاحه بين يديه واقتدى الملك عمر بالملك زبير اذ قدم هو طاعته أيضا أما الملك شاويش وهو الرئيس الأعلى للقبيلة فقد انفذ ابنه الى اسماعيل ليقدم اليه هدية جوادين كريمين ويلتمس منه هدنة بضعة أيام. وكان الرسول فتى فى الثامنة عشرة أصيب بجرح وهو يقاتل معأبيه فتلقاه اسماعيل باشا بالحفاوة والاكرام وأكد له أنه لن يأتى بحركة عداء ضد الشايقية حتى يستعدوا للدفاع ثم ألبس الملكين اللذين رضيا بالطاعة كسوتى تشريف وأبقاهما في منصبيهماوعامل الملوك الذين أصروا على العصيان بعزلهم من مناصبهم وتخريب دورهم وألقى بهم فى حضيض الذل والمهانة . واستتب النظام والامن بعد ذلك فعاد الاهلون بماشيتهم وأغنامهم الى مساكنهم واستأنفوا أعمالهم ورأى أهل البلاد المتاخمة أن اسماعيل باشا إنما جاء لتخليصهم من استبداد الشايقية وعسفهم

وقسمت البلاد التى فتحت على الطريقة المتبعة فى مصر الى مديريات ومراكز يقوم على تدبير شؤونها المديرون والكشاف

الذين تقرر فيما بعد أن يكونوا من المصريين أو الاتراك وبقيت
جثث قتلى الشايقية فى الواقعة الاخيرة مطروحة في ميدان
القتال فحث اسماعيل باشا أبناء جلدتهم على التعجيل بدفنها خيفة
عليها من الطيور الجارحة . وبالقرب من اطلال (داجر) تلال
صغيرة من الأحجار هى التى حدثت بجوارها بين الشايقية
والمصريين المعركة التى كان من نتائجها ماذكرناه الآن للقارئين

وعلى مسيرة ساعتين من هذا المكان أقام اسماعيل باشا
شهرين كاملين للاستعاضة عن الجمال النافقة بغيرها وانتظار
القوارب المقلة للامداد والمؤن والذخائر وإخضاع القرى العاصية
ثم عبر النيل ثانيا فى ألفين من الفرسان فزحف على سنار مارا
بالجهة الجنوبية الشرقية لصحراء (بيوضة) حتى لايجارى النيل
فى منعرجاته دفعا لطول الشقة وقد حملت المدافع العشرة كل
مدفع بين جملين واشتطت المشاة الضفة اليمنى فصائل يتلو بعضها
بعضا وانقسمت الفرسان فى وادى (أرجول) تقية نضوب الماء
بكثرة الورود على الآبار وكان الطريق شاقا فأضل الأدلاء
الجنود فيه فأمر اسماعيل بجلد كل منهم ٤٠٠ جلدة عقوبة لهم على
سوء نيتهم وتحذيرا لهم من الانحراف فى المستقبل عن قصد
السبيل . ونفقت الجمال تحت اعبائها الثقيلة وكان الجنود اذا ساروا

فى الليل خافوا أن يغلبهم النوم فيقعوا عن دوابهم ففضلوا السير على الأقدام ممسكين بأزمتها .

وفى أول مارس ١٨٢١ جاءت أخبار على يد قاصد تفيد وجود ثلاثة آلاف من الأعداء على مسافة ١٥ فرسخا بالجهات الامامية وتلاه بعد يومين قاصد ثان كذب هذا الخبر الذى أراد اسماعيل به تعليل جنوده التى انهكها التعب بالأمل فى وقوع معركة قريبة لايحتاجون بعدها الى اجتياح العدو فى معارك متتابعة . وكان الباشا على وشك الوصول الى بربر فأراد التأثير فى نفوس أهلها بمظاهر القوة والعظمة فجعل جيشه فى مصاف القتال . فلما شهدوا اختلاف ألوان ملابس العساكر وتباين اشكالها وجمال الخيل وحسن تطهيمها وهيئة العساكر حاملين مختلف الاسلحة ومع كل منهم حاجته من التبغ وأدوات التدخين ورأوا خفة حركات رؤساء الجند المزركشة ملابسهم بالقصب ولألاء سيوفهم فى أشعة الشمس فتنتهم هذه المناظر وخلبت عقولهم فجاء الملك نصر الدين والمشائخ والفقراء وأصحاب الشأن والمكانة فى البلدة لمقابلة اسماعيل وتهنئته بالفوز على الشايقية ثم عاهدوه على الطاعة والاعتراف بسيادته . وأخلد المصريون الى الراحة فى تلك البلدة التى وجدوا بها فوق حاجتهم من العلف

خيولهم ودوابهم والكفاية من الماشية والتمر والذرة والقمح لطعامهم

وفى ١٢ مارس ١٨٢١ وصل أحد ابناء نمر أمير شندى حاملا الى اسماعيل تحية الملك والده فبعث اسماعيل اليه ديوان افندى ليدعوه الى الحضور بنفسه فجاء نمر الى المعسكر المصرى يوم ٢٢ مارس راكبا هودجا يحمله جملان وأمامه رجلان يحملان الرماح وآخران بيد كل منهما محجن أى عصا طويلة ذات مقبض مستدير من الفضة ويحف به حرس مؤلف من خمسين رجلا مسلحين بسيوف نصالها من هذا المعدن الكريم ودرق . وكان الملك على سذاجة ثيابه مهيب المنظر حديد البصر وكان يلبس ثوبين عريضين من القماش الدقيق الشعار منهما أبيض والدثار من الحرير الهندى وكان فى قدميه حذاء جلد وعلى رأسه سكبة مما اختص الملوك بلبسه فى تلك الجهات وكان يحمل فى رقبته سبحة كالدراويش واحجبة جلد تحتوى طلاسم وأوراقا كتب فيها آيات قرآنية وكان يحمل على كتفه عباءة مما اعتاد الملوك لبسه فلما دنا هذا الرجل من اسماعيل باشا فى مظاهر الشموخ والكبرياء أحنى جسمه مرارا اشارة الاحترام والطاعة ثم جلس على سجادة فرشت له تجاه الامير المصرى ولثم يده ظاهرا وباطنا ورفعها الى

رأسه . فقال له الباشا إنه كان يجب عليه المبادرة بالزيارة من بادىء الأمر فأجابه الملك : « إنى عبد الله وخادم السلطان ومحمد على باشا واسماعيل باشا » وبعد انقضاء عشر دقائق فى الحديث خرج نمر قاصدا مكان خازندار اسماعيل باشا حيث دخن التبغ وتعاطى القهوة وكان قد قدم الى اسماعيل جوادين من اكرم جياد الحبشة فأهداه اسماعيل فى مقابلهما جوادا كريما مطهما وكسوة جميلة وخيمة خضراء اللون فضلا عن الوان الطعام التى كان يوافيه بها كل يوم من خاصة طعامه

ولما استأذن الملك في الانصراف وقفل راجعا الى شندى اجتمع عليه أهلها يصيحون صيحات الفرح وكان النساء يسرن على الأقدام والرجال على الخيل والحمير والجمال يخطرون بسيوفهم ويفرقعون بأسواطهم . وذهب ديوان افندى يومئذ الى شندى ليشترى من أهلها جمالا للحملة فحيا هو ومن معه الملك باطلاق العيارات النارية ووصل نمر بعد ذلك الى قصره فاستقبلهم فيه بمظاهر الأعظام والتكريم وبعد المقابله كاشف شاويش كبير زعماء الشايقية ديوان افندى برغبته فى تسليم نفسه اليه ، وكان بعد فراره أمام الجنود المصرية قد لجأ الى الملك نمر ، فقصد ديوان افندى اليه فى حراس مدججين بالاسلحة فداخل شاويش

الخوف وخالجه الشك فلما علم ديوان افنـدى بذلك رضى بأن يتقدم اليه بلا حرس ولا سلاح ، يريد بذلك جذب الرجل الى جانب الباشا لما له من النفوذ والكلمة المسموعة بين رجال قبيلته ولـكنه ما وصل الى مـكانه حتى أحاط به خمسون من العربان فأدرك حالا أن هناك مكيدة وأنه لا محاله ذاهب فريسة لهاء، غير ان شاويشا دنا منـه وصافحه مقسما بانه سيقيم على ولائه وسأله الوعد بان يعفو عنه اسماعيل باشـا وان لا يقصده بأذى فوعده بذلك ووفى بوعده اذ اسـتطاع الحصول من مولاه على الصفح عنه

واثناء وجود المصريين ببربر اقبلت قبائل عربان الـكبابيش والحسانية والبشارين على الطاعة لاسماعيل باشا ولـكنهم لم يؤدوا الجزية التى فرضوا على انفسهم أداءها من الجمال والهجن فعهـد اسماعيل الى عربانه بتذكيرهم بعهدهم وأخـذ ما عندهم من الدواب والخيام وقطعان الماشـية والأغنام قسراً فنفذت أوامره طبقا للتعاليم التى اعطاهـا وكان تسويف تلك القبائل فى اداء تلك المطلوبات سبباً فى الحصول عليها مضاعفة

ارتحل الجيش بعد ذلك عن بربر متبعا فى سـيره ضفاف النيل فلما كان اليوم السادس من رحيلهم أى ٩ مايو ١٨٢١ نزل

على مسافة فرسخ من شندى البالغ عـدد سكانها ١٥٠٠٠ نفس وتتبع أقليم سنار . وتخاف أربعـة من العساكر فقتلهم أهل إحدى القرى فلما بلغ الخبر الى زملائهم صاحوا صاخبين طالبين الانتقام فناط اسماعيل باشا باربعمائة فارس توقيع العقاب والتأديب على القريه القاتل أهلها فلم تمض ساعتان من الشروع فى تأديبها حتى تحولت الى كومة رماد وقتل ثمانون فى المائة من أهلها وثمل العساكر المغاربة بخمرة الانتقام فعقدوا النية على تأديب القرى كلها بالتخريب والقتل وانتهاك الأعراض . فلما شهد الملك ذلك رجا من الباشا النظر فى الأمر وأن لا يسمح بتحويل العقوبة العادلة الى ظلم فادح تهراق فيه دماء الأبرياء فارسـل اسماعيل ساحداره على الفور ليكبح جماح المغاربه فلم يستطع بالرغم من الجهود التى بذلها على أن الأمير لم يسعه بعد التدبر في الحالة إلا الأمر برد المنهوبات الى أربابها الذين لم يعتدوا على أحد . وفى ١٥ مايو وصل الى المعسكر رجل بدين هائل الخلقة تدل سحنته على حقيقة حالته النفسية وكان يتبعه مائتان من الشايقية فاذا هو شاويش كبيرهم السابق الذى كاشف ديوان افندى برغبته فى تقديم الطاعة . فلما مثل فى حضرة الأمير المصرى انحنى أمامه ولثم يده ثم أعرب عن أمنيته في أن لا يحرم من مزاولة الحروب التى شب

فيها وشاب وقال إنه يجل صناعة الحرب بقدر ما خانته فى مطامعه فعطف اسماعيل عليه وأمر برد أسلحته وثيابه اليه ومنحه لقب بلوكباشي وعقد له القيادة على مائة وأربعين من الشايقية الذين تعهدوا بأن يكونوا منذ الآن في خدمة مصر ووالين لها ولأمرائها

وفى الساعة الثالثة من ذلك اليوم أطلق المدفع إيذانا بتحميل دواب النقل واطلق ثانيا فى الساعة السادسة مساء إشعارا بالرحيل ونادى العربان جمالهم بندائهم وصوتهم المألوفين ونفخ فى النفير أمام الراحلين . وفى ٢١ مايو صاح سكان (وادى بيشار) صيحات الجزع والكرب لأن جنوداً من المغاربة سلبوهم أغنامهم ودجاجهم فعاقبهم اسماعيل بالضرب وألزمهم برد المسروقات وكانت الخراطيش قد وزعت على العساكر لاستعمالها ضد أهل الحلفايه اذا نزعوا الى الى المقاومة ولكنهم لم يلجأوا الى هذه الضرورة التى أغناهم عنها الملك (ود عجيب) باسراعه الى الطاعة

وأصدر اسماعيل أمره بالشدة في معاقبة من يخل بأمن السكان أو يلحق بهم أذى ، فلما كانت ليلة ٢٤ مايو نصب المصريون خيامهم تجاه الحلفاية وانفذ الأمير اسماعيل على الفور رسولين الى الملك يطلبان منه جزية من الجمال والذرة فلما كان فجر يوم

٢٦ جاء ود عجيب الى المعسكر ومعه الفرضة المطلوبة . وعندما وصل الى شاطىء النيل جلس متربعا على الأرض تحت ظلة من الجوخ أمسك باطرافها أربعة من حراسه لتقيه حر الشمس المشرقة ولبث ينتظر السفينة التى وعد الباشا بأرسالها لتقله اليه وكان ود عجيب كبير القامة متين الاساطين جميل الطلعة مهيب المنظر وكان محتذيا بحذاء من الجلد يشبه أحذية قدماء المصريين وكان شعره مضفورا ومدهونا بالزيت كشعرهم وكان على بدنه ثوبان من نسيج القطن أحدهما أبيض والآخر أزرق وباعلى ذراعه حجابان من الجلد وبأصابعه خواتم فضة أما سيفه الفضى فكان يحمله رجل من اتباعه . فلما مثل بين يدى اسماعيل لم يكف لحظة عن الشكر له لارساله القنجة اليه وقال إنها أول سفينة رآها تنزلق على وجه الماء بأجنحة بيضاء . وقد وقف الباشا منه على أسرار الفتن التي تمزق احشاء سنار ورأى ان هناك ما يبيح له الاستفادة بها فارتحل بجيشه فى الساعة الثالثة وربع من مساء يوم ٢٧ مايو ١٨٢١ وفي صباح ٢٨ منه عبر النهر الابيض من مخاضة وقضى جيش الحملة المؤلف من ٥٥٠٠ مصرى وعربى معهم ٣٠٠٠ جمل وحصان ثلاثة أيام البعض منه سباحه والبعض الآخر ركوبا على القرب المنفوخة أو قطع الاخشاب وكان الطمع فى

الغنيمة يستحثهم جميعا على الاهتمام بالعبور لطلب القتال ولكن تحمسهم أفضى الى خسارة ثلاثين رجلا ومائه وخمسين من دواب النقل غرقا اثناء التزاحم على العبور

أشرنا فيما سبق الى ان مملكة سنار كانت تتقلب على جمر الفتنة وأن الانشقاق كان مستحكما بين جماعاتها وأفرادها . ونذكر الآن أن أحزابها كانوا يتنازعون صولجان الحكم ويسفكون فى سبيل تحقيق مقاصدهم الدماء وكان من أمهر زعمائهم وأشدهم بأساوه لابة ومثابرة على تحقيق مآربهم الاخوان محمد عدلان وحسن رجب اللذين وضعا أيديهما على بيت المال واعتقلا ولى الأمر الشرعى . فلما كانت غاية رجب ١٢٣٦ الموافق ابريل ١٨٢١ تناقلت الألسن نبأ انتصار اسماعيل باشا فحزن الغاصبان حزنا شديدا وأيقنا بفشل مساعيهما وكانا الى هذا الحين فى شقاق مع بعضهما لتناقض مصالحهما . فلما انتهى اليهما أن الباشا يحث المسير وأنه أصبح منهما قاب قوسين أو أدنى إتفقا على محاربة العدو العام فنصبا ثلاثة مدافع في ضاحية بلدهما وأخفيا مدافع غيرها فى النهر الازرق وكانا قد اشترياها من المماليك ثم حشدا ٨٠٠٠ مقاتل وجعلت بلدة (مونا) مقرا لعدلان فبينا كان فى الايام الاخيرة نائما بداره إذا باثنين من

رجال أخيه حسن رجب وهما (عبدالله نكنيت) و (ادريس ودعكندى) دخلا عليه وقتلاه غيلة فاستبشع رجال عدلان هذا الغدر ووصفا مدبره بالجبان النذل ثم قاتلوا أعوان رجب فألحقوا بهم خسارة فادحة اضطرته الى الخروج هائما على وجهه نحو جبال حدود الحبشة وقد وصل اليه أثناء ذلك نبأ اجتياز جنود اسماعيل باشا للنيل الابيض . وكان الملك اسما ورسما لافعلا يسمى (بادى بن طبل) وكان ضعيف الرأى فلما اختفى من أمامه الاخوان الغاصبان كان أول ماأتى به من الاعمال الدالة على ضعفه وفيالة رأيه ان زار الباشا للاعتراف له بسيادة الدولة العثمانية وبيان ذلك أنه قصد الى وادى مدنى للقاء اسماعيل فيه وكان ممتطيا جوادا كريما وحوله ٣٠٠ هجان وكان ربع القامة بدين الجسم قوى الاساطين نحاسى اللون ممتلىء الوجه جميل الطلعة يناهز الأربعين من عمره وكان يلبس رداء فى شكل قميص من الحرير المقصب سابلا الى كاحل القدمين وكانت سكبته من الصوف يعلوها قرنان وكان يحمل سيفا طويلا عريضا ذا مقبض من الفضة فلما التقى باسماعيل قدم اليه أربع أفراس كريمة فأكرمه اسماعيل بتقديم القهوة اليه وأهداه جوادين مطهمين وفروة سمور للتشريف وكسوة مصرية وشالين كشميريين وسيفا وطبنجتين

ورحل الأميران الى سنار . وقبل الوصول اليها بربع ساعة رتب اسماعيل جيشه فى مصاف القتال وكانت عساكر (بادى) تسير خلفها منكسة الرماح وأقنع السناريين بقوة هذا الجيش ماقام به من المظاهرات العسكرية التى لم تقع انظارهم قبلا على مثلها كاطلاق البنادق والمدافع أثناء الدنو من الأسوار قبل الغروب وارسال السواريخ والاسهم النارية اثناء الليل . وعين اسماعيل ملك سنار شيخا لها وكان فى مدة ملكه يحرث الأرض بيده ويجعل مشائخ البلاد والقرى جباة له باعتبار أن العشور حق له وكان فى أيام عزه وصولته يستطيع أن يحشد ثلاثين الف مقاتل فأصبح منذ هذه الساعة ولا شأن له بالامور العامة سوى تحصيل الجزية باسم الحكومة المصرية وتأديته اياها اليه كما يحصلها ويؤديها ملوك بربر وشندى والحلفاية والاستقرار بعد ذلك فى داره ليتفرغ لشؤون عائلته جالسا على حصير او على كرسي حقير مفكرا فى مجده السالف وقصره المنيف مدخنا التبغ فى شبك غاب لايملك نفسه من الدهشة اذا وقع نظره على منديل أبيض أو علبة من اعواد الثقاب تكرم بها عليه رحالة انكليزى

وما استتب الأمر لاسماعيل فى العاصمة السنارية حتى انزل جنوده بها وبالقرى المجاورة لها وأمر سفائنه بالعودة الى القاهرة

وكان عيد الفطر مقبلا فحصل الشيخ بادى من الباشا على الأذن بالاحتفال به بمظاهر الأبهة والجلال . فأجابه الى طلبه فلما كان يوم ٣ يونيو الموافق ثالث أيام العيد اخترق طرقات المدينة مكتسيا بأحسن كسوة إذ أفرغ على جسمه بردة من قماش الهند وعلى رأسه سكبة مستديرة ينثنى طرفاها الجانبيان بارتفاع فوق الصدغين ولبس فى قدميه نعلا كما كان يلبس الاقدمون وتقلد سيفاً محلى بالذهب والفضة وامتطى جوادا مطهما ومحلى بريش النعام وسار الى جانبه عبد يحمل ظلة كبيرة ممزقة وآخر يحمل كرسيا حلى بالفضة ليقف عليه فى حالتى الركوب والترجل وسار أمامه وزيران وستة من سواس الخيل يمسك كل منهم بعنان جواد حبشى حرون قد أسرج بسرج محلى بالفضة وتبع الشيخ أفواج من الأهلين يصيحون صيحات الفرح والحبور وفيما بينهم وبينه مائة حارس مدججين بالاسلحة والجنود السنارية منكسة الرماح مسندة الى الكتف من طرفها الاسفل إعظاما واحتراما للسيادة الاجنبية التى بسطت رواقها عليهم

ولما وصل الموكب على هذا الترتيب الى دار الأمير المصرى وقف ليدخل السرور عليه بأقامة حرب صورية فانفصل المائة الحارس من الموكب وأدوا التحية العسكرية ثم انقسموا شطرين

زحف أحدهما على الآخر ثم تقدموا الى الامام محركين رماحهم في وضع أفقي وواثبين بقدم واحدة ثم جلسوا متربعين وستروا أجسامهم بدرقاتهم الواسعة الكبيرة ووقفوا بعد ذلك فتقدموا خطوة واثبين تارة يمنة وطورا يسرة كأنهم يتقون طعنات العدو وأخذوا يصيحون صيحات مزعجة يريدون بها تحذير بعضهم البعض من هذه الطعنات بينما كانت السهام تطير من ايديهم وتشتبك في الفضاء . وقام صراع بالسيف بعد ذلك بين الجنود فكان المصارعون يرفعون السيوف فوق رؤوسهم ويخطرون بها دقائق واثبين على القدمين وثبا مترادفا ثم يلقون بأنفسهم متدفقين على صفوف العدو ويتراجعون بعد ان يلتحموا به التحاما عنيفا

وكان اسماعيل لا يكترث بالمعارك الصورية لشدة اهتمامه بالمعارك الحقيقية فانه وضع تحت إمرة الحاج حامد فرقة مؤلفة من ٤٠٠ فارس ومدفعين وناط بسلحداره مرافقتها لأخضاع أهل السودان . فتحرك هذا الجيش في ١٨ يونيو قاصدا (بورنو) بالجنوب الغربي فأسر وسبا في طريقه بضع مئات من الرجال والنساء والاطفال ولاحظ اسماعيل أن الأسرى والسبايا من الشيوخ والأمهات والأطفال فأطلق سراحهم وما كاد يحل

وثاقهم حتى انطلق هؤلاء المساكين يبكون لشدة الفرح والسرور ودعوا للباشا بصالح الدعوات . وفى ٢٣ يونيو قبض على ثائر ممن كانت لهم يد في جريمة حسن رجب فقطعت رقبته وكان هذا الرجل لايزال يحشد الأعوان والجنود بأطراف جبال الحبشة ويتهدد بالعودة الى سنار . فاغتنم اسماعيل هذه الفرصة للوفاء بما وعد به أبناء محمد عدلان من الانتقام لوالدهم فأنفذ ديوان افندى فى أربعمائة من العربان انضم اليهم أبناء القتيل وهما رجب وادريس وشاويش كبير الشايقية السابق وكان حسن رجب قد اعتصم مع ٣٠٠ من أعوانه بهضبة جبل فى الشمال الشرقى من سنار والحدود الشمالية للحبشة . وكان خمسون من العربان المصريين قد وصلوا الى سفح هذا الجبل قبل وصول اخوانهم فترجلوا عن جيادهم وأخذوا يتسلقون الجبل على منحدر شديد فيه فلما أيقن حسن رجب وأعوانه بحرج مركزهم بسبب هذه المباغتة عولوا على أن لايبيعوا حياتهم رخيصة فبدأوا بالقاء جذوع شجر ضخمة واهداف حجر كبيرة على المهاجمين ، على ان العربان بلغوا الى الهضبة وأطلقوا عليهم فى الحال نارا شديدة من فوهات البنادق فتفرقوا بادىء ذى بدء ثم جمعوا فلولهم وحملوا على العربان فأطلق هؤلاء النار ثانيا عليهم فهزموهم شر هزيمة وقتلوا عشرين

منهم مقابل ثلاثة من المصريين الذين غنموا خيل الأعداء وجمالهم وسلاحهم وأسروا حسن رجب والخائنين اللذين نفذا المكيدة التى دبرها فسلم اسماعيل الى ابنى القتيل عمهما القاتل ليتصرفا فيه على هواهما فحبساه بضعة أشهر ثم صفحا عنه وترك الرأى في زميليه الى عدل اسماعيل وانصافه . وكان كل مارمى الاثنان اليه من الاشتراك فى الجريمة الطمع فى قليل من المال وكان هذا المال مازال باقيا لهما فى ذمة مغريهما على القتل فقبضا هذه البقية يوم ١٣ يوليو ١٨٢١ حوالة على الميدان الذى تقام به سوق بلدة سنار إذ أرسلا اليه مكبلين بالأغلال وما كادت تقع انظارهما على المعدات المتخذة لاعدامهما حتى طلب كل منهما سيفا يقطع به رأس نفسه وكان (ودعكندى) حينما جيء به لأعدامه قد أنّ انينا ضعيفا خافتا فسمعه (نكنيت) زميله فصاح به : « انت اذاً امرأة لارجل » فثاب الى ثبات الجأش ورضى بنفوذ حكم القضاء فيه اذ انبطح الاثنان على وجهيهما بحيث تقع رقبة كل منهما بين وتدين غرزا فى الارض وجيء بعد ذلك بخازوقين محددين من الخشب فدسا فى شرجيهما بالمطارق حتى اذا برزا من ذقنيهما رفع الخازوقان فى وضع رأسى كما ترفع سارية السفينة . وكان نكنيت وهو فى هذا الوضع لا يزال على قيد الحياة إذ رفع

يده الى جبهته مسلما وحرك شفتيه ولكن بغير لفظ . أما ودعكندى فقد مات قبل زميله مع أن تنفيذ الحكم فيه كان بعده فى هذا الاخير ولم تسمع صيحة واحد من هذين الصدرين اللذين تمزق ما بينهما كل ممزق ولبثت الجثتان معرضتين يومين على الانظار

وكان نجاح ديوان افندى في المهمة التى عهد اليه بها باعثا على تجريد حملة ثانية فانه خرج يوم ٢٢ اغسطس ١٨٢١ فى ٣٠٠ عسكرى متجها نحو الشمال الشرقى حيث اقليم (العايزه) فلما اقترب من النهر الابيض التقى بجماعة من عربان الجمالية فقاتلهم فى معركة انجلت عن قتل زعيمهم وغنم ٣٠٠ جمل وكثير من الابقار والاغنام وفى ٣٠ اغسطس جىء الى الباشا بأحد زعماء العصاة وهو تومسا بن عم ملك بربر وخصمه اللدود بتهمة تحريض الاقوام الداخلة فى طاعة مصر على العصيان وأنه أخذ بتكوين حزب له على ضفاف نهر الاتبرة فحكم عليه بالاعدام شنقا ولما أراد المشاعلية شد وثاقه لأخذه الى المكان الذى نصبت المشنقة فيه رجا منهم أن لا يكلفوا أنفسهم مؤونة هذا الاحتياط قائلا : « اذا كنت ذاهبا الى الاعدام أفليس هذا لأن ساعتى قد دنت واننى لا أستطيع لها تقديما ولا تأخيرا ؟ » ثم سار بقدم ثابتة ونفذ فيه

الاعدام من غير أن تنحل عزيمته أو يصيح بصيحة ألم أو أسف

أمعن جنود الباشا فى إفقار البلاد من سكانها بما كانوا يأخذونه من الاسرى ويسترقونه من العبيد سواء لبيعهم فى أسواق النخاسين أو لتكليفهم بالخدمة فى المعسكر المصرى فكان مما لا مفر منه أن تؤثر عواقب هذا الفعل فى الفاتحين أنفسهم . وبيان ذلك أن الامراض الخبيثة كالحميات والدوسنطاريا والصفراء لم تلبث أن تفشت بين الجنود حتى مات منهم بها مائة ومرض ألفان فى شهر واحد . ولم يكن الجيش يزيد عدده على ٣٠٠٠ عسكرى فيكون عدد الاصحاء منه ٤٠٠ فقط . وكان لا يوجد دواء ولا طبيب إذ لا يصح اطلاق هذا الاسم على النصابين والمشعوذين من اليونان والايطاليين الذين كانوا يرافقون الجيش منتحلين العلم بالطب وهم لا يدرون من بسائطه شيئا . على أن ستة من أولئك الأطباء المزعومين كانوا أول من لقي حتفه بتلك الامراض المهلكة فكان موتهم بها دليلا على عجزهم وجهلهم وكان انشاء مستشفى لأيواء المرضى ومعالجتهم بمقتضى تدابير ونظامات لا تتفق مع طبائع الجنود وعاداتهم وكانت الخيل والجمال تنفق في كل ساعة بداخل المدينة وضواحيها فتتعفن رممها وتبقي مطروحة على قوارع الطرقات فيفسد الجو بالروائح الكريهة

المتصاعدة منها فتتفشى الأوبئة ويزداد خطرها . وأحس الجيش بعد ذلك بالجوع لقلة الحاصلات وانصراف الخواطر الى الأمراض المتفشية وبليت على جسومهم الكسى ولم يجدوا للنوم سوى الأماكن الرطبة التي يستيقظون منها تحت سماء ممطرة ليتنازعوا على بعض حبات من الذرة لا تسمن ولا تغنى من جوع . وكان فريق منهم قد زاول بعض الصناعات كتطريز الملابس ونسج الاقمشة وخصف النعال وبيع الفاكهة وكان في ربحهم من هذه الصناعات سداد من عوز ولكن المشترين أضربوا عن معاملتهم شامتين بل ذهبوا الى توجيه الألفاظ الجارحة اليهم في قالب السخرية والتهكم وتداولت الألسنة اشاعات كثيرة عن الحاميات التي تركت لحفظ خط الرجعة وانقطعت اخبار مصر فلم ترد منها القصاد كالمعتاد وساءت الحالة العامة للجيش على وجه خيف معه أن يقلب الدهر له ظهر المجن وأن يورده شر الموارد

على ان قاصدا وصل فى ١٩ ستمبر وعلى يده رسائل تفيد ارتحال ابراهيم باشا من مصر الى السودان ليشد أزر أخيه وأنه اجتاز دنقله. وفي ليل ٢٢ اكتوبر وصل ابراهيم حقيقة في ثلاثين من مماليكه . وكان اسماعيل باشا ينتظر وصول أخيه بعد أسبوع وفى اليوم التالى حياه باطلاق واحد وعشرين مدفعا واستعادت

العساكر بوصوله ما فقدته من ثقة وأمل. وكانوا يعتقدون أن سفنا سترد من شندى مشحونة بالحبوب والمؤن ولكن شندى كانت أتعس حالا من سنار واكثر منها افتقارا الى الحاصلات الغذائية الا أنهم اعتبروا وجود قاهر الوهابيين بين ظهرانيهم كفيلا بخروجهم من هذه الأزمة فلم يعد أحد منهم يتكلم فيما حل بهم من الضنك والشدة واستشعر ابراهيم بثقتهم فى شخصه فأراد ان يشكرها لهم شكرا محسوسا ملموسا بان وزع عليهم الكساوي ودفع لهم مطلوباتهم وفرق عليهم من ازواده الخاصة مقادير وافرة من القمح والارز ليخفف عنهم وطأة المجاعة وأمر بنقل المرضى الى نقطة تبعد عن سنار ببضع فراسخ فنشأ عن نقلهم من جوها الفاسد الى جو طاهر وعن العنايه بهم عناية مبنية على العلم ان تحسنت صحتهم واستقامت أمورهم. وكان الرؤساء والعظماء الذين صحبوا ابراهيم باشا قد برحوا القاهرة ومع كل منهم عشرون خادما فلم يبق الموت لأحد منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة واضطر ابراهيم الى القيام على شؤون نفسه كغيره من أولئك الكبار فان المسيو (أسكو) طبيبه الاول مات فى الطريق بحمي شديدة كما مات صيدليه وخزندار اسماعيل باشا وقائمقام الارنؤود وأصيب هو نفسه بالمرض على طريق العدوى وتعرضت حياته

للخطر وقتاما وكان السنيور (ريتشى) قد رافقـه الى سنار لنقل بعض النقوش القديمة . وكان على درايتـه التامة بالطب رساما حاذقا فرأى أن الفرصة سانحة بل داعية لاظهار براعتـه فى فن العلاج فباشر هذه الوظيفة مقتفيا فيها الاسلوب العلاجي الذى اتبعه مواطنه الطبيب الجنوى (أسكو) فكان التوفيق رائده لانه بالرغم من عـدم وجود أثر للكينا فى صيدليته تمكن من معالجة ابراهيم باشا معالجة أنقذته من الموت . ولما دخل هـذا الامير في دور النقاهة نفحه بعشرة الآف ريال على سبيل المكافأة

ولم تستطع القوارب المشحونة فى مصر بالازواد والاعلاف والذخائر والامتعة الجيش اجتياز شـلالات الشايقية اذ لم يصل منها سوى ٢٦ قاربا بين ٢٤ و ٢٧ اكتوبر فرغ مشحونها على ضفة النيل ثم نقل على متون الجمال طول المسافة التى تستطيع القوارب اجتيازها . أما بقية القوارب فغرقت بين الصخور وكان من بينها قارب جميل برسم ابراهيم باشـا وفيه أموال كثيرة وأمتعة قيمة وغرق ريس هذا القارب وجميع رجاله فأسف الامير جد الاسف عليه . وحينما رأى ابراهيم ان سلحداره و ٢٠٠ رجل من حرسه قد أدركوه اول نوفمبر على ضفة النهر فى نقطة تبعد بمقدار فرسخ عن سنار اشترك مع أخيه فى استئناف الاجراءات الحربية التى

وضع لها خطة من مقتضاها تقسيم الجيش الى فرقتين احداهما بأمرة اسماعيل للزحف على ضفاف النيل الازرق الى فازوغلى والاخرى بقيادة ابراهيم للزحف فى الاتجاه الجنوبى حتى اقليم الدنكا الواقع على النيل الأبيض وتقرر أن يعود اسماعيل من طريق الجبال الغربية ليزور فيها مناجم الذهب بالجهة المعروفة بالقماميل . والامطار فى هذه الجهة تملأ عادة مقدارا كبيرا من الآبار والصهاريج الطبيعية الواقعة على هذا الطريق

وتقرر أيضا ان يلتقي ابراهيم باسماعيل ويسير الاخوان على خطين متوازيين بطول مجرى النهر فيهبطان الجهات الشمالية ويأخذان بين تلك الجهات وسنار من استطاعا أخذه من السودانيين وكان ابراهيم يرى فى الاستيلاء على ٤٠٠٠٠ منهم أمرا هينا . وتنفيذا لما رسم من تلك الخطط ترك ابراهيم اسماعيل وجنوده فى بحبوحة الراحة بالعاصمة السنارية وشرع ينقل جنوده فى قوارب مسلحة . وزوارق خفيفة سهلة النقل برا اذا حالت الشلالات دون سيرها فيها . واوغل بهذه الطريقة فى أرجاء النهر الابيض وروافده ليرى اذا كان بين ينابيعه وبين نهر نيجر اتصال فيسير فى مياهه الى مسافة بعيدة وإلا عاد من حيث أتى وتوقع في الحالة الثانية مروره بكردفان ليتجه منها مع المدد الذى

يرد اليه الى دارفور فبلاد بورنو فالقطر المصرى عن طريق طرابلس الغرب

ولا مشاحة فى أنه لايجمع بين هـذه الفتوحات الواسعة والاستكشافات العظيمة إلا ذوعقل راجح وشجاعة موفورة وعزيمة ماضية تكتسح أمامها المصـاعب ولا تعبأ بما يقع من المصائب . ولكن كثيرا ماتقف المشروعات الخطيرة والاحلام الـكبيرة مشلولة الحركة اذا وصلت الى ميدان التحقيق وإن القدر ليغبط بل ليحسد من تطوح به الهمة الى ابراز تلك المشاريع حتى انه ليتربص بهم الشر فيلقي فى طريقهم المزالق والمعاثر

بدأ ابراهيم بتنفيذ مشروعه يوم ٢٨ صفر ١٢٣٦ الموافق ٥ دسمبر ١٨٢١ اذ أخـذ فى خدمته جملة من الادلاء والمشائخ والملوك الوطنيين ومن بينهم بادى الملك السابق وسار معهم نحو النهر الابيض فى جيش مؤلف من ١٥٠٠ جندى فصعدوا فى النيل الازرق تحت قيادة اسماعيل وبصحبتـه بعض المشائخ والملوك وفى مقدمتهم شاويش أمير الشايقية قبلا وبقيت فى سنار حامية مؤلفة من ١٥٠٠ عسكرى كان نحو النصف منهم لا يزالون مرضى . وفى مساء اليوم الخامس للسفر وقف اسماعيل بجيشه فى (عدلديبا) فعـلم أن أخاه ابراهيم يسبقه بمسيرة بضع ساعات

فخرج للقائه بعد أن أمر رجاله بأن لا يتأهبوا للرحيل قبل الصباح حتى لا يلتقى الجيشان . وفى منتصف الساعة الثانية بعد ظهر ١١ دسمبر كان جيش اسماعيل يجتاز فيما يلى قرية (لونى) ارضاً كثيرة الحزون بها اشجار ميتة وحشائش جافة فاذا بنار قد اشتعلت فيها واندلع لسان اللهب الى الجو فوقع الفزع فى أفئدة العساكر وكانت الريح شمالية غربية فساعدت على سريان النار واتساع نطاق الحريق حتى التهمت من تلك الاشجار والحشائش ما كان متراكما منها على سطح كيلومترين مربعين . وكنت لا تسمع إلا صياح الالم أو الذعر ولا ترى الا العساكر مدبرين حذر الموت والجمال هائمة على وجوهها لا تطيع نداء الآخذين بزمامها، بل كانت تجرى راكضة ملقية أحمالها عن متونها فلا تلبث النار ان تحيط بها وتلتهمها . تلك كانت خسائر هذه الكارثة التى ظن في بادىء الأمر انها بفعل فاعل رام الانتقام لوطنه ولكن اتضح فيما بعد أن الحريق كان مسبباً من اشتعال جذوة نار أدناها بعض المتخلفين من الشجيرات الجافة حينما أراد التدخين فسرت النار منها فكان ذلك الحريق المفزع . وبعد يومين من هذا الحادث وقع فى منتصف الساعة الأولى بعد الظهر حادث من نوعه أثناء الأيغال فى الغابات ولكنه كان كسابقه فى سلامة العاقبة ، ومن ثم سار الجيشان فى

طريقين متوازيين نحو الغرب وطلب ابراهيم اللهو ساعة من الزمان بصيد الفيلة فالتقى مماليكه باثنين منها فأحاطوا بهما عن كثب لينفذ رصاص بنادقهم فى جلدهما ويصيبهما فى مقاتلهما ولقد اطلقوا بنادقهم جميعا فى وقت واحد فوثب الحيوانان فجأة لا من الألم بل من شدة الذعر فجرحا خمسة من الضاربين توفى اثنان منهم وقبضا على اثنين آخرين بخرطوميهما وقذفا بهما من فوق اشجار النبق واللبخ التى لم تلبث أن اقتلعت من مغارسها لتهيجهما بتأثير الرصاص الذى أصابهما

وفى ١٩ دسمبر اتخذ اسماعيل معسكره بين صخرين تجاه قرية (الكربين) بالطرف الشمالى من مجموعة جبال يكثر فيها شجر التمر هندى والدوم والضباع والاسود والقردة الخضراء وقطط الزبد . وهذه الجهة داخلة فى اقليم سنار ولكنها أقرب منها الى بلاد فازوغلى فوصل قصاد من طرف ملك هذه البلاد يحملون المراسيم بطلب الطاعة والخضوع فلم يبق من تجب محاربته غير عبدة الاوثان . وأرسل اسماعيل الى عرب كنانة الملك شاويش أمير الشايقية السابق يدعوهم الى التسليم وتقديم جزية من الذرة والماشية فأجابوا بأنهم لايملكون من ذلك مايفيض عن حاجاتهم وليس من الحكمة فى هذه الحالة تنازلهم

للاجانب عما تتوقف عليه حياتهم . فسير الباشا اليهم ٣٠٠ جندى أسروا منهم ١٧٠ رجلا سيقوا الى خيمة اسماعيل باشا بعد أن وضعت فى اعناقهم اطواق من الخشب فأفرج الامير عن النساء الطاعنات فى السن منهم واحتفظ بالصغيرات وباشرت الجنود ذبح ما فى البلد من الماشية ولا سيما الخنازير المحرم أكلها عند المسلمين . ولما دنا اسماعيل بجيشه فى ٢٢ دسمبر من قرية (كلجو) أرسل بطليعته الى هذه القرية المطلة على سفح الجبل فتسلقت الطليعة المنحدر الصخرى من الجبل وفجأت أهل القرية ولكنهم سارعوا الى الدفاع عن استقلالهم بثبات وبسالة وخيم سواد الجيش المصرى عند سفح الجبل فى الساعة الاولى بعد الظهر فتسلق كل من الحاج حامد وعمر كاشف الجبل أحدهما من الجانب الجنوبى والآخر من الجانب الشمالى وكان رجالهما لا يزيد عددهم على بضع مئات فأخذوا ينتشرون في الارض كلما تقدموا الى الامام لحصر العدو . غير أن حزونة الارض وصعوبة الرقي فيها أفسدتا ترتيب الزحف فاخذ العساكر بسبب عجزهم عن حفظ توازن أجسامهم فوق الصخور الصلدة ينزعون نعالهم ويحملونها فى مناطقهم فلما وصلوا الى البيوت الاولى وقد أخذ منهم التعب والاعياء كل مأخذ شرعوا يقتلون النساء اللائى رفضن السير

معهم . أما الرجال فكانوا قد اعتصموا بقمة الجبل يلقون قطع الاخشاب الضخمة والاحجار الكبيرة ولما تنبهوا الى ان المهاجمين قد زجوا بأنفسهم فى مضائق لامنفذ لها اسرعوا جميعا نحو تلك المضائق وكمنوا خلف الاشجار وأحجار الصوان يتربصون بالفريسة الغر . وكان اسماعيل وعد الجنود بان يدفع لهم عن كل نفس ذكرا أو انثي يجلبونها مكافأة مالية قدرها قرش اسبانى فلبث ينتظر النتيجة الحاسمة لتلك المعركة كى يقف على مقدار الغنيمة ، فلما لم يصل اليه خبر عن شيء رأى ان يتسلق الجبل فى سبعة من مماليكه وشرذمة من الارنؤود وكاد يرد بسبب هذه الجرأة شر مورد ، لأنه ماعتم أن رأى جماعة من السودانيين قد برزوا له من كمين وأخذا يريشون فيه وفى رجاله سهامهم فقتل أحد مماليكه ولما أيقن الباشا وحرسه حرج الموقف أطلقوا البنادق فجندلوا جملة من السودانيين وأسرع الذين ألقوا السلاح منهم لقذف الاحجار والاخشاب بالفرار ومن ورائهم بقية العصابة بعد أن قتل منهم ثلاثة ارباع عددهم فبلغ عدد القتلى من رجال الامير ١٢ وعدد الجرحي ٤٠ فاسف على فقدهم أسفا شديدا خصوصا وقد كان بين القتلى كل من خازنداره وقائمقام الارنؤود الذي عين حديثا في منصبه

وبلغت خسارة العدو ١٨٠ قتيلا و ١٧٥ أسيراً ارسلوا على الفور الى عاصمة سنار . ولم يسمع من أحدهم صوت شكاية ولا تألم بل لم يتنفس أحدهم الصعداء ولا فاه بكلمة وكانت تظهر على وجوههم سمات الاستسلام للقضاء والقدر . وكانت شعورهم شعثة وشفاههم غليظة وخدودهم بارزة وأنوفهم منبطحة قليلا وسحناتهم لا بأس بها وكانوا يسترون عوراتهم بأرهاط من جلد الماعز قد ربطت اطرافها بالجلد الذى كان كاسيا اقدام هذا الحيوان . وكان النساء منهم مؤتزرات بقماش من القطن يستر ما بين الاعكان ومنتصف الفخذين . وكانت بمعاصمهن وأجيادهن حلى زجاج ملون وفي شفاههن السفلى قطع من القصدير كمثرية الشكل وبآذانهن وأنوفهن قطع خشب مثبتة فى ثقوب ثقبت بها

وفى اليوم التالى أى ٢٣ دسمبر أوغلت العساكر فى الجبلين المجاورين لاستقصاء الأخبار واستطلاع الأحوال فوجدوا الاكواخ خالية من السكان وعثروا على جثث قائمقام الارنؤود وزميليه اللذين ذهبا معه ضحية المعركة التى سبق لنا تفصيلها مجللة بالطعنات وأعضاء التناسل مستأصلة منها . وأراد اسماعيل باشا قبل الايغال فى بلاد فازوغلى الاتجاه نحو بعض الجبال الغربية فخرج اليها قبيل الساعة الخامسة من صبيحة ٢٥ دسمبر فبعد

مضى ست ساعات عسكر بالقرب من مسيل ماء فى أرض
صخرية تنبت فى غضونها الحشائش وكان السودانيون من أهل الجهة
قد ولوا الأدبار فأحرقت أكواخهم. وجرد اسماعيل فصيلة من
المشاة وحمل الجمال بمدفعين صغيرين وحاول بهذه القوة الأيغال
فى جبل (جاسى) فلم يستطع السير بين أشجار النبق واللبخ إلا
بتكبد المشاق وتذليل الصعوبات التى كان من أخصها تمزق
ملابس الجنود بأشواك الغصون. وقد مرّ العساكر من هذا
الطريق واحدا واحدا مع الحذر الشديد من السقوط فى الأغوار
الفاغرة فاها تحت الاقدام. وكان يتبع اسماعيل أحد مماليكه حاملا
له النارجيلة فبينما كانا سائرين إذا بقطعة صخر جسيمة تدحرجت
على المنحدر فأخذت فى طريقها المملوك المسكين وسقطت به
فى جوف الهاوية. وكان اسماعيل باشا هو المقصود بهذا الاعتداء
اذ سهل على الاعداء معرفته بثيابه الممتازة على ثياب بقية الجنود
فأمر بالترجل عن الخيل لاتقاء الاحجار التى يلقيها السودانيون
المستترون بالاشجار فما هى إلا لحظة حتى سقط هدف كبير
أخذ فى طريقه جوادا كريما فلما وصل اسماعيل الى السفح أطلق
مدفعين فاكتسح به القمم التى اعتصم السودانيون بها

وفى الساعة الاولى بعد زوال ٢٦ دسمبر اجتاز المصريون

واديا خصيبا بشجيرات كالبردى رأوا فيه شجرة محيط جذعها عشرون مترا فنصب خيامه فى سهل واقع الى الجنوب وفى المساء هبط من أقرب ربوة اليه عدد كبير من الاعداء من غير ان يراهم احـد لتكاثف اوراق الاشجار وحلك الليل وسواد اللون ودنوا من المعسكر حتى صاروا منه قيد نصف مرمي البندقة فرموا نشابهم وصاحوا صيحاتهم المزعجة فاستشعر المصريون بهذا التنبيه الذى جاء اليهم من غير قصد فأخذوا يطلقون البنادق وألقوا ثمانى قذائف من مدفعهم فأصيب المصريون بجراح من الطلقات التى اطلقوها بيدهم. وكان الامير معتمدا على يقظة رجاله لقلة عددهم عن عدد العدو بنحو خمس مرات. وكان مبدأه اعتبار ان الجندى الجدير بهـذا الاسم هو من كان على أهبة مستمرة للقتال وبناء على هذا المبدأ كان لا يرى حاجة الى وضع الحراس خارج المعسكر فلما وقعت تلك الحادثة عـدل عن رأيه فرتب حول المخيم حراسا عديدين يستوثقون من يقظتهم بصيحة يبلغونها بعضهم الى بعض فى كل عشر دقائق ومثل هذا الاحتياط كان لا بد منه وليس فيه مايطعن فى شجاعة الجنود بل هو واقيها من المفاجآت والحوادث الطرآنية

على ان العدو اتخذ من كل غابة وجبل حصنا عزيز المرام

وامتنع فيه على من يرومونه فلم يسع الامير تجاه هـذه الحالة إلا الارتحال عن هـذه الاصقاع الوحشية القاحلة لاستئناف السير الى فازوغلى . وحاول فى ٢٢ دسمبر أن يأسر بعض السودانيين فى جبل (باجيس) فأسر منهم فى جولة به ٥٠ سودانيا وجاء بهم موثقين كتافا وفى ٢٩ دسمبر قصد الى النهر متجها نحو الشرق وكان هو والعساكر يمنون أنفسهم بالعثور على ماء صالح للشرب أو أقل فسادا من الماء الذى يستقونه من المستنقعات الآسنة فعثر على ثبجارة بعرض ١٥ مترا وعمق ٦ أمتار كانت تقطع عليه الطريق فرأى ان ارتفاع حافتيها يضطره الى فتح خندق وقد فتحه فعلا وأرسل فيه الجمال فهلكت تحت أعباء ما تحمله من الاثقال وكانت المدافع لا يمكن إمرارها من هـذا الطريق غير الصالح ، وظهر من جانب العساكر فتور جعلهم يحجمون عن مد يد المساعدة لا سيما وقد اشتد بهم العطش ويئسوا من وجود الماء بعد أن رأوا جفاف ذلك المسيل حتى انهم كانوا يحاولون إطفاء نار عطشهم بوضع أفواههم على الرمال الكاسية لقاع ذلك المسيل لامتصاص رطوبته . ولا شك فى أن من يبلغ به العطش الى هذا الحد لا يرجي تحويل همته الى شأن غير ماهو فيه . وبادر اسماعيل حينما رأى ذلك فنزل الى ذلك القاع وأمسك بزمام الجمال التى

كانت تسحب المدافع وبث في الأفئدة روح الأمل بهذا المثل وبتعليلهم بقرب النيل من هذا المكان فمرت المدفعية ولاح لبعضهم ان يثقب قاع المسيل بأداة معه فما هي الا لحظة حتى نبط الماء منه وتناوب العساكر جميعا ورود هذه العين للارتواء بمائها بعد ان كادوا يموتون عطشا

وما كان أجمل وأجل مظاهر السرور التى حيي بها الجنود هذا الاستكشاف الموفق . نعم إن الجيش لما ارتحل من سنار وزعت القرب على عساكره مملوءة بالماء ولكن عددا عظيما من دواب النقل كان قد نفق تحت ما يحمله من الأعباء الثقيله كما ان العساكر كانوا لا يستطيعون ان يحملوا اكثر مما هو مقرر عليهم حمله من الاسلحة في طرق طويله طلب منهم اجتيازها بسرعة عظيمة فلم يستطيعوا طبعا الاحتفاظ بتلك القرب لحملها . دع انه كان من الشاق جدا على السائر التماس طريق له بين اشجار النبق المتكاثفة والحشائش والاشواك التى كانت تمزق الثياب وتدمى الأرجل والأيدى والوجوه .وبعد سير طويل وصل الجيش الى الضفة اليمنى من النهر عند نقطة تبعد عن قرية فازوغلى بخمسة فراسخ فاستقبل ملكها (حسن) قائد الجنود المصرية . وكان هذا الملك شابا جميلا من قوم (الفونجى) وكان يلبس نعلامدبب

الطرف فى انثناء ويشبه تماما صور النعال المرسومة فى مقابر ملوك طيبة . وكان يعلق فى رقبته أحجبة كثيرة فيها آيات قرآنية وكان مقبض سيفه من الفضة الخالصة وكذا الخواتم التى تختم بها في أصابعه . فلما وقع نظر الملك ووزرائه على الباشا نزلوا عن دوابهم المطهمة وتقدموا نحوه ينحنون انحناء الاحترام والتعظيم . وقدم حسن اليه هدية جوادين حبشيين كريمين وصاح المائة حارس الذين كانوا يحفون به صياحهم المعتاد فى مثل هذه الظروف واصطفوا صفا واحدا جاثين بركبة واحدة على الارض منكسين رماحهم الى أسفل فقرر القائد المصرى ان يشكر للملك هذا الاستقبال الجميل بأن غير خطة سيره بحيث لا تمر جنوده بالقرى التابعة له فتقع منهم المفاسد والشدائد ضد الاهلين . ولم ينصب اسماعيل مخيمه الا بضاحية (يارا) الواقعة على مسيرة اربع ساعات من بلدة فازوغلى . وقضيت الأيام التالية جميعها فى مفاوضات بين اسماعيل والملك وشيوخ البلد فانتهت على أن يقدم أهل فازوغلى ألف أوقية من التبر اى ٥٧ كيلو جراما وألفى سودانى عن كل مائة جبل وأدى الملك ربع هذه الجزية فوراً وفى ١٢ يناير سنة ١٨٢٢ استؤنف السير فى الطريق جنوبا واضطر اسماعيل الى ترك مدفعين وخيام كثيرة وأمتعة ومهمات عظيمة

لقلة مايكفى من الجمال لحمل هذه الاثقال . وانتزعت مؤخرات المدافع الاخرى وحملت بها دواب النقل فكان هذا الاحتياط دليلا على صعوبة الطريق وكثرة الحزون فيه . وكان مما نغص على العساكر فى هذه الآونة افتكارهم فى أنهم سيتركون ضفاف النيل مرة أخرى ولكنهم رأوا فى احتمال تحقق امنية العثور على معادن الذهب خير معوض لهم عن تلك الخسارة

واعترض الجيش فى طريقه مسيل ماء جسيم كان جافافى ذلك الوقت يسمى مسيل (بابا) وهو الرابع من المسايل التى اعترضته منذ الزحف فقضى فى عبوره ست ساعات وكانت الجمال لا تستطيع الوقوف على ضفافه الصخرية ولا اجتيازه لانه كان كهاوية عمقها عشرة أمتار فى عرض ثمانين خطوة ولم تكن مع الجيش حبال تساعد الحيوانات والعساكر على ذلك العبور المحفوف بالاخطار فكانت تلك الدواب المسكينة تتدحرج على المنحدر فتجذب معها أدلاءها وتسحقهم تحتها سحقاً . وكان مما زاد فى اختلال النظام وانفراط العقد خوف السقوط فى أيدى السودانيين النازلين فى البقاع المجاورة لاسيما وأنهم فتحوا باب العداء بالقبض على جماعة من المتخلفين.وهلك في هذه العدوة عدد وافر من الرجال والحيوانات . وفى اليوم التالى سلك الجيش طريقاً يمتد

على طول الروابى من الجهة الشرقية فعثر في طريقه على جثة رجل من عربان الفيوم ترك المعسكر فى طلب شىء من الذرة فقتله السودانيون شر قتلة وطرحوه ارضا فى هذا المكان ليراه زملاؤه عند مرورهم منه . وكان السودانيون يعتزون بكثرة عددهم ومناعة مواقعهم فاخبروا الباشا أثناء اقامته فى فازوغلى بأنه اذا اجترأ على تدنيس قمم جبالهم باحتلاله إياها فلا مفر لهم من تكسير ساقيه ولكنهم ما كادوا يرون اسماعيل وقد وقف تجاه قمم (أكارو) العالية حتى بدلوا من لهجتهم الشديدة وبعثوا يلتمسون العفو ولكنه أبى ان يجيبهم الى طلبهم بل ارسل اليهم الحاج حامد وعمر كاشف بجيش من المصريين أخذ يطاردهم فى مكامنهم الصخرية ويدمر عششهم واستولى على مائة اسير منهم ذهب بهم الجنود الى الافندى المنوط به عمل الحساب ليأخذ عليهم المكافأة الموعودة وهي قرش اسبانى عن كل رأس وكان الشطر الاكبر منهم نساء فى مقتبل الشباب يحملن فى رقابهن خيطا رفيعا من الجلد نيطت به جثة حيوان يسمى فى لغة القوم (بالكنكنة) وكان الكثيرات منهن قد دممن وجوههن بحجر المغرة الاحمر مسحوقا ومضاف اليه شىء من الشحم . وكانت شعورهن مضفورة ضفائر عديده يتخللها فتائل اذا تحركت دفعت عن جسومهن البعوض فكأنها كلة

منسدلة عليها

وأخذ الباشا يعد المعدات لحملة ثانية فى الجزء الشرقى من جبل (أكاروا) الذى كان قد عاد السودانيون اليه ولكن هذه العودة لم تكن بنية العداء لانهم بعثوا برسولين من طرفهم للمخابرة فى الصلح فقال لهم اسماعيل ما يأتى : « انى أريد منكم بعض العبيد لا أكثر فقدموها الى سريعاً وانا لا أعتدى عليكم بأذى وانى أرى بلادكم ومحاصيل زروعاتكم ونساءكم وأولادكم تقع في قبضتى بحالة تزداد كل يوم سوءاً وأن فى مقاومتكم التى تجر عليكم المصائب وتنزل بكم الكوارث مايضيق معه صدرى ويحزن فؤادى فاذا لم يكن اقتراحكم الذى تقترحونه علىّ غشا وخدعة فأتوا جميعا غدا عند شروق الشمس لتقوموا نحوى بواجب الطاعة والاحترام وأنا أعدكم بالعفو عنكم جميعا » فلما كان اليوم التالى لم يحضر أحد فخرج اسماعيل فى ٨٠٠ من رجاله ومدافع للقائهم فلم يجدوا فى بلدة (اكارو) نافخ نار فاضرم النار فى الخمسمائة عشة التى كانت تتألف منها فأكلتها حتى جعلتها كوما من الرماد

بلغ الجيش المصرى الى أبعد مما كان يرمى اليه بالقتال ولكنه لم يبلغ الى شىء مما كان يطمع فيه من مناجم الذهب

فانه لم يستكشف منجما واحدا وغاية مارآه من هـذا المعدن الـكريم شذور كانت تسوقها مياه السيل . وكان بعض المشائخ قد اخبر بان رمال القماميل اكثر الرمال احتواء للشذور الذهبية ولـكن عمليات الغسل التى أجريت هناك أدت الى استكشاف ذرات صغيرة منه . وكثيرا ماكانت تفرغ الآ نية التى يغسل فيها الرمل ويرسب بقاعها الذهب فلايوجد بها أثر بالمرة له. وأجريت فى ختام الامر تجربة قرر اسماعيل انها ستكون الاخيرة وكانت على ملأ من الـكبار والعظماء. وكان بين الاسرى الخمسين الذين جاء بهم الحاج حامد من غزوة حديثة رئيس قبيلة عليه رداء يدل عندهم على أن حامله من أرباب الحيثيات والمظاهر فعول الباشا على ملاطفته ومحاسنته فكساه بجبة من الصوف الاحمر وأظهر له كثيرا من رعايته ثم سأله عن الجهة المعروفة بأنها أكثر من غيرها ذهبا منذرا إياه بأنه اذا حاول غشه وتضليله فانه يقطع رأسه بلا رحمة فعين الشيخ عدة جهات على انها المشهورة بكثرة الذهب فبحث فيها فلم يجد بها أثرا فتولى الشيخ ارشاد اعوان الباشا بنفسه الى تلك الجهات وهى على ضفة مسيل عميق إذ نزل فيه تاركا جيشه على الضفة وعاد بعد زمن من وسط التجاويف الصغيرة التى في قاع المسيل وفى قبضته تراب ضارب الى الخضرة

فشوهدت خلاله شذور ذهب ثم قال إن السودانيين لا يحصلون في فصل الامطار وبعد الحفر الكثير والعمل المتواصل على اكثر من هذا الذهب فتبين لاسماعيل ان لا فائدة من الأيغال في بلاد لم يدع أهلها راحة لجنوده وآلوا على أنفسهم إضعاف قوتهم واستنزاف اقواتهم بالمناوشات المتواصلة الطويلة

ولا ريب ان هؤلاء الناس كانوا يعلمون الخبر الذى تداولته الالسنة بان قافلة تحمل المؤن والبارود والذخائر المختلفة فى سنار برسم الجيش المصرى قد استولى السودانيون عليها وقتلوا احراسها البالغ عددهم خمسة وعشرين حارسا . وكان اسماعيل قد وصل الى حدود شمال الحبشة فرأى من ضعف قوته بسبب الامراض والحروب مالا يبيح له الاشتباك فى القتال مع أمة قوية كالامة الحبشية لها نظام سياسى وعسكرى ثابت منذ أجيال عديدة وكان ملوك (دورار) وفازوغلى كثيرا مايقولون عن الحبشان : «أترون الاشجار التى امتلأت بها رحاب أراضينا ؟ إنها لأقل عددا من رجال تلك الامة وسلاحها ومفاجآتها الليلية» وهذا الاحصاء كان يستثير فى نفس بطل كاسماعيل الشوق الى منازلتهم ولكن عواصف الحوادث في سنار كان قد رن في سمعه دويها البعيد إذ فشا فيها العصيان واجترأ العصاة على ضبط البريد الذى يحمل الرسائل

اليه بالاحوال ونشروا الاخبار السيئة عن حالة الجيوش المصرية حتى رسخ في اعتقاد الجمهور أنها قد فنيت عن آخرها فتحركت فى النفوس كوامن الحقد واشرأبت الأعناق الى الأخذ بالثأر فقتلوا قائمقامية الحاميات وعساكرها بالقرى غدرا وغيلة وتهددوا حامية العاصمة السنارية بصب جام غضبهم عليها. وكانوا قد هموا بذلك من قبل ثم أحجموا عنه عند مابلغهم نبأ وصول ابراهيم فى جيش ضخم. وطار شرر الفتنة العامة فأصاب الحلفاية وشندى. وكأن العناية الالهية أرادت ان لايجد أمامه بعد البلاد التى وصل اليها سوى الجبال الفاصلة بين النوبة والحبشة ليحجم عن الزحف الى الامام ولا يقيم طويلا فى هذه البلاد. ولما كان من عادة الشايقية اذا بلغوا فى غزواتهم الى جهة يريدون أن تكون حدا لايتجاوزونه الى مايليه ان يصنعوا لأحدهم مثالا من مادة ما ويركبوا هذا المثال جملا ثم يدفنونه بعد الطواف به عليهم فقد قام الموجودون منهم فى الحملة المصرية بصنعه ودفنوه إشعارا ببلوغهم الى المدى الاقصى من رحلتهم

انقلب اسماعيل بجيشه الى سنار آخذا معه بضع مئات من السودانيين التقطهم فى الطريق فلم يجد أخاه ابراهيم لأنه لم يستطع مجاوزة بلدة (الكربين) على أثر علة انتابته وهى هياج

الدم. وكان قد أراد بالرغم من شدة الألم أن يواصل السير في طريقه متجها نحو الجنوب الغربى ولكن تبريح الداء به مضافا اليه سوء تأثير الحرارة الجوية فى جسمه إذ كانت تتراوح بين ٤٠ و ٤٥ درجة أزعجا الأطباء على صحته ، فلم يسعهم إلا تقرير عودته الى مصر فى أقرب وقت فخضع ابراهيم لأشارتهم مرغما وعهد بقيادة فرقته الى سلحداره وطوسن بك اللذين وصلا بعد مسيرة اربعة عشر يوما من ضفة النيل الأزرق الى النيل الأبيض ثم عادوا الى سنار ومعهما ثمانمائة سودانى أسرى . ولم يتجاوز فى رحلته بلاد (الدنكة) التى يصطحب مقاتلوها عائلاتهم أثناء القتال. ومن عادة أهليها حلق رؤوسهم والنوم اثناء الشتاء فى الرماد الساخن ويلبس ملكهم عمامة بيضاء عليها ريشة نعام وأبناء الأغنياء الذين لم يبلغوا الحلم تخلع لهم الاسنان الاربع القواطع فى الفك الأسفل لعدم فائدتها فى نظرهم وتشويهها للوجه ويحمل كل منهم جرسا صغيرا معلقا بأسفل البطن كما يحمله الشيخ معلقا بأحدى ذراعيه وتلبس نساؤهم الجلد كمئزر قصير ويسير الرجل مجردا من الثياب ويدخن التبغ فى غابة طولها أربعة أقدام ويتزوج من النساء بقدر ما يمهرهن به من الأبقار ويدهن كل الجسم يوم زواجه بالدهن ممزوجا بالهباب كما تدهن العروس به جسمها ليلة جلوائها ويقضى كلاهما

وقته فى نتف شعر الآخر ويطلق المرأة التى لاتجىء له فى كل بطن بتوأمين ويجر من القدمين كل من يرتاب فى ارتباطه مع زوجته برباط العشق ليلقيه فى حفرة أعدها له مالم يكن العاشق ابنه فأنه فى هذه الحالة لا يمسه بأذى إذ من المقرر فى عاداتهم انتقال حقوق الزوجية من الآباء متى قوست الشيخوخة ظهورهم الى ابنائهم

على أنه أية فائدة كانت ترجى من بقاء اسماعيل باشا بعيداً عن الاسكندرية بستمائة فرسخ . لا شك فى أنه لم يرض بالبقاء فى تلك الاصقاع النائية إلا تقية غضب والده عليه وإلا فمن غيره يكون أحرص على النظام أو برّاً بوالده الى حد الطاعة له كما يطيع الطفل الصغير والده ! سأل والده استدعاءه مستندا على أنه لم تعد هناك فائدة ترجي من بحث جديد عن مناجم الذهب وعلى تضعضع صحته لما توالى عليها من الحميات المختلفة وتأثير الجو الرطب . وبرح البريد الحامل لكتابه بذلك يوم ١٨ فبراير ١٨٢٢ ومعه قنطاران من رمل القاميل الذهبي ومذكرة شارحة للتجارب التى أجريت بلا جدوى لاستخراج الذهب . ومما قاله فيها : «اعتاد والدى حفظه الله أن يصف تقارير خدمه وأتباعه بأنها تخمينية فرضية لا ترتكز على أساس من الحقيقة» . وقد تحقق هذا القول

فان رسالة اسماعيل لم تلق فى بادىء الأمر لدى والده الموافقة المنتظرة منه لأنه كان قد رسخ فى اعتقاده وجود الذهب الذى يريد ان يستعين به على القيام بمشاريعه الكبار. وكان ككبار الحاسبين لا يحب الرجوع عن أول حساب عمله ولو كان خطأ لذا لم يكد يتم مطالعة رسالة اسماعيل حتي قال : « إن ابنى لا يزال فى مقتبل العمر وقوة الشباب فمن الواجب عليه أن يقتحم أخطار الحروب ويتحمل اختلاف الفصول » ولكن اصدقاء اسماعيل من حاشية والده ألحوا عليه بما دعاه الى التصريح له بالعودة الى مصر فلما كانت غاية محرم ١٢٣٨ الموافق سنة ١٨٢٢ برح اسماعيل سنار فى بضع مئات من رجاله فتلقاه أهل شندى فى مدينتهم بمظاهر الاحتفاء والاحتفال ولكنهم لم يظهروا مثل هذا الحماس فى دفع المتأخر عليهم من غرامة الحرب التى رضوا بدفعها وهى ألفان من أهل السودان و٢٠٠٠٠ قرش اسبانى أى ١١٠٠٠٠ فرنك فحتم اسماعيل عليهم دفع المتأخر وضرب لهم ميعادا خمسة أيام فجاء الملك نمر اليه شاكيا هذا التشدد وملتمسا ميعادا اطول واذ كان هناك مايحمل اسماعيل على اسناد هذا التخلف عن سداد مطالب الحكومة الى تهاون المشايخ ومكائدهم فلم يتمالك من اظهار غضبه وسخطه عليهم فأبدى الملك حقيقة مايكنه قلبه من السخائم اذ

تجهم للأمير فى خطابه فساءه ان يسمع منه ماقاله وغضب وكان بيده الشبك يدخن به التبغ فبدرت منه حركة أدت الى اصطدام الشبك بخد الملك نمر فقام نمر مغضبا مزمجرا يطوى في قلبه اسوأ النيات وجاراه فى غضبه وتذمره الملك مسعد الذى كان الى هذا الحين يرفض كل اقتراح من زميله عليه بالنزوع الى الثورة وساعده على تدبير مقاصده وتنفيذ مكائده . واشترك الاثنان فى إهاجة الاهلين سرا .وجاء نمر كل يوم ليقبل يدا يروم قطعها متظاهرا بالود ومضمرا العداء فكان شأنه شأن سميه النمر الوحشى الذى يلمس اليد ليتحسس أوفق المواضع منها لعضها وكان اسمه فى الاصل (نائر)فلقبه الأهلون بالنمر لما عرفوه فيه من غريزة الوحشية وحب الفتك بالارواح وسفك الدماء

جاء نمر يدعو اسماعيل الى وليمة أعدها اكراما له فأجابه الى هذه الدعوة وترك السفينة التى كان يقيم بها فى عشرين من اخصائه وكان نمر قد أقام له قصرا من القش ليس به سوى منفذ واحد ليستقبل الامير فيه أعيان البلدة ويتناول الطعام وجمع وراء هذا القصر كثيرا من القش والقصل وسيقان الذرة لعلف خيول الباشا اثناء الزيارة فلما استقر الباشا ورجاله فى المكان حتى اجتمع الرجال والنساء حوله صائحين متحمسين فاغتنم نمر فرصة هذه

الجلبة لاشعال القش والكوخ فى نحو عشرين موضعا وعجل الرجال الذين معه بجمع مااستطاعوا من المواد القابلة للالتهاب وألقوها حول الأتون فاندلع لسان اللهيب فالتهم سقف المكان الذى أعد لتناول الطعام وظهر الباشا واصحابه عندئذ وبايديهم السلاح فما تراءت اشباحهم للمجرمين حتى اخذوا يرشقونهم بالسهام ويردونهم الى داخل الأتون وما زالوا بهم حتى ماتوا محترقين بينما كانت عامة الناس تصيح صياحا أشبه بزئير الضوارى كما كان نمر يصيح صياحا مزعجا ويضحك ضحك التشفي والانتقام

وفى الجهات الاخرى التى كان الكثيرون من أصحاب الباشا متفرقين بها انحى الجمهور المنتقم على رقابهم بعد أن ثملوا بخمرة (أم بلبل) وفعل الملك مسعد بالمصريين فى الناحية الاخرى من النيل حيث المتمة مافعله النمر بهم هنا . على ان بعضهم نجا من المجزرة الشنيعة بالالتجاء الى فقير يدعى (ريه) وعثر فى عشة على الطبيب اليونانى الخاص باسماعيل باشا وكان الناس يكرهونه لقسوته وإغرائه الباشا بهم فجاءوا به الى نمر فاقتلع له اسنانه جميعا فتخاطفها النساء ليجعلوها في اكياس جلد يعلقونها برقابهن اعتقادا منهن انها تقى حامليها شر الأصابة بالامراض ثم أعدموه

بالطريقة التي كان من اكبر المحرضين على اتباعها فى اعدام السودانيين وهى الخازوق . وكان أحد خدم اسماعيل قد نجا من القتل فسار توا الى المعسكر ووافى الجنود بحقيقة الخبر فعثر هؤلاء فى اليوم التالى بجثة الباشا بين أطلال القصر الذى اغتيل فيه وقد احترقت ساقاه ونصف جسمه وطعن صدره بالرماح طعنات كثيرة وأبلغ الخبر الى محمد على باشا فوجد على ابنه وجدا شديدا

وكان لابد من معاقبة المجرمين على ما اقترفوه من تلك الجريمة الشنعاء فأمر محمد على الدفتردار محمد بك بمعاقبتهم معاقبة لارحمة فيها . وجدير بنا قبل الاسترسال فى شرح الوسائل التى هيئت لاداء هذه المهمة ان نشير الى مهمة أخرى كان الدفتردار مكلفا بها وهي فتح اقليم كردفان . برح الدفتردار مصر لمباشرة هذا الفتح فى ٤٠٠٠ عسكرى منهم ٨٠٠ من العربان والمغاربة عقب رحيل اسماعيل باشا عنها بستة اشهر . وكانت القيادة العليا لهذا الجيش معقودة لابراهيم باشا، فما كاد يبلغ الى دنقلة حتى انفصل ليدرك أخاه ويدبر الوسائل لاحتلال دارفور وهو الاحتلال الذى كان داخلا فى مهمته الخاصة ، فبقيت لمحمد بك الدفتردار القيادة على ذلك الجيش المؤلف من ٣٥٠٠ جندى معهم

عشرة مدافع فترك النيل من خلفه تجاه (عيداب) على بضعة فراسخ من عاصمة النوبة موغلا في الجنوب من الصحراء حيث ظل وجنوده أسبوعا كاملا بلا ماء . فلما وصل الى قرية (بارا) أطفأ بعد أوار التعطش الى الماء أوار التعطش الى العمل . فلقد كان العدو متربصا به للدفاع عن (الابيض) الواقعة على مسيرة ستة فراسخ من هذا المكان . وكان فرسانه يلبسون مايشبه ملابس العرب فى حروبهم مع المسيحيين من خوذات مدببة لاعيون لها تتصل أطرافها السفلى بقضبان حديد سابلة الى العنق ورداء زرد أيضا. وكانوا متسلحين بالرماح والسهام المسننة النصال والسيوف العريضة ذات الحدين وكانوا على حذق تام فى الضرب بهذه الاسلحة .اما الخيول فكانت محمية بدروع من الصوف المخيط كما كانت رؤوسها محمية بغطاء من النحاس تهبط منه اسلاك حديد . وكان مشاتهم عراة تقريبا وانما يحملون درقة من جلد وحيد القرن كالشكل المعين فى الهندسة .وكان مكانهم من الجيش المؤخرة ينتظرون العدو جثاة على إحدى الركبتين وبيمناهم سهم مسدد .وكانت شعورهم كثة مرسلة الى الكتفين لتصد ضربات السيف فاشتبك الفريقان فى قتال عنيف دل على شدة البأس وقوة المراس .

وكان فرسان كردفان شديدى الوطأة فى حملاتهم يثابرون على التقدم الى الأمام رغم المدافع التى تصب النار على رؤوسهم ولقد بلغ من بسالتهم وشدة بأسهم أنهم استولوا على مدفع بعد أن قتلوا القائمين عليه ولكنهم بدلا من استخدامهم إياه ضد عدوهم الذى روعته شدة حركاتهم الجريئة انهالوا عليه ضربا بالسيوف وكان اولئك المتوحشون لجهلهم بالاسلحة النارية يمرون باصابعهم على الجراح التى تصيبهم منها من غير أن يدركوا السر فى إصابتهم بما سموه بعد بالصواعق الخفية التى لا يشهدون منها إلا الأثر ولقد أحزنهم استعصاء هذا السر على أفهامهم القاصرة .

على ان الحرب كانت لا تزال سجالا ولم ترجح كفة فريق على فريق حتى أطلقت طبنجة كان إطلاقها سببا لرجحانها فى جانب المصريين . وبيان ذلك ان شيخ قبيلة الجمعيات قتل سالما قائد جند كردفان بطلق نارى فلاذ هؤلاء بالفرار فقتل المصريون منهم وجرحوا نحو الألفين بينما خسارة المصريين لم تتجاوز ثلاثمائه قتيل وسلك العربان مسلكا حميدا جدا ظهرت أثناءه براعتهم فى القتال . وقتل ثلاث من نسائهم فى المعركة . وكان محمد بك الدفتردار مع انتهاك قواه بالمرض خير قدوة لعساكره فى الشجاعة والأقدام اذ كان يهاجم الأعداء فى مقدمة فرسانه فلما احرز

الفوز وسقطت البلاد فى قبضته دخل مدينة الأبيض دخول الظافر . وكان بعض السكان اعتصم بالجبال الجنوبية العزيزة المرام وهاجر البعض الآخر الى دارفور فاضطر محمد بك الدفتردار منذ هذا الحين الى اتباع طريقة المناوشات فى قتالهم . وكان الغرض الذى يرمى اليه بذلك تحصيل المغارم والفرض التى فرضها على الاهلين فكانت نتيجة عمله ان تواردت عليه قوافل العبيد والجوارى وأحمال الاقمشة والصمغ والذهب

واتصل به في الاثناء خبر قتل اسماعيل فعهد بزمام القيادة والحكم الى حليم بك وتحرك الى سنار ليصب جام الغضب على أهلها تحقيقاً لأمنية محمد على باشا وإرضاء لروح الفقيد معاهدا نفسه أن لا يضحى فى هذا السبيل أقل من عشرين ألف نفس . ولكنه ضحى فى الحقيقة اكثر من هذا العدد بعشرة آلاف نفس أما مدبر الجريمة ومنفذها الاكبر فقد جمع حوله شيع الثائرين وحاول القتال فى بسيط الارض فتمزقوا كل ممزق ونجا بنفسه هاربا الى دارفور . ولم يغير محمد بك الدفتردار بعد هذا الانتصار شيئاً من الخطط الحربية والاساليب الادارية التى سنها اسماعيل باشا فى هذه البلاد فبقي الى أكتوبر ١٨٢٠ على حكومة كردفان والنوبة العليا والنوبة السفلى ملقياً الرعب فى

النفوس ومزعجا لها بأساليبه القهرية الاستبدادية . وكان جيشه مؤلفا من ٥٨٣٠ مقاتلا استبدلوا فيما بعد بغيرهم من الجنود المنظمة بحسب النظام الجديد . وكان فى المدة التى قضاها بالسودان يجوب الاقطار من كردفان الى سنار ومن سنار الى شندى تاركا الأرض من ورائه خرابا يبابا وأشلاء القتلى منتثرة فى كل مكان وكان لايعطي الأمان للأهلين إلا اذا أعجزهم عن النهوض للانتقام فاذا أعطاه عاد المهاجرون منهم الى اوطانهم وزاولوا أعمالهم كعادتهم

وذهب محمد بك الدفتردار يوما ليزور الفقير (ريه) ويشكر له إيواءه المصريين فى بيته وإكرامه مثواهم ودفاعه عنهم يوم مذبحة المتمة، فما كاد يصل الى عتبة دار هـذا الشيخ حتى ريش بسهم فى ظهره أراد راميه ان يرديه به، ولـكن الاصابة لم تكن قاتلة فاستأنف معاملته للأهالى بالشدة والصرامة فانه ما كان يقع منهم أحد فى قبضة الحامية طفلا كان او شيخا إلا ورميت عنقه . أما النساء فقد أرسلن الى القاهرة بعد ان وسمت أذرعتهن بميسم الرق والاستعباد ولم ينج من هذا الميسم أحد حتى بنات الملوك اللائى كن فى قصور آبائهن يرفلن فى ثياب العزة والجلال ويمشين مشية الصلف والدلال . وما وقعت انظار محمد علي على

هذه القطعان البشرية الراسفة فى قيود الذل والمهانة حتى أخذته الرأفة بهن فأعادهن الى مواطنهن ووزع على أسراتهن المنكوبة بعض أكياس من المال ، ولكن ماقيمة الذهب مهما كثر اذا ضاع فى مقابله الهناء ونعيم البال في ظلال الاستقلال ؟

ثأر الدفتردار لنفسه ولاسماعيل أخي زوجته وكان هذا الثأر عدلا لأن هذا الامير كان جديرا بان تكون خاتمته غير التى لقيها. كان شهما شجاعا جميل الطلعة تؤهبه الصفات الحميدة والشيم العالية لاحراز صنوف المجد والتمتع بمستقبل زاهر ولم تكن الحملة العسكرية التى تتبعنا خطواتها بما ذكرناه من أحوالها خالية من الآثار الموجبة لاطرائه وتحبيذه فلقد كان اسماعيل فى نضرة الشباب أى فى الوقت الذى يؤثر أبناء الملوك فيه التفرغ للملاهى والشهوات على الاستيقاظ من نومهم منزعجين بصوت النفير العسكرى . وكان يزج بنفسه فى المعارك الخطيرة ولا يعبأ بالسير فى الطرق المحفوفة بالحشائش والادغال الشائكة التى تمزق الملابس والجلد ، ولا بالتهاب النار فى الغابات ، ولا بالنزول فى الأغوار العميقة ، ولا باحتمال الامراض الوبيئة والجوع والعطش ، ولا باقتحام الحيوانات الضارية . ولاريب فى أنه كان جم الشجاعة والجلد حتى تمكن من جوب الآفاق البعيدة واختراق بلاد

تسكنها شعوب متوحشة ميالة بفطرتها الى القتال ، ومن فتح بلاد مساحتها ٤٥٠ فرسخا فى أشهر تعد على الأصابع والاستيلاء على اثنى عشر اقليما ومملكة بجيش صغير لا يتجاوز عدده أربعة آلاف عسكرى قد حرموا كل شىء حتى المؤن الغذائية . وكان الوحيد الذى استطاع بما توافر له من تلك المزايا ان يرفع علما شرقيا على مرتفعات الجبال التى لم يستطع الفرس ولا الرومانيون الوصول اليها

ولقد اشترك بعض الأوربيين في أعمال هذه الحرب وتكبدوا مشاقها فلا أحد منهم إلا وقد انطلق لسانه بالثناء على اسماعيل واطرى أخلاقه الكريمة . وحدث أن أحدهم وهو الايطالى (فردينانى) الرحالة الشاعر أصيب بجنون على أثر حمى شديدة نزلت به فأحاطه الباشا بجميع وسائل الاسعاف التى توافرت لديه فكان طبيبه الخاص يلازمه ليل نهار وطعامه من خاصة طعامه . واقام الضباط والقواسة على خدمته وجعل تحت تصرفه المال الكثير وشاطره ما كان عنده من الثياب القليلة . وقد أدرك أنه يميل بفطرته الى المعالى ويتأثر بأقل شىء فأنعم عليه بشرائف الرتب وذهب بنفسه لزيارته ومواساته بكلامه الطيب وكان المسيو (فريدريك كاليو) من مدينة نانت بفرنسا

مبعوثا لحكومته فى مصر . وكان عالماً بالمواليد واسع الاطلاع على الشؤون الجغرافية وكان يلقب ابراهيم باشا واسماعيل باشا بالشاهين الناصرين له فأهدى ابراهيم بمصر ذات مرة آلة زوالية مدفعية كانت تأخذه هزة السرور كلما أخطرته بمواقيت الصلاة . وكان اسماعيل يباشر بنفسه فى مدينة سنار تدريب مدفعيته فكان يعمر المدافع بمهارة وحضور ذهن عديمي المثال. وكثيرا ما كان يطلب اليه الموسيو كاليو ليقول له : « من الواجب ان تتعلموا مثلى القيام على تدبير المدفع ، فقف اذاً بجوارى فى المعركة المقبلة فأذا شاء حسن الطالع أو شؤمه ان نكون الاخيرين بعد فناء الجيش كله فلا أقل من ان نجد وسيله للدفاع عن أنفسنا » وما افترق القائد والرحالة عن بعضهما إلا وقد ارتبط قلباهما بروابط المودة الوثيقة التى لا انفصام لها



الباب العاشر

بلاد موره

من ١٨٢٣ الى ١٨٢٩

قام المصريون بأفريقية العليا فى القرن التاسع عشر بمثل ما قام الاسبانيون به فى القرن الخامس عشر بقارة أمريكا إذ استولوا على أقطار متنائية الأطراف لم تطأها من قبل قدم أجنبية وأخضعوها لحكمهم على ان تدفع لهم جزية من المال. ولقد كانوا يملكون نصف النيل فاصبح هذا النهر منذ ذلك اليوم لا يروي أرضا لا تعترف بسيادتهم وتسلطهم. وقد عنت لهم رقاب العباد فى أقطار النوبتين العليا والسفلى وهى البلاد التى لم تر منذ غارة قمبيز جيشاً دهمها من الجيوش القوقازية الاصل فأخذت تبكى حريتها واستقلالها. ولكن محمدا عليا كان قد أعاد الدولة المصرية بهذا الفتح المبين الى سابق مجدها فى عهد الفراعنة فبالسيف ضم الممالك الى الممالك تحت حكمه وبعبقريته العاملة البصيرة المصلحة بدل من أحوال تلك الممالك بأحوال غيرها. وكان

أميا يجهل القراءة والكتابة فتعلمهما على امرأة أديبة من نساء حرمه . وكانت افكاره تمتد الى أمد بعيد فاتسع لها النطاق وانفسح المدى على أثر ما جد من الروابط بينه وأوربا فى الشؤون العلمية والادارية وتجرد من الخيالات والاوهام ليقف على حقائق الامور فى شؤون السياسة وحمل أهل أفقه على الاستمساك بعرى المدنية الحديثة وطبق المبادىء التي سنها نابليون سيد الغرب على العالم الشرقي فكان كأنه الوكيل الذى عهد اليه ذلك القائد العظيم بتنفيذ وصيته

وكان من أجل المشاريع لتوفير السعادة العامة وتكثير الخيرات تعضيد الزراعة والتجارة اللتين يتوقف نهوضهما على انتظام الرى بواسطة النيل . وكانت الترع والقنوات التى توزع على الأراضى مياهه المخصبة قد اندثرت آثارها وزالت معالمها وامتلأت بالأتربة وسدت بها فلم يكتف محمد على بترميم هذه الترع واصلاحها بل زاد فى عددها بحفر ترع جديدة. وأنشأ المواصلات بالتلغراف وأقام المعامل لتكرير السكر وصناعة ملح البارود ووضع أساس المعامل لمزاولة الصنائع المختلفة ووزع ١٥٠٠ بستانى من الفرنسيين وغيرهم على الاقاليم المصرية لأيقاف الناس على أجود الأساليب الزراعية واطلاعهم على الاسرار المؤدية الى مضاعفة

حاصلاتهم وخيرات ارضهم .وجاب العلامة (جومل) الى مصر القطن ذا الفتلة الطويلة الناعمة وتولى المهندس (لينان) ادارة المنافع العمومية وأنشأ الطبيب (كاوت) الذى سمي فيما بعد (كاوت بك) مدرسة الطب والجراحة .ثم انشئت مستشفيات عديدة بعضها ثابت وبعضها نقالى عهد بشؤونها الى أطباء فرنسيين برآسة الدكتور (دوساب) والدكتور (لايات) . وعهد الى (هامون) بادارة مدرسة الطب البيطرى والى فرنسية وهى الآنسة (جوت) بأدارة مدرسة الولادة وارسلت زهرة الشبيبة العربية والعثمانية الى العاصمة الفرنسية للتعليم والاطلاع على اسرار التقدم فتألفت منهم برآسة العلامة (جومار) تلك البعثة النافعة المعروفة بالارسالية المصرية التى أفادت الوطن المصرى فائدة جليلة بأن نثرت فى أطرافه ماحصدته بفرنسا من بذور العلم والعرفان

وكان محمد على يرى فى تنظيم الجندية اول عنصر من عناصر القوة .وانما كانت تعترضه مصاعب جمة فناط بالجنرالين (ليفرون) و (بوابيه) والكولونل (جودان) والضابط الامبراطورى (سيف) المسمي الآن بسليمان باشا القيام بتلك المهمة . وكان (أوكتاف جوزيف انتلم سيف) ابن رجل مهنته طحن الغلال

وولد بمدينة ليون فى أول أفريل سنة ١٧٨٧ وكان جده نسيج وحده فى القوة البدنية حتى لقبه أهل بلده لهذا السبب « بالتركى » وتوفى والده فى سنة ١٨٣٢ اى في الوقت الذى كانت لابنه فيه اليد العليا فى فوز الجنود المصرية على الجنود التركية بسهول قونيا وكان سيف وهو في ريعان الشباب شديد الميل الى الجندية فذهب الى ثغر تولون سنة ١٨٠٤ وانتظم فى سلك البحرية برتبة اسبيران ، فبعد خمس سنوات قضاها في هذه الرتبة رقي الى رتبة صف ضابط بالطابور الثانى من المدفعية البحرية . وشغف حباً بأعمال الجنود الفرنسية البرية فترك متن البحر لمتن الارض. وكان في مدة خدمته البحرية قد جاب أنحاء البحر الابيض المتوسط واقتحم خضمات الأوقيانوس فوصل الى جزائر (الانتيل) ثم عاد الى أوروبا وبذراعه اليمنى جرح أصابها من طعنة أثناء واقعة (الطرف الاغر) حينما التحمت احدى السفن الانكليزية بالسفينة الفرنسية التى كان هو أحد بحريتها . واتفق بعد ذلك ان دعا خصما له الى المبارزة فقتله فيها فحمل قلبه لهذا السبب غما شديدا فأراد ان يسرى هذا الغم عنه بالرحلة والانتقال واختلاف المناظر ، فقصد فى أول امره الى ايطاليا حيث عرض نفسه للخدمة كجندى بسيط بالطابور السادس للخيالة ، وهو

الطابور الذى كان يقوده الكولونل (باجول) . وكان مطلوبا من الفرسان ان يتدربوا على مناورات جيش المشاة ، فتدرب عليها بارشاد صف ضابط فى المدفعية فعين بعد قليل معلما عسكريا نظرا الى ما أبداه من البراعة والكفاءة فيها . وفاق فوقا عظيما فى واقعة (الرين) سنة ١٨٠٩ وقتل جواده من تحته في ذلك اليوم . وأصابه عيار نارى وثلاث طعنات بالسيف فالتقطه العدو مثخنا بهذه الجراح وبقي فى أسره الى سنة ١٨١١ حيث فك عقاله فعاد وعين برتبة بلوك امين . وفي حرب الروسيا رقي الى رتبة أخرى وقام أثناء الانسحاب من موسكو بوظيفة ضابط المراسلة للمارشال (نى) . وفى معركة (بيريزينا) قتل جواده من تحته ، وفى ملحمة (بوزن) جرح بطعنة رمح فعين وكيل يوزباشى ثم صار ضابط المراسلة للجنرال (بيريه) سنة ١٨١٤ فاستولى على نقطة لعساكر القوزاق بضواحى (لافرته سور أوب) على مسافة ثلاثة فراسخ من طلائع الفرنسيين . ورقي الى رتبة اليوزباشي فقتل جواده من تحته في معركة (بريين) . وكان على وشك ان يقلده نابليون رتبة جديدة حينما لفظت الامبراطورية نفسها الأخير . فعين عضوا فى اركان حرب المارشال (جروشى) لحضر حروب المائة يوم (صان جور) . وكان صريح العبارة حر

الفكر فلم يستطع بعد واقعة (واترلو) ان يخفى مايخالج نفسه من الميل الى نابوليون والأسف عليه ، فكان ذلك حائلا دون قبوله فى الحرس الملوكى . ولما لم يدر أية جهة يولى وجهه شطرها منذ غاب رئيسه المحبوب من ميادين القتال تفرغ للزراعة في سهل (جرونل) ولكن الميول العسكرية كانت تتغلب فى نفسه على الميول الاقتصادية . وإذ أصبحت ابواب العسكرية فى فرنسا مغلقة فى وجهه فقد عقد النية على التوجه الى فارس التى كانت حكومتها آخذة باصلاح جيوشها وتنظيمها على النمط الاوروبى وكانت مصر فى الطريق التى سيسلكها للذهاب الى فارس فقدمه بعض عارفيه الى محمد على باشا فاقترح عليه الخدمة فى الجيش المصرى ، فراق له هذا الاقتراح ورضى به . فقال له الوالى : « عليك ان تضع النجاح فى مهمتك نصب عينيك ومهما تكن مطامعك فان كرمى سيفوق عليها فوقا عظيما » وكانت المهمة الموكولة اليه محفوفة بالصعوبات لانطماس العقول بالاوهام الفاسدة التى كانت سائدة فى الشرق على ذلك العهد . فمن ذلك انه احتك بمقاومات شديدة عند ماشرع فى أول عمل لاصلاح الجندية ، اذ كانت نتيجة شروعه فيه أن ثارت ثائرة الجند فحاصروا الوالى بضعة أيام وقد بذل الضابط سيف كل ماعنده من حذق للتغلب على تلك المصاعب

وعرض حياته للخطر بسببها مرارا بما دس له من الدسائس ونصب
من المكائد ولكنه تغلب عليها بشجاعته وحضور ذهنه

وكان قائما ذات يوم بتدريب الجند فأذا برصاصة اطلقت
صوبه ولامست رأسه فلم يعبأ بها ولم يتحرك له نبض بسببها
فقال لعساكره: «انكم لأغبياء لاتحسنون تسديد البنادق ولا
إصابة المرمى . فهلموا الى بنادقكم واطلقوا منها النار» فأطلقوا
النار جميعا ولكنه لم يسمع رصاصة منها تصفر بجوار أذنه . ومنذ
هذا الوقت لزم الحانقون والمتذمرون السكوت والامتثال ،
فأتم تدريبهم وتعليمهم فى ثلاث سنوات . وكان ابراهيم باشا قاهر
نجد خير قدوة فى الامتثال لأنه كان ينفذ الأوامر كارادة معلمه .
وما لبثت جند النظام الجديد أن أتيحت له الفرص لتطبيق ماتلقتاه
من التعاليم العسكرية . فأن بلاد اليونان كانت فى ذلك الوقت
قائمة على قدم وساق تطالب بحريتها وتنشد استقلالها المفقود .
وكان خورشد باشا الذى رأيناه بمصر ينازع محمدا عليا صولجان
الحكم عليها قد ترك بغفلته وسوء تدبيره جموع الرعايا اليونانيين
يتغلبون على جيشه المؤلف من خمسين ألف مقاتل ويمزقونه تمزيقا
فمن اه بسبب ذلك خزى عظيم لم يشأ ان يعيش بعده فانتحر
بيده . وكانت أودية (تساليا) و(مورة) وهضابهما قد جللت

بجثث اربعة جيوش عثمانية . وكانت أمواج الارخبيل تتقاذف بقايا ثلاثة أساطيل تركية دمرها اليونانيون تدميرا جعل أبواب الآستانة العلية مفتوحة لهم على مصراعيها . واشتد الحرج على السلطان فرأى ان يستنجد بأقوى وزرائه وأشدهم بأساوأعظمهم شوكة فأرسل الى محمد على باشا بتاريخ ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢٣٩ الموافق ١٦ يناير سنة ١٨٢٤ فرمانا شاهانيا استهله بجمل الاطراء فيه ثم اختتمه بتكليفه بالذهاب الى موره ليبيد فيها العصاة على ان تكون بعد إخماد ثورتهم داخلة فى ولايته. فلم يمض يومان على وصول هذا الفرمان حتى أبلغ محمد على الى الديوان ماتفضلت الأنعم الشاهانية عليه به من توجيه عبارات الثناء والتكليف بتلك المهمة. فما سمع الأرمنى يوسف بوغوص أحد الوزراء يومئذ هذه العبارات حتي صاح داعيا : « فليضع المولى جل وعلا جميع تيجان الارض على رأسك.. إنك لأهل لذلك وجدير به وإنك لبطل أفريقية وبونابرتها ! »

وفي ١٠ يوليو سنة ١٨٢٤ تحرك من الاسكندرية أسطول مؤلف من ٦٣ سفينة مصرية حربية ومائة سفينة نقالة ترفع أعلام الأمم الاجنبية إلا الأمة الفرنسية . وكانت تقل الاورط الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة من المشاة المنظمة بحسب النظام

الجديد وأربعة بلوكات من فرقة هندسة الطريق و ٧٠٠ جواد تحت إمرة حسن بك ومدافع للحصار والميدان . وكان الاسطول تحت إمرة اسماعيل آغا الجبل الأخضر والجيش تحت قيادة ابراهيم باشا . وكانت أجور سفن النقل فادحة جدا لأن اصحابها إنما كانوا بمجازفتهم بها يرمون الى المضاربة ولو ان العدو ضبطها كلها أو بعضها لما وجد اربابها من حكوماتهم مساعدة على استخلاصها . ولهذا ذكروا فى العقود الممضاة مع الحكومة المصرية ان السبعة عشر الف عسكرى الذين تكفل أرباب تلك السفن بنقلهم الى موره من المسافرين العاديين العاملين لترويج أشغالهم

قصد ابراهيم بهذا الاسطول الى رودس لينضم فيها الى قبطان باشا ويدبر معه أمر الاغارة على موره بعد إحراز الفوز في البحر على اليونان .وكانت هذه الخطة راجحة فى نظر ابراهيم ومكفول نجاحها لانها أثر من آثار ابتكاره، لاسيما وأن فرقاطات البحرية العثمانية وسفنها كان لابد لها بمقتضى هذا الحساب من الفوز على السفن اليونانية التى لم تكن بينها سوى سفينة واحدة كبيرة تحتوى ثلاثين مدفعا من العيار الصغير الذى لاتؤثر قنابله اذا قذفت تأثيرا فعالا فى السفن الكبيرة

فلما كان يوم ١٥ اغسطس أحرق الاميرال اليونانى (ميوليس) فى قنال جزيرة ساموس سفينة عثمانية حربية من طراز الكورفيت تحمل ٢٤ مدفعا وسفينتين أخريين من طراز الفرقاطة تحمل احداهما ٣٢ مدفعا والاخرى ٥٤ واستولى على عشرين سفينة نقالة. ولجأ القبطان باشا على أثر هذه الهزيمة الى خليج (هاليكرناس) فأدركه فيها يوم ٢٦ اغسطس الاسطول المصرى الذى كان الناس حينما وقعت انظارهم عليه يعجبون بجمال منظر سفنه ودقة مناوراته وسرعة سيره. وكان أغلب هذه السفن حديث الصنع والقليل منه قديما رمم ترميما حسنا. وكانت سفن الجوليليت منها ذات ٢٤ مجدافا تجعل سرعة سيرها فى الساعة ميلين. ولم يحدث منذ شبت نار الحرب أن جمعت قوات حربية بهذا المقدار

على أن الأميرال ميوليس لم يكن ليعتمد فى أسطوله على أكثر من خمسين سفينة شراعية ومع هذا فكان لا يخشى الهجوم بها على قوة تفوقه فوقا عظيما. فمن ذلك انه فى ٥ ستمبر سير نحو سفائن العدو خمس حراقات (وهى زوارق صغيرة ممتلئة بمواد قابلة للالتهاب) فلما وقع نظر العثمانيين عليها اعتراهم هلع شديد فذهبوا يجنحون بسفائنهم على الشواطىء. وانفذ (كاناريس)

السارية الأفقية التى فى مقدمة حراقته فى أحدى نافذات الفرقاطة الحامله علم الأميرال فأحرقها بلهيب النار وأحترقت سفن أخرى على هذا المثال . فلم يسع باقى الاسطول العثمانى إلا الفرار نحو بوغاز الدردنيل تاركا ابراهيم وسط النيران يتلقى عبء الجهود التى يبذلها اليونانيون لأحراز الفوز . وحينما رأى الأمير أن العثمانيين قد تخلوا عنه وأنه لا يستطيع مقاومة العدو وحده آثر الانسحاب الى جزيرة كريد . وكان الاميرال ميوليس ينتظره تجاهها فناوشه مناوشة عنيفة أدت الى استيلائه على أجمل فرقاطة من سفنه وخمس نقالات تحمل ألفي عسكرى مصرى . على أن ابراهيم تمكن من إدراك سفنه فى موردة (بوتروس) بخليج (كو) فعاد الى رودس حيث تمون بالمؤن والذخائر ثم أوغل فى البحر قاصدا الى قنديا وكان الضابط سيف (وقد بدل اسمه بعد اسلامه باسم سليمان بك) يرافق ابراهيم ، فناط هذا به الذهاب الى رودس للقيام فيها بأعباء القيادة ولـكن لم تمض أيام حتى استدعاه اليه وجال الاثنان فى مياه (موره) وعلم الاميرال (ميوليس) بوجودهما فحاول منع الجيوش المصرية ثانيا من النزول الى البر . إلا ان بحريته ابوا الاشتباك مع المصريين فى معركة ما مالم تدفع لهم مطلوباتهم ومتأخرات أجورهم فاضطر ان يعود لهذا السبب الى

(نابولى دى رومانيا) على أمل ان يرضى رجاله بدفع مالهم وخسر في ذلك زمنا نفيسـاً اغتنمه ابراهيم للرسو بالشواطيء اليونانية وقد رسـا يوم ٥ رجب ١٢٤٠ الموافق ٢٦ دسمبر ١٨٢٥ بميناء (مودون)

وكان هذا الموقع المنيع هو وموقع (كورون) قد بقيا بيد الأتراك وكان بهما على الدوام مقدار وافر من المؤن لتعذر حصرهما على الأعداء. وكان الأميرال اسماعيل الجبل الاخضر قد أصابه فى رودس مرض فتوفى وهو عائد الى الاسكندرية. وكان شيخا ملما بكل شيء من حقائق العلوم إلا حقائق علم البحر ،فقد كان حاذقا لبقاً فى الكلام بلغات أهل الشمال.ولو كان ملماً بفن البحر لوفر على البحرية المصرية الخسارة الفادحة التى سبق الكلام عليها

وفى غد اليوم الذى وصل ابراهيم فيه الى مودون عهد الى قواده العناية بترتيب المعسكرات وإقامة المخازن والمستودعات ثم استصحب فصيلة من المشاة وأخرى من الفرسان ليستطلع بنفسه الأماكن القريبة من (نافارين). وعاد فى اليوم ذاته الى المعسكر بجملة قطعان من الاغنام والماشية استولى عليها خلال ذلك الاستطلاع . وفى ١١ رجب الموافق ٢ مارس خرج فى فرقة مختارة من الجنود لأمداد بلدة (كورون) التى كان يضايقها

أهل مورة بمناوشاتهم فتمكن ،بسيوفه ومدافعه، من كسر كل
مقاومة حاولوا بها إعاقة سيره . وفى اليوم الثالث اتصل بالقلعة
وطرد المحاصرين من حولها. وقد عسكر المصريون تحت أسوارها
أسبوعا صدوا فى خلاله بالنجاح التام جميع الاجراآت الحربية
التى وجهها اليهم اشياع اليونانيين . وبعد أن عزز حامية هذا
الموقع وزوده بما فوق حاجته من المؤن والماشية التى غنمها فى
غزواته عاد الى مركز القيادة العامة، وما قضى به ست ساعات
حتى خرج ثانيا للأيغال بداخل (موره) وجس نبض الاعداء
فى جملة من مواقعها . وقضى فى هذا الاستطلاع الى ٢ شعبان
الموافق ٢٢ مارس. وفى اليوم التالى ارسل الطابورين الثالث والرابع
ومعهما معدات الحصار بقيادة خورشد بك وحسين بك لمحاصرة
نافارين التى لم يشأ الباشا ان يتركها بيد الاعداء خلفه فى الوقت
الذى عول على تنفيذ مشروعاته الحربية فيه

وتراكض اليونانيون لنجدة هذا الموقع ولكن أورطتى
عثمان آغا ويوسف آغا بادرت بمهاجمتهم فالحقتا بهم الهزيمة لأول
حملة عليهم .ولم يتمكن القواد اليونانيون من النجاة بانفسهم مع
بعض من رجالهم إلا بتجشم الاهوال وتكبد المصاعب. أما الباقون
فقد قتل فريق منهم وأسر الفريق الآخر وحاولت الحامية

تعزيز حركتهم نخرجت لمهاجمة الجنود المصرية . ولكنها حينما شهدت ماحل بهم أسرعت بالعودة الى المدينة بعد أن خسرت خسارة بالغة من القتلى والجرحي والأسرى . واغتنم المصريون هذه الفرصة فاقتفوا أثر المحصورين وحرابهم فى أقفيتهم حتى وصلوا بهم الى القنطرة الممتدة فوق خنادقهم والموصلة الى مدينتهم

وفى ٥ شعبان الموافق ٢٥ مارس ارتحل ابراهيم باشا من (مودون) بباقى جيشه فعسكر مساء أمام الاسوار التى نيط الدفاع عنها بالكبتن اليونانى (نيكولاؤس) . وكان قد صدر الأمر الى جميع الجنود الموجودة فى موره بالتحرك لأمداد (نافارين) فأخذ ابراهيم يصد هذه الجنود كلما تواردت مستعينا على ذلك بالأورط الثلاث التى كانت تحت قيادة مصطفى آغا وعثمان آغا وسليمان آغا . وكان الكابتن (ينى) من الضباط الذين تواردوا بجيوشهم من انحاء موره قد جاء بجيش مؤلف من ٣٥٠٠ مقاتل فزحف الامير المصرى عليه وفرق شمله من أول وهلة . ووقع (ينى) نفسه فى أسره مع غيره من الأسرى الكثيرين وحاولت الحامية مرارا الخروج بقيادة نيكولاؤس الذى كان اليونانيون المتواردون لنصرته يعززون جانبه خارج الموقع ، ولكن هذه المساعى لم تجدهم نفعا لما أصابها جميعا من الفشل

والخذلان لا سيما وقد وقع نيكولاوس فى واحدة منها أسيرا فى قبضة المصريين . وكان كثيرا مايستفز الحماس هؤلاء فيتابعون العدو ويتعقبونه حتى أسوار المدينة واتفق لأحدهم ان اقتفى أثر يونانى هارب فأدركه عند باب المدينة فجذبه اليه من فستانه قبل ان يدخل منه ورمى عنقه بسيفه

وفى أول رمضان الموافق ١٩ ابريل وردت أخبار باحتشاد تسعة آلاف يونانى فى ثلاث قرى وجبلين واقعين على مسيرة ١٢ كيلومترا من المعسكر . فسار ابراهيم فورا فى ٣٠٠٠ من المشاة و ٤٠٠ من الفرسان قاصداً الى الجبلين وكان يقود الفرسان بنفسه وعهد الى عمر آغا وكوجك عثمان بمهاجمة الجبلين من جهتين متقابلتين وانقض باقى الجنود على القرى الثلاث . فلما فوجئت الجيوش اليونانية فى جميع مواقعها فى آن واحد فشلت فى مقاومتها وأسر وقتل الكثيرون من رجالها . وكان من الاسرى (واسيلى ها كاراوفيتى) و (نيكولاوس) لثانى مرة والكابتن (سفانجو) ، ومن القتلى الكابتن (اكزيدس) والكابتن (رفائيل) اليونانيان ومن الجرحى (كوستا بوتزاريس) أخو (ماركو بوتزاريس) . ولقد كاد يقع أسيرا لولا أن حمله بعض رجاله بعيدا عن مظان الخطر على حياته . وضرب ابراهيم بعد ذلك كل الحصون

والاستحكامات فلم يبق منها حجر على حجر ثم عاد الى مخيمه فى ١٩ رمضان الموافق ٧ مايو سنة ١٨١٥

وقد اعتزم في الاستيلاء على نافارين الجديدة الاستيلاء على نافارين القديمة فأنفذ الى الميناء فرسانه عن طريق البر وطابورا من الأورطة الثالثة بقيادة حسين بك . وكانت مهمة هذه الجنود التضييق على المدينة بتشديد الحصار عليها . فلما أنس يونانيو نافارين الجديدة من زملائهم فى القديمة ميلا الى التسليم وافوهم بجنود مختارة من البحرية فوصل هذا المدد الى الجزيرة او الصخرة التى عند مدخل الموردة وهى المعروفة بجزيرة (سفكتيريا) وبها نصبت جملة بطريات لمعاكسة المحاصرين وعرقلة أعمالهم . ولقد تأذى ابراهيم من نارها فامر الكولونل سليمان بك (سيف) بالذهاب بحرا الى (مودون) فى طابورين من الأورطة السادسة المشاة وان يجتاز البحر منها الى تلك الجزيرة للاستيلاء عليها . فحشد الاميرال اليونانى (تسامادوس) قومندان الاسطول الصغير الذى وصل من (نابولى) مائتى بحرى ونزل بهم في جزيرة سفكتيريا التى كان قد ذهب اليها قبله كل من (مفر وكرداتوس) و (ستافروس) و (ساهينس) و (انانيوستاراس) و (تسوكريس) و ٤٠٠ من أعوانهم . فلما كانت الساعة الحادية عشرة نزل سليمان الى ساحل

الجزيرة عنوة بالرغم من وابل رصاص العدو، ثم زحف بيسالة على الحصون والبطريات وأخذها. وهلك سواد اليونانيين بعضهم بأسنة الحراب والبعض غرقا في البحر، ولم ينج منهم إلا الذين أحسنوا السباحة فوصلوا الى الثماني السفن اليونانية الراسية بالموردة. وما كادت هذه السفن ترى العطب الشديد الذى حل بحريتها حتى قطعت حبال المراسى لتنجو بنفسها تحت جنح الظلام فنجت ست منها وسقطت اثنتان فى أسر الاسطول العثمانى وهو عائد الى مودون. وقتل فى هذه المعركة البطل (تسامادوس) بعد أن حاول عبثا الاستمرار على القتال ولم يستطع ابنه اقناعه بالالتجاء الى سفينته، وقتل فيها ايضا الضابط (تسروكريس) والشاب الكونت البيمونتى (سنتاروزا) الذى امتاز بالبراعة فى عالمى التحرير والسياسة. أما (ستافروس) و (ساهينيس) اللذين لجأا الى قبة كنيسة صغيرة كانت متخذة مستودعا للذخائر فقد نسفاها نسفا حتى لا يسلماها الى العدو صاغرين. وعثر على (انانيوستاراس) فى مغارة فقتل وكانت المعركة من مبتداها الى مختتمها حامية الوطيس محفوفة بالنصر العزيز للمصريين وفيها أصيب سليمان بك (الكولونل سيف) بطعنة فى فخذه

واتصل بالأميرال (ميوليس) فى ٢٣ رمضان الموافق ١١

مايو نبأ موت (تسامادوس) فأقسم أن يثأرله فنشر أشرعة سفنه قاصدا الى نافارين. فلما صار منها على مسافة بضعة أميال علم في مساء ١٢ مايو بوجود نصف الأسطول المصري راسيا أمام مودون فاتجه نحوه. فلما لاحت له أشباح السفن المصرية جرد من أسطوله ست حراقات فسارت حتى دنت من هذه السفن واحرقت بنارها فرقاطة وسفينتين من نوع الكورفيت وثلاث سفن أخرى صغيرة ودفعت الريح السفن المحترقة نحو بقية الاسطول فاحترقت سفينة كبيرة وفرقاطة وثلاث عشرة سفينة من نوع البريك انتسفت الواحدة بعد الاخرى. واتصلت نار الحريق بالمدينة فاحرقتها ثم بمستودعات البارود فنسفتها وانهال جزء من بناية الحصون على السواحل

على أن هذا الفوز لم يف بالمراد من انقاذ مدينة نافارين وفك الحصار عنها فقد وصل قبيل منتصف ليل ذلك اليوم ٣٠٠٠ يوناني فانقضوا على الجنود المصرية. وكانت هذه متأهبة للقائهم بل وللهجوم عليهم وقد حملت فعلا عليهم حملات عنيفة أدت الى الفتك بعدد بالغ منهم وفرار الباقين تحت جنح الظلام واغتنم المحصورون هذه الفرصة لمغادرة الاسوار فزحفوا على طلائع حسن افندى وحسين بك اللذين نيطت بجنودهما حراسة

البحيرة فقوبلوا بنار حامية أفقدتهم الصواب فألقى بعضهم بنفسه
فى البحيرة وعاد البعض الآخر الى الطابية مختل النظام واقتفى
الفرسان المصريون أثرهم فقتلوا منهم جما غفيراً . أما الباقون فقد
تواروا عن الأنظار حوالى ميدان القتال فقبض عليهم في الليل
فى اليوم التالى ، فكان بينهم الكابتن (حاجى خرستو) و (جورج
مفروميكاليس) بن بترو بك و (ابن بابوليو) قومندان مضيق
(تريبوليا) واثنان من اكابر رجال الدين وأسقف مودون .

وهذا الاسقف هو الذى حرض الخونة على ذبح مسلمى نافارين
عن آخرهم بعد تسليمهم وطاعتهم فى سنة ١٨٢١ وارسل منهم
الى جزيرة سفكتيريا الشيوخ والمرضى والنساء والاطفال ليموتوا
بها جوعا فكان عدلا ان يلقي هذا الجائر الغليظ الكبد جزاء
ماجنت يداه تعذيبا وقتلا، ولكن ابراهيم اكتفى بتحقيره وتذليله
وابقائه فى أسره . وفى ٢٥ رمضان الموافق ١٣ مايو استولى اليأس
على المحصورين فى نافارين القديمة ونافارين الجديدة فبعث
الاولون فى ٢٥ رمضان الموافق ١٣ مايو والآخرون فى ٢٨
رمضان الموافق ١٦ مايو وفداً من وجوههم يلتمسون منه الأمان
فأمنهم الأمير على حياتهم بالشروط الآتية :

أولا - تسلم الحامية الموقع مع ما فيه من المدافع والاسلحة

والذخائر الى القومندان المصرى الذى يعين لهذا الغرض وذلك فى اليوم الذى تكون السفن الاروبية فيه على تمام الأهبة لنقل الجنود اليونانية

ثانيا — تأخذ الحامية مهماتها وأمتعتها وتلقى سلاحها

ثالثا — تنزل فى سفن تجارية نمسوية وانكليزية تنقلها الى (كالاماتا)

رابعا — يرجى من ربابنة السفينة (أمارانت) والسفينة النمسوية الراسية فى المينا بأن يتفضلوا بحراسة الحامية اليونانية الى كالاماتا دفعا لكل عار عنها

خامسا — يوقف القتال من الجانبين منذ الآن

وكان تسليم نافارين أول مثال لمدينة أخذها المسلمون من اليونانيين منذ بدء الثورة . وقد ثبطت عند سماع تسليمها الهمم وهبطت حرارة الحماس وحل اليأس فى النفوس محل الأمل. وذاعت الأنباء بأن جيشا من الأسيويين مؤلفا من ٨٠٠٠ مقاتل يزحف على (بويسيا) وآخر من ٣٠٠٠٠ ألبانى يحاصر (ميسولونغى) فهجر الرومليون جميعا شبه جزيرتهم للذود عن حياض بلادهم .وكان (لندوس) و (زايميس) من الحزب المنشق قد عادا من منفاهما الاختيارى وأخذا يدسان الدسائس ضد

الحكومة ويعلان على قلبها فأبى أهل مورة قتال ابراهيم باشا منذ حضرا مالم يرد اليهم زعيمهم (تيودوروس كولوكوترونيس) واضطر مجلس السناتو ان يتنحى عن حقه فى الانتقام والتشفى حرصا على كيان الأمة وتوفيرا لأمنها فأخرج هذا اللص العتيق من دير كان معتقلا به فى جزيرة (هيدرا) وما أطلق سراحه حتى ظهر أمام (لازاروس كوندوريوتيس) وخاطبه بقوله : « أسأت الى وطنى ولكن عظماء المورة هم الذين خدعونى . لقد كنت كشجرة باسقة فى طريق عام فكان السابلة وأغلبهم من اللصوص يلتمسون الراحة في ظلى كلما ثارت العواصف ويعلقون باغصانى جعباتهم المملوءة بالمسروقات والمظالم ولكننى سأعرف كيف أصلح منذ الآن خطأى . ولسوف تسمع اليونان الكثير عنى »

غير ان عودة كولوكوترونيس الى ميدان العمل لم تثر فى النفوس ما كان منتظرا لها من الحماس . واذا تولد فيها بعض الشيء منه فانه لم يلبث أن زال . وكان أهل مورة إذا رنت فى آذانهم أصوات نفير الجيش المصرى تفرقت جموعهم وامتلأت بالرعب والهلع أفئدتهم فظهر من حركاتهم أن حماسهم السابق قد حل محله الجزع والتروع . فلقد احتشدت عصاباتهم العديدة فوق جبال (كوندورونيا) على مسيرة ١٢ ساعة من مودون فزحف ابراهيم

عليها فاحتل قرية (سكرماما) فى ١٥ شوال الموافق ٢ يونيو
ولم ينتظر وصول المدد اليه بل تقدم الى الامام فى فرسان حسين
بك ومحمد على آغا ورشوان آغا . وكان العدو قد تحصن بالآكام
فلم يشأ الباشا أن يصبر عليه بل تسلق الجبل فى فرقة من الفرسان
حتى وصل إلى احدى قممه الشرقية وأمر الفرقتين الأخريين بالعمل
في الآن نفسه من الجهة الشمالية واتفق أن وصل جيش المشاة
مددا فانضم سبعة طوابير منه الى ابراهيم وخمسة الى رشوان
آغا وحسين بك وضيق الخناق على اليونانيين من كل مكان
وفى جميع الروابى التى يحتلونها فانجلوا عنها للاعتصام بأكمة
(سنياشى) لاعتقادهم فيها أنها أمنع من تلك . فصعد المصريون الى
قمتها بوثبة واحدة رغم وابل الرصاص ووعورة الارض . فلما بلغوا
الى القمة حاصروا المعاقل والاستحكامات وقتلوا كل من تعرض
لهم بمقاومة ما فكان منهم اللص الشهير (شجبالوس) والقبطان
(أطنازيوس ميكالى) وتسعة غيرهما من الضباط و ٥٠٠ مقاتل . وحدث
أن عربيا أسمه عبد الله انكسرت حربته بعد أن قتل بها ستة من
اليونان فأمسك بخناق خصم سابع وحاول أن يطرحه أرضاً
فسقط الاثنان معا وتدهورا على منحدر الجبل حتى بلغا الى سفحه
من غير أن يترك أحدهما الآخر وهناك أخرج المصرى مديته

وحز بها عنق خصمه ، فرقاه ابراهيم باشا على الفور إلى رتبة الجاويش ولم ينكر بسالة خصمه ففاه فى حقه بعبارات المدح والثناء

وفى اليوم التالى سار ابراهيم فى فرسانه لاستطلاع مضائق (كندورونيا) المشهورة بحزونها وأوعارها وقريتى (أركاديا) و (أندروتسبا) ثم عاد الى ضفاف نهر (باميزوس) فى قصر (نيزيا) وكان قد أسر بضع مئات وغنم عشرة آلاف رأس من الماشية. وظفر على آغا ورشوان آغا وحسين بك بالعدو فى سهل (لوكاس) فعادوا منه بست وخمسين أسيرا وثمانين جوادا واربعمائة ثور .وفى فجر ٢٢ شوال الموافق ٩ يونيو تقدم ابراهيم نحو الموقع الخطير الذى احتله منذ مساء اليوم السابق بقرية (منياتيس) القس (فاشياس) فى ١٥٠٠ مقاتل فانقضت ست ساعات فى عراك عنيف أفضى الى انسحاب ٥٠٠ عسكرى يونانى في أودية (أوروتاس) وتفرق بقية الجيش فى جهات شتى .غير ان ٣٠٠ من الاركاديين ثبتوا في مراكزهم حول القس فلشياس وظلوا يحاربون بعنف حتى أرخي الليل سداله .ولبث زعيمهم يقاوم وحده جماعة من المصريين أحدقوا به من كل جهة فأعجب ابراهيم بسالته وثباته فقال له : « يابابا فلشياس سلم نفسك وألق سلاحك ولك ان أؤمنك على حياتك »فأجابه القس: « لاأريد منك عفوا

ولا إبقاء على حياتى .. إنى أثرت بلاد اليونان كلها فالواجب ان أموت فى سبيل الدفاع عنها » ثم دافع حتى مات هو وأصحابه

واتصل بابراهيم فى ٢٥ شوال الموافق ١٢ يونيو ان بترو بك امير (مانيا) يعمل هو وستة ضباط لحشد ٥٠٠٠ يونانى فى كالاماتا وانه شرع يرم اسوارها . فقصد ابراهيم اليها فورا فى ثلاثة طوابير من المشاة وفرقة من الفرسان، فلم يكد اليونانيون يبصرون بالجنود المصرية حتى ولوا الادبار. فأرسلت فصيلة من الجند لاقتفاء أثرهم فأدركتهم وقتلت منهم ٢٣٢ رجلا . أما بترو بك فقد صمد الى النهاية ؛وكان هذا الشيخ الشجاع يبكى بكاء شديدا حينما اضطر الى ترك هذا الموقع. واتجه ابراهيم صوب (كيتريا) حيث يسكن هذا الزعيم فبث فيها الخراب كما خرب فى الوقت نفسه فى كالاماتا بلدان (جانينى) و (أرموروس) و (منذينوس) و (آجا) وسائر القرى والقصور الموجودة بذلك الاقليم. وحدث ان لاذ ألفا يونانى بدير (فلاميديا) القائم على قمة احدى الآكام ،فاستولى ابراهيم عليها في ٢٦ شوال الموافق ١٣ يونيه ورمي اعناق رجال حاميتها. وفى أول القعدة الموافق ١٨ يونيه برح هذه الجهة التى امتازت بتوالى انتصارات المصريين قاصدا الى (تريبولتسا) عاصمة شبه جزيرة موره فمر

بعض الجيش بأقليم اركاديا والبعض الآخر بأقليم (ليوندارى) فخرب الجيشان فى طريقهما قريتى (كالافيا) و (بولاكى) وكان سليمان بك وحسين بك ورشوان أغا يحرسون ابراهيم باشا فى زحفه وصعوده فى الجبال فصعدوا معه فيها للاستطلاع. وكان (كولوكوترونيس) و (بتراكو) قد تحصنا بقمة جبل (تركي خورا) لمقاومة الجيش المصرى المتدفق كالسيل. ووقف ابراهيم على نياتهما فانقض عليهما وهزمهما ودمر استحكاماتهما وقتل ٥٠٠ من رجالهما ومنهم الجنرال بتراكو وانضم ابراهيم باشا فى المساء الى معظم جيشه. وكان ابراهيم فى ٢ ذوالقعدة الموافق ١٩ يونيو يستعد للنزول في سهل ليوندارى فعلم أن الأعداء ينصبون له كمينا فأنفذ اليهم فصيلة لتحول بينهم وتنفيذ نياتهم السيئة. وكان كولوكوترونيس قد اتخذ له في النقط الخلفية موقعاً منيعاً ولكن جنوده لم تجرأ على البقاء فيه خيفة ان يدهمهم ابراهيم فينكل بهم فأوغلت هاربة فى الجبال واصبح الطريق بذلك مفتوحا للجيش المصرى فدخل هذا الجيش وفى مقدمته ابراهيم باشا يوم ٦ ذو القعدة الموافق ٢٣ يونيو مدينة تريبوليتسا بعد ان هجرها سكانها واشعلوا فيها النار وتراءى لكل من كولوكوترونيس وابنه (جينوس) والجنرال (كوليوبولس)

ان نفاد المؤن من عندهم سيضطر العساكر الى التشرد فكتبوا الى حزبهم يستحثونه على هدم اسوار تريبوليتسا لضعفها عن مقاومة الهجوم المنتظر . ومما ذكروه فى رسالتهم قولهم : « إن هذه الأسوار لافائدة لنا منها وإنما فائدتها للعدو جزيلة اذا استولى على المدينة لاقتداره على الدفاع عنها وتمكنه بواسطتها من البقاء فى قلب شبه جزيرة موره فاهدموا تلك الاسوار المؤكد ضررها ولينسحب النساء والاطفال والشيوخ الى مرتفعات (كاريتين) ولا يبقي الا الصالحون لحمل السلاح » فأجاب الحزب على هذه النصيحة الحكيمة قائلا : « كلا لن نهدم الأسوار إذ الواجب تشييد أسوار جديدة » وهو رد لارائد له من صدق النظر وقد دلت الحوادث السالفة على فساد ماتضمنه من الرأى

لم يستنم ابراهيم الى هذه الانتصارات السريعة بل أراد رغم المشاق التى تكبدها جيشه فى الوقائع الاخيرة الاستيلاء على نابولى دى رومانيا فترك جيشا احتياطيا قويا فى عاصمة موره وتحرك يوم ٨ ذى القعدة الموافق ٢٥ يونيو فى جيش مؤلف من ٥٠٠ فارس واورطة مشاة يعززها مدفعان عاديان ومدفع هاون فوصل فى اليوم الثالث من زحفه الى سهل (أرجوس) فأحرق مافيه من أشجار الزيتون ثم انقض على طواحين نابولى التى

كانت في حراسة « إبسلانتى » و ٣٠٠ من العساكر غير النظامين المشهورين باسم الباليكار فترامى الجيشان بالرصاص وتصنع ابراهيم حركة رجعية رام بها استدراج العدو الى طريق تريبوليتسا فأفضت هذه الخدعة الى استيلائه على جميع مواقعه وقتله ٤٥٠ من رجاله واستأنف المسير متحملا بالغنائم الكثيرة ومعه الأسرى العديدون فلم يعترضه أحد وشكا جنوده قلة الماء فمات البعض منهم عطشا . ولما عاد فى الثالث عشر من شهر ذى القعده الموافق ٣٠ يونيو الى عاصمة موره اهتم بتدبير الوسائل لأقامة عساكره بها اثناء الشتاء فحصد ودرس مالم يستطع الاهالى أن يحصدوه ويدرسوه من الحبوب ونقله على الخيل التى غنمها منهم الى المخازن والمستودعات ولكى يضمن للعمال الذين قاموا بهذه الاعمال الأمن على حياتهم بث الشراذم حولهم للاستطلاع وكان كثير التردد على النقط الأمامية منها للاستطلاع بنفسه. فلما كان يوم ٢٠ القعده الموافق ٧ يوليو أوغل فى الداخل بمقدار بضعة فراسخ ومعه سليمان بك قائد الأورطة السادسة وفرقة فرسان حسين بك للاستحواذ على الطواحين اللازمة لطحن الحبوب المحصودة . وكان ٨٠٠٠ يونانى مجتمعين فى الجبال على مسيرة ساعة واحدة من تريبوليتسا فلما أبصروا بالمصريين

تحصنوا باستحكاماتهم وقلاعهم منقسمين الى اربع فرق استعصمت كل فرقة بأكمة عالية . فجعل ابراهيم جيوشه صفوفا مستطيلة متلاحمة وهجم بها عليهم بأطراف الحراب فاستولى على استحكاماتهم جميعا وخسر المصريون أربعة عساكر في مقابل ٣٨٧ منهم وكانت إمدادات آتيـة من ناحية قرية (مالا) لنجدتهم فجرد ابراهيم فصيلة من المشاة وشرذمة من الفرسـان مؤلفة من ٣٠ فارسا فتغلبت هذه الشرذمة الصغيرة على تلك الامدادات. على أن ابراهيم لم يتمكن من اصابة الغرض الذى جاء من أجله ، فقصد فى اليوم التالى بجيشه الصغير الى تلك الجهة نفسها حيث قضى أياما فى ترميم الطواحين التى خربها اليونانيون ووضع على حراستها الأورطة الخامسة ثم عاد الى تريبوليتسا . وكان ١٥٠ من مشاة سليم بك معسكرين بالنقط الأمامية تحت قيادة كوجك عثمان أغا قائد الطـابور الأول فرأوا فى ٢٨ القعده الموافق ١٥ يوليو فرقة من الفرسان المنتظمة مقبلة عليهم بخطوات سريعـة فرتب هذا القائد جيشه فى موقع أكثر ملاءمة من الذى كان فيه ودار بين الفريقين قتال خرج منه، إزاء تفوق اليونانيين فى العدد ، منسحبا بانتظام تام نحو الطواحين . ونمي خبر هذا الهجوم الى ابراهيم فأراد ان يضع حـدا للمناوشات الجزئية التى من نوعه

فأرسل فصيله من الفرسان ومعها جنود من الألبانيين كانوا قد وصلوا حديثا من قنديا فاعتصم اليونانيون بالجبال . ولكن ذلك الجيش المتحرك كان قد عقد النية على عدم الرجوع الى معسكره إلا إذا أعمل السلاح الذى بيده . فانطلق دائبا على البحث عن العدو محرقا جميع ما صادفه فى طريقه من المساكن ولم يرجع فعلا الى معسكره إلا بعد أن قتل ٥١٣ يونانيا وأسر ٣٩٥ وغنم ٧٠٠ جواد و٧٦٩٠ رأسا من الغنم

وذهب ابراهيم لتفقد مضائق كريتين و (سينان أورازيا) التى وقعت فيها هذه المعركة الوافرة الثمار إذ عادت الحملة منها فى ٢٧ يوليه بما يكفى الجيوش المصرية من المؤن ثمانية أشهر واقتصر كل من كولوكوترونيس وبترو بك منذ ذلك الحين على صيانة نابولى دى رومانيا ومالفوازى وأخلد المصريون الى الراحة فى معسكراتهم . أما بلدة أرجوس فكانت قد زالت من عالم الوجود وجرد برزخ قورنث من الاستحكامات فلو مر منه ألف جندى فقط لما استطاع أحد ان يحول بينهم والوصول الى مبتغاهم

ولما أصبحت جزيرة قنديا بعد إرسال حاميتها الى موره لقتال اليونان بلا حماة يذودون عن حياضها عند مسيس الحاجة حاول اليونان الانسياب فيها فتنكر فريق منهم بالملابس العثمانية

فدخلوا قلعة (قرابوزه) بدون ان يرتاب أحد فيهم وما استقروا فيها حتى ذبحوا حاميتها واتخذوها وكرا للتلصص فى البر والبحر وبالغوا فى الاعتداء الى حد أنهم كانوا يطلقون القنابل على السفن الاوروبية التى تمر بقنال قنديا. وعلم انصار اليونان فى جزيرة كريد بسقوط القلعة فى ايدى أولئك القرصان فدبت فيهم الشجاعة وزحفت جموعهم على مدينة خانيا ولكن محمدا عليا أرسل اليها فى الحال بقية الألبانيين وجميع فرسان حسن باشا فلم يمض وقت حتى عادت الجزيرة الى سابق عهدها طاعة وامتثالا

وقبل هذه الحوادث بشهر أى فى يوم الأحد ١٧ يونيو بدأ اليونان بتنفيذ مكيدة لم يجرأوا على تنفيذ مثلها منذ بدأت الثورة ذلك ان الاميرال (إمانويل تومبازيس) ظهر فجأة امام الاسكندرية بقصد إحراق الدوننمة المصرية. وكان معه ٢٣ سفينة شراعية وفرقاطة تسمى (لاهلاس) رفع عليها الراية النمساوية ونزل كل من (كاناريس) و (فوكوس) و (فوتيس) فى حراقاتهم مستترين بالظلام فحملوا بها على السفينة المصرية (تكران) التى كانت تحرس الميناء القديمة فاشتبكت حراقة ثالثهم بها وأشعلت فيها النار فنجا البحرية بفضل الاسعافات التى وصلت اليهم. ونزل محمد على باشا فى يخته الخاص لاتخاذ التدابير

لدفع الخطر فبينا كانت إحدى الاورط على تمام الأهبة للقتال فى رأس التين كانت الهمة منصرفة لتحصين قلاع الشاطىء وقلعة وسط الثغر المعروفة باسم (كفارلى) . وكانت في دار الصناعة سفن على وشك ان يتم بناؤها لاشراع لها ولا ماء ولا بارود فما هي إلا ليلة حتى جهزت بالسلاح والرجال والذخائر لان هيمنة محمد على على الاعمال بثت الحماس فى النفوس فما طلع فجر يوم ١٨ يونيو حتى كانت أربع سفن حربية من طراز الكورفيت وثلاث سفن من طراز البريك موغلة في البحر بالرغم من عدم مؤاتاة الريح الشمالية لها ولكن العدو كان قد وصل الى عرض البحر يلتمس الفرار .

وفى مساء ١٨ يونيو كان الاسطول بتمامه فى الميناء ينتظر هبوب الرياح المؤاتية لمبارحتها . وفي صباح ١٩ منه اصدر الوالى تعليماته الاخيرة الى صهره محرم بك باقتفاء أثر اليونانيين بجهة رودس والتحرش بهم لاستدراجهم الى القتال ولكن الاسطول المصرى ظل يخترق البحر في كل اتجاه مدة احد عشر يوما بدون أن يعثر بالفارين الذين كانت نتيجة حركتهم ونشاطهم أن دمروا سفينة شراعية عتيقة وخسروا فى مقابلها ثلاثا من اكبر سفنهم واحسنها

وكان ابراهيم يملك فى شبه جزيرة موره مواقع مودون وكورون ونافارين وتريبوليتسا وبتراس غير أنه لم يتسلط بعد على البلاد الداخلية لأن اليونانيين كانوا ينسحبون على الدوام كلما لاحت لهم فصائل الأمير المصرى وانما كانوا يزعجون معسكراته بهجماتهم الجزئية ويتربصون الشر بقوافله التى توافيه بالذخيرة والزاد . فرأى ابراهيم أنه يجب عليه لكبح جماحهم الاعتماد على القتال بشراذم وجموع كثيفة لا على حرب المناوشات . ولهذا طلب موافاته بأمدادات جديدة فتلقى بعد زمن يسير مدافع وذخائر كثيرة للحصار والميدان و ٨٠٠٠ جندى من المشاة هم الآلايان السابع والثامن الاول بقيادة حسن بك والثانى بقيادة حسين بك وحدث فى الاثناء أن ورد عليه كتاب من محمد رشيد باشا سر عسكر الجيوش العثمانية جاء فيه : « لقد أفنيت هذا الجنس الممقوت جنس المورليه فسارع بالحضور لننكل معا بأولئك الصيادين سكان مدينة ميسولونغي فانهم صاروا بسحرهم من شياطين الجن . فلقد رفعت أمامهم جبلا يتجاوز علوه ارتفاع أسوارهم فدمروه تدميرا بسحر رجل عندهم اسمه (كوكنيس) ومعهم رجل آخر لعين اسمه (كنستانتينوس) وصل من نابولى دى رومانيا فقلب جميع الحصون والاستحكامات. وهؤلاء الكفار

يشتغلون كل يوم بترميم أبنيتهم كلما سقطت جدرانها وهم يجرأون على شتمي من أعلى الأبراج . فهل يرضيك ان تتركني هكذا لعبة بأيدي أولئك الملاعين. ان امتلاك بلاد اليونان كلها يتوقف على أخذ اسوار ميسولونغي فهلم اليها من غير تأخير »

ولم تكن ميسولونغي فى الواقع غير ذات بال فانه كان محققا ان يؤثر مصيرها باعتبار كونها عاصمة اليونان الغربية تأثيرا قاطعا فى مصير شبه الجزيرة كلها. ذلك لان هذا الثغر واقع قرب الفتحة الشمالية لخليج (ليبانت) وكانت تصل منه الى أهل (سولى) مهمات القتال الضرورية وتسهل بواسطة الجزر اليونانية وسائل الاتصال باللجان المشايعة لليونانيين فى اوروبا . وكانت تحصنه من جهة البحر قلة عمق الماء وتكوّن القاع من الرواسب الطينية التى يتعذر على السفن السير عليها مالم تكن روامس أو سفنا مفرطحة، ومن جهة البر انخفاض الارض تتخللها المستنقعات على مسافة كيلومترين فضلا عن حصون منتظمة تحتوى فى مسافة طولها ١٨٠٠ متر ثمانين مدفعا . وكانت بطاريات واجهة الحصون السهلة المنال منها تسمى بأسماء المشاهير من الابطال مثل (غليوم تل) و (فرنكلين) و (كوسيوزكو) و (مونتلمبير) و (البرنس دورانج) و (بايرون) و (اسكندر بك) و (ريجاس) و (ماركو

بوتزاريس) و (كريا كولولس) و (نورمن) وغيرهم . وحول المرتفعات العالية بمقدار مترين الى أربعة امتار والهابطة على اتجاه رأسى خندق طينى القاع عرضه عشرة أمتار وفوق تلك المرتفعات حاجز مبنى بسمك متر وخلف الخندق الأول خندقان أقل منه اتساعا أما جهة البحر فكانت السفن على اختلاف احجامها مضطرة للاسباب المتقدمة الى الوقوف فيها على بعد فرسخين من البر بالقرب من جزيرة صغيرة محصنة تسمى (فاسيلادى)وكانت حامية ميسولونغي مؤلفة من ٤٠٠٠ مقاتل روملى بقيادة (نوتى بوتزاريس) أخى ماركو و (استورناريس) و (ماكريس) و (تسونجاس) و (لوكاتوس).وكان بالمدينة حزب سياسى محلى نيط به النظر فى المسائل السياسية الخاصة باقليم إيتوليا وكان ضمن أعضائه (جان بابا دميامنتوبولوس) و (جورج كاناريس) و (ديمتريوس تشميليس) وكان الطبيب السويسرى (ماير) يحرر جريدة عنوانها « الحوادث الهلينية » يثير فيها الخواطر ويستفز النفوس للدفاع عن قضية الحرب المقدسة

وكانت المهمة الموكولة لمحمد رشيد باشا المعروف بكوتاهيه لى نسبة الى وطنه كوتاهيه بالاناضول الاستيلاء على مدينه ميسولونغى . وقد سبق له ان اضطر الى رفع الحصار فى

١٣ يناير سنة ١٨٢٤ هو والاميرال عمر فريونس عن تلك البلدة بكيفية ألصقت بهما العار . فلما أقبل فصل الخريف من تلك السنة بذل مجهودات جديدة لأعادة الحصر فكان فيه اشأم طالعا منه في المرة الأولى . وبيانه انه انذر أهل ميسولونغي بالتسليم فأجابوه بقولهم : « ان مفتاح مدينتهم معلق بفوهات مدافعهم » . فتهددهم بسوء العاقبة اذا هم أصروا على عنادهم فأجابوا بكلمتين « القتال والموت » فاشتبك الفريقان فى قتال سمع فيه دوى المدافع والبنادق وصليل السيوف وألقيت المقذوفات من كل نوع بين احجار وقنابل وكرات يدوية من الصنف المعروف بالرمان وجللت سطوح الاسوار والميادين المختلفة بجثث القتلى وأشلائهم ولم تخفق الراية العثمانية مع كل هذا على المدينة اذ كان العثمانيون كلما رفعوها انزلها اليونانيون فى الحال

وقد أعيي السلطان هذا التردد وعيل صبره فأنفذ القابجى باشا وعلى يده كتاب الى رشيد باشا يحتوى كلمتين اثنتين وهما : « إما ميسولونغى واما رأسك » فلم يبق ازاء هذا الحكم الجازم مجال للتردد إذ بادر رشيد باشا بعقد مجلس حربى يوم ١٥ دسمبر سنة ١٨٢٥ تقرر فيه الهجوم الأخير ولكن الاتراك ما كادوا يشرعون فى تنفيذ هذا القرار حتى وضع اليونانيون النار فى ألغام

بثوها من قبل بباطن الارض فانشقت الأرض تحت اقدام العثمانيين أخاديد واسعة وانقذفت بتأثير الانفجار الهائل أشلاء الموتى متساقطة على رؤوس زملائهم فاستولى الذعر عليهم بما اضطر رشيد باشا الى وقف الهجوم وتراجع منسحبا الى خيمته . وعلى أثر هذا الانسحاب أمر بأقامة اكمة عالية تفوق فى علوها حصن بوتزاريس وكان العساكر المسخرون فى نقل الأتربة يذهبون قريبا من الأسوار فلما تم تكوين الأكمة رغم مابذله المحصورون من الجهود لمنع العساكر من إتمامها جهزت بالمدافع في أمكنة منها تحكم فيها على أربع من بطاريات المدينة وعلى شوارعها ومسالكها غير أن المهندس كوكينس ساعد الضابط (جورج فلتينوس) على بث لغم تحت الأكمة بأن حفر له نفقا تحتها فى يومين فنسفاها النسف الذى عزاه رشيد فى كتابه الى ابراهيم الى سحر ساحر وفعل كافر . وأفضى النسف الى قتل ألفين من العثمانيين فوقع بسبب هذا الحادث ارتباك عظيم اغتنم اليونانيون فرصته للخروج من المدينة فغنموا كثيرا من الاعلام بعد أن صدوا اعداءهم الى مواقفهم الأولى وقتلوا منهم عددا عظيما

وأقام العثمانيون استحكامات أخرى فدمرها الميسولونغيون الذين مكنهم هذا الفوز من ترميم أسوارهم وتوطيد استحكاماتهم

وتعززها بالسلاح . وثبطت همة العثمانيين لما تحققوه من فشلهم ونحس طالعهم وانتشرت الامراض الوبائية بينهم لانبعاث الروائح الكريهة من رمم القتلى ولحصر جيش (كرايسكاكيس) لهم وسلبه كل ما كانت تحمله اليهم القوافل من الأزواد والأعلاف والذخائر وقطعه خطوط المواصلات بينهم وبين بلدتى (سالون) و (أرطي) واشتد عليهم الضيق حتى حدث القائد العام نفسه برفع الخيام والرحيل من هذا المقام ثم ارتأى ان يلجأ الى ابراهيم باشا ويستنجده فى كتابه اليه . وكان هذا الأمير قد تلقي من السلطان العثمانى كتابا بخط يده يسند اليه منصب وزارة موره وكتابا آخر يدعوه فيه الى الزحف على ميسولونغى اذا استنجد رشيد باشا به فترك ابراهيم حاميات صغيرة فى نافارين ومودون وكورون وبتراس وأخرى مؤلفة من ألفي جندى فى تريبوليتسا بقيادة سليمان بك ثم اجتاز خليج ليبانت فنزل بثغر (كريو نيرس) فى أواخر دسمبر سنة ١٨٢٥ بجيش مؤلف من ١٠٠٠٠ من المشاة و ٥٠٠ فارس . وكانت قد وصلت الى رشيد باشا فى الحين نفسه امدادات من آسيا غير جيشه المؤلف من ١٥٠٠٠ جندى نظامي . وكانت الدونتمتان المصرية والتركية تعززان الحركة البرية وتنقلان الى بتراس أدوات القتال فالتقتا

بالأميرال ميوليس أمام جزيرة (فاسيلادى) فجرد هذا الاميرال اثنتى عشرة سفينة شراعية من نوع البريك تحت إمرة (كريزيس) رافقتها حراقات كناريس وبيبنوس فاشتبكت سفينة مصرية من طراز الكورفيت بالسفائن الحراقة اليونانية فهلكت بمن فيها من البحرية واستطاع الاميرال ميوليس ان يوصل الى مدينة ميسولونغي ما يكفيها من ذخائر الحرب شهرين كاملين.
وفصل رشيد باشا وابراهيم باشا معسكريهما احدهما عن الآخر لما وقع بين الجنود من الاختلاف واتصل بالسلطان خبر خصامهما فبعث وزيرين من عنده لمصالحتهما وقدم الهدايا النفيسة اليهما. وطالب ابراهيم أهل ميسولونغى بالتسليم فأجابوا سلبا فبادر الجيش المصرى بالوقوف فى مصاف القتال وصب نار مدافعه فورا على المدينة وظل يواصل اطلاقها ليل نهار وكانت المبانى تسقط بعضها تلو بعض بفعل المقذوفات المدمرة وهجرها النساء والاطفال لائذين بعشش أقيمت لايوائهم. ولزم الرجال مواقفهم على الاسوار وكانوا يصيحون: «لا يزال عندنا الخبز والخرطوش وسنتمكن بهما من مقاومة الباشا المصرى حتى النهاية». وفى مساء ٨ فبراير انقض ٥٠٠٠ مصرى عربى على الاسوار فخرج اليونانيون والسيوف مسلولة بأيديهم وصدوا



في خلال التداريب العسكرية وجهت رصاصة الى الكولونل سيف ولكنها لم تصبه فوبخ عساكره على خطأهم فى أصابة المرمي وامرهم باطلاق النار معا من جديد

المهاجمين ثم تظاهروا بالانسحاب فاستدرجوا المصريين لملاحقتهم واقتفاء أثرهم حتى وصلوا بهم الى ارض ملغمة فانفجرت الالغام وانقلبت الارض على عدد عظيم منهم ، وبلغت خسارة ابراهيم فى هذه المعركة ٥٠٠ جندى وحدثت معركة أخرى بعدها بلغت خسارته فيها ٣٠٠ جندى . ومن ثم استصوب العدول عن هذا الاسلوب الهجومى الضار وأخذ يجوب الارض يسبر أغوارها مع مهندسه العسكرى السنيور (روميئي) الايطالى فأيقن ان خير الوسائل لالزام ميسولونغى بالتسليم المجاعة فقرر سد المسالك الموصلة اليها من جهتى البر والبحر . وكانت المواقع المعروفة باسماء (اناتوليكوس)و(فاسيليدى) و(دولماس)و (كليسوفا) قد نظمت الاحوال فيها بحيث تكفل الاتصال بالمدينة من جهة البحر وتسهل وصول المؤن والذخائر اليها وكان القواد العثمانيون الذين تولوا حصرها قد اهملوا احتلال هذه النقط البحرية فلما أدرك ابراهيم باشا أهمية قطع تلك الصلة التى تذرعت بها « اللجنة المحبة لليونان » بمدينة جنيف لايصال المؤن اليهم تفرغ فى الحال لانشاء ١٥٠ سفينة بقاع فرطاح وجوانب من القطن وخشب الفلين وما تم صنعها حتى انزل بها أورطتين من الآلايين السابع والثامن فتقدمت بهما تحت حماية مدافع الاسطول حتى وصلت

الى مرمى الطبنجة من (انتوليكوس) التى كانت بموقعها فوق
صخرة منعزلة تحمي الطريق الموصل الى المدينة وتعاكس بنارها،
اذا أطلقت من الجانبين، كل جهد يرام به الوصول اليها. وكان
هناك مايحمل على الاعتقاد بأن الاهالى وعددهم ٣٠٠٠ نفس
وعساكر الباليكار غير النظاميين الذين أرسل منهم ٣٠٠ لنجدة
المحصورين سيقاومون مقاومة عنيفة ولكن المصريين ألقوا
بأنفسهم فى الماء فوصلوا الى أسوار المدينة فى الساعة الخامسة من
يوم ١٠ مارس ١٨٢٦ وتسلقوها بالسلالم على وجه من السرعة
والجرأة لم يخطر للاعداء ببال فلم يأخذوا عدتهم للدفاع فقتل
الضابط اليونانى (ليكاتوس) ولم يصب المهاجمون بخسارة ذات
بال . وكان الواجب بحسب قوانين الحرب قطع رقاب رجال
الحامية ولكنهم سألوا ابراهيم باشا ان يعفو عنهم فأجابهم الى
سؤالهم على أن ينسحبوا الى (ارطى)عزلا من السلاح . وحصل
مثل هذا لحامية (دولماس) وبيان ذلك ان لسان الارض
المعروف باسم (فاسيلادى) والممتد فى بحيرة عميقة بقرب ساحل
البحر كان يسد مدخل الخليج وكان القصر الحصين الذي ينزل
فيه القائد (انستاز بابا لوكا) يحمي ميسولونغي كحصن خارجى
فاتفق ان سقطت قنبلة من مخزن البارود به فانفجر ودمر الانفجار

قسما من الاسوار فعرا اليونان لهذا الحادث هلع جعلهم يعجلون بالتسليم فسلموا فى ١٤ مارس سنة ١٨٢٦ ولم توفق الجنود العثمانية والمصرية لمثل هذا النجاح يوم ٥ ابريل امام جزيرة (كليسوفا) او (موناسترى) لأن ٧٥ جنديا كانوا قد تحصنوا بالكنيسة بعد أن نصبوا فيها خمسة مدافع وكان الضابط (كتسوس تزافلاس) يرقب الشواطىء فنزل فى سفينة مع بعض الباليكار للانضمام اليهم غير أن قلة عمق الماء فى الجهات المجاورة كانت تحول دون رسو الزوارق والسفن الكبيرة ذات القاع الفرطاح فتكبد أولئك الرجال العناء الشديد فى اجتياز هذه المسافة خوضا اذ كان الماء يصل الى مناطقهم .وعرف تزافلاس رشيد باشا وهو يتقدم فى هذه الناحية فركض نحوه واختطف بيد خنجره المرصع بالجواهر وأطلق عليه بالأخرى طبنجته وألقى رشيد باشا بنفسه عن جواده ليتقى الأصابة فرفعه اعوانه وما كاد يقف حتى أصيب فى حرقفته بعيار نارى آخر فتراجع الى الوراء مع جنده.
أما ابراهيم باشا فأمر بالحملة على القوم ولكن جهوده فى هذا السبيل كانت تفنيها نار البنادق اليونانية . على انه لم يبرح مكانه إلا بعد قتال دام ثلاث عشرة ساعة خسر فى خلالها عددا كبيرا من رجاله كان بين القتلى منهم حسين بك اشجع ضباطه. وكان قد

أصيب برصاصة في جبهته

وطلب كتسوس تزافلاس لدى عودته الى ميسولونغي كسرة خبز مكافأة له على هذا الفوز الباهر لان المدينة كان لا يوجد بها ما يسد رمق رجل واحد حتى أن ميوليس حاول عبثا التماس منفذ بين سفن الأسطول العثماني المصري ليسلكه بزوارقه المشحونة بالمؤن ولينقذ الاهالى من غائلة الجوع فأنه وجد البحيرة ممتلئة بالسفن ذات القاع الفرطاح وشهد الجزر الصغيرة وقد نصبت عليها المدافع وظل ثلاثة أيام متتابعة فى قتال معها ليرغمها على ترك منفذ له فلم يبلغ مراده. ولما أيقن بفشله عاد الى (هيدرا) ولبس الحداد اعتقادا منه بان ميسولونغي ساقطة لا محالة فى يد المصريين وبقي فى حداد الى أن مات . وهنا ينبغي ان نذكر أن جهود الأميرال ميوليس جاءت بعد الأوان المناسب . وكان الواجب النظر في استنقاذ ميسولونغي من جهة البر لا من جهة البحر بأثارة اقليمى (أتيكا) و (ليفاديا). على ان ابراهيم لم تفته هذه الحيلة الوحيدة التى كان في قدرة اليونان ان يعتمدوا عليها فى رفع الحصار عن ميسولونغى فحشد الكفاية من الجنود لبث السرايا فى كل مكان دفعا لذلك الطارىء وبدون أن يضطر الى سحب جنوده من حوالى هذه المدينة

أما ميسولونغي فقد ضرب الجوع على أهليها بجرانه بينما كانت الأزواد متراكمة فى معسكرات المصريين فائضة عن حاجتهم وبلغ من اشتداد الجوع بهم أنهم لجأوا الى أكل لحوم خيلهم والحشائش البحرية ومات الضعفاء منهم على قوارع الطرقات وسقط الجنود مغشيا عليهم فى مراكزهم العسكرية. وتأثر ابراهيم باشا بهذا الضنك ورثى لحالهم فعرض عليهم الخلاص في مقابل تسليم سلاحهم ومهماتهم فلم يقبلوا . وكان الكولونل (فافييه) الفرنسى الذى جاء الى اليونان فيمن رحلوا اليها من انحاء أروبا لتحرير أهلها موجودا بأثينة حيث ألف فرقة من المشاة على النسق الحديث فطلب الانضمام بفرقته الى كرايسكاكيس وجنوده للتعاون على رفع الحصار فأجيب على هذا الاقتراح بما يأتى : « ان ميسولونغي على شفا هاوية الخراب وليس فى الدنيا قوة انسانية تقيها شر هذه العاقبة » فاجتمع الرؤساء العسكريون والملكيون للتشاور فقر رأيهم على محاولة الخروج العام من المدينة فى الوقت الذى يهجم كرايسكاكيس فيه اثناء الليل. وكتبوا الى هذا الضابط بما قر عليه الرأى وعينوا له يوم ٢٢ أفريل للقيام بهذا الهجوم ثم اتفقوا معه على إخطارهم بوصوله الى مؤخرة الجيوش المصرية والعثمانية باطلاق البنادق مرة واحدة إطلاقا شديدا. على

أنهم قبل الاقرار على هذا التدبير نهائيا أستشاروا الأسقف والنساء فاجاب الأسقف :

« رأيي تعبر عنه كلمتان وهما الموت وبأيدينا السلاح »

ثم جمعوا النساء فى مكان واحد وسألوهن: «وانتن ماذا تفضلن الموت أم الاسترقاق » فأجبن بصوت واحد: « الموت ! الموت! » وتزاحم اهل المدينة جميعاً حول الأسقف ليتلقوا منه الاسرار الدينية الاخيرة فقال لهم : « اخوتى : اصغوا جيدا الى قولى . . أن سر القربان لكم هو دم أعدائكم » ثم أخذوا يودعون الجرحى والمرضى بينما كان الأسقف يباركهم ويعزيهم وأقسم لهم أنه باق ليموت معهم كما يموتون . وبوشر بعد ذلك احصاء الموجودين فاذا هم ثلاثة آلاف رجل صالح للدفاع والقتال وستة آلاف طفل وشيخ وامرأة ومريض . ولكن النسوة أبين الا أن يشاطرن آباءهم واخوتهم وازواجهم الخطر العتيد فتجهزن بمعدات القتال وتم ترتيب كل شيء في الغروب فما مضت ساعة بعده حتى سمع دوى إطلاق البنادق بشدة من قمم جبل (أراسنت) المحيط بسهل ميسولونغي وسمع المحصورون الدوى فقالوا بصوت واحد: «تلك هى الأشارة المتفق عليها.. لقد وصل كرايسكاكيس فلنزحف » وأخذوا يكررون هذا القول بشعور من هزه الأمل والفرح .

وكان هذا الأمل ضائعاً فأن كرايسكا كيس لم يكن الذى أطلق جنوده تلك العيارات المتفق عليها لأنه كان مريضاً فلم يقدر على ترك فراشه لتعزيز الحركة التى عزم المحصورون على القيام بها

والحقيقة أن ابراهيم باشا وردت اليه التقارير بما صحت عليه عزيمة المحصورين فجعل على قمم ذلك الجبل فرقة من جيشه لتحول من جهة دون تقدم المدد المنتظر وصوله لتعزيز الحامية المحصورة ومن جهة أخرى لتصد هذه الحامية اذا خرجت من ميسولونغى واطلق العساكر المصريون الطلقات النارية فى تلك الساعة تنفيذا لأمر ابراهيم باشا فلما سمع المحصورون دوى الطلقات عجلوا بالجلاء عن المدينة وجعلوا الأسوار خلفهم ثم انبطحوا على الارض ولبثوا ينتظرون هجوم الجنرال كرايسكا كيس على العثمانيين والمصريين وانقضت ساعة بعد ذلك فى سكوت وقلق وارتياب فلما ملوا الانتظار قام قوادهم وصاحوا بهم : « ايها الأخوة ! الى الامام ! والهلاك للمتوحشين » ثم مروا فلم يفقدوا أكثر من أحد عشر نفساً منهم (ستورناريس) قائد الحامية وتلاهم جيش آخر شاهرا السيوف فقتل منهم ثلاثون ثم الأهالى غير المقاتلين . وما شرع هؤلاء في مبارحة المدينة حتى صاح بهم صائح : « أن ارجعوا الى الخلف والزموا بطرياتكم » فعادوا مسرعين وقد ساد بينهم

الخلل وامتزج المصريون بهم مقتدين آثارهم فاستؤنف القتال من النافذات ومن خلف الأسوار وظل محتدما اربع ساعات . وجمع (كريستوس كبساليس) جما غفيرا من الجنود والنساء والاطفال والعجزة فانسحب بهم الى بناء فسيح فيه مقدار عظيم من ذخائر الحرب . وكان قد عاهد نفسه على أن ينقذ من ذل الاسترقاق والعار نفسه وأبناء جلدته وانتظر حتى إذا أقبل الاعداء في حشد عظيم صاح « ارحمنا يا إله » ووضع النار فى البارود فانشقت الارض وابتلعت الدار ومن فيها ومعهم ألفان من العساكر المصريين وانفجرت مع هذا البارود ألغام كثيرة كانت مخبوءة تحت الارض فقذفت فى الجو أجسام الموتى وأشلاءهم وأخذ يوسف اسقف (روجون) يعظ ١٤٠٠ من الأهالى آووا الى برج اعتزم نسفه فلما أتم وعظه نسفه فماتوا جميعاً وكان يصلى صلاة الاحتضار ولجأ ضابط يونانى بكنيسة (سان سبرديون) وآخر بطاحون ولبثا يدافعان ثلاثة أيام فانتهى الأمر بالثانى الى الانتحار ومن ثم اصبحت مدينة ميسولونغى اجمل مدائن اليونان الحديثة أطلالا دارسة ينبعث من خلالها الدخان . وهى الآن عبارة عن عشش واكواخ يأوى اليها بعض الصيادين ويسكنها قوم مابرحت مسطورة على وجوههم آيات الحزن والوجوم ولم يبق فيها من آثار

الماضي حتى الآن سوى الغرفة التى مات فيها الشاعر بيرون الذى لو عاش سنوات قليلة لافرغ على مدينة ميسولونغي حلة المجد والفخار كما كساها ابراهيم ثوب الهوان والدمار

وفى ٢٤ ابريل ١٨٢٦ كان لا يزال على قيد الحياة فى ذلك القبر الفسيح ١٢٠٠ نفس قيدوا بقيد الرق والاستعباد. ومن نجا منهم وهم النزر اليسير لاذوا بدير (سان سيمون) الذى يحكمه جبل (اراسنت) باعتقاد ان اخوانهم من عساكر كرايسكاكيس سيتلقونهم بالفرح فتلقاهم فيه بدلا من هؤلاء جماعات الألبانيين الذين وضعهم ابراهيم فى هذا الجبل بنارهم ففتكوا بهم فتكا ذريعا ووصل (دمتريوس) من ضباط كرايسكاكيس أثناء ذلك بقوة من الجند فساعد الباقين على التراجع وكان عددهم ٢٤٠٠ فقضوا يومين هائمين في الجبال والأغوار لا يلوون على شىء ثم وصلوا الى قرية (درفكستا) فلما يجدوا بها مايفرجون به بعض كربهم فواصلوا السير فى أسوأ حال حتى وصلوا الى سالونه ومات منهم فى الطريق ٦٠٠ نفس جوعا وتعبا وتفرق الباقون بعد ذلك شرقى مقاطعة (إيتوليا) حيث تلقاهم كوستا بوتزاريس كما يتلقى الأخ إخوته

وفى السابع من مايو كتبوا الى حزبهم السياسى الرئيسى ما يأتى: «أياحكام اليونان! لا تفقدوا الشجاعة ولا تضيعوا الثقة

فينا فأنا لانزال مدينين للوطن بخدمات نافعة شريفة وسنستطيع الانتقام لقبر ماركو بوتزاريس وقبر الانكليزى الكريم الذى وقف علينا أغانيه الشعرية وماله وحياته . إن مدينة ميسولونغى لاحياة لها إلا فى اطلالها ولكن ذكراها ستبقى عالقة بخواطرنا على ممر الايام ولايزال الدم الذى يجرى فى عروقنا يغلى ساخنا .. نحن مازلنا أولئك الوطنيين الذين دافعوا عن حقوق الوطن المقدسة وعن ذمار الحرية فوق جبال (سولى) الشامخة الذرى واسوار ميسولونغى التى أصبحت أثرا بعد عين »

وكان سقوط ميسولونغى عنوان انتهاء الحركات الثورية التى تواتر ظهورها بين يوناني إيتوليا واليونان الشرقية وأكرمانيا وإبيروس .ولقد أفرغ على مدائن اليونان جميعا ثوب الحزن والكآبة وانفرط بسببه عقد الجماعات المسلحة.ومنذ ٢٤ ابريل انعقد مؤتمر فى (ابيدور) فقرر العدول عن كل أمل فى الاستقلال وأن يتوسط سفير انكلترا لدى الحكومة العثمانية فى كف القتال مقابل دفع اليونان جزية سنوية لها . وكان مؤكدا ان لايرضى (إبسلانتى) بتضحية كرامة الوطن قبل ان يبدى رأيه ويسمع صوته فلقد قال : « ان الكارثة التى نزلت بميسولونغى قد أزعجتكم على مايظهر في حين أن الواجب عليكم الاعتماد الآن

كما اعتمدتم قبل الحرب على همة الشعب وغيرته وحماسه. إن في صدر كل منا صورة من ميسولونغي بل شبحا ماثلا منها. فاذا كان نقص وسائل الدفاع قد ألقى بكم فى الحيرة الى هذا الحد فلست أفهم لماذا لا تستنجدون بكرم الأمة وسخائها؟ فليس فى القطر اليونانى يونانى واحد على ما اعتقد يضع أصابعه فى أذنيه اذا حدثه محدث فى أمر الوطن » . تلك كانت ثقة ذلك الوطنى الغيور فى أمته ولم تكن بأقل منها ثقة (جيناديوس) الكاتب فيما يختص بمدينة نابولى. وكان قد شاع أن المصريين سيحملون حملة جديدة عليها حيث قال على الملاء فى ميدانها العمومي : « معشر اليونان! ان العدو مابرح يتهددكم فانبذوا وراء ظهوركم خصوماتكم وعجلوا بتأليف فرقكم من المشاة وانشاء فرقة للفرسان لاتخفى أهميتها وحسن أثرها فى المساعدة على سرعة الانتشار والانبثاث فى سهول (ارغوس) و(ميسينيا) وإنه لمن الفروض المحتومة علينا ان نضحى مانملك من مال ونشب للخلاص من هذه الازمة. ولست كما تعلمون إلا استاذا معدما ولكننى اقدم قليل ما أملك وهو مائتا فرنك تجدونه فى هذا الكيس معتقداً أن الاغنياء سيقدمون اكثر مما قدمت » فاستهوت همة الرجل فى قوله وفعله أفئدة الحاضرين فتزاحموا عليه متنافسين فى دفع ما استطاعوا

دفعه لأخراج الوطن من موقفه الحرج فجرد الضباط والعساكر أنفسهم من سيوفهم المفضضة ليحملوا فى خدمة وطنهم سيوفا أمضى منها حدا وان تكن أبسط شكلا . فلما شهد جيناديوس هذا الأقبال صاح فى الحاضرين قائلا : « معشر اليونانيين أبناء وطنى الأعزاء! إنى لمعجب بوطنيتكم الطاهرة واخلاصكم الثابت ولكن خبرونى أين نجد الخيل التى نحن بحاجة اليها ؟ » فأجاب جماعة من الحاضرين: «نأخذها من اسطبلات أغنياء موره» فقال: « واذا رفضوا فماذا نفعل؟» فأجابوا : « نأخذها قوة واقتدارا » فقال :« أيها الأخوان الاصدقاء !لنجمع كلمتنا وجهدنا لاستنقاذ اليونان ، ولكننى اتوسل اليكم ان لا تغمسوا أيديكم فى دماء اخوانكم » . وما هي إلا ساعة حتى جيء بخمسين جوادا عربيا الى الميدان العمومى حيث كان الاجتماع وبعث مفروكرداتوس بجواده . وتألفت الفرق المطلوبة وألف أهل (كورفو) و (سيفالونيا) من أنفسهم فرقة بقيادة (كوكومورفوبولوس) وألف (بيتاس) السلانيكلى فصيلة من المقدونيين وعين كرايسكاكيس قائدا عاما لبلاد الروملى .

على أن زحف العدو، وقد خفض من غلوائه فى الهجوم، كان لا يقتضي هذه الاحتياطات كلها. فأن حصار ميسولونغى كلف

الاتراك عشرين الف مقاتل والمصريين ستة آلاف. ولفداحة هذه الخسارة لم يبد ابراهيم باشا منذ عاد الى موره رغبة فى العدوان ما عدا فيما يتعلق بمركز (مانيا) إذ كان يريد احتلاله طوعا أو كرها فلما رأى ان اليونانيين منتشرين في أودية (أوروتاس) وسواحل (اميروس) حيث كان آلايان من المشاة المصريين ينازعهما العدو الارض شبراً شبرا رأى أن لا يزج بجنوده بعد أن نقص عددها بذلك القدر الفاحش في مأزق لا فائدة من ورائه . وكاد فى وقت ما يقع أسيراً فرأى بعد هذا وذاك ان يوغل فى موره على أمل الوصول الى تريبوليتسا

وبعد ذلك بقليل أى فى نوفمبر ١٨٢٦ عاد ابراهيم الى مودون حيث انشأ المستشفيات ومجلسا صحيا وقسم جيشه شطرين لقضاء فصل الشتاء فجعل الآلايات الخامس والسابع والثامن فى مودون والآلايات الثالث والرابع والسادس فى كورون وشكا العساكر اليه فى أخريات هذه السنة قلة المؤن ونفادها وكانت المستودعات والمخازن خالية منها حتى استعيض عن الزبدة والسمن بالزيت الردىء وعن الخبز الناضج بالقمح غير المطحون لتدمير اليونانيين طواحينهم . وكان من المنتظر ان يصل الأسطول المصرى الذى غادر مياه بتراس مع الاسطول التركى. ففى خلال دسمبر السالف

الذكر زحف ابراهيم على تريبوليتسا فلما وصل الى قرية (نيزيا) ترك بها سواد جيشه ثم واصل السير الى بلدة (أنينا) فى فريق من فرسانه ففجأ فى بعض القرى عصابات من اليونانيين أسر منها بضع مئات وغنم ١١٠٠٠ رأس من البقر والغنم وقصد من هناك الى العاصمة فمونها بالزاد وبدل من حاميتها بأخرى وعلم فى أوائل سنة ١٨٢٧ أن اليونانيين يتهددون بتراس فجرد ثلاث أورط من كل ألاى وأخذها معه مشتطا السواحل الغربية من موره. وما من جبل من الجبال الممتدة هناك آوى الثائرون اليه إلا وقد ترك المصريون فيه أثرا من آثار نقمتهم. وذهب ابراهيم بعد ذلك الى (يهود قلعه سى) وكان أهلها قد جهروا بالعصيان فلقوا جميعا حتفهم إلا الشيوخ والاطفال والنساء. واغتنم ٣٠٠ يونانى فرصة غياب ابراهيم عن بلدة كورون للاستيلاء عليها فعادوا من سعيهم هذا بالفشل لأن الحامية كانت على تحفز دائم للدفاع عنها

وفى الوقت الذى أسندت جمعية (أبيدور) رآسة بلاد اليونان فيه الى كونت (جان كابوديستيريا) المولود بجزيرة كورفو وكان فى ايام مؤتمر فيينا وزيرا لخارجية الروسيا قلدت اللورد (كوشران) قيادة القوى البحرية والجنرال (شورش) قيادة القوات البرية. وكان فى هـذا التقليد مايمس بالطبع كرامة الاميرال ميوليس

والضابطين كرايسكاكيس وكولوكوترونيس واشباههم فى الكفاءة والبسالة والفضل لاسيما وان الاكفاء من ابناء جنسهم لتولى مناصبهم كانوا أكثر من أن يحصيهم العد. نعم لم يكن اللورد كوشران خلوا من البسالة والذكاء. فلقد تقلد بأمريكا الجنوبية فى حكومة جمهورية شيلى الحديثة مثل المنصب الذى أسند فى اليونان اليه. ولكن الروايات لم تتطابق على ان الاساطيل التى تولى قيادتها بهرت الانظار بمعجزات فعالها. أما الجنرال شورش وكان نديم ملك جزيرة صقلية وتابعه المخلص فأنه لم يرقط بين صفوف الجنود اليونانيه بل ظل عائشا كواحد من الافراد باحدى السفن المسلحة وكان العساكر يهزأون ويتهكمون عليه بتسميته، كلما وردت سيرته على لسانهم، بالجنرال جويليت. وعلى كل حال فان القائدين البريطانيين لم يوفقا الى شيء من الفوز والنجاح فى الفصل الاول وهو الخطير من رواية اشتراكهما فى العمل. فانهما فى ٦ يونيو ١٨٢٧ اجتمعا للبحث فى القيام بهجوم عام ضد الاتراك فكانت نتيجة هذه الحركة التنكيل بالسوليين والكريديين والموره ليين والروملليين الذين اشتركوا فى القتال وضرب أعناقهم جميعا. وفر القائدان لا يلويان على شيء ولم يصغيا الى (توساس بوتزاريس) وهو يصيح فيهما وقد خضب

بدمه : « الى اين تذهبان واخوانكما يذبحون ذبحا؟» وما كادا يبلغان الى الساحل حتى استقلا زورقيهما فكان سلوكهما هذا دليلا على عدم كفاءتهما للقيام بما عهد اليهما . وما اشبههما وقد تركا اليونانيين يفتك بهم هذا الفتك الذريع برشيد باشا الذى ثمل بخمرة السعد فاقام الدليل على همجيته برميه رقاب الزعماء وكبار الرؤساء من الاسرى ومحبي اليونان من الاجانب الذين توافدوا من اصقاع العالم للدفاع عن الحرية اليونانيه

وبناء على مسلكهما الشائن حبطت آمال اليونانيين فيهما. وما كادا ينزلان فى دونتمهما الصغيرة التى بولغ كذبا في ضخامتها حتى انهزما أمام ثغر (مونيشيا) فساءت الظنون فيهما ويئست النفوس من فائدة مساعدتهما. وحدث بعد فشل هذا الاسطول ان سقطت اثينة فى قبضة الاتراك فذهب اللورد كوشران الى خليج بتراس ليوارى عن الانظار عار فشله . وكان وقتئذ فى الفرقاطة لاهلاس التى قدمها الأمريكيون مساعدة لليونانيين ترافقه سفينة بخارية فوقف بهما تجاه سواحل موره وجاءت الاخبار الى ابراهيم بقرب دنوهما من السواحل فاستدعي ربانى السفينتين الراسيتين بالميناء وأصل إحداهما من الاستانه والثانية من تونس وقال لهما : « إذا كنتما جبانين فالزما هذه الميناء ولا

تبرحاها فأن فى مدافعى الكفاية لحمايتكما .اما اذا كنتما بطلين باسلين فعليكما بهذه الفرقاطة التى تريانها .. أدنوا منها لقتال رجالها ولكن اعلما اننى لن اكف عن متابعتكما بالنظر فأذا تراجعتما الى الخلف بمقدار قامة واحدة فأننى لاشك قاتلكما رميا بالرصاص » . فخرجت السفينتان وأسلمتا أشرعتهما للرياح فلما وقع نظر اللورد الجبان عليهما اطلق المدافع مرارا ثم دار دورة لائذا بالفرار وظل مدبرا حتى وصل الى نابولى وفيها قام بتسليح عشرين سفينة من طرز البريك وقصد بها الى الاسكندرية بنية تدمير الاسطول الذى كان والى مصر مهتما بتجهيزه فلما دنا من الساحل رفع الراية النمساوية . وكان محمد على باشا منذ حاول اليونانيون الغارة على الثغر الاسكندرى باتخاذهم الراية النمساوية شعارا لسفنهم خصص سفينة بمراقبة البحر على الدوام فلما رأى ربانها ذلك الاسطول مقبلا عليه أدرك الحيلة فاطلق مدفعاً وكان هذا الاطلاق إشارة متفقا عليها للأشعار بالخطر. وتعذر على السفينة المصرية المراقبة العود الى الثغر فجنحت على الساحل حيث أدركتها حراقات العدو وأحرقتها

على ان محمدا علياً باشا لم تنبض له فريصة بسبب هذا الحادث بل أمر باخراج اربع وعشرين سفينة من السفن المصرية

للالتحام بالسفن المهاجمة ومقاتلتها فرأى اللورد كوشران ان يجتنب القتال ما استطاع وعاد بأقصى سرعة الى جزيرة رودس فتبعه الاسطول المصرى اليها وفى مياهها انضم الى الفرقاطتين المصريتين اللتين كلفتا من ابراهيم باشا قبل ذلك بمطاردة اللورد التعس غير أن سفنه استطاعت العودة الى مياه هيدرا واسبزيا وبوروس وظلت فى هذه الموانئ الثلاث بلا عمل ولا حركة

وإذ كان البحرية اليونانيون فى الجزر الكبرى من الأرخبيل لم يقوموا بعمل فى الدفاع عن الوطن فقد انضموا الى سفن القرصان الذين أساءوا الى التجارة بين أوروبا والشرق بتعديهم عليها بالسلب والنهب فلما رأت ذلك الدول الثلاث الكبرى فرنسا وبريطانيا العظمى والروسيا تداخلت فى الأمر لايقاف هذه التعديات عند حد وصون اليونان من الرسوف فى قيود الذل والعبودية وابرمت لهذا الغرض فى ٦ يوليه سنة ١٨٢٧ معاهدة لوندره التى لم تلبث أن أعلن نصها الى ابراهيم باشا فقال: « ليس بوسعى الجزم بشىء مطلقا مالم ترد الىّ رسالة من سمو والى مصر وفرمان من جلالة السلطان فانهما رئيساى اللذان بأمرهما أأتمر وانى منذ اليوم باعث اليهما رسولا لاخبارهما بما حدث وما على إلا انتظار العمل بامرهما. ومهما يكن الخطر الذى انا مهدد به فأنى لن أحيد عن خطتى قيد

شعرة » اما الديوان الهمايونى فقد رفض وساطة الدول الأجنبية فى شؤون عصاة اليونان التابعة اليه وكان جوابه على رسالة ابراهيم دعوته الى استئناف القتال باقصى الشدة. واتصل بمحمد على قرار الباب العالى فى ذلك الشأن فقال لضابط فرنسى من ضباط بحريته: « إن ولدى ابراهيم سيدأب على القتال بشدة حتى النهايه . إنى عارف بطبعه » وفي أغسطس انضم الأسطولان المصرى والعثمانى ودخلا فى موانئ موره . وكان محمد على قد أرسل اثنتين وتسعين سفينة وأربعة آلاف عسكرى من المشاة الذين يتألف منهم الآلاى العاشر تحت قيادة احمد بك أما الأسطول فكان مؤلفا من سفينتين كبيرتين فيهما ٨٤ مدفعاً و١٢ فرقاطة كبيرة كان فى بعضها ٦٥ مدفعاً و ٣٧ سيفنة من طرز الكورفيت والجوليت والحراقات و٤١ سفينة نقالة. وكان ضباط من الأوروبيين يديرون الاعمال فسافر هذا المدد من الاسكندريه ومعه مبلغ جسيم من المال لدفع مرتبات الجند ورسا فى مياه قنديا ثم قصد الى نافارين فوصل اليها فى اواخر أغسطس. وفى ٢١ سبتمبر سنه ١٨٢٧ اتصل الاسطول الفرنسى بقيادة الاميرال (دوريني) امام هذا الثغر بالاسطول الانجليزى الذى بأمرة الاميرال (كدرنجتن) وفى ٢٨ اكتوبر وافى هذين الأسطولين الاسطول الروسى وكانت

سفن الأسطولين العثمانى والمصرى ملقية مراسيها حول الجون على خط مقوس يشبه الهلال تعززه بطاريات الساحل فلما كان ٢٠ اكتوبر تقدمت سفن الحلفاء على خطين متوازيين فالصف الأيمن بالنسبة لاتجاه سير السفن كان مؤلفا من سفن الأسطولين الأنجليزى والفرنسى والصف الأيسر المؤازى له من سفن الأسطول الروسى

وفى الساعة الثانية بعد الظهر اجتازت سفن الاسطول الانجليزى الرمال والصخور التى بمدخل الميناء ووقفت بسكون فى اتجاه مؤاز للسفن العثمانية وفى الساعة الثانية وخمس وعشرين دقيقة وقفت السفن الفرنسية فى وسط السفن المصرية والسفن الروسية امام سفن العدو التى تحت الريح مجانبة لها فلم يعترض الاساطيل الثلاثة معترض في سيرها بل تركها العثمانيون والمصريون تقوم بمناوراتها بسكون كما لو كانت تقوم بها امام اصدقاء أو حلفاء . ولم يظهر من جانب الاساطيل الأوروبية ولا من جانب الأسطولين الشرقيين مايدل على أن أحد الفريقين يود البدء بالقتال ، بيد ان هذا ليس معناه انهما لم يكونا على استعداد له . وحدث ان زورقا بريطانيا دنا من حراقة عثمانية ليأمرها بالابتعاد فلم يسمع للأسيران الذى نيط به ايصال هذا البلاغ

قول ، فحاول عندئذ ان يصدم الحراقة فأصيب برصاصة أردته
فى مكانه فلما رأت الفرقاطة الانكليزية التى أرسلت الزورق ذلك
اطلق عساكرها بنادقهم بشدة عظيمة أخذاً بالثأر لمبعوثها فأطلقت
سفينة عثمانية قنبلة أصابت السفينة (سيرين) الرافعة لراية
الاميرال دورني . فأجابت هذه الفرقاطة بنار مدافعها الجانبية
وكان من رأى اميرال الاسطول المصرى محرم بك عدم
الاشتراك فى المعركة إلا انه لما شهد الحوادث المتقدمة لم يسعه
إلا السير مرغما مع ظروف الاحوال ، فأمر اسطوله بتصويب
مدافعه وإلقاء قذائفه . وكانت البسالة من الجانبين فى أقصى
شدتها إلا ان الاساطيل الاروبية فازت بالنصر بعد قتال عنيف
استمر أربع ساعات . وتلقت الفرقاطة الفرنسية (أرميد)
الصدمات العنيفة من خمس فرقاطات للأعداء بدون أن يفقد
رجالها صوابهم . وجانبت حراقة شرقية السفينة (سبيون) اربع
مرار واشعلت النار فيها فتمكن رجالها من اخمادها بدون ان
ينقطعوا لحظة عن أداء واجباتهم الحربية . ولما بدأت سحب
الدخان المتلبدة تتبدد بتأثير الريح شوهد علم والى مصر فما من
سفينة مرت أمامه إلا وأظهرت نحوه علائم الاحترام والاجلال .
ولقد دمر الاسطول المصرى التركى البعض منه بالنار والبعض

بالجنوح على الساحل والبعض بالغرق وغطي سطح الماء فى الخليج بالبقايا والانقاض المتكسرة. وبلغت خسائر الفرنسيين ٤٣ قتيلا و ١٤١ جريحا وخسائر الانكليز مثل هذا القدر تماما من القتلى والجرحي وخسائر الروسيين أقل من ذلك فيهما. أما خسائر المسلمين فقد بلغت الى ٦٠٠٠ قتيل و٣ سفن كبيرة من سفن القتال و ١٩ فرقاطة و ٢٦ سفينة شراعية من طرز الكورفيت و١٢ سفينة من طرز البريك و ٥ حراقات، ولم تقع سفينة واحدة من هذه السفن على اختلاف انواعها وأحجامها فى يد المسيحيين فان السفن التى لم تغرق بتأثير مدافع العدو أحرقها بحريتها بأيديهم أو نسفوها نسفا. وكانت الرايات العثمانية والمصرية فى الحالتين خفاقة بأعلى سارياتها. وكان الضباط الفرنسيون الذين فى خدمة الاسطول الفرنسى قد نقلوا قبل المعركة بناء على أمر الأميرال دورني الى سفينة نمساوية ذهبت بهم الى عرض البحر

ولنا ان نقول فى هذا المقام إن انتصارنا فى نافارين كان فوزا لا أساس له من حسن السياسة والنظر الصادق لأنه أفضى بالدولة العثمانية الى الوقوع فى براثن الروس بعد أن جردت من أهم الوسائل لديها للذود عن حماها فى البحر الأسود وبحر الارخبيل وبحر سوريا. ولقد أسفت بريطانيا العظمى أسفا شديدا لوقوع

هذا الحادث ووصفته بالمكدر . ووصف أحد كبار رجال حكومتنا الانتقام الذى أنزلته الأساطيل الاروبية الثلاثة بالمصريين والعثمانيين بأنه كان تهوسا وطنيا تطوعت له فرنسا وانجلترا اعتباطا لمصلحة الدولة الروسية . فاننا فى واقعة نافارين إنما حاربنا حلفاءنا الطبيعيين وهو ما جعل محمدا عليا حينما وصل اليه خبر الكارثة يقول : « ما كان يدور بخلدى أن تطلق المدافع الفرنسوية نارها على اسطولها » ولا خلاف في أنه إذا كان الغرض الذى رمت أوربا اليه بتألبها على تركيا تأديب هذه الدولة واعطاء درس لها فقد كان هذا الدرس قاسيا للدرجة القصوى . على أن الأميرالية الثلاثة للأساطيل الفرنسية والأنجليزية والروسية كانوا أول من اعترفوا بان العمل الذى أمرتهم حكوماتهم بأدائه إنما كان ضربا من ضروب العبث وسوء التصرف فى القوة المبنية على التفوق العددى . ولقد بث ابراهيم باشا اليهم شكواه من هذا العبث فكان جوابهم له أن نشوب المعركة كان نتيجة سوء تفاهم بسيط وان حالة الحرب لم تكن موجودة بين الفريقين وان الأوربيين ما برحوا الأصدقاء الأمناء للعثمانيين والمصريين

وكان ابراهيم باشا غائبا أثناء المعركة يخضع الى رهبوته البلاد الداخلية من شبه جزيرة موره وكانوا يخشون ان يثأر

للاسطول المصرى بالتنكيل بالأسارى اليونانيين والافرنج
الذين ساقهم نحس الطالع الى الوقوع فى قبضته بالاماكن الحصينة
التى استولى عليها فى تلك البلاد . ولكن شيئا من هذا الخوف
لم يتحقق إذ أنه أعلن فى جيشه ان من يعتدى على أحدهم بأذى
يكون جزاؤه الأعدام . وبعد أربع وعشرين ساعة من وقوع
كارثة نافارين وصل الى هذا الثغر وشرع على الفور فى العمل بهمة
لاتعرف الكلل لانقاذ مايستطيع انقاذه من سفن الاسطول
وترميمه فى الاحواض بقدر الامكان. فما وافى أول جمادى الثانى
الموافق ٢٠ دسمبر حتى أتم تجهيز احدى سفن القتال الكبيرة
وست فرقاطات وعشر سفن من طرز الكورفيت وخمس
وثلاثين سفينة نقالة وأعدها لنقل خمسة آلاف عسكرى بين
مريض وجريح وستة آلاف يونانى أسروا فى الغزوات الاخيرة
وسافرت تلك السفن الى مصر . وفي أوائل شعبان ١٢٤٣ الموافق
أواخر فبراير ١٨٢٨ حشد ابراهيم آلاياته بالطرف الجنوبى الذى
تحيط به مدائن كورون ومودون ونافارين وقسمها الى معسكرات
شاد لحمايتها حصونا فوق الآكام والروابى وكفل لهذه الحصون
سلامة خطوط الاتصال . وكان سليمان بك (الكولونل سيف)
لايزال فى تريبوليتسا على رأس حاميتها فدمر حصونها وقلاعها

وخرج بجيشه منها ليدرك القائد العام الذى أصبح محصورا مع هذه القوات كلها فى مكان لا تتجاوز سعته بضعة فراسخ مربعة. وكان حصره من جهة بأساطيل الدول الثلاث ومن الاخرى بأقوام الأغريق الذى نسلوا من كل حدب. ولقد يئس من وصول المدد اليه من مصر لقلة سفن النقل فيها فعاش مدة حصره لا يجد لنفسه وجيشه من الازواد إلا ماساقته له المصادفات. وكان قد بذر الاراضى الصالحة للزرع، يرمي بذلك الى توفير موارد العيش في مكان الحصر نفسه. وكان هذا الاحتياط فى الدرجة القصوى من الحكمة اذ كان فى استطاعته اللبث طويلا فى مكانه بعد أوان الحصاد للاحتفاظ بمواقعه وانما كيف كان يتيسر له انتظار الموسم المقبل ليستفيد بثمار ماغرست يداه ؟

أصبح ابراهيم باشا مهدداً بالموت جوعا فلم تزعزع هذه الكارثة العتيدة من ثباته وثقته بنفسه. وقد اقتدى عساكره به فى فضائله العالية وصفاته المحمودة فأنهم مع تجردهم مما يكفى لسد الرمق كانوا متمسكين بطاعته. ولم يجد بابا للخلاص من هذا الفتك الشديد الا بالعودة الى القطر المصرى ، غير أنه لم يكن ميسورا له بلوغ هذا الوطر إلا باذن من والده أو من السلطان فانتظر حتى يجيء اليه من أحدهما الامر بذلك فجاءه الامر من

والده بالعودة. وكان قد أمضى فى الاسكندرية الاتفاق الآتى بتاريخ ٢٤ محرم ١٢٤٤ الموافق ٦ اغسطس ١٨٢٨ مع الدول الثلاث ممثلة فى شخص الاميرال كدرنجتن وها هي :

أولا — يتعهد والى مصر برد الأسرى الذين أسروا بعد واقعة نافارين وأرسلوا الى الديار المصرية ويعد باستعمال نفوذه بالاتفاق مع قناصل الدول المتحالفة لاستنقاذ اليونانيين الذين بيعوا قبل تلك المعركة ورد حريتهم اليهم

ثانيا — يتعهد الاميرال كدرنجتن بأن يعيد الى حكومة مصر جميع الاسرى المصريين وسفينتين من السكورفيت أسرتا فى مياه ثغر مودون

ثالثا — تخلى الجيوش المصرية بلاد موره فى أقرب وقت ويرسل والى مصر الى نافارين السفن اللازمة لنقلهم الى ثغر الاسكندرية

رابعا وخامسا — سفن النقل تقوم بحراستها فى ذهابها وإيابها سفن حربية فرنسيه وانجليزيه

سادسا — لا يرغم يونانى مهما تكن حالته أو مهنته ذكرا كان أو انثي على مغادرة القطر المصرى والعودة الى اليونان مالم يعرب صراحة عن رغبته فى ذلك

سابعا ـ يجوز لابراهيم باشا أن يترك فى مورة ١٢٠٠ جندى ينتخبهم من الجيوش الاحتياطيـة المصرية كى تتألف منهم ومن العساكر الألبـانيين الموجودين فيها حاميـات مودون ونافارين وكورون وباتراس وكاستل تورنيز . أما النقط الأخرى التي يحتلها المصريون من بلاد اليونان فيتعهدون بأخلائها

وكانت فرنسا قد أعدت حملة عسكرية لاستخلاص شبه جزيرة مورة من أيدى المصريين وسيرتها اليها عندما رفض ابراهيم الجلاء عنها مالم ترد اليه أوامر صريحة بهذا الصدد من الاسكندريه أو الآستـانه . وكانت مؤلفـة من ١٤٠٠٠ عسكرى من المشـاة و ١٥٠٠ فارس . وبرحت هذه الحمله ثغر تولون يوم ١٧ أغسطس ١٨٢٨ فوصلت الى ساحل (بيتاليدى) مساء ٢٩ ونزلت اليها صباح ٣٠ وكان قائدها العام اللفتننت جنرال (المركيز ميزون) وقوادها الجنرال (ثيبورس سباستيانى) والجـنرال (شنيدر) والجنرال (هيجونيه) كل منهم يقود إحـدى الفرق الثلاث للحملة وكان المارشال (دوريو) رئيسا لأركان الحرب والـكولونل (تريزل) وكيلا له والـكولونل الفيكونت (لاهيت) مديرا للطوبجيه واللفتننت كولونل (أودون) رئيسا لفرقة الهندسة والقيم العسكرى (فولان) للشؤون الاداريه . فبمجرد أن وقعت أنظار اليونانيين

من أهل السواحل على العلم الفرنسى جثوا على ركبهم تحية له واحتراما وشكرا لله على معونته . وما مضت ساعة من نزول هذا الجيش حتى توافد الأهلون يهدون منقذيهم من الاستعباد التين والشمام والعنب

ثم شرع القائد العام الفرنسى فى المفاوضات مع القائد المصرى العام الذى قال إنه وقد وصل اليه نص الاتفاق المبرم بين والده والاميرال كدرنجتن لا يسعه إلا تنفيذه بالحرف الواحد . وبعد مفاوضات عديدة بين القائدين العظيمين برهن ابراهيم باشا فيها على الهمة الفائقة والغيرة الشديدة والأرادة الصلبة والجأش الثابت والعلم الواسع بأسرار السياسة الأروبيـة تقرر أن يكون البدء بالجلاء عن المواقع الحصينة يوم ٩ سبتمبر . وقد بدىء به فعلا فى هذا اليوم بحيث لم تشرق شمس يوم ١٦ منه حتى بلغ عدد الذين نزلوا من العساكر المصريين بسلاحهم وأمتعتهم ومهماتهم في احدى سفن القتال الـكبيرة وسبع وعشرين نقاله ٣٥٠٠ عسكرى . سارت بهم هذه السفن الى الاسكندرية بحراسة الفرقاطة الفرنسية سيرين وسفينتين انجليزيتين من سفن الحرب . وتولى هذه الاعمال مندوبو الدول الثلاث وخيرت السبايا اليونانيات بين البقاء فى اليونان والذهاب الى مصر مع سادتهن الذين

اشتروهن بالمال ففضلن مرافقتهم موثرات المعيشة معهم فى الرخاء والنعيم على البقاء فى وطنهن حيث يذقن مرارة الحياة ويعانين مشاق الضنك وضيق العيش فلم يعارضهن أحد فيما آثرنه. ومنع من السفر الى مصر الأطفال الذين دون الرابعة عشرة. أما الذين تجاوزوا هذه السن فقد خيروا بين السفر والبقاء

وما برح قواد جيش الحملة الفرنسية فى موره يظهرون الأدب والاحترام والمجاملة نحو ابراهيم باشا فلم يقابل هذه الرعاية وهذا العطف بشيء من صراحته المعتادة ولا بما عرف عنه من طلاقة المحيا. وأيقن الجنرال ميزون بميل الأمير الى شهود العرض العسكرى فأمر بأجراء عرض عظيم إكراما له. ففي الساعة التاسعة من صباح اول اكتوبر ١٨٢٨ وصل ابراهيم الى مكان العرض فى زورق لا يصحبه فيه سوى ترجمانه الخاص. وكان ساحل نافارين الذى نزل فيه يبعد عن ذلك المكان بمسافة طويلة احتشد فيها كثير من اليونانيين الذين تقاطروا للتفرج والاستطلاع. فاخترق القائد المصرى جموعهم الحشيدة بلا حرس حوله ومن غير خوف ثم برز وسط الجيوش الفرنسية راجلا فقدم الجنرال ميزون اليه جوادا كريما وجوادا آخر الى الخواجه (آبرو) كاتم أسراره وترجمانه. وكان ابراهيم يلبس بذلة رفيعة القيمة على

بساطة منظرها . وكان يهبط من وسط طربوشه الأحمر زر أزرق ويلبس صدرية (سلطة) لعلية اللون مشغولة بالحرير وحزاما من الحرير يضبط حول الخصر سروالا واسعا من لون الصدرية ويحمل قرابا لسيف جميل مقوس. أما المترجم فأرمنى الأصل أقام بباريس زمنا طويلا وكان متعمما بعمة أو شبه عمة ومتلفعا برداء واسع لازوردى اللون يغطى ثوبا شرقى الطراز يضبطه على الجسم حزام حريرى. فلما شهد ابراهيم باشا الجيش الفرنسي وتفقده عارضا له أعرب عن ارتياحه من هيئة المشاة ودقة حركاتهم وقال لقوادهم إنه بصفته قائد الفرسان يود لو يكون قائد مشاة كهؤلاء . وزاد إعجابه عند ماوقع نظره على شكل الجنود الفرنسية وقد انتشرت في بسيط الارض أمامه الفرقة الثالثه من الفرسان الخفاف. ولم يسعه إلا ان دنا من قائدها الكولونل (دى فودواس) فامتدح له هذه الفرقة لما لاحظه على حركاتها من الخفة والسرعة والرشاقة وأعرب له عن رغبته في اقتناء نموذج من كسوة عساكرها فلم يكن من الكولونل إلا ان قدم اليه كسوته الخاصة به وفى اليوم التالى كان ابراهيم باشا يتناول طعام العشاء بالمعسكر العام الفرنسى مدعوا من القائد العام ميزون فنزع سيفه من جنبه ورجا من هذا القائد ان يقدمه

الى الـكولونل (دى فودواس) ثم قال له بعد ان سلمه اليه: «أرجو منك ان تحمله لحظة فان ذلك يكسبه فى نظر الـكولونل قيمة لم تكن له من قبل » وهى جملة كبيرة المغزى لطيفة المعنى من رجل كانوا حتى أمس الدابر يرمونه بالهمجية وحب سفك الدماء وقدرت قيمة السيف فيما بعد فاذا بها تتجاوز عشرة آلاف فرنك . وفى تلك الوليمة والولائم التى اقيمت بعد إكراما للقائد المصرى العام اظهر هذا فى حديثه من آيات الدقة فى التفكير والفصاحة فى التعبير والحصافة فى الاحتياط والتدبير ما أدهش سامعيه . فقد روى لنا احد الذين حضروا هذه الاجتماعات الجمة الفوائد من الضباط الفرنسيين ان ابراهيم باشا كثيرا ما افحم بغمزه وتلويحه على الأسلوب الشرقى كل من صاوله فى الحديث. وفى وليمة الغداء التى أعدت له على أثر العرض العسكرى شرب فى سر الدولة الفرنسية ثم سأل ضباط اركان الحرب الفرنسيين كيف يتفق ذهابهم الى اسبانيا قبل خمس سنوات لاستعباد أهلها مع مجيئهم الآن الى اليونان لتحرير سكانها من العبودية

وفى ٢٤ ربيع الأول ١٢٤٤ كان المصريون قد أتموا نزولهم فى السفن تحت قيادة الباشا للرحيل عن الديار اليونانية . وكانت الجيوش الفرنسية تشكو استمرار هطول الامطار والبرد

القارس والبقاء معسكرين فى الخلاء فسيرت الى المدائن التى لم يجل
عنها العثمانيون . وفى ٦ اكتوبر دخل الجنرال هوجونيه مدينة
نافارين من ثغرة فى الاسوار كما دخل الجنرال ميزون مدينة
مودون من بابين كسرا بالبلطات واستولى الجنرال تيبورس
سبستيانى على مدينة كورون فى ٨ اكتوبر واحتل الجنرال شنيدر
مدينة بتراس فى ١٤ منه . ونقل الالف ومائتا جندى مصرى
الذين كانوا بالقلاع الى الاسكندرية كما نقل الاتراك الى إزمير
ومن ثم أصبح خلاص اليونان من ربقة الاستعباد أمرا محققا فعاد
الجيش الفرنسى الى فرنسا تاركا فرقة للملاحظة والمراقبة تحت
قيادة الجنرال شنيدر ولوقاية البلاد من الغارات المحتملة والفتن
الداخلية. وبقي جول مارنييه رئيسا لاركان الحرب. ووصل ابراهيم
باشا بجيشه الى مصر فى ٣٠ ربيع الاول ١٢٤٤ الموافق ١٠ اكتوبر
١٨٢٨ فسر محمد على سرورا لاحدّ له برؤيته إياه وما وقع نظر الابن
على والده وهو فى وسط عظماء رجال الدولة الذين اجتمعوا لديه
لاستقباله حتى اندفع نحوه وقبل أطراف الصفة التى كان جالسا
عليها. وذهب بعض الكتاب والمؤرخين الى اعتبار محاربة محمد على
للأمة اليونانية، وهى أمة كريمة ذات ماض مجيد، جريمة لا تغتفر
له فقالوا إنه لم ينظر الى قضيتها التى هي قضية الاستقلال المقدس

بعين اللطف والاعجاب والاحترام . ولكن أكان فى استطاعه
مثله باعتبار كونه تابعا للدولة العلية مخالفة أوامرها والخروج عن
طاعتها ؟ وهل قصر كما يزعمون تعسفا منهم وجحودا فى واجبات
الرحمة نحو الضعفاء ؟ اتخذ حكام الاتراك نهوض اليونان للمطالبة
بتحريرها من قيد التعبد ذريعة للتشفى ونفث الاحقاد الكمينة .
ألم يفرضوا الضرائب الفادحة في سوريا على المسيحيين ويأمروا
والى عكا بتدمير كنيسة جبل الكرمل ووالى قبرص بسجن
كل من يدين بالمسيحية على المذهب اليونانى ؟ ألم يذق المسيحيون
فى إزمير وجزر الارخبيل والآستانة العليـة نفسها من عذاب
الاضطهاد ألوانا ؟

أما والى مصر فقد ظـل طول الوقت ناشرا على اليونان
لواء رحمته ورعايته وعدله إذ أبقى اليونانيين الذين في خدمـة
حكومته بوظائفهم ولم يصادر تجارهم فى متاجرهم . وكم من عائلة
شردتها الحوادث التى ثارت عواصفها باليونان ولاسيما بشبه جزيرة
موره فلم تجد حرزا حريزا ولا مأوى كريما لها غير ضفاف النيل
حيث كانت التجارات والصناعات فى ذلك العهـد معفاة من كل
قيد وضغط والحرية الشخصية بحيث كان يستطيع كل أجنبي أن
يجوس خلالها بغير جواز رسمى ويقتنى من الأسلحة بحجة الصيد

مايريد من غير أن يعترضه أو يزعجه أحد . ولنذكر شيئاً عن تجار بلاد اليونان فقد أكرمت معية محمد على باشا مثوى البعض منهم كالتاجر (توتستسا) واستخدمت الحكومة فى وظائفها الكثيرين من مهاجرى اليونان فكانوا يتقاضون مرتباتهم من خزينة الحكومة كالموظفين المصريين سواء . وما كان أكثر عدد الذين وظفوا منهم في المستشفيات كممرضين وكتبة وأطباء وهناك دليل دامغ على ما كان اليونانيون يجدونه بمصر من حسن المعاملة والرفق والاكرام هو عدم اكتراث الاسرى الذين جيء بهم الى مصر بالعودة الى أوطانهم بعد ابرام عهدة الصلح . ومن الأمثلة الجديرة بالذكر فى هذا المقام تأييداً لتسامح محمد على باشا أنه لما تداخلت أروبا المتحالفة فى الحرب بين المصريين واليونان وأرسلت أساطيلها المتحدة الى نافارين سنة ١٨٢٧ أنذر القنصل البريطانى في القاهرة مواطنيه بما يتعرضون له من الخطر، وقد توترت العلاقات بين الفريقين، اذا تخلفوا فى الديار المصرية فقد ندد محمد على جهرا بما يلقي من التهم على عواهن المصريين وأكد لقنصل فرنسا وقناصل الامم الاخرى بأن رعاياهم سيجدون فى القطر المصرى ماوجدوه ولا يزالون يجدونه من الرعاية والحماية رغم هذه التهم الجائرة والظنون الفاسدة . ثم قطع على

نفسه عهداً أن يحافظ على راحتهم وأمنهم . ولما عاد العساكر
المصريون من اليونان وبعضهم مصاب بالجراح والبعض الآخر
مبتور الأعضاء ظهرت فى الاسكندرية حركة عدائية ضد
المسيحيين وسمع الألبانيون يزمرون بلفظ الانتقام وشوهدت
علامات التذمر والاستياء مرسومة على وجوه الاهلين وهم
يطلبون ابناءهم الأعزاء الذين ذهبوا الى القتال موتى أو أحياء
فجمع محمد على جميع المصريين الذين نجوا بحياتهم بعد كارثة نافارين
فى خيام نصبت بسيف البحر حتى لا يتمكنوا من مشاهدة
مناظر الحزن والحداد من داخل المدينة وأرغم الأهلين على
العودة الى منازلهم وملازمتها ومن عصى منهم هذا الأمر عومل
بالشدة والعنف وأكره الأرنؤود ورجال المدفعية على ملازمة
ثكناتهم ووزع فى الاحياء الافرنكية ضعف ما كان يكفيها
عادة من الجنود لحفظ الأمن والنظام واتخذ بالجملة كل الوسائل
التى من شأنها رفع ذلك الخطر المدلهم لا سيما وقد حدث فى مساء
اليوم نفسه أى ٢٨ اكتوبر ١٨٢٧ أن خسف القمر ، وخسوف
القمر يأوله العامة عادة على أسوأ الوجوه ويتخذونه نذير السوء
وكان من المحتمل أن يأولوه فى مثل هذه الظروف بما يوافق نزعات
الغضب والانتقام فى نفوسهم

ومما لا يحتمل الجدل أنه لو خلصت اليونان لمحمـد على لأدخلها فى نطاق الاصلاحات العظيمة التى رام بها انهاض الشرق من عثرته ولـكن السواد الأعظم كان يجهل وقتئذ مقاصد محمـد على بل كثيرا ما كانت الصحف بمـا تلفقه من الاخبار تحمل الرأى العام في كل بلد على مشايعة اليونان والرثاء لمصائبها وتمثل محمدا عليا وابراهيم فى صورة نمرين كاسرين انسابا على حين غرة فى البلاد اليونانية فاخذا يمزقان احشاءها ويبددان التراث الجليل الذى تركه فحول الاعصر القديمة مثل (ليونيداس) و(بريكليس) و (ليكورج) . والآن وقد مضت وانقضت فورة المضى مع الغرض وزالت بواعث الاحقاد فقد أصبح سهلا علينا تقدير تلك الشتائم قدرها والاعتراف جهرا بأنهـا لم تكن فى شىء من الحق والصواب

وكان محمـد على قد أمر ابراهيم فيما وافاه به من التعليمات الاولية بمعاملة اليونانيين الذين أضلتهم الاغراض الروسـية عن قصد السبيل باللين والمعروف فاتبع ابراهيم هذه التعليمات ولم يحد عنها قيد أنملة فلم يسفك قطرة دم خارج ميدان القتال . أما أعمال التخريب والقتل والنهب التى أسندت اليه فقد كان الشطر الأوفى منها من عمل أهل موره أنفسهم لانهـم كانوا ينزلون على أملاك

الاتراك المسلمين الواسعة الا كنناف الكثيرة العدد في هذا البلد بالاتلاف والافساد لمجرد نفث الاحقاد والتشفي بالانتقام. واذا كان ابراهيم قد أرسل الى مصر الاسرى المسترقين من أهل موره وهم الذين سلموا فيما بعد الى قناصل الدول الاروبية بهذا القطر فما ذلك إلا لأن كل وسيلة لوقايتهم من تعسف الجنود فيما عدا تلك لم تكن في متناول مقدوره

ويجب أن لا يغيب عن الخاطر أن حرب موره كانت جمة الآثار الدالة على بسالة ابراهيم وجرأته وشفقته ببنى الانسان فقد حدث فى مياه جزيرة ساموس أن تبودل الرمى بالنار بينه وإحدى السفن اليونانية لانهذه السفينة صوبت اليه مقذوفاتها بما لم يكن معه أقل ريب فى أنه قد عرف منها. فجلس فى مكان الربان ولبث بلا حراك كأن على رأسه الطير وكان ينظر طلقات الرصاص باسم الثغر وهى تصيب ما حوالى قدميه . وحدث يوما أنه كان يزحف فى جبال (ميانا) فاذا به تجاه ألد خصومه وهو كولوكوترونيس فأمر جنوده بالامساك عن اطلاق النار عليه أو إلحاق أى أذى به ثم قال له : « سلم نفسك أيها القائد » ولم يكن بينهما سوى مهواة ضيقة فاطلق اليونانى على ابراهيم عيارا ناريا أصابت رصاصته رجلا من أتباعه مع أنه أمر عساكره كما

ذكرنا بالاحتراز من كل حركة عدوانية . وفي مدة حصار ميسولونغى طلبت سفينة تحمل العلم البريطانى الاذن لها بارسال زورق الى المدينـة ليقل الرعايا الانكليز فيها فاجاب ابراهيم : « أعلم ان ليس وراء هذه الاسوار سوى الاعداء . لذا أرفض الاذن للزورق بالمرور » وقد أباح لزورق فرنسى ما ضن به على الزورق الانكليزى . على أن الاروبيين الذين أريد اسعافهم أبوا إلا البقاء مع المحصورين الى النهاية ولم يوثروا أنفسهم بالنجاة عليهم . وحدث أن ضابطين يونانيين وقسا برحوا المدينة المحصورة مجهزين باسلحتهم فلما وصلوا الى الخندق توسلوا الى ابراهيم أن يأذن لهم بالمرور قائلين إنهم يعتقدون قرب سقوط المدينة فأجابهم : « عودوا بسلاحكم الى مراكزكم إذ لا استطيع قبول ملتمسكم . عودوا لتخبروا أبناء وطنكم بأننى أحترم الذين يحمون ذمارهم حتى النهاية وأن عساكرى متى تقدموا للهجوم على اسواركم سيمسكون عن اطلاق بنادقهم وأننى سأكلل بهم هامات هذه الاسوار وحرابهم ذاهبة فى الهواء »

ودعا سليمان بك (الكولونل سيف) المسيو (لوبلان) قومندان السفينة الشراعية الحربية (كويراسييه) ليطلع على أحوال الاسرى فى اليوم المعين لتفقدها وقال له : « ان التفقد الذى

سيجرى الآن تحت نظرك إنما هو بأمر سمو ابراهيم باشا وهو يأمرنا به كلما وصل فريق من الاسرى . فلك ان تحكم الآن إذا كان ماتنشره الصحف من المطاعن والمثالب فى حقه مطابقة للصواب والحق » وبعد هنيهة شهد الضابط الفرنسى الأسرى يوزع على كل منهم غطاء وفرش من الصوف وقميص ولباس من القماش بلا فارق بينهم وبين الجنود المصريين . وكان أحدهم من الاخصائيين فى سرقة الماشية وقد قبض عليه متلبسا بها فقاوم وجرح أثناء مقاومته فلم يشأ ابراهيم باشا استجوابه قبل تضميد جرحه إذ أمر طبيبه الخاص بأن يتولى علاجه . ولما استولى المصريون على قصر (تورنيز) عرض ثلاثة آلاف من سكان اقليم (جوبتونى) الطاعة على القائد، وكان الجوع قد عضهم بنابه فتلقاهم الباشا بالبشر والهشاشة ووافاهم بما خفف به وقع مصابهم وكانوا يخشون ان يسىء أبناء وطنهم اليهم بعد ارتحال المصريين فامر بارسالهم الى مودون حيث أكرم مثواهم وزودهم بما يفيض عن حاجتهم من الغذاء واللباس بينما كانت مخازن جنود مصر فى تلك الآونة خالية منهما وعني بالمرضي منهم عناية فائقة. وخرج ابراهيم باشا يوما للاستطلاع والغزو بجهات بتراس فعبر نهر (ألفيه) وخيم بعساكره وسط سهل فسيح من سهول (إيلميد) فبينا كان

في خيمته بعد الظهر يلتمس الراحة اذا بصيحات تشعر باليأس والحزن وصلت الى سمعه وكان الصوت يرتفع شيئا فشيئا بما يدل على ان صاحبه يدنو من الخيمة فانتظر هنيهة فاذا بامرأة خنقتها العبرة مقبلة عليه فلما رأته ألقت بنفسها على قدميه فرفعها وأجلسها وطيب خاطرها وسألها عن مرادها فقالت له إنها فقدت ابنها المحبوب سندها وعزاء شيخوختها إذ أسره ضابط مصرى فاصبح ملك يمينه فسألها اذا كانت تستطيع افتداءه بمال. فبكت بدموع غزيرة ثم قالت إنها لاتملك شيئا . فنقدها مبلغ الفدية لتفتدى به ابنها ثم استدعى الضابط والغلام فلاحت على المرأة علائم الفرح واهتزت اهتزازاة السرور ولكن ماكان أعظم دهشتها حينما رأت ولدها وفلذة كبدها ينكر نسبته اليها ويلقي بنفسه على أقدام سيده . ولقد ساء ابراهيم مسلك الغلام نحو والدته وعقوقه إياها فهم بطرده من المعسكر ثم عدل عن ذلك اشفاقا بها وطلب اليها ان تحتفظ بمبلغ الفدية لتنفقه فى شؤونها ناصحا اليها ان تمحو صورته من صحيفة قلبها وان لاتوليه بعد الآن حبها

الباب الحادي عشر

سوريا

من سنة ١٨٢٩ الى سنة ١٨٤١

كانت حرب موره درسا مفيدا لمحمد على باشا وابراهيم باشا نظرا الى الاطوار التى تقلبت فيها وكانا على شىء من الجهل باسرارها فاقنعت هذه الحرب الأميرين المصريين بتفوق التدابير الحربية اذا كانت مبنية على الخبرة والتدقيق فباشرا على الفور تنسيق فرسان الجيش على الطراز الحديث بحيث يشتمل على الخيالة الخفيفة والخيالة الرماحة والخيالة المدرعة والخيالة الدراغون . وفى أفريل سنة ١٨٢٩ عهد الى المسيو (دى سريزى) « وفيما بعد : سريزى بك » بانشاء عمارة بحرية بدلا من التى حطمت فى واقعة نافارين تولى تعليم بحريتها فرنسى آخر هو المسيو (بيسون) « فيما بعد : بيسون بك » . واستمرت التنسيقات الأدارية والاجتماعية قائمة على قدم وساق فركبت فى المعامل الآلات البخارية المستوردة من انجلترا واتجهت الهمم الى تجديد ما بلى أو فقد فى الحملة الاخيرة

وبوشر في الآن نفسه إصلاح يرمى الى إنقاص ميزانية الحكومة فأفضى تطبيقه الى تغيير كبير فى الفروع الادارية المختلفة. وقسمت مصر الى مديريات ومراكز وخطط وسألت فرنسا من الحكومة المصرية بلسان البارون (تيلور) ان تتحفها باحدى المسلتين اللتين تحليان مدخل هيكل الأقصر جزاء معاونتها لها على مباشرة الاصلاحات العامة وموافاتها إياها بما تحتاج اليه من الاموال. وكان ذلك فى أخريات سنة ١٨٢٩ فأجابتها الى سؤلها وشرع حالا فى بناء مفينة خاصة لنقل الأثر الجليل برحت بعد إتمامها ثغر تولون في ربيع سنة ١٨٣١ وأقلت الى صعيد مصر ١٤٠ عالما فرنسيا تكبدوا مشاق الانتقال واقتحموا الاخطار حبا فى بلادهم وحرصا على مصالحها. فذلك الأثر الجليل الماثل أمامنا قد وثق عرى المودة بين فرنسا ومصر. وحينما خاطب الملك شارل العاشر سمو محمد على باشا بشأنه اقترح عليه اشتراك مصر فى فتح بلاد الجزائر يرمى بذلك الى إجلال قدره والتنويه بذكره فمال عن هذه المشاركة لصعوبات وموانع شرحها له الشرح الوافى فاضطرت فرنسا الى العمل بمفردها بالرغم من تهديدات بريطانيا العظمى وتكشيرها لها عن نابها

واتفق أن شبت فى بلاد العرب ثورة جديدة قام بأطفائها

القواد المصريون ووصل قابجى باشا من طرف السلطان وعلى يده مرسوم التهنئة لمحمد على باشا بهذا الظفر المبين وإسناد إمارة مكة الى ابراهيم باشا . ومفهوم أن هذه الرتبة في الصف الأول من رتب الباشوية فى السلطنة العثمانية وكان الغرض من توجيهها الى ابراهيم باشا دون والده إيقاظ الأطماع فى نفسه وإلقاء بذور الشقاق بين أعضاء الاسرة المالكة فى مصر ولكن منهج الحكمة والتبصر الذى سلكه ابراهيم باشا في هذا الظرف الدقيق واحترامه الطبيعى لشخص والده هتكا ستار هذه الخدعة السياسية التى لم يعزب فهمها قط على ذكائه خصوصاً وأن الدولة العلية كانت قد ظهرت من قبل بمظهر الضنين على والده بما هو حق مكتسب له . فلقد وعدته مرتين بمناسبة حملتى الوهابية وموره بأسناد باشوية سوريا اليه جزاء الخدم التى قام بها لها فلم تف بما وعدت بل اكتفت بالتنازل له عن جزيرة قنديا وهى جزيرة تستلزم إدارتها انفاق المال الكثير وليس من المنتظر ان تأتى بفائدة ما إذ كان إيرادها لا يتجاوز أربعة ملايين من القروش فى حين ان مصاريفها كانت تربو على أحد عشر مليونا منها

ومكث محمد على يتربص الفرصة الملائمة لوضع يده على ذلك القطر حتى هيأها له والى عكا على غير انتظار

وبيان ذلك ان هذا الوالى واسمه عبدالله خيل له فى شعبان ١٢٣٧ الموافق مايو ١٨٢٢ ان يوسع نطاق سلطته بضم دمشق الى البلاد الداخلة في ولايته . فلما علم الولاة المجاورون بمرامى هذا المتسلط تأهبوا لقتاله إيقافا له عند أفقه . وكان قد قطع من الطريق المؤدى الى دمشق نصفها فعاد أدراجه الى عكا ليدافع عنها ضد حصرين ضرب عليها نطاقهما تباعا . ولم يستطع أعداؤه ان ينالوا من أسواره بقنابلهم فكان يتهكم عليهم ويقابل كل مقذوف منها بطلقة بسيطة من بندقته أو بارسال بعض السواريخ والاسهم الناريه تشق الفضاء . ومع استطاعته اطالة أمد مقاومته للحاصرين له كان لا يخيفه من وجودهم سوى أمر واحد وهو حصر الاسطول العثمانى له من جهة البحر فان هذا الحصر ، لو وقع ، يقطع خطوط مواصلاته البحرية ويحرمه التزود والتمون عند الحاجة فلما خشى هذه المغبة ود لو ينال عفو الباب العالى الذى حنق عليه حنقا شديدا توسط محمد على باشا له فى الامر فنال مأموله فى مقابل دفع غرامة قدرها ٦٠٠٠٠ كيس قام محمد على باشا بسداد جزء منها قرضا له . وحينما حل أجل السداد لم تبد من عبدالله باشا لائحة ميل الى الوفاء بل سوّف وانتقل من التسويف الى التطوح فى نكران الجميل والظهور فى مظهر العداء

اذ منح عضده لعصابات تهريب المحظورات فى مصر من طريق صحراء السويس وجمع ستة آلاف من فلاحى الصعيد للعمل عنده فلما طلب محمد على باشا منه رد هؤلاء المهاجرين الى اوطانهم أجاب بأنهم رعايا الدولة وسواء عليهم أأقاموا بالشام ام بالقطر المصرى. فاستاء محمد على من هذه الاجابة وأبلغه بأنه ذاهب اليه بنفسه ليأخذ الستة الآلاف فلاح زائدا عليهم رجل واحد (أى هو)

أما السلطان محمود فظل غير مكترث بمطالب محمد على باشا حتى اضطره الى التصريح جهارا بانه سوف يحصل عليها مضاعفة وكانت الجيوش والجمال والذخائر والمؤن والاسطول على الأهبة التامة للتوجه الى الشام إذا بوباء الكوليرا قد تفشى في البلاد ولبث يستأصل اهلها استئصالا مدة ٣٤ يوما من اغسطس وسبتمبر ١٨٣١ فأهلك منهم فى هذه المدة ١٥٠٠٠ نفسا من بينهم ٢٨ أوروبيا وأصيب من الثمانين الجارية الجركسية والسودانية اللائى كن في حرم محمد على باشا ثلاثون متن جميعا به ولما انتهى الوباء واندثرت آثاره من البلاد اجتازت الحملة المصرية حدود سوريا مؤلفة من ستة آلايات من المشاة وأربعة من الفرسان وأربعين مدفع ميدان واكثر منها للحصار وسافر ابراهيم باشا قائد الحملة واركان حربه بحرا من الاسكندرية وكانت تتألف من عباس

باشا حفيد محمد على باشا وابراهيم باشا ابن أخيه وسليمان بك (الكولونل سيف) وسليم بك واحمد بك المنيكلى

وقد اتبع ابراهيم باشا فى سيره الخطة التى اتبعها نابليون بونابرته قبل اثنين وثلاثين عاما حينما زحف بجيشه على سوريا اذ استولى فى طريقه على غزة ويافا وحيفا والقدس ونابلس. وفى ٢١ جمادى الثانى الموافق ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٣١ نصب خيامه امام حصون عكا التى عجز القنصل الاول الفرنسى عن قهرها ووصلت من مصر دوننمة مؤلفة من خمس سفن كبيرة وفرقاطات عديدة فعاونت جيش الحملة على القيام باعمال الحصار وقطعت عن المدينة المحصورة ماكان يرد اليها من الامدادات . وفى ٢٦ الحجة ١٢٤٧ الموافق ٢٧ مايو ١٨٣٢ اى بعد حصار ستة اشهر قاومت المدينة اثناءها مقاومة عنيفة وأطلقت المدافع المصرية فى خلالها ٥٠٠٠٠ قذيفة كروية واسطوانية و ١٨٠٠٠ قذيفة كروية اصغر حجما من السابقة سقطت تلك المدينة المنيعة بايدى المصريين . فما شاع نبأ هذا الاستيلاء فى بلاد الشرق حتى اعترى أهله وحكوماته الدهش واشتد تحمس ابراهيم فصاح قائلا: «سأذهب فى فتوحاتى الى حيث تنتهى البلاد التى يتكلم أهلها بالعربية» وارسل باشا عكا اسيرا الى محمد على فلم يقابله مقابلة الغالب للمغلوب

أو الملك للصعلوك بل مقابلة الوزير لوزير مثله

وخاف السلطان مغبة هذا الفوز فأصدر فرمانا رمى فيه كلا من محمد على باشا وابراهيم باشا بالمروق والعصيان اعتمادا على فتوي تجيز اعدامهما غير أن وسائل هذا الاعدام كانت قد بليت فى سراى الآستانة كما بليت فى قصر الفاتيكان وحلت ذرائع العقل والروية فيهما محل التوحش والهمجية وصار أضراب كايبر سنة ١٨٣٢ لا يجدون فى طريقهم امثال سليمان الحلبي . نعم .. لأن السلطان محمود كان من ذوى العقل الراجح والرأى الصائب فرأى ان الفتاوى لا تجدى نفعا حيث ينبغى تحكيم السيف والمدفع فسير الى آسيا الصغرى جيشا مؤلفا من ٦٠٠٠٠ جندى ورسم بيده خطة الاجراءات الحربية وألبس قائده العام كسوة القيادة العليا وهى المعطف القصير ذو البنيقة المزركشة بأسلاك الذهب وأهداه سيفا مرصعا بالماس وجوادين عربيين مطهمين وقلده رتبة المشيرية. ولكن من هذا القائد العام الذى فاز بمثل هذه الزلفى من الحضرة السلطانية واقترن نجمه بالسعد الى هذا الحد؟ هو مبيد الانكشارية اى ذلك الذى كان فى أول عهده بالاعمال حمالا للاثقال ثم جاسوسا ثم رئيس قلعة ثم مهيجا ثم جلادا ثم باشا فباشا الباشوات جميعا . نعم كان هذا القائد سيفا ماضيا فى زمن مضى ولكنه الآن

سيف لايخرج من قرابه . وكان الفريق محمد باشا معتوق حسين باشا قائد الطليعة فى ذلك الجيش. وقد حدث أن سمع دوى المدافع فأمر أعوانه بحمله الى خيمة نصبها بالقرب من نهر حمص ليتمتع فيها بالراحة مضطجعا على الفراش الوثير ومعيرا الأذنين لعبارات المدح من المتملقين ناظرا الى انعقاد الدخان المتصاعد من نرجيلته فى جو خيمته وقد جاءه ذات يوم وهو فى مثل هذا الحال ضابط من الفرسان أقلق راحته وأزعج خاطره بأبلاغه خبر استيلاء المصريين على جميع السواحل أى على جبل لبنان ودمشق وأنهم لم يبق بينهم وبين المعسكر سوى مسيرة ساعتين . وكان محمد باشا قبل وصول هذا النبأ المحزن اليه بهنيهة يستفز همم جنوده بمثل قوله : « ها نحن أولاء ذاهبون الى مصر » . وكان السواد الأعظم من سامعيه على وشك ان يذهبوا فى الحقيقة اليها وإنما مكبلين بالسلاسل والأغلال . فان جيوش مصر وصلت الى الشام قبل ان تصل الجيوش العثمانية اليها وحاربت ببسالة لانظير لها . ولم يسبق لاهل الشرق الى هذا العهد ان تحاربوا بحسب الأساليب الحديثة فلم يكن بغريب ان تتفوق مصر بهذه الأساليب على الاتراك وان تفوز عليهم فوزا مبينا وان تطاردهم الى حدود الصحراء . على انهم تمكنوا من لم شعثهم بالقرب من

سفوح الجبال الحاكمة على (اسكندرونه) واستعصموا بها فطردهم ابراهيم منها الى سهول نهر العاصى الكثيرة المستنقعات . وكان قد استولى في طريقه على (حلب) ثم على مضيق (بيلان) فوجه اليه اهالى انطاكيا الوفود لتقدم فروض التهانى واقرت حامية اللاذقية له بالطاعة ولم تعارض القبائل المنتشرة فى فسيح الارض حتى نهر الفرات فى حقوق الظفر والغلبة عليهم . واقتدى بهم اهالى مركز آطنة فأصبح ابراهيم باشا صاحب الكلمة النافذة والامر المطاع فى ميدان القتال الذى تناول بلاد الشام من اقصاها الى اقصاها . وأخذ الاتراك بعد ان تولاهم الفزع واليأس فى هزيمتهم الى جبال طوروس وحراب عباس باشا فى أقفيتهم فباد منهم عدد عظيم والذين لم يموتوا بما كانوا مصابين به من الامراض اجهز الاكراد وفلاحو الاناضول عليهم بسيوفهم وأضل المشير حسين باشا الطريق اياما وكان قد صدر اليه الفرمان فى غير وقته بتوليته باشوية مصر والحبشة وكريد ثم عاد الى الظهور كفيف البصر على أثر رمد صديدى شديد أصيب به فالجأ الى مدينة بروصه ليوارى خلف اسوارها آلام العار ومخازى الفشل والانكسار فانتخب السلطان خلفا له زميله فى حرب موره ألا وهو رشيد باشا سر عسكر الروملي الذى طرد من (أدرنة)

مصطفى باشا والى اشقودرة المجاهر بالعصيان والانشقاق على السلطان والدوله . والظاهر أنه كانت تلذ له معيشة المعسكرات والدسائس السياسية ولكنه لم يكن فى الحقيقة أهلا لشىء إلا ان يكون زعيم عصابة او قائد شيعة. وكان السلطان موقنا بما له من النفوذ فى تركية أوروبا فامره بحشد أعظم عدد من الألبانيين والبوسنويين وان يحضر الى الآستانة فى الالايات الستة من المشاة والفرسان المحافظين على الولايات التى تحت ادارته ثم بعث اليه رسالة بخط يده كالعادة يسلمه بمقتضاها مقاليد الصدارة العظمى وخطا شريفا آخر يسند اليه ولايات مصر وجده وقنديا والصعيد وحلب ونيقية والقدس الشريف وخطا شريفا ثالثا كالعادة يعهد اليه بالقيادة العامة . ولا نتعجل فنسبق الحوادث بالكلام عليها فى غير أوانها وانما نقول إن الاحتفالات الشائقة أقيمت لقواد الجيش وقدمت اليهم الهدايا الثمينة الغالية . ولم يقتصر السلطان فى وداع عساكره يوم تحركهم الى ميدان القتال على الاعراب عن أمانيه لهم بل ذهب بنفسه الى معسكر القائد العام فى اسكدار فقال له على مسمع من الجنود : « أنقذ الدولة فان شكرى لك ولعساكرك ، اذا فعلت ، لا يكون له حد »

وكان ابراهيم قد استمال اليه شعوب سوريا ومزجهم

بعساكره وحصل منهم على المقادير الوافرة من المؤن وقضي فى الراحة بينهم شهرين كاملين ثم جاء اليه فى هذه الأثناء من أبيه الأمر بالأيغال فى آسيا الصغرى فاكتسح بين (شفته خان) و (أونوقشلاق) فلول الاعداء التى كانت تسد دونه الطريق وقتل فى أريكلي اربعمائة منهم وغنم خمسمائة جواد وتربع فى دست النفوذ والتحكم على المنحدر الشمالى لجبال طوروس في بهرة المملكة العثمانية نفسها . والتحمت طلائعه بالعثمانيين فى معركتين كان الفوز الختامى فيهما لها ثم التقى الجيشان بالقرب من (قونيا) وكان الأتراك ثلاثة امثال المصريين عددا غير انهم لفساد المناورات العثمانية وبسالة ابراهيم باشا وسليمان بك ولوا الادبار تاركين على ساحة القتال اثنين وتسعين مدفعا وثلاثة آلاف قتيل وعشرة آلاف أسير . ووقع الصدر الأعظم وهو مندفع فى الميدان بباعث الحماس فى قبضة العربان المساعدين للمصريين وجيء به الى ابراهيم باشا فتلقاه بالحفاوة والاجلال . واذ كان يعتقد أنه لن يعيش اذا انهزم جيشه فى واقعة فقد استودع كيخياه مفاتيح الباب العالى والسر عسكرية العثمانية ثم هم وقتما أوشكت المعركة ان تنتهي بالقتال بنفسه فخاض المعمعة متحمسا غيورا على أداء المهمة التى وكلت اليه فجاءه بعض العساكر الذين خدموا تحت

لوائه فى أروبا وقد اغرورقت أعينهم بالدموع وامتلأت قلوبهم بالحزن وقالوا له : « يارشيد باشا إنا نبكى لأنك تصل دائما متأخرا . فلقد قضي الامر » فأجابهم : « كلا بل تشجعوا ولا تيأسوا . إنه مادامت في العروق قطرة دم فلا محل لليأس » وقد نقلت هذه الاجابة الى شيخ فى قونيا فقال : « لما كشفت النباتات للقمان عن سر خواصها الطبية لم يقل له نبت منها قط ان لى خاصية الشفاء من الموت وكان محمد رشيد باشا في هذه المعركة لقمان ولكن دولتنا كانت الجثة الهامدة الخامدة »

ولم تمض ست ساعات على المعركة حتى أبيد الجيش العثمانى برمته كما أبيد الجيش السابق فتكون الدولة قد فقدت جيشين فى اقل من ستة أشهر وكان انهزام الجنود وتشتتها فى الآفاق بحيث يتعذر أن تقع الباصرة فى آسيا الصغرى برمتها على عشرة جنود مجتمعين معا . ولم يلبث ابراهيم باشا أن تواردت اليه من سواحل البحرين الابيض والاسود الوفود تقر له بالطاعة والاخلاص بالنيابة عن الشعوب التى أوفدتها وتعجب بحسن نظام الجنود المصرية وتطرى بسالتها وشجاعتها . وكانت كل الامم فيما بين الهند والبوسفور تترقب أمرا أو اشارة من القائد المصرى الظافر تتهافت على تقديم الطاعة اليه وأقام ابراهيم باشا بولاية كوتاهية

شهرا كاملا كان الاهالى يقدمون اليه أثناءه المؤن الوافرة فيدفع أثمانها بكرم كما كان يدفع عوضا من المال عن سكنى العساكر المصريين بمنازل الأهلين ومدّ رواق حمايته الفعلية على مسيحي تلك الولاية

وفي ٢٩ شعبان الموافق ٢٠ يناير زحف على مدينة كوتاهية فاحتلها عنوة ولم يكن بينها والآستانة أكثر من خمسين فرسخا اى مسيرة خمسة أيام فعين المواقع لجيشه فى (مغنيسيا) بالقرب من الحلوق المفضية الى سهول (ليديا) فارتعدت فرائص أهل بروصه وأزمير والآستانة، ولكن الدول الأوروبية هبت للتداخل وفى مقدمتها قيصر المسكوف نيقولا فأبدى محمد على باشا تجاه هذه الحالة حكمة ممزوجة بالاعتدال والروية وصين العرش العثمانى بذلك من عادية المتغلب فأصدر السلطان بتاريخ ١٦ الحجة ١٢٤٨ الموافق ٢ مايو ١٨٣٣ خطا شريفا بتثبيت محمد على فى ولايتى كريد ومصر واسناد ولاية جدة مع لقب شيخ الحرم المكى الى ابراهيم باشا وبالتنازل عن ولاية الشام للأول وعن التزام مركز آطنة للثانى وعلى هذه القواعد أبرمت معاهدة الصلح التى سميت بمعاهدة كوتاهية وهي المكان الذى وقف ابراهيم باشا عنده عن مواصلة الزحف يوم ٢٤ ذوا الحجة ١٢٤٨

الموافق ١٤ مايو ١٨٣٣

ولكي نبين ماهية الاجراءات الحربية التي قام بها ابراهيم باشا نكتفي بايراد خمسة عشر سطرا من رأى ابداه فيها عظيم من عظماء فرنسا برتبة المارشالية . قال : « إن حملة سنة ١٨٣٢ تشرف ابراهيم وتعلى شأنه ويقيني ان الملمين بالشؤون العسكرية والخبيرين بها يعترفون معى بأن تلك الحملة لا ينهض عليها انتقاد ولا يتناولها تجريح وان قيادتها بنيت على اسلوب حكيم وقاعدة مستقرة وهمة عالية حينما قضت الظروف بتجريدها وأنه اذا امكن توجيه لوم ما الى ابراهيم باشا لانه فى المعارك الثلاث التى اشتبكت بينه وبين الاتراك استخدم منذ القتال صفوفه الثانية وجيوشه الاحتياطية فانه غير ملوم فيما اتبع من هذه الخطة لعلمه برداءة الجيوش المحاربة له واعتقاده الظفر بهم . ولم يولد ابراهيم باشا على فطرة القتال والعلم بأساليبه ولكنه كان موفقا فيه بالحوادث الطرآنية وبوجود رئيس لأركان الحرب معه معروف بالكفاءة العالية والدراية التامة بتسيير الجيوش ألا وهو سليمان باشا الذى كان لا يزال فى ذلك العهد سليمان بك (سيف) » . واذا أردنا ان نقف الآن على قدرة محمد على باشا وصدق نظره فى الشؤون غير الحربية فلنمعن النظر فى القطعتين الآتيتين

اللتين كتبهما هذا الوالى الذى ألزمته السياسة الأجنبية التنحي عن حقه المكتسب فى الانتصارات المبينة التى فازت جيوشه بها. كتب:

« الى حضرتى القنصلين الجنرالين لفرنسا وانجلترا بالقطر المصرى . بما أننى ذو شوكة واقتدار بين أمتى فان الشريعة المطهرة والفتاوى الشرعية التى ارسلها الى علماء بلاد العرب والاناضول كافة تلزمنى بمواصلة العمل لتقوية حكومتى وأمتى بما أستطيع من جهد وأتذرع به من وسيلة . وحيث إنه قد سبقت المطالبة بالبلاد التى وعدت بها فقد عولت على استئنافها الى أن يوفى هذا الوعد. وهل أقل من ان أترك بعدى سيرة استحقها اذا كنت قد اشتغلت طول حياتى بهمة ووضعت امتى في كل ثقتها ولست أحب ان أتعرض للوم بأغفال مصالحها اكتفاء بما أحصل عليه من الراحة لنفسى . كلا بل انى احسب نفسى سعيدا إذا مت مخلصا فى أداء واجبى فأن فى ذلك كل المجد لى واذ كان هذا هو شعورى الذى أحس به فأنى ارجو من انجلترا وفرنسا ان تتبعا حيالى خطة مطابقة للعدل والانصاف وموافقه لمصلحتهما ذاتهما »

« الى جناب الفيس أميرال البارون روسان السفير لدى

الباب العالى . سيدى السفير فى رسالتكم رقم ٢٢ فبراير اعترضتم بأنه لا تحق لى المطالبة ببلاد غير عكا والقدس الشريف ونابلس وطرابلس الشام وان الواجب علىّ بناء على ذلك المبادرة بسحب جيوشى . وانذرتم بسوء العاقبة فى حالة الامتناع عن هذا العمل وأضاف ياوركم شفويا الى ما تقدم عملا بالتعليمات التى وردت اليه أننى اذا بقيت مصرّا على مزاعمى فلسوف تصل الى السواحل دونئمة متحدة من السفن الانجليزية والفرنسية ولكن الى أى حق ياجناب السفير تستندون فى تجريدى على هذا الشكل ! إن أمتى بأسرها منضمة الىّ فى مطالبى وكلمة منى تكفى لاثارة الأهلين فى الروملى والاناضول بل أن فى قدرتى ، إذا شئت ، إحداث حدث فى المملكة العثمانية بموافقة ومعاونة الشعب العثمانى نفسه . ولقد استوليت على اقطار جمة وانتصرت فى كل الميادين ومع هذا فقد اكتفيت ببلاد الشام التى يعطينى حق التملك عليها فوز جيوشى فيها وانحياز الرأى العام بها الىّ . فاذا كنت قد منعت جيوشى عن الزحف فلم يكن ذلك الا لحقن الدماء والضن بها فيما لا فائدة منه ترتجى ولينفسح أمامى مجال الزمن للاطلاع على ميول الدول الأوروبية وأمانيها . وها أنتم الآن ترومون منى تلقاء ما أبديته من المعروف والمجاملة وحسن النية وتجاه ماتكبدته

أمتى من الضحايا وهى التى يرجع الفضل اليها فى انتصارى انتصارا جديرا بحسن الذكر على ممر الايام الجلاء عن البلاد التى احتللتها وسحب جيوشى الى مقاطعة صغيرة اطلقتم عليها من باب التوسع اسم الولاية . أفلا يعد هذا حكما منكم على بالموت السياسى ! إنى لأجسر مع هذا على الرجاء من فرنسا وانجلترا أن لا تضنا على بالعدل وان تعترفا بحقوقى لاسيما المنوط شرفهما بصونها والحرص عليها فاذا خابت آمالى وحبطت مساعى فلست بمطيع إلا للقدرة الألهية موثرا الموت على العار ومخلصا لقضية أمتى ومغتبطا بخدمة بلادى حتى ألفظ النفس الأخير . تلك هى النية التى عليها عولت وفى التاريخ أمثال كثيرة لهذا الاخلاص ـ الاسكندرية فى ٨ مارس سنة ١٨٣٣ ـ الامضاء : محمد على والى مصر »

ولم تكن اتفاقية كوتاهيه فى الحقيقة إلا نوعا من الهدنة لأن والى مصر ربح بمقتضاها شيئا كثيرا حبب اليه الطموح الى المزيد . وخسر السلطان خسارة جليلة لم يسعه تلقاءها الا التعلل بالسعي لاستردادها . ومما أحزنه وأثار الحزازات فى قلبه الاسلوب الذى جرت عليه تلك الخسارة فان حزنه بسببه كان أشد منه بسبب ضياع املاكه الشاسعة الاطراف من يده ومما ضاعف أسفه وأجج فى نفسه نار الحقد انتزاع محمد على

صولجان الديار السورية بتلك الصورة المخزية . لذا عول على الصبر والتريث حتى تتاح له الفرصة الملائمة لنفث حقده وحزازات فؤاده

وكان محمد على واسع الحيلة جسورا فى تنفيذ نياته فأنس في نفسه من قوة البطش مايستطيع معه ان يحمل الصولجان مطلقا من كل قيد . ثم ألقي نظرة حوله فرأى من الرجال والاعوان من يصح الاعتماد عليهم فى الشدائد والثقة بهم فى استبقاء تلك الولايات بقبضة أسرته ومن ثم طمح الى تقرير استقلال مصر وحصر حق الوراثة فى ذريته . وجهر بهذين المطمعين فلم يكن عجبا ان يوفد السلطان اليه مبعوثا خاصا وهو صارم افندى ليفاوضه فى شؤون قيل انها سرية محضة . وقد جرت بين الاثنين مفاوضات عديدة طرحت اثناءها على بساط البحث جملة اقتراحات كان ختامها ان حض المندوب الشاهانى والى مصر على الحضور الى الآستانة لمفاوضة السلطان فى مطالبه فشكر له هذه الدعوة قائلا إن من أحب الاشياء اليه ان تتم له الحظوة بلثم اطراف رداء الحضرة الشاهانية « غير أن واجباته بصفته والى مصر والشام وقنديا وبلاد العرب تضطره الى البقاء لمباشرة شؤون هذه الولايات »

على ان هذه المفاوضة لم تكن الفخ الوحيد الذى نصب

لأيقاع محمد على باشا فان الباب العالى سن تعريفة جديدة للجمارك وقرر إلغاء الاحتكار والالتزام بجميع أنحاء السلطنة عامدا بهذين القرارين لأفقار محمد على وإيراده موارد الافلاس . وكانت الفتن فى ذلك العهد متواترة فى جبال سوريا وكثيرا ما كانت تمتد منها الى السواحل إما لتحصيل الضرائب واما للتجنيد او التجريد من السلاح وإما لاسباب غير هذه وتلك. وكان ابراهيم باشا هناك يحكم سوريا بالنيابة عن والده ويوقع العقوبات على مستحقيها ولكن عواصف تلك الفتن لم يكن مهبها الاقطار السورية نفسها بل ضفاف البسفور. فقد حدث أن أثار أعوان الباب العالى الموكاون بدس الدسائس والاضطراب ايقظوا الفتنة فى حوران شرقي جبل لبنان فكلف اخمادها مصر عشرة آلاف عسكرى وانتهي الامر بالباب العالى ان عول على الحرب . فلما جاء فصل الربيع من سنة ١٨٣٤ أمر بالتعبئة فى (سيواس) فراقبها ابراهيم باشا بواسطة فصائل من الجند جعل (الرقة) على ضفة الفرات مركز احتشادها فوالى السلطان محمود إرسال المدد وبالغ فى تحصين الدردنيل وأمر الولاة يستجيشون من ولاياتهم حتى بلغ ماحشده ٦٠٠٠٠ مقاتل على اختلاف الاجناس والعقائد

ولكن اين كان والى مصر فى هذه الآونة وماذا كان

يصنع ؟ كان يجول في بلاد سنار ويزور مناجم الذهب الواقعة بين الدرجتين العاشرة والحادية عشرة من خطوط العرض فكانت المسافة بينه والقاهرة ٦٠٠٠ فرسخ بينما كان الباب العالى يحشد للانتظام فى سلك الجيش جميع طبقات المجندين . وكان ابراهيم باشا واقفا في الحقيقة موقف الحارس المراقب فحشد فى حلب الشطر الاكبر من قواته ووزع الشطر الآخر على (عينتاب) ومضايق (كولك بوغاز) فيما بين كرمانيا والشام ثم على حماه ورمم أسوار عكا وجعل فى حمص الأمير بشير زعيم الدروز والموارنة مع سكان جبل لبنان. وكانت تصل اليه الذخائر من الاسكندرية محملة على الجمال فبعد ان تظاهر قائد الجيش العثمانى بتأديب بعض العصاة من بكوات كردستان جعل مركزه فى ملطية بالقرب من الفرات وكان ذلك فى أفريل سنة ١٨٣٨ إلا أن قلة المؤن وانتشار الحمى التيفودية اكرهاه على تبديد عساكره فيما لا يقل مسطحه عن ٨٠٠ فرسخا مربعا من الارض وجعل فى ضواحى ديار بكر وأورفه وملطية ١٥٠٠٠٠ مقاتل . ذلك القائد هو حافظ باشا الذى خلف رشيد باشا على القيادة العامة على أثر وفاته بالحمى المخية.وكان حافظ باشا يلقب نفسه بالمنتقم لسلفه فبدأ اعماله الحربية بالانقضاض على القوافل واجتياز الحدود فلما كان

يوم ١٧ مايو ١٨٣٩ عبر نهر الفرات وعسكر فى ٢٢ منه أمام نصيبين وبث جواسيسه فى سوريا للاستنجاد بالثائرين والمهيجين

وفي ٢٤ مايو استولى على قرى ولاية عينتاب فوقعت مسئولية قطع الصلات الودادية والبدء بالعدوان بذلك على العثمانيين اما ابراهيم باشا فقد تجنب الدخول في القتال بالرغم من شدة شوقه اليه حتى يوافى والده بحقيقة الحال . وما تسلم محمد على باشا الرسائل التى وصلت اليه منه فى هذا الصدد حتى بادر بارسالها الى قناصل الدول العظمى الاربع . فلفت هؤلاء نظر ابراهيم باشا الى مطالبة حافظ باشا بتعليل خطته العدوانية فكتب اليه بتاريخ ٢٧ ربيع الأول ١٢٥٥ الموافق ٨ يونيو ١٨٣٩ كتابا نورد فيما يلى ختامه : « اذا كنتم يا صاحب السعادة قد تلقيتم الأمر بأعلان الحرب فما فائدة الاسترسال فى بث الدسائس وتحريك الفتن ؟ اذا كنتم تودون القتال فهلموا الى ميدانه بصراحة واقدام، ورجائى ان لا يفوتكم فى هذه الحالة انكم ستقاتلون أبطالا لا يعرف الخوف طريقا الى قلوبهم . اما الدسائس التى تمضون فى تدبيرها فأنها ليست مما يطاق احتماله زمنا طويلا »

ولقد اعترف حافظ باشا بوصول ذلك الكتاب اليه وإلمامه بما اشتمل عليه وأفرغ رده في قالب من الالفاظ الرشيقة ولكنه

توقى فيه جهده الأتيان بتصريح جازم أو قول قاطع وهى خطة ينطبق عليها المثل الايطالى القائل : « القول الصادق لا يحتاج الى اللفظ الرشيق كما ان اللفظ الرشيق لا يحتم ابدا ان يكون صادقا » .

وكان السلطان قد استصدر فى هذه الاثناء فتوى بوجوب إعدام محمد على باشا فلما انتهى الخبر بذلك الى علمه أوعز الى ابراهيم ان يزحف من فوره على العدو وان لا تأخذه فى القضاء عليه رحمة . فحدثت مناوشات عقب عيد الاضحي كان التوفيق فيها مصاحبا للمصريين وفى ٢٤ يونيو ١٨٣٩ التحم الجيشان بالقرب من نصيبين فكسر المصريون الاتراك بالرغم من المقاومة العجيبة التى أبداها الحرس الشاهانى. ولقد دعي الى إلقاء السلاح والتسليم فأجاب : « ان حرس السلطان لا يلقى سلاحه الا امام الموت » وقد اشتد سرور ابراهيم باشا بهذا الفوز فلم يتمالك ان ضم الى صدره رفيقه فى الفخر سليمان باشا (سيف) وبهذه المناسبة كتب ما يأتى : « كنا جنديين نتبادل التهنئة بالفوز » وكان سليمان باشا يحض الضباط ليلة المعركة بقوله : « ايها السادة الضباط انى اعين لكم زمان الملتقى ومكانه غدا فى ساعة الزوال تحت خيمة حافظ باشا لنتعاطي معا شراب القهوة ان شاء الله »

ولقد تحققت هذه النبوءة بأجزائها فطفق يقول : « فى المرة المقبلة سنذهب الى الآستانة أو يجيئون هم الى القاهرة » ولقد أعدت المعدات للزحف على الآستانة إلا ان والى مصر أبى إلا ان يظهر في هذه المرة ايضا ما أظهره قبلا من الكرم والتسامح. فلقد حدث ان المارشال سولت رئيس مجلس وزراء فرنسا طلب من محمد على باشا بواسطة الكابتن (كاييه) إيقاف الحرب فبعث الى ابراهيم باشا يأمره أن لا يتخطى حدود آسيا الصغرى فوقف الجيش المصرى أمام (عينتاب) كما وقف اخيرا أمام (كوتاهيا) محفوفا بالنصر العزيز والمجد الشامخ . وكان السلطان محمود ضعيف البنية على أثر إصابته بعلة الصدر وعكوفه على الشهوات فمات فى ريعان الشباب أى في الوقت الملائم لينسى أبد الآبدين كارثة نصيبين وخيانة دونمته التى انحازت الى جانب المصريين . أما حافظ باشا الذى غلبه ابراهيم باشا على أمره فقد حوكم لدى عودته الى الآستانة بتهمة التسرع فى الهجوم قبل ان يصل اليه الأمر الرسمى به ولكن السر عسكر أبرز كتابا بخط يد المرحوم السلطان محمود يؤخذ منه صراحة انه كان في كتبه السرية يخالف ما كان يتظاهر به من الميول لحفظ السلم وانه كان يخدع بذلك السفراء الأوروبيين ووزراء الدولة أنفسهم

وبينا كان محمد على ينشىء فى مصر حرسا وطنيا ويلزم بالتعليم العسكرى جميع عمال مصانعه العديدة أبرمت المعاهدة الصارمة معاهدة ١٥ يوليو ١٨٤٠ التى ردت الشام كلها بمقتضاها الى الدولة العلية لا لسبب سوى أن أربعا من الدول الغربية اجتمعن في ركن من اركان مدينة لوندره للاتفاق معا على تجريد ولى الأمر فى مصر وحاكم وادى النيل من ثمار فتوحاته كافة ووضعه عند قاعدة عرش طالما هزه بيده كما يهز الغلام اللعبة الضئيلة . ولقد رفضت فرنسا الحضور فى هذا المؤتمر الذى لم يكن له من باعث سوى ان انجلترا كانت لا توافق على اتساع نطاق الدولة المصرية . أما محمد على فقد عارض في ذلك متمسكا بحقوقه المهضومة وكادت فرنسا حليفته الأمينة تستل السيف من غمده حتى لا يجسر أحد على أن يمس مصر ذاتها بسوء . وكانت انجلترا والنمسا قد ضيقتا الخناق على السواحل السورية بسفنهما الحربية ومدافعهما واستولتا على بيروت واللاذقية وطرابلس وصيدا وصور وعكا بعد ان ضربتا حصونها بالمدافع . وبعثت دول التحالف الى مياه الاسكندرية القومودور (نابييه) للمفاوضة مع والى مصر فرضى محمد على بالدخول فيها فكانت النتيجة أن عقدت اتفاقية تضمن له الولاية على مصر وتمنحه حق الوراثة

الذى لم يكن معمولا به فى ولايات الدولة كلها وفى ١٢ ينايرسنة ١٨٤١ صدر خط شريف بالمصادقة على هذا الامتياز الممنوح فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠ مع ادخال بعض قيود لم يقبلها محمد على باشا ورفضتها كل الرفض فرنسا والدول الموقعة على المعاهدة الاولى فصدر في أول يونيو سنة ١٨٤١ فرمان بتثبيت محمد على فى ملكية مصر ملكية تنتقل الى ذريته من الذكور وتنطبق على النوبة انطباقها على الديار المصرية نفسها

ولم يكن محمد على ليطمح الى اكثر من ذلك فجهرت فرنسا بموافقتها على هذا الحل ولكى تقيم الدليل على هذا الرضى انتظمت فى سلك الاتفاق الاوروبى بمقتضى معاهدة ١٣ يوليو سنة ١٨٤١ التى وان لم تكن ماسة مباشرة بالمسألة المصرية، بما انها كانت تتعلق بمزاعم تركيا وحقوقها على الدردنيل، كانت تدل على توافق الخواطر بشأن الحالة في البلاد الشرقية . اما الباب العالى فقد أراد ان يقدم دليلا على صراحته فى الصلح مع محمد على باشا فأسند اليه رتبة الصدارة العظمى الشرقية ومن ثم عاد بجيشه الى القطر المصرى . وقد آن الوقت لايراد التقارير التى كتبت بصدد هذه الحرب التى قال عنها أحد الشعراء انها ادهشت العرب وأخافتهم

التقارير عن حملة الشام

الثامن من شهر ذي القعدة سنة ١٢٤٧ الموافق ٨ ابريل سنة ١٨٣٠

كان القائد العام ابراهيم باشا متفرغا كما هو معلوم لحصر عكا جاعلا نصب عينيه القيام بالمهمة المعهودة اليه فلما وصل عثمان باشا الى اسوار حلب واللاذقية صرف همته كلها الى اضرام نار الفتنة ثم قصد فى بضعة آلاف من الجند الى (مينه) التى على مسيرة ساعة ونصف من طرابلس للهجوم على هذه المدينة . ولقد حمل عليها مرتين فصدته حاميتها وهزمت عساكره . وكان أمير الالاى ادريس بك قد نيط به الدفاع فتحرك فى نحو ٥٠٠ الى ٦٠٠ من العساكر بباعث من غيرته وتحمسه وقبل ان يتلقى بذلك أمرا من رؤسائه فاضطر الى الالياذ بالفرار تجاه هجوم عثمان باشا عليه بفيلقه كله من مشاة وفرسان فسبب بهذا التعجل خسارة اورطة برمتها وبث الامل ورباطة الجأش فى نفس عثمان باشا فلم تمض اربعة ايام او خمسة حتى استأنف الهجوم على طرابلس ولكن حماتها الابطال الذين سبق لهم الدفاع عنها برزوا لقتاله وتدفقوا عليه بعنف وانقضوا انقضاضا فقتلوا معظم الرؤساء والقواد والزموا عثمان باشا الانسحاب الى معسكره . وقد ساء سمو القائد العام هذا المسلك العدائى . ولاتجاه رغائبه الى حصر الفرر فى دائرة ضيقة زحف فى قوة كافية من جنوده النظاميين المحاصرين لعكا وفرقة من العربان الخيالة فلما انتشر خبر وصوله الى البترون التى على مسيرة ست ساعات من طرابلس دب فى نفس عثمان باشا دبيب اليأس من التغلب على القائد المصرى الباسل النابغ فى التدابير الحربية فولى الادبار ليلا تاركا كل شيء : الخيام والمدافع والمؤن والجرحى ، فتفرق العساكر وسار كل منهم فيما راق له ان يسلكه من الطرقات ولم يعلم احد الوجهة التى ولي عثمان باشا وجهه شطرها وهذه الاخبار غير مختلف فى صحتها وجميع ماسيرد من الاخبار بعد سينشر عند وصوله

* * *

فى ١٤ ذو القعدة ١٢٤٧ الموافق ١٤ ابريل ١٨٣٢

علم من التقارير السالفة خبر فرار عثمان امام طرابلس وعزم القائد العام سمو ابراهيم باشا على الزحف على حمص فحماه . وقد جاءت بتاريخ ١٤ ذو القعدة الاخبار الآتية : سقوط موقع عكا وهو ما كنا نرمى اليه . وقد عجلنا هذا السقوط بتوجيه

العناية الى ازالة اسباب اطالة الحصر . فمن ذلك ان القائد العام بطرده عثمان باشا من ضاحية طرابلس والزامه بالانسحاب الى حمص قد توافرت عنده الوسائل لاصابة غرضه واتقاء ضرورة الفتك بالمحصورين وابادتهم عن آخرهم الامر الذى كان لامفر منه لو استطال الحصر . ولما كانت فكرة اثارة الحروب الاهلية وايقاظ الفتن بين المسلمين من ابغض الافكار عنده واكثرها مخالفة للشعور الدينى الذى عمر به قلبه فقد عدل عن مشروع استمرار الزحف على موقع حما وما يليها مفضلا عليه مشروع الارتداد . وبناء على ذلك ارتحل من حمص في جيوشه قاصدا (خان قصير) وفى اليوم التالي ارتحل قاصدا سهول (زرعه) للبث فيها يوما . ولكن نظراً لان هذه التصميمات والمشاريع فسرت على غير حقيقتها فقد اذاع العدو ان القائد العام قد لاذ بالفرار . ومثل هذه الاشاعة فضلا عن وضوح فسادها فانها تناقض على خط مستقيم ما اجمعت عليه الآراء من شجاعة سموه وبسالة جيوشه . وقد جعل كل من والي قيصرية والفرار عثمان باشا وجهته مدينة حمص على نية توجيه الجيوش منها الى سهل زرعه السالف الذكر بقيادة قاضى كران ونعمت اغا اللذين هما امهر قواد هذه الجيوش . وبمجرد ان ادرك صاحب السمو ابراهيم باشا ان القصد الذى يرمى العدو اليه محاربته بالذات فقد اوقف فى مصاف القتال جيشه المؤلف من الالاين من المشاة والاى من الفرسان وبعض البدو الراكبين ووضع أحد الالايين وهو الاى الحرس تجاه الجناح الايسر للعدو والالاى الآخر تجاه ميسرته وقسمت الفرسان الي قسمين .وتلقى الرؤساء والقواد التعليمات اللازمة بشأن الحركات المطلوب منهم القيام بها والامر بالزحف عند صدور الاشارة به وهو ست اطلقات بالمدافع تطلق من النقطة التى يكون القائد العام واقفا عندها . فما كادت تعطى لاشارة السالفة الذكر حتى حمل أبطالنا على الاعداء حملة عنيفة فلم يثبتوا لها بل بادروا بالفرار وتعقبهم عساكرنا واضمين الحراب والسيوف في اقفيتهم وقد بلغ عدد القتلى من العدو ٣٠٠ وبلغت الغنيمة ٣٠٠ جواد .أما القائد العام فلم تزد خسائره على قتيل واحد من الجنود المصريين وجريح من البدو

*
* *

في ٩ محرم الحرام ١٢٤٨ الموافق ٧ يونيو ١٨٣٢

نيط منذ ستة اشهر بأحد فيالق الحملة المصرية فى سوريا حصر موقع عكا وقد اعتزم صاحب السمو ابراهيم باشا وضع حد لهذا الحصر الذى استمر كل تلك المدة بالهجوم على الموقع . ولتنفيذ هذا العزم استدعى اليه فى ٢٦ الحجة الموافق ٢٦ مايو اكابر الضباط من القواد والميرالايات ورؤساء الاورط فى فيلق الحصار وقرر عليهم اتباع الترتيبات الاتى بيانها :صدر الى الميرالاى احمد أمر بالحملة مع الاورطة الاولي من الالاى الثانى ومعه أمير

هذا الالاى على ثغرة البرج المعروف باسم (قبو برجو) وامرت الاورطة الثانية التى بقيادة القائمقام بالحملة على الثغرة الثانية المفتوحة تجاه النبي صالح والاورطة الثالثة التى بقيادة عمر بك على الثغرة الاخيرة المعروفة بالزاوية . ووقفت الاورطة الرابعة من الالاى نفسه تحت الثغرة الاولي للامداد بها عند الحاجة وصدر الامر الي اورطة من الالاى العاشر الذى كان بقيادة اميرالاى بالوقوف تحت الثغرة الثالثة للغرض المتقدم. وخصصت اورطة اخرى لنقل السلالم قبيل الساعة الاولي بعد نصف الليل في الخندق الواقع بجانب القلعة المعروفة باسم (كريم برجو) وبان تكون هناك ساعة الهجوم العام. وزود القائد العام فيما عدا ذلك كل ضابط وقائد بالتعليمات الخاصة به ففى ليلة ٢٦ الى ٢٧ اطلقت البطريات مقذوفاتها على الموقع وفي صبيحة ٢٧ بعد شروق الشمس ببضع دقائق أمر القائد العام بالهجوم فاستولت الجنود الموجهة الى ثغرة الزاوية في الحال على الاستحكام وثبتت فيه . اما الجنود التى كان مقررا عليها الاستيلاء على ثغرة (قبو برجو) فقد وجدت بعض المقاومة من المحصورين فترددت وتزلزلت اقدامها ولحظ القائد العام منها ذلك فشهر سيفه وتهدد كل جندى يحاول النكوص على عقبيه برمى عنقه ثم دفع بالجنود الى الامام وما زال بها حتى اتخذت لها مكانا فى الثغرة ووافى المدد وبينما كان قسم من العساكر يصدون العدو باطلاق البنادق عليه كان القسم الاخر مشتغلا بانشاء استحكام للدفاع . اما الثغرة المفتوحة تجاه النبي صالح فقد استولى عساكرنا عليها وأخذوا ما وجدوه فى الحصون من المدافع والاهوان وبينما كان القتال قائما على قدم وساق على الثغرات مع المحصورين الذين كان عددهم يبلغ الي الالفين حمل هؤلاء على الاستحكام المشيد فى ثغرة (قبوبرجو) ثلاث مرات فى ساعة ونصف ولكنهم صدوا فى كل مرة منها وصدوا أيضا في ثغرة الزاوية واستمر اطلاق نار البنادق والمدافع من الجانبين . فلما كانت الساعة الرابعة بعد الظهر اندفعت الاورطة المجردة من الالاى العاشر وهى الاورطة التى كانت على ثغرة الزاوية خارج استحكاماتها وحملت على الحامية بعنف حتى اضطرتها الي طلب العفو والامان . وبعد دقائق تألف وفد من رؤساء المدفعية والمفتى وامام عبدالله باشا فخرج من المكان الذى آوى المحصورون اليه وترامى على اقدام القائد العام ملتمسا منه الرحمة والشفقة فعفا عنهم وضمن لهم انفسهم واموالهم وبلغ به التسامح لى أن اجاز لهم الاحتفاظ بسلاحهم. أما عبدالله باشا فقد أمنه على الحياة وارسل اليه بعد غروب الشمس بقال الميرألاى سليم بك وفى منتصف الليل حضر عبد الله باشا ومعه كيخياه فلقاه القائد العام بمظاهر الاحترام التى يتلقى بها الوزراء وبعد نصف الليل بساعة ركب الاثنان جوادين وتبعهما الكيخيا قاصدين الى خارج الموقع حيث يوجد قصر قضيا به الليل وحدث ان بعض جنودنا الذين انتشروا فى المدينة ارتكبوا من العيث والافساد ما لا مفر من وقوعه عادة عقب الهجوم والاستيلاء اذ

نهبوا أشياء لم تلبث ان ردت فى اليوم التالى الى اربابها

وأعرب عبدالله باشا عن رغبته فى التوجه الي مصر فارسل الى حيفا بحراسة الامير الاى سليم بك وفى ٢٩ الحجة المرافق ٢٩ مايو أبحر منها فى السفينة المسماة (شباز جهاد) التى وصلت الى الاسكندرية فى ٣ محرم (٢ يونيو) وما ابلغ نبأ وصوله الى سمو والى مصر حتى أرسل اليه زورقا خاصا وعليه من طرف القهوجى باشا فنزل عبد الله باشا فى الزورق ومعه كيخياه وثلاثة اشخاص من حاشيته قصد مسامرة الي سموه فتفضل باستقباله بما يليق برتبته وتجاوز عن هفواته . وقد اعفاه من القورنتينة رعاية لشخصه وانزله بالقرب من قصر سموه فى القصر المعد لضيافة الاجانب

عدد الجرحى		عدد القتلى	
١	برتبة اميرآلاى	١	برتبة اميرآلاى
١	برتبة قائمقام		
٢	برتبة رئيس اورطة	٢	برتبة رئيس اورطة
٢	برتبة مساعد بكباشي	٢	برتبة مساعد بكباشي
٨	برتبة يوزباشي	٣	برتبة يوزباشى
٤٧	برتبة ضابط	١٥	برتبة ضابط
١٣٦٨	عسكريا	٤٨٩	عسكريا
١٤٢٩		٥١٢	

* * *

خلاصة تقرير القائد العام سمو ابراهيم باشا عن الهجوم على عكا والاستيلاء عليها

رتبت جيوش الهجوم كما يلى : الاورطة الاولي من الالاى الثانى بقيادة قائد الاورطة مختار آغا وتحت امرة الفريق احمد بك تجاه الثغرة التى فتحت من ناحية باب عكا والاورطة الثانية بقيادة الميرالاى اسماعيل بك الذى قتل بعد المعركة امام ثغرة (قبو برجو) والاورطة الثالثة بقيادة الفريق عثمان بك تقرر ان تهاجم ثغرة الزاوية وصدر الامر الي الاورطة الاولى من الالاى العاشر بالاستعداد لتسلق (كريم برجو) وفى الساعة ٤ والربع من صبيحة ٢٧ مايو أطلقت طلقة من ثلاثة مدافع هاون معا ايذانا بالهجوم فقصدت فى الحال الي البطارية التى خلف الفصيلة المنوط بها الزحف على الزاوية وكنت قد عهدت الي ابراهيم باشا (ابن اخ) بالهجوم على الثغرات التى من ناحيه الباب ووقفت الاورطتان الثانيتان من كل من الالايين الخامس والعاشر الى جانبي كجنود احتياطية واتخذت الاورطة الرابعة من الالاى الثانى كجيش احتياطى للفيلق الذى بقيادة

ابراهيم باشا « ابن أخ » وهذا الفرق في توزيع القوات الاحتياطية ناشئ من انه كان من المنتظر ان تحصل مقاومـة شديدة من ناحية برج الخزنة الذى كان يوجد به عبد الله باشا نفسه وكنت قد اعتزمت الهجوم من ناحية الخان القريب من البحر ولكن بعض المخبرين من اهـل المدينة المحصورة جاءوا الى معسكرى فى الليلتين السابقتين واخبرونى بان ازبعة الغام وضعت تحت هـذا الخان فعدلت عن نيتى وظهر لي ان تسلق برج « كريم برجو » غير مؤكد النجاح على ان السلالم أسندت الي جدار هذا البرج تحت وابل من القنابل الكروية الصغيرة والرصاص فخسرنا جملة من العساكر ولم نوفق للنجاح وامتـاز قائد الاورطة الموكول اليها هـذا التسلق بالبسالة النادرة والاقدام العجيب . وفي ثغرة الزاوية لم تطلق عساكرنا النار الا بعد ان اتخـذت من هـذه الثغرة مركزا لها . أما باب عكا فان عساكرنا فى ناحيته ما كادوا ينزلون فى الخندق حتى بدأوا باطلاق البنادق وصعدوا الي قمة الثغرة وتبعهم في الحال عساكر الاورطتين الاولي والثانية من الالاى الخامس وتقـدمت جنودنا فى جهة الزاوية حتى بلغت الى الباب الذى بالقرب من قلعة الخزنة الا ان عبد الله باشا خرج من البرج مع جميع رجاله وصدهم الي ماوراء الخندق شاهرا سيفه واخـذت قنابل العدو الكروية تساقط عليهم فتراجعوا حتى وصـلوا الي بطرية منصوبة على مسافة اربعين خطوة من تلك النقطة فاجتهدت وسيفى مصلت بيدى ومعى امير الاى الفرقة الخامسة من الفرسان فى اعادتهم الى القتال ولـكنهم كانوا كلما دفعتهم امامى تفرقوا يمنة ويسرة ثم انسحبوا من جديد فامرت عندئذ جاويشا كان قريبا منى باخذ العلم من يد حامله والتدفق على الاعـداء فعاد الي ليخبرنى بانه ابى ان يسلمه اليه فارسلت جاويشا آخر عاد بمثل ماعاد به زميله من الفشل وفى هذه الاثناء كان حامل العلم قد تقدم الى الامام فاستانف عساكرنا الحملة بعنف فما هى الا هنيهة حتى بلغوا الى اسفل الذروة التى كان العـدو متترسا بها وتلقاهم من اعلاهـا بقذف الاحجار عليهم ثم اجتازوا الذروة وعادوا الي النقطة التى كانوا قد وصلوا اليها فى المرة الاولي فرفع المحصورون عندئذ علمهم على البرج الصغير الذى بين برج الخزنة وبرج الزاوية وهناك اجتمعوا ثم حملوا من جديد على عساكرنا وصدوهم الى الزاوية فالقى فريق منهم بانفسهم فى الخندق وتراجعوا حتى بلغوا الى حافتها الاخرى أما الباقون فقد صعدوا على الثغرة ووالوا اطلاق البنادق فأخذ الضباط عندئذ — ولم يكن احدهم قد اشترك فى هـذه المعركة — يدافعون عن الثغرة وسيوفهم مسلولة بايديهم وكان الفارون قد عادوا فتيسر صد العدو من جديد وجمع المحصورون في النهاية جموعهم ولموا شعثهم فشتتوا عساكرنا بعد أن ألقوا بثلاثين منهم في الخندق ولـكنهم لم يلبثوا ان صدوا ثانيا لان عساكرنا اوغلوا فى الزحف من ناحيتهم حتى لم يبق بينهم والبرج سوى مسافة قصيرة جدا فأمرت على الفور عمر بك بان

يقيم استحكاما ويتفرغ للدفاع عنه فنفذ أمرى طبق المرام . وكان الميرالاى احمد بك قائد الفرقة الخامسة الفرسان ومعه بعض جاويشينا قد اعتلى الثغرة وأخذ يشجع العساكر الذين أصلاهم العدو من بنادقه نارا حامية وانقطع اطلاق النار بعد ذلك من الطرفين الي منتصف الساعة السادسه من المساء : وفى هذه الاثناء استدعيت رئيس اللغامين فأمرته باستكشاف نقطة وقع نظرى عليها بالقرب من الباب وخيل لى امكان التسلق منها فعاد بعد بضع دقائق مؤكدا صلوحها للتسلق ففرضت على رئيس احدى أورط الالاى العاشر أداء هـذه المهمة برجال اورطته فأطاع الامر ومع انه خسر ثلاثين قتيلا وستين جريحاً فقد حتمت عليه استمرار التسلق فنجح بمهارة فائقة وشجاعة نادرة واستولي بعد ذلك على الخان واتخذ له موقعا فيه وكنت قد جمعت مائة فارس من الالاى الخامس لينقلوا على خيلهم التعساء الذين سقطوا فى الخنـدق فحدث ان اراد اثنى عشر منهم الظهور بالتفوق والسبق الي الاسوار شاهرين سيوفهم . ويؤخذ من تقرير أحمـد بك ان قسما منهم أدرك اورطة الالاى العاشر والقسم الآخر اندفع يجول في المدينة . وفى هذه الاثناء حضر وفد يلتمس رحمة الظافر وشفقته هـذا كل ماحدث بالجهة التى توليت فيها القياده بنفسى وفيما يلى تقرير ابراهيم باشا (ابن اخ) عن الحوادث التى وقعت فى ثغرات (قو برجو) حيث كان قائما بالقيادة

★
★ ★

تقرير صاحب السمو ابراهيم باشا (ابن اخ)

قبيل شروق شمس يوم الاحد صعدت الاورطة الثانية من الالاى الثانى الذى كان يقوده الميرألاى اسماعيل بك فى البرج الذى وقع الهجوم عليه فى الحملة الماضية وصعدت الاورطة الاولى التى كان يقودها احمد بك فى الاسوار التى الى يمين برج (قبو برجو) فبعد ان رفعت الاورطتان الرايات المصرية على هذا البناء ضويقوا من المحصورين حتى اضطروا الى التقهقر الى نصف ارتفاع الثغرة . وكنت وقتئذ اقدم الي الامام الاورطة الرابعة فاذا بثلاثة ألغام كان العدو قد لغم بها البرج قد انفجرت فتراجع عساكرنا الى بسيط الارض للمرة الثانية وكان صـاحب السمو القائد العام يهاجم العدو بعنف من جهة الزاوية لان الاعداء الذين كان مقررا علينا قتالهم انتقل معظمهم الى الجهة المتقدمـة فاغتنم الضباط هذه الفرصة لحث العساكر فاندفعوا نحو البرج اندفاعا شديدا فبعد ان استولوا عليه اتجهوا نحو اليمين ثم وصل رجال الهندسة الحربيـة ومعهم حزم كثيرة من الخشب وفروع الاشجار وسلات اسطوانية ليقيموا بها استحكاما وكان عساكرنا قد غنموا مدفعا من مدافع البرج فاستخدموه فى ضرب داخل الموقع به وبعـد ساعة من اقامة الاستحكام حمل العدو ثلاث مرات ولـكن على غير جدوى وفى هذه المعركة

قتل المير ألاى اسماعيل بك . وقبيل الساعة الخامسة مساء استولت الاورطة الاولى من الالاي العاشر الذى قرر عليه صاحب السمو القائد العام الهجوم على الخان بين برج قبو برجو وبرج الانكليز فطلب المحصورون الامان فأوقف ضرب النار حيث كان أول محرم الحرام ١٢٤٨ الموافق ٣٠ مايو ١٨٣٢

* * *

فى ٢٥ محرم الحرام ١٢٤٨ الموافق ٢٣ يونيو ١٨٣٢

فى العاشر من محرم الحرام الموافق ٨ يونيو ارتحل جيشنا من معسكر عكا قاصدا الى دمشق فوصل فى ١٤ منه الى الخناتير وبرحها فى اليوم التالي الي قرية العوادية على مسيرة ساعة ونصف من دمشق فأمضى بها الليلة وقبيل الساعة الثالثة من الصباح استكشف العدو متقدما نحوه فتقدم ثمانمائة من الفرسان نحو ميسرة القرية وتهدد ميمنتها مشاة من سكان المدينة فلما استطلع صاحب السمو ابراهيم باشا حركة الاعداء زحف فرسانه على جناحهم الايسر فى تتبعهم الاورطة الرابعة من الالاى الثامن المشاة بقيادة أحمد بك وفي الوقت نفسه حملت فرقة الفرسان التى يقودها قوجه أحمد أغا والعربان الراكبون على الجناح الايمن واذ كان فرسان الاعداء لا قبل لهم على هذه الصدمة فقد غادروا ساحة القتال واقتدى المشاة بهم بعد أن تفرقوا كل متفرق على أثر الطلقات الاولي التى أطلقتها أحدى الاورط . وقد أيقن على باشا والى دمشق أن لا فائدة من المقاومة فابتعد عن المدينة فى اكابر رجال حكومتها ومنهم الشوربجى وشمدان أغاسى وكيلار أمينى والمفتى نقيب افندى ويرلى أغاسى ورشيد أغا وترجمان أغا وقاضي افندى . وقد لاذ الجميع بالفرار من طريق السلانية ومعهم الف وخمسمائة فارس وخمسمائة جند وكان سكان دمشق قد ملوا المظالم وسئموا المغارم التى حملهم الولاة اعباءها فبادروا بتقديم تحياتهم الي صاحب السمو القائد العام راجين منه القبض على زمام مدينتهم وأن يتفضل بالعفو عنهم فأجابهم الي طلبهم اذ قصد الامير بشير صباح اليوم التالى فى خمسة آلاف رجل من الفرسان والمشاة الى المعسكر العام حيث تلقى الاوامر والتعليمات من القائد العام ثم استأنف الزحف على الموقع بينما أخذ سموه بالزحف عليه من الجهة المقابلة غير أن سموه لم يلبث أن رأى جماعة من الاعيان ومعهم مصطفى أغا الطوبجى باشا مقبلين لتقديم طاعتهم وخضوعهم . وقبل أن يدخل سموه المدينة توجه الى وسط سهل جوش ميدان الذى جعل معسكراً لالايات الفرسان وفرقة الامير بشير وجاء ابراهيم باشا (ابن أخ) بالالاى الثامن من الفرسان والمدفعية فأخذوا مقرهم في المعسكر أما الاورطة التابعة للالاى الخامس فقد جعل مستقرها بالقلعة

٩ صفر سنة ١٢٤٨ الموافق ٧ يوليو سنة ١٨٣٢

عند بزوغ الشمس تحرك من (قصير) جيشنا المؤلف من ألايين من المشاة واربعة من الفرسان وفرقة من البدو الراكبين قاصدا (طاطلى جوكل) حيث قضى الليلة على الضفة الشرقية من بحيرتها . وفى منتصف الساعة الثالثة وصل الى حمص وكان على أهبة التحرك فى فجر اليوم التالى فاذا بالتشوقدار السابق ابراهيم أغا قائد فرقة مؤلفة من ألفين من العربان وكان معسكرا فى المقدمة قد ظهرت له قوات العدو المحتشدة امام حمص وكانت هذه القوات بقيادة محمود باشا والى حلب وتحت امره ثمانية باشاوات آخرون ويمكن تقدير عددها بخمسة وعشرين الف مقاتل فبادر ابراهيم اغا باخبار صاحب السمو ابراهيم باشا بما رآه فبعد ان تحقق سموه صحة مانقل اليه قرر اجراء الترتيبات الآتية: وضع الالايين الثانى والرابع أحدهما خلف الآخر عند الجناح الايمن وألاى مشاة الحرس وستة مدافع والالاى الحادى عشر من المشاة فى القلب والالايين الثالث والسابع من الفرسان وكذا فرقة فرسان البدو في الجناح الايسر وتقدم العدو على هيئة ثلاثة جيوش فاتجهت فصيلة من البدو الفرسان الملحقين بجيشنا نحوه منقسمة الى كوكبات كل كوكبة يختلف عدد فرسانها من اربعين الى خمسين وبمجرد ان اطلقت مدافعنا تراجع العدو الى الخلف على مسافة فرسخ أما العدو فكان قد رتب قواته وهى أربعة الايات من المشاة وثلاثة من الفرسان بحيث ان كل فرقة تنفصل عن الاخرى بمسافة ووضع فيها مدفعان فأطلق الاى الحرس الملحق بجيشنا مدافعه نحو ساعة ونصف فصدت الايات العدو التى تقدمت على أثر اطلاق القنابل الكروية والرصاص عليها على ان ألايا منها استمر يطلق الرصاص فتكونت عندئذ الاورطتان الاولى والثانية من الحرس تحت قيادة خورشيد بك على شكل جيشين وتولى سليم بك قيادة الاورطتين الثالثة والرابعة وحمل الجميع على العدو حملة عنيفة حتى ساد الخلل بين صفوفه وتمزقت كل ممزق وقام الالايان الثانى والرابع من الفرسان باتمام هزيمته وكان عدد النظاميين من العدو سبعة آلاف عسكرى تقريبا قتلنا منهم الفين وأسرنا الفين وخمسمائة كان الكثيرون منهم مثخنين بالجراح أما الباشوات فقد لجأوا الى الفرار كما حصل منهم في ظروف أخر وقد اتصل بنا انهم برحوا حمص تحت جنح الظلام قاصدين الي حماه مع فلول الجيوش وفى صباح اليوم التالى استولينا على خيام العدو وذخائره ومؤنه وعشرين مدفعا ومدفع هاون ومن الاسف ان الهزيمة وقعت حينما جن الليل ولولا ذلك لما استطاع واحد من عساكر جيوشه الموصوفة ظلما بالنظامية الافلات من أيدى عساكرنا الابطال ولتعجل النصر عسكر محمد باشا بالهزيمة لم يتمكن من الاستيلاء على اوراقه فقد عثر فى خيمته على كثير من الرسائل والاوراق السرية فسلمت الى سمو القائد العام الذى بعث بها من فوره الي صاحب السمو والده .

وها هي أسماء وألقاب الباشوات الذين كانت لهم القيادة في الجيش المغلوب بحمص :—
محمد باشا والى حلب وسر عسكر . عثمان باشا والى معدان . عثمان باشا والى قيصريه . على باشا والى دمشق سابقاً . عثمان باشا والى طرابلس سابقاً . محمد باشا الكريدلى . نجيب باشا . محمد باشا . دلاور باشا . وهؤلاء القواد التسعة باشاوات بثلاثة أذناب وكان معهم كثيرون من الباشاوات بذنبين

خلاصة من تقرير صاحب السمو القائد العام ابراهيم باشا

لم ار في حياتى هزيمة كهزيمة العدو . وأنى لا أغالي اذا قلت انه لو زحف على مئتا الف أو ثلاثمائة الف من عساكره لما نبض لي بسببهم نبض أو اكترثت بهم ونحن بمشيئة الله ظافرون بأولئك العساكر أينما وجدوا وقد أرسلنا الاسرى الى عكا وامرنا ديوان افندى بأن يقبل في التقاعد كل من يريد تسجيل اسمه فيه ويرسل من يرغب في العودة الى وطنه اليه في مصر او غيرها . وقد بلغ عدد القتلى منا ١٠٢ والجرحى ١٦٢ وخسرنا ١٧٢ جوادا

*
* *

١٢ صفر سنة ١٢٤٨ الموافق ١٠ يوليو سنة ١٨٣٢

خرج الجيش من حمص في ١١ صفر الساعة ٤ صباحاً فقصد اولا الى قرية (رستان) القريبة من نهر العاصي حيث وقف حتى المساء ثم قفى الليل على الضفة الاخرى من هذا النهر وقد عثرنا في الطريق بستة مدافع من الاثنى عشر التى استطاع العدو استنقاذها اثناء الهزيمة . وفي يوم واقعة حمص استولى الذعر على العدو فاستمر في هزيمته من غير ان يعرج على حماه وقد اغتنمت قبائل عنيزه فرصة تشتته فتعقبت الفارين وقتلت منهم جملة وسلبت الباقين ما كان معهم . وفي ١٢ صفر (١٠ يوليو) برح سمو ابراهيم باشا القائد العام المعسكر في الساعة الثانية من الصباح في بعض من آلايات الفرسان فبعد مسيرة ساعتين استولي على حماه ووصلت اليها آلايات المشاة بعد وصوله بساعتين وقد استولينا القرب من حماه على خمسة من المدافع التى بقيت للعدو وأخذنا خيامه وذخائره . وبعد أن خسر الباشاوات الهاربون جميع مدافعهم اجتمعوا في قصر (مديك) وعلمنا أن المشير حسين باشا وصل الي انطاكية وصدر الامر الي ديوان افندي بان يرسل حالا من عكا قائمقام الطوبجية في ٣٠٠ من رجاله وجماعة من النجارين والحدادين وكافة خيول ودواب النقل والجر الموجودة بها للقيام على خدمة المدافع المأخوذة من العدو . واليوم يقصد جيشنا الظافر الي مدينة حلب

كشف مضبوط ومراجع بعدد الجيوش النظاميه التي هزمها جيشنا فى واقعة حمص

الالاى الرابع من المشاة مؤلف من	٢١٠٠	جندى
« السابع « «	١٨٨٤	«
« الحادى عشر « «	٢٥٨٧	«
« الخامس عشر « «	٢١٠٠	«
آلاى الفرسان بقيادة عصمت بك	٥٠٠	فارس
« « « محمد على بك	٥٠٠	«
فرقة كريدلي اوغلو	٨٠٠	مقاتل
المجموع	١٠٤٧١	

*
* *

١٨ صفر سنة ١٢٤٨ الموافق ١٦ يوليو سنة ١٨٣٢

فى ١٤ صفر (١٢ يوليو) ارتحل جيشنا من المحروقى قاصدا (مرا) على تسعة فراسخ فلما لم يجد فى الطريق كفايته من الماء وقف عند عين ماء تبعد بفرسخين عن مرا فاراد صاحب السمو ابراهيم باشا ان يشهد بنفسه توزيع الماء وفى الساعة الاولي بعد الظهر نصب الجيش مخيمه فى حدائق مرا حيث قضي الليل وفيها تلقينا خبرا مؤداه ان المشير حسين باشا كان فى ليلة معركة حمص قد برح انطاكيا قاصدا (قنطرة شجر) وأنه لما وقف فى اليوم التالى لوصوله اليها على نتيجة المعركة من الباشوات الفارين انصرف قاصدا حلب . وفى الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم ١٥ صفر (١٣ يوليو) استأنف الجيش الزحف قاصدا (تل السلطان) على مسيرة ثمانى ساعات من مرا ولقلة الماء اذ كان لا يوجد الا على مسافات سحيقة ولشدة الحرارة فى النهار قرر سمو القائد العام السري في الليل . ونمى الينا ونحن فى مرا ان أنجه بيرقدار أوغلو محمد باشا ذهب الى حسين باشا بجيشه المؤلف من ألفى فارس اى القوة التى بقيت بعد معركة حمص فنقم عليه الباشا هذا المسلك وجرده هو ومن كانوا معه بواسطة عساكره . وفر المسكين مع رجل من خاصته ولم يعلم اين اختفى . واتصل بنا ايضا انه لم يبق فى جيش العدو عسكرى نظامى واحد لان فريقا من النظاميين قتلوا فى المعارك الاخيرة وتشتت الفريق الآخر بالرغم من صرامة العقوبة التى وقعها حسين باشا على من وقعوا منهم فى قبضته زجرا لغيرهم وحملا لهم على اداء الواجب . ونقل الينا ايضا انه لم يبق تحت قيادة حسين باشا سوى آلايين من البستانجية وآلاى ثالث ألفه خسرو باشا وكان فى نيته التراجع الى حلب مع هذه القوات الا ان سكان هذه المدينة أبوا استقباله . وفى ١٧ صفر (١٥ يوليو) تحرك الجيش بعد نصف الليل من تل السلطان فحط رحاله على ضفاف النهير الذى يجرى بالقرب من

(الزيتون) وفى الساعة الاولى بعد الزوال جاء عرباننا الفرسان الى سمو القائد العام ببعض من عساكر الاعداء النظاميين فعلم منهم ان المشير حسين باشا كان قد وصل فى الليلة السابقة الى حلب وبصحبته والى هذه المدينة السابق والباشاوات الهاربون وانه طلب من الحكمة موافاته بالمؤن والجنود فأخبره الاهالي بعجزهم عن اسعافه ومعاونته . فحينما ايقن بضياع أمله فى صده لنا ولى الادبار في الساعة العاشرة من صباح اليوم نفسه تاركا خيامه ومؤونته وذخائره الحربية وستة عشر مدفعاً فاستولينا على هذه الغنائم كلها ويقال ان المشير اخذ سمته الى عينتاب واكد كثيرون من عرباننا الفرسان الذين أوغلوا فى البلاد حتى بلغوا الى اسوار حلب فرار العدو فقصد سمو القائد العام من فوره الى حلب ومعه ياورانه وامر عباس باشا بتعقبه في آلايات الفرسان وستة مدافع . وفى منتصف الساعة الخامسة مساء وصل الى هذه المدينة ودخلها وكان قد اتصل ببعض اعيان أهلها نبأ بدنو سموه منها فخرجوا للقائه وقدموا اليه فروض التحية والتبريك ووافاه القاضى والمفتى وعظماء المدينة بطاعتهم ودعوا ببقائه . وفى ١٨ صفر (١٦ يوليو) عين سمو القائد العام ابراهيم آغا سياح زاده واليا على حلب . وقبيل الساعة التاسعة من صبيحة ذلك اليوم وصل ابراهيم باشا (ابن اخ) فى آلايات المشاة وآلاى المدفعية وجميع مهمات الجيش وأدواته واليوم جيء الى المعسكر بخمسمائة أسير من العساكر النظاميين في حالة يرثى لها فوافيناهم بما تقضى الانسانية به من المساعدة والاسعاف

* * *

٧ ربيع اول سنة ١٢٤٨ هجرية الموافق اول اغسطس سنة ١٨٣٢

في الساعة الثانية بعد نصف الليل من يوم ٢ ربيع الاول (٢٩ يوليو) زايل جيشنا قنطرة مراد باشا ففى الساعة العاشرة قبل الظهر وصل الى نقطة تبعد بخمسة فراسخ عن مضيق (بيلان بوغازى) واتصل بنا هناك ان المشير حسين باشا ومحمد باشا والى حلب سابقا وبعض الذوات والعظماء عسكروا فيما يلى المضيق بمن بقى معهم من الجنود النظامية وغير النظامية وانهم نصبوا المدافع والبطاريات على الروابى والمرتفعات وايدت الطلائع صحة هذه الاخبار فامر سمو القائد الفريق حسن بك بالتقدم فى الالاى الثالث عشر من المشاة والالاى الخامس من الفرسان واربعة مدافع من الطريق الايمن وسار هو في الطريق الايسر فى الالايين الثامن عشر والثامن والاى الحرس واثنى عشر مدفعا ووضعت آلايات الفرسان الباقية في مواقع مختلفة حول حلوق الجبال ومنافذها فلما أبصر العدو بهذين الجيشين يزحفان عليه بدأ باطلاق مدافعه وكانت لارتكازها على قمم الممرات تحكم الطريقين فاجابتها مدافعنا بنار حامية اضطرتهم الى فك مدافعهم الا مدفعا منها استمر على اطلاق مقذوفاته وبينما كان الجناح الايسر للعدو تصليه مدافعنا نارا شديدة كان الالاى

الثامن والالاى الحرس يتقدمان الي الامام فبلغ عساكرهما الابطال بوثبة واحدة الي الروابي التي الى ميسرة العدو نهجموا عليه بعنف وبسالة فلم يسعه الا التنحي عن مواقعه تاركا ما معه من الذخائر والمهمات ولاذ بالفرار عند غروب الشمس فى اتجاه (آطنه) فقضى جيشنا الليلة فى ساحة القتال وفى صباح ٣ ربيع الاول (٣٠ يوليو) ارسلت الالايات الفرسان كلها لاقتفاء أثر الهاربين وتوجهت بقية الجيش الي بيلان لتعسكر بها وانضم عارف بك قائد الالاى العاشر من العدو الى صفوفنا فعينه سمو القائد العام قائدا للالاى العشرين من مشاتنا . ويؤخذ من شهادة عارف بك ان ألايه كان حينما تحرك من قونيـا مؤلفا من ٣٢٦٨ رجلا فنقص الى ١٨٨٨ بسبب فتك الامراض والقتل والتشرد . وقبل فرار عليش باشا من اللاذقية جاء ستون فارسا وستمائة راجل من فرقته الى الاسكندرونه ليضموا انفسهم تحت امر قائدنا العام الذى اطلق حريتهم وترك الخيار لهم في العودة الي اوطانهم او الى مصر او فى البقاء بهذا البلد وامر حفظه الله بتجهيزهم بما يلزم لسفرهم ومما نقله هؤلاء الفارون ان عليش باشا بعد ان ارسل حريمه الى جزيرة قبرص على امل اللقاء به فى الاسكندرونة استأجر سفينة اوروبية للذهاب فيها الى صاحب السمو ابراهيم باشا ومعه ستة من المدافع . وقد اخذت آلايات الفرسان التى كلفت بتعقب الباشاوات الفارين بمناوشتهم حتى بلغوا الى ابواب آطنه فعادت من هناك ومعها ١٩٠٠ اسير . وفي ٥ ربيع الاول الموافق اول اغسطس قدم اعيان (انطاكيا) فروض الطاعة الى قائدنا وعين خليل بك اخو مصطفى باشا واليا على (بيلان) ومر والى حلب بمدينة عينتاب راكضا على جواده وقمت مدفعيته فى قبضتنا . وقد علمنا ان هذا الباشا موجود الآن ببلدة (ملطية) فى عدد قليل من العساكر وبلغت خسارة العدو فى مضيق بيلان ٣٩ مدفعاً استولينا عليها جميعا . وفى ٦ ربيع الاول الموافق ٢ اغسطس كتب ايوب بك اسكيان باشا من قبيلة ملاو بمركز (أورفا) كتابا الى صاحب السمو ابراهيم باشا يقدم فيها فروض الطاعة وواجب التهانى والتبريكات فتفضل سموه بابقائه فى وظيفة اسكيان باشا . وخلاصة القول فقد غنمنا فى الوقائع التى نشبت بيننا والعدو ٨٠ مدفعا ومدفع هاون وكمية كبيرة من الذخائر المختلفة وتجاوز عدد القتلى والاسرى من عساكره ١٣٠٠٠ ولا بد ان يكون عدد الهاربين جسيما فقد اخبرنا عارف بك ان جيش العدو كان عدده تحت اسوار حمص ٣٦٠٠٠ من النظاميين فلم يبق منه تحت اوامر حسين باشا سوى ٥٠٠٠ تقريبا وبلغت خسارتنا في معركة بيلان ٢٠ رجلا بين قتيل وجريح

*
* *

صورة كتاب حرره الي صاحب السمو ابراهيم باشا حضرة السيد محمد افندى مفتى بيلان واحمد افندى والحاج اسماعيل اغا اخو محمد باشا البيلانلى :

نتشرف بان نرفع الى عتبات سموكم عبارات الاحترام والاجلال . وان السرور الذى بثه في نفوسنا نبأ قدومكم الينا لسرور شامل وعظيم الي درجة انستنا تقريباً ماتكبدته مدينتنا من الالام والاوجاع اثناء وجود عساكر العدو فيها فان هؤلاء العساكر الذين اعتادوا التهور والافراط فى شهواتهم لم يحترموا شيئاً من دورنا وحقولنا واموالنا فذهب كل مااحتوته نهباً لهم . ولقد لجأنا الى الجبال لنأمن فيها على نفوسنا وهناك رفعنا اصواتنا بالدعاء الي رب السموات ان يؤيدكم بالنصر المبين ويكلل بالنجاح اعمالكم التى ترمون بها الي انقاذ وعتقنا التمس. وليسمح لنا سمو مولانا الامير بالحضور بانفسنا لنجدد امامه عبارات هذا الولاء وهذا الشكر اللذين يترددان فى افئدتنا منذ زمن طويل .

*
* *

كتاب من خليل بك والى بيلان ومصطفى باشا أخيه :

ياصاحب السمو ! مضى علينا عشرون عاما كان يخالجنا فيها الشوق الى الانتظام في خدمة سمو والى مصر وكنا لانكف عن الجهر بأمانينا نحو سعادة هذه الاسرة الكريمة ومجدها ولقد ظهر سرورنا في ابهى مجاليه واوسع معانيه حينما علمنا بوصول سموكم الى بلادنا التعسة التى انقذت من الظلمة القساة والله وحده يتولى جزاءكم على هذا العمل الجليل الصادر عن كرم النفس وعلو الهمة . ولقد بذلنا كل مافى وسعنا لتنفيذ ماورد الينا من أوامركم فاذا لم نستطع ان نقدم قبل الآن الى سموكم بالذات ماهو واجب لكم من الاحترام والاعظام فما ذلك الا لان الظالمين المستبدين كانوا قد قبضوا علينا ثم أحاطونا بسياج المراقبة الشديدة فأجلنا الى اليوم تلك الساعة التى كنا ننتظرها بذاهب الصبر . وفى ذلك اليوم تشرف أولئك الذوات ومنهم محمد بك وأخوه مصطفى بك بن كرد بك والحاج احمد بك وشقيقه حاج بك واسماعيل بك بن عبد الرحمن باشا بالمثول بين يدى سمو القائد العام الذى لقيهم بمظاهر البشر والايناس

❊
❊❊

تقرير الفريق حجازى سليم بك وشوقدار ابراهيم أغا وقد أرسلها سمو القائد العام الى اولو قشلاق

٢٢ جمادى الاول سنة ١٢٤٨ الموافق ١٦ اكتوبر ١٨٣٢ عند بزوغ الشمس زايلنا جهة (بوزاتنى) يسبقنا خيالة الدلاة ويتبعنا خيالة احمد بك ملمنجي زاده ويتبع هؤلاء فى المؤخرة العربان الراكبون. وكان المضيق الذى تقرر علينا النفوذ منه ضيقا جدا فوقفنا عند جهة (تحته كوبرو) مدة قصيرة كان ٥٠٠ الى ٦٠٠ من عساكر العدو الكشافة قد رأونا في خلالها فعجلوا الاوبة لاخطار رقائدهم بذلك وكان العدو قد

حصن (شفته خان) من كل ناحية فتركنا الحاميات الكافية في (تحته كوبرو) والنقط الاكثر
تعرضا لضربات العدو ثم زحفنا عليه بالترتيب السابق وكان متحصنا في حلوق الجبل فنزل
منهم الى الوادى اكثر من الف فارس اصطفوا تجاهنا ووقف ٥٠٠ آخرون في مصاف
القتال ومنهم المشاة فوق شفته خان وارتكز فيلق آخر على طول الجبل الممتد أمامنا فلبثنا
نصف ساعة نرقب حركات العدو واهتممنا من ناحيتنا بالتأهب لمقابلته فبدأت المعركة باطلاق
نار البنادق وكان قواد العدو وهم صادق باشا وملمنجى أوغلو وعبيد بك يخترقون صفوف
العساكر الموزعين على الاستحكامات والسيوف مسلولة في أيديهم لتأييد النظام .
وبعد عشر دقائق زحف ابراهيم آغا الشوقدار السابق في مشاته الذين كانوا تجاه
فيلق مشاتنا على استحكامات العدو تتبعه فصيلة من الفرسان وتقدم سليم بك من القلب
في فرسان البدو قاصدا خيمة عليش باشا فانضم دلاتنا في الحال الى ابراهيم أغا واشتبك
الفريقان في معركة بلغ من شدتها ان تراجع العدو عن استحكاماته وكان صادق باشا
وعبيد بك أول من لجأوا الى الفرار وبلغت خسارتهما ٥٠٠ قتيل و ٣٠٠ أسير واقتفى
أثر صادق باشا على مسافة ١٢ فرسخا من شفته خان وابلغ بعض الهاربين الى الباشوات الذين
في اولو قشلاق خبر الهزيمة وكان تحت قيادتهم اكثر من الف فارس فهموا بالهجوم علينا
ولكن فرساننا العربان انبروا لهم يعززهم فرسان آخرون ووصل في الاثناء كل من
سليم بك وابراهيم آغا الاول في ٧٠ رجلا والثاني في ٨٠ فحملوا جميعا على العدو وما
زالوا به حتى هزموه ثم طاردوه اكثر من ساعة وعادوا في الغروب الى أولو قشلاق.
وطبقا لاوامر سمو القائد العام قصدنا الى ابركلى (هرقلة) بعد ان قضينا في الراحة يوما
بجهة اولو قشلاق وفى الطريق تلقى سليم بك رسائل الاحترام والتهنئة من المفتى والاعيان
وعامة الاهالي

ملحوظات

كان سمو القائد العام قد اعتزم الوقوف دون اسوار حلب وانتظار قرار الباب العالي
في وقف الحرب ولكن العدو كان أبعد من أن يفكر في سلوك هذا المسلك فقد كان
يذهب تارة الى مضيق (كلك) ويحتشد أخرى بالقرب من (عينتاب) و أولو
قشلاق ناشرا في كل مكان اخبار السوء . وسئم سكان هذين البلدين المظالم والمغارم
التي كان العدو لايزال يفرضها عليهم فالتمسوا من القائد العام اسعافهم بمساعدته
وكانت عرائضهم اليه في هذا الموضوع ممضاة من رجال الدين والقضاة والاعيان .
وكان سكان اطنة بنوع خاص يلحون عليه بالحضور لنجدتهم وتوسلوا اليه أن ينفذ اليهم
سمو عباس باشا بالنيابة عنه اذا لم يستطع المجيء بنفسه وتواترت الرسائل اليه في هذا
المعنى وفيما يقع من الحوادث فاضطر الي الزحف فوصل الى آطنة . أما العدو
فلاصراره على نياته الشريرة جد في انشاء الاستحكامات للدفاع عن مضيق كلك وحشد

القوات العسكرية فى أولو قشلاق فأنفذ القائد العام فصيلة لم تلبث ان استولت على هذا المضيق . وعهد بحراسته الى قبائل آطنة حتى لايدع له وسيلة يتذرع بها لاطالة الحرب . على ان العدو كان لايزال ، بما بعده من التجهيزات الحربية ، من بواعث القلق فانه حصن شفقته خان وتأهب لتحصين أولو قشلاق وأخذ بتأليف جيش جديد . وكان احمد بك أحد زعماء (ايتشل) قد قتله عساكر العدو فى داره وتروع الناس فى كل مكان مر اولئك العساكر به أو اقاموا فيه فوردت على سمو القائد العام من الاهلين التماسات عديدة ضرعوا فيها اليه ان يخلصهم من ظلمهم فكانت الاغراض التى ترمى اليها حملة أولو قشلاق منحصرة فى اعادة النظام والامن الى هذه البلاد التعسة والقضاء على المشروعات التى شرع العدو بتنفيذها .

*
* *

٢٩ رجب سنة ١٢٤٨ الموافق ٢١ دسمبر سنة ١٨٣٢

دخلنا مدينة قونيا ظافرين يوم ٢٤ رجب الموافق ١٧ دسمبر . ولما تبين لنا في اليوم التالي ان احدى فصائل جنودنا بقرية (سيلة) الواقعة على مسيرة ساعة ونصف فيما يلى قونيا قد اشتبكت في معركة مع العدو بادر سمو القائد العام بالذهاب الى هذه القرية فى الالايين الثالث والرابع من الفرسان والالاى الثانى عشر من المشاة وكان الضباب كثيفا فلم يسمح بلقاء الاتراك ولم يشتبك بهم الا بعد مسيرة ساعة في الجبال . وما كادت هذه الجنود الحديثة تقف في مصاف القتال حتى شعر الاعداء بعجزهم عن تلقى الصدمة فتواروا عن الانظار تاركين ستة من مدافعهم وثمانية من اعلامهم وعددا كبيراً من القتلى وقد اسر ألفان من الارنؤود وتفرق الباقون. ولما جن الليل تعذرت مطاردة العدو الي مسافة بعيدة فعاد القائد العام الي سيله راضيا بما حصل عليه من الفوز. ويؤخذ من اقوال الاسرى ان جيش العدو كان مؤلفاً من ١٤٠٠٠ من الالبانيين والفيكا والتوسكا بقيادة وافي باشا سلحدار الصدر الاعظم وآخر . وقد ارسلت المدافع الستة بمهماتها الى سيله ومنح الاسرى الالبانيون شرف الاندراج فى سلك جنودنا غير النظاميين . وفى فجر ٢٧ رجب الموافق ١٩ دسمبر اتصل بالقائد العام ان في نية الصدر الاعظم الاتجاه صوب (دكسلوخان) فسار يتبعه الالايات الاول والثانى والرابع من الفرسان وألاى الحرس وثمانية عشر مدفعا متجها صوب تلك الجهة ولم ينتظر الفرسان الطلقة الثانية من المدفع حتى طلب مائة وخمسون منهم وهم الذين كانوا يحرسون القصر مع سلحدار كريدلي أوغلو محمد باشا الامان فاعطى لهم . وقد غنمنا ما جمعوه من المؤن الكثيرة برمم هذا الزحف وكان احمد باشا مستشار السلطان بين المدافعين عن الموقع فنجا بنفسه اما لانه لم يعرفه أحد واما لان تراكم الثلوج حال دون تعقبه . وفى ٢٩ رجب

الموافق ٢١ دسمبر حشد الصدر الاعظم جميع قواته وتقدم بها لمداهمة المعسكر فبعد قتال عنيف ظل ساعة ونصفا انهزمت عساكره ووقع هو فى الاسر وأرسل الى قونيا بحراسة قائمقام فرقة الفرسان الرابعة وفيها أسكن قصر القائد العام بعد ان قوبل بمظاهر الاجلال اللائقة برتبته . ويؤخذ من اقواله ان جيشه كان مؤلفا من ست اورط من المشاة ومثلها من الفرسان بينا قوات القائد العام لم تتجاوز شطرا صغيرا من جيشه القديم اى خمسة الايات من المشاة وستة من الفرسان لان المجندين من مصر كانوا لم يصلوا بعد الى ساحة القتال وقد بلغت خسائرنا ٥٣٠ جريحا و ٢٦٢ قتيلا وأسرنا ألايا باكمله من الجنود النظامية . وكان ٧٠٠٠ ألبانى وبوسنوى قد شردوا من الجيش العثمانى للانضمام الى جيش القائد العام فألحقوا بالشراذم غير النظامية التى يقودها محمد بك الذى قضت الضرورة بارتحاله الى (قيصرية) ولم يصل الينا عدد قتلى والمحقق انه بالغ جداً

* * *

خلاصة تقارير ابراهيم باشا عن واقعة نصيبين

كان الجيشان يوم ٢٠ مايو في مصافهما بمركز عينتاب على مقربة من بعضهما وكانت الجنود العثمانية تحتل مدينة عينتاب بقيادة سليمان باشا والى مرعش وكان جواسيس حافظ باشا وأعوانه لا يزالون يحرضون الاهالى على الثورة والعصيان كما كانت فصائل جيشه لا تكف عن اتيان الاعمال العدائية فكان الجيشان والحالة هذه فى حالة حرب. فقرر ابراهيم باشا عملا بتعليمات والده المطابقة لآراء قناصل الدول العظمى الاربع الذين رأى الوالى وجوب استفتائهم مقابلة القوة بالقوة وكان مما أوجب استياءه وتذمره لما فيه من مخالفة مزاجه وفطرته الوقوف زمنا طويلا بلا عمل تجاه ما يبديه العدو من الاعتداء والتبجح ففى ٢٢ يونيو زايل القائد العام مقر القيادة العامة فى (توزل) تصحبه فصيلة فرسان وبضع بطاريات خفيفة واربع أورط مشاة لمداهمة معسكر العدو بالقرب من (مزار) على نهر الفرات فبمجرد وصوله الى هذا المكان حمل الفرسان على الاعداء وألزموهم الفرار فغنم ابراهيم باشا اربعة عشر مدفعا وخزنة تحتوي ٥٠٠٠٠ قرش وأسر ٨٠٠ نفس ثم التقى فيما بين (مزار) و (نسبي) بفرقة من العثمانيين فاضطرها الى التراجع نحو فيلق حافظ باشا الذى جعل مقر قيادته بالقرب من نسبي . واذ رأى القائد العام ان هذه الحركة تضمن له خط الرجعة فقد قرر الاشتباك مع العدو فى معركة حاسمة . وفى صبيحة ٢٤ يونيو رتب جيشه فى مصاف القتال تجاه الجيش العثمانى بضواحي قرية نصيبين بالاراضى التابعة للشام على مسافة بضع فراسخ من الفرات. وكان ابراهيم باشا مشرفا على جميع الحركات وكان جيشه مؤلفا من ٣٠٠٠٠ جندى نظامي و ١٤٠٠٠ غير نظامى بينا كان جيش العدو مؤلفا من ٩٠٠٠٠ جندي

نظامى وغير نظامى . وقد اخطأ الاتراك خطأ بالغا لانهم لم يرسلوا غير الفرسان فى الصدمة الاولي لان هؤلاء الجنود قصروا همهم على مهاجمة المصريين فى كل مكان فلم تلبث طلقات البنادق ان فرقتهم واضطرتهم الي الانثناء نحو المشاة فاوقعوا الخلل فى صفوفهم وأدرك الفرسان المصريون ذلك فقاموا بمناورة وتحرك الجناح الايمن من الجيش المصرى حركة افضت الي انكسار العدو على وجه لم يسع الصف الاول من مشاته معه الا ان يلقوا بسلاحهم ويتفرقوا في جميع الانحاء .ونال الهلع من أفئدة بقية العسكر فلم يكن يطرق الآذان سوى صيحات التنادى بطلب النجاة لمن قدر عليها. وقد ترك العثمانيون فى هذا الفشل كل مهماتهم من المدافع والبنادق والخيام وصناديق الذخيره والمؤن وكل شيء ولم تأت الساعة التاسعة حتى صار ابراهيم باشا متحكما في المعسكر العثمانى وصاحب التصرف فيه. وقد عثر فى خيمة حافظ باشا على الفرمان الوارد اليه من السلطان بتقليده ولاية مصر .واقتفى فرسان ابراهيم باشا أثر الهاربين فأسروا اورطا بأكملها وعادوا بها الي المعسكر وسلم كثير من الضباط وسبعة باشوات بأنفسهم والمظنون ان لايفلت حافظ باشا نفسه من الفرسان المصريين وقد أسر فى ساحة القتال ٥٠٠٠ رجل من بينهم سليمان باشا والي مرعش وجيشه برمته. وقد خيرهم سمو ابراهيم باشا بين الانتظام في سلك جيشه والعودة الى اوطانهم فقبل ٥٠٠٠ منهم أول الاقتراحين فسيروا فى الحال الي الاسكندرية واتجه قسم من الجيش العثمانى صوب الفرات وكان قد فات حافظ باشا أن يمد القناطر على هذا النهر فنشأ عن غفلته ان١٢٠٠٠ جندى ماتوا فيه غرقا اثناء عبورهم اياه سباحة واعتصم القسم الاكبر منه بجبال عينتاب فقتلهم العربان والاكراد والتركمان وتقدم الجيش المصرى عقب ذلك نحو مرعش وملطية وديار بكر

*
* *

خلاصة تقارير ابراهيم باشا في ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ مايو سنة ١٨٣٩

احتل جنود حافظ باشا في مركز أورون(أورور)بولاية عينتاب١٤قرية ووزع على الاهلين الاسلحة والذخائر وجمع اليه كبارهم ففرق عليهم قفاطين الشرف . وكان العدو قد أسر ثلاثة من فرسان البدو فلما جيء بهم الي حافظ باشا طلب الذين أسروهم منه المكافأة الموعودة فأمر بعض جنوده باطلاق النار على العساكر المصريين أينما وجدوا وأخذهم أسرى . وفى بلدة (نزيب) اطلقت المدافع تحية لحافظ باشا واذيعت الاخبار بأن ابراهيم باشا عاجز عن الزحف وانه سينقلب على عقبيه الى القاهرةوان والى(موش) قد انضم بنصف جنوده الي الجيش العثمانى وان أحد القواد العثمانيين سيصل قريبا فى جيش مؤلف من أحد عشر ألايا وانه متى تم انضمامه الى جيش حافظ باشا زحف الجيشان معا ومعهما ١٤٠ مدفعا على مدينة عينتاب وألقى فى أفئدة الاهالى الروع باذاعة

خبر مؤداه ان حافظ باشا سيرمى رقاب الرجال والاطفال والنساء من قرابة أى كان يتراخى فى تنفيذ أوامره واستقرت فرقة من الفرسان العثمانيين ببلدة (أورن) وجىء برئيس الناحية الي حافظ باشا فأهداه ساعة ذهب . فلما عاد الرجل الى قريته جمع اليه الكبار والاعيان وحضهم على مقاومة الجنود المصرية ثم حشد رجال خمس نواح أخرى وجهزهم بالاسلحة بعد ان وردت اليه من حافظ باشا الذخائر اللازمة لذلك

*
* *

تقرير ابراهيم باشا عن الوقائع من أول يونيو سنة ١٨٣٩ الى ٨ منه

من القيادة العامة فى توزل بالقرب من عينتاب يوم ٢٧ جمادى الثانى الموافق ٨ يونيو .

نمى الي أول امس ان سليمان باشا استولى خلال زحفه من مرعش فى جيش مؤلف من ٦٠٠ فارس على مدينة عينتاب . وكانت أورطة من جيشنا محتلة القلعة فارسلت ٦٠٠ من الفرسان غير النظاميين الي هذه المدينة فخرج الفرسان العثمانيون لصدها فبعد قتال دام بضع ساعات انقلب العدو الي المدينة وعاد فرساننا الى توزل. وبالامس تلقيت خبرا مفاده ان المدافع أطلقت على مراكزنا الامامية فبادرت بالزحف فى قوة من الفرسان ومعى اربع بطاريات من المدافع فلم تكن الا هنيهة حتى وقع بصرى على جمع من الفرسان العثمانيين النظاميين فما تظاهرت بالميل الي مهاجمتهم حتى عجلوا بالانسحاب وقد اختل نظامهم وانفرط عقدهم وأكد لي الاسرى منهم ان حافظ باشا كان يقود الفرسان . وقد اعدت المعدات وتمت التجهيزات للاستيلاء على عينتاب ولا تزال حامية القلعة تطلق النار على العثمانيين . وسيكون الهجوم على المدينة من ناحيتين معا بالجيشين اللذين يقود احدهما سليمان باشا وأقود انا ثانيهما وقد نزع النصارى فى أحد الجبال القريبة من الاسكندرونة الي الثورة وتسلحوا لهذا الغرض ولكن ٧٠٠٠ من جنودنا صعدوا فى ذلك الجبل فنكلوا بالثائرين جزاء فعلتهم وصدر منشور الي أهل سوريا ينذرهم بمثل هذه العقوبة اذا جنحوا الى الثورة

*
* *

رسالة من ابراهيم باشا عن واقعة نصيبين

أكتب هذه الاسطر تحت خيمة حافظ باشا التى لم ينقل العدو شيئا مما كانت تحتويه وقد استولينا على الامتعة والمهمات والمدافع والخزانة وأسرنا عدداً عظيما من العساكر وانى أود ان اقتفى أثر الاعداء ولكننى لا أجد منهم احدا وكان تفرق الجيش العثمانى اشتاتا وفراره بسرعة لم نستطع معها ادراكه بعد معركة دامت ساعتين فقط . وكان هجومنا عليه من جميع النقط معاً وكان احمد باشا على قيادة ميمنتنا وسليمان باشا على قيادة الميسرة . اما

القلب فكنت أتولى قيادته وكانت نار مدفعيتنا حامية جداً وقد أعاد هذا الفوز السريع الي ما كنت عليه فى سن العشرين من النشاط والانشراح والقوة وسنوافيكم بالتفصيل قريبا

*
* *

رواية واقعة نصيبين بلسان سليمان باشا (سيف)

فى ١٨ يونيو خرجنا من معسكر (دوبيك) فوصلنا بعد يومين الى قرية (مزار) الواقعة على بعد ساعتين تقريبا من الجيش العثمانى المعسكر فى (نصيبين) وكان زحفنا مواجهة على خمس صفوف متطاولة من المشاة وصفين من الفرسان . وفى ٢١ قمنا باستكشاف موقعه فى ١٥٠٠ فارس من البدو واربعة ألايات من الفرسان وبطريتين من المدافع الراكبة . وبينا كانت الجنود الخفيفة تناوش العدو ومدفعيتنا تبادل مدفعيته بعض الطلقات تأكد لنا أن موقعه كان من المناعة بحيث لايمكن الهجوم عليه مواجهة ولا مجانبة • وكانت واجهته تحميها من الخلف آكام محصنة متوجة القمم بالمدافع وامامها ثلاثة معاقل كبيرة • وكانت ميمنته تستند الي ربوة عالية تحتوى معقلا وضعت فيه اورطة من المشاة واسفل هذا المعقل بطرية مدافع لحماية الطرف الاقصي من الميمنة والاورطة الموجودة في المعقل ، كما كان جناحه الايسر يستند الى معقل مشيد على ربوة فى استدارة الثدى وعرة المنحدرات . فكان الهجوم على الواجهة والجناحين فى هذه الحالة أمرا شاقا ومحفوفا بالمصاعب وكان لابد معه من خسارة الكثير من الجند بدون نتيجة يحسن الوقوف عليها • ولهذا فقد اقترح في الحال القيام بحركة التفاف بالعدو من ميسرته وبالزحف عليه زحفا جانبيا

وعلى هذا عدنا الي المعسكر وفى الليل جهزت المعدات وأخذت الأهبة • فلما كان بزوغ شمس يوم ٢٢ يونيو رفع الجيش المعسكر وتحرك زاحفا زحفا جانبيا بصفوف متطاولة وفى مقدمته الميمنة فبعد مسيرة عشر ساعات وصلنا الي قنطرة (هركون) وقبل الوصول اليها بعد الظهر كان الاتراك قد أرسلوا بعض الاورط والمدفعية نحو الجانب الايسر من زحفنا الجانبي . فاحتللنا في الآونة نفسها ربوة مستديرة ثدية الشكل كانت الى يمين صفوف جيوشنا فثبتنا فيها اقدامنا ببطريتين من مدافعنا والايين من مشاتنا كانت كل اورطة من اورطهما صفا واحدا متكاثفا ومنثنيا على القلب بشكل صفين مضاعفين وارسل ألاى من المشاة وآخر من الفرسان الى ميسرة الزحف الجانبي فاتخذا لهما مستقرا على اتجاه جانبي الفيلق التركى فلم يسع هذا الفيلق ازاء هذه الترتيبات الا الانسحاب فاستأنف الجيش المصرى السير فى طريقه بسكون واطمئنان حتى بلغ الي قنطرة هركون على الضفة اليسرى من النهر وأخذ هناك مركزه

وانقضى يوم ٢٣ يونيو في تجهيز السلاح للقتال وعرض المدفعية والمشاة والفرسان

وقبيل نصف الليل من ليلة ٢٤ يونيو جاء العدو ببطريتين من مدافع القنابل المستطيلة ومعهما بعض المشاة والفرسان وسار بهذه القوة فى اتجاه ميسرتنا ثم القى فى معسكرنا من ٢٥٠ الى ٣٠٠ قذيفة فوقع فيه شيء من الهرج والاختلال وجرح جواد المير آلاى محمد بك أحد ياوران سليمان باشا بشظية قذيفة منها . وقبل ثلاثة ايام قتل جواد من تحته أثناء قيامه بالاستطلاع . وقتل سبعة او ثمانية من عساكرنا وجرح ثلاثون . والظاهر ان العدو تمكن من أخذ قياس اتجاه خيمة سليمان باشا فخصها بنصيب واف من مقذوفاته وفى الآن نفسه انتقل سليمان باشا الي النقط الامامية فلم تلبث نار العدو ان اسكتها الضرب المستمر من مدافعنا التى رتبت لهذا الغرض حول المعسكر منذ اليوم السابق اتقاء للمباغتات . ولقد اصيب مدفعيو الاتراك بخسارة بالغة من جراء ذلك اذ قتل بعضهم وجرح البعض الآخر وانقلبت جملة من مدافعهم فانسحب جيشهم من مشاة وفرسان ومدفعيين نحو معسكرهم ووقع الخلل فى صفوفهم . وكان الجيش فى هذه الاثناء قد تناول سلاحه ووقف كل جندى فى النقطة المعينة له وانتظر الجميع طلوع النهار . وما اسفر الصبح حتى استأنف الجيش سيره الجانبي صفوفا متطاولة من المقدمة الى المؤخرة وكان الصف الاول يتكون منه الجيش الاول فزحف منقسما الي فرق كاملة تفصلها عن بعضها مسافات تامة والصف الثانى يتألف منه الجيش الثاني فزحف منقسما الى أورط متباعدة عن بعضها بقدر الفصيلة على شكل عمودين مرتكزين على القلب وبينهما مسافات تكفى للحركة والامتداد . والصف الثالث يتكون منه الجيش الثالث فزحف منقسما الي أورط متضامة متكاتفة ومنثنية بشكل عمود مضاعف على القلب وبينها مسافات بقدر فرقتين . وكان ستة ألايات من الفرسان يزحف كل ألاى منها على شكل صف كثيف متطاول من المقدمة الى المؤخرة الاى الميسرة الى يسار الالاى الاول على مسافة ستمائة خطوة منه وعلى اتجاه الصف الثالث وقد اتخذ هذا الاحتياط لاتقاء هذا الخطر في حالة ما اذا هوجمت صفوفنا المتطاولة فى اتجاه الخلف من مقدمتها او مؤخرتها . وكان بامكان هذه الالايات الزاحفة على مسافة فرقتين خارج مقدمات الصفوف ورؤوسها الامتداد بسرعة مع ابتداء ضرب النار بينا كانت الصفوف تستطيع التقدم اوالتقهقر أو الوقوف فى مصاف القتال تحت حماية الفرسان والمدافع الخ

ولما رفعنا المعسكر وبدأنا الزحف تقدمنا بمقدار بضعة آلاف خطوة فى اتجاه يكاد يكون عموديا على خط قتال الاتراك (وكانوا قد اتجهوا الى الخلف وانتشروا على المرتفعات والروابي الواقعة خلف معسكرهم القديم) وكنا نرى انهم ربما نزلوا الي السهل للقتال على بسيط الارض ولكننا لما رأيناهم لا يبدون حركة جعلنا اتجاهنا الي اليسار وسرنا موازين لخطهم مع اطالة هذا الاتجاه بمقدار ألفى خطوة ليتيسر لنا التصرف فى مناوراتنا بحسب ما يمكن ان يتخذوه من الترتيبات ولما ايقنا انهم عازمون على القتال في مكانهم غيرنا الاتجاه في اليسار دفعة اخرى فاتجهنا نحو ربوة مستديرة قريبة من ميمنتهم

التى صارت ميسرة باتجاهم الى خلف . وكنا معتزمين الهجوم بميمنتنا دون القلب والميسرة فزحفنا فى اتجاه مائل على خط قتالهم للتمكن من سحب الميمنة تحت حماية الفرسان فى حالة عدم التوفق للنجاح بها والهجوم عندئذ بالقلب والميسرة . ولما صار الجيش على مدى ٢٠٠ او ٣٠٠ خطوة من الاكمة المستديرة وقف بخفة وسرعة واتحاد فى الحركات من وحداته جميعا على هيئة القتال . وكان قيام الخط الاول بهذه الحركة بناء على « واحد الى اليسار للقتال » والخطين الثانى والثالث بناء على تعديل فى الاتجاه بواسطة الجانب الايمن والاورط لمواجهة واجهة العدو والفرسان بناء على تغيير الاتجاه الي اليسار بواسطة آلاياتهم جميعا . وكانت مدفعية الخط الاول (وهى تسع بطريات) تزحف على بعد ٥٠٠ خطوة من الجانب الايسر للصفوف الاولي فاطلقت مدافعها بينما كان الخط الاول يقوم بحركة « الى اليسار للقتال » وكان اربع بطريات تزحف مع الالايات الستة للفرسان فى مقدمة الصفوف واربع فى مؤخرتها . اما البطريات الاحتياطية العشر فكانت تزحف على مسافة ٣٠٠ خطوة من الجانب الخارجي للخط الثالث

وبينما كان الجيش ينفذ هذه الحركات المختلفة بودر بنصب بطرية من العيار الكبير على الاكمة المستديرة التى كانت لاهميتها كمفتاح لساحة القتال . وقد احس الاتراك بعد فوات الوقت بما لهذا الموقع من المزايا الخطيرة فاطلقوا مدافعهم ولكن هذا الاطلاق لم يمنعنا من تعيين موقع البطرية وارشاد المدفعيين الى النقطة التي يجب تحرير الضرب نحوها ونزل سليمان باشا بعد ذلك الي الميمنة فامر المدفعية بالزحف مع الضرب وعزز هذا الهجوم بألاى من مشاة الجناح الايمن والخط الاول وأرسل ألايان من المشاة وأربعة من الفرسان الى طرف الميمنة لحماية هذه الحركة واطلقت فى الآن نفسه نار البنادق والمدافع من كل جهة ماعدا القلب والميسرة اللذين كان مقررا عليهما الامساك عن الهجوم الا بامر خاص. وبدت فى ابان الامر بوادر التردد والارتياب ولكن لم تلبث الفرسان والمشاة والمدفعية ان عادت بهمة الي اقصى الميمنة وثبتنا ثباتا حسنا فى الميمنة حتى ألزمنا الميسرة العثمانية بالانسحاب . واغتنمنا فرصة تقهقرها لدفع جناحنا الايمن برمته الى الامام وصدرت الاوامر الي القلب والميسرة بالسير نحو خط النار والبدء بضرب المدافع والبنادق معا

ولما لم يطق الجيش التركى تلقى هذه الهجمات المتتابعة التى نفذت باجماع تام وتطابق محكم من جميع وحدات الجيش المصرى انسحب الى معسكره القديم فاقتفينا أثره فيه بمدفعية الخطين الاول والثانى من المشاة واتخذ الخط الثالث الاحتياطى للمشاة والمدفعية مراكز لهما على الربوات والقمم المتوجة لموقع المعسكر العثمانى واصبحت هزيمة العثمانيين على اثر هذه المناورات تامة عامة وقد غنمنا من معسكر العدو ١٤٤ مدفعا بصناديق ذخائرها و ٣٥ مدفعا كبيرا في حصون (بلجك) التى كان الاتراك قد اخلوها وجميع الخيام من خيمة حافظ باشا الى خيمة اصغر جندى ونحو ١٨٠٠٠ الي ٢٠٠٠٠ بندقة واخذنا ١٢٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ اسير ارسلوا فى الحال الي الاماكن التى اختاروا الذهاب اليها سواء فى تركيا او البلاد والاملاك التابعة لمحمد على باشا

الباب الثاني عشر

الشرق والغرب

من سنة ١٨٤١ الى سنة ١٨٤٧

لم تضع اويقات السلام التى تخللت الحروب المصرية باطلا. ففى المدة بين الحملتين المصريتين على الشام أدخلت اصلاحات نافعة وتنسيقات مهمة كانت البلاد فى أشد الحاجة اليها . وكانت العناية بالصحة العامة فى مقدمة مااختلج به خاطر مؤسس الأسرة العلوية وانصرفت اليه جهوده من وجوه الاصلاح، حتى خيل للمتأملين أنه قصدها الى تعويض ماخسرته مصر بالأمس فى حروب لاتبقي على الأنفس والأموال . فمن ذلك انه أدخل التطعيم بالجدرى وهو من أجل مستكشفات العلم واعمها فائدة لأنه خير وقاية من هذا الداء. وقد عانى الأمرّين فى حمل الجمهور على قبوله لجهله واعتقاده أنه حيلة تذرع الباشا بها لتجنيد الشبيبة يعزز بها ملكه ويمد بيته . وأنشأ التكايا للمعوزين والمنقطعين من غير العسكريين. وأقام بالاسكندرية على مثال دار العجزة

وذوى العاهات (اوتيل ديزنفاليد) ملجأ وطنيا لأيواء العجزة العسكريين . وأقام بالاسكندرية الحجر الصحى على السفن الواردة من البلاد الموبوءة (اللازاريته) وألف المجلس الصحي للقيام على الشؤون الصحية فى القطر كله . وجعل من الارض اليباب غابات ذات اشجار باسقة فقد كان هناك فسيح من الارض تربو مساحته على الستة عشر مليونا ذراعا لا أثر فيه للطراوة فغرس الاشجار فيه فصفا جوه وسدت الحاجة الى الاخشاب .

ولم تكن عنايته بهذا أقل منها بالزراعة والتجارة فقد كان أول ماطمحت اليه آماله من المنافع العامة خزن ماء النيل بانشاء القناطر عليه وحفر الترعة بين البحرين الاحمر والابيض المتوسط ومد السكة الحديدية بين السويس والنيل وشق القاهرة بشارع عظيم بين القلعة والازبكية وانشاء مصرف بسندات قيمتها الكلية مائة الف كيس . أما المدة التى تلت الحرب الثانية بين مصر وتركيا فقد كانت مظهرا لكسر قيود الصناعة والزراعة وتنظيم الادارة على نسق البساطة والاختصار وايجاد قسم لهندسة القناطر والجسور وفرقة من الاطباء الوطنيين لتنظيم المصالح الصحية على وجه صار العلاج معه يعطي بالمجان للطبقات الفقيرة .

وما برحت الجهود منصرفة فى الوقت الذى نخط فيه هذه

الاسطر لانجاز مشروع جليل جزيل النفع لا ينتظر ان يكلف خزينة الباشا أقل من خمسين الف كيس سنويا ألا وهو المشروع الذى يرمي الى إعادة بناء القرى الريفية على أصول وشروط تتوافر معها أسباب الهناء والصحة فى المعيشة

وقد نيطت بالمستقبل جملة صالحة من الاصلاحات النافعة فلقد جاء الى فرنسا بكرى ابناء محمد على باشا للبحث فى نواميس الرقي ودرس قواعد الاتقان بالروية والامعان فترجمت له الصفحات التى رام الاطلاع على ماتحتويه من أسرار العرفان . وروعى أثناء ذلك فى جانبه مااشتهر به شعبنا القوى الكريم من واجب المجاملة والمؤانسة . وعرض على مشهد منه جيش مؤلف من ٣٠٠٠٠ جندى في ساحة لاتتجاوز مساحتها ٩٠٠٠٠ متر فأدى هذا الجيش حركاته على مايرام وشهد وطنينا الشهير معلم الجنود المصرية ومدربها بدقة هذه الحركات وسرعتها التى نقل اسرارها الى ضفاف النيل . ومن المجمع عليه أنه منذ نابليون حتى الآن لم تشهد ساحة (شاندمارس) التي جرى فيها ذلك العرض حفلة ابدع من التى شهدها ابراهيم . وكان ممن شهدوا هذا الاحتفال العظيم ثمانية امراء وست أميرات . ولبست الطبيعة فى ذلك اليوم أبهى حللها وبدت الشمس ناصعة فى كبد السماء

كأنها تحيي بطل نصيبين القاهر للعدو فيها ، فكان يوم ٢٥ مايو أجمل يوم من أجمل شهر فى أجمل فصل من فصول سنة ١٨٤٦

وكان ابراهيم باشا عادى القامة يلقى هيبته فى النفوس بصدره الرحب وأعضائه الشثنة وعينيه الرماديتين المفصحتين عما يكن ضميره ووجهه المستطيل الذى يشام منه خلق الجد . على أنه فى ساعات مرحه وبسطه كان يرتسم على شفتيه وفى عينيه مايخامر فؤاده من بواعث السرور حتى كان يخيل لناظره أن كل شيء فيه يضحك وان ينابيع الابتهاج من فؤاده تتفجر . وقد وصفه واصف فيما يلى مشيرا الى ميوله الفطرية وما تؤثره نفسه من الخصائص والصفات حيث قال: «لم ير الغرب جنديا يضارع ابراهيم فى البسالة والكرم بل لم ير بطلا خلق للنصر مثله . يميل بفطرته الى الحرب فاذا نزل فى حومة الوغي عرف كيف يباشر القتال ولو انفتحت ابواب العالم لوصل الى منتهاه . وهو من سلالة أولئك الابطال الذين لايقفون في ساحة الحرب إلا اذا جندلتهم المنون فمثله كمثل الاسكندر الاكبر وجنكيز خان» وشجاعة ابراهيم شجاعة دفاقة فياضة . كانت اذا ساقته نحو العدو وواجهته به لاتكسر لها شكيمة ولا يكبح جماح . وكانت تتجلى للانظار وتحرش بالجماعات وتستفز الجماهير والشيع

وتحصد الرؤوس ولا يغرها بالنصر الغرور . وكانت اكاليل الغار لاتحجب عنها ماقد يقترن الفوز به من الاحزان والمحن فلقد أرسل الى قائد قواد الجيش العثمانى قبل الواقعة الأخيرة بأسابيع الرسالة الآتية التى يخيل لقارئها انها تصنيف فيلسوف حكيم. قال:
«لقد وطأت بقدميك حدودنا وعثت فسادا في القرى التابعة لنا ولم ترع لها حرمة وأطلقت نارك على نقطتنا الامامية ! أفكان هذا بأمر جلالة السلطان ؟ إذا صح هذا فقد وجب عليّ ان أوافى والدى بحقيقة الواقع..أم أنت تعمل كوالى اقليم او زعيم جيش ؟ انى أطالبك بتعليل فعالك التى لم يكن لها من ناحيتنا مسوغ. لقد احترمنا حدود حكومتك وما خسنا قط فى يميننا ولا نقضنا عهدنا . لذا أحب ان أعتقد أيها القائد انك لم تقصد ارهابى وان كل ماوقع سوء تفاهم نجم عن ظروف وأحوال تجعل الاسلام فى أحرج المواقف . ولم يكن الوقت ملائما لما أتيتموه من الأعمال التى لا يبعد ان تقف بصاحب الشوكة مولانا السلطان وصاحب السمو والدى فى سبيل المدنية التى أخذا بيد أقوامهما فيها اذا ظلت الحرب مضطرمة بينهما . إن الحرب التى تخيف الشعوب وتبيد الامم بلا فائدة تقضى حتما بوقوفنا فى طريق التقدم والفلاح .ولا وسيلة الى تحقيق المقاصد التى حققها السلف

سوى الاتحاد فى ظلال الاسلام والاجتهاد »

ويتكلم ابراهيم باشا اللغات التركية والعربية والفارسية بدرجة واحدة من السهولة والفصاحة ويلم إلماما تاما بتواريخ أمم الشرق. وقد نقل كتاب (تاريخ نابوليون امبراطور فرنسا) الى التركية فى مجموعة أسماها (دفينى اسرار حكامى أوربا) اى (كنز أسرار حكام أروبا) . وله نظرة اذا أرسلها الى الجندى المصرى سحره بها حتى ليكفى ان يذكر اسمه أمامه لتراه وقد تلهب غيرة وحماسا وبسالة وإقداما . وما بلغ السادسة عشرة من عمره حتى قلده والده ولاية بعض البلاد فكانت مباشرته للاحكام والادارة فى مقتبل العمر باعثة على تنمية الخبرة المبنية على التجارب فى نفسه وهو شديد العناية بالزراعة وشعاره فيها كلمة مأثورة عن مراد بك الزعيم المشهور وهى : « اذا طلبت فى مصر الذهب فانبش وجه الارض » وبمثل هذه المبادىء الحكيمة والخطط القويمة ستظل التقاليد التى رسمها والده مصونة خصوصا إذا لوحظ احترامه وحبه العظيمين له . ولقد أيدت الحوادث امتلاء فؤاده بهاتين العاطفتين فان ابراهيم باشا مع احرازه لمراتب الباشوية والوزارة والامارة على مكة ومع كونه والد ثلاثة أبناء يتنازل عن ذاتيته في مجلس والده ويمحو كل أثر لخطورة مكانته ويلثم يده كلما أقبل

عليه . ولا يأخذ مكانه من المجلس إلا اذا أمره به ولا يدخن على مرأى منه مالم يبح له التدخين

أما محمد على باشا فأنه يقابل هذا التوقير بتوقير مثله ولا يتخذ سمو مركزه ذريعة للغض من كرامة الغير وإذ كان نظام الالقاب وترتيبها فى الدولة العثمانية يجعلان لابراهيم باشا باعتبار كونه أمير الحرمين الشريفين على رأس باشوات الدولة جميعا ويفرضان على هؤلاء اذا أقبل عليهم الوقوف إجلالا له واكبارا فان محمداً عليا باشا كان اذا أقبل عليه ولده انتظر واقفا تعظيما لرتبته وان يكن مكان أبوته منه وكونه صاحب الولاية على مصر يجيزان له اللبث في مكانه. وقد أذن له بالسير معه فى الحفلات العامة والتشريفات الرسمية على صف واحد معتدل . هذا مانقله الينا العارفون بماجريات البلاط المصرى الأميرى والمترددون عليه ،ومنه يؤخذ ان أطوع الناس لوالى مصر إنما هو ابراهيم باشا عماد ملكه وقوام عرشه وذراعه اليمنى ورأسه المفكر

وقد استندت فرنسا فى استقبال ابراهيم باشا والحفاوة به على الالقاب والاسباب التى سردناها الآن ورغبته الاكيدة فى ان تقترن خطواته عندنا بخطوات رجل من أبناء فرنسا ويعيد الينا ليقيم بين ظهرانينا بضعة أشهر ذلك الابن الضال الذى

غاب عن وطنه نحو ثلاثين عاما تباعا . ارتحل هذا الابن من بلادنا وهو برتبة الملازم او اليوزباشى فعاد الينا قائدا كبيرا وأميرا عظيما فهل في قدرتنا بعد هذا ان نقابله بوجه عبوس قمطرير وهو ذلك الذى اذا سلك فى مصر طريقا وجب على السابلة الاحتشاد له فيه ثم الانزواء فى عطفيه حتى يتم له المرور فى سلام وأمان؟

لقد أقام (سيف) منذ اعتنق الاسلام أدلة جديدة على شجاعته وعرفانه وانسانيته فى بلاد اليونان ثم فى حمص وبيلان وقونيا ونصيبين . وما من جهة قصد اليها لمصلحة والى مصر إلا وحقق فيها معنى الجملة الآتية التى كثيرا ما كانت ترد على لسانه: « أحببت فى حياتى ثلاثة رجال وجعلت حبى لهم فوق كل حب والدى ونابليون ومحمد على . ولقد مات الاول والثانى وبقى حبى البنوى منحصرا اليوم فى محمد على » . وليس بغريب بعد هذا اذا قال محمد على باشا لضابط من ضباط جيشه : « لقد خرج سليمان من صلبى فهو ولد من اولادى وهو لن يبرح مصر الا اذا برحها محمد على نفسه » .

وقد جمع محمد على باشا الى عاطفة الميل والحب هبة العقل والذكاء فهو سرعان مايميز بين الصديق الحميم والصديق المخاتل. وقد خص بالحجى الوافر والعارضة الشديدة والخاطر السريع

والرأى الصائب والفكر الثاقب اذا رمى بشعاع بصره أصاب مكنون سرك وخفى ضميرك . ومن أحب الأمور اليه قضاء بعض الفراغ من وقته في الحديث مع الاروبيين لولعه باستطلاع آرائهم ولعلمه بما ذاع بينهم من شهرته . اذا نظرت اليه واقفا رأيته كالألف فى اعتدالها واستقامتها بالرغم من بلوغه الى الثامنة والسبعين من عمره . وهو فى أسرته يميل الى بساطة العيش وشظفه ويغتبط بعطفه على جميع أبنائه الذين نذكرهم فيما يلى ماعدا ابنة ولدت فى مستهل القرن التاسع عشر وهى الآن أيم المرحوم محمد بك الدفتر دار وابنة أخرى ولدت عام ١٨٢٤ وهاهم:

ابراهيم باشا قائد قواد القوى البرية ولد سنة ١٧٨٩ - سعيد باشا قومندان الاسطول ولد سنة ١٨٢٢ — حسين بك ولد سنة ١٨٢٥ — حليم بك ولد سنة ١٨٢٦ — على بك ولد سنة ١٨٢٩ — اسكندر بك ولد سنة ١٨٣١ — محمد على بك ولد سنة ١٨٣٣

ويتلوهم احفاده وهم : عباس باشا بن طوسن باشا ولد سنة ١٨١٤ — احمد بك بن ابراهيم باشا ولد سنة ١٨٢٥ — اسماعيل بك اخو السابق ولد سنة ١٨٢٨ - مصطفي بك اخو السابقين ولد سنة ١٨٣٢

وعادة محمد على باشا ان لاينام ليلا اكثر من خمس ساعات

وأن يستيقظ فجرا فيقضى النهار كله فى عمل متواصل وله خبرة تامة بالرياضيات مع أنه لم يدرسها في الكتب وجل بحثه ومناظرته فى أمجد حوادث الملوك وتواريخهم وهو اذا سار بدت على خطواته آثار المشية العسكرية واذا طلب الرياضة في حجرته سار فيها مرحا جامعا يديه خلف ظهره كما كان يفعل نابوليون وهو كنابليون شغوف بالسذاجة فى المعيشة واللباس حريص على آداب المعاشرة وكنابليون صار من لاشيء كل شيء وكنابوليون نهض من بيئته فأيد بالسيف مركزه وكنابوليون خلد سيرته على ممر الايام بالأنظمة الجليلة والآثار الخالدة

ولقد لبث بونابرته عهدا طويلا يمنى نفسه بأن يعيد الى مصر مجدها القديم وعزها السامق السابق ويعللها بقلب المشرق رأسا على عقب وبالاستواء تحت سماء فرنسا على عرش ثابت اذ كثيرا ما كان يقول : « فى الشرق وحده يرجى إحراز المجد والصيت البعيد » ولكن الجمهورية الفرنسية أيدت له عكس ماتمناه وذهب اليه كما اثبتت له الامبراطورية الفرنسية اضعاف اضعاف ماأيدته الجمهورية . على أنه كان لايكف مع هذا عن قوله : « الولايات العثمانية التى يتكلم أهلها بالعربية فى حاجة الى انقلاب عظيم وهي تنتظر رجلا يقضى لها هذه الحاجة ، وانما

محمد على باشا هو هذا الرجل» وقد كان جان جاك يقول : «هل أتى واحد من اهل زمانى بما استطعته ؟ »ونحن نقول هل هناك سوى محمد على باشا من يستطيع ان يقول — هل فعل أحد لمصر ما فعلته بعد الله والنيل ؟ —»

زار ابراهيم باشا اثناء رحلته بفرنسا فيما زاره من منشآتها الوطنية دار الضرب الباريسية . فضربت بحضوره مدالية فاذا بها تمثل صورة محمد على باشا وقد كتب تحتها بالفرنسية (محمد على مجدد مصر) وفى يوليو سنة ١٨٤٥ كان الدوق (دى مونبنسييه) فى رحلة على ضفاف النيل فقوبل من المعية المصرية بالحفاوة والاكرام فلما كان مايو سنة ١٨٤٦ لزم هذا الدوق ابراهيم باشا ومن كانوا معه أثناء زيارته فرنسا ملازمة الظل للشبح واقترح عليهم تفقد ساحة المناورات فى (سانمور) فحضر ابراهيم باشا الى الساحة فى المركبة الملوكية وبمعيته الدوق (دى نيمور) والبرنس (دى جوانفيل) وقدم اليه جواد ليمتطيه أثناء التفقد فامتطاه خافق الفؤاد فاذا به الجواد الكريم الذى ركبه يوم ربح واقعة نصيبين وكان محمد على باشا قد أهداه فى سنة ١٨٤١ الى ملك فرنسا مع تسعة جياد غيره ولما عرض ابراهيم باشا فى ذلك اليوم ذوى العاهات (الانفاليد) وعددهم ٢٥٠٠ متقلدين سلاحهم جعل منظمو هذه الحفلة من

كانوا منهم ضمن الحملة الفرنسية بمصر فى مكان على حدة . وما من حفلة غنائية أو موسيقية او وليمة أو احتفال اقامه الوزراء او رجال الحكومة إلا ووجه كرسى الشرف فيه نحو الشرق ليجلس عليه ابراهيم الظافر . وكان بروجرام الادوار الموسيقية والغنائيه يذكر السامع بالانغام الشرقية

وكان ابراهيم قد أقام ستة أسابيع فى (توسكانا) قبل ان يقصد الى فرنسا فاستقبله بها الغرندوق حاكم هذه الجهة بمظاهر التعظيم والتكريم . ودعته الملكة فكتوريا فى هذه الاثناء بخطاب رسمى الى زيارة بريطانيا العظمى فلم يسعه إلا إجابة دعوتها وكانت هذه الدولة قد اعترفت بحقوقه فى الوراثة الشرعية على عرش مصر . ولما برح باريس الى الجزر البريطانية تبرع باثنى عشر الف فرنك لفقراء هذه المدينة . ومرّ فى سفره بعد زيارة هذه الجزر ببلاد البرتقال فقلده ملكها وملكتها وسام البرج والسيف من درجة الصليب الاكبر وكان قد قلد في فرنسا وسام اللجيون دونور من الدرجة الاولى. ومن البرتغال أبحر الى وادى النيل

وكان والى مصر فى هذه الاثناء قد قصد الى الآستانة ونزل بها ولما وصل الى رودس أهدى السلطان عبد المجيد اليه أجود ثمار حديقة السراى السلطانية وعند ماوصل الى دار الخلافه

وتوجه الى القصر السلطانى تلقاه السلطان واقفا عند مدخل البهو وصافحه محييا. وكان جلوس السلطان على العرش بعد ان أدرجت العداوة بين مصر وتركيا فى كفن السلطان محمود فكان استقباله أقدم صدور الدولة بمثل تلك الرعاية من اقوم خططه وأحكمها وأجدرها بالاستحسان والشكر. وقد قدم جلالته اليه جملة طيبة من نفيس الهدايا فقدم محمد على اليه أعلى منها وأغلى. وكتب الى" من الآستانه بتاريخ ١٥ اغسطس ١٨٤٦: «يبرح صاحب السمو محمد على باشا بعد غد ضفاف البسفور. وقد كانت مدة اقامته مصدر خير واحسان وينبوعا غزيرا لأعمال البر" فقد كان يرد اليه فى اليوم من مائتين الى ثلاثمائة التماس فلم يخيب رجاء أحد من اصحابها وبلغ ما أنفقه مدة اقامته بين هدايا وصدقات ٥٠ مليون قرش. ولشدة حرصه على الآثار القديمة أبى إلا أن يبقى منزل آبائه فى (قوله) كما هو وقد مر بهذه المدينة فأنشأ بها مدرسة وزار قبور عائلته ثم عاد الى مقر حكومته.

ومن غرائب الاتفاق أن السلطان عبد المجيد قام بجولات كثيرة فى بلاده رمى بها الى المقاصد الخيرية والاغراض الدالة على حب الحرية والتسامح ودعا فيها الامة الى الوئام والاتحاد ووقف بنفسه على حاجاتها. وكان شأنه فى جولاته شأن محمد على باشا

وابراهيم باشا من حيث ان هؤلاء الثلاثة لقوا من مظاهر الاجلال والتكريم مانقش في صدورهم بحروف لا تمحى ذكرى جلال الاستقبال الذى قام به الرعايا لاعتقادهم فى اولياء امورهم الميل الى ادخال الاصلاحات النافعة وازالة آثار الفساد من بينهم ومعاقبة المسىء منهم ومكافأة المحسن

ولو اتيح لنا الاعراب عن أمنية نكمل بها هذه الصفحات لطلبنا للاجتماع المصرى الحالى المشيد الصرح على العبقرية المعززة بالنصر وجوها للاصلاح فى نظامى الضرائب والتجنيد تتمشى مع مبدأ التسامح وعلى قاعدة الاتساق والترتيب وتمنينا مع ماتقدم : استئناف اعمال التاريخ ووضع مكافآت للتشجيع على الاستكشافات الصناعية وزيادة عدد المدارس الكلية فى المدن والمدارس الابتدائية فى القرى وتعريب الكتب الابتدائية فى العلم والتاريخ وطبعها وانشاء مجموعات مختلفة وفتح دور الكتب للجميع ونشر مجموعة دورية باللغتين التركية والعربية ومجموعة اخرى باللغة الفرنسية يكون الغرض منها التقريب الفكرى بين مواطنينا فى القطر الفرنسى وبينهم فى مصر وتعويد الوطنيين من المصريين لغتنا وتوثيق روابط الألفة بينهم وبيننا وانشاء مرصد ومدرسة خاصة بفنون الرسم والنقش ومتحف لضم التحف والملح

النفيسه ومجلس (ديوان) وطني للنظر في الشكاوى وسن القوانين المدنية وسن قانون اساسي وتأليف مجلس محلفين وإلغاء النخاسة وابطال الخصيان في الحرم

عرف الشعب المصرى بالثروة فى تجارته والقوة بسلاحه والقناعة فى غذائه وشرابه ولباسه والطاعة لرؤسائه ثم بالصبر المفضى الى النتائج الكبيرة فلا غرابة اذا استطاع بهذه الصفات الجليلة أن يبذر الصحراء بما يثمر العجائب والمعجزات . وان له من إرادته القوية لأداة عاملة قاطعة ومن الزمن لمعينا أمينا .

سمعنا منذ اشهر صوتا فصيحا يقول: «ان آخر عامل وضع حجرا فى أساس الهرم قام بعمل جليل لم تعد عليه حتى الآن عوادى الدهر وأنه اذا كان الحجر الذى وضعه لا يحمل اسمه فأنه يرفع الى السموات العلي شيئا أجل واسمى ، ألا وهو الخلود لمصر» فليفض النور على رجال الماضى وليفض على رجال المستقبل فان الشجرة التى غرسوا غراسها لن تنثنى ، تلك الشجرة التى قال حسين خوجه إن ثمارها تنحصر فى كلمتين يعذب للاذن سماعهما : السلام فى السعادة . اه



